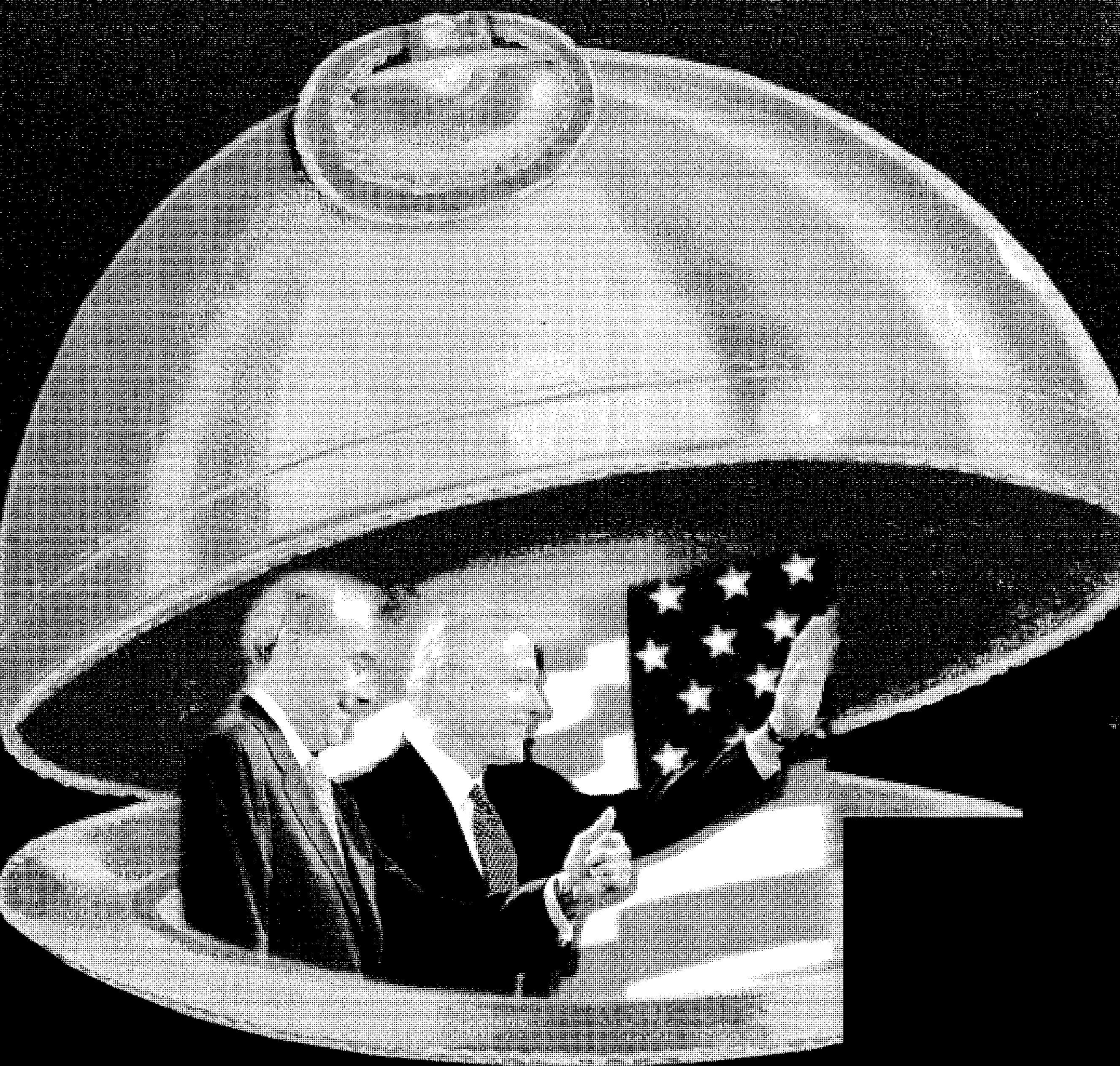
الفوز بالرّئاسة في التسعينيات

للنشر والطباعة والتوزيع

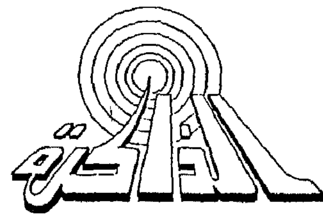
خلف كواليس الحكم في البيت الأبيض



تأليف : ديك موريس

(كبير المخططين للرئيس كلنتون)

تعريب : محمد جميل قصاص



للنشر والطباعة والتوزيع

بيروت ـ لبنان ـ الغبيري ـ مستديرة المطار

هاتف: 282414 - 305629

الفوز بالرئاسة في الثمينيات

الآراء الواردة في كتب الدّار تعبّر عن
فكـــــر مؤلفيهـــــا
ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الـدّار

الطبعة الأولى - 1997

الفوز بالرئاسة في التسعينات

خلف كواليس الحكم في البيت الأبيض

تأليف : ديك موريس

(كبير المخططين للرئيس كلينتون)

تعريب : محمد جميل قصّاص

الإهـداء

إلى إيلين ماك غان ..
وإيوجين موريس

لو أنك تستطيـــع أن تواجـــه الـــنصر
كما تواجه الهزيمة ..
وأن تتعامل مع أحـد هذيـن المحتـــالين
بنفس الطريقة التي تتعامل بها مع الأخر

———— « روديارد كيبلينغ »

مقدمة المعرب

القراءة بين السطور

هل للمترجم أن يضع مقدمة لمترجماته؟ أم أن دوره ينتهي بنقل النص من لغةٍ إلى أخرى، كأية آلةِ تسجيل صماء، تاركاً للقارئ أن يفهم ويستنتج، دون تدخلٍ من أيٍّ نوع، بمقدمةٍ أو بحاشيةٍ أو بتعليقٍ بين قوسين؟

مرة أخرى أجدني أمام سؤالٍ محيّر، تتباين فيه الإجابات، وتتعدد منه المواقف، وتتعارض حوله الأقوالُ. ومرة أخرى أميل إلى أن للمترجم دوراً توضيحياً، في الإشارة والتنبيه إلى ما قد يخفى من معانٍ بين السطور، ومقاصد خلف السطور، ومرامٍ من استخدام مفرداتٍ بعينها، وصورٍ بعينها، توحي بما لا يريد مؤلف النص الأصلي أن يقوله صراحة.

ولا يكتمل هذا الدور، كما أراه، إلا إذا مزج المترجم في ترجمته بين مدرسة الظاهر عند ابن حزم، ومدرسة الباطن عند الجرجاني، ووفق بين الترجمة باللفظ والترجمة بالتأويل، ملتزماً الدقة في ترجمة اللفظ، ومراعياً الأسلوب والفكر عند أهل اللغة التي ينقل منها. ومثيليهما عند أهل اللغة التي ينقل إليها.

وإذا كانت الحاجة إلى هذا كله قليلةً أو معدومةً في كتب العلوم الطبيعية كالهندسة والرياضيات والفيزياء، فهي كبيرةٌ وأساسيةٌ في كتب العلوم الإنسانية كالسياسة والاجتماع والأديان. وإذا كانت الدقة ليست ضرورةً لازمةً في ترجمة ألفاظٍ مثل: باب، سقف، شجرة، سيارة، فهي ضرورةٌ ملحةٌ في ترجمة ألفاظٍ مثل: وحي. وضوء، سياسة، ديموقراطية.

والطريف الملفت للنظر أن أكثر المعاجم لا تساعدنا أبداً على تحقيق شرط الدقة هذا، لاعتماد أصحابها على قاعدتي، الترادف والتقريب، ومعهما تنعدم الفروق التي تتميز بها الألفاظ. فأفعال: ترك، غادر، بارح في معاجم اللغة

الإنكليزية مثلاً، مترادفات بمعنى واحد، رغم أن في المغادرة تحديداً للزمن هو الغدوُّ، وفي المبارحة تحديداً للزمن هو الأمس. والوضوء هو ABLUTION والوحي هو REVELATION أو INSPIRATION، والسياسة هي POLICY أو POLITICS. وهذا تقريبٌ غير دقيق لمعنى اللفظ العربي، بعيدٌ حيناً، كما في الوحي والوضوء، ناقص حيناً، كمّا في السياسة.

الوحي في العربية، معرفةٌ يقينيةٌ إلهيةٌ، تأتي من أعلى إلى أسفل، ومن الخارج إلى الداخل، أما مقابلها المعجمي فهو معرفةٌ كشفيةٌ صوفيةٌ إلهاميةٌ، علاقتها با لله غامضةٌ، تنبع من الداخل إلى الخارج، وشتانَ ما بين اللفظ العربي ومقابله المعجمي الإنكليزي. والوضوء في العربية، عملية تنظيفٍ فعلي للأعضاء، لا بد منها لإقامة الصلاة، أما مقابله التقريبي في معاجم الإنكليزية فيعني التبرك، بغمس أطراف الأصابع في الماء المقدس بجرنٍ على باب الكنيسة، والفرق بين اللفظين بعيد. والسياسة في اللسان العربي تعني أمرين أصليين: سياسة الخيل، ومنه مجازاً سياسة الرعية وسياسة الأمور، والطبع والسجية والمنهج. أما مقابلهما تقريباً فنجد POLITICS و POLICY، لكن المعاجم تترجمهما للعربية «سياسة»، دون أن تشير إلى الفرق بينهما. فالكرم، مثلاً، طبعٌ منهجيٌ عند العربي POLICY، يحكم ممارساته وسلوكياته في إشعال النار ليلاً على بابه، وفي ذبح فرسه للضيوف إن لم يجد ما يطعمهم POLITICS.

هل ترانا بعد هذا كله بحاجةٍ إلى معاجم جديدةٍ، تعيد النظر في منطلقاتها الترادفية وقواعدها التقريبية؟

للمترجم دور، وللترجمة بمدارسها دور، وللمعاجم بدقتها دور، لا يهمني هنا كثيراً بحثه بالتفصيل بقدر ما يهمني وصول النصوص مترجمة إلى القارئ بشكل واضح مفهوم، يستطيع معه بعد قراءتها أن يفهم كيف يفكر أصحابها، وما هو المنهج الذي يحكم توجهاتهم في الممارسة والسلوك.

ومن هنا، أرى أن للقارئ دوراً لا يجوز أن ننساه، أبرز جوانبه هو أن يقرأ. ولا أعني ـ بالتأكيد ـ فك الخط ومعرفة ما ترمز إليه صور الحروف والأرقام، فتلك مهمة مراكز محو الأمية، بل أعني ـ بالتأكيد ـ القراءة بكل ما تحمل من

معاني الفهم والإدراك، والتحليل والتركيب، والربط والاستنتاج، والملاحظة والمتابعة. ما أعنيه هو قراءة الكيف لا قراءة الكم، وما أعنيه هو توظيف ما نقرأ لصالح عملية الاستنتاج والاستقراء، لفهم ما بين السطور.

تقول الأرقام الإحصائية أننا لا نقرأ. ويقول المؤلفون ودور النشر أننا لا نشتري الكتب، وأن المحطات الفضائية وبنوك المعلومات والأنترنيت قضت على الكتاب، أو أسهمت على الأقل في ذلك. ونبتسم نحن.

أما الإحصاءات والاستبيانات بأرقامها الملغومة وأسئلتها المنتقاة الموجهة ونتائجها المرتبة المطبوخة، فليست حجة أولاً في تصوير الحقائق حين تربط المعرفة بالأمية، وبالقراءة والكتابة وفك الخط، رغم ما لهذه الناحية من أثر هام في العملية التعليمية. وليست حجة ثانياً حين تتحول إلى دعاية إعلامية، أو إلى لعبة سياسية، والأمثلة كثيرة.

فقبل العدوان الإسرائيلي عام ١٩٦٧، ارتكب موشي دايان خطأ عسكرياً خطيراً، فسرّب إلى الصحافة معلومات نشرتها عن مخططات العدوان. وحين سئل عن ذلك قال: العرب لا يقرأون. ورغم أن الإجابة دعاية إعلامية سخيفة ومضحكة، لا وزن لها في المعايير الأمنية والاستراتيجية العسكرية، إلا أن كثيرين اقتنعوا بها، وهذا ما يضحك أكثر. إذ لو أن بحاراً عادياً في الأسطول الياباني، فعل ما فعله ذلك القائد اللامبالي، لشنقه رفاقه على أقرب صاري من السفينة.

الصين والحشيش وحرب الأفيون، وربط إدمان المخدرات بالفقر والجهل، لعبة إعلامية سياسية أخرى، تساهم أرقام الإحصاءات المطبوخة كثيراً في ترسيخها، خصوصاً حين نعلم ــ والفضل لديك موريس مؤلف هذا الكتاب ــ أن طلاب المدارس في الولايات المتحدة يستهلكون أضعاف ما تستهلكه الصين من المخدرات، إذا أخذنا بعين الاعتبار الفرق بين الخشخاش والهيرويين. وحين نعلم أيضاً أن المسألة التعليمية في الولايات المتحدة أصبحت متردية، إلى الحد الذي صار معه المرشح للرئاسة هناك يعلن على الناخبين في

برنامجه، أنهم إن انتخبوه فسيعمل على جعل الأطفال في الصف الثالث يقرأون ويكتبون !!

هذا عن الأرقام الإحصائية. وأما عن الانترنيت وبنوك المعلومات وأثرها على الكتاب وانصراف الناس عن شرائه، فلقد سمعنا مثل هذا القول منذ خمسين عاماً حين دخل الراديو في حياتنا، ثم منذ ثلاثين عاماً حين دخلها التلفزيون، ثم منذ عشر سنوات حين تربعت الأقمار الصناعية في سمائنا الأولى، ومع ذلك بقي الكتاب. وسيبقى لو أن المؤلفين أعطونا كتباً جديرة، ولو أن المترجمين انتقوا لنا عناوين مفيدة. سيبقى الكتاب لو فرق أصحاب الشأن بين شراء الكتاب ... وقراءته. وسيبقى لو تقلص الهامش - ولا نقول تلاشى - بين سعر الكلفة وسعر الغلاف، خصوصاً حين نعرف أن كلفة كتاب بالأسود والأبيض من ٢٥٠ صفحة لا تتجاوز الدولارين اليوم.

كثيرة هي المصطلحات التي يطرحها مؤلف الكتاب، وعديدة هي المسائل التي يعرض لها في فصوله العشرين، وهو يحاول أن يدخل التاريخ، كما يقول، كصانع ملوك أو كصانع رؤساء، مما يذكرنا بجوزيف باليرمو وسكاراموش، رغم أنه ليس مؤلفاً محترفاً، وكتابه هذا يكاد يكون الوحيد. فما هي حرفته إذن ؟

إنه ببساطة «طبَّاخ» انتخابات غير عادي، لا يطبخ فقط ما يقدمه إليه زبائنه من مواد أولية، بل يساهم أيضاً في خلق المواد التي يطبخها، لقاء أجر معلوم يتفق عليه. إنه ببساطة يرسم للمرشح الذي يدفع أكثر، طريق الفوز بالمنصب المطلوب. سواء أكان المرشح جمهورياً أم ديموقراطياً، ليبرالياً أم محافظاً، وسواء أكان اسمه بيل كلينتون أم شمعون بيريز أم بوريس يالتسين. وسواء أكان المنصب رئاسة البلاد أم عضوية مجلس طلاب في مدرسة إعدادية.

وحين يتحدد أساس الطبع والسجية والمنهج (POLICY) عند امرئ، تتضح الممارسات والسلوكيات الإجرائية (POLITICS) لديه، وتصبح مفهومة ومبررة.

ومن هنا نفهم من أين وصل ديك موريس، العصفور الجاثم على كتف بيل كلينتون، إلى إدراك أثر الإعلام في تغيير الآراء، وأُثر الإعلانات على صياغة وإعادة صياغة السياسات الأمريكية. ومن أين ولماذا وضع تعريفاً فريداً للسياسة بقوله «ليست السياسة أن تفهم كيف تسير الأمور، بل أن ترسم لها الطريق الذي تسير فيه». ونفهم ضرورة أن يتقن الطباخ جوانب عمله كلها. من دعاية وإعلان وصحافة وتلفزيون وعلم نفس جماهيري، وأن يصل في إتقانه إلى درجة من الدقة ينتقي معها ألوان الصورة ومفردات النص، وربطة عنق المرشح.

ثمة جانب إضافي لفت المؤلف أنظارنا إليه، على غير قصد منه، هو أن المرشح نفسه جزء من عملية الطبخ، وقد يحتاج الأمر أحياناً، كما في حالة موريس وكلينتون، إلى التدخل في تركيبة المرشح لتوضيبه، كي تأتي الطبخة متجانسة تسير في طريقها المرسوم، وهذا ما نفهمه واضحاً في قوله:

ـ كانت هيلاري القناة الخلفية أيام أركنساس التي أدفع كلينتون عبرها للقيام بما أريد دون أن ينزعج أو يتضايق.

ـ كلينتون بحاجة دائماً إلى شخص يقف بجانبه، يساعده في تطبيق معلوماته عملياً على الموديل المرسوم له، شخص يدخل إلى عمليته الفكرية كالأنزيم والأنسولين ويساعده على امتصاص المعلومات وهضمها وتحويلها إلى قرار.

ـ كان لا يستطيع حل مشكلة هو أمامها، لكنه يشكو ويتذمر إلى أن يأتي من يدله على الحل.

ونتساءل نحن عما بقي للناخب من الحرية الفعلية، وهو في هذا المطبخ الواسع الذي كل ما فيه موجه ومرسوم بدقة، إلى حد يتوهم معه الناخبون أحياناً أنهم أحرار.

أمريكا وكلينتون مستعدون دائماً للتنديد بصانعي المخدرات وتجارها ومهربيها الذين يهددون البراعم الأمريكية السوبرمانية بمخدراتهم، لكنهم غير مستعدين أبداً لضرب براعمهم علقة بقضيب رمّان على مدى ثلاثة أيام،

ينسـون بعدهـا حليـب أمهـم (مـع الكوكـايين طبعـاً)، وإلا انجرحـت مشـاعر البراعم السوبرمانية، وانخرقت حقوق الطفل، وتعطلت بنود التربية الحديثة. هنا يأتي كتاب ديك موريس ليكشف الغطاء الأحمـر عـن السـوبرمان الأمريكـي، لنراه واقفاً في طوابير المعونة الاجتماعية، بعد أن فقـد نهائيـاً الرغبة في العمـل، وفي الدراسة، وفي بناء أسرة.

أمريكا وكلينتون مستعدون دائماً لإهمـال مصطلـح الراديكالية، والتركيز على الإرهاب والعنف، ومجلس العلاقات الخارجية مستعد كل عـام لإصـدار قائمة بأسماء دول الإرهاب والإرهابيين في العـالم، ومستعد لأن يثبـت بالأدلـة القاطعة (في زعمه) بـأن الإرهـاب جـزء مـن العقيـدة الإسـلامية، لكنهـم غـير مستعدين أبـداً لأن يفهمـوا أن الكوكلاكـس كـلان إرهـاب، وأن التمييـز العنصري إرهاب، وأن العنف المنزلي إرهاب، وأن سـيف الفيتـو في يـد رئيـس الولايـات المتحـدة إرهـاب، ينقـض بـه علـى كـل مـا لايعجبـه مـن قـرارات الكونغرس في بلاده. ويأتي كتاب ديك موريس ليكشف أن الإرهاب لا ديـن له، وليبين كيـف يتحـول الإرهـاب في لعبـة الانتخابـات إلى مسـألة سياسـية. وكيف تتحول الديموقراطية إلى طبل فارغ، وكيـف تصبـح المثـل العليـا إعلانـاً تلفزيونياً، والقيم الإنسانية دعاية بالألوان.

قد يهم البعـض ـ ولا يهـم البعـض الآخـر ـ أن يعـرف أن ديـك موريـس يهودي، وأن الخليج العربي عنده خليج فارسـي، وأنـه محـا مـن خارطتـه اسـم العالم العربي وسمّاه الشرق الأوسط، وأنه ميكافيلي النهج والسجية، لكن الذي يهمنا أن يعرفه الجميع، هو أن الأمريكيين دقيقون في فهم الألفاظ والمفـردات. فقد كانت الغلطة ـ يقول ديك موريـس ـ الـتي سـاعدت علـى هزيمـة جيمـي كارتر في انتخابات الرئاسة، أنه قال في إحدى خطبه « إن أمريكـا مريضـة». وحين نتذكر نحن أن المعارك ما زالت قائمة في الأمم المتحدة بشـأن الاحتـلال الإسرائيلي لفلسطين حول الفرق بين «الأرض المحتلة» و «أرض محتلة»، ندرك تماماً أن الذي صاغ قرارات الأمم المتحدة (موريسـي) يعـرف مـا يفعـل، اسمـه اللورد كارادون.

هل كان سبب طرد ديك موريس من البيت الأبيض، فضيحته الأخلاقية مع عاهرة، نجحت كاميرات الصحافة في تصويرها معه بالجرم المشهود؟

لا أظن ...فحكاية مارلين مونرو مع جون كينيدي، وحكاية بولا جونز مع بيل كلينتون، وحكاية فاتنات البلاي بوي مع أمير ويلز، لم تهز شعرة واحدة في «باروكة» المثل العليا الأمريكية، ولم تؤثر إطلاقاً على حق تشارلز في التاج البريطاني، فما بالك بحكاية عاهرة ليل عابرة مع طباخ انتخابات مأجور؟

لعل السبب هو الرشوة والعمولات، أو اختلاس أموال الحملة الانتخابية (التي هي أصلاً ليست من عرق جبين بيل كلينتون)، أو شعور كلينتون بأن عصفوره الصغير يغرد فوق أكتاف أخرى، في كولومبيا وتركيا وألبانيا. أو لعله كل هذا مجتمعاً... لكنه يبقى أمراً لا يهمنا كثيراً.

ما يهمنا هو سؤال خطر لنا «ما دام ديك موريس يهودياً، وما دامت أدلة الزنا قد ثبتت عليه بشكل قاطع، فلماذا لم يرجمه قومه هناك؟ » يبدو أن علينا أن نطرح هذا السؤال على قضاة اللاويين في الجبل، أم تراهم سكتوا عنه من باب: من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر؟

المعرب
محمد جميل القصاص

تمهيد

هذا تقرير عن تجربة غامرة خلال سنتين من العمل بجانب الرئيس كلينتون، وهو يصارع لإنقاذ رئاسته، وللحصول على تأييد الشعب الأمريكي من أجل فترة ثانية. إلا أنه يحكي أيضاً كيف تدار الحملات الانتخابية في التسعينيات، وكيف تم صياغة وصنع الإجماع في أمريكا.

بطل الحكاية بيل كلينتون ذاته. من هو؟. ما الذي يقود رجلاً غير بسيط مثله؟. كيف يفكر؟. ماذا يمكننا أن نتوقع منه؟ إن تفاصيل إعادة انتخابه، ونضاله من أجل البقاء ما زالت في معظمها مجهولة. وما زال وجهه الجذاب، وإيقاعه الذي يفرض نفسه بالقوة، وذكاؤه المتوقد، ونظراته، تثير فضولنا. وأعتقد أنه استعاد قوته بعثوره على صوته الحقيقي الصادق. وكما يعرف القراء عن كلينتون، فأنا آمل أن يلاحظوا ما تقدمه رغباته وعواطفه الجياشة من خير لهذا البلد، تلك الرغبات التي يشاركه فيها العديد من السياسيين، بالرغم من كل التهم الساخرة اللاذعة التي يتعرضون لها(*).

★★★★

إنني أعتبر كلينتون صديقاً جيداً. فقد جاءت علاقتنا الهوائية المتقلبة وسط ضجة المعركة، على مدى سنتين هما ذروة عشرين عاماً من العمل المشترك في الحملات الانتخابية، جمعتنا خلالها الشهوة المشتركة للسياسة، والسهر إلى ساعات متأخرة في مناقشة الأمور، وكتابة الإعلانات لتوجيه الناخبين إلى إعادة تشكيل آرائهم، والجري خلف الأحلام. الفرق بيننا طبعاً، هو أن الناس انتخبوه، وبقيت أنا عاملاً بالأجرة.

(*) لعل من الأهمية بمكان أن ننبه القارىء العادي (ونقصد بالعادي هنا القارىء الذي لم تألف أذنه الأساليب والتعابير الدبلوماسية الناعمة التي اعتاد القادة السياسيون استعمالها شفهياً وخطياً) إلى الإشارات المبطنة الساخرة حيناً والجارحة أحياناً التي اعتمدها المؤلف كثيراً في كتابه، فهو هنا مثلاً يشير إلى ما أشيع عن عدد من قادة السياسة الأمريكية من فضائح أخلاقية في الصحف والمجلات الأمريكية ذاتها، من بينها فضائح التحرش الجنسي واللواط. — المعرب —

المستشارون المخططون للاستراتيجيات، والإحصائيون، ومختصو الإعلان والعلاقات العامة، جزء من العملية الانتخابية الحديثة. لكن البعض لا يستسيغون ذلك، ويجعلهم يشكّون في آلية عمل العملية الديموقراطية كما يطبخها الطباخون. أنا لست طباخاً، أنا أؤمن بأن السياسة نقاشات وحوارات عامة ترفع التشويش وتزيل الغموض. الاستراتيجيات التي ساعدت بيل كلينتون لم تكن مجرد نقلات تكتيكية على رقعة شطرنج، بل كانت تعكس مفتاحاً يحدد ما تريده أمريكا. التحرك نحو مركز الدائرة، وتطبيق نظرية المثلثات، أخذ يصبح أعرض وأعمق في الإجماع الأمريكي مما كان عليه منذ عقود مضت، ولا يهم من الذي يسعى إلى المنصب في المستقبل، أو إلى أين تأخذنا الأحداث، فسوف ترسخ هذه القناعات الجديدة وتؤكد تحكمها في سياساتنا. أنا أحاول فقط أن أوضح كيف نشأت هذه القناعات، وما تعنيه بالنسبة لمستقبل بلادنا.

لقد افترضوا أنني قررت تأليف هذا الكتاب احتفالاً باستقالتي، لكن فرضهم لم يكن صحيحاً. فقد كانت نيتي دائماً أن أكتب بعد انتهاء الحملة الانتخابية عام ١٩٩٦، والفضيحة التي تعرضت لها عجلت باستقالتي، إلا أنها لم تصرفني عن كتابة تجاربي. فليس غريباً أن يكتب شخص شارك في الحملات الانتخابية عن الحملات والحكومة، إذ ثمة تقاليد عريقة قادت الكثير من الشخصيات السياسية إلى كتابة مذكراتهم بعد ترك مناصبهم مباشرة. وسيتبعني آخرون فيصفون الفترة الرئاسية الأولى لكلينتون كما شاهدوها. أما أنا فعليَّ حين أروي القصة، أن أرويها واضحة دون أن أستعين بملفات تصنيف المعلومات، ودون أن أنتهك حركة الحدود الرسمية الحكومية. عليّ أن أعيد بناء الحوارات من الذاكرة، وحين تخونني في حرفية الألفاظ، أرويها بالمعنى.

الرئيس يعلم بموضوع الكتاب، وقد طلب في آب أن أتريث بالكتابة إلى ما بعد الانتخابات. قال: «إنني أدرك أن علاقتنا ذات طابع حقيقي تاريخي، لعلها الفريدة من نوعها في التاريخ الأمريكي». ثم تحدثنا ثانية بعد الاستقالة مؤكدين تفاهمنا، فقال إنه يتطلع بشوق إلى قراءة ما كتبت.

في هذا الكتاب، أنا أسلّم بصحة كل أخطائي السياسية خلال مسيرتي، إضافة إلى جميع الهفوات الأخلاقية الخطيرة، فكل أخطائي المعروفة

حقائق، إلا أن لي أيضاً حسنات، إذ ليس هناك إنسان كله أخطاء، فرغبتي بالتقدم والتطور السياسي لا تقل صدقاً عن حبي للسياسة ذاتها، لأنها عندي أكثر من مجرد لعبة. وما كتبته في الماضي لم يكن أكثر من خطب ودعايات إعلانية ومذكرات دبلوماسية وكراسات سياسية. كان لكل نص مهمة يهتدي بها وهدف يرمي إليه، وكان هذا هو ـــ ببساطة ـــ دوري الحقيقي في سلسلة الأحداث وتلاحقها.

****

لقد نسبت الصحافة إليّ شخصياً الفضل في انتصار الرئيس كلينتون عام ١٩٩٦، لكن هذا الكتاب سيوضح أن العقل المفكر خلف هذا الانتصار كان عقل الرئيس ويليام جيفرسون كلينتون.

ملاحظة شخصية للمؤلف

عزيزي القارئ

أنا مدين بالاعتذار العلني لزوجتي إيلين، والرئيس كلينتون، ونائب الرئيس غور، وزملائي في البيت الأبيض.

فقد التزمت كل أساليب السرية والحذر في العمل مع الرئيس، ووضعت العراقيل أمام مقتضيات العمل الصحفي، وكتمت عن طاقم العاملين في البيت الأبيض كل حواراتي مع الرئيس، ورميت بأوراقي التي انتهى دورها في آلة التمزيق، واستخدمت الشيفرة الأبجدية في مخابراتي على الهاتف الخلوي (الرمز الأبجدي لـ «دول» كان «أ» أول حرف من كلمة «أناناس»). أما حين تحدثت مع عاهرة في الليل، فلم أكن أفكر على الإطلاق.

كنت في غيبوبة عمياء خارج حدود الوعي، مدفوعاً بأنانيتي الذاتية، دون أن أتصور عواقب ما أفعل. إذ لكي يستطيع المرء أن يتصور عواقب أفعاله، عليه أن يكبح جماح نفسه أولاً، وهذا ما لم أكن قادراً عليه.

ولعلّي، بعد ارتدادي إلى الأرض محطماً بدون مظلة، آخر مثال تنطبق عليه الحكمة اليونانية: «حين تحكم الآلهة على أحد بالهلاك، تجعله أولاً مجنوناً بحب السلطة»، وحين ربحت الصراع في البيت الأبيض وأسهمت في عودة الرئيس إلى حيث يجب أن يكون فعلاً، شعرت بطعم النفوذ المطلق والسلطة اللامحدودة. ثم سقطت، وكان سقوطي في غرفة بفندق جيفرسون في حزيران من عام ١٩٩٥، تملؤني نشوة الانتصار بعد نجاح الرئيس الرائع بخطابه حول الميزانية، الذي قمت أنا شخصياً بإعداد القسم الأكبر منه، رغم المعارضة المحتدمة بالبيت الأبيض حوله.

أنا لا أسعى إلى تبرير سلوكي، قد أشرحه وأتعلم منه، وأستفيد من نتائجه فقط. قبل الحوار مع الرئيس كلينتون حول البدء بهذا الكتاب، كنت نادراً ما أغيب عن زوجتي إيلين أكثر من ليلة أو ليلتين في الأسبوع، وكنت أقطع أحياناً آلاف الأميال لأقضي معها ليلة ثم أعود. كنت أشعر أنها مني بمثابة مركز الجاذبية، إلا أن الأولوية خلال الأشهر التي عملت بها في البيت الأبيض أصبحت لبيل كلينتون، وأصبحت أقضي كل الليالي تقريباً بعيداً عن زوجتي، فالأداء الجيد للعمل يقتضي أكثر من مجرد البقاء في البيت. وكثيرون في عالم واشنطن الرسمي، هم الذين يبتعدون عن أحبابهم لفترة طويلة، لكنني لم أكن ناضجاً إلى الحد الذي أستطيع معه تحمل ذلك.

قالت لي في البداية أنها تدرك معنى أن تحجزني مسؤولياتي عنها، وتقدر حجم العمل الذي علي إنجازه، حتى أنها قبلت بعض الزبائن في عملها، لتتمكن من الحضور إلى واشنطن أربع أو خمس مرات في الشهر لتكون معي. كانت إيلين غان سيدة رائعة متميزة طالما أحببتها واحترمتها، بديهتها وحساسيتها جعلت منها أحسن صديقة لي، وأحسن مرشدة وهادية في عالم واشنطن، بكل منافساته الحادة وملاكماته الوحشية.

لكنني لم أستطع التغلب على فترات الوحدة هذه، التي كانت الجدران فيها تنطبق علي حين أكون وحيداً، وبدأت أبحث خلال علاقة غير شريفة عن امرأة أقضي الليل معها. ولحماقتي وثقت بتلك المرأة، حتى أنني خدعت نفسي إلى حد اعتبرتها معه صديقة، إلا أنها استغلتني كأي رجل يدفع نقوداً مقابل علاقة جنسية.

كان معظم ما نشر عن الحدث صحيحاً، بعضه كان وهمياً خيالياً، فأنا لم أطلعها على أي سر من أسرار الدولة، لأنني لم أكن حينها أعرف أياً من هذه الأسرار. ولرغبتي في تجنيب الناس آلاماً لا مبرر لها، وليس لمجرد تبرير وإنصاف سلوكي، عليّ أن أصحح بعض الادعاءات والمزاعم:

- طبقاً لشهادتي بعد أداء اليمين، فأنا لم أقل أبداً أن هيلاري كلينتون كانت مسؤولة إدارية، تنظر في ملفات الـ إف. بي. آي. الخاصة بالجمهوريين. قلت بأن استبيانات الناخبين أظهرت أن الناس يحملونها مسؤولية ذلك، ولم أكن على علم بحقائق القضية التي ما زلت لا أعرف شيئاً عنها. أنا لا أظن أن هيلاري كانت مسؤولة، لكن حديثي عن استبيانات الناخبين كان أمراً يستحق التوبيخ.
- لم أترك لعشيقتي أن تسترق السمع من هاتف فرعي على محادثاتي مع الرئيس. ما فعلته تحت سلطان التفاخر الأناني أنني وضعت سماعة الهاتف الذي أحدثه منه على أذنها لدقيقة أو دقيقتين لتسمع صوت الرئيس، ولم يكن الأمر أكثر من تصرف غبي غير ناضج اعتدت أن أفعل مثله مع عمي وأخ زوجتي.

لقد خنت ثقة الرئيس، كما خنت ثقة زوجتي إيلين. لكن يبدو أن على الإنسان أن يخسر كل شيء ليبدأ في معرفة نفسه، وعليه أن يتحمل مسؤولية ما يفعل. وقد يقتضي الأمر ما بقي من الحياة لإصلاح الأضرار الحاصلة، لكنني تعلمت الدرس وسوف أحاول الإصلاح.

المخلص: ديك موريس

الـفـصـــل الأول

مـخـابـرات الـرئيـس الـهـاتـفـيـة

« سوف نستولي على ريدجفيلد ، ونشق صفوف أنسونيا وديربي ، لكنني لا أجد طريقة نتجنب بها أن يقضى علينا في ويلتون » .

عبارة قالها رجل ضخم الجثة ، ضخم اليدين ، مشعث الشاربين ، بصوت أجش يهدر من وراء طاولة في مخزن جعل منه مقراً لقيادة الحملة . في الخارج كان ثمة شعار مطبوع يقول : انتخبوا مالوني للكونغرس ، وفي الداخل كان جيم مالوني ، مرشح ديموقراطي من دانبوري (المنطقة الانتخابية الخامسة بولاية كونيكتيكت) يستعرض احتمالات فوزه وفشله مدينة بعد أخرى ، في أيلول / سبتمبر ١٩٩٤ . وكانت أسماء المدن تتداخل أمام ناظري في ضبابية غامضة ، وأنا أحاول جاهداً أن أبدو مهتماً ، ثم قطع كل ذلك رنين الهاتف اللاسلكي في جيبي ، كانت المخابرة من البيت الأبيض .

كنت خلال السنتين الماضيتين قد تحدثت مع هيلاري كلينتون مراراً ، ومع الرئيس ست أو سبع مرات ، اعتماداً على علاقة سبعة عشر عاماً من تقديم النصح والمشورة . وما زلت أشعر حتى اليوم بالرعشة الكهربائية ، التي يشعر بها من يركب على الغيم ، أو يستدعى للمثول أمام القضاء ، كلما عاود أحدهما الاتصال بي على هاتفي اللاسلكي الصغير . إلا أنني لم أتصل بهما ، هما كانا يتصلان ، ويعلو الغيم أكثر وأكثر .

« على أي رقم تتحدث ؟ » سألتني عاملة مقسم البيت الأبيض بصوت مزكوم . وسألت مرة أخرى « من أية مدينة ؟ » فأجبتها مرة أخرى . « هل هي دانبري .. باء .. راء .. ياء » غمغمت بشكل مثير للغضب ، متجاهلة الشيء الوحيد الذي أحتاج لمعرفته : من صاحب الاتصال بحق الجحيم .. هي أم هو ؟ وأخيراً قالت بآلية روتينية : « انتظر لتتحدث مع الرئيس » .

الرئيس؟؟ ماذا يريد ؟ تمالك نفسك ولتكن مستعداً ، إنه لم يتصل بك خلال سنة منذ انتخابه . استجمع كل قواك وتذكر كم كان ذكياً وقوياً . انتصب واستعد وتهيأ ، فعليك أن تقابله وجهاً لوجه . لا تدعه يركب عليك .

وتلاشى الناس في المخزن من أمامي ، كان جسمي فقط هناك ، أما عقلي فقد انطلق يعلو في سماء أخرى طالما تقت للتحليق فيها ، وكانت مكالمة واحدة كافية لأن تحملني إلى هناك راسخاً ، مندفعاً ، دافئاً ، منتبهاً ، مجذوباً ، كمدمن المخدرات .

« مرحباً ، كيف حالك ؟ » أليس هذا هو أسلوب بيل كلينتون حين يحتاج إليك ، فهو يتودد إليك حين يحتاجك فقط . وها هو يبدأ : « علي أن أتحدث في التلفزيون عن غزو هايتي ، فأية حجج يجب استخدامها » ؟

ولما كانت هايتي ليست مدينة في المنطقة الانتخابية الرابعة من ولاية كونيكتيكت ، فقد وجب تغيير النظارات . كانت ردة فعلي الصامتة الأولى أنني تساءلت « وماذا أعرف أنا عن الموضوع ؟ » . أنا لا أعرف شيئاً عن هايتي . وفي أقل من جزء في البليون من الثانية جاءت ردة فعلي الثانية . الموضوع ليس موضوع هايتي ، إنه موضوع السياسات الأمريكية قبل شهر من انتخاب عام ١٩٩٤ ، وأنت تعرف الانتخابات ، فهيا إلى العمل .

خلال سبعة عشر عاماً مع كلينتون تعلمت أنك إن أطلت الحديث في مثل هذه اللحظات أو سايرت الظروف أو اشترطت شروطاً ، فلن يعود بعدها إلى الاتصال بك . أما لو لقي عندك ما يخالف باقي الأفكار ، أو منظوراً متميزاً للأمور ، فسيعود . وكنت أريده فعلاً أن يعود .

وبدا للحظة على الهاتف وكأن علاقتنا القديمة قد عادت . وبدا لي كأن صوته ونغمة سؤاله واضطراره وصراحته تؤجج عندي أكثر من مجرد ذكريات وتجارب .

وسمعت نفسي أقول له : « عليك ألا تغزو هايتي على الإطلاق ، فهي ليست الجزيرة التي لعنها الله » . وتابعت مشيراً إلى كوبا : « العنصرية العرقية والانعزالية من أخطر الأشياء المهلكة ، إضافة إلى القوى المسمومة في سياساتنا . وحين تتسبب بوقوع القتلى والجرحى في هايتي ، فسوف تجرح مشاعر الطرفين في وقت واحد ، ولن تشفى بعدها أبداً » .

ولجأ الرئيس إلى الكلام في المثالية والتفاصيل ، فهي الطريقة المفضلة لديه حين لا يريد الكلام في السياسة ، ومضى يلقي باللائمة على الفساد والاغتصاب والقتل وفرق الموت والغارات الليلية .

وكنت أعرف أن هذا ثوب مستعار ، وليس السبب الحقيقي . كما كنت أعرف الدافع الحقيقي الكامن . في عام ١٩٧٩ ، رفع شاب طلباً إلى الرئيس جيمي كارتر ، يحابي فيه الحاكم بيل كلينتون ، يطلب فيه الموافقة على أن تقوم أركنساس بأخذ بعض اللاجئين الكوبيين من مخيمات فلوريدا ، وإسكانهم في فورت شافي . لكن كارتر لم يتحمل أن يخسر فلوريدا ، ويريد أن يطرد الكوبيين . إلا أنه أخلف وعداً اعتقد كلينتون أنه قطعه على

، بترحيلهم عن أركنساس قبل انتخاب عام ١٩٨٠ . «لقد خوزقني» . هكذا قال لي
ن بعد سنة ، في حفل غداء مطعم المواسم الأربعة في نيويورك حين أعاد علي الحكاية .
لقي مسؤولية هزيمته جزئياً على اللاجئين .

لم يكن الرئيس كلينتون يريد للهايتيين أن يحتشدوا على شواطئنا ، فهو يعرف أضرار
ين . وغزو أمريكي ناجح لاستعادة الحكم الديموقراطي ، يجعل اللاجئين المحتمل
م يبقون في بلدهم الأم .

قلت له : «أنا أعرف أنك خائف من اللاجئين . ولكن لماذا تغزو الجزيرة؟ قم
ها وحصارها فقط ، فيمكنك إرغام الدومينيكانيين على أن يتركونا نضبط الأمن والنظام
انبهم من الحدود ، على شرط أن يتركوا بضائعنا تمر إلى الجزيرة» .

أجاب كلينتون : «بهذا سيتضور الكثيرون من الأبرياء الذين نريد مساعدتهم جوعاً .
، إلى أنني لا أظن الدومينيكانيين سيقبلون ، وحلفاؤنا لن يعجبهم ذلك» .

وتراجعت إلى أرضية معروفة مألوفة قائلاً : «اسمع ، أنا لست خبيراً بموضوع هايتي ،
بواب الجحيم ستنفتح عليك لو تسببت في قتل أو جرح أمريكي واحد هناك» .

قمنا بدراسة أولية لحل يقضي بإنزال فرق على الشواطىء ، ثم نقوم بالتفاوض ، وهو
حديث معدل للدبلوماسية المسلحة التي استخدمها ثيودور روزفلت بنجاح عظيم في
الكاريبي . وكان كلينتون يشعر بالإهانة لإرساله قوة صغيرة بأسلحة خفيفة هربت من
لهجوم الهايتي . قلت مستشهداً بحكمة للسيناتور الراحل إيفريت ديركسين : نحن بحاجة
ة كبيرة ، على بعد أميال من الجزيرة ، نبدأ بعدها الطرق الدبلوماسية . وحين يشعرون
ة الحامية ، سوف يرون النور» .

ساد الصمت على الخط . قد يظن آخرون أن المخابرة انتهت ، وأن الطرف الآخر أقفل
. أو قد يخطر لأحدهم في مثل هذا الموقف أن يسأل : «ما رأيك بذلك؟» لكنني
، معنى أن يصمت كلينتون . إنه يعني : «أنا أفكر فيما قلت ، وسأنعم النظر فيه الليلة
نوم ، تابع» .

لقد نصحته بالنسبة للخطاب في التلفزيون أن يركز عباراته على الانتهاكات
لاقية على نساء وأطفال هايتي في الجزيرة ، أكثر من التركيز على تهديد اللاجئين المحتمل
هم إلى الولايات المتحدة ، في حال رفض هايتي العودة إلى الديموقراطية . «عليك أن
، من الكلام عن مسألة اللاجئين ، وأن تركز على حقوق الإنسان ومسائل القيم العليا .

ستبدو ضعيفاً لو حاولت إيقاف سيل اللاجئين من التدفق علينا، لكنك ستبدو قوياً في حمايتك للأطفال في العالم».

هذه مقالة تعلمتها وطورتها، وأنا أسمع الأمريكيين يتحدثون في الحفلات الانتخابية التي كنت أقيمها. فأنا مقتنع بأن الأمريكيين يريدون سياسة خارجية تقوم على القيم العليا، بينما المستشارون السياسيون وأعضاء مجلس الأمن القومي يريدون سياسة تقوم على المصالح.

لم تنته المخابرة الهاتفية، وإنما ضعفت وتيرتها فقط، وسمعت الرئيس يحدث أحداً آخر في الغرفة، فقد سها عن أنني مازلت على الطرف الآخر من الخط، ثم قال للسماعة: «وداعاً». وتذكرت مرة هتف لي فيها من أركنساس بساعة متأخرة من الليل، وتحدثنا حوالي نصف ساعة أو أكثر. ثم بدأت أجوبته تقل، وكلماته تتداخل، ثم ساد الصمت، فقد نام الرئيس. وبقي خطي طوال الليل مشغولاً فلم أتمكن من إجراء أية مكالمة، إذ كلما رفعت السماعة سمعت الشخير. وفي الصباح عادت الحرارة إلى هاتفي، فقد استيقظ الرئيس ووضع سماعة هاتفه في مكانها.

على كل حال، كان على مالوني أن يستولي على ويلتون. وكنت أشعر بنشوة النصر، وأريد المزيد والمزيد. اتصلت بكلينتون يوماً بعد الآخر، وتركت له رسائل على المسجلة، ولم يرد على مكالماتي رغم أنه كان يرى ثبوت صحة آرائي واتساع نجاحها المضطرد. لقد أيقن، بقبوله ما اقترحته عليه في مخابرة هايتي، بمدى جدواي وفائدتي له.

كمستشار سياسي، كنت من بين من يتقاضون أعلى الرواتب كعمال متنقلين. وكنت دائم التجوال كالحصادين الذين يجوبون البلاد ضمن جدول مواعيد مواسم الغلال، وأهمها عندي جدول مواعيد الانتخابات الأولية والاقتراع النهائي. وكنت أعمل لصالح المرشحين في أربع عشرة ولاية مختلفة منذ أن بدأت العمل عام ١٩٧٧. وكان بيل كلينتون أول وأحسن زبون عندي.

كانت السياسة حياتي كلها. بدأت عملي فيها لصالح مرشح للرئاسة في الصف الرابع من المرحلة الابتدائية، وساعدت على انتخاب رئيس مجلس الطلاب. وكان اسمه مارك زارو. وفي ضوء الأفلام التلفزيونية الشعبية التي كانت سائدة وقتها، فقد كان شعار حملتي الانتخابية: الـ«ز» هي الحرف الأول زارو. أحببت النجاح، لكن ما كان يستهويني أكثر هو العملية ذاتها. فالتخطيط لحملة انتخابية متعة حقيقية. وكنت مثل المستشارين الآخرين أسمَّى مرتزقاً، وهي تسمية منصفة وعادلة. رغم أنني كنت أعمل أحياناً بلا مقابل ولمجرد المتعة والتسلية في منافسات بمسقط رأسي كونيكتيكت. عملت لصالح الديموقراطيين

والجمهوريين ، الأمر الذي كان يصدم ذوي الألسنة الساخرة القارصة ، فكنت أتصدى لسخريتهم ، وكانت لدي قدرة إقناع سياسية ستظهر بوضوح في هذا الكتاب ، إلا أنني لا أملك القدرة على النفاذ إلى شخصيات المرشحين وأعماقهم . وأشعر بسعادة غامرة حين يتاح لي أن أضع خبراتي التقنية في خدمة شخص أستلطفه ، يستطيع أن يحقق إنجازاً بغض النظر عن اسم حزبه . كانت خبراتي التقنية ديموقراطية أساساً ، فقد تخصصت في اكتشاف الطريقة التي يستطيع السياسيون أن يقدموا بها المواضيع التي تحرك الناخبين لانتخابهم . أنا أعترف بأنني ارتكبت بعض الأخطاء في قبول المهمات ، لكنني كنت مصيباً في الإيمان بأن كلينتون كان أحسن هذه المهمات . فقد كانت لديه رغبة صادقة في تحسين كل الأمريكيين ، وخبرات سياسية لم أرها من قبل . أثارني وهزني حين أخبرني عام ١٩٨٧ أنه قد يسعى إلى الرئاسة في العام التالي . وحلّت الفرصة التي طالما انتظرتها ، فرصة العمل بالمستوى القومي على تجسيد الأفكار التي وضعناها وطورناها معاً . فقمت بإرسال المذكرات الاستراتيجية ، ووضع خطة السباق والكلمة التي سيعلن بها ترشيحه . كان بيل كلينتون تذكرتي للصعود والارتقاء ، لكنه أحجم في عام ١٩٨٨ ، فأصابني الإحباط لعدة شهور ، واستنتجت أن بيل كلينتون لا يصلح كتذكرة لأن تركب بها إلى أي مكان ، فهو مجرد زقاق مسدود ، ورجل لا يملك الجرأة على سحب الزناد .

أما الآخرون فعندهم بعض الإيماءات المشجعة . طلب مني ترينت لوت عضو الكونغرس الديموقراطي عن المسيسيبي ، أن أساعده على الفوز بمقعد في مجلس الشيوخ الأمريكي . وما أن فاز (مايكل دوكاكيز) بترشيح الديمقراطيين له لمنصب الرئاسة ، الذي كان بوسع كلينتون الحصول عليه ، حتى بدأ (لي أتواتر) مدير حملة (جورج بوش) الانتخابية بالدعاية فوراً . في عام ١٩٧٨ ، كنت أقوم بإدارة حملة (إد كينغ) التي نجحت في الإطاحة بدوكاكيز من منصب حاكم ماساتشوسيتس في هزيمة ساحقة غير متوقعة . فقال لي أتواتر يومها : « إنك أفضل خبير في العالم بهزم دوكاكيز ، تعال واعمل معنا » . كنت أشعر أن دوكاكيز حاكم فاشل وسيكون أكثر فشلاً كرئيس ، ولهذا مضيت لأشارك في حملة جورج بوش عام ١٩٨٨ .

حين أخذت مكاني على ظهر المركب ، كانت جماعة بوش تهاجم دوكاكيز كمبذر كبير ، يدعو إلى تحرير جباية الضرائب ، وتتهمه بأنه « رخو في الحرب » ، فيندفع هو تحت مهماز هذه التهمة ليقف أمام كاميرات المصورين في دبابة سخيفة .

« توقّف عن شن الهجومات التي يستطيع دوكاكيز صدها ، فهو لن يعترف أبداً بأنه مبذر ورخو في الحرب » قلت لأتواتر في الوقت الذي كان دوكاكيز يسجل فيه تفوقاً على

بوش ، وتابعت قائلاً : « سوف يصدقه الناس ويكذبوك ، وسيضيع وقتك كله وأنت تدور حول نفسك محاولاً إلصاق التهم به ، كحمار مربوط بوتد يدور محاولاً الإمساك بذنبه » .

لقد افترضت ، بدلاً من ذلك ، أن الحملة فاشلة من زاوية القضايا التي أقر دوكاكيز بأنه يختلف مع بوش عليها ، ومن بينها الحكم بالإعدام مثلاً . سوف يهبُّ لمناقشتها .. وعندما لا تستطيع أن تثبت أنه ضد العقوبات القصوى والحكم بالإعدام ، حاول فقط أن توضح أنه مخطيء .

أعاد أتواتر رسم تكتيكاته ، ومضى في تركيز هجومه على الجريمة والمجرمين ، وجاءت اللحظة الحاسمة في المناظرة مع بوش . وسئل دوكاكيز عن شعوره فيما لو تعرضت زوجته للاغتصاب والقتل ، فلم يظهر عليه أي انفعال ، وأعطى جواباً حقوقياً قضائياً أوضح فيه أن عقوبة الإعدام غلط ، مما جعله يبدو أمام الناس بارداً وبيروقراطياً . ومن هنا بدأت نهاية دوكاكيز .

خلال حملة عام ١٩٨٨ كلها تابعت إطلاع كلينتون على تفاصيل ما أقوم به لصالح بوش ، وبحثت معه الدروس والعبر عن الحملة . وقلت له : « لن يرد دوكاكيز على الهجوم أبداً ، ولن يقوم حتى بأي هجوم من طرفه » فوافقني قائلاً : « لقد طلبت منه دائماً أن يتابع الهجوم ، وأن يرد على التهم ، لكنه لم يفهم اللعبة ، وظن أن ذلك ليس من مستواه ، وأن الناس لن يصدقوا هذه الهجمات . انظر كيف تدنت أعداد ناخبيه » .

وعاد طموحي يشتعل في عام ١٩٩٢ . فبيل كلينتون الذي هجرته باعتباره زقاقاً مسدوداً ، فاز بترشيح الديموقراطيين وبالرئاسة ، ولم أكن بجانبه . إذ لم أكن أعتقد أساساً أنه سيخوضها ويسعى إليها ، ولما فعل لم أظن أنه سينجح . وحين أدركت أنني يجب أن أمنحه ثقة أكبر ، لكونه بالفعل مرشح جدي وجيد ، كان الوقت قد فات . كان لديه طاقم كامل من المستشارين ، وليس ثمة ما يبرر إزاحتهم . تلك كانت المعركة التي خسرتها . إضافة إلى أنهم كانوا يملكون الجرأة التي لا أملكها على الرهان على كلينتون ، فاستحقوا الفوز بذلك .

وبكرم الفائز المنتصر ، لم يُلمح كلينتون أبداً إلى قيامي بالتخلي عنه ، فقال حين هتف لي بعد ٣٦ ساعة من انتخابه : «أنا بحاجة إليك لمساعدتي في الحكم ، فلولاك لم أصبح رئيسا ، قال عبارته بلطف مهذب ، رغم أن كلينا يعرف الحقيقة . إذ لم يكن لي أي شأن أو ـ . فوزه بالرئاسة ، فقد اقتصر دوري على سلسلة انتصاراته كحاكم ولاية .

كان اتصالي الهاتفي بكلينتون نادراً في الثمانية عشر شهراً الأولى . وكنت أرى برنامجه للرعاية الصحية يتدهور قبل تقديمه إلى لجنة الشيوخ ، ونسبة مؤيديه من الناخبين تتهاوى ، وبدأ وكأن أمريكا أفلتت من قبضته .

وكان الوقت مناسباً للاتصال به ، ومناسباً لتقديم خدماتي مرة أخرى . هذا السقوط ، كسقوط روشستر المحير في حياة جين إير ، هو الذي جعل كلينتون فجأة ـــ وعلى نحو غير متوقع ـــ يدخل حياتي ثم يخرج منها .

اهتز هاتفي الصغير اللاسلكي مرة أخرى في أوائل أوكتوبر / تشرين الأول من عام ١٩٩٤ ، بعد نجاح عملية هايتي . قال الرئيس : « أريدك أن ترتب لي استطلاعاً انتخابياً ، فلست مقتنعاً بقدرتي على معالجة ما يفعله الجمهوريون معي ، وأنا بحاجة لمشورتك » .

الجمهوريون ؟ أنا واحد منهم . وزبائني المرشحون في تلك الدورة من السنة جمهوريون ، من بينهم الجمهوري حاكم ماساتشوستس بيل ويلد ، وعضو مجلس الشيوخ عن الميسيسيبي ترينت لوت ، وكلاهما يبحث عن تجديد فترته ، ودون سانكيست من تينيسي وتوم ريدج من بنسلفانيا ، وكلاهما مرشح لمنصب حاكم ولاية عن الجمهوريين .

لم أقل لكلينتون يومها : « سيخلق هذا تضارباً في المصالح يا سيدي الرئيس ، وإذا أردتني للعمل معك ، فعليك أن تطلب ذلك بعد انتخابات نوفمبر / تشرين الثاني القادم » . فهذه إجابات لا تقال للرؤساء ، أضف إلى ذلك أنني كنت بحاجة ماسة إلى هذا العمل . ووافقت على القيام بالاستطلاع .

ونجح كل المرشحين الذين عملت لصالحهم في تلك الدورة .

★★★★

منذ بداية علاقتي ببيل كلينتون في عام ١٩٧٧ ، كانت الاستبيانات والإحصاءات الانتخابية هي الإطار العام الذي عملت فيه لصالحه . فنحن نستخدم هذه الاستطلاعات ليس لتحديد المواقع التي نحن فيها الآن وحسب ، بل أيضاً لتحديد أيها هو الأكثر شعبية . وكنت دائماً أرسم الحد الفاصل الذي يفرق بين تعريف الأمور التي يجب التركيز عليها ، والقرار السياسي في ما يجب عمله ، فأقول لكلينتون : « لقد تمت طباعة قائمة بكل الأطعمة التي تريدها ، وسأرشدك الآن إلى النوع الذي يجب أن تتناوله على العشاء اليوم » .

في ذلك المسح الإحصائي بأكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٤ ، تم إعداد استبيانات لـ ٨٠٠ ناخب موزعين في كل أنحاء البلاد ، مع مراعاة حصة كل ولاية من عدد الناخبين الإجمالي . ورغم أن من المنافي للمنطق اعتبار أن المقابلات مع ٨٠٠ أمريكي تعكس بدقة آراء ٢٥٠ مليوناً من المواطنين ، إلا أن بعض القوانين العلمية يبدو وكأنه جنون . هذا يعني أنك لو أخذت دليل الهاتف لكامل الولايات المتحدة من حرف A إلى حرف Z ، وسحبت اسماً واحداً من كل ٣١٢٫٥٠٠ اسم ، وأجريت مقابلة مع صاحبه ، فإن نتيجة المقابلات

الـ ٨٠٠ ستعكس بدقة ــ مع هامش للخطأ ــ آراء جميع من وردت أسماؤهم في الدليل، ولقد رأيت ذلك مراراً عديدة. ثم جاءت نتائج الاستطلاع لتثبت نتائج الانتخاب الأخير ذاتها، وكان أمراً مخيفاً. لكن الاستطلاعات قد تخطيء طبعاً للأسباب التالية :

- إنها تعطيك عينة دقيقة من المعلومات الأساسية التي تختارها. لكن هذه المعلومات الأساسية يجب أن تكون صحيحة. فإذا استعملت دليل الهاتف مثلاً، ماذا عن الأرقام غير المسجلة فيه؟ وإذا استعملت سجل الناخبين، ماذا عن الناخبين الجدد؟ وإذا أجريت الاستطلاع بواسطة الهاتف، فماذا عن الذين لا يملكون هواتف؟ عليك أن تأخذ هذا كله بالاعتبار إضافة إلى عوامل أخرى.

- إذا طرحت سؤالاً خاطئاً، فستحصل على جواب صحيح لسؤال خطأ. فقد طرح أحد الإحصائيين التكساسيين سؤالاً هو : هل قررت أن تنتخب المرشح X؟ فأجابه حوالي نصف من فكر بأن ينتخب هذا الرجل : نعم. والسبب أن السؤال لم يكن دقيقاً، فجاء الجواب غير دقيق. وكان يمكن أن يحصل على إجابات أكثر دقة، لو أنه صاغ سؤاله بهذا الشكل : «لو تقرر الانتخاب غداً، والمرشحون هم X وY، فأيهما تنتخب؟».

أنا أؤمن بالاستبيانات الإحصائية كثيراً، على ألا يعتمدها القائد السياسي في إقرار ما يفعل، بل عليه في أكثر الأوقات أن يخالف ما زعمت الاستطلاعات أنه رغبة وإرادة الناس. لكن الاستطلاعات تساعد القائد السياسي على اكتشاف الحجج الأكثر إقناعاً.

كان الهدف من هذا المسح الإحصائي، أن يقرأ الناخبون قائمة إنجازات كلينتون الطويلة، لاكتشاف أيها سيساعده أكثر في انتخابات الكونغرس بنوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٤. فبرغم كل المقاعد في مجلس النواب وثلث المقاعد في مجلس الشيوخ، فإن أمام الرئيس مجازفة خطرة. فللمرة الأولى يضفي الجمهوريون على حملاتهم الطابع القومي، ولا يسعون إلى القضايا المحلية الإقليمية كما جرت العادة، بل إلى المقولات القومية والقضايا التي نص عليها «العقد مع أمريكا». وعلى رأسها اتهام كلينتون بالليبرالية لدعمه الرعاية الصحية الشاملة، وبأنه «ضريبي» لازدياد الضرائب على يديه. وللتصدي لهذه الضربات الموجعة المؤثرة، فقد أراد كلينتون أن يوضح جدول أعماله للناخبين. ولكن أي بند من بنود هذا الجدول هو الأكثر أهمية، ويجب تسليط الضوء عليه؟

التقنية الإحصائية التي نعتمدها ، أن يقرأ كل ناخب مشترك في الاستبيان المنجزات التي يشعر كلينتون أنها تستحق المطالبة بها ، ثم يتم سؤاله عما إذا كان يعتقد بأن هذه المنجزات قد تحققت ، وما إذا كان كلينتون يستحق التأييد ، وما إذا كان هذا يدفع بالناخب إلى انتخاب المرشحين الديموقراطيين الذين يدعمهم كلينتون .

في الأيام السابقة التي قضيناها بأركنساس معاً ، كان كلينتون يقضي ساعات وهو يستعرض كل تفاصيل الاستبيان قبل أن ندفع به إلى الإحصائيين لتنفيذه ، أما الآن بعد أن أصبح رئيساً فإن استعراضه سيكون سطحياً . هذا ما فكرت فيه حين استلمت مخابرته . لكن بعد ساعتين من استعراض كل الأسئلة أدركت أن طلب بيل كلينتون للدقة في الاستطلاع ، لم يقلل منه مسؤولياته المتزايدة . كان يضع بحنان تفاصيل كل منجزاته ، مقرباً إلى الألف عدد الوظائف التي أوجدها خلال فترة رئاسته ، والمبلغ الذي يمثل انخفاض العجز في الميزانية ، وقيمة الاتفاقيات التجارية التي تم توقيعها ، ومبالغ معدلات الفائدة التي تم تخفيضها على قروض الطلاب ، ومقدار التبرعات التي تم جمعها لدعم الطفل ، ومعدل ارتفاعها .

بعد كل إنجاز ، كان كلينتون يعلق بعبارة حزينة « لا أحد طبعاً يعرف أننا فعلنا ذلك » أو « لم تشر الصحف إلى أننا قد أنجزنا هذا البند » . فكلينتون يحتاج ليس إلى التنويه بما حققه وأنجزه وحسب ، بل إلى المديح أيضاً . غالباً ما تأتي نظرة كلينتون لنفسه انعكاساً لمشاعر الآخرين من حوله . فهو يشعر غريزياً بحاسة الشم التي لديه ، بما يحس به شخص آخر نحوه من تحفظ ، فيبذل ما بوسعه ليكسب قبوله ومحبته إن أمكن . فزوجتي إيلين غان على سبيل المثال ، معتدلة النظرة إلى كلينتون ، وهو يحس بأنها ليست بالمنبسطة ولا بالمنقبضة تجاهه ، فهي تحمل له الود وتوافق على برامجه ، لكنها تمتعض من بعض الثغرات التي شابت علاقتي به حين كان حاكماً . فكان كلما اتصل هاتفياً وردَّت هي عليه ، أو التقاها في بهو الاستقبال، يحاول أن يستميلها ويلاطفها ، إلا أن كل محاولاته تذهب أدراج الرياح .

أمريكا غرفة كبيرة عند كلينتون ، والاستطلاع يساعده على أن يشم رائحة أي إنسان ينفر منه في هذه الغرفة ، وسبب نفوره منه . فهو يرى في الأرقام مواطن ضعفه وقوته ، نجاحه وفشله . الاستطلاع عند كلينتون ليس مجرد أداة ، إنه دفاع ومصداقية وموافقة بنتائجه الإيجابية . أما بنتائجه السلبية فهو عملية يتعلم منها بالاستبطان العميق صورته المرفوضة عند الآخرين . والاستطلاع يمنح كلينتون بصيرة نافذة يتمكن بها من معرفة كيف يفكر الناس ، فهو يستخدمه ليس ليصحح به فكرة عنده عن موضوع ما ، بل ليجعل منها إطاراً مرجعياً يتطابق دائماً مع ما هو سائد في البلاد قدر الإمكان .

لقد صدمتني نتائج الاستطلاع عندما قرأتها، فالناخبون يعتقدون أن الرئيس لم ينجز شيئاً ذا بال يعتمد عليه. وهذه مشكلة كبيرة جداً، قمت بتلخيصها له ولهيلاري على الهاتف. فالإنجازات التي كانا يفخران بها، وتناقص العجز المالي في الميزانية، والوظائف الجديدة، وارتفاع الصادرات، اصطدمت بجدار صلب من الرفض، وأغلب الناخبين يعتقدون أنها ليست حقيقية. والذين وافقوا على صحتها أنكروا على الرئيس الفضل فيها. أما الذين صدقوها ونسبوا فضلها لكلينتون فقد قالوا بأن لا علاقة لها برغبتهم في انتخاب مرشحيه للكونغرس عام ١٩٩٤.

لقد تفحص الرئيس أجوبة الـ ٨٠٠ شخص في العينة الإحصائية وناقشها بكل ما يملك من مهارة وفاعلية. قال: «ولكن ماذا يقولون حين نعلمهم أننا خلقنا ملايين الوظائف الجديدة وأوقفنا العجز عند حده في عامين متواليين؟ إنهم لا يستطيعون إنكار ذلك، فهو حقيقة واقعة».

أجبته: «إنهم يستطيعون ذلك، وقد فعلوه. الصحف مملوءة كل يوم بقصص الشركات التي تسرح عمالها وتقفل أبوابها».

قال: «لكن تلك شركات كبيرة. أما المنشآت الصغيرة فهي التي تخلق الوظائف، ولا أرى أحداً يكتب عن ذلك».

أجبته: «اسمع، لو أنك سألتهم عما أنجزناه في غوام، لأمكنك أن تحدثهم عما فعلناه هناك، وقد يصدقونك. لكن هذا موضوع اقتصادي واضح أمامهم، وإذا لم يؤمنوا بأنك خلقت الوظائف، فلن تستطيع أن تقنعهم بذلك أبداً. وإذا حاولت فأنت تضيع أموالك بلا جدوى».

كثير من السياسيين يعتقد أنه إن ملك المال الكافي استطاع أن يقنع الناخبين بصحة أي شيء. أما كلينتون فهو يملك المال والوقائع. قلت له: «لا تربكني بالوقائع، فسوف لن تجعلهم يؤمنون بك ويصدقونك» فأخذت هيلاري طرف الخيط من حديثي وقالت: «حين أخرج لأحكي عن هذه الوظائف التي تقول أننا خلقناها، أشعر فعلاً أنهم لا يصدقونني». منذ أيام أركنساس، وفي نهاية كل حوار، كانت هيلاري تنهي الموضوع فتخبر زوجها عن حقائق الحياة السياسية. وواضح أن ذلك لم يتغير.

أضفت قائلاً وأنا أرى أن واجبي هو أن أقول ما يمكن عمله، وليس الاقتصار على ما لا يمكن «ولكن ثمة نواحٍ حسنة. فهم مهيأون لتصديق إنجازاتك الصغيرة، وهذا أكثر من كافٍ لاستعادة أصواتهم لصالحك».

وأوضحت متابعاً : « إنهم يصدقون أنك قد أنقذت الأسرة والإجازة الصحية ، ولهذا فهم يحبونك . ويعتقدون بأنك عينت أحسن مساعدي قضاة المحاكم ، وانطلت عليهم حكاية أنك قد ضبطت أبواب قروض الطلاب وهذا يعني تخفيض معدلات الفائدة عليها . ويعرفون أنك أنجزت مشروع برادي ومنعت الأسلحة الهجومية » .

لم يثر توضيحي اهتمام كلينتون وقال : « لكنني خلقت فعلاً تلك الوظائف ، وانخفاض العجز في الميزانية وقع حقاً ، فلماذا لا يصدقون ذلك ؟ هل تعني أننا يجب أن ننسى كل تلك الإنجازات بهذه البساطة ؟ » .

أجبته : « دعك من الإصرار على أن يتم انتخابك لأنك جدير بذلك ، وحاول أن تجعلهم ينتخبونك بغض النظر عن الأسباب . موضوع الوظائف وعجز الميزانية ما زال جديداً ، وقد يبدأون بتصديقه بعد أربع سنوات ، أما الآن فأنت لا تستطيع أن ترغمهم على ذلك » .

قال مصراً : « لكنها حقيقة وقعت » قلت غاضباً من طوباويته : « وماذا في ذلك بحق المسيح ؟ أمامك قائمة طويلة عريضة بمنجزات صغيرة يستطيعون فهمها ، تضاف إلى رصيدك ، وتزيد معدلات أنصارك ، فلماذا لا ترتكز عليها وتسعى إليها ؟ » .

قالت هيلاري معقبة : « هذا كلام مفيد . وهذه الأمور لها أهميتها عند الناس . وأنا أعرف مدى استجابتهم لها حين أحكي لهم عنها ، ديك محق » .

تلك كانت بداية حوار ونقاش دار بين ثلاثتنا لمدة سنتين ، عنوانه : « أهمية المنجزات الإضافية » . هذه المنجزات التي سميتها صغيرة ، تعني في الحقيقة الكثير جداً عند الأسر الأمريكية . وقد لمست هيلاري ذلك لأول وهلة ، بينما كان الرئيس في البداية يركز على المعايير الكبيرة ، وهو ما كان تقليداً أكثر شيوعاً في واشنطن . كلينتون يهتم كثيراً بقضايا من مثل إبعاد المسدسات والبنادق عن متناول الشوارع ، أو زيادة أعداد رجال الشرطة . إلا أن هذه كلها لا تصلح عنده لأن تكون محوراً في قائمة منجزاته . لكنه حين ارتاح لعملية الخطوة خطوة وألفها ، وابتعد عن البرامج الضخمة الرنانة من مثل إصلاح الرعاية الصحية ، أدرك كم هي مفيدة هذه الأشياء الصغيرة ، وما يمكن أن تفعله وتحققه .

كنت أظن أحياناً أن لدى بيل كلينتون عقلين يفكر بهما : عقل الجرموز في الكشافة وعقل السياسي . فهو يرى بعقل الكشاف الطيبة والخير ، ويركز بنبل رفيع على العمل الصالح في العالم ، بعيداً عن الحسابات السياسية . ولا يحتاج ضمن منظور هذا العقل إليّ ، ولا إلى أي

اعتبار واقعي نفعي آخر ، لما يحمله من عواطف مثالية كثيفة ، إلا أنه غالباً ما يبتعد بذلك عن واقع السياسات الأمريكية ، فيزدريها وينتقدها ، ويشعر أن بإمكانه الارتفاع عنها للوصول إلى أهدافه .

في فترته الأولى كحاكم لولاية أركنساس ، أراد كلينتون أن يصلح الطرقات ويحسنها ، لينفذ وعداً قطعه على نفسه في حملته الانتخابية ، وليكسب ود متعهدي الطرق ، الذين يرفدون الخزانة السياسية في الولاية بالدعم . فضاعف رسوم ترخيص العربات لتمويل مشروعه ، ولم يتصور بعقل الجرموز أن الناس سيأخذون ذلك عليه ويحملونه له . قال : «إنه مبلغ زهيد جداً ، وأعتقد أن على راكبي الآليات أن يدفعوا لإصلاح الطرقات ، فهم الذين يستعملونها ويستفيدون منها » .

لكنني أخبرته وأنا أوافقه من حيث المبدأ ، أن الاستطلاعات تشير إلى أن تلك الزيادة في الرسوم قد تقضي على الأمل بإعادة انتخابه . لم يصدق ذلك . بل إنه استاء من تدخلي في مجال السياسة العامة ، فطردني من العمل لتجاوزي حدود صلاحياتي ، باعتباري من عالم سياسي لا يحتاج كحاكم للعمل بنصائحه .

بعد أقل من عامين ، خسر الانتخابات بسبب الزيادة التي استحدثها على رسوم المركبات . بعدها ، كنت أسمع قصصاً وحكايا من الناس الذين يقودون سياراتهم ساعتين على طرق رديئة لتجديد لوحات الترخيص ، حاملين معهم الرسوم المعروفة ، ويفاجأون بأن قسم المركبات عند وصولهم يطالبهم بضعف المبلغ ، ويضطرون إلى الرجوع للمنزل والعودة مرة أخرى . وهذا يعني ست ساعات من العناء والمشقة ، كافية ليكرهوا الحاكم الصبي القادم من يال .

حين واجه كلينتون هذه المحنة السياسية ، عاد له عقله السياسي . في هذا النظام العقلي كلينتون لا يحتقر العملية ، بل يحاول الفوز ، ومع أنه يبقى مؤمناً بمبادئه الأساسية إلا أنه يصبح مقاتلاً سياسياً ماكراً . وكنت أحس أنه يكره نفسه وهو يفعل ذلك ، ويكرهني لأنني أجسد له هذا العقل . كان بمقدوره أن يتحول إلى سياسي متى وجد حاجة تدعوه ، لكنه كان يستمتع بدور الجرموز الكشاف أكثر ، وكان يفصل دائماً بين عقله المثالي وعقله السياسي ، محافظاً عن وعي على نقاء الأول وبراءته بعيداً عن واقعية الثاني ونفعيته (علماء النفس حين يخفق الإنسان في دمج الخير والشر ضمن وحدة واحدة ، يسمون ذلك ترابط الشخصية) .

بفضل العقل السياسي ، استعاد كلينتون منصب حاكم الولاية في عام ١٩٨٢ . ويعود سبب وجود هذا العدد من الرجعات في سجل كلينتون إلى هذين النظامين العقليين عنده . في عام ١٩٩٤ دعيت مع زوجتي إيلين إلى البيت الأبيض لمشاهدة فيلم لبول نيومان ،

يروي قصة موظف يريد أن يرتقي ليصبح رئيساً للشركة بعد اختراعه الهولاهوب عام ١٩٥٠ ، ثم يهوي إلى الحضيض بعد انغماسه في فضيحة ، ليعود بعدها إلى التربع على القمة من جديد . وبعد أن انتهى الفيلم وأنيرت الأضواء قال لي كلينتون مداعباً : « يبدو وكأنه يشبه ما حدث لي » .

في أكتوبر / تشرين الأول من عام ١٩٩٤ ، كان كلينتون بعقل الجرموز الكشاف ، يرى أنه إما أن ينتخبه الناس بقناعات مبنية على أسباب صحيحة ، أو لا ينتخبوه إطلاقاً . لكنه حين وصلت محادثتنا إلى طريق مسدود بدأ يعتنق آرائي ويكررها ليرى كيف تبدو بصوته ، إذ لم يكن قد صاغها بعد بكلماته الخاصة ، فبدت له وكأنها غريبة من بلد آخر ، لأنه ما زال يفكر بعقل الجرموز الكشاف .

أخبرني الرئيس أن مستشاريه يضغطون عليه لكي يهاجم ما جاء به غينغريتش عن العقد مع أمريكا ، وأن يجعل منه محوراً لحملته الانتخابية ، وشعرت أن ذلك لن ينفع . فبنود العقد مألوفة شعبياً ومعروفة . فتوازن الدخل والنفقات ، وتخفيض الضرائب ، وإعادة التنظيم والتوجيه ، هو ما يجب التركيز عليه رداً على تخفيضات اعتمادات الميزانية التي أساؤوا إليه بها . أما مهاجمة العقد ذاته أول مرة يعرض فيها ، فتبدو لي استراتيجية خرقاء . أضف إلى ذلك أن القضية هي كلينتون وليس العقد .

قلت له : « إن هدف الهجوم هو أنت . وسجلك هو ما يجب أن تدافع عنه . إلجأ إلى طريقة الدعاية للمنجزات الصغيرة التي يرى الناس فيها أهمية كبرى ، فهي معروفة لديهم وكافية لتؤمن لك الأصوات التي تتفادى بها كارثة » .

وبعد أن استعاد كلينتون استذكار كيف تمت النجاة من كارثة عام ١٩٩٤ قال : « لقد استلمت استطلاعاتك ، ووافقت عليها كما وافقت عليها هيلاري أيضاً ، وأخبرناهم (وكان يعني مستشاريه السياسيين ، جيمس كارفيل وهارولد آيسكيس وجورج ستيفانو بولوس ، لكنه لم يقل ذلك) برغبتنا في اتباعها . لكنني مضطر للذهاب إلى الشرق الأوسط ، والكل متحرق للهجوم على « العقد مع أمريكا » الذي تقدم به الجمهوريون ، وأنا متفق معك على أن العقد مبدئياً مألوف ومعروف وأن مهاجمته ليست الطريقة المثلى في الحملة . لكنهم سيكونون هناك وأنا غائب ، وسيهاجمون العقد بدون فائدة كما قلت » .

أنا لا أصدق أن كلينتون يمكن أن يتنافس مع نفسه . فإذا ما أراد إقامة حملته على استراتيجية « المنجزات الصغيرة » فعليه أن ينفذ ذلك . وليس ثمة مستشار يستطيع أن يمنعه .

المشكلة أن هذه المنجزات الصغيرة ليست كافية في نظره. لقد أنجز أشياء كثيرة عظيمة، ويود لو كان مقبولاً على أساس هذه الأشياء.

خلال شهر أوكتوبر / تشرين الأول استخدم كلينتون منصب الرئاسة بحنكة وبراعة، فبعد أن أعاد بنجاح الحكم الديموقراطي في هايتي دون أية آثار سلبية عليه في أمريكا، سافر إلى الشرق الأوسط ليشرف على أغنية معاهدة السلام بين إسرائيل والأردن، وليمثل دور صانع السلام الذي رنَّ صداه في أرجاء الولايات المتحدة، فارتفعت أسهمه فيها.

في يوم الاثنين ٣١ أوكتوبر / تشرين الأول، بعد عودته مباشرة من الشرق الأوسط، اتصل الرئيس هاتفياً ليسأل عما يجب عليه أن يفعل ليستفيد خلال الأسبوع المتبقي من أسهمه التي ارتفعت مجدداً عند الناس. وكيف يمكنه ترجمتها إلى انتصارات في مجلسي البرلمان والشيوخ؟ وما هي الولايات التي يجب القيام بالحملات فيها؟

قلت له: «عد إلى الشرق الأوسط، وستهزم الجميع، لا تقم بأية حملة ضد أحد، وإلا انخفضت أسهمك عند الناس».

كنت دائماً أقدم النصائح الجافة لكلينتون مغموسة بلمسة ساخرة فكاهية، ولم يحصل أبداً أن قبل السخرية أو غضب منها. كان يركز اهتمامه على النصيحة، وهذا ما حصل في هذه المرة فقال: «لكن أسهمي مرتفعة إلى حد لا ضرر معه من الدعاية للآخرين. الوضع ليس كما كان من قبل، حين لم يكن بوسعي مساعدتهم». في سبتمبر / أيلول وأوكتوبر / تشرين الأول، كانت أسهم كلينتون منخفضة إلى الحد الذي لو قام معه بأية حملة دعاية لصالح أحد من المرشحين، فسيعود ذلك سياسياً بالضرر على المرشح. لكن أسهمه قد ارتفعت الآن، وهو يشعر أن بإمكانه أن يفيدهم. قال: «علي أن أساعدهم بعد كل ما فعلوه من أجلي، بالتصويت لصالح برنامجي الاقتصادي ومشروعي للرعاية الصحية».

قلت: «الموضوع هو أن ارتفاع أسهمك جاء نتيجة لنظرة الناخبين إليك كرئيس وليس كسياسي، فإذا بدأت حملات الدعاية الآن، فستعود في نظرهم سياسياً مرة أخرى، وسيؤيدون لفترة قصيرة أي مرشح تدعمه وتقوم بالحملات لصالحه، أما على المدى الطويل فسيتم القضاء على العشرات من مرشحيك حين تهبط معدلاتك وأسهمك».

منطقياً وعقلياً قد يكون وافق على وصفتي بعدم التدخل، وبأن يبقى رئيساً فوق مستوى المعركة. لكنه عاطفياً بحاجة إلى الحشود، وإلى المصفقين، وإلى المرآة التي يرى فيها نفسه. فبعد هزيمته في قضية إصلاحات الرعاية الصحية، كان طبيعياً أن يشعر بأنه مسحوق. لكن قبول الناس له بعدها ضمد جراحه وهدهد معنوياته، شأن أي إنسان آخر.

فيما بعد، أخبرني السيد الرئيس أنه أراد التخفيف من حملات دعايته لكنه فزع من البرنامج المثقل الذي أعده له موظفوه بعد عودته من الشرق الأوسط. إلا أن كلينتون يقول ذلك دائماً، يشكو إذا كان برنامجه خفيفاً، ويتبرم إذا كان غاصاً بالعمل، لكنه سرعان ما يحبه وينفذه بكل دقائقه.

وكما تنبأت له، فقد عادت أسهمه تتدحرج نزولاً. وبعد أسبوع جارف رائع للديموقراطيين مع نهاية أوكتوبر/تشرين الأول، تحسنت فيه مواقعهم الإحصائية مع نجاح الرئيس في هايتي والشرق الأوسط، عادوا فخسروا زخمهم في أول أسبوع من نوفمبر/تشرين الثاني. والرئيس الذي قاد الشرق الأوسط إلى السلام قبل أسبوع، تحول إلى سياسي يقبل الأطفال ويصافح الأيدي ويأكل الهمبرغر. وبسقوط الرئيس.. سقط مرشحوه.

قلت للرئيس القلق كلينتون قبل أربعة أيام من انتخاب عام ١٩٩٤: «أنت على وشك أن تخسر مجلس الشيوخ والنواب» فأجاب: «لا، ليس مجلس النواب، هذا مستحيل» قلت مكرراً: «والنواب أيضاً.. وبفارق كبير». فأجاب: «مستحيل، أنت تخطيء إن كنت تعتقد ذلك فعلاً».

وامتعضت لأن الرئيس مرة أخرى يضيع الفرصة بعدم تخليه عن جبنه، وتابعت قائلاً بلهجة قتالية: «لن يكون مستحيلاً في حالة حدوث ما أنت متأكد من أنه لن يحدث، سأرسل لك بالفاكس البيان الذي عليك أن تدلي به بعد صدور نتائج الانتخاب».

كنت خلال علاقتنا أتحدث دائماً بصراحة حين أجد كلينتون يخطيء. وقد اعتمدت هذا الأسلوب في التعامل معه، لأنني أعرف أنه يفضله ويقدره. فقد قال لتود بوردوم محرر النيويورك تايمز أنني «كنت دائماً صريحاً ومباشراً وصادقاً معه في الأخبار السيئة والجيدة على حد سواء». فبقدر ما كان كلينتون حاداً في نقد ذاته، كان رفيقاً بمشاعر الآخرين.

في اليوم التالي لانتخاب عام ١٩٩٤، لم أحتج إلى منبه لأستيقظ، فقد أيقظني جرس الهاتف. وكان المتحدث كلينتون، الذي رأى بأم عينه أكبر هزيمة مني بها الحزب الديموقراطي منذ عام ١٩٤٦، خسر فيها أغلبيته في مجلس الشيوخ والنواب.. نعم.. والنواب!!

قال بصدر رحب: «لقد كنت على حق، وقد أدليت بالبيان الذي أرسلته لي، فماذا أفعل؟».

لقد انتظرت سبعة وأربعين عاماً من عمري، هذه اللحظة التي يسألني فيها رئيس الولايات المتحدة هذا السؤال، قلت للرئيس: «دعنا نلتقي ونبحث الموضوع». والتقينا، وتحدثنا المدة اثنين وعشرين شهراً.

الفصل الثاني

عودتي

خلال الأسابيع الأولى من نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٩٤ ، تحدثنا طويلاً كلينتون وأنا ، نبحث عن توازننا وسط أغلبية جمهورية جارفة . ورغم أن فترة رئاسته ما زال فيها أكثر من سنتين ، إلا أن الصحافة بدأت منذ الآن تصفه بـ« البطة العرجاء »(*) ، كرئيس يتمم مدته إلى أن تسحقه مدحاة الجمهوريين البخارية ، وكرئيس « لا علاقة له بشيء » أو « ساقط خاسر » حسب تعبير المعلقين في واشنطن .

كنت أشعر أنه على وشك أن يطلب مني العودة لأعمل لصالحه ، وهذا يطرح سؤالاً هاماً عن الاتجاه الذي سأسلكه ، والذي يمثل إلى حد كبير حياتي كلها . فقد وصلت إلى قمة كوم من مستشاري الجمهوريين ، وكنت سعيداً بالعمل لصالح مرشحيهم . وإذا ما عدت إلى العمل لصالح الرئيس ، فلن تتاح لي أبداً فرصة العودة إلى الحزب الجمهوري . لكن فكرة العمل مع بيل كلينتون في البيت الأبيض أسرتني وأثارتني .

ثمة احتكاك قليل وتقاطع نادر بين خطوط الأحزاب ، بسبب التباين والفجوات الخلافية بينها ، وكأن كل من الأحزاب في بلدنا يعيش عالماً مختلفاً عن الآخر . حتى القيادات السياسية لحزب ما ، فغير موثوقة عند الأحزاب الأخرى معتقداً وتحركاً . والديموقراطيون بشكل خاص ، يجدون صعوبة في فهم عدم انتمائي إلى أحد الحزبين ، فهم ليسوا على علاقة وثيقة بأحد من الجمهوريين ، وغالباً ما يظنون سراً أنهم أشرار . ومثل هؤلاء السياسيين يذكرني بشخصية وورباكس في مسرحية من برودواي عنوانها (آني) . وهو رجل أمضى حياته جمهورياً ، وأزعجه الكساد « حين لا أحقق أنا أرباحاً ، فلا أحد يحقق ذلك » ، فقرر دعوة رئيس الحزب الديموقراطي إلى العشاء ، ليبحثا معاً ما يحدث من أمور سيئة . لكن فكرة تناول

(*) مصطلح سياسي يعني صاحب المنصب الضعيف ، الذي يواصل القيام بأعباء منصبه فترة مؤقتة تمتد بين هزيمته في الانتخابات وبين تولي الفائز مكانه رسمياً . — المعرب —

الطعام مع خصم له أربكته، فأوعز إلى سكرتيره «أن يتصل بآل سميث ويعرف منه ماذا يأكل الديموقراطيون».

لم يقتصر عملي على مرشحي هذا الحزب أو ذاك، لأنني مثل غالبية الناخبين الأذكياء لا أنتخب بهذه الطريقة. فقد أعطيت صوتي لهامفري في عام ١٩٦٨، ولماك غوفيرن في عام ١٩٧٦، ولريغان في عام ١٩٨٠ وعام ١٩٨٤، ولبوش في عام ١٩٨٨، ولكلينتون في عام ١٩٩٢. أحياناً أنتخب الجمهوريين وأحياناً أخرى الديموقراطيين، وحوالي ٤٠٪ من الناخبين الأمريكيين يفعلون ذلك. أما في واشنطن فعليك أن تكون إما في جناح الجمهوريين، أو في جانب الديموقراطيين.

ولهذا كان زبائني يميلون إلى تحديد نظرتي السياسية الخاصة، أهي معتدلة، أم توليفية تعتمد على إمساك العصا من منتصفها. كان أغلبهم معتدلين من الحزبين، بما فيهم السناتور الجمهوري وارين رودمان من نيوها مبشاير، والحاكم بيل ويلد من ماساتشوستس، والحاكم بيت ويلسون من كاليفورنيا، والحاكم توم ريدج من بنسلفانيا. والسناتور الديموقراطي دافيد بريور من أركنساس، والسناتور جيف بنغامان من نيومكسيكو، والحاكم مارك وايت من تكساس، وكلينتون. كما عملت أيضاً لصالح الليبراليين كالسناتور هوارد ميتزينبوم من أوهايو، وعضوة الكونغرس بيلا آبزوغ من نيويورك. إضافة لعملي مع المحافظين مثل السناتور ترينت لوت من الميسيسيبي، والسناتور دان كوتس من انديانا، والسناتور باولا هوكينز من فلوريدا.

ولقد أعجبت بميتزينبوم وآبزوغ ولوت وكوتس وهوكينز، لأن لديهم جميعاً ما يقولونه: ميتزينبوم عن سرقات شركات النفط، وآبزوغ عن فيتنام، وكوتس عن استخدام الإعفاءات الضريبية لتشجيع الناس على العناية بأقاربهم المسنين أو على تبني الأطفال، وهوكينز عن الأطفال المفقودين والمنبوذين. أما السناتور لوت وهو عضو في حزب الشعب الأمريكي وديموقراطي سابق، فقد أحببت فيه موديل حذائه.

على الصعيد الشخصي، كان عدد كبير من الجمهوريين الذين عملت لهم، أكثر لطفاً وكرماً من كثير من الديموقراطيين الذين تعاملت معهم. دان كوتس مثلاً جنتلمان يحمل مبادىء دينية عميقة، أحد أعماله الخيرية التي قام بها، هو أنه أجبر على الاستقالة عام ١٩٩٠ لأنه استعمل سلطته في إرسال طرود بريدية إلى أحد مرشحي المجلس النيابي في مقاطعة أخرى، وتحولت هذه الجريمة الثانوية في أهميتها نسبياً إلى فضيحة سياسية، وكان واضحاً أن كوتس لم يستفد من هذه الطرود، بل ولم يكن يعرف عنها شيئاً، ومع ذلك فقد تعرض على مدى عام كامل للضغط والإيذاء، حتى أنه ألمح إلى أنه سيتقاعد ويعتزل، إلا أن

غموض الأخلاقية السياسية لم يرحمه . عارض رفع الضرائب لأنه يحزن فعلاً حين يرى العمال يتخلون عن أجورهم للامبالين البيرقراطيين . ووقف ضد أن تقوم المدارس بنقل طلابها بوسائطها ، ليس لأنه عنصري ، بل لأنه لا يريد لأولاد في السادسة أو السابعة من العمر أن يذهبوا إلى مدارس غريبة جديدة ، ولا يريد أن يجعل حياتهم أكثر صعوبة بنقلهم إلى مدارس بعيدة في الضواحي حيث لا أصدقاء لهم هناك .

كان لكوتس تأثير كبير على برنامج كلينتون . فقد سرقنا فكرته عن التخفيض الضريبي ، وتم إصدار قانون بها . واقتراح ضريبة تشجيعية على مشتري الكماليات جاء أيضاً من كوتس . باختصار لم أترك مع كلينتون فكرة لكوتس إلا عرضناها على الكونغرس .

****

لم يكن كل زبائني على هذا القدر من الروعة ، فقد ارتكبت غلطة بعملي مع جيسي هيلمز في حملة لإعادة انتخابه عن نورث كارولينا عام ١٩٩٠ . فقد كان هيلمز سناتوراً رديئاً . إنه فعلاً من طراز الجنوبيين القدامى الذين لا يتسامحون مع أي شخص ليس مثلهم ، أمريكي ، ذكر ، لوطي . لقد غلطت في الحكم عليه ، وكان يجب ألا أعمل معه .

كان قادة الديموقراطيين يرتابون بماضيّ الديموقراطي . وكان القصد من عملي مع هيلمز أن أثبت لهم ولائي ، فاعتبرت ذلك بمثابة طقس تكريسي لقبولي في جماعتهم ، أقوم به لمرة واحدة ، آملاً ألا يصبح عادة أو قاعدة . وكنت مدفوعاً بحكاية شخصية عن حياة هيلمز .

ذات ليلة من ليالي عيد الميلاد في الستينيات ، قبل أن يدخل هيلمز عالم السياسة ، كان مع زوجته دوت يتفرجان في التلفزيون ببيتهما في نورث كارولينا ، على برنامج عن أطفال في مخيم للأيتام ، من بينهم طفل مصاب بشلل دماغي يبلغ من العمر خمس أو ست سنوات ولا يستطيع المشي . سألوا الطفل عما يتمنى أن يكون لديه في عيد الميلاد فأجاب : أم وأب . فانطلق جيسي ودوت إلى المخيم في الصباح ، وبعد ستة أسابيع تم تبني الطفل . وربياه كما لو كان طفلهما ، ودفعا مئات ألوف الدولارات لعمليات جراحية لم تنجح في أن تجعل الطفل يقف على قدميه . ولم يسمح هيلمز لهذه القصة أن تذاع من باب الدعاية أو الأخبار ، حتى وهو مهدد بالهزيمة في الانتخابات .

حين فكرت بالعمل مع هيلمز ، كنت بدوري مأخوذاً بتحذيراته الصحيحة . كان يدين استعمال المخدرات بأسلوب لا يجاريه فيه أحد ، ويحذر من انتشار الإدمان الذي ينتج الكثير من المآسي الشخصية . سياسة زيادة نفقات الدفاع التي أيدها طويلاً ، سرّعت بالفعل

من انهيار الشيوعية حين أخفق الاقتصاد السوفييتي في منافسة الولايات المتحدة. لكنني حين أردت لحملة هيلمز أن تقوم على هذه الأفكار، خاب أملي بشكل عميق. فقد تصارع هيلمز وخصمه على أمور دعائية إعلانية كعقوبة الإعدام، والثقافة، والبيئة. وكنت لا أستطيع أن أتخلى عن حملة في منتصف الطريق، إنما كان علي أن أفعل. حين طردوني، استدعاني مدير أعمال هيلمز وقال: «نحن نقدر نصائحك، إلا أننا نود أن نفوز بهذا السباق على الطريقة القديمة». وبعد ذهابي، أصبحت عبارات الحملة ومنطلقاتها هجوماً على المرشحين الديموقراطيين الذين قبلوا الدعم من مجموعات خليعة لأجل دعمها عنصرياً.

لكن السياسة ليست مجرد أشخاص أخيار مقابل أشخاص أشرار. فغالباً ما يلف الضباب خيوط العناصر التي تتوضح فقط أمام من يعرف هؤلاء الأشخاص، لكنها لا تتوضح أمام من لا يعرفون سوى الكتابة عنهم. هل يجوز لمستشار سياسي ديموقراطي ألا يعمل مع بيل ويلد، ويجوز له أن يعمل مع جورج دالاس؟ هل كان من الصواب العمل مع ترينت لوت وفيل غرام ورونالد ريغان حين كانوا ديموقراطيين، ثم صار من الخطأ العمل معهم حين تحولوا إلى جمهوريين؟ الحياة ليست مجرد أبيض وأسود.

لقد قام قراري بترك الجمهوريين والعمل لصالح كلينتون على حقيقة بسيطة هي: أنك لا تستطيع أن تقول لا للرئيس. لك أن تظن أنك ستفعل، ولك أن تظن أنك ستستطيع أن تقول لا لرجل عرفته ونصحته على مدى عشرين عاماً تقريباً. إنما لن تستطيع ذلك وهو في الحضيض يقاتل في معركة حياته ومستقبله.

كنت أعرف أن علي ترك الاستشارات السياسية الطبيعية واغتنام الفرصة للعمل مع بيل كلينتون. فلقد سبق لي أن تخليت عن كثيرين من الديموقراطيين لأعمل مع بعض الجمهوريين، والآن علي أن أتخلى عن الجمهوريين لأعمل مع كلينتون.

حين ألتفت اليوم لأرى وصولي إلى واشنطن، أتذكر منظراً من فيلم حديث بعنوان «يوم الاستقلال»، حين يهجر الجميع واشنطن بينما رجال الفضاء يحلّقون مهددين فوق رؤوسهم، وهم ينتظرون تدمير المدينة. ليسوا كثيرين من يذهبون إلى واشنطن في هذه الأيام لمشاركة كلينتون، بينما يهرع ديموقراطيو الكونغرس ليصيروا جمهوريين. الكل ما عداي كان واثقاً من أنه مات سياسياً. ولقد صاغها الرئيس نفسه في ربيع عام ١٩٩٦ فقال: «تصرف ذكي من ديك يقوم به الآن (يعني عملي معه) لكنه لم يكن كذلك في عام ١٩٩٤».

أعطيت قراري لكلينتون وأشرت إلى المخاطر الشخصية التي سأتعرض لها، في لقائنا بنوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٤ في قاعة المعاهدات المزخرفة في البيت الأبيض، التي يستعملها

كلينتون مكتباً له، ويسكن في الجناح الشرقي بدلاً من الغربي حيث المكتب البيضوي. أخذنا مقاعدنا مقابل الجدار المعلق عليه اثنان من أسلافه الرؤساء. وكان وليام ماكينلي، الذي وقف في هذه القاعة ليتقبل استسلام إسبانيا في الحرب الإسبانية الأمريكية، ينظر إلينا من صورته الضخمة، ونحن جالسان أمام طاولة للقهوة موشحة بخاتم الرئاسة. بينما كان كلينتون يتأمل لوحة جورج هيلي «لنكولن وجنرالاته».

قلت له: «ثمة شخصان سيتخوزقان فعلاً لو خسرت، أنت وأنا. كل الآخرين لهم خطوطهم التي يفترض أن يسيروا فيها. لكنك ستخسر وظيفة، أما أنا فسأخسر كل عمل لي بشكل دائم. لقد تركتُ الحزب الديموقراطي، ولن يسمحوا لي بالعودة، وأنا الآن على وشك أن أهجر الحزب الجمهوري بكامله، ولن يسمحوا لي أيضاً بالعودة. وحين تكون مستشاراً سياسياً في بلد ليس فيها سوى حزبين، فلن يكون من المستحسن أن تتخلى عنهما معاً».

تلك العبارة الأساسية المقتضبة أثرت في الرئيس. ليس أمامي طريقة أخرى إلا النصر.

حين كنت أنتظر مقابلة للرئيس، غالباً ما كنت أتجول في الغرفة لأقف متأملاً لوحة لينكولن وجنرالاته. كان ثمة وجوه شبه، فيما أرى، تجمع بين لينكولن وكلينتون، فكلاهما جواد رابح من ولاية غربية صغيرة (لينكولن كان من ايلينوي)، ولم تكن لديهما أية تجربة أو خبرة واشنطونية على الإطلاق. كلينتون عمل محرراً في كابيتول هيل أيام مراهقته. ولينكولن عمل سنتين في مجلس النواب. وكلاهما انتخب بأكثرية لا تزيد عن ٤٠٪، في انتخابات من ثلاث جولات.

الأهم من ذلك كله، كلاهما لم يكن رئيساً لحزبه، يشك فيه أعضاء حزبه، ويتجنبه معارضوه. وكردة فعل، فكلاهما كان يستأجر الرجال الواثقين بأنفسهم كوزراء (كما كان حال لينكولن) أو كموظفين في البيت الأبيض (كما هي حال كلينتون) لخدمة الرئيس، إضافة إلى استخدامهم كوسيلة يصل بها الرئيس إلى مراكز القوة الأخرى في الحزب. كان ثمة ثلاثة أنداد في مجلس وزراء لينكولن ينافسونه على الترشيح للرئاسة في حزب الجمهوريين. (وزير الدولة وليام سيوورد، ووزير الحرب إدوين ستانتون، ووزير المالية سالمون تشايس). أما موظفو كلينتون فقد كانوا مجرد خدم حقيقيين موالين، إضافة إلى أنهم سفراء معتمدون لدى أجنحة الحزب الأخرى. كان ليون بانيتا، رئيس الطاقم في البيت الأبيض، واسطة الارتباط مع طبقة البارونات في قيادة الحزب الديموقراطي. بينما كان جورج ستيفانوبولوس حلقة الوصل لديك غيفارد وعمل عنده ذات مرة. هارولد آيسكيس معاون رئيس طاقم الموظفين كان

حلقة الوصل مع العماليين واليساريين وجيسي جاكسون. أما ماك ماكلارتي رئيس طاقم الموظفين السابق عند كلينتون فكان حلقة الوصل مع المجتمع التجاري ورجال الأعمال، شأن إريسكين بولز الرئيس الجديد للموظفين الذي كان مساعداً من قبل. وزير التجارة رون براون كان حلقة الوصل مع السود، وتنظيم الحزب القومي الذي كان رئيساً له ذات مرة، وعالم رجال الأعمال. وزير الإسكان وتطوير المدن هنري سيزنيروس حلقة اتصال كلينتون مع أمريكا اللاتينية. كلهم سفراء، وكلهم موالون للرئيس، لكنهم جميعاً في نظره حبال تشده إلى حلفائه العتاة في الحزب أيضاً.

لم تكن لدي جهات اتصال في الحزب، وأوضحت أنني لن أبقى في العمل لفترة انتخابية ثانية. وسأغادر في يوم الانتخاب، ولي هدف واحد لا غير هو: الفوز، وهذا ما كان يشاركني فيه كلينتون.

★★★★

انطلقت سراً إلى البيت الأبيض في صباح باكر من أيام ديسمبر / كانون الأول لمقابلة الرئيس والسيدة الأولى في قاعة المعاهدات. كانت هيلاري حلقة الوصل المباشرة لي مع الرئيس في فترة ١٩٩٢ ـــ ١٩٩٤. وحاولت أن أقدم لها المشورة في عملها الخاص وفي أسلوبها السياسي الخاص، نصائح عامة ثانوية في مجال العناية بالصحة وضبط معايير المعارضة. وكنا نتحدث مرة أو مرتين كل شهر، وغالباً ما كنت أمرر أفكاري إلى الرئيس عبر السيدة الأولى. ولكن منذ أن أخطأ كلينتون، في رأيي، في سلوك طريقة حكم الحزب الواحد في عام ١٩٩٣، شعرت أن تكتيكات النصائح اليومية لم تعد تكفي لتصحيح المشاكل الرئيسية التي تواجهها الإدارة.

حين عاودت الارتباط بكلينتون بعد انتخابات عام ١٩٩٤ بدأت أتطلع إلى العمل قريباً من هيلاري كما كنت في السنين السابقة، لكن السيدة النفعية الواقعية التي عرفتها في الثمانينيات، لم تكن السيدة نفسها التي احتلّت العناوين الرئيسية في التسعينيات.

أنا لا أميل كثيراً إلى التحضير المسبق للّقاءات والاجتماعات، إذ كلما فكرت فيها سلفاً أكثر، ازددت قلقاً وتوتراً. وأجد أن التخطيط والتركيز قبل أوانه يفسد عفويتي ويحدّ من إبداعي وخيالي. ولهذا.. وباعتبار أهمية هذا الاجتماع (الذي أعرف أنه قد يكون الأهم إطلاقاً في حياتي كلها) فقد تعمدت ألا أحاول التفكير به، وتفحصت ما أعتقد أن كلينتون أخطأ فيه بالماضي، وكيف يمكن تصحيحه مرة أخرى، متجنباً تكرار واجترار نفسي. وجعلت هدفي أن أكون رخواً حراً، طرياً رشيقاً، سريعاً مرناً، مقبولاً مركّزاً، وتلك هي الصفات التي يحتاج المرء إليها في لقائه مع كلينتون، فما بالك في لقائه مع الاثنين، كلينتون وهيلاري.

كان علي أن أنتقي ثيابي وربطة عنقي بعناية . هل هذه الربطة مزخرفة كثيراً ؟ وهل توحي تلك بأن صاحبها عميق التفكير ؟ هل هذه الربطة تجعلني أبدو متعجرفاً ؟. كان كلينتون يحب الثياب ، فقد نظر مرة وهو حاكم إلى حذائي المزخرف وقال : « لو أنني أصبحت مستشاراً سياسياً ، هل تظن أنني أستطيع ارتداء مثل هذا الحذاء ؟ » رغم أنه يعلق عادة على ربطات العنق .

وكانت المقابلة جيدة .

قال كلينتون : « أريدك أن تعود لتقوم هنا بما كنت تقوم به هناك في أركنساس . أنا بحاجة إلى أفكار جديدة وإلى استراتيجية جديدة ، لكني لا أحصل على ما أحتاج إليه . أريدك أن تشاركنا فقد ضاعت ثقتي بفريقي الحالي .

وتبادلنا النكات حول توازي الوضع الحاضر مع ما كان عام ١٩٨٢ وجهودي الإنقاذية وقتها . وقالت هيلاري تغيظ زوجها مداعبة : « عليك أن تقلع عن تمثيل دور المحتاج إلى الإنقاذ دائماً » فرفع الرئيس كفيه باستسلام قائلاً : « ستكون هذه آخر مرة ، أقسم على ذلك » .

كنت أريد أن أتأكد من أنه سيعطيني كل ما أحتاجه ، فقلت : « إذا فشلنا وخسرنا ، فسيكون ذلك إما لأنني أنا لستُ بالمستوى اللازم ، أو لأنك لستَ بالمستوى اللازم . وهذا لا يهم ، لأنني أعرف نفسي وأعرفك ، ومستعد لهذه المخاطرة . لكنني لا أريد أن أكون في وضع أفشل فيه لأنني لم أحصل على كل ما أحتاجه للفوز » . ثم وضعت ثلاثة شروط لعودتي .

أولاً ، السلطة الكاملة على توجيه الحملة الانتخابية ، وطلبت من كلينتون استئجار دوغ شوين من مؤسسة بن وشوين للقيام بالتنفيذ . كان شوين محترفاً أصلع ، له كرش وأسلوب ممل في سرد ما يريد أن يفعل ، وكانت تربطني به صداقة تعود إلى سن المراهقة . اعتاد أن يقضي عطله الأسبوعية مع زوجته في بيتهما الذي يبعد عدة أميال عن بيتنا في ريدينغ بولاية كونيكتيكت ، وكانا من خواص الأصدقاء لي ولزوجتي إيلين . كان طبلنا الرنان الذي يعلن بضرباته عن قدومنا أينما ذهبنا ، ويعمل على ملازمتنا أينما كنا ، وكان أكثر تحفظاً مني في التركيز على مقاطعة الناخبين الديموقراطيين الذين يرى أن علينا استقطابهم .

إلا أن الرئيس في البداية لم يكن يثق بشوين . فقد ساهم دوغ في انتخاب عدوه اللدود ، الذي أصبح الآن من أنصاره وخلفاً له كحاكم ، جيم غاي تاكر . لكن كلينتون لم يكن متأكداً مما إذا كان شوين قد انتخب تاكر فعلاً ، إلا أنه تضايق من فكرة منحه الثقة . كان قلقاً من مسألة المتسربين الذين قادوه إلى الدمار في أول سنتين من رئاسته . قال لي مرة :

«لقد تعلمت ألا أقول شيئاً ، أي شيء ، في اجتماع يضم أكثر من ثلاثة أشخاص » . وقمت بضمان جانب شوين من هاتين الجهتين ، فتم استئجاره بناءً على ذلك .

ثانياً ، اختيار أحد موظفي البيت الأبيض للعمل معي . قلت للرئيس : «أنت لم تبدل أياً من أفراد طاقمك بعد أن أوصلوك إلى أكبر هزيمة في التاريخ ، وأنا لا أطلب منك أن تفعل ، لكن عليك أن تعطيني واحداً من بينهم » . طلبت من الرئيس توظيف بيل كاري ، المرشح الديموقراطي الذي خسر المعركة على منصب حاكم كونيكتيكت عام ١٩٨٤ .

كان كاري عضواً في حزب المحافظين ، واسع الثقافة ، طويل القامة ، ذكياً ، إيرلندي المزاج ، يتحرك متعالياً وكأنه لورد يملك كل ما حوله ورأسه في الغيوم ، نادراً ما تتكون جمله من أقل من ثلاثين كلمة ، يصوغها بشكل فني مبالغ فيه ، إلى حد أنني ـــ وأشك بأنه هو أيضاً ـــ أنسى من أين بدأ . لكنني كنت بحاجة إلى حساسيته الرشيقة تجاه دوافع الآخرين وردود أفعالهم ، وإلى مهارته في صياغة الأفكار والقضايا الجديدة .

لكن الرئيس طلب بدلاً من ذلك أن أعمل مع أحد أفراد الطاقم الموجود على رأس عمله ، واقترح بروس ليندساي الذي عرفته منذ أيام حملة دافيد بريور الانتخابية عام ١٩٧٨ . فأصررت على الحاجة لمرشحي . كان الرئيس قد تأثر بكاري حين شاركه إحدى الحملات الانتخابية في كونيكتيكت ، وامتدح بشكل خاص أفكاره حول استخدام أحواض السباحة في الرعاية الصحية ، لتخفيض رسوم التأمين ونفقاته . ولهذا ، وافق الرئيس في النهاية على تعيين كاري ، إلا أن الموضوع تجمد بعد أن بحث مع بانيتا مدى الحاجة إلى مزيد من الموظفين . وبعد أسابيع من الضغط استدعى الرئيس كاري وعرض عليه الوظيفة ، دون أن يشير إلي ، أو يلمح إلى المعارك داخل البيت الأبيض .

ثالثاً ، طلبت أن يكون لي اجتماع أسبوعي مع كلينتون ، وأن يتم عقده كل سبعة أيام مهما كانت الظروف والأحوال . وكنت أعرف قدرة بيل كلينتون على المراوغة والزوغان والاختفاء . في لحظة تظن أنه في متناولك هناك ، وفي اللحظة التالية التي تدير فيها رأسك عنه يختفي . ويبدو كالذاهل المسحور الذي أخذه الملل والضيق ، ويقطع المقابلات أو المكالمات الهاتفية التي هي عصب حياة المستشار السياسي . ولقد رأيت ذلك يحدث في أركنساس ، حين كانت الأسابيع تمر دون لقاء معه أو رد منه على المكالمات الهاتفية . كنت أهتف لبيتسي رايت وأسألها ما إذا كان قد نسي أنني ما زلت على قيد الحياة . وكان ردها المعتاد : «إنه ليس مستعداً للتفكير بالسياسة » . ولن أدع ذلك يحصل الآن ، فالخازوق هنا عالٍ جداً .

كانت موافقة الرئيس على الاجتماعات الأسبوعية هي النقطة المركزية في تنظيم حملته. ففي كل مرة يعقد فيها اجتماع، كانت الإشاعات تنطلق بأن مجموعة من المخضرمين في الاستشارات السياسية تجتمع أسبوعياً، وينطلق التخمين بأن من بين أولئك المجتمعين ماك ماكلارتي، رئيس طاقم موظفي الرئيس ورفيق عمره، والحاكم السابق نيد ماكويرتر من ولاية تينيسي، وبوب ستراوس رئيس اللجنة الوطنية الديموقراطية سابقاً الذي لم أكن أعرفه من قبل. كما قيل إن هذا الفريق من المستشارين الكهول يجتمع بانتظام مع ستيفانوبولوس ومدير الشؤون السياسية دوغ سوسنيك. ومرة أخرى لا أعرف إن كان ذلك قد حصل.

على كل حال، فإن الاجتماعات كانت معدودة. بدأت في ديسمبر / كانون الأول واستمرت أسبوعية (مع بعض الاستثناءات) إلى أن تركتُ العمل بالحملة، في نهاية أغسطس / آب ١٩٩٦. ثم تحولتْ إلى اجتماعات مركزية لقرارات الحملة واستراتيجيتها.

كانت الاجتماعات تقام غالباً في قسم السكن من البيت الأبيض، حيث هي قانونية ومسموح بها (بما أن هدفنا سياسي، فلم يكن بمقدورنا أن نجتمع في قسم الأعمال من البيت الأبيض)، وكانت تقتصر، في البداية، على الرئيس والسيدة الأولى وأنا. وفي أوائل يناير / كانون الثاني، توقفت هيلاري عن الحضور، فكنت أجتمع مع كلينتون وحده. وفي الأشهر القليلة الأولى من عام ١٩٩٥ أضفنا دوغ شوين إلى الاجتماعات. وفي آذار أدخل الرئيس ليون بانيتا، وآل غور، ومعاون رئيس طاقم الموظفين هارولد آيسكيس، وإريسكين بولز. ومع نهاية أغسطس / آب ١٩٩٦ أصبحت الاجتماعات تضم أكثر من عشرين شخصاً(*)

(*) فيما يلي القائمة النموذجية بأسماء حضور اجتماعات استراتيجية البيت الأبيض: الرئيس، نائب الرئيس، ليون بانيتا رئيس الطاقم، هارولد آيسكيس معاون رئيس الطاقم، إيفلين لايبرمان معاونة رئيس الطاقم، جورج ستيفانوبولوس كبير المستشارين، دون باير مدير الاتصالات، دوغ سوسنيك مدير الشؤون الخارجية، رون كلاين رئيس طاقم نائب الرئيس، ساندي بيرغر معاون مستشار الأمن القومي، السناتور كريس دوند من كونيكتيكت، جون هيلي مدير تشريعي، ماغي ويليامز رئيسة طاقم السيدة الأولى، مايك ماك كاري وزير الصحافة، هنري سيسنيروس وزير الإسكان وتطوير المدن، ميكي كانتور وزير التجارة، ماك ماكلارتي مستشار ورئيس سابق للطاقم، بيتر نايت مدير الحملة، آن لويس معاونة مدير الحملة ومديرة الاتصالات، رون براون وزير التجارة حتى وفاته، إرسكين بولز معاون رئيس الطاقم حتى مغادرته، جاك كوين رئيس طاقم نائب الرئيس حتى تعيينه مستشاراً في البيت الأبيض، ديك موريس مستشار، دوغ شوين مستشار، مارك بن مستشار، بوب سكواير مستشار، بيل ناب مستشار. — المؤلف —

قمت برئاسة الجلسات، وكنت دائماً أقوم بتحضير ملخص للنصائح المعدة من قبلي ومن قبل المستشارين لتقديمها إلى الرئيس في الاجتماع، وكان هذا الملخص، في الأسابيع الأولى، يصل إلى خمس أو ست صفحات، ثم وصل، في النهاية، إلى ٢٥ ــ ٣٠ صفحة. ولعلي كنت أقل زخرفة وتزويقاً بعباراتي في تلك الاجتماعات، لكن يبدو أن ربطات عنقي المزهّرة ذات الألوان الفاقعة أصبحت محط السخرية في البيت الأبيض.

أراد الرئيس في البداية، وأردت أنا لعلاقتنا أن تكون سرية، إذ لم يكن أحد منا واثقاً من حسن سير الأمور. كان أحدنا قريباً من الآخر في الثمانينيات، لكننا لم نعمل معاً فعلياً لمدة أربع سنوات، ولم يسبق لي أن عملت مع الرؤساء. أما بالنسبة لكلينتون فقد نشأت رغبته بالسرية من شك غامض لديه بقدرتي على معالجة أمور بهذا المستوى.

بالنسبة إلي، سيكون سقوطي طوبلاً لو صدر تصريح علني بأنني أعمل لهذا الرئيس الديموقراطي ثم تم صرفه من الخدمة. فهو ليس عضواً ديموقراطياً عادياً، إنه الهدف الذي يتمحور حوله تركيز الجمهوريين وكراهيتهم. وإدانتي بالعمل لصالح كلينتون يعني الحكم بالإعدام على جمهوري عميل. ولهذا، كانت السرية بالنسبة إلي حماية مؤقتة.

لم أطلب أبداً أي تعهد أو ضمان، ولم أطلب أبداً أية حصانة دبلوماسية. كنت أفترض دائماً أن بإمكان الزبائن أن يفصلوني من العمل وقتما يريدون، وما كان يقلقني بشكل خاص هو أن كلينتون لم يسبق له أن فصل من العمل أحداً من موظفيه. قال: «أنا لا أريد لأحد أن يكون كبش فداء».

قلت في نفسي: «اللعنة، إنهم الأشخاص الذين أخبرتني أنهم سدوا أبواب الرعاية الصحية، وورطوك في وايت ووتر، وتسببوا بأكبر هزيمة يمكن تصورها، فهل نفصل من العمل واحداً منهم؟ كلا بالطبع!! فأي سخف مضحك هذا».

لكنني فهمت لماذا يعارض فصل الناس عن العمل. فبيل كلينتون يشعر بالولاء العميق الشخصي للذين يعملون لصالحه، ويعقد معهم مواثيق يجد من الصعب عليه خرقها. لقد قرر أن يأخذ على عاتقه شخصياً المسؤولية الكاملة لهزيمته عام ١٩٩٤، ولم تسمح له أنانيته الفظة بأن يشارك الآخرين اللوم على هذه الكارثة.

وبالرغم من ظنوني ووساوسي فقد قلت بهدوء: «الأمر يعود إليك يا سيدي الرئيس، سألعب الدور الذي ترسمه لي». إنه بالفعل لم يسبق له أن فصل عن العمل أحداً من المستشارين الذين ساعدوه على الفوز عام ١٩٩٢. ماندي غرانوولد مستشاره الإعلامي

السابق، تم نقله إلى طاقم السيدة الأولى ليقدم لهيلاري نصائحه حول ظهورها في مقابلاتها التلفزيونية. جيمس كارفيل بقي اسمه، فيما أعلم، على مدى كامل الحملة ضمن جداول رواتب اللجنة الوطنية الديموقراطية، لكن دوره كان صغيراً في الحملة من ١٩٩٤ــ ١٩٩٦. بول بيغالا انتقل إلى تكساس. ستان غرينبرغ منظم الاستطلاعات والاستفتاءات بقي منظماً لاستطلاعات اللجنة الوطنية الديموقراطية، عمل في أمور الحملة الشكلية الثانوية، وبذل جهوداً كبيرة ليبدو أمام الصحافة أنه ما زال منظم الإحصاءات للرئيس بعد أن حللت محله. ومع ذهاب المستشارين القدامى (رغم بقائهم بين الكواليس للعودة إلى خشبة المسرح في أية لحظة) وبقاء طاقم الموظفين في مكانه، شعرت وكأنني فرنسي من الثوار يدخل قصر فرساي ليعمل مع لوردات وسيدات النظام القديم.

مهما كانت النتيجة، لم يكن كلينتون ولا أنا مستعدين لأن نراهن بجلودنا على أن هذا سيدوم. ومن هنا أصبحتُ تشارلي، الاسم السري الرمز الذي اخترته لنفسي. كنت أتصل هاتفياً بالمكتب البيضوي أو بمكتب الحجاب في البيت الأبيض وأعلن أن تشارلي على الخط. كانت نانسي هيرنريتش، رئيسة القسم الإداري للرئيس وصديقة حميمة لي من أيام أركنساس، وبيتي كوري من الميسيسيبي، تعرفان هذا السر، وكان يتم تحويل المكالمة إلى الهاتف الخاص بالرئيس فنتحدث.

كانت نانسي طويلة، جميلة، ذكية، بشعر أشقر طويل يجعلها تبدو أصغر من عمرها بعشرين عاماً وأكثر شباباً. ومن الواضح أنها موثوقة عند الرئيس أكثر من أي شخص آخر في البيت الأبيض. قديرة، بارعة، دافئة العاطفة، لكنها حازمة وتعرف الرئيس جيداً. أحياناً كانت تستوقفني على الخط وتسأل: «هل أنت مضطر للتحدث معه الآن، إنه لم ينم منذ ثلاثة أيام، وسينهار إن لم نضعه في سريره». وكانت أمينة تحافظ على أسرار الرئيس وأعماله كلها. وحين ماتت نقشوا على قبرها سطراً يقول: «كانت تعرف كل شيء ولا تسرب شيئاً».

لماذا اسم تشارلي بالذات؟ خمَّن البعض أنني أخذته من مسلسل «ملائكة تشارلي» التلفزيوني، الذي يحكي عن بنات جميلات من الشرطة السرية، يأخذن أوامرهن من مجهول اسمه تشارلي. وهذا مستحيل، لأنني لم أر هذا المسلسل في حياتي، فأنا أتفرج في التلفزيون على الدعايات السياسية، وعلى أفلام ليلة الأحد مع إيلين. لقد اخترته في الواقع على اسم صديقي المفضل المستشار السياسي الجمهوري تشارلي بلاك، الذي تربطني به علاقة حميمة. لقد طردت لاستعمالي اسم أحد قادة الجمهوريين في تعاملي مع رئيس ديموقراطي.

يعود هذا الاسم الرمز لحد ما إلى أول أيام عملي مع كلينتون، حين كانت السرية جزءاً من منهجي في أركنساس. فخلال جميع السباقات التي خاضها كلينتون هناك، لم يظهر اسمي أبداً في صحافة أركنساس. لم يعرف أحد أنني هناك، ولم يحاول أحد أن يستوقفني أو يعترض طريقي. كنت دائماً خلف الكواليس، فحياتي الخاصة تهمني كثيراً، أو لعلي كنت أعتقد بأن بإمكان الدعاية أن تدمرني، كما حصل تماماً في نهاية المطاف. كنت أتجنب خشبة المسرح بشكل غريزي، وأغادر المكان قبل وصول المصورين. كان هذا هو أسلوبي المميز الذي أحبه كلينتون.

كان كلينتون مسروراً أيضاً، لعدم وجود أحد في واشنطن يعرف أنني أعمل معه. فكان يهمس وهو يتكلم في الهاتف، بشكل لا يسمعه معه أحد في المكتب البيضوي، أو يدخل إلى مكتبه الخاص المجاور ليتلقى مخابراتي هناك على الخط الخاص دائماً، حيث لا أحد يسترق السمع.

ذات مرة في شتاء عام ١٩٩٥، اتصلت بالهاتف لأتحدث مع الرئيس، وكان في اجتماع مع ليون بانيتا وهارولد آيسكيس وعدد من موظفي البيت الأبيض، فأرسل إلي أنه سيتصل بي. وحين اتصل بعد نصف ساعة قال بلهجة تآمرية: «لقد اتصلت بك فور تخلصي من أولئك المضحكين». كانت سعادته كبيرة في تلك الأيام، أيام تشارلي. وكان أمراً شبيهاً بالمعجزة ألا تكتشف الصحافة حتى نيسان/أبريل ١٩٩٥، أنني كنت منذ ديسمبر/ كانون الأول الذي سبقه أقرب المستشارين السياسيين إلى الرئيس.

★★★★

كان علينا، لتغيير وتوجيه سوء حظ الرئيس في محنته، أن نبدأ بمعرفة كيف سقط وانهار، وما هو الخطأ الذي جعل إدارته تتردى في نظر الرأي العام؟ في رأيي، أن البداية تعود إلى عدد من الفرضيات الأولية الخاطئة، التي اعتمدها كلينتون في نوفمبر وديسمبر/تشرين الثاني وكانون الأول من عام ١٩٩٢، بعد فوزه بالانتخاب بعدة أيام.

وكانت لكل هذه الافتراضات علاقة بذاكرة الرئيس الانتخابية عن جيمي كارتر، آخر الديموقراطيين في البيت الأبيض. فقد كانت إدارة كارتر في نظر كلينتون عاجزة عن أي إنجاز، تتصيد أعضاء الكونغرس واحداً بعد الآخر، خرقاء، تفتقر إلى التماسك. أخطاء كارتر هذه تقمصت في كلينتون.

كانت وجوه الشبه والتماثل بين الرجلين قوية. فكلاهما لم يكن بوسعه، بعد استلامه منصبه، أن يجد طريقه في واشنطن دون خريطة. وكلاهما كان حاكماً وليس عضواً في مجلس

الشيوخ ، ومن ولاية جنوبية ريفية أصلاً ، وليس من عاصمة شمالية كبيرة . وكلاهما تم انتخابه خارج إطار حزبه العام ، وحقق نصراً ديموقراطياً عقب حدث هام جمهوري : كارتر عقب ووترغيت ، وكلينتون عقب الركود الاقتصادي . وكلاهما هزم أصحاب المناصب الرديفة ، ولم يكن ظلاً لأحد ، كما كان جيرالدفورد لنيكسون وجورج بوش لريغان . والأكثر من هذا كله ، كلاهما لم يحصل على ٥٪ من الأصوات في مؤتمرات الديموقراطيين بالمجلسين حين بدأ سباق التنافس . هذان الرجلان لم يكونا أشخاص مؤسسة ، بل من المشاركين الثانويين الذين جاؤوا ليملأوا فراغاً في القيادة الرئاسية لحزب تحكمه أجنحة الكونغرس .

ومع ذلك فقد كانت لدى كلينتون خطط كبيرة : التنشيط الاقتصادي ، إصلاح الرعاية الصحية ، المعونة الاجتماعية ، الفيالق المقاتلة الأمريكية ، ضبط وتوجيه القروض الطلابية ، الإجازة العائلية والطبية ، المبادرات البيئية . وعلى رأسها جميعاً الآن ، تخفيض العجز في الميزانية . ولكن حين اصطدمت هذه الاقتراحات مع غياب العلاقات الضرورية لتحقيقها ، ثارت مخاوف كلينتون .

قام في البداية باستدعاء جورج ميتشل ، وتوم فولي ، وديك غيفارد ، الواحد بعد الآخر . سباع الكونغرس ينادون على الأشبال لحماية البيت الأبيض . وكانت رسالتهم : نحن معكم . نحن من ورائكم . وسنرتب الأمور لكم . ليس هناك تيب أونيل يدعم جيمي كارتر هذه المرة . نحن هنا من أجلكم . وحين التقى كلينتون معهم أول مرة بتاريخ ١٥ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٩٢ ، نظر إليهم كما لو أنهم صف من المهاجمين ، وقال لنفسه : رجال كبار كبار كبار يريدون أن يسدوا الطريق ويمسكوا خصمهم ليحموا ظهيرهم الربعي(*) ، ولكن هل سيلتزمون ببرنامجي ؟

« نعم سنلتزم » وأقسموا على ذلك . ولم يكن فيهم من له أهداف شخصية بعيدة المدى ، كانوا هناك لإنجاز المهمة الموكولة إليهم ، وله أن يذهب بهم إلى حيث يشاء وقتما يشاء .

إلا أن ثمة بعض السلبيات . فإعادة تشكيل التمويل المالي للحملة كان أمراً ملحاً . فزملاؤهم كانوا يعتمدون على المساعدات في الحفاظ على مقاعدهم ، وطبقاً للحقوق المدنية في الأيام الأولى من إدارة كينيدي ، كان الرئيس مستعداً لأن يضع التمويل المالي في المرتبة الثانوية كيلا يزعج حلفاءه في الكونغرس .

(*) تعبير رياضي ، يعرفه تماماً من يجيد لعبة كرة القدم الأمريكية (الركبي) .

بالنسبة لقادة الكونغرس، فقد ارتاحوا حين وجدوا في هذا الرئيس الوافد رجلاً عملياً مستعداً للعمل معهم. أما بالنسبة لكلينتون فقد شعر بأن جاذبيته قد فعلت فعلها، بشكل حقق معه فوزاً أجاب به على سؤال جيمي كارتر، ولن يكون هناك مذكرات لا تمر، ولا متصيدون في الكونغرس. سيكون هناك بدلاً من ذلك صف موحد من المدافعين يحميه ويغطيه.

إلا أن لهذا كله ثمناً، وثمناً كبيراً. فهذا المستقل الطليق يقبل أن يُربط إلى مقعد على مكتب، هذا الظهير الربعي المندفع بمنكبيه، الذي اعتاد أن يعيش على براعة مواهبه، وذكائه، وأسلوبه الارتجالي، ومرونته، أصبح عليه أن يبقى تحت الغطاء الذي يؤمنه له مدافعوه. ولن يستطيع أن يتحرك تحت هذا الغطاء، وبهذا أصبح حبيس لعبة لم يسبق له أن لعبها من قبل. لقد سبق له أن قاد العديد من الفرق، لكنه لم يسبق له أن قاد فريقاً يمتلك نوعاً من ضيق الأفق يتحول معه في النهاية إلى مشلول.

في أركنساس، حين كان عليه، مثلاً، أن يحقق هدفه في تعيين المدرسين الأكفاء المؤهلين، كان يتجاوز المرشحين التقليديين من الديموقراطيين، ويأتي بالجمهوريين أو المستقلين. لكنه الآن بعد ارتباطه بالأغلبية الديموقراطية في المجلس فقد قدرته على المناورة.

قلت له محذراً في لقائنا بتاريخ ٢ ديسمبر / كانون الأول ١٩٩٢ بمنزل الحاكم في ليتل روك وهو يتهيأ للانتقال: «أنصارك سيصبحون سجانوك، ولن يطلقوا سراحك إلا تحت حمايتهم، إن نيتهم حسنة، ويريدون مساعدتك، لكنهم لا يستطيعون، وسيحدّون من قدرتك على الحركة حين تسير الأمور ويجرّونك إلى الأسفل، ستعتقد أنك مرشحهم المفضل لكنك ستتحول إلى رهينة عندهم».

وحين طلب مني الرئيس أن أدخل في التفاصيل، قلت إن الموضوع سيحتاج إلى ستين صوتاً لتمرير مشروع قانون ما في الكونغرس، وأضفت قائلاً: «لقد مضى زمان مفهوم الـ ٥١ إلى ٤٩٪ في عالم التصويت». قديماً، أيام كان ميتشل زعيم الأغلبية في الكونغرس يحاول إفشال وإحباط مبادرات الرئيس بوش التشريعية، كان ذلك يتم بشكل آلي، وكانت الأصوات الستون ضرورة أساسية لحسم الجدل والحوار. إلا أن كلينتون وميتشل لا يملكون الآن ستين صوتاً، فالديموقراطيون لا يزيدون عن ستة وخمسين، وهذا ليس كافياً. ففي المجلس حيث حكم الأغلبية هو السائد، لا يزيد هامش الديموقراطيين الهزيل عن ١٧٨ ضد ٢٥٦، وهو هامش من السهل شقه وتحطيمه.

«سوف تقضي طوال أيامك بجمع شتات المرشحين الأحرار باحثاً عن الإجماع. سيجعلونك تقلع عن إصلاحاتك وتحسيناتك، وستخضع كل هذه الإصلاحات للجدل والاختلاف. ستجد نفسك في مواقف لم تقصد الوقوف فيها، وستتحول إلى رسم كاريكاتيري وأنت تدافع عنهم لتحافظ على الغالبية التي تشكل القاعدة المنطقية عندك».

قلت وأنا أحثه: «العب في طول الملعب وعرضه، وضَعْ الجمهوريين بين وزرائك» واقترحت عليه الحاكم السابق توم كين من نيوجيرسي والسناتور السابق وورين رودمان من نيوهامبشاير، وتابعت قائلاً: «اتصل بالشيوخ المئة جميعاً، وبأعضاء الكونغرس جميعاً البالغ عددهم أربعمئة وخمسة وثلاثون عضواً. بعدها بإمكانك أن تعالج اليساريين من الديموقراطيين بتخويفهم من أن تتعامل مع معتدلي الجمهوريين وتتركهم بعدها للجفاف واليباس».

لكن كلينتون لم يقتنع بذلك. ثم فهمت بعدها لماذا لم يقتنع. فبعد أن عدت للعمل معه، قدم تعليلاً في حديث عام جمعني معه بقاعة المعاهدات قال: «إنهم (ويعني الجمهوريين) لا يرون أن رئاستي شرعية، وينظرون إلي نظرتهم إلى طارىء عارض غير شرعي، جاء نتيجة خطأ ثلاثي المراحل. إنهم يريدون تحطيمي ولا يرغبون بالعمل معي، ولقد قدمت لهم كل ما يمكن أن يخطر بالبال من عروض واقتراحات دون استجابة».

كان على حق. فموقف الجمهوريين نموذجياً نحو رئاسته كان موقف السناتور بوب دول. الذي أعلن فعلياً عن أنه المرشح للرئاسة فور انتهاء انتخاب عام ١٩٩٢. لقد رأى هؤلاء الجمهوريون في كلينتون انقطاعاً قصيراً للبث في فترة إرسال حكمهم الذي سيعود في عام ١٩٩٦.

كان الرئيس وهو يحدثني، يلعب بالورق لعبة السوليتير(*) مرة بعد الأخرى. يرتب الأوراق بطريقة آلية، يوزع على نفسه أوراقاً جديدة، يدمج ثم يفصل المصفوفات، ثم يخربطها كلها، ليعود إلى اللعب من جديد. كانت يداه تتحركان لوحدهما كما لو كانتا ميتتين دبت فيهما الروح، تتحركان بلا توقف، وتتحركان وتتحركان. في فمه سيجار غير مشتعل، نادراً ما يزيحه من مكانه، نهايته التي يضعها بين أسنانه جافة سليمة من كل سوء.

رغم رفض الحزب الجمهوري لإدارته، إلا أنني لم أوافق الرئيس في فرضيته المنطقية الأساسية بأن كل عرض يقدمه للتعاون سيكون مرفوضاً. فالجمهوريون بالنسبة لهذا الموضوع ليسوا سواء، وبإمكان ذكائه وجاذبيته أن تجمع حوله ما يكفي منهم لتحقيق التعاون

(*) لعبة من ألعاب الورق (الشدّة) يلعبها لاعب واحد منفرداً.

بين الحزبين . إنما يبقى ذلك غير كافٍ لتمرير كل المذكرات والمقترحات والخطط بكل تفاصيلها ، وتلك هي المشكلة الحقيقية . فهو لم يستطع التعبير عن برنامجه ، لم يعرف كيف يقسمه إلى أجزاء . وكيف يستطيع ، إذا انتزعت الدرجة الأولى من السلَّم ، أن يحافظ على سلامة الدرجات الأخرى ؟

هذه الصلابة لم تنبع من الكبرياء ، بل من التوق إلى الكمال . كان يريد أن يفعل ما يراه صواباً ، واقتنع أن ما يشعر به هو أفضل مسلك تسير به البلاد ، فقرر أن يدفعها للسير فيه . واعتقد أن من الأفضل لو حصل على كامل الرغيف من الديموقراطيين ، بدلاً من أن يحصل على نصفه من أغلبية الحزبين . لكنه لم يقدر العواقب : فهو سينجرّ إلى اليسار أكثر فأكثر ليجمع شتات أصوات الديموقراطيين . قلت له متنبئاً : « لن تكون قادراً على أن تعرف نفسك بعد سنة واحدة فقط » .

ومع ذلك شعرت أنه مرتاح بدور الظهير الربعي ، مرتاح لفكرة الأغلبية التي تمنح لرئاسته الغطاء . كان يتوق إلى ملجأ يأوي إليه من منافسة خصومه ، وابتهج بعثوره على مكان في صدارة طاولتهم ، رغم أن هذا كان هو الخطأ الأساسي ، الذي أصبح بسببه رئيساً تابعاً للحزب الديموقراطي . فما إن ارتبط بعقائد الحزب ، حتى غدت قدرته على تمرير المذكرات والاقتراحات محدودة بقوة أصوات الحزب في الكونغرس ، وبدأ يغرق .

أراد مثلا تحويل الميزانية من ميزانية تقوم على الإنفاق البيرقراطي ، إلى ميزانية تقوم على الاستثمارات الاستراتيجية في التعليم ، والبحوث ، والتقنية . وكان بحاجة ليحقق ذلك إلى معدلات فائدة منخفضة في دعم تمويل مجالات العمل الجديدة التي كان يأمل بخلقها .

ولتحقيق معدلات الفائدة المنخفضة كان بحاجة إلى سوق مقيدة موجهة يمكن من خلالها تخفيض المعدلات .

وليحقق ذلك كان عليه وقف العجز في الميزانية . ولوقف العجز كان عليه الحصول على أصوات كافية لتمرير ميزانيته المقترحة . وللحصول على الأصوات كان عليه أن يزيد الضرائب وأن يمرر في الوقت نفسه اقتراح الحوافز ، ليحافظ على المسيرة الاقتصادية .

كما كان عليه أن يملأ اقتراح الحوافز بمشاريع حكومية تعود بالنفع على أنصاره في المدن ، وتواجه متطلبات مؤيدي الديموقراطيين الأحرار فيها .

ولهذا ، فإن الرئيس الذي أراد توظيف الاستثمارات في التعليم والبحوث التقنية ، وجد نفسه يدافع عن زيادات الضرائب وعن الإنفاق على المشاريع النفعية لجمع شتات أصوات الديموقراطيين .

أراد أيضاً تمرير مشروع اقتراح ضد الجريمة، يزيد من بنود الجرائم الفيدرالية التي يعاقب عليها بالإعدام، ويتطلب تمويل مئة ألف رجل شرطة إضافي، ويضع معايير أكثر صرامة لمراقبة بيع الأسلحة وإنتاجها وحيازتها، إلا أنه مرة أخرى احتاج إلى جميع الأصوات الديموقراطية، مما أوجب عليه أن يربط بين مشروع وقف الجريمة وبين ما سوف يدفع إلى نوادي كرة السلة لتبقى مفتوحة حتى منتصف الليل، لاستقطاب الفتيان وتخفيض معدل الجريمة. وبدا الأمر أشبه ما يكون باقتراح الحوافز الذي يشبه المشاريع الحكومية، وتحولت القضية لتصبح قضية «أندية كرة سلة في منتصف الليل» وليس قضية رجال شرطة، ولا قضية أحكام بالإعدام.

مع نهاية عام ١٩٩٤، كان كلينتون قد تحول فعلاً إلى كاريكاتير، يقاتل في معارك بعيدة عن جوهر معتقده، تقيده مطالب الديموقراطيين الأحرار في المؤتمرات.

وفهمت الجماهير ما حصل. فهذا ليس بيل كلينتون الديموقراطي الجديد المصلح الذي انتخبوه في عام ١٩٩٢. أين الإصلاح المالي الذي نادى به في حملته؟ (لقد دفن لإشباع نهم الديموقراطيين من أصحاب المناصب) لماذا زيادات الضرائب؟ (لأن أصحاب الأصوات من الديموقراطيين لا يصوتون على تخفيض الإنفاق كوسيلة من وسائل تخفيض العجز، بل يجب أيضاً زيادة الضرائب). لماذا الإكثار من الإنفاق على المشاريع الحكومية النفعية؟ (لإرضاء أنصار الرئيس من الديموقراطيين في المدن). وتحول الرئيس إلى رئيس وزراء يتابع جمع الأغلبيات التشريعية، معتمداً على كرمها، محكوماً برغباتها، وأصبح ملتصقاً ملتحماً بالمقررات الحزبية الديموقراطية، وتناقصت شعبيته، وانخفضت أسهمه.

في البداية، وقف قادة أصحاب الأصوات معه، للاحتفاظ بحق الفيتو، كيلا يتركوه يمضي ببرامج معتدلة، إلا أنهم استمروا في تمرير المشاريع التي تناسبهم وتناسبه. ومع ذلك، فقد سقط الغطاء الساتر. وبدأ الديموقراطيون، يأساً أو خوفاً من فقدان الرئيس لشعبيته ومن هبوط أسهم الموافقة عليه، بهجر وتجنب ظهيرهم الربعي. حتى القادة الذين حافظوا على ولائهم للنهاية، لم يدلوا بأصواتهم. وتهاوى سقف الملجأ تحت ضغط مشروع كلينتون لإصلاح الرعاية الصحية، وسرعان ما لحقه الحزب بكامله.

إلا أن ثمة بعض الخير في طيات الشر، فمع انهيار الأغلبية الديموقراطية في الكونغرس، لم تعد هناك حاجة إلى تسوية مع الماضي. وما إن تهاوت التركيبة الأثرية العتيقة الزي، حتى صار بوسع الرئيس إعادة البناء، وليس تجديده وتحديثه وحسب. صار بوسعه الآن أن يضع برنامجاً وسطاً معتدلاً، كما فعل اليابانيون والألمان حين أقاموا المنشآت الأوتوماتيكية الحديثة على الأنقاض التي خلفتها الحرب في بلادهم.

لقد دمرت هزيمة ١٩٩٤ كلينتون . حزن على كل عضو في الكونغرس خسر مقعده وهو يساند كلينتون . كان يتحدث عنهم كما يتحدث عن أفراد عائلته الراحلين ، قال لي فيما بعد : « كنت بحاجة إلى كسب الوقت لأعود إلى الوقوف على قدمي ، وأعتقد أنني بعثت السرور في الشعب الأمريكي بدعوته إلى الجد والعمل وواظبت على ذلك » .

كان يستطيع أن يتحدث بلا توقف عن الهزيمة ، متأملاً فيما وقع من أخطاء ، مستعيداً كل خطوة قام بها : « كان علي ألا أهاجم وأعارض (العقد مع أمريكا) .. لم تكن حملتنا وطنية صادقة أبداً ، بينما كانت حملتهم وطنية .. كانت رسالتهم مؤلفة من كلمتين : حكومة أصغر ، بينما كانت رسالتنا يلزمها ساعة لتلاوتها .. » . ويمضي في التوضيح .. ويمضي .. ويمضي ..

****

ثمة ازدواجية غريبة تحكم طريقة الرئيس كلينتون في تعامله مع الأنباء السيئة أو مع الهزيمة . ففي المجالات العامة ، حتى أمام القلة من خواص الموظفين أو المستشارين ، يبدو وهو يزوغ من اللوم بسهولة . وفي المجال الشخصي الخاص ، حين يقع خطأ ما ، يقول إنه خطأ شخص آخر غيره . قبيل الدعوة إلى مؤتمر الحزب الديموقراطي عام ١٩٩٦ ، هاجم بحدة وعنف مراسلاً صحفياً يسأل عن إصلاح الخدمات الاجتماعية . قال لي في تلك الليلة على الهاتف : « طاقم الموظفين اللعين عندي يضعون جداول مزدحمة بالعمل لكل دقائقي وأيامي ، إلى حد لا أحصل معه على القدر الكافي من النوم. فما إن أرفع بصري حتى أجد أمامي ميكرفوناً أو آلة تصوير ، ولا عجب أن يأخذني الإرهاق إلى حد كدت معه أن أطيح برأس هذا المراسل » .

لكنني تعلمت بحكم قربي منه وهو يصارع أكبر هزيمتين في حياته بعامي ١٩٨٠ و١٩٩٤ ، أنه لا يلوم الآخرين فعلاً على أخطاء ارتكبها هو . بيل كلينتون يلوم نفسه بقسوة على أخطائه ، وإذا كان لا يعلن عن مسؤوليته عنها ، فلأن فكره مملوء بالنقد الذاتي . هذا النقد الذاتي القاسي الذي بدا واضحاً في عامي ١٩٨٠ و١٩٩٤ . حين كشف أخطاءه وأيقن أنه أمام هزيمة سياسية ساحقة نهائية .

كانت لدى كلينتون موهبة الإحساس بالخطر . فحين يؤمن بأن الأمور تسوء ، أو يشعر بالحاجة إلى تغيير المسار ، يرفع صوته بالشكوى أمام أي شخص يجده أمامه . وكان يتنبأ دائماً بالكارثة قبل وقوعها ، فيمضي بالشكوى والتذمر إلى أن يشعر بأن الوضع عاد إلى طبيعته . في مثل هذه الأوقات ، يبدو متهيجاً قلقاً ويصيبه الأرق ، حتى أنه يمرض أحياناً .

في تحليله وإعرابه عن الخطر ، يجعل من نفسه هدفاً دائماً . كثيرون منا لا يتحدثون عن العقبات إلا بعد أن تتضح أمامهم طريقة تجاوزها ، ويجدون أن من المخيف جداً تمييز الخطر قبل أن يتضح ، ولو أمامهم على الأقل ، طريق النجاة . لكن كلينتون شيء آخر . فقبل أن يكوّن أية فكرة عما يجب أن يفعل لحل مشكلة ما ، يبدأ بالتبرم من حظه العاثر . ولا يقترح طرق الخلاص مباشرة ، بل يتذمر فقط ، ويجد بهذه الطريقة أحياناً مخرجاً من ورطته .

هذه الموهبة التي لديه في إدراك الخطر والإحساس به ، تدفع المحيطين به للبحث مسرعين عن طريقة يتجاوزون بها هذه العقبة ، بمساعدته على تحريك وإثارة أفكاره . وكانت الاقتراحات الناتجة ، سواء عنه أو عن الآخرين ، تحمل الحل عادة . وما إن يرى الحل ويتفهمه حتى يحزم أمره ويجمع شجاعته للأخذ به واتباعه .

في أوائل ديسمبر / كانون الأول من عام ١٩٩٤ ، كان كلينتون يتلمس الطريق إلى أجوبة ، بعد أن قمت بإعداد استراتيجية لفترة النقاهة ، في لقاء لنا بقاعة المعاهدات ، ارتكزت فيه بنقاشي على تناقض من التاريخ السياسي الحديث . فمن المفروغ منه أن من يتم انتخابهم للمناصب الرسمية يسقطون دائماً بسبب إخفاقاتهم . إلا أنني أعتقد أنهم يمكن أن يسقطوا غالباً بسبب نجاحاتهم ، حيث يصبحون معرضين للسقوط حين يفعلون ما يزعمون أنه الشيء الوحيد الواجب فعله ، ثم تنتهي فترة منصبهم ، ولا تجد الجماهير سبباً يدفعها إلى التصويت لهم مرة أخرى .

تلك كانت عبارة ونستون تشرشل التي ذهبت مثلاً . فقد تمت تسميته رئيساً للوزراء لتستطيع بريطانيا العظمى أن تربح الحرب العالمية الثانية ، ونجح بأن ينجز مهمته . لكن نجاحه هذا استهلكه ، بعد أن بدا أن لدى مرشح حزب العمال كليمنت أتلي فكرة أفضل عن إعادة البناء في فترة ما بعد الحرب . لو أن الحرب استمرت لما خسر تشرشل أمام أتلي .

في الولايات المتحدة الأمريكية ، تم انتخاب الرئيس ليندون جونسون لتمرير مشروع الحقوق المدنية ، ولإنجاز برامج المجتمع العظيم . وما إن نجح في ذلك حتى استُهلك وفقد شعبيته بعد أن قرر تعميق مشاركة الولايات المتحدة في حرب الفييتنام .

الرئيس جيمي كارتر ، تم انتخابه في أعقاب محنة ووترغيت لاستعادة تماسك الحكومة . وبعد أربع سنوات متتابعة خلت من الفضائح ، تمكن كارتر من إتمام مهمته التي استهلكته أيضاً . وانهزم لفشله في تحرير الأمريكيين الرهائن المحتجزين في إيران .

الرئيس جورج بوش، تم انتخابه لإنهاء الحرب الباردة وتحقيق «النظام العالمي الجديد»، وأنجز مهمته، إلا أن هذه السياسة الخارجية على اتساعها لم تكن ذات أثر في انتخابات عام ١٩٩٢، مما تمكن معه بيل كلينتون من هزيمته في مجال الاقتصاد والركود الاقتصادي.

ولإقفال دائرة الحوار، قلت إن كلينتون قد انهزم كما يبدو في الانتخاب النصفي لسوء إدارته بإصلاح الرعاية الصحية ولرفعه الضرائب في عام ١٩٩٣، وتعرض لما تعرض له من حملات هجومية لمجرد أن الاقتصاد لم يعد في عام ١٩٩٤ هو القضية التي يرجع إليها الفضل، إلى حد كبير، بوضع نهاية الركود الاقتصادي في عهد بوش.

كان كلينتون مهتماً بنقاشي، تفحص بعناية كل الأحداث التاريخية. وأشاد بمثال كيف سقط ريغان بسبب التحقيقات في مسألة إيران ــ كونترا، ولم يستطع أن يلفت انتباه الأمة إلى موقفه من الحكومة الكبيرة، بعد أن حلَّ القضية بتخفيض الضرائب في أول عهده. سألني كلينتون: فكيف له إذن أن يعود؟

كنت أستعرض مكتبته ونحن نتحدث. على مدى سنوات استعرنا الكتب وتبادلناهاواشتريناها من بعضنا بعضاً، فضمت مكتباتنا عشرات الكتب المتماثلة المشتركة. وكان كلينتون يقرأ أكثر مني، لكن الوقت الذي أقضيه في القراءة أكثر قليلاً مما يقضيه.

كان لديه رف كامل من الكتب عن كينيدي ومجموعة ضخمة من السير وتراجم الرجال، وبينما أنا أنتظره ذات مرة لنبدأ أحد اجتماعاتنا، عثرت على كتاب كنت قد قرأته واستمتعت به، يروي سيرة الرئيس الفرنسي فرانسوا ميتيران بقلم واين نورثكت. فتناولته عن الرف ووضعته في يده قائلاً: «تستطيع أنت أن تعود، بأن تفعل مافعله ميتيران عام ١٩٨٥».

ومدّ رأسه نحوي وقطب حاجبيه، فمضيت موضحاً ماأعني. أشرت إلى مايقوله البعض من أن عودته يجب أن تلبس قالب عودة الرئيس الديموقراطي هاري ترومان عام ١٩٤٩، في صب الاتهامات على رأس السلبيين من الجمهوريين في الكونغرس. وأشرت إلى ما يطلبه منه آخرون بأن يتشبه باللطف المؤثر للرئيس الجمهوري دوايت أيزنهاور في عمله مع زعيم الديموقراطيين في الكونغرس ليندون جونسون الذي أصبح فيما بعد رئيساً، ومع رئيس الهيئة التشريعية لمجلس الشيوخ سام رايبورن.

ورفضت كلا الأمرين. قلت إن نموذج ترومان سيقود الحزبين إلى ورطة كبيرة، وسيبعد احتمال أن يتحسن الوضع بينهما خلال النصف الثاني من عهد كلينتون. ونبهته إلى

أنه في عام ١٩٩٦ سيواجه جناحاً يمينياً مصمماً على هزيمته في المعركة، كما سيواجه أمة تواقة إلى فرصة حقيقية تضع بين يدي الجناح اليميني حلولاً بسيطة، في محاولة لترى ما إذا كان يعتمد هذا النهج ويتبنى هذا المسار.

أما مع نموذج أيزنهاور، فسيترك لدول وغينغريتش أن يدوسا عليه، وسيصعب عليه جداً أن يرسخ قدمه في المكتب البيضوي. قلت له: «ليس بإمكانك أن تتحول إلى عضو كونغرس من الشمال يوافق على الرق والقنانة في الجنوب»، مشيراً إلى الرؤساء الجبناء الذين تخلع قلوبهم المؤثرات الخارجية، والذين شغلوا منصب الرئاسة دون تمييز بين عام ١٨٤٨ وعام ١٨٦٠(*).

وتابعت قائلاً: انظر إلى سجل ميتيران بين عامي ١٩٨٥ و١٩٨٧ حين شاطر خصمه السلطة، الرئيس الحالي جاك شيراك. فرنسا تنتخب رئيسها مباشرة، أما رئيس الوزراء فمن خلال التصويت في الجمعية الوطنية كسلطة تشريعية. فلو أن حزباً بذاته سيطر على المنصبين، لسار كل شيء على ما يرام، لكن في عام ١٩٨٥ تمت الغلبة في الجمعية الوطنية للعضو المحافظ العنيد جاك شيراك، بينما بقي الاشتراكي فرانسوا ميتيران رئيساً. وتوقع الجميع اصطداماً يؤدي إلى انتخاب شيراك رئيساً في انتخابات عام ١٩٨٧. وهذا هو وجه الشبه والتوازي مع كلينتون.

شيراك يشبه نيوت غينغريتش كثيراً، فقد ولد قائداً يحب كثيراً أن يسير بأتباعه إلى معركة ضد الحكومة الكبيرة. هدفه الأساسي هو فك التأميم عن المجالات والأعمال التي أممها ميتيران حين جاء إلى السلطة.

لقد سبق لي أن عملت مع البعض من جماعة شيراك في أوائل الثمانينيات. في ذلك الوقت، قام مدير حملاتهم الانتخابية برسم أحد الناخبين عارياً وكتب عليه: تحت ظل الاشتراكية.. لم يبق عندي شيء.

كانت الطريقة التي عالج بها ميتيران أغلبية شيراك، طريقة رائعة. أولاً، تجاهل أولئك الذين أشاروا عليه بتعيين يميني معتدل رئيساً لمجلس الوزراء بدلاً من شيراك. قال بتأثر: إن الشعب هو الذي انتخب شيراك، فليكن له ما يريد. كما تجاهل من جهة أخرى أولئك الذين نصحوه بأن يقاتل شيراك على كل شبر من الأرض، وترك شيراك بدلاً من ذلك يحرر برنامجه ويخصخص أغلب المجالات والأعمال الفرنسية التي سبق تأميمها. قلت: «لقد تجاوز هدف شيراك وسبقه بمرحلة كانت كافية لتلطيف الإحباطات التي أدت إلى انتصار شيراك». لقد

(*) الرؤساء زاكاري تايلور، ميلارد فيلمور، فرانكلين بيرس، وجيمس بوكانان، كلهم تجدهم في كتب المطاردات المبتذلة التافهة، وليس في كتب التاريخ. ــ المؤلف ــ

ساعد ميتيران شيراك على النجاح، فساعد بذلك على استبعاد المواضيع والقضايا المختلف عليها التي قد تجعل من انتصار شيراك أمراً ممكناً.

أكمل الرئيس قائلاً: «ثم خسر شيراك في عام ١٩٨٧». وتابعت مضيفاً «إذن، فإن علينا تلطيف الإحباطات التي أدت إلى انتخاب الجمهوريين في الكونغرس عام ١٩٩٤، وذلك بالتوجه إلى المواضيع التي أداروا حولها الحوار واعتمدوا عليها. دع للأمواج أن تغسل الشاطىء، لكي تتبدد طاقتها وقوتها».

كان الرئيس مهتماً. وخطر لي لو أن هذا الرجل استطاع أن يستثمر ذكاءه المميز، لأمكن عندها أن يصبح الرئيس العظيم الذي يجدر به أن يكونه. لكنني رأيت بوضوح تام ونحن نتحدث أنه كعادته يستغرق في التفاصيل ويجن شوقاً في طلب المفاهيم.

قمت بتحضير سلسلة من الأمور الأساسية والمنطلقات التي شعرت أن علينا الاهتداء بها في العودة للوقوف بوجه النصر الجمهوري. وقرأتها بصوت عالٍ، ثم سلمته باليد نسخة منها. وكنت في الاجتماعات الأولى والاجتماعات التي تلت، أحضر معي نسخة من هذه الوثيقة لتذكيره بالخطوط العريضة الاستراتيجية كما سبق أن حددناها:

١ ــ التوجه بثبات وسرعة نحو جدول الأعمال الذي يسير غينغريتش عليه، بالمطالبة بتخفيض العجز، وإصلاح الخدمة الاجتماعية، وتقليص حجم الحكومة، وتقليل اللوائح والتعليمات المكتبية. وهذا سيجعل المسائل التي يطالب بها الجمهوريون أقل إغراءً، وستبدو وكأنها عقبات في طريق الحل.

٢ ــ تقديم أسلوب إنجاز على طريقة الديموقراطيين لتحقيق هذه الأهداف. تخفيض العجز مثلاً لا يتم بالهجومات العنيفة على البرامج التي يلح الديموقراطيون في طلبها، بل في حماية البرامج التي يحتاجها الشعب، وحماية قيم الديموقراطية. إصلاح الخدمة الاجتماعية بشكل يساعد مستحقيها على المضي قدماً للأعلى وليس بشكل عقوبة نوقعها عليهم. الاستفادة من برنامج غور في تقليص الحكومة للحد من تحجيم القطاع العام، بدلاً من عقد صفقات البيع بالجملة التي يلح الجمهوريون على عقدها لتعرية القطاع العام.

٣ ــ الاستفادة من السلطة التنفيذية لإتاحة الفرصة للقيادات للسير في الاتجاه الإيجابي. وتطوير استراتيجية تنفيذية تدفع بالبلاد قُدماً إلى الأمام دون الرجوع أو الاعتماد على الكونغرس.

٤ ــ الاستفادة من الأوضاع السياسية الخارجية لتأمين القوة والصلابة للشعب الأمريكي. استعراض ما تم على الصعيد الخارجي، حين أمكن التحرر من قيود الكونغرس في فرضه لعلاقات الرئيس والمرؤوس.

٥ ــ تجنب التدقيق والوقوف عند التفاصيل. وتجنب التذبذب في المواقف والقرارات، فالأضرار هنا أكبر من المنافع. وإذا ما قلت شيئاً فتقيد به والتزمه ولا تغيره. الشعب الأمريكي ليس ضد مواقفك، بقدر ما هو ضد ما يشعر أنه ضعف وتردد، فلا تكن حائراً متردداً أبداً أبداً.

كان يقاطعني عند كل نقطة من هذه النقاط، ويصف رؤيته لها، ومدى فهمه لما أقول. فبعد استعراضي لنقطة التصدي والتحرك باتجاه الأهداف التي يقصدها غينغريتش في جدول أعماله، بتطوير أساليب للوصول إلى تحقيقها، ألمح إلى أن نجاحه في تحقيق هدف المحافظين برفع المعايير التعليمية في ولاية أركنساس، لم يكن عن طريق مسابقات امتحان المدرسين وحسب بل أيضاً بالإصرار على زيادة كبيرة لرواتبهم.

قال إن إدارته قصَّرت في متابعة الخطوات التنفيذية التي قامت بها الوزارات، والتأكد مما إذا كانت على المستوى الذي رسمه لها البيت الأبيض. واقترح أن يوضع بيل كاري في مكان يمكنه منه ضبط هذه الأمور الأساسية وإظهارها كمبادرات من الرئيس وليس من الوزراء وحسب. ووافقت على الفكرة، إلا أنني أوضحت أنني بحاجة إلى كاري كمتفرغ للعمل معي لإنجاز الخطة الاستراتيجية بكاملها وليس جزءاً منها.

حين وصلنا إلى نقطة عدم التذبذب، وافق عليها كلينتون بقوة. وعلى مدى الشهور التالية، اعتبرنا أن أي موقف وأي اقتراح حول أي موضوع، قد يقضي علينا لو ثبت أننا سبق وعارضناه في الماضي. قلت: «لو أننا لا نتقلب ولا نتذبذب في مواقفنا مرة أخرى، لكانت أمامنا فرصة لاستعادة اعتبارنا في عام ١٩٩٦، لكن مرة واحدة كافية للإطاحة بهذا كله».

تم تحول نقاشنا نحو السيدة الأولى. فاستطلاعاتي تشير بوضوح إلى أن بيل وهيلاري في وضع أشبه ما يكون بلعبة «الرصيد صفر»، كلما زادت هيلاري قوة، زاد بيل ضعفاً. يقول الناخبون المعارضون لنفوذ هيلاري «من الذي انتخبها؟» ويتابع هؤلاء أنفسهم بعد خمس دقائق، ليصفوا الرئيس بأنه «ضعيف، غير فعال، لا رأي له ولا إرادة».

أصررت بإلحاح على انسحاب هيلاري من المشاركة المكشوفة في اجتماعات موظفي البيت الأبيض، وفي الاجتماعات السياسية، لكي لا يخرب الانطباع بوجودها كقوة سرية خفية صورة زوجها، ويشوّه النظرة إلى قدراته. لكنني شعرت أن هيلاري كلينتون لن تسكت على هذا، وستكون تلك غلطة كبيرة إن حصلت. فكلما سمع الناس هيلاري تتحدث

معبرة عن معتقداتها ، كان حبهم لها أكبر . وهم يريدون أن يروا هيلاري على رؤوس الأشهاد ، فلا يقضون وقتهم وهم يتخيلون ما تفعله في حياتها الخاصة .

لقد استلزم الأمر علاقة سبعة عشر عاماً مع كليتون ، لأستطيع أن أقدم له نصيحة صريحة من هذا النوع . فمن الواضح أن إحدى مشاكل بيل كلينتون هي صورة هيلاري عند الناس ، ومن الطبيعي أن يتردد المستشار الناصح وهو يتحدث مع الرئيس عن السيدة الأولى . لكنني كنت أعرف أنه ليس علي أن أكون حذراً وحريصاً ، فالرئيس وهيلاري يطلبان أحسن نصيحة أستطيع أن أقدمها لهما . وكلما كانت صادقة واضحة كان ذلك أفضل .

هيلاري تدعم وتشد أزر الرئيس بقوة وعمق . وهو يؤمن إيماناً روحياً راسخاً بأنها واحدة من أفضل الناس الذين عرفهم ، ولديه اعتقاد لا يهتز بأنها لا يمكن أن تفعل سوءاً . وهو لا يلقي بالاً إلى ما يزعمه كثير من الأمريكيين من أنها غير جديرة بالثقة . إلا أنهما يرغبان بالاستماع إلى ما لا نهاية لنصيحة عملية واقعية ترشدها إلى كيفية التصرف ، وإلى تجنب الخطأ في الخطوات .

وقد وضعت هذه الإرشادات بشكل عام بين يدي الرئيس ، الذي حوّلها إلى السيدة الأولى . كان عليه أن يضع ملاحظاته المحايدة النزيهة عليها ، دون أي تعليق أمامي ، ليناقشها مع هيلاري فيما بعد . إلا أن هيلاري ، لسوء الحظ ، أخذت نصيحتي بحساسية عاطفية زائدة ، وتوقفت عن حضور الاجتماعات الأسبوعية ، ولم تحضر أياً منها بعد يناير / كانون الثاني ١٩٩٥ ، فافتقدتها . كانت حيويتها ومعلوماتها مفيدة جداً ، وكان تفكيرها واقعياً عملياً دائماً .

لم يأسف الرئيس أبداً وهو يرى هيلاري تتعمد الغياب عن الاجتماعات السياسية واجتماعات الاستراتيجية الأسبوعية في البيت الأبيض . وتحول فقط إلى طلب رأيها ومشورتها على انفراد . وقد اعتاد أن يأخذ لهيلاري جميع جداول الأعمال الأسبوعية المكتوبة ، بما فيها من معلومات إحصائية وإرشادات ، فكانت تقرأها كلمة كلمة . وكنت أعرف أنهما يناقشانها طويلاً في جلساتهما الخاصة ، لما كنت ألمسه عندها من إدراك لكل ما فيها .

لم يحصل أبداً للرئيس كلينتون أن انتقد هيلاري سراً أو علانية ، لا في المجالس العامة ولا الخاصة ، بل كان ينتقد نفسه طول الوقت ، وينتقد كل الآخرين حين يغضب . إلا أنه لم يتفوه بأي شيء سلبي عن زوجته . قد تكون هذه قوة ، أو عجزاً عن التمييز ، لكنه هكذا كان .

****

يحلو لكتاب التقارير الصحفية أن يستعملوا كلمة «الغَزْل» في وصفهم لما يقوم به المستشارون السياسيون. لكن الكلمة لا تتضمن معنى تغيير المحتوى والأصل الفعلي، وتقتصر فحسب على إدارة أو عرض الموضوع أو تقديم المرشح. وهذا عكس ما كنت أقوم به تماماً. فأنا لا أغزل شيئاً، أنا أضع أفكاراً ومضامين وأصولاً جديدة أمام الناخبين.

حين أشترك في حملة انتخابية، يكون للمرشح عادة مئات من المواقف تجاه المسائل التي يتبناها ويرتبط بها، وأكثر منها تجاه المسائل التي يمكن أن يُسأل عنها، إلا أن القليل من هذه المواقف والآراء هو الذي يوضع عادة أمام الجماهير. وبدلاً من أن أعدّل أو أعيد صياغة عرض ما في جعبة المرشح وأغزل له مواقفه المحددة سلفاً، كنت أغوص لأتفحص المسائل، وأتأمل المواقف غير المعلنة التي اتخذها المرشح من تلك القضايا، وأحاول الاستفادة منها جميعاً في الفوز بالانتخاب. وغالباً ما كنت آخذ الشعارات والمقولات العامة من المرشح نفسه، ثم أحاول إيجاد مواضيع محددة تتقولب فيها وتوضحها. وهذا كله ليس غزلاً للشكل، إنه صياغة للمحتوى أيضاً وللمادة ذاتها.

بالنسبة للرئيس كلينتون، فقد تجاوزنا في استراتيجيتنا ما كنت أفعله عادة. إذ عمدنا إلى إعادة وصف وتوصيف منصب الرئاسة بشكل يصبح معه هو الوحيد المؤهل لاستلامه. ففي العهد الريغاني تم تعريف الرئاسة من الزاوية الإيديولوجية. في النصف الثاني من عهد كلينتون غدت الرئاسة رئاسة تسريات ومشاورات وسد للثغرات، وكانت مهارة الرئيس في معالجتها جيدة جداً.

لقد فزنا في عام ١٩٩٦ بفضل التعريف الجديد الذي وضعناه لمنصب الرئاسة وبفضل محتواه الأصلي الجديد، وليس بفضل غزل مواد قديمة، كما سيأتي بيانه لاحقاً.

هؤلاء الذين يبحثون في هذا الكتاب عما يلقي الضوء على أمور من مثل: ملفات مكتب الاستخبارات الفيدرالي F. B. I.، مكتب السياحة والسفر، بولا جونز، جينيفر فلاورز[*]، إلى آخر ذلك من فضائح العهد الكلينتوني، لن يجدوا شيئاً. أنا لا أنبش في

(*) هذه نماذج لبعض فضائح الرئيس كلينتون وزوجته هيلاري التي نشرتها الصحف الأمريكية والعالمية منها فضيحة إطلاع السيدة الأولى على الملفات السرية لمكتب الاستخبارات الفيدرالي، ومنها فضائح جنسية للرئيس الأمريكي. والجدير بالذكر أن إحدى هذه الفضائح من النوع الأخير تحولت إلى دعوى قضائية رفعتها إحداهن على الرئيس الأمريكي تتهمه فيها بالتحرش بها جنسياً، وقد نظرت فيها المحكمة يوم ٢٩/٥/١٩٩٧ حين كان الرئيس في زيارة رسمية لهولاندا. ولم يصدر حكم بشأنها، إلا أن المحكمة قررت أن الرؤساء لا يتمتعون بأية حصانة تمنع من مقاضاتهم بتهم لا علاقة لها بمنصبهم. ــ المعرب ــ

الماضي لسبب بسيط، هو أنني لا أعرف شيئاً. لقد كنت غارقاً في العمل بعيداً عن كل هذه القضايا. وحين كان الرئيس يحدثني عنها محتجاً ببراءته، غاضباً من متهميه، كنت أحاول تحويل الحديث إلى السياسة، أو إلى أي موضوع آخر، إذ لم أشأ أن يكون لي ضلع بمثل هذه الأمور، وكان همي هو التركيز على كيفية الهرب من أضرار الإشاعات السياسية، لكنني لم أعمل أبداً في وضع أية ردود على الاتهامات أو حتى الاستفسار عن الحقيقة فيها.

قال لي كلينتون ذات مرة على الهاتف موضحاً: «لدي شعور بأنك غير مهتم بالحديث عن مسألة وايت ووتر معي»، فأجبته: «الحق أنني لست مهتماً، فأنا هنا لمساعدتك على أن يعاد انتخابك، وتعاملي ينحصر تحديداً بردود الأفعال السياسية تجاه المواقف التي نصل إليها. ولديك كثيرون آخرون يمكنهم مساعدتك في الجوانب الأخرى من الموضوع. فأنا أقوم بعملي، وأرجو أن يقوموا هم بعملهم».

حين افترقنا ذلك المساء، شعرت أن الرئيس كان مرتاحاً وسعيداً أكثر مما كان عليه منذ هزيمته في الكونغرس. فقد انتقد يومها، لأول وآخر مرة، مدير حملاته السابق ستان غرينبيرغ، الذي جاء بي عوضاً عنه. قال معلقاً: «غرينبيرغ لم يقل لي إطلاقاً ماذا أفعل».

غادرت البيت الأبيض عبر بوابة قسم السكن الجانبية، كيلا يراني أحد من الصحفيين المتسكعين أمام الجناح الغربي، قرب مكتب الرئاسة البيضوي، وحين لفني ليل واشنطن الشتائي، تساءلت إلى أين ستنتهي بي هذه الرحلة، فالكلام عن هذا الرجل يبدو أمراً بسيطاً جداً.

ولكن كيف كان علينا أن نتحرك على هذه المبادىء الاستراتيجية؟ لم أكن أعرف شيئاً عن آلية عمل السلطة التنفيذية، وأي دور لعبه الرئيس؟ هل بوسعه أن يضغط زراً ليجعل ذلك واقعاً محققاً؟ هل كان يوافقني فعلاً، أم أنه كان يستمع لي فحسب، كما يفعل مع العديد من الأصدقاء الذين يقدمون له النصح والمشورة؟

الفصل الثالث

جذور أركنساس

تسعة عشر عاماً مضت، منذ أن التقيت بيل كلينتون أول مرة، وبدأت أول طريق عمري في حقل السياسة الوطنية، حيث كان آنئذ القليلون ممن يكسبون عيشهم بإدارة الحملات الانتخابية. فمعظم الذين يحترفون العمل بالسياسة متفرغون للعمل بدوام كامل لدى مؤسسات الإحصاء والاستطلاع الشعبي أو لدى وكالات للإعلان، ويجعلون من العمل السياسي خطاً جانبياً، كخدمة للزبون ذي العلاقات مع المرشح. وحين ضايقني أبواي بالسؤال عن العمل الذي أكسب منه عيشي، لم يخطر لي إلا أن أقول: «أساعد الناس على الفوز بالانتخابات». كنت متأكداً أنني لا أفلح في أي شيء آخر. وسألت نفسي: «ولكن هل هو عمل بدوام كامل؟» وذكرني ذلك بمنظر من فيلم بوتش كاسيدي وساندانس كيد، حيث نيومان وريدفورد (بطلا الفيلم) يفشلان في الزراعة ببوليفيا فيعودان إلى سرقة البنوك. ويندب ساندانس ما آلت إليه حياتهما في الجريمة، ويسأل كاسيدي: «هاي بوتش، كيف اتفق أن كل ما نحن بارعان فيه هو غير قانوني؟».

وما إن اكتشفت أن دفع الناس إلى الانتخاب ليس مهنة، حتى بدأت بالعمل حصراً لصالح الزبائن السياسيين. وللحصول على زبائن، فقد اتصلت بجميع الديموقراطيين في الولايات المتحدة، الذين يسعون إلى منصب حاكم، أو إلى مقعد في مجلس الشيوخ عام ١٩٧٨. قمت بستين محاولة في تلك السنة وعثرت في النهاية على ثلاثة زبائن، كان بيل كلينتون أولهم. لم يكن معظم الذين يشغلون مقعداً في مجلس الشيوخ أو منصب حاكم لإحدى الولايات ليقبلوا أن يتحدثوا معي، لأنهم لا يفهمون ما هو المستشار السياسي، وكثيرون منهم سارت أمورهم جيدة لعشرات السنين دونما حاجة إلى مستشار من هذا النوع. ومع ذلك، فقد شعرت أن في غدارتي طلقة يجب أن أرمي بها المتحدّين.

أصعب ما في الأمر أن تصل إلى الباب. فإذا ما قلت عنده للخادم أنك تعد لرحلة خاصة إلى عاصمة الولاية، وتريد أن تقابل رب عمله بهذا الخصوص، فلن يسمح لك

بالدخول . ليس لأنك تطلب منهم أن يدفعوا من أجل الرحلة ، بل لأنهم لا يريدون أن يشعروا بمسؤوليتهم عن الأموال التي ستدفعها على الأرجح ثمناً لبطاقتك . فاخترعت بعض الهراء غير المعقول عن اضطراري للذهاب إلى ليتل روك في عمل آخر ، وحاولت تطبيق ذلك على ستيف سميث رئيس طاقم الخدم عند بيل كلينتون . كان كلينتون قد انتخب نائباً عاماً في ولاية أركنساس قبل سنة ، ويعد العدة للمنافسة على منصب الحاكم أو على مقعد مجلس الشيوخ . وأثر في نفس سميث كثيراً أن يرى شخصاً من مدينة نيويورك يهتم بمرشح أركنساس ، فوافق على أن يدعني أمر على مكتب رئيسه .

في مدينة نيويورك حيث نشأت ، كنت معروفاً تماماً عند صانعي السياسة ، وكنت الابن الوحيد لمحام وكاتب محترف شهير ، مما أكسبني قدرات لفظية كلامية في وقت مبكر . لم يكن أبواي يحبان صحبة الأطفال بل صحبة الشبان البالغين ، ولهذا كانت طفولتي مقتضبة . فبدأت بقراءة الـ « نيويورك تايمز » بانتظام منذ الثامنة من العمر ، لأن التعليق على الأخبار الخارجية هو الطريقة الوحيدة لجذب انتباه أبوي .

حين صرت في الثانية عشرة ، ارتديت جاكيتاً وربطة عنق ، وبدأت الطواف على الناخبين في البناء ذي السبعة عشر طابقاً في الزقاق الخامس والثمانين بشارع ويست إند في القسم الغربي من مدينة مانهاتن ، لصالح حملة جون كينيدي الانتخابية للرئاسة . زرت ستاً وأربعين شقة ، وتحدثت مع نزلائها ، وشرحت لهم أهمية أن ينتخبوا مرشحي . أما في عطل نهاية الأسبوع ، فكنت أتحدث عن بطلي من سيارة النادي الديموقراطي المزودة بمكبر للصوت ، والقابعة في زاوية الشارع . وحصلت مرتين خلال الحملة على توقيع جون كينيدي على بطاقتي المدرسية . إلا أنني سرعان ما تعلمت أنك إذا أردت الركوب في سيارة نوادي الديموقراطيين فعليك أن تنتظر دورك ، لكنني لم أكن صبوراً ، وكان علي أن أنتظر دوري لعلي أظفر بذلك .

في مرحلة المراهقة ، قمت بإنشاء المنظمات السياسية في مدارس البلدة الثانوية وجامعاتها ، وعقدت صفقات مع ألمع الفتيان الذين التقيت بهم في المدارس ، لمساعدتهم على الفوز بانتخابهم لمجلس الطلبة في مدارسهم ، وكتابة الكلمات التي يلقونها ، ووضع الشعارات لحملتهم الانتخابية ، وشرح كيفية تنظيم أعوانهم ، لو قبلوا بدفع أتباعهم للتطوع بالعمل معي . وبمساعدة رفاق الصف من ثانوية ستويفيسانت وجامعة كولومبيا ، استطعت إقامة جهاز سياسي خاص بي في المنطقة . وباستخدام وسائل التنظيم السياسي التي تحدث عنها ساول ألينسكي في كتابه « قواعد ومقاييس للمتطرفين » ، أجرينا القرعة لمساعدة الشبان على الابتعاد عن حرب الفييتنام ، وطلينا سياجات الحدائق العامة بالدهان ، وجمعنا العلب

والزجاجات الفارغة لإعادة تصنيعها، وأعددنا برامج الأخ الكبير والأخت الكبيرة للأطفال ذوي الدخل المنخفض، وحشونا الباصات بآلاف الطلاب للمسيرات السلمية في واشنطن.

كان الهدف من هذا التنظيم السياسي المراهق هو السيطرة على الجانب الغربي، المنطقة الأحادية الحزب، وتحدي قيادات قطاع الحزب الديموقراطي في معارك التنافس الأولية. في عام ١٩٦٩، وعمري واحد وعشرون عاماً، أدرت سبعة معارك انتخابية ناجحة لمنصب رئيس قطاع في الحزب الديموقراطي، هذا المنصب الذي يفوق أي منصب آخر تم اختراعه من حيث التفاهة والمعنى الفارغ. فهو بدون مرتب، ولا واجبات أو مهام، ولا نفوذ أو سلطة، تماماً كما كان يحصل في قاعة تاماني الأثرية، حين كان قادة المنطقة يختارون القضاة ويوزعون الوظائف على أساس المحسوبية. فحيث الأجهزة السياسية ما زالت في السلطة، فإن قادة القطاعات لهم نفوذ معتبر، أما في مانهاتن حيث الأجهزة السياسية اختفت منذ وقت طويل، فقد تحول هذا المنصب إلى مفارقة تاريخية.

لكنه مع ذلك ما زال موجوداً، وعلى متسلقي السلم السياسي أن يتنافسوا عليه في مباريات أولية، باعتباره أدنى وحدة انتخابية رسمية في المدينة، ومنه يبدأ السباق باتجاه الهيئة التشريعية، أو حتى باتجاه الكونغرس. ولما كان ما زال موجوداً فقد تم إخفاؤه وتغطيته، فقررت أن يفوز مرشحيّ بهذه السباقات. وبعد سنتين من الحملات الانتخابية وآلاف ساعات العمل، أوجدت مع شركائي الحلفاء موطىء قدم في أجواء نيويورك السياسية.

بعد أن صار لي ولأتباعي سلطة ونفوذ، بدأنا بانتخاب جماعتنا للمناصب العامة. عضو الكونغرس جيرولد نادلر، وعضو مجلس النواب ريتشارد غوتفرايد بدأوا مناصبهم من الوظائف المحلية كجزء من منظمتنا. وأيدنا مقاتلي اليسار أكثر مما دافعنا عن المنظمة الديموقراطية، وأصبحت مجموعتنا نواة طاقم الحملة الانتخابية لماك غوفين في نيويورك عام ١٩٧٢، ولعبت دوراً في تسليط الأضواء والتركيز على الجهود المبذولة في طول الولايات وعرضها لدعم حقوق المستأجرين أمام غلاء المساكن.

وللمفارقات الساخرة، فقد كان أحد خصومي المعارضين الأكثر وفاءً وصموداً في هذه المسيرة نحو السلطة، هو هارولد آيسيكس، ابن وزير الداخلية الشهير، ومنافسي في البيت الأبيض في العهد الكلينتوني. كلانا ساند ماكارثي في سعيه إلى الرئاسة عام ١٩٦٨، ودعم جورج ماك غوفين في عام ١٩٧٢. خضنا معاً صراع السيطرة على كل رجل يعمل في الحملات الانتخابية في ولاية نيويورك. أدار آيسيكس حملة ماكارثي الانتخابية، لكن منظمتي أخذت على عاتقها عملية ماك غوفين. والتحمنا كخصوم في معارك سياسية يقتل الأخ فيها أخاه، وبدأ العداء بيني وبينه منذ ذلك الحين.

أنا الآن في أركنساس ، على وشك أن أقابل أول زبون لي من خارج الولاية ، النائب العام بيل كلينتون . كنت في الثلاثين ، وكان هو في الحادية والثلاثين ، ولم يسبق لي أن قابلت مرشحاً بسني ، له شاربان ، وشعر طويل كشعري ، وموقف من حرب فييتنام يشبه موقفي . يماثلني في كل شيء عدا الجسم . فرغم أنه كان جالساً خلف طاولة مكتبه ، لكنه بدا كالبرج بقامته التي تبلغ ١٨٥ سم ، مقارنة بقامتي التي لا تزيد عن ١٦٨ سم .

ومع ذلك ، فقد بقي بشخصه الشيء الوحيد المؤثر الملفت للنظر . كان مكتبه كنائب عام يصلح لأن يكون غرفة انتظار كما في « ليالي كولومبوس » ، بجدرانه المستعارة من خشب الجوز ، وطاولاته القابلة للطي ، وكراسيه المعدنية التي تشبه ما يرسمونه على الجدران الخلفية في قسم الموسيقى .

لم يسبق لي أيضاً أن قابلت جنوبياً يتكلم بسرعة ، بلكنة جنوبية واضحة إنما بطريقة النيويوركيين في سرعة الكلام . وبدأنا النقاش في الأمور السياسية بأركنساس . في عام ١٩٧٧ ، قبل أن أقابل كلينتون ، ذهبت إلى أركنساس للقيام ببحث عن الحاكم دافيد بريور ، الذي كان يخطط لخوض سباق من أجل مقعد في مجلس الشيوخ ، وعدت يومها من تلك المقابلة متأثراً بلطف بريور وليس بقراراته الحاسمة وبقوته . فقد كان خوضه السباق باتجاه مجلس الشيوخ متوقعاً ، ومحسوباً في عداد المضمون . وكان خصمه في الانتخابات الديموقراطية التمهيدية الأولية عضو شاب في الكونغرس هو جيم غاي تاكر ، السلف المباشر لكلينتون في منصب النائب العام . وكان تاكر الخطر الوحيد الذي يهدد طموح كلينتون إلى المناصب العليا .

سألني النائب العام عن اعتقادي عما إذا كان فوز بريور مضموناً ، فقلت إنني أشك في ذلك ، لأن أمام تاكر فرصة حقيقية بالفوز . قال يجادلني « لكن بريور محبوب شعبياً » . وأجبته بأن البلاد في حالة نفسية قذرة غاضبة بعد ووترغيت وفييتنام وارتفاع أسعار النفط ، ولم يعد الناخبون يدعمون بالضرورة مرشحيهم المحبوبين ، فهم ينتخبون أحياناً المرشحين الذين يعتقدون أنهم سيتصدون لأعدائهم .

كنت قد عملت مؤخراً مع ديك دريسنر ، الذي أصبح شريكي فيما بعد ، كمستشار لهوارد ميتزينبوم الذي هزم بوب تافت في انتخابات أوهايو عام ١٩٧٦ لمجلس الشيوخ . قلت لكلينتون أن معظم أهل أوهايو اعتقدوا في ذلك السباق بأن تافت شخص لطيف ، وبأن ميتزينبوم ابن كلبة عاهرة . فأخذوا استنتاجهم الشامل هذا من تهربه من الضرائب ، التي لم يدفع منها شيئاً منذ عام ١٩٦٩ ، رغم أنه حقق أرباحاً صافية بلغت ٢٤١

ألف دولار . لقد قرر بمنتهى قسوة القلب أن يشتري مقعداً في مجلس الشيوخ من جيبه الخاص ، وأن ينازع على هذا المنصب المشرّف المحجوز لحفيد الرئيس ويليام هوارد تافت .

شرحت ذلك قائلاً : « كان شعارنا الرئيسي في الحملة الانتخابية أن تافت أطيب من أن يكون عضواً في مجلس الشيوخ ، وأن الحاجة تدعو إلى إرسال شخص صلب لئيم خسيس إلى واشنطن ، يستطيع التعامل مع شركات البترول الكبرى وبيروقراطيي الحكومة . فالطيبة في أوقات الغضب ليست صفة مؤهِّلة ، إذا ما عرفت كيف تلعب ضدها » .

قال كلينتون وهو ينحني إلى الأمام : « أوافقك على هذا ، فلا أحد هنا يعتمد الطيبة ويقدرها ، أما أنا فأفعل ذلك . دافيد طيب جداً ، وتاكر يستطيع أن ينظف صورته ، وتلك هي مشكلتي ، مشكلتي هي منافسة تاكر لي على مدى السباقات الطويلة ، وكلانا شاب وذكي . هل تعتقد بقدرة بريور على الفوز ؟ » .

قلت : « إذا دفع أجور حملة انتخابية جيدة صحيحة فسيقدر » سألني كلينتون : « ماذا تعتقد أن عليّ أن أفعل ؟ » أجبته بدقة وحرص : « أعتقد بأن عليك أن تسعى لمقعد في مجلس الشيوخ بدلاً من منصب الحاكم » . قال : « أفضّل أن أكون حاكماً . أشعر أن ثمة أشياء كثيرة أستطيع أن أقوم بها هنا ، لكن المعركة المثيرة الحقيقية هي في واشنطن » قلت مقترحاً : « دعنا إذن نعدُّ استطلاعاً إحصائياً لنرى ما إذا كنت تستطيع الفوز بمقعد مجلس الشيوخ » . يجب أن تنصبّ القدرات الأركنساسية كلها في سباق مقعد مجلس الشيوخ ، بحيث إذا سعى كلينتون بعدها إلى منصب الحاكم ، سهل عليه أن يفوز به .

سألني : « كيف رسمت للاستطلاع أن ينفَّذ ؟ » أجبته : « إن من الخطأ أن تسأل ، في استطلاعك ، عن شعور الناس تجاه مرشح ما ، فنحن في الجنوب ، حيث الجميع فيه مهذبون ولبقون ، وحيث ينال جميع المرشحين معدلات جيدة . ولكن ما إن تبدأ الحملة ، حتى لا تبقى قيمة لذلك كله . ما يجب أن يتم بدلاً من ذلك هو أن نجمع كل الإعلانات والحجج التي يعتمد عليها المرشحون ، ثم نقرأها على الناخبين ، ونرى تأثيرها عليهم » .

سألني : « هل تعني أن تدوّن فعلاً كل حملات المرشحين ، ثم تسأل الناخبين كيف سيعطون أصواتهم ؟ » . فشرحت له أنني أخذت هذه الفكرة من استطلاع أجراه صديقي ديك دريسنر لصالح الصناعة السينمائية . فقبل ظهور أفلام جيمس بوند ، أو تحويل المسلسلات إلى أفلام مثل : « الفك المفترس » ، قامت شركة أفلام باستئجار دريسنر لتلخيص الرواية وسؤال الناس ما إذا كانوا يرغبون في رؤيتها على الشاشة . وكان على دريسنر أن يقرأ الأجوبة والمقترحات والتعليقات على هذا الملخص ، ويستخرج منها ما يفيد في صنع الفيلم

بشكل أحسن. أحياناً كان يضع نهايات مختلفة للفيلم، أو يجعل الأحداث تدور في أمكنة أخرى غير التي تم التصوير فيها، ليرى أي ذلك هو المفضل عند الناس.

وسألني كلينتون: «وأنت تنوي استخدام هذه التقنيات في السياسة؟». فأجبته موضحاً كيف يمكن أن يتم ذلك «ما الذي يمنع أن نطبق الشيء ذاته على الدعايات أو الخطابات السياسية؟ أو على المناقشات حول المسائل والقضايا؟ ثم أسألهم بعد كل بيان عمن سينتخبونه. وبهذا يمكنني أن أرى النقاط التي تحرك الناخبين، وعددهم ونوعيتهم».

تحدثنا حوالي أربع ساعات، وتناولنا طعام الغداء على مكتبه، وعرضت على النائب العام نموذج استطلاع كنت قد أعددته.

كان مأخوذاً بالعملية. فأمامه أداة يمكن أن يستعملها. عملية تستطيع كشف غموض بعض الطرق السياسية، وتحويلها إلى اختبار تحليلي علمي يُعتمد كأساس في التقييم. وكانت حساباته وحساباتي تنطلق من فكرة أن الفوز بالانتخابات لا يتم بالمواضيع، ولا بالصور. هذه الفكرة التي قدر لها أن تجمع بيننا طوال عشرين سنة قادمة.

قلت: «ليس الطبع أو الشكل الخارجي هي التي تنتخب المرشح، إنها المسائل والقضايا». فأجاب: «لكن كينيدي فاز بفضل الشكل الخارجي». قلت: «أعتقد أن أمريكا كانت واقعة في هوى سياسييها في الخمسينيات والستينيات حين رأتهم أول مرة على شاشة التلفزيون: أيزنهاور كان أباً، كينيدي كان أنيقاً، جونسون كان عماً، نيكسون كان مصرفياً من بلدة صغيرة. لقد كنا طيبين وأبرياء، كالعرسان المتزوجين حديثاً، نؤمن بأن رجالنا لا يخطئون. ثم جاءت ووترغيت وفييتنام، والطوابير على محطات الوقود، وفضائح الرشوات في السبعينيات. وتحول سياسيونا فجأة إلى كائنات بشرية مثلنا تماماً فكان الفراق، وكان الطلاق، وبدا وكأن أحداً لن يستطيع أن يخدعنا قبل مضي وقت طويل.

وختمت كلامي قائلاً: «أما في هذه الأيام، فنحن نريد أن نعرف أين يقف المرشح، وما هي قضاياه ومنطلقاته. لا تطلب منا أن نقع في هواك، قل لنا فقط أين تقف، وبعدها ننتخبك. نحن لن نجعل قلوبنا رهناً لك، ولكننا سنعطيك أصواتنا لتصبح قوياً».

تساءل كلينتون: «سوف تستخدم إذن ما يعنيك من هذه القضايا والمنطلقات لإظهار طابعك الشخصي. إذا أردت أن تفتح دوراً للحضانة، فذلك يقتضي أن تكون شفوقاً رحيماً، وإذا أردت أن تفتح مدارس، فذلك يستوجب أن تكون محباً للأولاد».

قلت : «هذا صحيح ، لكنك لا تستطيع أن تخرج إليهم هناك وأنت تصيح : أنا أحب الأطفال . إذ سيشعر الناخبون بأن هذا هراء . ولا تستطيع حتى أن تقول : أنا مع التعليم . فالناخبون يعرفون أنك لن تعرض نفسك لمخاطر مثل هذه المداهنات المتملقة . ولكن إذا قلت : سأزيد الضرائب لدعم المدارس . فسيصدق الناخبون أنك تهتم وتعنى فعلاً بالأولاد ، إذ يرونك تعرض نفسك للضغط كي تساعدهم» .

كنا متعادلين . واستطعت أن أعثر على زبون ينبش أعماق الاستراتيجية معي ، ويكتشف مدخلاً منطقياً عقلانياً إلى الغموض الذي يلف الفوز بالانتخابات . لقد وجدت فيه زبوني الأول ، ووجد فيّ مستشاره الأول . وبالمقارنة مع ذلك العهد ، فلم يكن كلينتون ذلك اللبق المحنك كما هو الآن . كان ريفياً ، وكنت من أبناء المدن ، ولم يسبق لي أن التقيت كثيرين مثله . لقد ذهب طبعاً إلى جورجتاون وييال وأوكسفورد ، لكنني شعرت وكأنني غريب عنده .

حين نهضت للانصراف في تلك المقابلة الأولى ، استأذنت في استعمال الحمام ، فدلني كلينتون عليه ، وما إن أغلقت الباب ورائي حتى واجهتني صورة جدارية بالطول الكامل لفتاة شقراء بالبكيني . وحين عدت إلى مكتب كلينتون سألته بوقار ما إذا كان يعتقد أن من المستحسن أن تكون لديه مثل هذه الصورة على باب حمامه .

سألني النائب العام الشاب مداعباً : «ألا تعرف من هذه ؟» قلت وأنا أشعر بحماقتي : «كلا ، لم يسبق لنا شرف التعارف» قال : «هذه دوللي بارتون» . سألت : «ومن تكون دوللي باروتون هذه ؟» .

كان ذلك في عام ١٩٧٧ ، وكان يجب أن أعرفها . وأطلق كلينتون صَفْرةً من فمه وقال : «يا رجل .. أنت نيويوركي بالفعل» .

في بدايات عام ١٩٧٨ قمت مع زوجتي إيلين بزيارة أركنساس لنشاهد تصوير كلينتون بفيلم لأول دعاية له في حملته الانتخابية لمنصب الحاكم . وهو عرض لمسيرة حياته بقصد تقديمه للناخبين وتعريفهم به ، تظهر فيه أمه ومعلمته في الصف الأول تتحدثان عن طفولته . حين قابلنا السيدتين ، عدنا إلى الوراء البعيد مأخوذين بمظهرهما . رموش مستعارة ، خدود مطلية بالحمرة ، ثياب من الفرو . وانتحيت بكلينتون جانباً ، واقترحت عليه أن تلبس أمه ومعلمته ثياباً أكثر شبهاً وتماثلاً مع السائد في أركنساس . فقال : «دع لي أمر الاهتمام بهذا» . ثم ذهب يعيد العارضتين إلى البيت . ورجعوا بعد عشرين دقيقة ، وقد أفرغتا على وجهيهما علبة التجميل بكاملها ، وخلعتا ما عليهما من فرو .

حين توفيت أم كلينتون ، أرسلت له بطاقة تذكره بالمشهد . فرد عليها بخط يده : « أنا أيضاً أتذكر هذا المشهد من فيلم ١٩٧٨ ، لأنني بعده تركتها تلبس ما تريد » .

****

أظهرت استطلاعاتي أن كلينتون قد يستطيع على الأرجح أن يفوز بمقعد مجلس الشيوخ ، إنما يبقى ذلك مشكوكاً فيه ، وعليه فقد تقرر أن ينافس على منصب الحاكم . قال لبريور أنه لن ينافسه على مقعد مجلس الشيوخ إذا رشح بريور نفسه لذلك ، على ألا يرشح نفسه لمنصب الحاكم ، وطلب من بريور أن يستأجرني لإدارة حملته الانتخابية . وكان بريور ممتناً لأنسحاب أخطر منافسيه على مقعد مجلس الشيوخ من المعركة ، وقال إنه يضعني في فريقه .

وقد فعل ذلك . ولكنه لخيبة أملي تجاهل مشورتي . فقد أخبرته ، كما أخبره كلينتون أيضاً ، أن تاكر يعدّ لحملة انتخابية تشبه تلك التي قمت مع دريسنر بإعدادها لهوارد ميتزينبوم . ومع ذلك فقد وضع دعايات فيها صور تظهره بمظهر الأولاد . أما تاكر فقد قاد ، بمساعدة المستشار دافيد سوير الذي مات مؤخراً بالسرطان وهو في مقتبل العمر ، حملة انتخابية ماهرة ، رفع فيها شعار : « الفرق هو القيادة » .

انخفض معدل بريور عشرين نقطة في الاستطلاعات . وإذا لم يفز أي من المرشحين في أركنساس بالأغلبية في الامتحانات التمهيدية ، تقابل أعلى اثنين منهم في دورة ثانية ، انهزم بريور في الجولة الأولى منها .

ومضينا أنا وكلينتون نعمل كفريق استشاري في تخطيط الدعايات العنيفة لبريور ، فاقترح كلينتون أن نوظف موقف بريور القوي في وجه إضراب رجال المطافىء ، وتهديده باستدعاء الحرس الوطني ، كمنجزات إيجابية فعالة .

واكتشفت إيلين تقريراً من تقارير الكونغرس الربع سنوية عن دوام تاكر غير المنتظم في الكونغرس . فقلت لها : « طبيعي أن يغيب ، وهو يجري خلف مقعد مجلس الشيوخ » سألتني : « وماذا في ذلك ؟ » فأجبتها : « أليس عليه أن يحضر الجلسات ليصوّت ؟ إنه ما زال عضواً في الكونغرس ، ونحن لهذا ندفع له راتبه ، وليس للسعي خلف المناصب العليا » .

التقينا ، إيلين وأنا ، حين كانت رئيسة للمستهلكين الفيدراليين في أمريكا ، أعلى مجموعة تمثل المستهلكين في البلاد ، وكانت تساعدني دائماً ، بحكم كونها كثيرة التردد على مجلس الشيوخ ، وقديمة الاهتمام بالشؤون العامة ، ومؤيدة لرالف نادر كحليفة دائمة له ، على رؤية الجانب الغريب الآخر للأمور . وبحكم نشأتي في عائلة سياسية ، فقد كنت معتاداً على الأساليب السياسية في رؤية الأشياء كما يفعل الناخبون .

ولهذا، كتبت نصاً للدعاية، ينادي فيه مذيع بليد بطيء الصوت بأسماء نواب أركنساس في الكونغرس :

ـــ نتائج التصويت : النائب ثورنتون ؟

ـــ موافق .

ـــ النائب هامرشميدت ؟

ـــ معارض .

ـــ النائب أليكساندر ؟

ـــ موافق

ـــ النائب تاكر ؟.. النائب تاكر ؟.. ليتحقق أحدكم رجاءً مما إذا كان معطفه موجوداً في غرفة المعاطف .. النائب تاكر ؟.. النائب تاكر ؟ خلال البحث عن المعطف، يشرح المذيع لأعضاء المجلس كثرة غياب تاكر، ثم يختم المشهد فيرفع فوق رأسه الشعار الذي اعتمده تاكر بالذات في حملته الانتخابية « لن يمكنك القيادة، إن لم تكن موجوداً هناك » .

وحاز الإعلان على الكثير من الضحك .. والكثير من الأصوات . وفاز بريور بسهولة . بعد الانتخابات، قامت صحيفة أركنساس الكاريكاتيرية بتلخيص شعار الحملة الانتخابية الذي رسمته لكلينتون ـــ إظهار القوة ضروري ـــ والمأخوذ من الفيلم الكارتوني « حبات الفول السوداني »(*)، الذي تحمل لوسي فيه كرة قدم لشارلي براون الذي يحاول بلا جدوى أن يرميها رمية موفقة، لأن لوسي كانت قبل كل محاولة تبعد الكرة من أمامه في اللحظة الأخيرة، فيقع شارلي أرضاً . أما عندي أنا، فقد أعطيت لشارلي وجه دافيد بريور، وجعلت لوسي تصيح دهشة وهي ترى الكرة تطير عالياً « دافيد بريور .. لقد رميت بالكرة » .

عودة بريور أكسبتني احترام كلينتون، وبدا أن نظرياتي مفيدة .

★★★★

انطبعت المرحلة المبكرة من حياتي العملية بطابع التأكيد على الجانب السلبي الإعلاني، وكنت في السبعينيات أول من استخدم هذا النوع من الدعاية، التي كانت تعكس غضب تلك الأيام، وتعبر عن خيبة أمل الجماهير بجيل من السياسيين جلب مصائب ووترغيت وفييتنام .

(*) الاسم بالإنكليزية هو Peanuts، ومعناه حبات الفول السوداني كما أثبتنا، باعتباره فيلماً من الصور المتحركة للأطفال. لكن الاسم نفسه يعني « السياسيون التافهون »، كما في معجم المورد للبعلبكي. فتأمل في التورية . ـــ المعرب ـــ

كنت شريراً لاذعاً في سخريتي . ولكن ما إن تم انتخاب كلينتون لمنصب الحاكم حتى أصبح أسلوبي وضيعاً ، فطردني في عام ١٩٧٩ . وقرر أن من غير اللائق بالحاكم أن يستخدم الاستطلاعات والتكتيكات ذاتها التي ساعدته على الفوز بالانتخابات .

كان من طراز « جراميز الكشافين »(*) ، يشعر بما يشعر به لاعب الأولمبياد وهو يقفز بعصاه الطويلة عشرين قدماً في الهواء ، بمساعدة عصا من الفيبركلاس ، وكنت أنا تلك العصا ، مفيد حين القفز فوق الحواجز العالية ، ولا لزوم لي بعد الانتهاء .

قال حين استأجرني : «أنت تجيد القيام بالأعمال مثلي وأحسن مني ، وأنا أجيد السياسة ، وهذا يجرح غروري » .

وفشل في انتخابه التالي ، فزيادة رسوم ترخيص العربات ، التي نصحته بألا يزيدها ، وفتحه أبواب فورت شافيه أمام اللاجئين الكوبيين ، تضافروا على جعله في وضع حساس معرض للهجوم . في الأيام الأخيرة من كارثة هزيمة عام ١٩٨٠ ، تحدثت هيلاري مع إيلين هاتفياً : « نحن بحاجة إلى ديك هنا فوراً ، بيل سيخسر في السباق بشكل رديء » . وكنت وقتها في أورلاندو ، أعمل جاهداً لتفوز بولا هوكينز بالانتخابات ، إذ ستكون هذه هي المرة الأولى التي تنتخب فيها امرأة مستقلة عبر تاريخ الولايات المتحدة لمجلس الشيوخ ، دون مساعدة من أبّ أو زوج شغل هذا المنصب قبلها .

سألتني إيلين ما إذا كانت عودة آل كلينتون إلى الاتصال بي تهدىء من ألم طردهم لي ، فأجبتها إنها تهدئها فعلاً . وأسرعت إلى أركنساس ولكن بعد فوات الأوان . فقد ترك كلينتون لمنافسه الجمهوري فرانك وايت ، أن يضربه بعنف ، دون أن يرد عليه . وفي ضوء منطلقات كلينتون والمقولات التي صاغها لحملته كشعار ، لم يحتج وايت إلى أن يبرهن أنه الأفضل كحاكم ، بل اكتفى بأن يظهر أخطاء كلينتون . والواقع أن استطلاعاتي أظهرت عدداً قليلاً من الناخبين الذين يعتقدون بأن كلينتون سيخسر ، لكنهم كانوا يساندون وايت ، ليعلّموا كلينتون ألا يتجاهل آراءهم . وحين سألنا الناخبين ما إذا كانوا سيصوتون لفرانك وايت ويخذلون كلينتون ، أجاب عدد كبير منهم بالنفي ، وبأنهم سيمنحون أصواتهم لكلينتون كبخشيش . لكن كلينتون لم يقبل أن يقتنع بأنه في ورطة ، ولم يكف الأسبوع المتبقي لتحويله عن رأيه .

(*) مرتبة الجرموز هي أول مرتبة في النظام الكشفي ، والمؤلف يستعملها هنا بمعنى «الأغرار الطيبين » .
ــ المعرب ــ

مع عدم وجود الهدف، يصبح كلينتون فوضوياً غير منظم، يتجاهل المشاريع السياسية التي خطط لها بعناية، ويتقلص مدى انتباهه، ويفقد القدرة على التركيز، والأسوأ هو هذا الميل إلى الاضطراب والتشويش الذهني، الذي يتسبب في فقدان الإحساس بالأولويات السياسية، وبخاصة حين يفتقر إلى هدف واضح واستراتيجية مرسومة بعناية. وهذا ما يجعله عرضة سهلة لإغراء آخر فكرة سمعها، ويتخبط على غير هدى في متابعتها. وذلك يعني أنه حين يعود إلى ما في يده من مهام، لا يستطيع تمييز الضروريات الجوهرية منها عن الثانويات التي لا علاقة لها بالموضوع، فهو كالمشلول أمام البدائل المتداخلة والمتشابكة. أما حين يتمالك نفسه بشكل يتمكن معه من رسم استراتيجيته، يصبح فعالاً إلى حد التدمير.

بعد انتخاب عام ١٩٨٠، عادت هيلاري إلى الاتصال بالهاتف قائلة: «بيل يحتاج إليك فوراً، وعليك أن تساعده ليستطيع أن يعيد خطواته إلى مسارها الصحيح».

هكذا كانت حاله مشوشة حين عدت عقب الانتخاب، لأبدأ معه مسيرة سنتين في تجديد وإحياء قدرته على العودة إلى السلطة. ولأجد أنه من غير المجدي التحدث معه لإخراجه من اكتئابه وحزنه. فقد بدا وكأنه رجل في مكان غير مناسب، رجل مقيد بوظيفة صغيرة في مكتب قانوني محلي، يخرج ليرى إن كان يستطيع الحصول برسم الإعارة على سكرتيرة تطبع له مذكراته على الآلة الكاتبة. قام مع هيلاري باستئجار منزل صغير أصفر، خزائنه محفورة في الجدران، وأثاثه ألماني ثقيل، بعد أن طردوا من قصر الحاكم الواسع الذي قام بزخرفته الحاكم السابق وينتروب روكفلر. وبدا من الصعب عليهما كثيراً القيام بالغسيل والكوي في هذا البيت، بعد قضاء سنتين في قصر. وكان بحاجة إلى هدف، وإلى مخطط للعبة، يضعه على المسار المستقيم، وعرفت أنه ما إن يشعر بالانشداد إلى هدف ما، سيعود إليه تنظيمه وقدرته على المحاكمة الجيدة الصحيحة.

وإحساساً من هيلاري بحالة بيل النفسية، فقد اتصلت بصديقتها القديمة بيتسي رايت، التي عملت مديرة سياسية لاتحاد العاملين لدى الدولة، وطلبت منها إدارة حملة انتخابية تعيد كلينتون إلى منصبه في عام ١٩٨٢. وانطلقت بيتسي تعيد تنظيم حياة كلينتون. وعلى مدى ست سنوات استطاعت أن تحدد لحياته شكلها وأن تفرض لها نظامها. كانت توقظه صباحاً، وتشرح له متى يأوي إلى الفراش ليلاً. برمجت له جميع واجباته واجتماعاته. لكنها أصبحت في النهاية بالغة القسوة والصرامة إلى حد تناقصت معه قدراته على النمو وعلى تنظيم نفسه. في عام ١٩٨٨، صرفها من الخدمة، وعينها رئيسة لجان الحزب الديموقراطي. لكنني خلال السنتين الأوليين من رئاسته الأولى، كنت دائماً أفكر بمدى

حاجته لعودة بيتسي. فلو أنها كانت موجودة في البيت الأبيض عام ١٩٩٣ و١٩٩٤، لأخذت الرئيس إلى معسكر تدريبي مرة أخرى، وأعادت إليه نظرته الفاحصة المركزة المتأملة.

****

دخلت إلى مسألة عودة كلينتون عام ١٩٨١، منطلقاً من فكرة أن عليه الاتصال بالناخبين مباشرة وفي وقت مبكر، من خلال الدعاية والإعلان. كثير من المرشحين في ذلك الوقت لم يستخدم الدعاية التلفزيونية مطلقاً، والذين خطر لهم ذلك فقد استخدموها قبل أسابيع قليلة من يوم الانتخاب. أما في عام ١٩٨٢، فالتفكير باستخدام الوسائل الإعلامية قبل سنة كاملة من الانتخاب، كان سابقة لم تحصل بعد. لكن كلينتون تمسك بشدة بأهمية الاتصال المباشر مع الناخبين بوقت مبكر من السباق، ليشرح لهم أسباب فشله في عام ١٩٨٠ وليمهد الطريق أمام عودته. وقد استطاع فعلاً عن طريق الإعادة والتكرار في الصحافة أن يقول ما هو بحاجة إلى قوله دون أية رقابة.

في تلك الأيام، كان كلينتون يتذمر شاكياً من العواميد الهزيلة في صحف أركنساس. فقلت إن عليه أن يزيد المبالغ التي يدفعها بدلاً من أن يتذمر. فقامت بيتسي حينها بتنظيم زيادة الاعتمادات المرصودة بشكل يمكّننا من توصيل رسالتنا، دون الاعتماد على طيبة قلب الصحافة ونيتها الحسنة.

هذا التركيز على الدعاية أنذر بالخطر خطتي الثانية التي رسمتها لكلينتون ونفذتها. ففي عام ١٩٩٥، دهش موظفو البيت الأبيض، ومن بينهم هارولد آبسكيس الذي لم يكن معنا في المرة الأولى، حين رأونا نبدأ حملات الدعاية قبل ستة عشر شهراً من يوم الانتخاب، لأنهم لا يعرفون أننا في عام ١٩٨٢ بدأناها قبل عشرة شهور من الانتخاب. ولكن كما سنرى لاحقاً وكما يتذكر كلينتون، فهو الذي ترك لي أمر المراهنة على دعاية ضخمة مبكرة ومؤثرة في عام ١٩٩٥، تماماً كما فعل من قبل.

في عام ١٩٨١ ــ ١٩٨٢، كانت الرسالة تقوم على أساس استطلاع ما قبل انتخاب عام ١٩٨٠. فكان علينا أن نستعيد الناخبين الذين أحبوا كلينتون، وأرادوا بقاءه كحاكم، لكنهم أعطوا أصواتهم لفرانك وايت، لتلقين كلينتون درساً يجعل منه حاكماً أفضل في المستقبل. وكان علينا أن نجعلهم يفهمون أنه قد سمعهم وفهمهم، وعرف أنه أخطأ، وأنه لن يعيدها مرة أخرى.

لقد رأت أركنساس في كلينتون شاباً حالماً واعداً، ضل طريق الصراط المستقيم وهجرها إلى جورجتاون وأوكسفورد ويال. واتضح ضعف ارتباطه بحياة أركنساس برفعه

الضرائب على رسوم العربات، المعروفة عامياً بأنها نوع من أنواع المخالفات المرورية. والآن، بعد أن لقن جمهور الناخبين الدرس لكلينتون، وجدوا أنفسهم تحت ثقل حاكم آخر هو فرانك وايت، محافظ من حزب الشعب، إلا أنه قبل أي شيء آخر قميء معتل العقل، قصير سمين، مغرور متفاخر، يظهر غباؤه جلياً حين يتحدث. أول أولوياته أن يطالب بتدريس سفر التكوين من الكتاب المقدس في مدارس أركنساس الرسمية جنباً إلى جنب مع نظرية النشوء والارتقاء الداروينية، التي يرتاب فيها من أعماقه. ولهذا، فقد صورته صحيفة أركنساس الكاريكاتورية الفكاهية بصورة قرد يأكل موزة.

قلت لكلينتون أن يبدأ حملته الانتخابية باعتذار عن رفع رسوم السيارات. لكنه لم يشأ أن يعتذر، وبرر ذلك قائلاً: «هذا ليس من طبعي ولا أسلوبي، إذ كيف كان بمقدوري تحسين الطرقات إن لم أحصل على الأموال من مصدر ما؟».

وأشرت بانفعال إلى أن الطريق الوحيد إلى المسامحة والغفران تبدأ بالاعتذار. قلت: «يجب أن تبدأ بالندم والاعتذار».

سخر أصدقاء كلينتون من الفكرة، فقال أحدهم: «لماذا نلفت الانتباه إلى السلبيات؟»، وقال آخر: «سيبدو باعتذاره ضعيفاً».

لكنه عاد إلى قراءة استطلاع عام ١٩٧٩ من جديد، وفهم قصدي، وبغض النظر عن الذين يدسون أنفهم تطفلاً ويقدمون نصائحهم دون طلب من أحد، فقد وافق على وجوب طرق هذه المسألة بشكل مباشر، دون أن يعتذر.

في ديسمبر / كانون الأول من عام ١٩٨١، جاء كلينتون إلى مدينة نيويورك لتصوير أول إعلانات حملته الانتخابية لعام ١٩٨٢. وكنا نعمل مع طوني شفارتز الذي أبدع لأول مرة الدعاية السياسية الحديثة. في عام ١٩٦٤، كان فيلمه الإعلاني هو الذي يصور فتاة صغيرة تقطف زهرة مرغريت، بينما المذيع يعد تنازلياً إلى الصفر، ثم تملأ الشاشة غمامة من الفطر الذري. وبعد عرض هذا الإعلان مرة واحدة فقط، تأتي حملة جونسون المذعورة لتتغلب عليه وليتلاشى في الهواء. إلا أن هذا البث مرة واحدة بعث قشعريرة في أمريكا، أسقطت معدل باري غولد ووتر في الاستطلاعات بشكل مؤثر ودائم، إلى الحد الذي صار معه انتخابه كرئيس مستحيلاً.

كان طوني مصاباً بمرض الخوف من البريّة والأراضي الخلوية، ونادراً ما يغادر منزله في المدينة القديمة بالشارع ٥٦ على الطريق العاشرة، لكن المرشحين بما فيهم هيوبرت هامفري وجيمي كارتر ووالتر مانديل، كانوا يأتون إليه. وطلب كلينتون الذهاب إلى الحمام قبل أن

نبدأ ، ثم عاد وهو يضحك بينه وبين نفسه ضحكة خافتة . فقد كان ثمة مرحاضان في الحمام ، كتب طوني على باب أحدهما « خاص بالجمهوريين » وعلى باب الآخر « خاص بالديموقراطيين » .

جلس الحاكم السابق بجدية وبكل اهتمام يعمل في النص المقترح الذي صغته لاعتذاره الإعلاني . قال وهو يتناوله موضحاً : « سأنفذه على طريقتك ، عدا ما له علاقه بالاعتذار ، فعليك أن تتركه لي ، لكنني أعتقد أنك ستوافق على ما سأفعل » .

قام طوني بتشغيل آلة التصوير . ونظر كلينتون ، الابن المدهش ، إلى العدسات وقال بروح تفيض عاطفة : « خلال أيام قليلة سأعلن رسمياً عن ترشيح نفسي لمنصب الحاكم . ولكن قبل أن أفعل ، أود أن أتحدث إليكم مباشرة ، لأشارككم ما تعلمته ، ليس من كوني حاكماً فحسب ، بل من هزيمتي في الانتخاب الأخير أيضاً . كثيرون منكم في كل أنحاء الولاية ، أخبروني عن اعتزازكم وفخركم بأشياء قمت بها وأنا حاكم ، إلا أنهم يعتقدون أنني أيضاً ارتكبت أخطاء كبيرة ، أخص بالذكر منها زيادة رسوم ترخيص العربات ، ورسم نقل الملكية .

حين صرت حاكماً ، كان لدينا مشاكل خطيرة تتعلق بالشوارع والطرق ، ففرضت هذه الزيادة بالرسوم محاولاً حل تلك المشاكل ، لكن ذلك كان خطأ ، لأن كثيرين منكم تضرروا . . . » .

(إلى هنا لا بأس . . وأمسكت أنفاسي لأرى كيف سيعتذر ، فسمعته يتابع قائلاً :)

« . . . وأنا آسف حقاً لما حصل . حين كنت غلاماً ، لم يضطر أبي لأن يصفعني مرتين على خطأ واحد . وآمل الآن أن تمنحوني فرصة أخرى لخدمتكم كحاكم ، فلدى ولايتنا إشكالات كثيرة وفرص كثيرة تتطلب قيادة قوية . وإذا فعلتم ، فأنا أعدكم بألا أحاول زيادة رسوم الترخيص مرة أخرى ، بل سأحاول بناء خبراتي العملية من فوزي ومن هزيمتي لأكون أفضل حاكم تحصل عليه ولايتنا » .

كنت مذهولاً . . مذهولاً وحسب !! كانت الفقرة التي تحدث فيها عن أبيه شعبية محببة ومؤثرة في تصويرها . وكانت لدى كلينتون قدرة عبقرية على أن يقول أشياء قوية بلغة حنونة مريحة ، لم يسبق لي أن استطعت كتابة مثلها من قبل ، مع محافظته على مبادئه وعدم الخروج عنها . فهو لا يريد أن يكذب ، ولا يريد أن يعتذر . وهو يعتقد أنه فعل صواباً بزيادته رسوم الترخيص . وسيظن الناخبون أنهم سمعوا اعتذاراً عن الزيادة ، حين اعتذر في حديثه عما سببه لهم من ألم ، بعبارات حنونة محببة . وأذكر بوضوح أنني حدثت نفسي قائلاً : « هذا الشخص يمكن أن يكون رئيساً » .

صحيفة أركنساس الكاريكاتورية التي رسمت كلينتون سابقاً في عربة أطفال، رسمته الآن في مسوح الرهبان ورمادهم. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع الناخبون فيها سياسياً يقول إنه أخطأ، وامتد بعد ذلك تأثير هذا الإعلان إلى جميع أنحاء الولاية، ولسوء الحظ، لم يكن لي سبق إعداد هذا الإعلان. في استطلاعي الثاني انخفضت معدلاته عشر درجات، وخشيت أن أكون قد قضيت على مستقبل كلينتون. ظننت أن الإعلان سيفيده، لكنه يبدو الآن وكأنه قضي عليه بسبب إصغائه لي. وركبت الطائرة إلى أركنساس كسجين يوشك أن يتلقى عقوبته. قابلت هيلاري في المطار واتجهنا إلى اجتماع يتحدث فيه بيل. وأخبرتها في الطريق عن نتائج الاستطلاع، لكنني تنبأت بشكل جازم أن المعدلات سترتفع بسرعة مرة أخرى. قلت لها وأنا أتظاهر بالشجاعة: «الأمر أشبه ما يكون باللقاح ضد الجدري، تصابين به قليلاً أول الأمر، ثم لا يعاودك بعدها أبداً» وشرحت لها كيف أن كلينتون أصبح الآن محصناً بعد أن سمعه الناخبون يعتذر وبعد أن سامحوه. وكنت أدعو الله في سري أن أكون مصيباً.

قلت لهيلاري ونحن نشاهد كلينتون يتحدث: «إنه يصلح لأن يكون رئيساً». في تلك الأيام، كانت عيناها بنيتين، وشعرها كستنائياً، وتضع نظارات ذات عدسات سوداء مقعرة، نظرت إلي عبرها وقالت: «علينا أن نجعله حاكماً أولاً». وكان ذلك عندي أمراً هيناً مفروغاً منه.

حين أنهى بيل حديثه، قمت بتطبيق نظريتي الروتينية عليه. كان عليّ أن أبدو كمحامٍ خسر لزبونه قضيته في المحكمة، إلا أنه يعد بنتائج باهرة في الاستئناف. ولم يصدقني كلينتون، لكنه قرر الترقب لرؤية ما سيحدث.

بعد ذلك استجابت آلهة السياسة لدعواتي. وانطلقت معدلات كلينتون تصعد أعلى فأعلى. منافسه وخصمه جيم غاي تاكر هاجمه بخصوص زيادات الرسوم، والجريمة، والضرائب، وبخصوص المدارس، وبكل ما خطر له على بال، لكن كل ذلك كان يرتد مرفوضاً بلا جدوى. لماذا؟.. لأنه اعتذر!! هذا ما قاله لي الناخبون في الاستطلاع.

وفاز كلينتون، وما إن طوى خصومه وتقدم عليهم، حتى غيرت جريدة أركنساس كاريكاتوراتها مرة أخرى. عاد كلينتون يضع طاقية أطفال على رأسه ويركب في عربة أطفال، لكنها هذه المرة برج على عجلات، أشبه ما يكون بالدبابة.

★★★★

أنا أعزو مواهبي الغريزية السياسية إلى الوراثة والبيئة. فعمي الأكبر هو القاضي ألبرت كوهن، الذي قام بإدارة المناطق اليهودية في برونكس، أحد الأقسام الإدارية الخمسة لمدينة نيويورك، لصالح منظمة الحزب الديموقراطي التي يرأسها القائد الأسطوري إدفلاين. تدرج كوهن في المناصب حتى أصبح قاضياً في قسم الاستئناف، ثاني أعلى محكمة في ولاية نيويورك. وأذكر أنني قابلته مرة واحدة فقط في احتفال لابن عمي، وكان عمري وقتها ثمانية أعوام. وسألني القاضي كوهن ما إذا كنت مستمتعاً بالحفل، فقلت مجيباً: «أنا لا أحب العروض والحفلات».

كان ابنه روي كوهن، الذي أصبح مشهوراً على الصعيد الوطني وهو في العشرينيات كرئيس لمستشاري السناتور جوزيف ماكارثي في لجنة التحقيق مع من يُزعم أنهم شيوعيون مندسون في حكومة الولايات المتحدة، واشتهر بتكتيكاته المتطرفة القاسية التي لا ترحم. كان روي من محارم أمي التي كانت شيوعية خالصة أيام مراهقتها في الثلاثينيات. وكان والداي وأصدقاؤهما من مدينة نيويورك يحزنون عليه باستمرار، ويحزنون عليه أكثر لأنهم يهود. فكانوا ينظرون إليه نظرتهم إلى خائن خان تقاليد دينهم في مذهب الحرية السياسية. وكان والدي يحب أن يردد دائماً: «الحقيقة الراسخة التي لا تتبدل هي أن روي كوهن ابن عمي». ثم أصبح كوهن في النهاية واحداً من أشهر الوكلاء الأمريكيين من المحامين، بتمثيله لأرسطو أوناسيس، وإمساكه لقضايا العصابات، والقضايا الأخرى التي لم يجرؤ محامٍ آخر أن يمسها.

لم أكن أعرفه شخصياً، لكن أمي كانت تضرب المثل بروي دائماً في كل شيء مستحيل. وكان أبي يروي كيف استأجر له أبواه معلماً يعطيه دروساً خاصة بعد انتهاء المدرسة، وكيف كره المعلم وكره الدراسة، وكيف جرب كل ما خطر بباله ليحمل والديه على إلغاء الدروس، ولكن بدون فائدة. وأخيراً وفي نوبة يأس، اتهم معلمه بالتحرش به جنسياً، وتسبب في طرد الرجل المسكين من العمل.

كان أبي إيوجين ج. موريس منغمساً جداً في شبابه بالسياسة ببرونكس. ثم شغل جين موريس القاضي كما يسميه أصدقاؤه عدداً من المناصب السياسية، لكنه ترك سياسة الانتخابات بناءً على إصرار أمي، وأصبح واحداً من أهم الوكلاء العقاريين البارزين في البلاد، إلا أنه بقي في أعماقه سياسياً. كتب في الوساطة العقارية عشرات الكتب والعناوين، لكن أعماله وكتاباته القانونية والسياسية هي التي أكسبته الاحترام، وخلقت عشرات مشاريع الإسكان لذوي الدخل المتوسط، يصل عدد شققها إلى عشرات الألوف، وتشكل الآن الصورة الخلفية لمدينة نيويورك. كان يعرف صميم النظام السياسي وجوهره، وعمل جنباً إلى جنب مع قادة السياسة في نيويورك لتحقيق مشروعاته السكنية.

كنا نواظب في نزهاتنا أيام العطل على عبور الحديقة المركزية لنصل إلى مكتبه في وسط المدينة. وكان يشرح لنا خلال سيرنا كيف يعمل النظام السياسي بالمحاباة، وكيف توزع الوظائف بالمحسوبيات. وتعلمت منذ طفولتي أنه يحب السياسة، وأن النجاح فيها هو الطريق الوحيد للحصول على موافقته. وقد أكون ورثت عنه بعض طاقته، وولعه بالأعمال الصعبة الشاقة، وانفراده بقراراته وأهدافه.

كانت أمي تيري موريس في الطرف المقابل تماماً من أبي بالحساسية وحدة المزاج. كانت طالبة ذكية لامعة من عائلة أمية هنغارية مهاجرة، نجحت في جميع الصفوف، ودخلت كلية هنتر في مدينة نيويورك وعمرها أربعة عشر عاماً، ترتدي لخجلها جوارب تصل إلى ركبتيها. ثم امتدت شهرتها كمحررة صحفية ناجحة مدة ثلاثين عاماً، أسست ورأست جمعية الصحفيين والمؤلفين الأمريكيين، واشتهرت بفضل كتاباتها في علم النفس والطب، التي نشرت إحداها مجلة الكتاب الأحمر بعنوان «أخطار ومخاوف مرض تاي ساكس». وهو مرض تم اكتشافه والسيطرة عليه. طوال أيام طفولتي، كنت فخوراً بقصصها عن قهر الأمراض ومقاومتها، وعن انفصام الشخصية والانهيارات العصبية وغيرها من الأمراض النفسية والعقلية. كان لديها قدرة إبداعية، وهبة لغوية، وإحساس بما هو ممكن، وإذا كنت أتمتع بإحدى هذه العطايا والصفات، فهي منها آتية.

ومع ذلك فقد نشأت أحمل قدري على كتفي. ولدت في عام ١٩٤٧ خديجاً، مبكراً ثلاثة شهور عن موعد ولادتي، وبدأت الحياة بوزن لا يزيد عن ١٤٠٠ غ، فأمضيت الشهور الثلاثة الأولى في الحاضنات، لا أحد يلمسني حتى ولا أمي. وبعد سنين طويلة من المعالجة بدأت أفهم إلى أيّ مدى أثّر هذا الحرمان المبكر على شخصيتي فيما بعد. وتعلمت أن معظم إحساسي بالحاجة إلى الالتصاق بالآخرين والارتباط بهم، إنما يعود إلى تلك التجربة الأولى.

كنت دائماً صغير الحجم في طفولتي، خجولاً، مؤدباً، خائفاً. لكن والديّ عالجا هذا الجبن بالتحدي، فأرسلاني وأنا في السادسة لأنام في معسكر بعيد لمدة ثمانية أسابيع. وبقيت بعدها خمس سنوات أعود كل عام إلى هذا المعسكر المنعزل على شاطىء ماين المهجور المنطبع بطابع المدارس الرسمية الإنكليزية الكئيب. وحين أستعيد تلك الذكريات، أشك بأنني كنت مصاباً بمرض التوحد المعتدل. تعلمت المشي متأخراً، والقراءة متأخراً، والكتابة متأخراً. وكانت اهتماماتي الطفولية تقتصر على أشياء سهلة المنال أجدها فاتنة مذهلة. في الثالثة من عمري أعطوني كتاباً عن الجسور، وسرعان ما تعلمت الأبعاد، وأسلوب العمارة،

ومخططات البناء لخمسين جسراً مشهوراً في العالم. وفي الخامسة من عمري، في خيمة للهنود الحمر نصبتها بغرفة نومي، أضفت إلى معلوماتي موسوعة معارف كل قبيلة لهم في تاريخها. وفي الثامنة، أعطاني والدي دمى تمثل أشخاص الرؤساء، فلعبت بها، ورتبتها، ونظمتها حسب رتبها، وحفظتها غيباً، فكانت مدخلي إلى السياسة. وفي الصف الخامس الابتدائي كتبت بخط كخربشة الدجاج، سيرة حياة كل رئيس من الرؤساء.

كنت، مثل كلينتون، مأخوذاً بجون كينيدي، أستمع تحت البطانيات في المعسكر إلى الراديو، كيف فاز في ليلة صيف من عام ١٩٦٠ بترشيح الديموقراطيين في مؤتمرهم بلوس أنجيلوس. وحين رفعته وايومينغ إلى القمة، ابتهجت بصمت خوفاً من أن ألفت إليّ انتباه المشرفين على المعسكر. وفي السادسة عشرة من العمر، دمَّرني موت كينيدي. ثم تحوّل الحزن إلى غضب وأنا أرى ليندون جونسون يجرنا إلى حمام دم في فييتنام.

شاركت في جميع مسيرات الاحتجاج المعارضة للحرب في أنحاء الشاطئ الشرقي، وتنشقت رائحة الغاز المسيل للدموع ونحن نردد الشعارات أمام رجال الشرطة. كانت زيارتي لشيكاغو لحضور المؤتمر الذي تم فيه ترشيح كلينتون عام ١٩٩٦، هي الزيارة الثانية لي لحضور المؤتمر الوطني الديموقراطي في مدينة ويندي. ففي عام ١٩٦٨ كنت أعمل كمتطوع في الطاقم السياسي لجورج ماك غوفرن، الذي كان يسعى لترجمة زخم الغضبة السياسية لمقتل بوبي كينيدي إلى ترشيح غير متوقع، ولكن حين داست أحلامي عربة دالي هامفري، انضممت إلى المتظاهرين في الشوارع احتجاجاً على الغطرسة والحكم الفردي المطلق.

كنت ملائماً تماماً للمعارضة السياسية في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات. ولم أجد أية صعوبة وأنا ساخط في أن أشارك الناخبين غضبهم، كما لم أجد ما يمنعني من العمل في الدعايات المضادة المعارضة. فمنذ باكورة عملي كمستشار، أصبحت معروفاً في الدوائر السياسية باشتراكي في تحويل هزائم انتخابات مجلس الشيوخ وحكام الولايات إلى انتصارات، كما فعلت في نيومكسيكو، وتكساس، وكاليفورنيا، وماساتشوسيتس، ونيوهامبشاير، وفلوريدا، وفي أركنساس عام ١٩٨٢.

وتحول العالم الأبله إلى ولد فظيع مخيف.

كان كل ما قمت به في ذلك الوقت عملاً طوعياً. كنت أقبض فقط من عملي في «لجنة الميزانية لمواطني نيويورك»، وهي مجموعة مراقبة مكرسة لتحسين الإنتاجية والكفاءة في المدينة، ولتطوير الخدمات في الولاية. وعن هذا الطريق، طريق نقد الإدارات الإنتاجية خطياً، تعلمت الكثير عن سيارات النظافة ومسالكها، ودوريات الشرطة، وسيارات

الإطفاء، وسياسة المدينة المالية، والإدارة المدرسية، والخدمات الاجتماعية، وبرامج المعونة الاجتماعية. ورأيت الحجم الهائل لعدم الكفاءة في الحكومة. ففي دراسة لي عن معالجة مياه الصرف الصحي، وجدت منشآت أدركها الخراب منذ عشرين عاماً لم تستكمل بعد. سيارة القمامة يعمل عليها ثلاثة أشخاص، بينما تحتاج إلى اثنين فقط، نتيجة لضغوطات اتحاد العمال. استغرق بناء مدرسة في مدينة نيويورك عام ١٩٧٠ من الوقت، أكثر مما استغرقه بناء ناطحة السحاب «أمباير ستايت» في العشرينيات. وفي انتقاداتي لخدمات المدينة والولاية، وجدت أن الحكومة ليست وسيلة جيدة للتقدم الاجتماعي، فوصلت إلى رفض وتحدي ما ينادي به الديموقراطيون في مقولتهم المركزية: إذا أقامت الحكومة برامج، فهي قادرة على إدارتها.

بعد مللي وضجري من التفاصيل التافهة للنوادي السياسية المحلية، تركت لجنة الميزانية بعد خمس سنوات، واستخدمت ما اكتسبته من معارف في تقديم «نصائح» إلى الديموقراطيين في ولاية نيويورك. فعملت مع إد كوخ، ودافيد دينكينز، وهوارد ج. صمويل المرشح لمنصب الحاكم، وستانلي شتاينغات، وبيرسي ساتون رئيس قطاع مانهاتن، وبيلا آبزوغ عضوة الكونغرس، وكثيرين. وكانت نصائحي تعكس فكري المتطور، وتساعد المرشح في العثور على المسائل التي تخاطب التحرر المتنامي من تضليل وخداع الحكومة، هذا التحرر الذي يشاركني فيه كثير من الأمريكيين.

في عام ١٩٧٧، ألفت كتابي الآخر الوحيد بعنوان «التشرد والجريمة في المدن الأمريكية: الأسباب الحقيقية للتفسخ المديني». عرضت فيه كيف أن المشاكل المدينية في الشمال جاءت نتيجة للتحيز الفيدرالي ضد الشمال الشرقي، حيث الضرائب المرتفعة غير المتناسبة مع الدخل التي يتم تحصيلها من مدنه، تصرف كإعانات حكومية على شواطئ الحزام الشمسي. ففي الفصل الذي يحمل عنوان «البنتاغون بناء خماسي يمثل الجنوب»، أوضحت كيف تتم رشوة مدن الحزام الشمسي من بنود نفقات الدفاع. وفي فصل آخر بعنوان «دعونا نشطب الطبقة المتوسطة من قوائم المعونة الاجتماعية» أثبتُّ أن ٨٠٪ من ميزانية المعونة الاجتماعية تصرف لرشوة الملاكين وأرباب العمل والأطباء والمستشفيات والمشرفين الإداريين. دولار واحد فقط من أصل كل خمسة دولارات، هو الذي يصل إلى الفقراء.

كان مثلي الأعلى السياسي، كما عند كلينتون، هو الذي يزاوج بين الجانب الواقعي النفعي والجانب الواقعي المثالي. في السنوات الأولى أظهرت لكلينتون الجانب الواقعي النفعي فقط، لكنني بعد نضوج علاقتنا وانحسار حماستي الملتهبة، أظهرت له الجانب الواقعي المثالي أيضاً.

في عام ١٩٧٤ التقيت بإيلين حين عملنا معاً في حملة هوارد صمويل الفاشلة على منصب الحاكم، كانت مستشارتنا في أمور المستهلكين، وكنت ألاحقها يومياً من أجل المستندات والوثائق. لكن الملاحقة المستمرة المزعجة التي أتصف بها، ليست الطريقة الصحيحة في صنع الأصدقاء، فافترقنا ببرود بعد هزيمة صمويل. في العام التالي، كانت بيس مايرسون وكيلة المستهلكين وملكة جمال أمريكا سابقاً، تتطلع إلى المنافسة على منصب المحافظ، فطلبت مني أن ألخص لها قضايا المدينة وأمورها. واقترحتُ باعتبارها تعرف إيلين أن نعمل معاً في وضع اقتراح لتدخل المستهلكين في القضايا ذات العلاقة بشركة AT&T المحتكرة. فعبرت إيلين عن عدم استلطافها لي قائلة: « سأقوم أنا بكامل العمل، وسيحصل هو على الشرف والسمعة ».

لكنها منحتني فرصة، وجاءت إلى مكتبي، وكنت قد قصصت شعري وبذلت وسعي لأكون فاتناً. قلت لها: « سأعد الاقتراح وأرسله إلى مكتبك، ولك أن تعدلي فيه ما شئت، ثم أقوم بتسليمه. وسنتقاسم المبلغ بالتساوي ». هذه الأريحية أكسبتني دعوة عشاء، وفرصة مسامحتي عن كل سمعة سابقة.

لقد وسّع زواجي بإيلين عام ١٩٧٧ نظرتي، حتى شملت ما بعد يوم الانتخاب. وتحولت من إسبارطي إلى أثيني(*)، فارتديت بذلة، وجففت شعري بالهواء الساخن، وشعرت أن غضبي القديم يتلاشى. وبفضل تأثير إيلين عليّ، تعلمت أن أستحسن وأتذوق الرسامين الانطباعيين من مثل فيفالدي، وأن أستمتع بالأمسيات الطويلة في البيت مع الأصدقاء.

بعد أن استطاعت إيلين، وطبيبتي المعالجة أليزابيث هاوزر، أن تلطّفا من هياجي المسعور، وتزرعا الأمان والطمأنينة في داخلي لأول مرة في حياتي، قررتُ أن أهجر الدعاية المضادة المعارضة كمهنة. وتحول الطفل العابث إلى مخلوق ناضج، منتقلاً من اليسار إلى اليمين. ومع ابتهاج البلاد بدفء السنوات الريغانية، بدأت أرى طرقاً جديدة للفوز لا يشترط فيها أن تكون تخريبية. وبقيت مرافقاً مسلّحاً مأجوراً، لكنني أصبحت استراتيجياً أكثر مما كنت قاتلاً. بدأت أعتمد على المنجز من الأشياء، وليس على المعايير النظامية التقليدية. وعلى الأفكار الجديدة التي تجتذب جماهير الناخبين، وتقود إلى الانتصارات السياسية. في ولاية تكساس، ساعدت المرشح الديموقراطي مارك وايت في سباقه لمنصب الحاكم، وحصلت على دعم الناخبين المستقلين بالوعد بإنهاء الزيادات التي تطرأ على معدل الفائدة عن طريق

(*) يقصد من بخيل إلى كريم، يحب الإنفاق على اللذائذ، فالتاريخ القديم عند الغرب يتهم الاسبارطيين بالبخل ويصفهم بالميل إلى التقشف. — المعرب —

ضبط آليتها. في نيوهامبشاير، شجعت وارين رودمان على التحرك ليصبح أول مرشح يفوز بمقعد مجلس الشيوخ في الولايات المتحدة برفضه تمويل لجان العمل السياسي. سألنا في إعلانات دعايته: «أليس شيئاً جيداً رائعاً أن يكون لنا عضو في مجلس الشيوخ خاص بنا؟». وفي نيوميكسيكو عام ١٩٨٢، دفعت جيف بينغامان لإلحاق هزيمة غير متوقعة برائد الفضاء جاك شميت. لقد قطعت شوطاً بعيداً في طريق رجوعي عن طابعي القديم في الحملات الانتخابية المضادة الهدامة، إلى حد أن الإعلان التجاري الذي ساعد على هزيمة شميت لم يكن إعلاناً حزبياً: «هل تعتقد أن علينا التنقيب عن البترول في الحدائق الكبرى العامة؟ جيف بينغمان يقول لا. لأننا قد نكون فعلاً بحاجة إلى البترول، لكن الحاجة إلى التراث أكبر. كل المرشحين جيدين. في يوم الانتخاب، امنح صوتك لمن يتفق معك في الرأي».

هذا الأسلوب في الحملات الانتخابية ومنطلقاتها، أصبح طابعي المهني المميز وعلامتي التجارية المسجلة، ووثق علاقتي بكلينتون، الذي كان يراني زميلاً وشريكاً، ليس في الفوز بالانتخابات وحسب، بل في تطوير القواعد الفلسفية لاستراتيجيته في الحكم أيضاً. كنا حين تنتهي لقاءاتنا السياسية نتجول متسكعين في قصر الحاكم، ونتوه في المطبخ الواسع بثلاجاته ذات الحجم الصناعي. وكنت كثيراً ما أجلس على طاولته الطويلة، مدلّياً رجليّ، بينما يقف هو مقابل الفرن يأكل شطيرة، ونمضي نتحدث عن التاريخ السياسي الحديث بدلاً من كرة السلة. كنا مهووسين وسعيدين بالحديث عن التجارب العامة التي عاناها الشعب الأمريكي منذ مقتل كينيدي: فشل المجتمع العظيم في إنقاص الفقر، الحرب الفييتنامية الطاحنة، وفضيحة ووترغيت. واكتشفنا كيف استطاع هذا العجز الحكومي المتجسد في الأمثلة المذكورة أن يعالج بنجاح المد اليساري المستفحل الأعزل في تحقيق التقدم الاجتماعي. من مثل هذه الأحاديث، جاء برنامجنا المشترك في استخدام الحكومة كعامل حافز على التغيير، وليس كمشرف على البرامج. لقد انبثق هدفنا بخلق الفرص وإتاحتها مع المطالبة بحمل المسؤولية من جولاتنا المتسكعة هذه، كما لو أننا من مستحقي عطاءات الحكومة القديمة.

تجسدت هذه الأفكار أول مرة في الإصلاحات التعليمية التي قام بها كلينتون في أركنساس. فقد استهوتني مسألة اقترحتها هيلاري كلينتون: إجراء اختبار للمدرسين المتقدمين إلى المسابقة. هذه المسألة أكسبتْ بيل كلينتون شهرة عند ذوي الاهتمامات الخاصة من مؤيدي الهيئة التعليمية في أركنساس، وعند اتحاد المدرسين، وأوضحتْ أن مشروع كلينتون للمدارس كان نابعاً من حبه للأطفال، وليس إغراءً للمدرسين لتمويل حملته

الانتخابية. زاد كلينتون رواتب المدرسين، لكنه اشترط النتائج. وزاد الاعتمادات والمخصصات، لكنه طلب أن ينجح الطلاب ليحصلوا على علاواتهم. رأى كلينتون أن المشاكل الاقتصادية لولايته الصغيرة المتخلفة يمكن حلها بطريقة واحدة، هي إجراء تحسينات عامة شاملة على التعليم. فكان هذا الربط بين المدارس والوظائف الجيدة والأداء هو الدعامة الأساسية لعمله السياسي في الولاية، ثم أصبح المحور الرئيسي الذي رفعنا شعاره في سنوات البيت الأبيض. وحين اتخذ كلينتون الترتيبات لسباق محتمل على الرئاسة عام ١٩٨٨، زادت محادثاتنا كثافة وتركيزاً، فولدت فكرة «الشراكة الجديدة» كمحور رئيسي تقوم عليه الحملة الانتخابية، تلك الفكرة التي نشأ منها «الميثاق الجديد»، الذي بعث الحياة في سباق عام ١٩٩٢.

كلانا أراد دمج الحنان الديموقراطي مع الحدّة الجمهورية في مفهوم المسؤولية. وحين دفعته إلى خوض سباق عام ١٩٨٨، أعددت مسودة لخطاب يقول فيه: «نحن بحاجة إلى شراكة جديدة بين حكومتنا وشعبنا. ولم نعد نستطيع أن نستمر في تجاهل مشاكل الناس كما فعلت إدارة الرئيس ريغان وتفعل. إنهم لا ينصرفون عنا، بل ينمون ويكبرون فقط. لكننا لم نعد نستطيع دفع الإتاوات ومنح التبرعات لتمويل «الصفقة الجديدة» و«الحدود الجديدة» و«المجتمع العظيم»، لأن الأموال تصرف، والمشاكل تبقى لتتقيح دون حل. إننا بحاجة، بدلاً من هذا، إلى شراكة جديدة، تقدم الحكومة فيها المساعدات لمن لديه الرغبة بأن يساعد نفسه، وتقدم المعونات مطالبة بالمقابل بالمعايير النظامية والأداء ومشاريع الاعتماد على الذات».

لم يتم تسليم هذا الخطاب ولا إلقاؤه، إلا أنني وجدت نفسي في عام ١٩٨٨ أمام صف كئيب من الديموقراطيين التقليديين الذين قد يصبحوا زبائني، فتحولت خائب الأمل إلى الجمهوريين، ومضيت أعمل مع ترينت لوت عضو الكونغرس عن الميسيسيبي في ذلك الحين، ومع لي أتواتر مدير الحملة الانتخابية لجورج بوش.

بعد ذلك بسنتين، حين دخل كلينتون في سباق منصب الحاكم، وافقت على إدارة حملته بدافع الولاء، رغم خيبة أملي من إخفاقه في التقدم إلى منصب الرئاسة عام ١٩٨٨، والتي طبعت عودة علاقتنا بطابعها.

كان كلينتون يقدّم رجلاً ويؤخر الأخرى في مسألة اشتراكه بسباق إعادة انتخابه في عام ١٩٩٠ لمنصب الحاكم. وكان ذلك السباق هو السادس الذي يقوم به للحصول على منصب خلال عشر سنوات، وملّ من وظيفة الحاكم، فكان يتلهى بفكرة الاشتراك في سباق الرئاسة عام ١٩٩٢.

لكن نظراته وتوقعاته لعام ١٩٩٢ بدت وكأنها محكومة بما حصل في عام ١٩٨٩ . إذ كان الطريق إلى الترشيح مسدوداً ، بأرجحية ترشيح حاكم ولاية نيويورك المحبوب ماريو كومو . فإذا أضفنا شعبية جورج بوش العالية ، أصبحت المعارضة مخيفة . كانت مسيرة بوش التي تتأرجح صعوداً مع حرب الخليج ، ونزولاً مع الكساد الاقتصادي لم تبدأ بعد ، وكانت أمريكا تحب زورق الرئيس السريع ، وزوجته الواقعية ، وكرهه للبروكولي (نوع من أنواع القرنبيط) . وحين قرر كلينتون خوض سباق الرئاسة ، كان ميّالاً إلى عدم السعي لمنصب الحاكم مرة أخرى . مثل جيمي كارتر في عام ١٩٧٤ ، الذي كان يميل إلى ترك منصب الحاكم ليتفرغ لحملة الترشيح . لكنه لم ينس كيف تخوزق الحاكم دوكاكيس على عامود أزمة ميزانية ولايته وهو في منتصف خوضه سباق الرئاسة . قال لي : «أنا لا أريد أن أضطر للعودة إلى هنا ، لأرفع الضرائب كي أنجو من ورطة مالية ، حين أكون هناك في عام ١٩٩٢ غارقاً بالسباق » .

لكن شعبية بوش وضعت كلينتون بمأزق أمام أحد حلين : إذا لم يشترك في سباق الرئاسة عام ١٩٩٢ ، وترك منصب الحاكم في عام ١٩٩٠ ، فماذا يفعل خلال ذلك الوقت ؟ وشعرت أنه يرى فرصته ضعيفة أمام بوش ، ولم يكن يريد لمستقبله السياسي أن يتلاشى . أما مع بقائه حاكماً ، فبإمكانه غض النظر عن الاشتراك في سباق الرئاسة عام ١٩٩٢ ، إذا بدا الفوز مستحيلاً ، ليشترك في سباق عام ١٩٩٦ . ومرة أخرى قرر خوض سباق منصب الحاكم .

واجه كلينتون في الانتخابات الديموقراطية التمهيدية منافساً ذكياً مغموراً ، كتب عن شؤون الولاية لسنوات طويلة ، من منصبه في مؤسسة روكفلر ، هو توم ماكري . وبدا أن أمام ماكري فرصة للفوز بالانتخاب . لكنه استأجر مايك شانون ، المستشار المحنك التكساسي ، لإدارة حملته . فاستخدم شانون الدعاية المضادة الفعالة التي هجا بها فترة وجود كلينتون كحاكم ، بعرض الساعات الجدارية لسلفادور دالي وهي تحدد نظام التوقيت بشكل سريالي . دعاية أخرى يظهر فيها الموالون لكلينتون في المطار ملوحين يودعونه وهو يقلع في رحلة قبل موعدها سعياً وراء الرئاسة .

وأظهرت استطلاعاتي الإحصائية أن ماكري يسجل النقاط أعلى فأعلى بشكل ثابت ، وأن أمامه فرصة حقيقية ليهزم كلينتون في الانتخاب التمهيدي ، ويقضي بذلك على مستقبله السياسي كحاكم .

قلت لكلينتون « مؤيدوك يزيدون كل أسبوع ، لكن ناخبيك يتناقصون » فسألني زبوني : « وما معنى ذلك ؟ » وأجبته موضحاً : « هم مستعدون لإهدائك ساعة ذهبية إذا

تقدمت باستقالتك ، لكنهم يريدون حاكماً جديداً . وهم يؤمنون بأنك خدمتهم بشكل جيد ، لكنهم يعتقدون أنك قضيت في هذا المنصب وقتاً أطول مما ينبغي » .

قلت له : « علينا أن نحول الموضوع من استطلاع يدور حولك ، إلى مفاضلة بينك وبين ماكري » . فطرحت هيلاري على بساط البحث أسلوباً جيداً لبدء حملة دفاعية مضادة ، واقترحتْ أن تظهر في المؤتمر الصحفي التالي لماكري ، وتتحداه علناً لتشويهه زوراً سجل زوجها ، ولعدم تقديمه أية حلول واضحة من إبداعه الخاص . قالت لزوجها في اجتماع معي : « إذا استطعت أن أحمله على قبول التحدي ، فسيخلق ذلك لنا دعاية كبيرة ، وليس من الضروري أن نشير بشكل مكشوف إلى مسألة منافستك له ، وسيبدو الأمر وكأن زوجتك تعبر عن غضبها من الهجوم على زوجها » .

وافقنا على اقتراح هيلاري ، وذهبت إلى مؤتمر ماكري الصحفي ، وتحدته علناً . وكان الأثر كما توقعتْ له تماماً ، وهبطت مؤشرات ماكري ، لكننا كنا بحاجة إلى أكثر من ذلك .

اقترحتُ دعاية إعلانية نبطل فيها هجومات شانون على رحلات كلينتون خارج الولاية ، وحجتنا هي أن هذه الرحلات تتم لجلب مشاريع عمل جديدة إلى أركنساس ، وأن كلينتون برحلاته الخارجية هذه عقد اتفاقيات لتصدير منتجات الولاية . وأظهرت الاستطلاعات أن غياب الحاكم تبرره الغايات الاقتصادية التي يحققها في سفره . قامت الدعاية على منظر لعمال يبنون جداراً من الآجر ، يرتفع أعلى فأعلى ، بينما يحكي المذيع عن نجاح كلينتون بتأمين مجالات عمل لأركنساس خلال جولاته الباحثة خارج الولاية . وبعد ذكر انتقادات ماكري لهذه الجولات ، يختتم الإعلان بالقول : « لا تدعوا ماكري يبني جداراً مثل هذا حول أركنساس » . لتصوير هذا الفيلم ، قام المبدع الإعلامي دافيد واتكينز ببناء جدار آجري على ارتفاع الكتف في وسط مكتبه الأنيق بليتل روك ، ثم صوّر العمال وهم يتابعون رصف صفوف الآجر أعلى فأعلى . وقمنا ببث الإعلان على الهواء في أوائل شهر أيار / مايو قبل الانتخاب التمهيدي بأربعة أسابيع .

لم يكن سباق كلينتون هو الوحيد الذي قمت بإدارته في أركنساس . فقد طلبت مني بيتسي رايت ، رئيسة الديموقراطيين في الولاية الآن ، أن أعمل في أربعة أو خمسة سباقات لمناصب تشريعية هامة ، لهزم أصحاب هذه المناصب المعارضين دائماً لبرامج كلينتون . قالت بيتسي وقتها تشرح الموضوع : إذا كان على الحاكم خوض سباق الرئاسة ، فسيكون بحاجة إلى ولاء أصحاب المناصب التشريعية ، بحيث يستطيع القيام بحملاته في أنحاء البلاد دون أن يخشى الإحراج في ولايته الأم . وكان معظم هذه السباقات تمهيدية ، تبلغ ذروتها في شهر أيار / مايو .

في صباح أحد أيام أيار / مايو الأولى، ومع بدء بث إعلاننا الدفاعي المضاد، أجريت جراحة سنّية بعد معاناة دامت عدة أيام. ونظراً للمصاعب التي كان كلينتون يواجهها، فقد قمت من مقعد طبيب الأسنان لأطير إلى ليتل روك ولأحضر اجتماعاً مسائياً مع الحاكم. وكالعادة، اضطر كلينتون لتأجيل الاجتماع إلى وقت متأخر من الليل، لطوارىء إضافية دخلت على برنامجه في اللحظة الأخيرة. ولما كنت أريد أن أبقى صافي الذهن في الاجتماع، فقد امتنعت عن تناول أي مسكن للآلام، وفضلت انتظار عودة حاكم أركنساس إلى قصره.

عند حوالي منتصف الليل، اجتمع كلينتون وهيلاري وغلوريا كيب، مديرة حملته، في غرفة الإفطار المريحة الدافئة بجانب المطبخ. وكانت استطلاعاتي أن هجوم ماكري قد أسقط عدد ناخبي كلينتون إلى نسبة هزيلة لا تزيد عن ٤٣٪. وحين تتدنى نسبة أصوات ناخبي صاحب منصب ما، إلى أقل من ٥٠٪، فهذا يعني عادة أنه في عداد المهزومين، ويعني أن دعايتنا الإعلانية لم تثمر بعد، وأن الوضع معتم أسود.

تغلبت طباع كلينتون عليه، فبدا مجهداً، قلقاً، غاضباً. وانفجر صائحاً: «أنت من دفع بي إلى هذا السباق لتتمكن من انتزاع المزيد من الأموال مني، وهذا هو السبب الوحيد. وها أنت الآن لا تكترث بي على الإطلاق، أنا على وشك أن أخسر هذا الانتخاب التمهيدي أمام إنسان نكرة، وأنت منشغل بهذه السباقات التشريعية التافهة التي أعطتها بيتسي لك فصرفتك عني نهائياً. أنا أدفع لك مصاريفك، وأنت تأتي إلى هنا لتعمل في سباقات بيتسي وتنساني وتهملني ولا تهتم بي وتدير ظهرك لي، حتى أنني لم أستفد منك إلا ابتزازي».

كلينتون ذو طبع مخيف، هذا هو الجانب السيىء من الحكاية، لكنه تغلب عليه بسرعة، وهذا هو الجانب الأقل سوءاً من الحكاية، وساعدته هيلاري أن يضبط أعصابه ويستعيد هدوءه، وهذا هو الجانب الحسن.

ومع ذلك، فقد كانت هذه الاتهامات ظالمة. لقد عملت جاهداً في سباقه، وقبلت العمل في السباقات الأخرى لأساعد على التخلص من أنصار أعدائه في الهيئة التشريعية. وواجهت الانتقادات الشديدة من زبائني الجمهوريين لعملي مع كلينتون ومع المرشحين الآخرين في أركنساس، وحين أجبتهم أنني ملتزم دائماً بإدارة حملة كلينتون لعام ١٩٩٠ بناءً على وعد سابق، لم يخفف ذلك من غضبهم.

وتحت ضغط الألم من جهة، والنقد القاسي الظالم من جهة أخرى، فقدت أنا أيضاً أعصابي. لقد كان متسرعاً في نقده، لكنني كنت حاداً قاطعاً في ردي. قلت له وأنا أخرج كالعاصفة من الغرفة إلى المطبخ باتجاه الباب الخارجي: «شكراً، شكراً، شكراً، لقد انحلت

مشكلتي ، بعد أن أصبحت سخرية عند أتووتر وعند لوت بسبب عملي عندك ، أما الآن فأصبح بإمكاني حل مشكلتي معهم ، وأصبح بإمكانك أن تبحث لنفسك عمن ... (*) ويعمل عندك ، لأنني أترك العمل في حملتك الملعونة ، لأعود أجيراً حراً . إن بمقدوري أن أعمل مستخدماً عند خمسين موظفاً جمهورياً ، ولا أضطر إلى تحمل إهانتك وسخريتك » .

اندفع كلينتون خلفي وأنا أمشي متشامخاً رافع الرأس نحو الباب ، وأمسك بي من الخلف ، ولفني بذراعيه ليمنعني من المغادرة ، فزلّت قدمي عند الباب . وأسرعت هيلاري تساعدني على الوقوف ، وما إن استويت على قدمي حتى قال كلينتون معتذراً : « لا تذهب .. لا تذهب .. أنا آسف .. أنا آسف .. » لكنني خرجت صافقاً الباب خلفي بعنف . ولحقت بي هيلاري تحاول أن تهدئني ، فطوقت كتفي بذراعها ومشت معي في حديقة القصر وهي تعتذر قائلة : « سامحه أرجوك ، إنه تحت ضغط هائل ، ولا يعني ما يقول . إنه يقدرك كثيراً ، ويحتاج إليك ، لكنه لم ينم منذ أيام ، وهو منهك ، وقد اعتذر معبراً عن أسفه ، وعن حاجته إليك » .

استعدت هدوئي ، وتابعت إلى الفندق ، واتصلت بإيلين وأنا أرتجف غضباً . ثم اتصلت بي هيلاري تشرح لي مدى حاجة كلينتون إلي وأعطته السماعة ليعتذر . ثم اتصلتُ بصديقي المستشار راي ستروذر ، الذي كنت أحسبه صديقاً قديماً ، لأخبره بما حصل ولأطلب رأيه .

لم أستطع ترك كلينتون بشكل قاطع قبل ثلاثة أسابيع من الانتخاب التمهيدي ، لكنني بدأت التعامل معه منذئذ بشكل رسمي يغلب عليه البرود . ولم أعد أخاطبه باسمه الأول ، بل بلقبه « حضرة الحاكم » . ولم أعد أبقى بعد انتهاء اجتماعنا كما كنت أفعل لنتجول معاً ونتحدث . وأعتقد أن الحادث قد ثقل عليه كثيراً إلى حد أنه ندم فعلاً على تصرفه في تلك الليلة .

لم يجر ذكر ما حدث على لساني منذ ذلك الحين ، ولم أتحدث عنه في أي مجلس عام ، لكن راي ستروذر فعلها أكثر من مرة . فحين كان يعمل لصالح بوب كيري في ترشيحه للرئاسة عام ١٩٩٢ ، قام بتسريب القصة إلى عدد من الصحف آملاً أن يشوه سمعة كلينتون بذلك . كما روى الحادث الكاتب دافيد مارانيس في كتاب له عن سيرة حياة كلينتون بعنوان « الأول في صفه » ، مشيراً إلى أنه استقى معلوماته من غلوريا كيب مديرة

(*) استعمل المؤلف هنا كلمة Fock you ، التي أخجلتنا ترجمتها . — المعرب —

حملة كلينتون. ورغم توسلات الصحف العديدة، فقد رفضت إجراء أية مقابلة صحفية حول الموضوع. ذات مرة، جاءني محرر مغامر من مجلة «لوس أنجيلوس تايمز» إلى ولاية كونيكتيكت، لإجراء مقابلة معي حول أحداث الشغب والعنف في لوس أنجيلوس، وطرق الباب على غير موعد في السابعة إلا ربع صباحاً، ثم اتضح أنه جاء ليعرف ماذا حدث في منزل الحاكم تلك الليلة، ولم أدل له بأي تعليق.

يتمتع كلينتون بعاطفية زائدة مفرطة هي السبب في ثورات غضبه. إلا أنه يسيطر عليها بشكل جيد، ولا يسمح لها مطلقاً بأن تؤثر في قدرته على العمل كرئيس. وأنا أروي حادث أركنساس هنا، ليس لعلاقته بقدرة كلينتون على العمل بهذا المنصب، بل لتأثيره على علاقتنا خلال سنوات تالية، ولأن الوقت قد حان لوضع حد للمبالغات. لقد تحولت القصة في عام ١٩٩٤، ليبدو كلينتون وكأنه ضربني حتى سقطت أرضاً.

قلت لكلينتون ممازحاً: «لو فعلتَ لقاتلتك» أجاب بأنه لم يضربني «كنت أحاول فقط أن أمنعك من المغادرة».

****

أعطت الدعاية الإعلانية ثمارها، وفاز كلينتون في الانتخاب التمهيدي، وبدا وكأن الانتخاب العام أصبح مضموناً. ورغم أن شيفيلد نيلسون المرشح الجمهوري أنفق مبلغاً طائلاً من جيبه الخاص على حملته الانتخابية، إلا أن التقارير عن الصفقات المشبوهة المعقودة مع شركة آركلا التي كان يرأسها عرقلت مسيرته وقيدتها. وأظهرت الاستطلاعات خلال السباق أن ٥٥٪ من الناخبين يؤيدون الحاكم.

كنت مع إيلين نحتفل بانتهاء موسم الانتخابات في منزل صديق لنا بنيويورك، حين تذكرت في ساعة متأخرة من الليل أنني أوعزت للقيام باستطلاع لصالح كلينتون، ووجدت من الأفضل أن أتصل هاتفياً لأحصل على نتائج الاستطلاع قبل أن يمضي أفراد الطاقم إلى بيوتهم. كانت الساعة الحادية عشر ليلاً، وكنت محظوظاً إذ وجدت من يرد على مكالمتي. كان بيتر باكاليا صاحب المكتب هو الذي أجاب. قال لي إنه كان على وشك الإقفال بعد أن ارتدى معطفه، فغمغمت بعض عبارات الاعتذار، وقرأ لي أرقام النتائج: كلينتون ٤٥٪.

قلت بحذر: «انتظر لحظة.. أعدها لي ثانية» فقال بصوت رتيب: «كلينتون ٤٥٪» وصحت به: «بيتر، لقد كان ٥٥٪ منذ ثلاث ليال مضت، لا بد أن خللاً ما في استطلاعك هذا». فوعد بأن يدقق المعلومات ويعاود الاتصال. وبقيت نهباً للقلق المتزايد إلى أن اتصل مكرراً ما كان قد قاله: «كلينتون ٤٥٪».

لماذا انخفض كلينتون عشر درجات خلال ثلاثة أيام ؟ وكانت أفضل طريقة للجواب هي فحص أجوبة الناخبين على أسئلة من مثل : « حدثني بعباراتك الخاصة عما يعجبك وما لا يعجبك في كلينتون » وقررت ألا أتصل بالحاكم إلا بعد أن أستكمل ما يجب معرفته ، وبعد أن أتمكن من إطلاعه على السبب والسر في هذه الأخبار السيئة .

غادرت الحفلة مع إيلين ، وما إن وصلت إلى البيت في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، حتى شعرت بورم في حنجرتي . اتصلت ببيتر مرة أخرى ، فقرأ لي على الهاتف أجوبة مئتي ناخب . وكان السر في الضرائب . « لقد زاد الضرائب .. قال إنه لن يفعل .. لكنه زادها .. إنه لا يريد سوى زيادة الضرائب لينفقها » .

وغرقتُ في التفكير .. « يزيد وينفق » .. يا للعنة ، إنه مقطع من آخر نص إعلاني كتبه نيلسون ، وأذاعه بعد أن قمت باستطلاعي الأخير ، مستخدماً فيه صوت كلينتون نفسه . كان المذيع في الإعلان يسأل ، وكلينتون يجيب :

ـــ ماذا فعل كلينتون بنا في عام ١٩٧٩ ؟

« يزيد وينفق »

ـــ وماذا فعل في عام ١٩٨٣ ؟

« يزيد وينفق »

ـــ وماذا فعل في العام الماضي ؟

« يزيد وينفق »

ـــ وماذا سيفعل بنا لو أعدنا انتخابه ؟

« يزيد وينفق »

لقد تسبب هذا الإعلان في الانخفاض الكبير الذي أظهره الاستطلاع ، فالدعاية المضادة في نهاية السباق هي التي تخلق مثل هذا التأثير . الآن ، أستطيع الاتصال بكلينتون . كانت الساعة الثانية صباحاً ، الواحدة حسب توقيت أركنساس ، حين اتصلت بقصر الحاكم ، وردَّ عليّ الشرطي الحارس « الحاكم نائم » . طلبت منه إيقاظه ، فوافق بعد إلحاحي الشديد . وتذكرت وأنا أنتظر كلينتون ليردّ عليّ ، كيف أوى حاكم نيويورك توماس ديوي المرشح الجمهوري للرئاسة ، إلى فراشه عشية الانتخابات في عام ١٩٤٨ ، واثقاً من نجاحه فيها ، وكيف انقلب المرتدون عليه قبيل الفجر ، وكيف قال الحارس الليلي لأحد المساعدين في الحملة الانتخابية وقد جاء لرؤيته « الرئيس المنتخب ما زال نائماً » فأجابه الرجل : « حسناً ، حين يستيقظ الرئيس المنتخب ، أخبره أنه لم يعد رئيساً منتخباً » . وجاءني صوت الحاكم

ناعساً مترنحاً : « نعم ، ماذا حصل ؟ » قلت : « آسف لإيقاظك ، لكننا في وضع حرج ، فقد انخفضت مؤشراتنا عشر درجات منذ الأربعاء ، وهي تشير الآن إلى ٤٥٪ » .

قال : « إنه إعلان (يزيد وينفق) ، لقد عرفت ذلك وشعرت به ، شعرت أنه سيقضي علينا » .

في الأزمات الحادة ، لا يضيع كلينتون وقته وطاقته على أي شيء لا علاقة له بحل المشكلة الماثلة أمامه ، بل يبدو متفائلاً ، حازماً ، يقظاً ، وحاسماً .

ردة فعل معظم المرشحين تجاه أخبار ونتائج الاستطلاعات السيئة تقع في أربعة مستويات « الرفض والإنكار ، الحزن والكآبة ، التخطيط لتعويض واستعادة ما فقد ، النشاط بعد تحديد المشكلة » أما كلينتون فكان من النوع الذي يتجاوز كل تلك المستويات ، عدا مستوى التخطيط .

قلت موافقاً : « أجوبة الناخبين تشير بشكل مؤكد إلى أن الإعلان هو السبب ، عليك أن ترد عليه فوراً » وجاءني الجواب حاسماً واضحاً : وافني هاتفياً بمسودة مخططك بعد ٤٥ دقيقة إلى الاستديو » . ثم علق السماعة ، وقفز من السرير ، وارتدى ثيابه ، وانطلق في سيارته تجاه الاستديو .

أعددت إعلاناً جوابياً ، أبلغته له على الهاتف في الاستديو ، فأجرى بعض التعديلات واللمسات على النص ، ثم قام بتسجيله ، فجاء هكذا :

« هذا أنا بيل كلينتون يتحدث إليكم . لقد شاهدتم على الأغلب الإعلان السلبي المضاد الذي أعده شيفيلد نيلسون مستخدماً عبارة أقولها بصوتي هي « يزيد وينفق » . وإليكم الكلمة التي وردت فيها هذه العبارة ، كما ألقيتها على أعضاء الهيئة التشريعية ، منذ ثلاث سنوات : (.. وخلافاً لما عليه أصدقاؤنا في واشنطن الذين يحررون الشيكات بدون رصيد ، فنحن لا نفعل ذلك . نحن لا نستطيع أن ننفق فقط ، علينا أن نزيد وننفق ..) .

كنت وقتها أقاتل في سبيل توازن الميزانية في وارداتها ونفقاتها ، وليس اندفاعاً خلف زيادة الضرائب . لكن نيلسون حمل مقصه واقتطع هذه العبارة من الشريط ليزرع عندكم هذا الانطباع الخاطئ ، ولا أظنكم تثقون بمن يفعل مثل ذلك » .

ومع أول خيوط الفجر ، كان لدى كلينتون عشرات النسخ من هذا الإعلان المسجل على أشرطة ، تم توزيعها على جميع محطات البث التلفزيوني في مختلف أنحاء ولاية أركنساس . فتوقف الانزلاق والسقوط ، وانصلح الوضع ، وتحقق الفوز ، وانهزم أعداؤه في الهيئة التشريعية ذاتها . وكان الحاكم كلينتون لطيفاً إلى الحد الذي اتصل معه بي قائلاً : « لقد أنقذتني مرتين

هذا العام » . لكنه حين طلب مني أن أقوده في سباق الرئاسة عام ١٩٩٢ ، كان صدامنا وجهاً لوجه في منزل الحاكم بالأمس ما زال غضّاً في ذاكرتي ، وكنت قد أقمت علاقات حميمة مع الجمهوريين ، وبصراحة لم أكن واثقاً من احتمالات فوزه ، فخذلته . وكما قال محافظ مدينة نيويورك السابق فيوريللو لاغارديا « حين أرتكب خطأً ، فهذا شيء رائع ، يحصل مرة واحدة » .

طلب مني حين خذلته أن أرشح بديلاً عني ليستأجره ، فاقترحت عليه جيمس كارفيل .

كنت أعرف كارفيل من السبعينيات ، وأعرف أنه يكون في أحسن حالاته حين يواجه معركة يلعب فيها ديموقراطي ضد جمهوري ، حيث تحتدم الخلافات التقليدية لكلا الحزبين على حلبة الصراع . وأعرف أيضاً أنه مقاتل عنيد كالمدفع ، حين يقع عدوه في مرماه المجدي تصبح قذائفه قاتلة ، إلا أنه ليس كالدّبابة . فهو لا يستطيع ، إذا لم يكن عدوه حيث يتوقع له أن يكون ، أن يتكيف مع متطلبات معركة أخرى من نوع آخر . ورغم أن كلينتون لم يعرف كارفيل من قبل ، إلا أنني أحسست بأنه كفؤ للمهمة ، وقد كان ما شعرت به . فالملاطفة والعاطفة هما كل ما يحتاجه كلينتون ، وجيمس ينادي دائماً بالتفريق بين « القواعد المالية وقواعد الرسالة والهدف » . تمسَّكْ برسالتك وهدفك ، ووفر أموالك للتلفزيون . ويبدو أن هذا هو دواء كلينتون المناسب .

لقد قضيت السنوات ما بين ١٩٩١ و١٩٩٤ وأنا خارج حياة كلينتون وانتخابه ، عدا الأوقات الحرجة والهامة منها . فخلال الانتخابات التمهيدية لعام ١٩٩٢ في نيوهامبشاير ، كنت أقضي الإجازة مع إيلين بفندق صغير في باريس ، حين استيقظنا في السابعة صباحاً على رنين الهاتف ، وجاءنا صوت بيل كلينتون مهتاجاً متوتر الأعصاب ، وكان قد مضى حوالي أسبوع على بدء الانتخابات التمهيدية ، أولاً ، بسبب ما زعمته جينيفر فلاورز من وجود علاقات بينهما ، وثانياً ، بسبب ما زعمته التقارير من استبعاده من قائمة المرشحين . قال يعتذر عن إيقاظه لي : « إنها الساعة الواحدة عندي ، ولقد سهرت قدر ما أستطيع كيلا أوقظك باكراً » ، وطلب نصيحتي عما يجب أن يفعل بمسألة الاستبعاد في نيوهامبشاير .

كان عقله مملوءاً بالمعلومات العادية ، وبتوصيات الآخرين ، وبالقليل من أرقام الاستطلاعات ، وبالعناوين التي قرأها ، مما أدى إلى تشوش أفكاره بهذا الخليط المتراكم ، الأشبه ببقايا الشطائر المتناثرة وأكواب القهوة الفارغة المرمية في مقر قيادة حملة انتخابية صباح ليلة الانتخاب ، تنتظر فقط أن يعاد ترتيبها في أماكنها المناسبة . وخطر لي أن أفضل ما يمكنني عمله ، هو مساعدته على رؤية السبل والأولويات في هذا الركام المختلط من صور يومية اختزنها

في ذاكرته، وتوق إلى مزيد من المعلومات، يدفعه إلى قراءة الأمور بشكل سريع سطحي خاطف. وساعدته فعلاً على أن يرى أين وكيف يرصف قطع الأحجية بشكل يلائم في بعضها بعضاً، وعلى أن يجدول معلوماته حسب أولوياتها ليتبين الطريق التي عليه أن يسير فيها.

كان في هامبشاير يسقط سقوطاً حراً بالمظلة، ومؤشرات استطلاعاته تسقط معه، وتأثير الاتهامات يشتد لاستبعاده، رغم أن مسرحية فلاورز لم تؤذ كلينتون بقدر ما آذته مسألة الاستبعاد.

قلت له إن أهم شيء، هو ألا يضيع طاقاته بالإجابة على اتهامات استبعاده، وأن يترك أمر معالجة ذلك لطاقمه وموظفيه. فعليه أن يتفرغ لقضيته الأساسية، وأن يعيد تنقيح الأفكار التي تتحكم بالصحافة وأخبارها في نيوهامبشاير أولاً، مثل: إصلاح برامج المعونة الاجتماعية، وإتاحة الفرص، والمشاركة في المسؤولية، وبرنامج عمل ديموقراطي جديد. قلت له: «ضع كل ثقلك وقواك في رسالة إيجابية مثيرة، وأنا أضمن لك أن تنحل مشكلتك خلال ثانية واحدة».

لعلي لست الوحيد الذي اقترح عليه هذا المسار في التحرك، لكنني كنت قرير العين وأنا أرى كلينتون يسير عليه، ويتجاوز محنته، ويضع لها نهاية قوية وسريعة. لكنها لم تكن الأخيرة التي نزل فيها كلينتون عن المسرح ثم عاد.

الفصل الرابع

قناة سرية تنفتح مع ترينت لوت

في عام ١٩٩٤ ، فور أن شعرت أنني سأعمل مع الرئيس كلينتون مرة أخرى ، رفعت سماعة الهاتف واتصلت بعضو مجلس الشيوخ ترينت لوت عن الميسيسيبي ، الزبون الرئيسي الجمهوري عندي . قلت باقتضاب : « عليّ أن أراك بعد الانتخاب » فأجاب باقتضاب مماثل : « تعال يوم الخميس » . وسبحت مع أفكاري « يوم الخميس .. يعني بعد إقفال مراكز الاقتراع بست وثلاثين ساعة سيكون لدينا الكثير لنتحدث عنه » .

والتقينا فعلاً . وكان لوت يدرس ويعدّ العدة لمسألة اشتراكه في سباق لمنصب Senate Majority Whip(*) ، المنصب الثاني في قيادة المجلس بعد بوب دول مباشرة . بينما كنت أنا أسعى لمنصب « منسق استراتيجي » للرئيس الديموقراطي ، فما أروع الصدف والمفارقات .

لقد توثقت علاقتي بلوت خلال انتخابه الأول لمجلس الشيوخ عام ١٩٨٨ ، حين واجه واين دودي عضو الديموقراطيين في الكونغرس . ففي بداية الحملة الانتخابية ، بث دودي إعلاناً فيه ممثل يشبه لوت جالساً في المقعد الخلفي من سيارة ليموزين يقودها سائق باللباس الرسمي . وبينما تندفع السيارة في طريق فرعية ، تمر على عجوز تبحث في صندوق بريدها بلا جدوى عن شيك لم يصل ، ويهاجم المذيع لوت عضو الكونغرس على تصويته لقطع تعويضات التأمين الاجتماعي ، وينتقده بشدة لأن لديه سائقاً على نفقة الدولة . ثم يختتم المذيع الإعلان قائلاً : « تعالوا نقطع سائق لوت ، وليس التأمين الاجتماعي » .

حين انطلقتُ لمقابلة لوت في موعد الخميس ، بعد النصر الجمهوري ، تذكرت جلوسي معه في مكتبه بالكونغرس مع المبدع الإعلامي الجمهوري بوب غودمان ، وسماعنا لأول

(*) منصب في مجلس الشيوخ يلي منصب رئيس الأغلبية فيه . صاحبه مكلف بتطبيق الأنظمة ، وحمل أعضاء حزبه (حزب الأغلبية) على حضور الجلسات الهامة . — المعرب —

مرة إعلان دودي . أذكر أنني هرعت إلى آلة كاتبة في الغرفة المجاورة ، وكتبت وغودمان يقرأ من فوق كتفي ما أكتب . كان الإعلان المضاد الذي كتبته يمثل سائق لوت الحقيقي ، وهو ضابط أمن زنجي اسمه جورج أوكوارد ، بقميص ذي أكمام ، مسدسه معلق بحزام حول كتفه ، حتى لا يكاد يظهر . يقول النص :

« أنا جورج أوكوارد ، كنت شرطياً في واشنطن ، ومنذ أن حاول الإرهابيون تفجير الكابيتول ، قرر الكونغرس الحماية الأمنية لقادة أعضائه . ومهمتي هي حراسة النائب ترينت لوت . لكن إعلاناً هداماً قام ببثه واين دودي من الميسيسيبي يقول إنني أعمل سائقاً عند ترينت لوت . يا سيد دودي ، أنا لا أعمل سائقاً عند أحد ، فهل فهمت ما أعني ؟ » .

وكانت النتيجة ، أن الإعلان قضى على تأهيل دودي للترشيح فوراً ، فكان الأولاد في ساحات كرة السلة بجميع أنحاء الميسيسيبي يرددون « هل فهمت ما أعني ؟ » . وأعجب لوت بالإعلان كثيراً ، وكانت بداية علاقتنا رائعة .

في ذلك الخميس من نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٩٤ ، بعد انتصار الجمهوريين الساحق الذي غيَّر مواقع لوت ونظراته العامة ، جلسنا هو وأنا على أريكة متأرجحة في الشرفة المغمورة بالشمس ببيته القديم في باسكاغولا ، وكان في جعبتنا الكثير مما نتحدث فيه . أما من ناحيتي ، بعد أن أوضح موقفه الخاص ، فقد كنت أتساءل حائراً كيف أبلغه أنني على وشك توقيع اتفاق مع العدو . كان لوت من النوع الجمهوري الذي يعجبني ، لأن الجمهوريين ينقسمون عندي إلى فئتين : فئة نخبة ، وفئة شعبية . فئة النخبة تأتي عادة من أسر غنية تتوارث السلطة . ولم يكن هذا الدم الأزرق يشدني إلى أمثال دان كوايل ، ولويل ويكر ، وستيف فوربيس . كنت أفضل الفئة المنحطة القذرة الشعبية من الجمهوريين . فكلهم ولدوا فقراء ، وأغلبهم ديموقراطيون سابقون ، أصبحوا جمهوريين حين رأوا شركات الأفلام وأبناء النخبة يفرضون بالقوة قيم الشوارع والحارات في الحزب الديموقراطي . فيل غرام وترينت لوت من الفئة الشعبية التي لا تستطيع دخول النوادي الريفية ، رغم أن دمهم أشد زرقة من دم أعضاء هذه النوادي .

بدأ لوت بالكلام فوراً عما إذا كان عليه الاشتراك في السباق . وكان واضحاً أنه يتلذذ بالحديث عن كونه أحد أعضاء الأغلبية في الهيئة التشريعية بعد عشرين عاماً في الكونغرس . وكانت لديه دوافع للتسوية مع الديموقراطيين . وكان يفتقد في مجلس الشيوخ هرج ومرج

مجلس النواب ، حيث كان عضواً مكلفاً بضبط نظام حضور زملائه الجمهوريين ، ثم نجح في دخول مجلس الشيوخ بفضل حماية ورعاية نيوت غينغريتش . مشكلة لوت هي أن عليه أن يخوض السباق ضد عضو مجلس الشيوخ المحنك ألان سيمبسون من وايومينغ ، المشهور بظرفه ودهائه وسخريته اللاذعة ، والذي يعتزم التقاعد عند انتهاء فترة عضويته لمجلس الشيوخ خلال سنتين . قمت مع لوت بإحصاء الأصوات ووجدنا أن بإمكانه أن يهزم سيمبسون بزيادة ثلاثة أو أربعة أصوات . قلت أستحثه : « انطلق في مسعاك ، فلن تتاح لك فرصة أفضل من هذه للفوز بالمنصب . وإذا انتظرت إحالة سيمبسون إلى التقاعد ، فستجد نفسك أمام أربعة أو خمسة منافسين في السباق ، لأن الكل سيرغب بالمنصب ويطلبه ، ولن تتاح لك الفرصة التي تريدها وقتئذ » . منذ أيام رئاسته للهيئة التشريعية ضد الديموقراطيين في المجلس النيابي ، حاز لوت على ولاء شلة من الجمهوريين من أعضاء المجلس النيابي سابقاً ، هم الآن في مجلس الشيوخ . لكنهم بعد خيبة الأمل باللباقة والتقاليد ، وقلة الخيول الأصيلة في الحلبة ، أرادوا جرواً مثل غينغريتش يقودهم في معركة السباق ، فكان لوت بروحه وغريزته الحزبية الموالية هو المطلوب .

أعلن لوت فعلاً أنه سيهاجم سياسياً أفضل منه ، على حافة التقاعد . قديماً كان الفضل في فوز لوت بعضوية مجلس الشيوخ يعود في المقام الأول إلى إعلانه أنه سيواجه السناتور جون ستينيس البالغ من العمر ثلاثة وتسعين عاماً ، وعضو الكونغرس منذ عام ١٩٥٣ عن الميسيسيبي . وكان ستينيس يرسم لنفسه ، وقد كاد يدركه الخرف ، أن يشترك في السباقات إلى أن يموت . فأعلمه لوت ، بعد أن أتعبه الانتظار ، أن المعركة ستكون عنيفة بالأيدي إن اختار أن يجعل من مجلس الشيوخ داراً للعجزة . وانسحب ستينيس .

وها هو الآن مرة أخرى يهاجم ، ويرغم سناتوراً آخر أكبر منه سناً على الانسحاب ، منطلقاً في حساباته من أنْ ليس ثمة شخص غيره ، يملك الجرأة على تحدي سيمبسون والفوز عليه . فإذا ربحه ، ربح كل شيء ، وصار بإمكانه أن يحظى بمنصب زعيم الأغلبية حين يخليه دول ، سواء فاز برئاسة البلاد أو انهزم ، فرصة مقامر ليس أمامه إلا أن يحسن اللعب في كازينو بقارب نهري عائم يرسو على شواطىء الخليج العربي .

حين أخبرني لوت أنه يرجح قيامه بهذه المجازفة ، حكيت له أن الرئيس يطلب مني العودة للعمل معه ، بينما أنا أعد العدة لأعمل مع لوت . وانتظرت ردة فعله .

قال بحذر : « إن بوسعه بالتأكيد أن يستفيد منك ، فلقد دفعه أولئك الأحرار المستقلون إلى مواقف وأجواء غير مواتية ، وأظن أنك الشخص الوحيد الذي يقدر على معالجة ذلك كله . أتعتقد أنه سيصغي إليك ؟ » .

أجبته : «إنه يصغي لآرائي دائماً ، لأنه يعرف أنني أقدم له أحسنها ، وأحثه على التحرك نحو القلب في المركز ، ولولا ذلك لما استخدمني» . سألني مشيراً إلى آيسكيس وستيفانوبولوس وبانيتا بالاسم المفضل لديه الذي يحب أن يصفهم به «هل تظن أن بإمكانك التعامل مع أولئك الرمّالين المنجمين ؟» . أجبته : «نعم ، فحين يكون الرئيس معك ، يصبح الفوز كالمسرحية الفكاهية السهلة» . قال : «اسمع ، سيكون ذلك مسلياً ، أنت تسعى إلى البيت الأبيض ، وأنا أسعى إلى مجلس الشيوخ ، ويبقى السؤال الحقيقي الذي لم تجب عليه : ماذا عن هيلاري ؟» . أجبته «إنها تحبني» .

غمغم ترينت يعلن عن شكه بهذا ، ثم قال يتحدث عن الرئيس : «أنا أحبه ، لأنه من أركنساس ، ولأن كلينا جاء من جذور وخلفيات فقيرة . ولهذا ، فمحبتي له فطرية شخصية . وقد لا أحب سياساته ، لكنني أحبه لذاته» . ثم تابع وقد استسلم الجانب السياسي فيه للجانب الرسمي الوظيفي «أضف إلى ذلك أنني من الطراز القديم ، وأنه رئيس البلاد ، وأننا لا نحصل على مثله إلا مرة واحدة في العمر . فإذا استطعت أن أساعده .. سأفعل !! لكن لا تطلب مني أن أرابط زوجته عن قرب» . وصمت لحظة يتأمل كيف يمكن لهذه العلاقة أن تنجح ، ثم أردف : «علينا أن نكون حريصين ، إذا شاهدوك كثيراً بقربي ، فسيلحقك ضرر ذلك ، لأنهم أساساً يشكون بأنك جمهوري» . أجبته : «الأمر ذاته بالنسبة إليك ، إذ لن أعود محبوباً عند الجمهوريين حين أتجه إلى كلينتون ، وعملي معه سيلحق بك الضرر باعتباري كنت أعمل معك ، فإذا رأيت للتغطية أن تسميني ابن عاهرة فلن أمانع» . قال ضاحكاً : «أنا أقولها من الآن ، أما فيما بعد فعليّ أن أجد لك اسماً أقذر منه» .

واتفقنا أن نبقى على اتصال وثيق .

★★★★

مضى لوت في حبك نسيج أصوات الناخبين من الأعضاء . واتصل بعدد من زملائه القدامى في المجلس : هانك براون من كولورادو ، وكوني ماك من فلوريدا ، ودان كوتس من إنديانا ، وجاد غريغ من نيوهامبشاير ، لمساعدته في إقناع أعضاء آخرين من مجلس الشيوخ بالتصويت له . وقفز فيل غرام إلى ظهر السفينة ، يخطط لاستخدام لوت في هزيمة دول بمعركته مع السناتور الكنساسي سعياً وراء الترشيح لرئاسة البلاد .

كان لوت قد حصل على تأييد ستروم ثورموند ، حين أخبره ستروم منذ أشهر مضت بأنه معه . لكن الشيخوخة فعلت فعلها مع عضو مجلس الشيوخ عن كارولينا الجنوبية البالغ

من العمر اثنين وتسعين عاماً ، فنسي تعهده وصوّت مع سيمبسون قائلاً لترينت « لقد وعدته بذلك » .

أراد ألفونس داماتو من نيويورك ، كما أراد رودني دانغرفيلد ، أن يكسب الاحترام ، فخطط للقيام بالعملية ذاتها في السباق لمنصب رئيس لجنة الحملات الانتخابية للأعضاء الجمهوريين في مجلس الشيوخ ، فوعده لوت بأن يدعمه ، على شرط أن يعطيه داماتو صوته بالمقابل .

أقنعت ترينت بإلغاء رحلة بحرية كان قد برمج لها قبل أن يقرر خوض السباق . إذ كان عليه أن يعمل جاهداً ، بدلاً من الإبحار باليخت ، على تأكيد وتثبيت أصوات مؤيديه ، والاستفادة من كل دقيقة متاحة . لكنه كان فاتر الحماس على الهاتف ، وأنا أحثه على إلغاء الرحلة ، من شرفة فندق لوغارنو المطلة على نهر آرنو في فلورنسا ، حيث كنت أقضي العطلة مع إيلين .

دخل ترينت إلى التصويت بالاقتراع السري بهامش أربعة أصوات زيادة عن سيمبسون . عندها تحرك بوب دول إلى العمل لصالح سيمبسون ، وقرر إعادة انتخاب حليفه المضمون . فأحضر أعضاء مجلس الشيوخ البارزين ودفعهم الواحد بعد الآخر إلى التبرؤ من وعودهم والتزاماتهم مع لوت . وكان بعضهم من ذوي الركب الضعيفة ، أمثال فريد تومبسون عضو مجلس الشيوخ عن تينيسي . الذي حدثني في السابق عن مدى إعجابه بترينت ، لكنه انهار تحت الضغط . ومع ذلك فقد تم انتخاب لوت بفارق صوت واحد .

كان ترينت ، كنائب لزعيم الأغلبية ، وفياً في خدمة دول ، تغلب على امتعاضه من دول وهو يحاول هزيمته . وحين بدأ الكونغرس دورته الجديدة في كانون الثاني/يناير ١٩٩٥ ، قمت بزيارة لوت في مكتبه بمجلس الشيوخ . وكانت إيلين قد حذرتني من ألّا أنسى أن ترينت سيتحدث عن انتصاراته هو ، وليس عن كلينتون أو عني . لكنه بعد أن ثرثرنا ، لوت وأنا ، عن كيفية تغلبه على الذين صوّتوا ضده ، غيَّر من جلسته على مقعده ذي الظهر العالي خلف الطاولة الضخمة في مكتبه الواسع وقال : « أنا لست بحاجة لأن تشرح لي ما يجب أن أفعله في مجلس الشيوخ ، قل لي ما هو الموضوع الآخر الذي تود أن نبحثه ؟ » .

انتهزت هذه الفرصة ، وبسطت أمامه كل ما قمت به من تحركات في البيت الأبيض حتى تلك اللحظة ، وسألته كيف يريد أن تكون علاقتنا لتأتي ثمارها ، فكان جوابه : « وثيقة جداً .. وسرية جداً » .

كانت نيتي أن أحدثه بكل ما له علاقة به ، وأحتفظ لنفسي بكل ما يتصل بعلاقتي مع الرئيس . وكانت الفكرة أن أخلق أرضية مشتركة لقناة خلفية يستطيع خلالها الطرفان ،

الرئيس ولوت ، أن يتبادلا وجهات النظر حول ما يهمهما من أمور . وقد أوضحت تماماً أنني لم أفعل ذلك إلا بموافقة الرئيس وعلمه ، فوافق ترينت لكنه كرر قوله « كن حريصاً وحذراً » .

لماذا وافق ترينت ؟ لأن السلطة والمعلومات هما كل شيء في عالم السياسة . فلو أنه استطاع توليف تحركاته مع ما يرجح من تحركات كلينتون ، لحقق بذلك مكاسب عظيمة . فمثلاً ، سألني قبل ذلك عن رأيي في مشروع اقتراح تخفيض الحماية عن البيئة والمستهلكين ، وعن أرجحية احتمال تمريره بالموافقة عليه ، قلت : « مستحيل . الاقتراح لن يستطيع مقاومة محاولات التعطيل التي سيقوم بها الديموقراطيون ، وإذا حصل واستطاع ، فسينقضه كلينتون بالفيتو خلال دقيقة » . فعاد يسألني « ماذا عن إصلاح المعونة الاجتماعية ؟ » قلت : « أما هذا فنعم . أراهن أنه سيمر مع الموافقة وسيوقع كلينتون عليه . فالرئيس يريد إصلاح المعونة الاجتماعية ، وسيضع له في النهاية مشروع قانون يمكنه التوقيع عليه » . مرة أخرى سألني : « فماذا عن الاتصالات ؟ » مشيراً إلى إعادة بناء الخدمات الهاتفية والسلكية ، التي تنتظر دورها أمام الكونغرس للتصديق . قلت له: « نائب الرئيس غور يريدها ، وكلينتون ترك أمرها له، وأظن أن فرصتها جيدة في المرور والتصديق » .

بعدها ، واعتماداً على هذه المعلومات ، قام ترينت بالتركيز على مشروعي الاتصالات وإصلاح المعونة الاجتماعية حيث النجاح فيهما مرجح .

كان الرئيس يميل مبدئياً إلى التحفظ مع لوت ، باعتباره زعيم الجناح المحافظ في الحزب الجمهوري المؤيد لدول ، والذي يضم أيضاً أعضاء من الشيوخ من مثل بيل كوهين من ماين ، وجون شافي من رود آيلاند ، وبوب باكوود ومارك هاتفيلد من أوريغون ، الذين كانوا أكثر اعتدالاً . وكانت ردة فعل كلينتون الطبيعية هي العمل مع المعتدلين ، باعتبارهم أقرب إليه إيديولوجياً .

قلت له : « هذا خطأ . فلوت أكثر تماساً مع ما يجري في مجلس الشيوخ » . معظم الديموقراطيين يشعرون غريزياً برابطة قرابة تربطهم مع معتدلي الجمهوريين ، أقوى من مثيلتها مع المحافظين ، لكنهم مخطئون . وأردفت قائلاً للرئيس المدهوش : « لن يقف معتدلو الجمهوريين معك ، فهم من صنف المرتدين . إنهم عموماً إما من الذين أغرقتهم الثروة ، أو من الذين أغرقهم الشراب ، لكنهم جميعاً ينهارون حين يضغط عليهم دول . ليست لهم علاقات مع المجلس ؛ ولهذا فهم يعرفون أنهم إن وقفوا معك أصبحوا معزولين ، وفوق ذلك كله ، هم لا يريدون أن يحمّلوا أنفسهم مشقة القتال . وإذا أردت أن تتعامل مع الجمهوريين ، عليك أن تفعل ذلك من خلال لوت ، فهو نشيط وفعال ، ويحب إنجاز الأمور ، ويحافظ على تعهداته ووعوده ، كما يستطيع أن يعمل مع غينغريتش عند اللزوم » .

لقد أعلمت الرئيس بكل اتفاقاتي مع لوت، التي قمت بها بكامل علمه ومعرفته. كما أعلمت لوت بما يجول في خاطر الرئيس. وقد شجع كلينتون استخدام هذه القناة، لأنه كان يشك دائماً بقدرات الاتصالات الرسمية، ويبحث عن معيار قياسي آخر يفهم الجمهوريين في المجلس بواسطته. كان متعطشاً إلى المعلومات، يريد أن يفهم أرضية عضو واحد على الأقل من أعضاء الهيئة التشريعية الموالين للجانب الآخر.

ترينت لوت صريح ومستقيم، لكنه ليس مملاً. قيمه ومثله العليا صلبة ومتوازنة: الأسرة، الله، الوطن. دهاؤه وخفة ظله تبعده عن الغرور والخيلاء. ضحكاته ونكاته جافة. جنوبيته وبروده يمنعانه من أخذ الأشياء بجدية مبالغ فيها. ورغم أنه محافظ، فليس فيه جنون الجناح اليميني، ومواقفه الفكرية لا تنبع من الثروة، ولا من التعصب الديني أو الإيديولوجي. عقله ليس رجعياً في المجال الاجتماعي المسيحي. محب للحياة. وهذا يرجع بمعظمه إلى الثقافة الجنوبية أكثر مما يرجع إلى الميول البروتستانتية. فهو من ولاية وثقافة النزوع المحافظ فيها أساس مقبول للسلوك. إلا أن ما هو يميني في أمريكا، يغدو دون الوسط في مجتمع البيض بالميسيسبي. ولوت سياسي أولاً، ثم محافظ ثانياً. فهو يرى الإيديولوجيا شاخصة تهدي إلى الطريق، وليس قميصاً للمجانين. وهو يريد تطبيق القوانين، وليس معارضة المعتقدات ومقاومتها.

لعل لوت هو السياسي الوحيد الذي لم يسبق لي أن عملت مع مثله، يقول لك صادقاً وهو يعني كل كلمة يقولها: «هذا كله في سبيل مصلحة البلاد». لا يخجل من وطنيته، ويهتم بالواجب قبل أن ينظر أو يهتم بالآراء السياسية أو بالإيديولوجيا، ويعتبر أنه كسياسي جيد قادر على أن يتخلص من المثالية.

ولد لوت في طبقة دون الوسط، وشق طريقه عبر الجامعة، وصنع ثروة صغيرة جداً في حياته، إلى أن آمن أخيراً بأن العمل الذي اختاره لا يصنع الثروات الكبيرة. يقف بجانب المشاريع الكبيرة حين يكون تنفيذها في صالح ولايته وفي صالح الصناعات المحلية، كبناء السفن مثلاً. ويفضِّل من حيث المبدأ أن يقاتل لإلغاء الضرائب عن المستفيدين من الضمان الاجتماعي، من أن يعيش أو يموت على ريع ضريبة رؤوس الأموال.

ترينت لوت وبيل كلينتون، كلاهما جزء من الجنوب الجديد، والفرق بين الرجلين نابع من الولاية الأم التي جاءا منها، فولاية أركنساس تتصف تاريخياً بالاتجاه اليساري المعتدل. ولعل ويليام فولبرايت الذي قاد معارضة حرب فييتنام في مجلس الشيوخ، أبرز نموذج للسياسي الأركنساسي. إلا أن ولاية ميسيسيبي تتصف تاريخياً باتجاه محافظ. ولعل جيمس إيستلاند الذي قاد معركة التمييز العنصري، مثال نموذجي لسياسي الميسيسيبي.

جاء الرجلان من ولايتين جنوبيتين متجاورتين ، ومن أرضية اقتصادية متشابهة . لكنهما يختلفان أيضاً بأن ترينت نشأ في واشنطن ، حيث أمضى حوالي ثلاثين عاماً ، من موظف إلى عضو في الكونغرس ثم إلى عضو في مجلس الشيوخ ثم إلى زعيم للأغلبية فيه .

لقد بدّل لوت انتماءه الحزبي حين اتضح جلياً أن الحزب الوطني الديموقراطي بقيادة جورج ماك غوفين قد انجرف بعيداً إلى اليسار بشكل أصبح معه غير مقبول في الميسيسيبي . هو لم يغير آراءه ، لكن الحزب الذي تبناها هو الذي غيّرها . ترينت لوت سياسي يميل مع الاتجاه السائد ، تصادف أنه جاء من ولاية جنوبية محافظة .

رحّب الرئيس بالسناتور بحذر في البداية . ولكن بعد سنتين من ثرثرة غنيغريتش الساخرة والقاسية في الوقت ذاته عن الإيديولوجيا ، ومن جبن دول في وجه الحق الديموقراطي ، وجد كلينتون أن من المريح أن يتعامل مع سناتور يسيطر على الأحداث ، ولا يترك لحزبه أو إيديولوجيته أن تسيطر عليه . وقبل كل شيء آخر ، لقد وثق بأن لوت سيفي بوعده ، وسيبقي اتفاقاتهما تحت الأغطية .

حين جاء كلينتون إلى المدينة عام ١٩٩٣ ، كان موضع ريبة من لوت ، لأن من في الداخل من المدينة ، هم أصلاً من أولئك الدخلاء الوافدين . لقد تعجب لوتِ من سذاجة الرئيس وهو يتخبط في أخطائه خلال السنة الأولى من رئاسته ، واشمأز من الدور الجانبي الزائف الذي تزعم هيلاري أنها تلعبه ، وارتاب بأن يكون رأس كلينتون قد ركب في مكانه الصحيح . لكنه ما إن رأى كلينتون عام ١٩٩٥ ــ ١٩٩٦ ، وبخاصة كما صوّرته له أنا من الداخل ، حتى فهمه وأحبه .

لقد قمت من جهتي بدور منظم المباريات حسبما أملاه علي ضميري ، وأقنعت أحدهما بالآخر . وعرفت أنهما في النهاية سيحكمان معاً ، فعملت ما بوسعي لأمهد لهما الطريق . كنت أقابل لوت مرة كل عدة أسابيع ، وأتصل به هاتفياً في الغالب . وعندما كنت أنقطع عن مكالمته أو لقائه فترة ، كان يوبخني بلباقة فيرد على هاتفي قائلاً : « أهلاً بالغريب » .

حين التقيت بلوت ، وتحدثت مع موظفيه ، رحبوا بي كرجل طيب عاد من بعيد . وتذكر كثيرون منهم أيام الزخم الهائج في حملة عام ١٩٨٨ ، حين كنت أحتل طاولة لأكتب إعلاناً أو خطبة لعضو الكونغرس في سباق عضوية مجلس الشيوخ . لقد مرت عليهم أوقات عصيبة وهم يحاولون فهم واكتشاف ما أعمله مع كلينتون ، فإن كان لا بأس به عند رئيسهم ، كان لا بأس به عندهم .

كنت أرشف زجاجة البيبسي الخالية من السكر، حين دعيت إلى الهاتف في مكتب لوت، الذي أومأ لي فجلست إلى يسار طاولته، مواجهاً له وهو على كرسي عضوية مجلس الشيوخ ذي الظهر العالي. غالباً ما تقود هذه المقابلات إلى أوضاع حرجة وخطرة، ومع ذلك فقد زجني الرئيس في وسط واحدة منها. وأجبت على المخابرة، بينما كان لوت ينظر إلي ويبتسم بتسامح. في مرة أخرى، كان لوت يمر بفترة صعبة خاصة وهو يقنع سناتوراً جمهورياً بدعم مشروع قانون تسانده الإدارة، فاتصل بالرجل قائلاً إنه سيعين طاقماً من الموظفين للعمل على الهاتف عنده. أخذت المخابرة وحاولت، دون أن أذكر اسمي، إقناع السناتور الجمهوري بموقف الإدارة، لكنني أخفقت.

أرادني كلينتون أن أبقى على اتصال مع لوت، مرحِّباً طامعاً بالمعلومات التي كنت أعود بها. ولما انقلبت علاقات كلينتون ــ دول وكلينتون ــ غينغريتش إلى مواقف معادية، بقيت هذه الاتصالات هي الفرصة الحقيقية الوحيدة التي تتيح له الحوار مع زعيم من زعماء الكونغرس.

كان لوت يرى في لقاءاتنا جزءاً من مهمته ويقول: «إذا لم يتحدث قادة الجمهوريين في الهيئة التشريعية مع مستشاري الرئيس، فما الفائدة منهم؟». يا له من سؤال.

وكان ترينت، على عكس دول، لا يكرس حياته ساعياً ليصبح رئيساً أو نائباً للرئيس. فالتقاليد السناتورية الجنوبية تنص على أنك إن أردت أن تبقى، فاحرص على أن يعاد انتخابك دورة بعد أخرى، وعلى أن تزداد سلطتك أكثر فأكثر في الكونغرس. بعض أعضاء مجلس الشيوخ الجنوبيين يغيِّرون حزبهم جرياً وراء المناصب كما فعل ليندون جونسون. وقد يمضي ترينت في هذا الاتجاه، لكن ذلك بعيد في المستقبل. فهدفه في مجلس الشيوخ هو أن يثبت أن الحزب الجمهوري يستطيع أن يحكم وأن يمرر القوانين بتصديقها. وهو يريد أن يستأصل شعار «هجوم اللواء المنقض بالأسلحة الخفيفة» الذي رفعه دول وغينغريتش عن الحزب في عامي ٩٩٣ ــ ١٩٩٤. ولو قدّر له في عام ١٩٩٨ أن يلتفت خلفه إلى اتفاق الميزانية المتوازنة، وإلى برنامج إصلاح المعونة الاجتماعية الذي أعطى ثماره، فسيكون سناتوراً سعيداً. لا بل ستكون سعادته أكبر لو سمح له سجله بإحكام قبضته على مجلس الشيوخ لعقد قادم من الزمن.

بانتهاء عام ١٩٩٦، أثبتت العلاقة بكلينتون أهميتها على طريق إصدار قوانين إصلاح المعونة الاجتماعية، والرعاية الصحية، والحد الأدنى من الأجور. الحكم النهائي على دور ترينت لوت في إدارة كلينتون، أتى من الرئيس نفسه في محادثة هاتفية معي بأوائل نوفمبر/تشرين الثاني من عام ١٩٩٦، بعد تركي الحملة بشهر. قال كلينتون: «لقد خرج ترينت سالماً بالفعل من أزمة الميزانية التي اتفقنا على إنجاحها، إنه شخص صامد، يضع وطنه في المقام الأول».

الفصل الخامس

نظرية المثلثات

«إنه من رئيس الولايات المتحدة». قلت محاولاً التوضيح للموظف الليلي الذي لا يتحدث الإنكليزية في فندق ريجين على الضفة اليمنى من نهر السين مقابل متحف اللوفر في باريس.

سألني بارتيباب «الرئيس بذاته؟» أجبته: «نعم، الرئيس ذاته». حاولت أن أجعل الموظف يفهم مدى أهمية أن ينتبه لآلة الفاكس في الفندق، بالساعة الرابعة صباحاً (العاشرة مساءً بتوقيت واشنطن)، لأننا، الرئيس وأنا، نتبادل على الفاكس مسودات خطابه القادم إلى الأمة على التلفزيون.

كان الانطباع المؤثر بالرئيس، والامتنان بالمئتي فرنك التي دسستها في يده نقداً، كافيان لجعل الموظف يندفع صعوداً إلى غرفتي، ثم نزولاً إلى طاولته كل نصف ساعة، لتسليم واستلام وإرسال الفاكسات. وبعد شهر طلبت من الرئيس توقيعه على أوتوغراف، قدمته إلى الموظف المذهول في زيارتي الثانية لباريس.

تلك كانت أولى خطابات الرئيس الأساسية في نوبتي، بمنتصف ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٤، والتي دفعت مشاركتي فيها إلى إعطاء مصطلح «الكاتب الشبح» معنىً جديداً. كنت وقتها وحيداً في باريس، برحلة سبق تخطيطها، ولم تكن لدي أية فكرة قبل مغادرتي واشنطن أن الرئيس سيخطب في الأمة لأول مرة بعد كارثة انتخابات عام ١٩٩٤.

وكان عليه أن يلقي الخطاب. فمنذ أن ارتقى غينغريتش إلى موقع السلطة، وسؤال واحد يحكم الصحافة: هل ما زال الرئيس مناسباً لمنصب الرئاسة؟ كيف سيتمكن بيل كلينتون من العودة إلى اللعب؟ كان جون ماكلافلين يزأر وهو يعلن عن موضوع الحوار في برنامجه «حديث الأحد». البطة العرجاء، التعبير الكالح، مشية الجريح. هذه بعض العبارات التي تم استخدامها لوصف الرئيس، في الوقت الذي كان فيه حلفاؤه يتناقصون، ليتحولوا

إلى عبيد عند أساقفة النظام الكونغرسي الجديد . كان الأمر أشبه بمشهد من مشاهد أفلام الويسترن ، يسمع السجين فيه صوت إقامة المشنقة خارج قضبان نافذته .

كنت أتخيل كيف كانت الأمور تبدو بالنسبة إليه : زخارف المنصب ، البيت الأبيض ، الاستقبالات ، الموظفون ، كانت كلها كالمنبه الكالح المقيت ، تذكره بأن الكثيرين يظنون الآن أن هذه نهايته .

في مقابلاتنا بأوائل ديسمبر / كانون الأول من عام ١٩٩٤ ، كنت أبحث عن طريقة أشرح بها كيفية عودته إلى اللعبة . تقليد العبارات المنمقة الرنانة للديموقراطيين في الكونغرس ، الذين يعارضون كل ما هو جمهوري ، سيكون مجرد اشتراك معهم في القبو وقت العاصفة ، بانتظار مرور الإعصار الجمهوري بسلام . تبنّي جدول أعمال الجمهوريين ومقولاتهم ، سيثير السؤال الرئيسي : ما الفائدة من كلينتون ؟. أردت اقتراح أن يأخذ الرئيس مساراً وسطاً ، إنما ليس بشكل ينطمس معه الفرق بين الحزبين . الرئيس بحاجة ليس إلى موقف يدمج أفضل آراء الحزبين وحسب ، بل ويتفوق عليها أيضاً في تأسيس قوة ثالثة تشترك في النقاش .

وارتجلت للاستراتيجية التي افترضتها اسماً من كلمة واحدة هي « نظرية المثلثات » . ووجدت نفسي أصنع بأصابعي مثلثاً ، قاعدته الإبهامان ، ورأسه أصابع الكفين المبسوطة المتلامسة الرؤوس .

اشرت عليه قائلاً : « اجعلها مثلثة ، اخلق موقعاً ثالثاً ، لا تتركها بين موقعين لحزبين عجوزين ، تجاوزهما ، حدِّدْ مساراً جديداً يلائم متطلبات الجمهوريين المعلنة ، ولكن بشكل فريد على طريقتك أنت » .

رأيت في التثليث طريقاً إلى تغيير الحزب الديموقراطي ، وليس إلى هجره والتخلي عنه . وحين يسعى أصحاب الفعاليات السياسية والموظفون الرسميون الحكوميون إلى تغيير الاتجاهات والمناهج في أحزابهم ، فهم يفعلون ذلك عن قناعة ، أو عن تحدٍّ مبدئي لمعتنقي الآراء الأرثوذكسية التقليدية المألوفة . لكن بإمكان الرئيس أن يتجاوز حزبه ويخرج عنه ، وأن يخلق موقعاً جديداً . وضلع المثلث الثالث الذي يرسمه ليصل بين الآراء التقليدية للحزبين في القاعدة ، وبين آرائه هو في زاوية الرأس ، أمر مؤقت ، إما أن يرفضه الناخبون وينسلّون عائدين إلى المواقع التقليدية المألوفة ، أو أن ينجذبوا لدعمه ، فيعود بذلك حزبه إليه في النهاية .

لتوضيح هذه النقطة ، وقفت أمام الرئيس مباعداً بين قدمي تشبيهاً لهما بالآراء التقليدية لكلا الحزبين ، ثم خطوت إلى الأمام بقدمي اليسرى لتوضيح الموقع الجديد الذي يقوم الرئيس بإيجاده . قلت : « هذا مثلث مؤقت ، لا يبقى له وجود حين ينكص ذوو الطراز

العتيق من غير المتنورين من أعضاء الحزب الديموقراطي على أعقابهم. أو يعود إلى شكل ثنائي يمثل الحزبين، بارتداد الجمهوريين إلى حيث اعتادوا أن يكونوا دائماً، والتزام الديموقراطيين بالموقع الجديد الذي أوجدته لهم».

وباعتباره ليس مدمناً على إقليدس مثلي، قال الرئيس متجاهلاً مفرداتي الهندسية «تماماً كما فعلت حين أعلنت ترشيحي في عام ١٩٩٢، وكما في خطاباتي بجورجتاون، عن قوة جديدة وحلول جديدة». فوافقته أنا على ذلك.

كانت خطوته الأولى نحو التثليث في هذا العالم السياسي الجديد هي أنه أعدّ اقتراح برنامج لتخفيض الضرائب، يوسّع فيه منظور البند الأساسي من بنود «التعاقد مع أمريكا» ليسبق بذلك الجمهوريين.

تخفيضات الضرائب موضوع حسّاس عند كلينتون. فقد وعد خلال انتخاب عام ١٩٩٢ بتخفيض ضرائب الطبقة المتوسطة، وكان إخلافه لوعده دليلاً على ضعفه الواضح. لقد حاول على الأقل أن ينفذ وعده بخصوص إصلاح المعونة الاجتماعية، لكنه لم يقم بأية خطوة أو حتى باقتراح في اتجاه تخفيض الضرائب عن الطبقة المتوسطة. قال كلينتون إن الأولوية يجب أن تكون لتخفيض العجز والحدّ منه، ووعد بأن يخفض الضرائب حين يتحرك الاقتصاد مرة أخرى وتعود له وتيرته الإبداعية.

الأعضاء الديموقراطيون في الكونغرس يمقتون بشدة تخفيض الضرائب، وبخاصة إذا أدى إلى تخفيض الإنفاق. أما بالنسبة للأحرار التقليديين، فتخفيض الإنفاق على البرامج الهامة مقابل التخفيضات الضريبية، وبخاصة ما كان منها على الأثرياء، ليس أكثر من بدعة وهرطقة. ولم يكن في نية كلينتون، المستكين تحت غطاء الديموقراطيين في الكونغرس، أن يدعو إلى إعادة تبادل الاتصالات بين الحزبين عن طريق تخفيض الضرائب، رغم أنه يشعر الآن، حتى مع الأغلبيات الجمهورية، بقدرته على تقديم اقتراح لتخفيض الضرائب، والوفاء بوعده في انتخاب عام ١٩٩٢. لكنه يريد أن يبدو التخفيض من عنده هو، والنظرة نظرته هو، والمبادرة من عنده هو، وليس من عند الجمهوريين.

وللتمييز بين مخططه لتخفيض الضرائب، ومخطط غينغريتش، فقد فكر بالتثليث في مجال الخطوط التي تحدد الفروقات الطبقية. قال موضحاً: «دع الديموقراطيين يعارضون التخفيض الضريبي، ودع الجمهوريين يطالبون بتخفيض ضرائب الأثرياء، أما أنا فسأدعو إلى تخفيض الضرائب عن الطبقة المتوسطة».

لم أوافق على إقامة التثليث على أساس طبقي، ودعوت إلى إقامته على أساس الثروة الفعلية. قلت: «الصراع الطبقي لا يجدي في أمريكا. فحين أذهب لشراء حاجياتي من

السوبر ماركت، أحب أن أشتري ورق التواليت الذي لا يحمل علامة تجارية. وأظن نفسي ذكياً حين أدفع مبلغاً أقل لشراء سلعة تعادل تلك التي تحمل علامة تجارية واسماً. لكنك إذا سميتها «فوط الفقراء» أو «ورق تواليت الفقراء» فلن تضبطني متلبساً بشرائها أبداً».

قال كلينتون موافقاً: «الأمريكيون معتادون على التفكير بشكل متفائل. فهم يقولون: «قد ينهار الاقتصاد في المستقبل، لكن وضعي سيتحسن أكثر كثيراً مما كان عليه»، ولقد تغلب الجمهوريون على التدني الكبير في أرباحهم، ببيع أحلام الثراء، وإبقاء الناخبين على الخط سادرين في توقعاتهم وتمنياتهم».

سألته مشيراً إلى المسح الذي كنت قد أعددته في عام ١٩٩٤ «هل نسيت أننا سألنا الناس عما إذا دفعوا ضريبة الأرباح، وكانوا جميعاً واثقين من أنهم أكثر ثراءً مما هم عليه؟».

أجابني كلينتون «لكن أربعين بالمئة منهم قالوا بأنهم دفعوا ضريبة أرباح أقل بعشرة بالمئة مما اعتادوا أن يدفعوه» وعاد لحظة إلى ذاكرته الفوتوغرافية ثم أردف «حتى ذوي الدخل المنخفض، فإن كثيرين منهم يعتقدون بأنهم يدفعون ضريبة أرباح. وإذا نحن لم نفرِّق بين ما نسعى إليه، وما يقوله الجمهوريون: «نحن للطبقة المتوسطة، وهم بدورهم للطبقة الغنية» فلن نستطيع أن نحقق ما نظن أننا سنحققه».

لقد لاحظ كلينتون أن الفرق بين آرائه وآراء الجمهوريين، هو أنه يريد أن يستهدف تخفيض الضرائب عن الناس الذين يحملون مسؤولية أنفسهم في الحياة ويحتاجون إلى فرصة تدفعهم إلى الأمام، وعن الذين يدخرون لشراء منزل، وعن الذين يحاولون دخول الجامعة، ويربون الأطفال، ويخلقون الوظائف. أما الجمهوريون فيريدون منح تخفيض ضريبي لكل من يستثمر أمواله في أي مجال كان، سواء كان هذا المجال هاماً، أو كان مضاربة في البورصة مرسومة لقتل الآخرين. قال الرئيس: «لماذا يتوجب علينا أن نكافىء مستثمراً يتسلق سلم الثراء بسرعة؟».

فوافقته قائلاً: «ولهذا فأنا أعتقد أن المفتاح هنا ليس مستوى الدخل كمعيار للتخفيض الضريبي، بل نوع العمل الذي يجب أن نمارسه لنحصل على هذا التخفيض» وتابعت معيداً ترتيب وصياغة الفكرة التي طرحها هو «الديموقراطيون يرفضون أي تخفيض ضريبي، والجمهوريون يطالبون بتخفيضات تشمل الجميع، ونحن نقول: الحصول على التخفيض الضريبي يتم لمن يدرس في الجامعة، أو يربي الأطفال، أو يشتري منزلاً لأول مرة، أو يدخر ليتقاعد. وهذا هو الفرق. بين أن تعتمد معيار الفروقات الأدائية الوظيفية، أو أن تعتمد الفروقات الاقتصادية الطبقية».

أجاب الرئيس: «لكنني وعدت الطبقة المتوسطة بتخفيض ضرائبها، وعليّ أن أستهدف هذه الطبقة بأية طريقة، إضافة إلى أننا لا نملك من الأموال ما يمكننا من تخفيض الضرائب عن الجميع، حتى لو أردنا ذلك. أعني أنني لا أدري من أين يعتقد الجمهوريون أننا سنحصل على أموال تكفي لمواجهة هذا التخفيض الضخم الذي يطالبون به. ولكن إذا كان علينا أن نحدد من يستفيد من التخفيض ومن لا يستفيد، فنحن بحاجة إلى وضع حدٍّ أعلى للدخل».

لم يكن كلينتون مستعداً للتخلي عن الصراع الطبقي، في التمييز بين ما ينادي به هو وما يطالب به الجمهوريون. لكنه كان راغباً في التثليث على أساسي الطبقة والعمل. ومن هنا فقد جاءت خطبته هجينة، مثل معظم خطاباته الرنانة المنمقة التي جاءت بعدها على مدى أربعة شهور. قسم منها حول الهجومات الديموقراطية التقليدية على الأثرياء وعلى ما أسموه الوقوع في غرام الطبقة المتوسطة. والقسم الآخر حول فكرة ديموقراطية جديدة تقوم على مكافأة الذين يحملون مسؤولية أنفسهم بإتاحة الفرص أمامهم، والذين يدرسون في الجامعة بتخفيض ضرائبهم لمساعدتهم على متابعة التعلم، والذين يدخرون للتقاعد أو لشراء منزل لأول مرة بتوفير ذلك لهم دون ضرائب. أما الذين لا يحاولون السير في طريق حمل مسؤولية أنفسهم وتحسين أوضاعهم، فلا تخفيض لضرائبهم.

هذا الشد والدفع في لغة الصراع الطبقي التقليدية، ولغة المسؤولية وإتاحة الفرص، حكم الفترة الباقية من شتاء ١٩٩٤ ــ ١٩٩٥. فكلما حاول بانيتا أوستيفانوبولوس إظهار الفروقات الطبقية في خطب كلينتون، كنت أقنع الرئيس بشطبها واستبدالها بلغة المسؤولية والفرص المتاحة. وكان يقوم بالأمرين لإرضاء كل المعسكرات. ولكن بما أن الصحافة تفهم الفروقات الطبقية، ويصعب عليها فهم المسؤولية وإتاحة الفرص، فقد قام المحررون بتغطية أقسام الخطب التي تتكلم بلغة ضرب الأغنياء، وتجاهلوا الفكرة الجديدة.

كان قرار كلينتون، الذي لم أشارك فيه، بإلقاء كلمة على الأمة يقدم فيها اقتراحه بتخفيض الضرائب، أول ما تعرضت له في مجال تحديد النهج الذي يجب اتباعه. وانتظرت التعليمات.. ثم انتظرت وانتظرت. ولم تأت تعليمات، ولا أوامر، ولا مكالمات هاتفية. فقررت أن أرى ما إذا كان علي أن أبادر بالخطوة الأولى. واتصلت بالرئيس. وأوحيت له أننا قمنا بصياغة الخطاب على الطريقة نفسها التي اعتدناها في أركنساس، وأن عليه أن يخبرني بما يريد أن يقول، وما الذي ينوي اقتراحه، وسأفحص ذلك في استطلاع إحصائي، ثم نحلل النتائج معاً، وبعدها نعدُّ مسودة الخطاب. فوافق.

كنت ساكناً هادئاً بانتظار رنة جرس تأمرني بالانطلاق بلهجة رسمية آمرة ، أهمس لنفسي « انتظر .. فليس هكذا تسير الأمور هنا .. أنت في البيت الأبيض .. حيث الانتظار هو الطريقة التي تسير بها الأمور .. » . ولكن الجرس لم يرن ، ويبدو أن الرئيس في غاية الاطمئنان لقضيتي ، ولم أكن معروفاً بعد عند أي شخص آخر في البيت الأبيض ، عدا السيدة الأولى والمقربين من مساعدي الرئيس . أنا هنا ما زلت تشارلي ، كما كنت على الهاتف من قبل .

يستخدم كلينتون الاستطلاعات الإحصائية ويستفيد منها بطريقة فريدة وهامة . فهي عنده ليست كما يفترض الكثيرون ، تحدد له ما يفعله وما يجب أن يكون عليه . فهذه أمور يعرفها هو بالفعل . ما يريده هو أن يعرف كيف يصل إلى هناك ، وعلى الاستطلاعات أن تساعده على اكتشاف الطريق .

وأفضل كناية مجازية تخطر لي لوصف ذلك هي القارب البحري . فأنت لا تستطيع أن تذهب به من هنا إلى هناك في خط مستقيم ، وهذه هي الديموقراطية . إذا لم يكن لديك محرك ، فلن تستطيع أن تأمر بتخفيض الضرائب ، أو بأي برنامج هام آخر . ولهذا ، فأنت تجمع بين عنصرين لتحسب كيف تذهب من هنا إلى هناك . إلى أين تريد أن تذهب ؟ وإلى أين يريدك الرأي العام أن تذهب ؟ (الرأي العام هنا كناية مجازية عن الريح) .

الغوغائي من عوام الدهماء لا يحتاج إلى مثل هذه الحسابات . فهو ببساطة يذهب حيث تحمله الريح ويأمره الرأي العام ، ويرفع أشرعته بشكل غير مسؤول دون أن يبحث عما يحدد له اتجاهه ، ليستقبل أقصى ما يمكنه من الريح ، لينطلق بها بأسرع ما يستطيع . الحاكم الدكتاتوري فقط هو الذي يشغل محركه وينطلق ، والسياسي الأحمق هو الذي يتجاهل الريح ، ويترك للمبادىء وحدها أن توجه قاربه ، ثم ينقلب بكل بسالة .

ولم يكن كلينتون واحداً من هؤلاء . فهو يناور ويتعرج ، ويستشير الاستطلاعات الإحصائية كما لو كانت مؤشر اتجاه عملاق ، يدله على الجهة التي تهب منها الريح . ثم يطلب من القائم بالاستطلاع أن يساعده في تحديد أي التيارات يركب ، لتسخيرها في تحريكه ودفعه نحو هدفه المقصود . إنه يعيد الاستطلاع مرة بعد أخرى ، ويعدّل اتجاه تعرجاته ، فينحرف قليلاً إلى اليمين أو قليلاً إلى اليسار ليصل أخيراً .

الأمر يبدو ، بالنسبة للصحفي الذي يغطي الأخبار اليومية كما وقعت ، وكأنه عملية زيك زاك . لكنه المناورة والتعرج ، وليس التغييرات الانكسارية المفاجئة في الاتجاه . هذه الزيك زاكات المناورة المتعرجة تقربك أكثر وأكثر من حيث يجب أن تكون .

بالنسبة لكلينتون، كانت المهمة تحديد الهدف، ثم مراجعة الخطة، ثم توصيل الرسالة إلى أمريكا. أما بالنسبة لي، فكانت المساعدة على تخطيط المسار، وعلى صياغته ضمن مفاهيم، وعلى شرحه وتوضيحه لأمريكا، ثم دمجه في استراتيجية مترابطة، وتوحيده في مخطط متماسك.

ولهذا، فقد تحدثنا عما نريد تحقيقه. كان كلينتون قد استعرض مشروع «العقد مع أمريكا»، فوجده يقترح تخفيضاً ضريبياً بواقع ٥٠٠ دولار لكل طفل. وشعر أن ذلك سيعطي الأبوين أكثر مما ينفقان على أولادهم، واحتج وقتها بأن اقتراح الجمهوريين مكلف جداً. فطلب مني القيام بدراسة أولية يرى فيها كيف يمكنه تخفيض كلفة الاقتراح إلى ما بين ٥٠ و ١٠٠ بليون دولار. وما هي التخفيضات التي تترك العناصر المقبولة في البرنامج على حالها؟

مرة أخرى كان يتعرج. فهو يريد تخفيض الضرائب، لكنه يريد تخفيضاً لا يزيد من العجز في الميزانية، ولا يستلزم بالضرورة تخفيضات في البرامج الهامة. فكيف يستطيع أن يصل من هنا إلى هناك؟ لذلك كان بحاجة إلى استطلاع.

أظهر استطلاعنا أن الناخبين لم يكترثوا كثيراً لحصر الاقتراح بالأسر التي لا يزيد دخلها عن ٧٠,٠٠٠ دولار في السنة. إلا أننا وجدنا أيضاً أن ٨٥٪ من الآباء الذين لديهم طفل تحت الثامنة عشرة يعيش معهم، لديهم أيضاً طفل تحت الثالثة عشرة يعيش معهم. فاكتشف كلينتون أننا لو حصرنا التخفيض بالأطفال تحت سن الثالثة عشرة، فسيشمل التخفيض ٨٥٪ فقط من الأسر التي لديها أطفال، مما يجعل الكلفة تنقص بواقع الثلث.

قمت بصياغة استجواب لاختبار كل التخفيضات الضريبية التي يفكر فيها الرئيس، بما فيها تخفيض ضريبة الأرباح، وتخفيض ضريبة الدخل، وغيرها. واستعرضنا الاستجواب على الهاتف.

كانت لدى كلينتون فكرة جديدة، أراد أن يضمّنها الاستطلاع، فكرة استقاها من روبرت رايتش أمين عام حزب العمال: اتركوا الناس ليدفعوا نفقات التعليم الجامعي من ضرائب دخلهم. وبدا لي أنها فكرة جيدة.

رايتش قصير، ذكي، مصدر رائع للإلهام، دائم التفكير بطريق جديدة يدفع بها هدفه الاجتماعي إلى الأمام، ويرفع بها القدرات الحركية عند عمال أمريكا. إنه نفعي واقعي في لباس مثالي، أعجب به وأحبه، وأحب كثيراً أن أستمع إلى اقتراحاته واستنتاجاته عن قرب.

بعد ساعات من استعراض ومراجعة كل سؤال في الاستطلاع، ومساومتي على كل كلمة، وإضافة عشرات الأسئلة الأخرى، طلب الرئيس نتائج الاستطلاع وأرقامه على الفور،

وحاولت أن أجاريه وأتكيف مع صبره النافذ . فأوعزت لمؤسسة بين وشوين ، التي أستخدمها للقيام بالمسح ، بإجراء التعديلات الضرورية على الاستطلاع ، والعثور على ٨٠٠ شخص يقبلون الإجابة على الأسئلة ، وأكملت المقابلات معهم ، وأدخلت النتائج في الكومبيوتر ، ثم طبعتها . كل ذلك خلال عشر ساعات ، من الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ١٧ ديسمبر / كانون الأول ، إلى الساعة الواحدة من صباح يوم ١٨ منه . كنت بعدها على الهاتف أوجز النتائج للرئيس .

أظهرت النتائج أن فكرة رايتش عن تخفيض الضريبة لمواجهة نفقات التعليم الجامعي قد أحدثت أثراً عميقاً عند العامة . فقال ٥٥٪ إنهم يؤيدونها بقوة ، وقال ٢٥٪ إنهم يؤيدونها جزئياً . وهذه النسب أحسن كثيراً من أية نسب أخرى ، في كل ما نفذناه من استطلاعات حول التخفيض الضريبي .

كانت واشنطن ، كالعادة ، منفصلة تماماً عما تفكر به العامة . سؤالان فقط هما ما يهم العاصمة : كم سيبلغ حجم التخفيضات ؟ وما هي شرائح الدخل التي ستستفيد منها ؟ لكن الناس كانوا يطرحون سؤالاً مختلفاً آخر : ما هو التخفيض الضريبي الذي ستستفيد منه الأمة ككل ؟ وهو سؤال يخالف كل ما هو مكتوب في دفاتر مفكرات الجيب السياسية . لم يسأل الناخب : أي هذه التخفيضات سيفيدني أنا ؟ لكنه سأل عن التخفيضات التي ستعود بالخير على كل البلد .

لكن الجمهوريين والديموقراطيين فاتتهم هذه النقطة ولم يفهموها . كان الجمهوريون يأملون أنهم بتمرير تخفيض الضرائب ذي القاعدة الواسعة التي تشمل الجميع ، سيغرون الناس بالتصويت لصالحهم . لكن الناس لم يعلنوا أنهم سيفعلون ذلك . بل أرادوا للتخفيضات الضريبية أن تحقق العدل والتقدم . وكان الديموقراطيون يهاجمون التخفيض الضريبي لأنه في صالح الأغنياء . لكن الناس لم يكترثوا بمن سيحصل على التخفيض ، بقدر اهتمامهم بالعمل الذي يستحق أن يشمله هذا التخفيض .

جاء هذا المسح المبكر مؤذناً بالنصر الرئاسي عام ١٩٩٦ من اعتبارين هامين . أولاً : أوضح للرئيس ولي التحول في المواقف الأمريكية من المنفعة الخاصة إلى روح الصالح العام . وكما أثبتت لنا الاستطلاعات اللاحقة ، فإن متوسط معدل الأمريكيين يشعرون بأن تحسين وضعهم الشخصي مرتبط بالخلل الوظيفي في المجتمع ككل ، أكثر من ارتباطه بقلة المال الذي لديهم . كانت مخاوفهم تدور حول الجريمة ، والقيم والمبادىء عند الشباب ، والعنف في التلفزيون ، والتدخين بين المراهقين ، والسُّكْر ، وتعاطي المخدرات ، والبيئة ، وجدوى التعليم

الجامعي ، وغيرها من الأمور التي تشكل أخطر ما يهدد وجودهم ، وليس قلة الدخل . وتلك كانت دعائم اهتماماتنا الأساسية التي حكمت أهدافنا وجدول أعمالنا في عام ١٩٩٦ . وإذا كانت الثمانينيات هي عصر « الأنا » ، فمن المؤكد الذي ثبت لدينا أن التسعينيات هي عصر « النحن » .

ثانياً : أظهر الاستطلاع لنا مدى خطأ التخفيض الضريبي الذي يستهدف المنفعة الخاصة . فالناس يريدون تخفيضاً ضريبياً يذهب لمستحقيه ومحتاجيه ليحققوا أشياء جيدة كتربية الأطفال أو الدراسة في الجامعة . في أغسطس / آب من عام ١٩٩٦ ، حين قرر دول إقامة حملته الانتخابية بكاملها على فكرة تخفيض ضريبي بمعدل ١٥٪ ، لم يكلفنا الأمر أكثر من العودة إلى مسح ديسمبر / كانون الأول من عام ١٩٩٤ لنرى مدى خطأ الاقتراح . ومن هنا عارض الرئيس كلينتون خطة دول في التخفيض الضريبي بخطته هو ، التي اعتمد فيها على نتائج استطلاعنا .

خطة التخفيض الضريبي التي اقترحها الاستطلاع كانت أن نبدأ بسلسلة من الأفكار طوّرها الرئيس ليحقق بها أهدافاً ديموقراطية بمعانٍ جمهورية . وهذا يعني ، في الحالة التي نحن بصددها ، استعمال المعاني الجمهورية لتخفيض الضرائب لتحقيق هدف ديموقراطي ، بمساعدة الأسر على تسديد نفقات التعليم . وكان بالإمكان في الماضي أيام الحكومات الكبيرة أن يتحقق ذلك من خلال برنامج للمنح الدراسية ، والهبات البيروقراطية . أما الآن في عصر الحكومات الأصغر ، فمن المنطقي المعقول أن يتم التخفيض الضريبي لتحقيق الهدف ذاته ، أي إرسال الناس إلى الجامعة .

وتساءلت : وماذا بعد ؟ كيف سيحصل الرئيس من الاستطلاع على ما يلزمه لخطبته ، ولم يبق سوى ليلة واحدة على إلقاء الخطبة في التلفزيون ؟ لم يعد هناك وقت لانتظار التعليمات . ومرة أخرى أخذت زمام المبادرة ، وسألته على الهاتف من باريس « هل تريدني أن أضع بعض العبارات التي قد تجدها مفيدة في الخطبة ؟ » فأجاب : « نعم ، أرجو أن تفعل ، وأرسلها بالفاكس إلي مباشرة أو إلى نانسي ، لا ترسلها عن طريق موظفي المكتب » .

اتصلت بإيلين في كونيكتيكت ، وناقشنا أفكار الخطبة ، فقالت إنها تشعر كما لو أن الخطبة تحتاج إلى رباط ، إلى شعار يجتذب الجماهير للسماع . أجبتها إنني أفكر بشيء من هذا القبيل ، فاقترحتُ اسماً للبرنامج هو : مشروع حقوق الطبقة المتوسطة . وأعجب الرئيس بالفكرة واستعملها .

وكتبت أول مسوداتي في هذه المرحلة، وأرسلتها بالفاكس إلى قسم السكن في البيت الأبيض في الساعة العاشرة مساءً بتوقيت واشنطن، الرابعة صباحاً بتوقيت باريس حيث كنت. ثم اتصلت بمكتب الحجاب في قسم السكن هاتفياً، وطلبت من الذي أجابني أن يتأكد من أن الرئيس قد تلقى الفاكس. بعد نصف ساعة، ناداني موظف الفندق معلناً أن كلينتون على الخط.

قال كلينتون: «لقد أعجبتني، لكنني أريد المزيد عن مشروع الاستفادة من حسابات الادخارات التقاعدية». لقد تحدث الرئيس في خطابه عن هذا المشروع، من منظور أبعد من المنظور التقليدي الذي يعتبر الادخار مجرد توفير أموال للتقاعد معفى من الضرائب. وكان اقتراحه يدعو إلى السماح للناس باستعمال هذه المدخرات المعفاة من الضريبة، في تغطية حاجات أخرى معينة، كالتعليم، ونفقات العلاج، وشراء منزل لأول مرة.

جادلني بكل كلمة على الهاتف، ثم أعاد لي مسودتي بالفاكس وعليها ملاحظات كثيرة بخط يده. الرئيس أعسر، ولم يسبق لي أن رأيت من قبل تأشيرات لمدقق أعسر، تبدأ من الأسفل ثم تصعد إلى الأعلى لتنحرف إلى اليسار بدلاً من اليمين، فلم أستطع أن أتبين ما هي. وحين اتصلت بالهاتف ثانية في تلك الليلة، سألته فضحك قائلاً: «إنها الطريقة الصحيحة في التدقيق». أخيراً، أصبح لدينا مسودة نظيفة.

علمت فيما بعد من دون باير، ضارب الآلة الكاتبة لخطابات الرئيس وحليفي القديم، أنه استلم المسودة من كلينتون صباح اليوم التالي، يوم إلقاء الخطاب، فأطلق عليها اسم «الكشف الإلهامي المنزه عن الخطأ»(*)، باعتبارها جاءت، حسب علمه، من اللامكان، إذ كان لا يعرف شيئاً عن تشارلي.

ولم أكن لأضيع فرصة الاستماع على الهواء لأول خطبة كتبتها للرئيس، رغم أن ذلك سيحرمني من ثلث نومي. ولحسن الحظ، فقد قامت محطة CNN بفرنسا ببث الخطبة حية مباشرة، مما مكنني من رؤيتها والاستماع إليها، ولكن لسوء حظي، لم يكن معي من يشاركني الاستماع. كان يجب أن أعرف أنني كافٍ وحدي لأستمع إلى الخطاب، وأشارك في النصر

(*) استعمل المؤلف هنا مصطلح Immaculate Conception. وهو مصطلح ديني يعني عند المسيحيين «الحبل بلادنس». إشارة إلى مريم وإلى حملها بالمسيح عليهما السلام. والتعريض في الإشارة واضح. فالمؤلف يهودي لا يؤمن بمضمون المصطلح، ويفترض أن ثمة مجهولاً آخر مثل تشارلي كان السبب في ذلك الحمل. — المعرب —

بصمت، لكنني بطريقة أو بأخرى لم أعرف. هذه المعاناة، وهذا الإحساس الجارف الذي لا يمكن اجتنابه، عاودني في الشهور التالية، حتى أصبح مألوفاً ومثيراً للجنون. وفي النهاية، قادني التوق لمستمع يشاركني غروري المتزايد وأنانيتي المتنامية إلى تدمير نفسي بسلوك فج غير واعٍ، دفعت مستقبلي ثمناً له. الغرور مرض مهني سياسي، يصاب به المثالي فيحوله إلى شخص يؤمن بأنه أقوم أخلاقاً من الآخرين. ويحول الرغبة بالتغير الإيجابي إلى بحث عن السلطة وسعي إليها. لقد أوثقني الغرور بحبال التوق الدائم إلى المجهول، فقادني ذلك إلى أن أفقد إحساسي بالواقع.

ولكي أظهر للرئيس مدى جدوى وفعالية التثليث، فقد أعددت استطلاعاً يتم تنفيذه بعد ساعة من إلقاء الخطاب، للحصول على أجوبة الذين استمعوا له وشاهدوه. فظل دوغ شوين على رأس طاقم مكتب نيويورك يعمل حتى الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، بالاتصالات الهاتفية مع المشاهدين المستمعين في الساحل الغربي. وفي الساعة الواحدة والنصف اتصلت مبتهجاً بالرئيس في مكتبه، لأقدم له تقريراً عن النتائج.

قلت لبيل كلينتون المتعب المرهق، الذي كان بأمس الحاجة إلى أول أخبار جيدة تأتيه بعد شهرين «أربعون بالمئة في أمريكا شاهدوا الخطاب، ومعدل الموافقة عند من استمعوا إليك ارتفع تسع نقاط». إنه النصر. عدت بعد ذلك للنوم، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحاً في باريس، وهذا يعني: لا ذهاب إلى المتاحف اليوم.

تلك كانت الخطوة الأولى باتجاه استرداد العافية، التي أعادت معدل الرئيس إلى حيث كان عليه بعد رجوعه من الشرق الأوسط في نهاية أوكتوبر/تشرين الأول. «ليس المطلوب أن تكون عالياً دائماً، بل أن تتحرك على الأقل إلى الأعلى. ونحن نستطيع أن نحرك هذه الأرقام الكئيبة» هذا ما قلته لنفسي. وقد يستطيع هذا الفتى أن يتجاوز الصعاب. فرغم كل تبجحاتي في انتخابات عام ١٩٩٤، فهذه هي المرة الأولى التي أشعر فيها أن أمامنا فرصة حقيقية للفوز، أو على الأقل، لتفادي هزيمة ساحقة.

الفصل السادس

تشارلي

كنا وحدنا في قسم السكن بالبيت الأبيض، ولم يكن أحد يعرف أنني هناك. وقف الرئيس ينظر من فوق كتفي، وأنا أعمل على الآلة الكاتبة في خطابه الذي ألقاه على الحكومة الاتحادية عام ١٩٩٥. رفعت رأسي، وبدا فوقي كشجرة صنوبر ضخمة عملاقة. فاستدرت بكاملي لأواجهه قائلاً: «أنت تعلم يا سيدي أن حلمي وأنا في الثامنة من العمر، كان أن أقوم بما أقوم به الآن تماماً». أجاب باقتضاب: «وأنا أيضاً»، ثم غادر الغرفة.

كان هدف الرئيس الأول يومها، أن يلقي خطاباً ذا تأثير مثلث على المشروع الجمهوري «العقد مع أمريكا». وكان هدفه الثاني أن يتم ذلك بسرية تامة، وبشكل لا يعرف معه أحد من الموظفين أن لي به أية علاقة على الإطلاق.

وكان الرئيس قد أعطاني طبقاً من الورق الأبيض المسطّر، دوّن عليها ملاحظاته حول ترتيب الخطاب. ولو ظهرت الخطبة على شبكة الكومبيوتر في البيت الأبيض، لانكشف وجود دخيل غريب فيه. لهذا كان علينا أن نبحث عن آلة كاتبة أستعملها. وبعد التفتيش من غرفة لأخرى، عثرنا على واحدة قديمة في مكتب الحجاب بالبيت الأبيض، نفضنا عنها الغبار، وصعدنا بها بكل مشقة على الدرج إلى قاعة المعاهدات.

من هنا، رسم كلينتون مخططاً منهجياً بسيطاً. جلست أنا في قاعة المعاهدات بقسم السكن في البيت الأبيض، وجلس الرئيس في غرفة تغيير الملابس المجاورة لغرفة نومه. وما إن أكملت الطباعة، حتى أخذتها له. جلس في مقعده، وبفمه سيجار غير مشتعل، وكتب نص الخطاب بخط يده. ولكن لماذا بخط يده؟ لأن موظفيه يعرفون أنه لا يجيد الطباعة على الآلة، وإذا ماأعطاهم خطبة مطبوعة، فسينكشف أمر وجود شخص آخر شارك بإعدادها.

عدنا معاً إلى قاعة المعاهدات بعد أن سلمته الأوراق، وبحثنا مسألة قدرته على الاستمرار في إخفاء اشتراكي معه. قال إن المكلفين بكتابة خطبه يجلسون في مكتبه الرسمي

بالجناح الغربي ، بينما نحن نعمل خفيةً في الجناح الشرقي . وتابع قائلاً : «أنا أحب الحيل والاستخفاء ، ولهذا أحبك» ثم استدرك بسرعة مضيفاً : «أعني أن هذا أحد أسباب حبي لك» .

لماذا السرية والاستخفاء؟ لقد اعتقدت دائماً أنه يفعل ذلك ليحميني ، آخذاً باعتباره رغبتي في أن أرى الأمور تسير على ما يرام قبل أن أشعل النار في علاقاتي مع الجمهوريين وأعلن التزامي معه . إلا أنني أشك الآن بأن السبب الحقيقي هو رغبته بالاستئثار بي لنفسه ، لا يشاركه في ذلك حتى موظفوه . فهو ، كرئيس ، حر مستقل ، لا يعتمد كثيراً على طاقم موظفيه ، لأن أغلب الموظفين يحملون الولاء ليس للرئيس وحده ، بل لشلتهم في الحزب أيضاً . وأراد عن طريقي أن يبسط سلطانه على موظفيه ، دون أن يترك لهم الاستفادة من أفكاري ، ليبسطوا بواسطتها سلطانهم عليه .

كان لوت يعرف بالطبع كل شيء عن دوري مع كلينتون ، ولكن لا أحد من الجمهوريين غيره يعرف . إذ لم أشأ أن يعرفوا ، قبل أن أتأكد من تأثيري الكافي على استراتيجية كلينتون ، ليكون بقائي معه جديراً ويستحق العناء .

★★★★

كانت هذه الخطبة الموجهة إلى الحكومة الاتحادية هامة جداً بالنسبة للرئيس ، فهي بمثابة رد على تحدي الحزب الجمهوري الأمريكي الذي تعاظم إثر انتصار عام ١٩٩٤ ، وأعطى الحزب السيطرة على مجلسي الكونغرس لأول مرة منذ عام ١٩٥٢ — فقد أسرع الجمهوريون بالتقدم ، كدبابة حربية ألمانية تهاجم روسيا عام ١٩٤١ . إلا أنهم في تقدمهم الخاطف الطائش هذا ، تجاهلوا مسائل دفاعية ثقيلة مثل السيطرة على الأسلحة وإبطالها ، تماماً كما فعل الألمان حين تجاهلوا الدفاعات الثقيلة في المدن وهم مندفعون للاستيلاء على البلاد . لقد ركز الجمهوريون أنظارهم على هدفهم الرئيسي : إلغاء ستين عاماً من النمو الحكومي ، والعودة إلى شعار «الصفقة الجديدة» . فطالبوا بالتخفيضات في حماية البيئة ، وبالتخفيف من تحاليل واختبارات اللحوم والدواجن ، وبتنظيم الغذاء والدواء ، وبتخفيض الضمان الصحي للفقراء ، وبإنقاص معايير دور العجزة ، وبتخفيض برامج التغذية التي تتضمن وجبة غذاء مجانية في المدارس الابتدائية ، وتخفيض كل دور فيدرالي في مجال التعليم ، وتخفيض امتيازات وحقوق الطبقة المتوسطة في الرعاية الصحية .

أما في بعض المسائل مثل إصلاح المعونة الاجتماعية وتخفيض العجز في الميزانية ، فقد تركوها للأغلبيات الشعبية . أما ما عدا ذلك ، فقد خلفوا تأييدهم السياسي له وراء ظهورهم .

لكن هجوم الجمهوريين الكاسح لم يلق بالاً إلى افتقارهم لرديف سياسي يدعم تموين خطوطهم الخلفية، هو المساندة الشعبية.

في تلك الأثناء، كان قادة الديموقراطيين يتصرفون وكأن الانتخاب الأخير لم يحصل. فدافعوا بعناد عن كل شبر من أرض البيروقراطية، إلى حد تصورت معه أنهم يظنون هزيمتهم مجرد خطأ مطبعي. وبدا كما لو أنهم ينتظرون إعادة عد الأصوات ليجددوا وصايتهم، ويتابعوا تضخيم الحكومة الفيدرالية وتكبيرها. قالوا لا لكل تخفيض، ثم قالوا لا، وبدت لي استراتيجيتهم استراتيجية حمقاء. فقد قال الناخب كلمته وعبر عن رأيه، وأصبح تجاهل هذا الرأي انتحاراً. ولكن بما أن البرنامج الجمهوري ما زال منشوراً، فقد بات من الواضح أنه أيضاً لن يروج في أمريكا كصفقة وحيدة منفردة، لما فيه من إهانة لجميع الاعتبارات التي تحمل معنى «الأرضية العامة» للشعب الأمريكي، كما دعا إليها وسماها الرئيس كلينتون.

لقد أثار غضب الرئيس حقاً ما يفعله الجمهوريون، واعتبر كل ضرر ينجم عن اقتراحاتهم موجه إليه شخصياً، وكان يضرب المثل بطفل لا يستطيع الحصول على وجبة غداء ساخنة في المدرسة، أو بمراهق انقطعت منحته الدراسية في الجامعة. كانت ليبراليته أساسية في هذه المسائل التي لا تتم معالجتها بشكل عقلاني، فهي تعكس معاناة طفل فقير من أركنساس، نشأ عالة في دراسته على الصدقات والهبات، وعلى أمور أخرى في حياته المبكرة. أحياناً، حتى حين نكون معاً لوحدنا ويضطر إلى إقناعي، كان يلوّح بقبضته في الهواء وهو يشتم بصوتٍ عالٍ فقرة من تخفيضات الجمهوريين. وكان ذلك يذكرني بتعليق الملكة فيكتوريا على رئيس وزرائها ويليام غلادستون، الذي خاطبها كما لو كانت في جلسة علنية.

أما بالنسبة للمجالات التي تم تطبيق برامج التنمية فيها بالماضي بشكل خاطىء، فقد كنت أشاطر الرئيس معاناته وتجربته. ناقشنا، على سبيل المثال، عيوب برنامج جونسون «المجتمع العظيم» بجميع مكاسبه: القروض التي لم يسدد الطلاب أقساطها، مستحقو المعونة الاجتماعية الذين سقطوا في فخ الاعتماد على الغير طيلة حياتهم بدلاً من دفعهم للاعتماد على الذات، برامج مقاومة الفقر التي تحولت إلى مراكز للتدريب المهني ثم إلى عيادات لإعادة تأهيل مدمني المخدرات، ثم تغيرت وتبدلت مع كل زي وبدعة، بينما البيروقراطيون باقون ورواتبهم سارية، والفقر باقٍ على حاله لا يتغير.

لقد رسمنا قراراتنا في أركنساس حول الانطواء على الذات والنرجسية في الثمانينيات، حين كان الناس يتجاهلون المشاكل الاجتماعية ويجهلونها، ويقيسون النمو بالمنافع الشخصية فقط. أما الآن فنحن ننشد توليف وجمع أهداف «المجتمع العظيم» و«الحب الجارف

القوي » ، ضمن مفاهيم النظام والقواعد والمسؤولية التي تؤكد الواقعية ، والتي يستهدفها الجمهوريون من خلال إقامة البرامج الاجتماعية الحكومية .

توصل كلينتون في أركنساس إلى مدخل جديد للمسألة المركزية في التعليم ، يشمل ما يدعو إليه الجمهوريون من نظام وقواعد ، كما يتضمن ما يطالب به الديموقراطيون من رفع رواتب المعلمين . وحين رأى كلينتون نجاح هذا البرنامج على الصعيد السياسي ، التفت ليراه كفاتحة خير لبرنامج عمل وطني . وحين اندفع كلينتون للدخول في سباق الرئاسة عام ١٩٨٨ ، تجادلنا معاً وناقشنا أفكار دانييل يانكلوفيتش بكتابه الصادر عام ١٩٨٨ بعنوان « القواعد الجديدة » والذي يتتبع فيه يانكلوفيتش خط أمريكا عبر ثلاث مراحل من الأخلاق الاجتماعية فيها على مدى خمسين عاماً . أولاً : سنوات إنكار الذات ، التي قادها جيل الآباء متجنبين مسألة المنفعة الشخصية في سبيل أولادهم . ثانياً : أخلاقيات المنفعة الشخصية التي تجعل من الاستهلاك واجباً أخلاقياً عند شبابنا المندفعين .

ثم أصبح إنكار الذات يعتبر مرضاً عصابياً ، وكبتاً خطيراً للدوافع عند الفرد . وخلال الثورة الجنسية في الستينيات ، وعصر الأنا في السبعينيات ، ومغامرات اللذة والانغماس في الأنانية وحب المال في الثمانينيات ، عركنا الحياة حتى آخر حدودها . لكن يانكلوفيتش أوحى لنا أن ثمة جانباً أخلاقياً اجتماعياً بدأ ينشأ ويتطور ، هو جانب الالتزام . ويستشهد كدليل على قوله بتناقص تيار الاتصالات الجنسية غير المشروعة ، وتعاطي المخدرات ، وتناول المسكرات ، إضافة إلى تناقص حالات الطلاق . وبدأنا معاً ، كلينتون وأنا ، نرى في الجانب الأخلاقي من الالتزام نموذجاً يحتذى كأساس لقوة سياسية جديدة هي : الليبرالية المتقيدة بالقواعد . أعط الفقراء ، وطالبهم بالأداء المتقن والمسؤولية بالمقابل.بالنسبة لتفكيري ، الجانب الأخلاقي لمقولة : « أعط .. وطالب » يدمج الكرم الليبرالي مع الواقعية المحافظة .

هذه القوة الجديدة في سياساتنا أصبحت شعار كلينتون في عام ١٩٩١ تحت اسم « الفرص المتاحة ــ المسؤولية ــ روح الجماعة » الذي أعلنه في حملته الانتخابية للرئاسة ، والذي مسخه فيما بعد تحت اسم « الميثاق الاجتماعي الجديد » ، وأعلنه حين قَبِل ترشيح الديموقراطيين له في عام ١٩٩٢ .

لم يكن عند الحزب الديموقراطي شيء من هذا كله . « أعطني دين الأيام الخوالي فهو يكفيني » هذا ما كان يتغنى به الديموقراطيون وهم يعودون إلى ارتكاب كل الأخطاء التي أدت إلى رفضهم انتخابياً في الدرجة الأولى . إنهم لم يتجاهلوا الرفض في عام ١٩٩٤ وحسب ، بل تجاهلوا أيضاً كل رفض سبق أن قوبلوا به في أعوام ١٩٨٨ و١٩٨٤ و١٩٨٠ و١٩٧٢ .

في يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٥ ، شجعت الرئيس وحثثته على أن يلعب هذه المباراة الفاصلة ، بالإعلان عن رغبته بالعمل مع قادة الديموقراطيين الجدد في الكونغرس . دفعته على الظهور ، قدر الإمكان ، بمظهر المنفتح على القيادات الديموقراطية ، ليريهم أنهم مرفوضون وغير مقبولين بسبب تطرفهم ، وليس بسبب احتقارنا للإرادة الشعبية وعنادنا .

ووافق الرئيس . واتخذ قراره الهام بعدم الوقوف مع اليسار الديموقراطي في رفض كل ما يحاول الجمهوريون أن يفعلوه . كان قراراً شجاعاً وحكيماً أنقذ في النهاية الحزب الديموقراطي من نفسه . فحين هاجم الآخرون كل التشريعات الجمهورية باعتبارها متطرفة ، كان الرئيس يمزج النقد بالموافقة على الجوانب الحسنة من برامج الجمهوريين . ومضى في هذا السبيل ، أولاً بالتوقيع على مشروع قدمه الجمهوريون يترك للكونغرس تصديق القوانين التي تنظم القطاع الخاص ، ثم بالموافقة على تشريع يجمد الوصاية الفيدرالية على الودائع المصرفية للولايات ومواردها المالية .

****

طلب مني الرئيس لإعداد خطابه أمام الحكومة الاتحادية ، أن أقوم باستطلاع رئيسي أم ، وهو مسح وطني ضخم يختبر ويحلل كل جانب من جوانب الهجوم العدواني الجمهوري . وكان الهدف توضيح المنطلقات المحددة لكلينتون في برنامج إتاحة الفرص مقابل المشاركة بالمسؤولية .

كان المسح يتضمن ٢٥٩ سؤالاً . وكان يجب تقسيمه إلى خمسة أقسام ، إذ لا أحد يرغب بقضاء ساعات على الهاتف للإجابة على كل الأسئلة . كان أطول استطلاع قمت به ، واتّبعنا نتائجه خلال عام كامل من المعارك مع الجمهوريين على اقتراحاتهم بشأن الموازنة .

كان مثيراً جداً ذهابي لمقابلة الرئيس يوم الخميس ١٩ يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٥ ، لأقدم له موجزاً كاملاً عن النتائج . واستلزم الأمر خمس ساعات لألخص له السندان الذي سيضرب بمطرقته السياسية على أساسه .

كان جوهر الاستراتيجية التي انبثقت من نتائج الاستطلاع هو قبول جوانب من المبادرة الجمهورية ورفض جوانب أخرى . نحن نعمل على التخلص من العجز في الميزانية ، وعلى إصلاح المعونة الاجتماعية ، وعلى تخفيض الضرائب وعلى التقليل من البيروقراطية الفيدرالية . ولقد استطاع الرئيس بالفعل أن ينقص من عجز الميزانية ، دون أي مساندة من الجمهوريين ، بواقع ٦٠٪ وأن ينقص القوى العاملة الإدارية الفيدرالية بإلغاء ٢٥٠ ألف وظيفة مكتبية ، أي أكثر من ١٠٪ من المجموع الإجمالي . لكننا نرفض بالتأكيد وبكل تشدد

وصلابة محاولات تخفيض مكاسب الرعاية الصحية ، وإلغاء الدعم الدوائي ، وإضعاف قوانين حماية البيئة ، وتخفيض المعونة الفيدرالية للمدارس . وكما ورد في الملخص الذي قدمته للرئيس : « تخفيض الرعاية الصحية هو سلاحك الوحيد ضد الجمهوريين ، فالتخفيض مكروه عند الجميع كهولاً وشباباً » .

التقينا طوال يوم الاثنين ٢٣ يناير / كانون الثاني لنشتغل بالخطاب . وحين كتبناه ، كان الرئيس محتدماً من عدم قدرتنا على جبر كسور موقفنا بنهاية منطقية . « الجمهوريون يستطيعون ذلك ، أما أنا فلا أستطيع . إنهم يقولون : « نحن مع حكومة أصغر وضرائب أقل ، ونحن مع إصلاح المعونة الاجتماعية وإعادة التنظيم ، والحدّ من الهجرة الوافدة ، ومع جوهر القيم الاجتماعية . نحن مع ضبط موازين دور الحكومة بالتدخل في حياة الناس . المشكلة في الحكومة وليس في الحل » ، قال كلينتون هذا متفاخراً بقدرته على ارتجال شعارات الطرف الآخر ثم أردف : « إنني أجيد تماماً فهم منطقهم ، فأنا أحفظه عن ظهر قلب ، ولكن ماذا عن منطقي أنا ، وما هو شعاري ؟ » .

قلت : « إنه الفرص المتاحة والمشاركة بالمسؤولية » فأجاب عابساً : « إنه شعار لا يخطف الأبصار كشعارهم » . بعد ساعات من العمل المتواصل ، استدعاني إلى غرفة الملابس ١ أن نقح الخطاب وهو يرتدي ملابسه استعداداً لحفل توقيع أحد المشاريع . « هذه سر-ـ جدا .. وهذه ليس فيها لمسة إنسانية كافية .. وهذه لا تفيدني بشيء في منطلقاتي السياسية .. وهذه ليس فيها طابع رئاسي كافٍ .. » .

كان يمكن لأي كاتب خطابات آخر أن ينتحر أو أن يقتل ، لكنني عملت مع كلينتون مدة تكفي لأعرف أنه أكثر سرعة في تنفيذ قراراته ، منه في نقدها وتلخيصها . فهو بطيء في مناقشتها ، مضحك ، ساخر ، هازىء ، ويقسم الذي يستمع إليه أنه لن يفعل ما قرر بالأمس أن يفعل ، وما سيفعل غداً . كل ما يصنعه هو أن يعبِّر عن شكوكه بصوت عالٍ ، ليسمع وقعها على الأذن . ثم يصوغها بصمت بحسب الحالة أمامه ، دون أن تعرف أنه يفعل ذلك وأنت تستمع إليه . وكنت أعرف بفضل خبرات سنين طويلة ، أن مجرد نقده للنص يعني أنه معجب به .

حين رجع من حفل التوقيع ، عدنا إلى العمل في المسودة ، ثم ذهب ليجلس مع كتّاب خطبه لمناقشة النص . فيما بعد ، قال دون باير مرة أخرى ، كم كان غريباً وخفياً أمر هذه المسودة الجديدة . لعدم علاقتها بتاتاً بأية مسودة أخرى سابقة ، وكأنها هبطت من الأعالي بدون بصمات أو علامات فارقة . « في البداية نزلت خطبة « الكشف الإلهامي المنزه

عن الخطأ » ، والآن (يقول دون) ، بدا الأمر أشبه بمراقبة كوكب نبتون . فأنت لا تستطيع رؤية بلوتو ، لكنك بدلالة نبتون يصبح بإمكانك أن تجزم أن بلوتو في مكان ما هناك » .

كانت ملاحظات باير وتعليقاته تؤكد أنه لا أحد كان يعرف شيئاً عن هذا الـ« بلوتو » الغامض .

كان ما ظهر للعيان فعلاً خطبتان . إحداهما كثيفة مركزة العبارات ، توصل خلال أربعين دقيقة رسالةً تشرح أين يتفق الرئيس ويلتقي مع الأهداف الجمهورية وأين يختلف معها بشدة . فصيحة اللحن ، رنانة التعابير أحياناً ، وكانت أول خطبة منذ هزيمة عام ١٩٩٤ فصَّل فيها الرئيس شرح مذهبه الحكومي في إتاحة الفرص والمشاركة بالمسؤولية ، بديلاً عن « لا للشرطة والأمن الحكومي » ، الذي يدعو إليه الجمهوريون . قال : « يجب ألا نطلب من الحكومة أن تقوم عنا بما يجب أن نقوم به لأنفسنا . علينا أن نعتمد على الحكومة كشريك يساعدنا على أن نعمل لأنفسنا ، وعلى أن يعمل كل منا شريكاً للآخر » .

في المقطع الأخير من الخطبة ، ذهب الرئيس ودون باير بكلماتي إلى معنى آخر ، فجاءت متعالية ، رئاسية ، تعبر عن قيادة وطنية ما زالت في بداية التحكم بها والاستحواذ عليها . لكنها كانت مقبولة جيدة ضمن هذه الحدود .

إلا أن القسم الثاني من الخطاب كان ثلاثين دقيقة من التسامح الذاتي والانتقال غير المركز من موضوع إلى آخر . لكن يبدو أن الأمة فهمت مما ورد في هذه الدقائق الثلاثين ، أكثر مما فهمت أنا ، ومما فهمت الصحافة . نحن أمام رجل هوجم بوحشية في الانتخاب ، وها هو الآن يتدفأ تحت شمس الأمة ، ويتنعم تحت الأضواء الساطعة في المسرح الوطني ، متلذذاً بموجات التصفيق والاستحسان التي تنهال عليه . في تلك اللحظة ، رأيت فيه رجلاً مطمئناً ، راضياً عن نفسه ، منطلق العنان مع صيحات الإعجاب ، لكنني لم أر فيه رجلاً يخطب . في تلك الدقائق الثلاثين ، رأت الجماهير كلينتون في أحسن حالاته ، دون تكلف ودون مظاهر مصطنعة ، يستمتع صادقاً بالتحدث إليهم ، كصديقين يجلسان على المقاعد الطويلة بمطعم ماك دونالد ، ويثرثران وهما يتناولان الهمبرغر والقهوة مع رئيس البلاد . لقد ارتاحوا كثيراً إلى اللغة غير الرسمية ، والأسلوب المألوف المحبب ، بغضّ النظر عما بدا لي أنه مضجر وممل .

كنت حينها مرعوباً مذعوراً . قلت له في اليوم التالي إنه كان أشبه بالحاخام الرب في صلوات ليلة السبت الذي طال شوقه كثيراً إلى مستمع واحد في الكنيس خلال الأسبوع كله ، ثم لم يستطع حمل نفسه على إنهاء الموعظة .

دافع كلينتون عن نفسه ضد اتهام الصحافة له بأن الخطبة كانت طويلة كثيراً فقال : «لقد كانت خطبة لا تتجاوز بالفعل الأربعين دقيقة ، لكنني لم أتوقع أن يصفقوا بهذا الشكل» . لقد رفضتُ وقتها هذا التفسير وأسميته «دفاع محاسبين» ، لكنني قررت بأن البلاد أعجبت بالخطاب ، مما رفع من معدل علاماته بالنتيجة .

لقد أثمرت الخطبة بشكل أو بآخر . وبدأت أرقام الاستطلاع تتحرك أخيراً . حين انضممت إلى الرئيس في نوفمبر / تشرين الثاني كان مهزوماً أمام دول بحسب استطلاعاتي بنتيجة ٣٣ ـــ ٤٩ ، أما الآن فقد بدأ يرتفع بالتدريج . إن بضع نقاط ليست شيئاً كثيراً يذكر ، لكنها مع ذلك بداية تحرك ، فقد ارتفعت علاماته إلى أعلى مما كانت عليه منذ شهور . وتوهجت شعلة آمالي مرة أخرى ، فلعل ثمة سبيلاً للنجاة .. أو ربما ليس ثمة سبيل .

****

غادر الرئيس المدرج منتصراً بعد أن سلّم رسالته المعتدلة ، وهاجم منتقداً المعتقدات التافهة للموظفين الليبراليين ولقيادات الديموقراطيين في المجلس التشريعي ، مما أدى إلى إطلاق النار أسبوعياً على البيت الأبيض في فبراير ومارس / شباط وآذار من عام ١٩٩٥ .

وهبطت معدلاته لتعود إلى حيث كانت في الخلف ، وكما كانت كئيبة موحشة تغم الصدر .

أسبوعياً خلال شهري فبراير ومارس / شباط وآذار ، كان الجمهوريون في المجلس التشريعي يعبئون صفوفهم في مجموعة واحدة بإمرة نيوت غينغريتش ، ويمررون الاقتراح تلو الآخر لإنجاز مشروع «العقد مع أمريكا» . وبدا أن على الديموقراطيين والبيت الأبيض معارضة كل خطوة ، في أعنف قتال حزبي شهدته واشنطن خلال عقود من الزمن . وانفجر الهياج ، وتطايرت الإهانات ، لكن زحف قوات الهيئة التشريعية استمر دون انقطاع : مشروع قانون للجمهوريين حول الجريمة ، مشروع قانون لإعادة التنظيم الإداري ، تعديل الموازنة ، مشاريع قوانين تجزئة مخصصات الإنفاق على البيئة والتعليم وتعويض الأضرار ، وغيرها .. وغيرها . ولم تبق للرئيس أية علاقة ، بعد أن صار المجلس التشريعي يسوق الحكومة .

كان شهرا فبراير ومارس / شباط وآذار ، فترة سلطان إدارة غينغريتش . حتى دول الذي كان بين الثوار الجمهوريين لم يستطع أن يقفو أثر زميله في المجلس التشريعي . واختفى كلينتون حتى لم يعد له وجود ، وشهدت الأمة كيف طحنه جمهوريو الكونغرس وسحقوه هو وأهدافه وجدول أعماله . وكان مشهداً مدمراً .

خلال تلك الفترة ، كنت مازلت تشارلي المجهول من الجميع عدا الرئيس . وتابعنا اجتماعاتنا الأسبوعية ، حيث انضم إلينا دوغ شوين في ٨ فبراير / شباط ، بعد أن تغلب الرئيس على قلقه بشأن المشرف على تنفيذ الاستطلاعات ، وبعد أن رأى مستشاراً سياسياً ذكياً ومشرفاً مناسباً .

وشعرت أنني غريب دخيل معزول ، كما لو أنني من موظفي البيت الأبيض . كنت في كل أسبوع أعطي الرئيس النصيحة ذاتها : تحرك نحو المركز ، وفي كل أسبوع كنت أنتقد خطابات الرئيس ، لأنها لا تقدم بدائل إيجابية لتخفيضات الميزانية التي يهاجمه الجمهوريون بسببها . وكنت أناقش أننا مادمنا ننطلق من الخط الديموقراطي في الكونغرس ، ونتصيد المعارضين عند نقطة التخفيضات في الوجبات المدرسية والرعاية الصحية ، فلن نصل إلى شيء . قلت : «الديموقراطيون في الكونغرس يريدون فقط أن يعيدوا معارك انتخابات عام ١٩٩٤ ، وأن يبعثوها في هذا الوقت بالذات ، الأمر الذي لم يحصل » . وناشدت الرئيس أن يأتي ببديل ، بدلاً من أن يلعن التخفيضات الجمهورية على الميزانية .

قال الرئيس إنه يوافقني ، فقد أحس هو أيضاً بأنه بدا ضعيفاً وليبرالياً لفشله في متابعة الاتجاهات الجديدة التي خطط لها في حكومة الاتحاد . وتحدث مطولاً عن الحاجة إلى التحرك نحو توازن أكثر ونقد أقل للمبادرات الجمهورية ، وانصرفت يومها إلى البيت سعيداً . إلا أن خطاباته أسبوعاً بعد آخر ، بدت ببساطة كأنها صدى استسلام المعارضة لمقترحات الجمهوريين حول الميزانية ، الذي يعلنه على أرض المجلس التشريعي قادة الديموقراطيين أمثال ديك غيبهارد ودافيد بونيور .

وكان الرئيس ، عندما أتذمر وأحتج ، يضع فقرات في خطاباته مما يتفق عليه الحزبان ، ويعرض علي مقتطفات من النص ، كانت نشرات الأخبار تتجاهلها ، يكرس نفسه فيها لقضايا التخفيضات الضريبية ، وتقليص حجم ودور الحكومة ، وتوازن الميزانية . لكنه كان يصوغها بشكل يختلف عن النهج الجمهوري . والواقع أنه لو كان ٩٠٪ من الخطاب إيجابي يوافق عليه الحزبان ، و ١٠٪ منه نقد لاقتراح جمهوري ، لتمت تغطيته في صورة هجوم سلبي على غينغريتش ، ولبقيت الإيجابيات كلها بدون تغطية . وبدأت أرى في هذه الخطب حبراً مائياً . ٩٩٪ منه ماء و ١٪ حبر ، ورغم ذلك يبقى ماءً محبراً لا يمكن شربه .

سقطت معدلات الرئيس في الاستطلاع إلى مستويات ماقبل خطاب الحكومة الاتحادية في فبراير / شباط ١٩٩٥ ، وسقطت معه معدلات الحزب الديموقراطي ، إلا أن معدلات الجمهوريين في الكونغرس بحلول مارس / آذار كانت على رأس الساقطين في الجنوب

أيضاً. فما الذي حدث؟ انخفاض شعبية الحزب الجمهوري الامريكي شدت من عزيمة الأحرار في الإدارة والكونغرس، فخططوا لتغيير الزاوية. وكنت واثقاً من أنهم أخطأوا في التشخيص كما أخطأوا في العلاج. لقد برهنت على أن سقوط المعدلات وانحدارها يوحي بأن الجماهير شبعت من انفعالية كلينتون ومن تطرف الجمهوريين، وجاءت المعدلات لتعكس الامتعاض من عجز الكونغرس والبيت الأبيض عن التحرك والمضي قُدماً، هذا الامتعاض الذي قد يشل الرئيس ذاته على المدى الطويل. قلت لكلينتون يوم ١٦ مارس/آذار «لن تستطيع الفوز إذا اعتقدت البلد بأن الأمور تسير إلى الجحيم. فأنت ما زلت في منصبك، وبإمكانك من هذه الزاوية أن تتقاسم العطاء مع الجمهوريين. ونحن نصعد أو ننزل معاً سواء عملت الحكومة أم لم تعمل في نظر البلد. أنت جزء من الحكومة قبل أن تكون ديموقراطياً، وحين تصبح الحكومة حكومة حزب واحد دون أن تنجز أو تحقق شيئاً، فإن معدلات الجميع ستسقط».

اشتكى الرئيس وتذمر من أن كل خطاباته ليبرالية. قال: «أقف هناك، فإذا كل من أمامي ليبراليون، وشعبيون، وموظفون حزبيون. أنا بحاجة إلى خلفية أكثر توازناً في خطاباتي».

تشوشتُ واختلطت عندي الأمور، ووددت لو أسأله: «لماذا لا تكتبها أنت إذن؟ أليس الفم فمك والصوت صوتك؟». لكنني لم أسأله لأن الجواب واضح.

الحقيقة التي تعلمتها بمرور الشهور هي أن الرئيس كلينتون في صراع مستمر مع موظفيه، ولم يكن قانعاً مسروراً. قال لي في خلوة خاصة بمكتبه: «لقد قضيت كل وقتي قبل استلام المنصب وأنا أنتقي وزرائي. رتشارد نيوستاد المؤرخ الرئاسي كان هنا منذ بضعة أيام، وأخبرني أن لدي أحسن مجلس وزراء منذ عهد جيفرسون. إنه مجلس وزراء عظيم. إلا أنني لم أقضِ الوقت اللازم في انتقاء الموظفين. اتصلت فقط بالذين ساعدوا على انتخابي ووضعتهم في طاقم الموظفين، وكانت غلطة».

مرة بعد أخرى، يشير بسخرية إلى موظفيه بعبارة: «الأطفال الذين ساعدوا على انتخابي» وقد يضيف كلمة «البالغين» في البيت الأبيض. لماذا لم يطرد باقة منهم ويحضر أشخاصاً جدد؟ عملياً، لقد احتفظ بهم جميعاً، رغم أنهم كانوا مسؤولين عن أعظم هزيمة في الانتخاب الانتصافي لرئيس يمارس صلاحياته منذ عام ١٩٤٦، حتى أنه لم يبدل طاقم العلاقات مع الكونغرس في فترة تحكم الجمهوريين به وسيطرتهم عليه.

لعله كان يخشى لو طرد أحداً من عمله أن ينقلب عليه ، أو أن يتهمه ، أو أن يسرّب معلومات تضره ويتحول إلى عدو . حين سألته لماذا لم يطرد موظفيه ، أشار بفخر إلى نجاحه في طرد دافيد دراير ، أحد المساعدين في البيت الأبيض قبل قدومي إليه . قال إن دراير كان مسرّباً كبيراً للقصص والحكايا إلى الصحف : « لقد اقتضاني طرده من البيت الأبيض شهوراً » . ولكن ، لماذا لم يستطع الرئيس ببساطة أن يستدعي بانيتا ويأمره بطرد دراير ؟ هذا ما لم أفهمه . لعل ذلك ليس أسلوبه في العمل .

طاقم الموظفين في البيت الأبيض يديره ليون بانيتا، المقيم الدائم فيه ، والعضو السابق في الكونغرس . كان بانيتا يحترم المؤسسات الحكومية ، وينظم التشريفات الرسمية ، ويمقت الحيل والمراوغات ، ولا يثق بالعفوية غير المدروسة ، عظيم الوفاء لجماعته من الديموقراطيين في الكونغرس ، رغم أنه بدا لي أول الأمر ليبرالياً . كان كلينتون يقول عنه : « ليون ليس ليبرالياً » ، هذا صحيح ، كان فقط من مؤسسي الليبرالية .

لبانيتا اثنان من المساعدين في إدارة الطاقم ، هارولد آيسكيس وإرسكين بولز ، لا يشبه أحدهما الآخر البتة . آيسكيس مقاتل شوارع ، كنا ، هو وأنا ، خصوماً في الطرف الغربي من مانهاتن منذ عقود مضت . عمليّ ، صلب ، متحجر القلب ، عنيد ، فيه كل صفات المحارب الحقيقي . أما إرسكين فغني أرستقراطي أنيق من الجنوب ، رجل أعمال ناجح دخل عالم السياسة ساذجاً . كرجل أعمال ، يدير الأمور بشكل جيد ، أما كسياسي ، فما زال طريقه طويلاً رغم أنه يتعلم بسرعة . كان إرسكين خادم كلينتون الوفي ، وباعتباره عديم الفكر والتجربة فهو أشبه بقطعة من الحجر البللوري المصقول ، يعكس الصورة بإخلاص ، وينفذ المطلوب باقتدار . وهذه هي أول الأولويات عند كلينتون .

خلف هؤلاء الثلاثة ، يقف العقل المحرك للطاقم ، جورج ستيفانوبولوس . ودود ، دمث ، ساحر ، وذكي . كانت أفكار جورج واقتراحاته هي التي تسوق الطاقم قبل قدومي ، فهو ليبرالي جمع جنون الجمود في الفكر مع المرونة البارعة اللامحدودة في التكتيك . وفي الصراع بين الرئيس وطاقمه ، كان لكل جانب صلاحياته ونفوذه .

كان السلاح الرئيسي الأول للطاقم ، هو القدرة على انتقاء المعلومات التي يتلقاها الرئيس . فكلينتون لا يقرأ الصحف ، لكنه يحصل كل يوم على قصاصات من أكثر من اثنتي عشرة صحيفة : واشنطن بوست ، نيويورك تايمز ، شيكاغو تريبيون ، لوس أنجيلوس تايمز ، أمريكا اليوم ، وول ستريت جورنال ، واشنطن تايمز ، ميامي هيرالد ، بوسطن غلوب ، هارتفورد كاورانت ، جريدة الحزب الديموقراطي في أركنساس ، وغيرها . كما يتضمن الملف أيضاً ملخصات عن نشرات أخبار الليلة الماضية .

لكنني لا أظن أنه كان يقرأ هذه القصاصات . فكثيراً ما أذكر له قصة على جانب كبير من الأهمية في الصفحة الأولى من نيويورك تايمز أو واشنطن بوست ، أول قصاصتين في الملف ، لم يكن قد رآها من قبل . وغالباً ما كان لا يعرف شيئاً عن نشرات الأخبار المسائية . فبدأت في الاجتماعات الأسبوعية أضع له ملخصاً لمضمون النشرات الإخبارية التلفزيونية ، وأحياناً لعناوين الصفحة الأولى من ٢٥ صحيفة تصدر في البلد وكانت كلها معلومات جديدة عليه .

إلا أنه لم يكن يبخس سلطة الصحافة حقها . قال في مارس / آذار من عام ١٩٩٥ : « الناس لا يفهمون أن الصحافة هي التي تسيّر الحكومة » . ويعني الصحافة كما يراها شخصياً ، التي تعكس كل قصة فيها اتجاهات الكاتب أو المحرر . لكن المحررين والكتاب في الصحافة يحبون قتل الناس ، بالصخور التي يرمونهم بها . وكان يبدو جلياً من داخل البيت الأبيض أن ثمة خلطاً بين الشك ، لأن الحذر ضروري ، وبين النقد الساخر الجارح الذي يهري الصدور . يظن بعض المحررين أن هدف المرشح ليس رواية القصة الحقيقية ، بل خلق دافع محرك يحسّن به [illegible] السياسي . والخوف من الخداع يدفع إلى افتراض أجوبة تفسيرية سلبية لكل مبادرة أو إبداع . فلو وجدت هذه الشكوك وتم تطبيقها في مجال الأعمال ، حيث دافع الربح يأخذ مكان المحرك الانتخابي ، لجاءت القصص بالشكل التالي :

« أعلنت شركة جنرال موتورز اليوم ، في محاولة لزيادة أرباحها ، أنها طوّرت سيارة تسير دون بنزين ، وتعمل في الوقت نفسه بمحرك احتراق تقليدي . وخوفاً من أن تفقد موقعها الطليعي المنافس ، وفي ضوء سوء الإدارة في الماضي ، فقد قال المراقبون أن إعلان الشركة تم توقيعه ليكون له أكبر أثر على أسعار مخزونها . ولقد تزايد قلق المستثمرين في الشهور القليلة الماضية ... » .

كلينتون يقرأ مقالات الصفحات الأخيرة للصحف بانتظام . فإذا أردت لآرائك أن تصل إلى الرئيس ، فالطريق هو عبر الصفحات الأخيرة من نيويورك تايمز وواشنطن بوست ، أو عبر مقالات في هاربرز والنيويوركي وأتلانتيك ، وصحف قليلة أخرى .

ويسعى الطاقم إلى أن يرى كلينتون مقالات معينة ، وليس غيرها ، وقد يقضي الموظفون طيلة نهارهم وهم يثيرونه بمقالة تلح على وجوب المواجهة مع الجمهوريين ، بينما يخفون عنه أي عنوان أو مادة تحث على الاعتدال والمفاوضة .

كان الرئيس يعرف أن عجزه عن قراءة كل الصحف ، بسبب مسؤولياته وضيق وقته ، جعله عرضة للنقد بلا حدود بسبب رقابة ووصاية موظفيه . فحاول أن يتغلب على ذلك

بإجراء عشرات الاتصالات الهاتفية أسبوعياً مع أعضاء جمعية «أصدقاء بيل» ، ليتبادل معهم الرأي ، ومن بينهم : الصحفيون سيدني بلامينثال وموربت زاكرمان و ج . ديون . إضافة إلى الحاكم السابق نيد ماكويرتر من تينيسي ، والحاكم إيفان باي من إنديانا ، والسناتور جون بروكس من لويزيانا ، والسناتور جو لا يبرمان من كونيكتيكت ، وآل فروم رئيس مجلس قادة الديموقراطيين المعتدلين، وآخرون .

تحكم الموظفون أيضاً ببرنامج عمل الرئيس . إذ غالباً ما لا يتوفر له الوقت ليفكر أو ليتصرف على هواه ، وغالباً لا يتوفر له الوقت للنوم . برنامج الرئيس لا محل فيه لاجتماع مع السياسيين المحليين ، أو لإلقاء كلمة فيهم . وحين يسافر ، يحشون له يومه ومساءه بالاجتماعات المتتالية بلا توقف ، مع كل زعيم محلي أو ممول مالي يلمّونه له . كان يغادر البيت الأبيض في السادسة صباحاً فلا يرجع غالباً قبل الواحدة بعد منتصف الليل . أما في الرحلات التي تستغرق عدة أيام ، كالساحل الغربي الذي يزوره كثيراً ، فيدسون في يده برنامج عمله خلال يومين أو ثلاثة أيام بالدور .

كان كلينتون يوافق مرحباً بكل اجتماع جديد ، ويطلب أن يلقي خطابات ، ويتوقف في محطات استراحة أكثر خلال الرحلة . وكان يرهق نفسه بكل ذلك ، ليستطيع أن يعود ، حسب تعبير نانسي هيرنريتش ، وسلته مملوءة بالفواكه .

وكان كمعظم الناس لا يعمل جيداً حين ينام قليلاً ، رغم أنه يدعي العكس ، ويحتاج كمعظم الناس إلى كثير من الراحة ليعمل بشكل متماسك منطقياً . كما يحتاج إلى ثلاثة أو أربعة أيام بعد رحلة إلى الساحل الغربي ، أو إلى الخارج ، قبل أن يعود أداؤه إلى أحسن حالاته . وأستطيع القول ، على سبيل التخمين : إن الرئيس في ربع الأيام التي عملتها معه كان مرهقاً مستنزفاً ، وفي الربع الثاني كان مريضاً . أضف إليهما ربعاً ثالثاً كان الرئيس فيه خارج العاصمة ، بما فيها الأيام التي يعود فيها بعد منتصف الليل إلى البيت الأبيض ، حين لا يتمكن من متابعة العمل خلف المكتب البيضوي ، إلا بنصف سرعته القصوى . لكن هذا النصف من السرعة القصوى عنده أكبر بالطبع من السرعة القصوى عندنا جميعاً .

وحين يصبح البرنامج المكتظ ألدّ أعداء الرئيس ، يصيح متذمراً شاكياً : «ثمة دائماً مكان عليّ أن أذهب إليه ، وشخص عليّ أن أراه» وكنت أساهم في تخفيف هذه المشكلة بالتخفيف من مطالبي للدعاية والإعلان ، التي كانت تشكل بوجه خاص القسم الأكبر من هذا العبء الثقيل .

كما مكّنه ، حين لا يكون مغرقاً بالعمل والإرهاق ، من التسلل بعد ظهر أيام عطلة الأسبوع إلى ملعب الغولف ، ليأخذ حصة أكبر من الاستجمام بصحبة برنامج عمل خفيف

يستعيد معه نشاطه، عدا أيام الحملات الانتخابية. فقد كان يميل كثيراً إلى التجول حول البيت الأبيض، أو إلى لعب الغولف، حين لا تسمح له برامجه بالذهاب إلى «كامب دافيد» للراحة والاسترخاء.

يقوم الموظفون أحياناً بإغراق الرئيس في بحر من التفاصيل الثانوية، بشكل تصبح معه نظرته العامة إلى الأوضاع غائمة. وفي هذا الخضم من المعلومات والتفاصيل، لم يكن بوسع كلينتون أن يتعمق في تأمل كل المشاكل المعقدة، ورؤية جميع جوانب كل منها، الأمر الذي يضعف أهم وأقوى مصدر من مصادر قوته كرئيس.

فيبدأ، حين نتحدث معاً، بالكلام عن التفاصيل، في وقت يجب أن يهتم فيه بالمضمون والمحتوى العام. ولم أكن أستطيع أن أفعل شيئاً، فأنا مجرد مستشار، وهو رئيس، وعمل المستشار يهدف إلى التركيز على عموم الأمور وشموليتها، أما الرئيس فعليه يومياً أن يتخذ قرارات، ويقوم بخطوات، قد تتسبب تفاصيلها بأذى كبير وضرر هائل. ومن هنا بدأت أفهم اهتمامه بالأمور الثانوية، وأعذر تدقيقه في التفاصيل.

كان كلينتون فريداً في قدرته على ترميز وتخزين واستذكار كومٍ ضخمٍ من المعلومات، لكنه كان أقل قدرة ومهارة في ترتيبها بحسب أولوياتها، وتصنيفها بحسب مراتبها، وتحليلها ووضعها تحت عناوينها. ولهذا كان هذا الكم الضخم من المعلومات يشلّه ويجمده أكثر مما يساعده ويقويه.

وكان الرئيس يعرف أنه غارق في تل من المعلومات، فيتصل بي لنقوم معاً بتفريغها وإعادة ترتيبها قطعة قطعة، ووضعها حيث يجدها عند الحاجة، تماماً كما تفعل البجعة حين تأكل السمك الذي خزنته في كيس منقارها من قبل، ويطلب مني توظيفها فيما نضعه من مخططات عامة. كان يقتبس مثلاً عبارة من إعلان، ومقالاً من صحيفة، ومخابرة هاتفية، تحكي كل منها عن نقطة تختلف عما تحكي عنه النقاط الأخرى، ويطلب رأيي في توافقها أو عدم توافقها مع مخطط تحركنا الرئيسي.

كان أخطر سلاح عند طاقم الموظفين يعيق الرئيس ويشوش عمله، ويقلل من خياراته المتاحة، هو تسريب القصص والحكايا. فكثيراً ما كان كلينتون يفكر باتخاذ موقف ما من موضوع ما، وإذا بمقال صحفي يعلن على لسان «مصدر غير رسمي» عن موقفه وقراره، مما يجعل ردة فعل المقال عند الناس رفضاً أو تأييداً تدخل ضمن عوامل المضي في اعتماد القرار، إذ لو خطر له بعدها النكوص عنه لاتهم بالتذبذب.

ففي ربيع عام ١٩٩٦ مثلاً ، صدَّقت ولاية ويسكونسين على مشروع قانون لإصلاح المعونة الاجتماعية على المدى الطويل ، يهدف إلى تأمين عمل لمستحقي المعونة . إلا أن استكماله تشريعياً استلزم الحصول على براءة ذمة وتنازل من قسم الصحة والخدمات الإنسانية في واشنطن . لكن القسم كان ضد أغلب اقتراحات إصلاح المعونة الاجتماعية ، التي يعتبرها لعنة تحرم الناس من فردوس المعونة . بينما كان الرئيس يريد هذا التنازل لتحقيق الإصلاحات المطلوبة في الولاية ، التي أعلن عنها في الإذاعة بعد تصديق مشروع القانون ، وكررها عدة مرات في مناسبات أخرى . كانت مسألة التنازل هذه معقدة ، إذ ينبغي لمشروع القانون أن يتوافق مع قوانين ولوائح فيدرالية عديدة ، ليس من صلاحيات الرئيس أن يأمر بالتنازل عنها . وبينما هو يفكر بمخرج من هذه التعقيدات التشريعية ، نشرت جريدة نيويورك تايمز قصة على صفحتها الأولى تقوم على معلومات تسربت من قسم الصحة والخدمات الإنسانية ، ترجح أن الرئيس سيعلن عدم الموافقة على طلب ولاية ويسكونسين ، الأمر الذي سبق للرئيس أن نفاه بشدة . ولم يكن أمامه لحل هذه المشكلة التي خلقها المقال إلا أن يوقع على مشروع قانون إصلاحات المعونة بولاية ويسكونسين المحوّل إليه من الكونغرس ، جاعلاً من الموضوع قضية تشريعية موضع خلاف وجدل ، بعد أن صوّرت الصحيفة القصة وكأنها موضوع تذبذب ، وموضوع رجوع في الكلام .

في أحد اجتماعاتنا بعام ١٩٩٣ في المكتب البيضوي ، وقبل أن أنضم إلى غرفة القيادة في المركب ، كان الرئيس مصفرّ الوجه بسبب تسرب قصة في ١٥ أبريل/نيسان حول إضافات ضريبية متوقعة ، كوسيلة لمواجهة نفقات إصلاح الرعاية الصحية . ولم يكن كلينتون قد قرر زيادة أية ضريبة في ذلك العام ، كما كان يشعر بأن هذه الإضافة غير عادلة ، لكون الضريبة يجب أن تدخل أساساً في كلفة الإنتاج ، وألا تضاف على سعر المبيع . وأشارت الصحف إلى أن مصدر القصة سكرتيرة وزارة الصحة والخدمات الإنسانية دونا شالالا .

كان المسرِّبون يشوهون سمعة الرئيس حين ينسبون الفضل لأنفسهم ، أمام الصحافة ، في تحركه الجريء الذكي الاستراتيجي ، مما يرفع المسرِّب في أعين الصحافة ، ويغضّ من قدر الرئيس ، ويجعله يبدو من الوجهة السياسية منساقاً في خط قرارات مرسومة له سلفاً . وكان الرئيس يشعر أن هذا التسريب يسرق منه الفضل في كثير من المنجزات الجريئة التي حققها ، حين يجعلونها تبدو سياسياً محسوبة سلفاً ، بينما هي ليست كذلك .

ذات مرة ، شردتُ عن الخط المرسوم وتجاوزته ، وشعر الرئيس يومها أنني أحاول الحصول على شهرة بهذه الطريقة ، لم يكتم شعوره ، بل احمرّ وجهه صائحاً : « سأقوم بهذا

السباق وحيداً، دون مساعدة أحد إذا اقتضى الأمر» وأردف وقد وصل صوته إلى أعلى طبقاته: «لأتفادى ما حدث لي أسبوعياً خلال عام ١٩٩٢ و١٩٩٣ على يد المساعدين والمستشارين» وضرب بقبضته على مسند كرسيه ثم تابع قائلاً بتمهل: «أنا ملزم ومسؤول عما أتخذه من قرارات، وهذا يتطلب شجاعة وجرأة، تمكّنك من أن تخاطر بكل شيء، ثم يتحول هذا كله على يد بعض الموظفين والمستشارين إلى بوق ينفخون فيه ليرى الصحفيون كم هم أذكياء وكم هم طيبون. سأقوم بالسباق لوحدي أولاً».

حسناً.. أعتقد أنني يومها فهمت المقصود. ومع ذلك أرسلت له فيما بعد مذكرة تقول، إن أبي غالباً ما كان يصيح بي وأنا طفل، وهذا سبب جمود دمي في عروقي حين أسمع أحداً يصيح بي، ورجوته ألا يعود إلى ذلك مرة أخرى.

توم فريدمان، رئيس الموظفين الشاعر الحساس، أقرأني مقطعاً من ترتيلة يهودية عن ضرورة التسامح مع الآخرين في لحظات ضعفهم، أرفقتها مع الرسالة. فاستلمت رداً عليها اعتذاراً خطياً من الرئيس قال فيه: «لعله كان خيراً لي أن أقرأ الترتيلة التي أرسلتها قبل أن أتكلم معك بفظاظة كما فعلت».

كيف أستطيع، في ضوء قناعات الرئيس الصادقة بمسألة التسريب الصحفي، أن أدافع عن كتاب يؤرخ كثيراً من كلماته وخواطره وعلاقاته وأفكاره خلال فترة رئاسته؟ لقد ناقشت هذا السؤال مع الرئيس نفسه في آب ١٩٩٦، قبل عشرة أيام فقط من استقالتي مكللاً بالخزي والعار، فقال بعد أن تأمل المسألة طويلاً: «أعرف أن على كلينا واجب تاريخي، يلزمنا بالحديث عن هذه العلاقة الفريدة من نوعها في التاريخ الأمريكي. أمران فقط أطلبهما منك وأنت تكتب أو تتحدث عن هذه العلاقة، أولهما أن تبدأ بذلك بعد انتهاء الانتخاب. ثانيهما أن تكون عادلاً معي صادقاً مع نفسك، عادلاً مع بيل كلينتون وصادقاً مع ديك موريس».

وآمل أن أكون قد حققت له الطلبين.

كان الرئيس يشعر أن موظفيه يقيدون يديه عن عمد. ففي أكتوبر / تشرين الأول من عام ١٩٩٣، قال على الهاتف: «لقد تحسنت الأمور قليلاً مؤخراً، إنما ما زال علي أن أستمر في مراقبتهم»، وكان دقيقاً محقاً في عبارته، فقد شعر أن تكتيكات الموظفين في تحريف المعلومات، ووضع البرامج اليومية المزدحمة له، وتسريب المعلومات إلى الصحافة، كان مدبراً، ولهذا فقد أتى بي لاستشارتي بعيداً عنهم.

وكان السبب الأكبر في مداورته لهم والتحايل عليهم بدلاً من أن يفصلهم ويستبدلهم بغيرهم، هو أنه بالذات الذي انتقاهم أول مرة، كسفراء من مختلف فئات الحزب

الديموقراطي . لقد صبر عليهم كموظفين يمثلون الأفضلية من حزب العمال أو الأقلية أو الكونغرس التي وفرت له الفوز بالمعركة التمهيدية والفوز بالترشيح للرئاسة .

فلولا دعم طاقم موظفيه له ، أو لنقل لولا عدم معارضتهم له ، لكان من الصعب جداً على الرئيس أن يتحرك ، بغض النظر عن آرائه الشخصية . فلبيان منهج سياسي ما يقوم على التنسيق والتعاون ، ثمة حقائق ووقائع يجب جمعها ، وأصوات معارضة ثائرة في الإدارة يجب تهدئتها ، وقبل ذلك كله ، اقتراحات وآراء يجب تحليلها وفحصها في البيت الأبيض ومكاتب الوزراء ، لرؤية مدى قانونيتها ومعقوليتها وصلاحيتها وعدم إثارتها لغضب مجموعات الناخبين . فالمكسب الأهم للرئيس هو رضى الناخبين وأصواتهم وليس الحكومة والسلطة .

أسلوب الرئيس كلينتون ليس إعطاء الأوامر والتعليمات المباشرة ، فلديه طريقة « شرقية » . فهو ينتظر إلى أن تتحرك القوات ، وهي لا بد أن تتحرك ، في الاتجاه الذي يريده . ثم تأتي تحركاته هو يحكمها طابع التوقيت والتسلسل الزمني أكثر مما يغلب عليها طابع الاجتياح . فإذا شعر بأن القوة في جانبه ، وأن الزمن في صالحه ، ترك لها أن تصل إلى حيث من مصلحته أن تصل . أما إذا شعر بأن الأمور تسير على عكس ما يشتهي ، انتظر ليرى ما إذا كان أفراد هذه القوة سيعارض بعضهم بعضاً ، فإذا فشلت كل الطرق الأخرى في فرض الاتجاه الذي يريده ، قام هو بالتحرك .

كان أمراً غريباً أن ترى رئيساً نشيطاً فعالاً ، يعتمد منهجاً سلبياً في مساره السياسي . إلا أنني كلما طالت خدمتي لكلينتون ، زاد فهمي له ، وزاد إعجابي بطريقته في ترك السنن التاريخية تفعل فعلها ، وفي ترك عجلة الزمن تمضي على هواها دون تدخل أو مقاطعة .

كان أسلوبه إعطاء الإشارات ، لي ولبانيتا وللوزراء وغور وهيلاري ، وانتظار أن نفهم المطلوب بالتدريج . وقد يبدو تصرفه هذا سلبياً أحياناً ، حين يتجنب إصدار الأوامر المباشرة ، لكنه يعرف دائماً إلى أين يذهب ، ويعرف دائماً متى يصل إلى ما يريد .

ثمة جانب روحي في بيل كلينتون ، لم أكن مؤهلاً دائماً لأن أتفق معه فيه . كنت كقائد سفينة يبحث عن جبال جليدية في بحر القطب الشمالي ، أرى ما يطفو على سطحه من عقلانية ومنطق وطموح جارف . إلا أن تحت السطح نوراً روحياً كاشفاً ، له علاقة كبيرة بطريقة تصرفه وأسلوب تفكيره ، ليس ناشئاً عن دينه الرسمي المسيحي ، فكلينتون يعمل جاهداً على أن يخزّن في ذاكرته كل الشيفرات والرموز الدينية التي يستخدمها كهادٍ مرشد في سلوكه اليومي .

حكى لي ذات مرة، مثلاً، قصة سمعها من أندرو يونغ، محافظ أتلانتا السابق وزميل الدكتور مارتن لوثر كينغ الابن، تقول إن الدكتور كينغ كان قد طُعن مرة طعنة خطيرة قريبة من الشريان الأبهر، ثم تم إنقاذ حياته، والتأمت الطعنة تاركة ندوباً في صدره على شكل الصليب. فكان في كل صباح، يسأل المرآة وهو يحلق ذقنه، عما يجب أن يفعل في يومه هذا ليستحق نعمة الحياة التي حفظها الله له.

كان ضيقه وتذمره من تسلط الثنائية الحزبية يتنامى يوماً بعد يوم إلى أن حلّ مارس/آذار ١٩٩٥. على بعض الجبهات، كترشيح هنري فوستر ليكون كبير الأطباء في وزارة الصحة، كان يوافق تماماً على استراتيجية هجر النزاع ولهذا، فقد ثار غضبه حين حاول الجمهوريون الطعن في كفاءة هذا الطبيب الأسود الشهير، وأهليته لمثل هذا المنصب الرمزي، لمجرد أنه أجرى عدداً من عمليات الإجهاض في الماضي، وقرر أن يحفر الخنادق إعلاناً بالحرب. فبشّرته بأن كل ما يجذب الأنظار إلى مسألة الإجهاض، وإلى التطرف العنصري الخفي عند الجمهوريين في هذه المسألة، سيرفع من معدلاتنا. إلا أنه كان مستاءً من فشله في الحصول على أصوات المستقلين لدعمه في مواجهة مقترحات الجمهوريين لتخفيض الميزانية. قال متبرماً: «أصبحت أبدو وكأنني أشبه غيبهارد يوماً بعد يوم».

الفصل السابع

يخرج تشارلي ويدخل ديك

أحب الرئيس فكرة تشارلي المجهول، وأحببت أنا فكرة الأشباح أكثر منه. فمنذ أن قررت العمل لصالح الرئيس، مضحياً بعلاقاتي مع الجمهوريين، لم أعد بحاجة إلى الاختفاء والتخفي، رغم توقي لهما. وكان يناسبني أن آتي سراً وأذهب سراً، دون أن يشك بي أحد، حتى ولا الصحافة.

كنت أحمل في داخلي دائماً ما يسميه البعض «شهوة الغامض المجهول»، وعلى عكس الذين يشتهون الظهور والدعاية، كنت أتلذذ بشعور «الرجل الخفي». في ليالي الانتخابات، كنت أترك الاحتفالات بالنصر، وأهيم متجولاً أسمع ضجة هتافات النصر البعيدة قائلاً لنفسي: «أنت الذي ساعدت على تحقيق هذا، دون أن يشك بك أحد». وكانت فكرة اليد الخفية، والصوت المجهول، تفتن روحي برومانسيتها. ولهذا، تفادياً للدعايات، لم أستلم منصباً رسمياً في أية حملة انتخابية، ولم أعمل في وكالات عامة. وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي لا أكون ملزماً فيها بكشف نفسي علناً.

أذكر أنني احتفلت مع إيلين عام ١٩٨٤ بعيد جميع القديسين(*)، في بيتنا بالقسم القديم من غرب فلوريدا، وتفرجنا معاً على الاحتفال التنكري الرائع في شارع دوفال. كنت أضع على وجهي قناع رونالد ريغان، وأصافح الناس كما كان يفعل في حملاته الانتخابية، صفوفاً على أرصفة الشارع. فأسعدني أن تعجبهم النكتة، وأن يتدافعوا لمصافحتي. وحين أصبحت الحرارة لا تطاق تحت القناع، خلعته وسرت في الشارع بشكل طبيعي، أستمتع بالفرجة على الأزياء التنكرية المدهشة من حولي. قلت يومها لإيلين: «حين يغدو الإنسان مشهوراً، تضع له الشهرة على وجهه قناعاً، لكنه لا يستطيع أن يخلعه أبداً».

(*) عيد مسيحي يقيمه الغربيون يوم الأول من نوفمبر / تشرين الثاني احتفالاً بتمجيد الله لجميع قديسيه المعروف منهم والمجهول، ويرتدي المحتفلون بالليلة السابقة ليوم العيد الأقنعة المستعارة والملابس التنكرية. ـــ المعرب ـــ

واكتشفت الصحافة أخيراً أنني أعمل مع الرئيس . ثم فقدت بعد انفجار الفضيحة كل أمل لي بالعزلة والخلوة مع الذات ، فقد أصبح القناع جزءاً من وجهي كالجلد تماماً ، وأصبحت مجبوراً على مواجهة ما نجحت في تفاديه وتجنبه حتى الآن . إلا أن الفضيحة ساعدتني بشكل خفي غير مباشر ، وأرغمتني على تصحيح عيوبي . أما ظاهرياً فأنا مثل ما يعتقد الناس أنه أنا ، بينما كنت في الماضي وأنا أختار الغموض والتخفي ، لا أعبأ كثيراً بما يعتقده الناس .

حدثني طوني شفارتز ، الخبير الإعلامي ، ذات مرة عن المجتمعات البدائية التي تحكم على من يخالف قوانينها أو يحاول تغييرها بالموت أو بالنفي . قال : « في عصر الإعلام الحديث ، أنت لا تستطيع أن تنفي نفسك أو أن تهرب بها ، فالإعلام في كل مكان » . وفهمت أن الخيار الوحيد الباقي أمامي هو : إما تغيير القوانين أو الموت .

الخطيئة الثانية الأسوأ التي ارتكبتها بحق إيلين بعد خيانتها ، هي أنني حرمتها رغماً عنها من حقها في الخلوة مع نفسها . وندمي على هذه الخطيئة لا يقل عن ندمي على خطيئة الزنا والخيانة الزوجية . بالنسبة لي ، أنا الذي اخترت أن أعرض خصوصياتي للخطر بعملي مع الرئيس ، ووافقت على العيش بلا مبالاة . أما هي فلم ترتكب ما تستحق معه أن تعاني من الابتزاز والعيش كنكرة ، كما فعلت أنا .

جلب حبي للغموض والسرية أموراً أخرى . إذ كان لديّ أشياء كثيرة أريد إخفاءها ، منها أنني أب لابنة غير شرعية . وكنت أعرف أن هذه القصة سوف تتسرب في النهاية ، لو أصبحت معروفاً ومشهوراً .

في بداية عملي مع كلينتون ، جاءني إرسكين بولز وطلب أن أحكي له « كل ما يحتاج الرئيس لمعرفته » عن حياتي الماضية ، فقررت ألا أخدع الرئيس ، وحكيت له عن ابنتي ، وأنني أدفع أربعة آلاف دولار في الشهر لتربيتها ، وأنني أفعل ذلك كواجب ، ليس هناك أي حكم قضائي يفرضه علي .

****

ناضلت كثيراً خلال عام ١٩٩٥ ، لكوني أولاً وافداً جديداً على واشنطن ، ولكوني ثانياً دخيلاً غريباً في البيت الأبيض . فالرئيس حين استخدمني لم يمنحني أية سلطة معينة . أراد فقط الحصول على نصائحي دون أي لقب ودون موظفين . وكان علي أن أنجز ذلك بمجهودي وطرقي الخاصة . لم يؤمن لي الرئيس أيضاً أية وسيلة من وسائل الحصول على المعلومات ، سوى بعض مقتطفات وقصاصات لسبع أو ثمان صحف يومية . أرادني أن أعيش

خارج الغابة كالغوريلا المقاتل، أجنّد الأعوان ليسيروا معي، وأجمع المعلومات بأية طريقة أستطيعها.

حين دخلتْ إيلين كلية الحقوق، أرسل لها أحد أصدقائها رسالة يصف فيها السنة الأولى في دراسة الحقوق قال: «إنها أشبه بالقفز بالمظلة فوق الصين ومعك كتاب «كيف تتعلم الصينية بدون معلم»». كنت أحمل الشعور ذاته وأنا أتلمس طريقي نحو السلطة في الإدارة. إذ لم يسبق لي أن مارست دور الوافد إلى واشنطن، وكان عملي ينحصر بمن أحب من المرشحين في كلا الحزبين، بعيداً عن المؤسسة الواشنطنية. لم أحب العيش هناك، ولا نويت الاستقرار هناك، فأنا لا أعرف أحداً يعرفني لا في الاعلام ولا في الحكومة ولا في المجتمع، وليس لي اسم في دليل الهاتف.

كان كل عملي خارج واشنطن، في ماساتشوسيتس، وفي تكساس وكاليفورنيا وأركنساس، أساعد على انتخاب الحكام وأعضاء مجلس الشيوخ، وكنت لا ألحق بزبائني بعد انتخابهم إلى واشنطن، التي كان لها في نظري طابع خاص لا أعرف عنه شيئاً. فأنا ابن الريف في أفكاره ولست ابن العاصمة، وهذه ميزة تعطيني أفضلية، لكنها جعلت مني غراً يضيع في طرقات العاصمة.

كنت أغادر غرفتي في فندق جيفرسون، وأصل إلى البيت الأبيض لأرى الرئيس، وأدخل عبر الجناح الشرقي حيث يستقبلون السواح. فأبرز هويتي أو رخصة القيادة، وأحدد موعداً مع أحدهم في مكان نتفق عليه في بهو الزوار. وكنت أشعر وأنا أدخل، أن في هذا البيت يعيش الصديق الوحيد الذي أعرفه في هذه المدينة الباردة. كنت أعبر القاعات إلى صالة الخرائط، وأنتظر إلى أن يصبح الرئيس جاهزاً لرؤيتي، وأتفحص الجدران والمخططات وأنا أنتظر. فوق المدفأة ثمة خارطة تمثل أوروبا، مربعة تبلغ مساحتها ٧٠ × ٧٠سم، عليها دوائر حمراء وعلامات زرقاء وحمراء. تقول اللوحة في أعلاها إن الخريطة توضح آخر وضع كانت جيوش الحلفاء عليه، حين توفي فرانكلين روزفلت، قبل استسلام النازيين بأسابيع قليلة.

ولم يكن وجودي وسط هذه المآثر يبدو مشجعاً، وأنا تأكلني الشكوك والوساوس حول مدى ما أستطيع تقديمه من مساعدة للرئيس. ثم يرسل بيل كلينتون في طلبي، فكنت أدخل قاعة المعاهدات لأراه جالساً، يرتدي كالعادة قميصاً بنصف كم، وبنطالاً من الجينز، تماماً كما سبق لي أن رأيته عشرات المرات في أركنساس من قبل. الشخص ذاته، والصورة ذاتها، إنما بإطار مختلف.

كان العمل موحشاً. وفي نهاية يناير / كانون الثاني من عام ١٩٩٥، انهارت علاقتي مع هيلاري بشكل مريع، نتج عن تعليقات كتبها المحرر الصحفي دافيد مارانيس حول سيرة

حياة الرئيس في الواشنطن بوست. فقد قام مارانيس بتغطية أخبار انتخاب كلينتون عام ١٩٩٢ في الواشنطن بوست. وقبل أن يستدعيني الرئيس إلى واشنطن، أجرى مارانيس مقابلة صحفية معي. ولما كنت وما زلت أحترمه لحرفته، فقد قررت الإجابة عن أسئلته حول عملي مع كلينتون عندما كان حاكماً في أركنساس.

★★★★

حين كنت مستشاراً للحاكم كلينتون في الثمانينيات، اجتنبت كالعادة أن أتعرض للصحافة. زرت قصر الحاكم في أركنساس أكثر من ثلاثين مرة في السنة، ولم يرد ذكري في أي من صحف الولاية أو مجلاتها. وأعجب كلينتون بذلك، كما أعجبت أنا أيضاً. فالموضوع والمرشح المقصود هو كلينتون وليس أنا. أنا مجرد مستشار ناصح. أما هو كحاكم وكرئيس حالي، فهو الذي يصنع القرار. وكان في صالح كلينا ألا أكون مثل الجاسوس بيير، الشخصية التي يصفها ويمثلها الممثل الكوميدي داني كاي، قائلاً بلكنة فرنسية ظاهرة «كان بيير ناجحاً ومشهوراً، حيثما ذهب يستوقفه الناس، أو يشيرون إليه قائلين: انظروا.. ذاك هو بيير الجاسوس».

لكني، لم أشأ في الوقت نفسه أن أترك تماماً مع منسيات التاريخ. فقد صدرت كتب كثيرة [illegible]ن في أركنساس، لم يرد لي ذكر في واحد منها. وقررت انتظار صدور كتاب تاريخي حقيقي، قبل أن أبدأ الحديث عن علاقتنا.

حين ظهر الكتاب (يقصد المؤلف كتاب مارانيس) في نهاية يناير/كانون الثاني ١٩٩٥، تكدرت هيلاري وانزعجت كثيراً. لورود قصة قيامنا، هي وأنا، بإنشاء حوض سباحة في قصر الحاكم. فقد جاءت في مقطع بعنوان «الأول في صفه» يصف الحدث كالتالي:

«لقد شعر البعض باستياء هيلاري المتزايد، من تحملها أعباء العديد من المهام الخاصة، في الوقت الذي تطالَبُ فيه، ظلماً كما تعتقد هي، بالتضحية بأشياء أساسية هامة. فقد طلبت في عام ١٩٨٥ من المستشار ديك موريس بناء حوض سباحة في حديقة قصر الحاكم، مع أشياء أخرى ستكون رائعة لابنتها تشيلسيا. يقول ديك موريس أنه أجابها: «كيف تجرؤين حتى على التفكير بمثل هذه الأمور؟ أنت تعرضين نفسك للقتل» قالت: «إنه ليس لنا بالذات في الحقيقة، بل لجميع حكام الولاية في المستقبل، الذين سيتاح لهم الإفادة منه».

ويتابع موريس كيف قال لها: «لن تشفع لك هذه الحجة. وحين تنظرين : ة
ليتل روك، حاولي وأنت تنظرين إلى المدينة من أعلى أن تعدّي كم حوض سباحة
ترين فيها»، قالت: «كثيرون هم الذين لديهم أحواض سباحة» فقلت لها
ساخراً هل تودين في الاستطلاع القادم أن أسأل عن عدد الذين لديهم أحواض
سباحة؟» فجن جنونها، وصاحت غاضبة: «لماذا لا يسمح لنا أن نعيش حياة
طبيعية كالآخرين» ورأيتُ في وجهها شعلة استياء من كثير من الأمور التي تراها
تضحيات تفرضها الحياة العامة».

لقد عملت مع هيلاري جنباً إلى جنب طوال سبعة عشر عاماً. وكانت هي بالذات السبب الأول في عودتي للعمل مع زوجها عام ١٩٨٠ و١٩٩٤. وكنت في عام ١٩٩٣ و١٩٩٤، أتحدث إليها مرة كل بضعة أسابيع عن عملها، وتقوم بتوصيل أفكاري إلى الرئيس. لكنها استاءت كثيراً حين قرأت ذلك المقطع في كتاب مارانيس. فقد أغفلتُ في روايتي للقصة أن أشير إلى أن كلفة بناء حوض السباحة لن تدفع من خزينة الولاية. كان لها الحق في أن تستاء، فكتبت لها مذكرة اعتذار، وكنت نادماً جداً.

طبيعة هيلاري من النوع الدافىء الرقيق الحساس، عطوفة، تهتم بالآخرين، وتختلف تماماً عن صورتها الرسمية. فمثلاً في عام ١٩٩٣، قام أبواي بزيارتها في البيت الأبيض، وكانت أمي في التاسعة والسبعين من عمرها آنذاك، من المعجبات باليانور روزفلت التي كرست نفسها لحقوق المرأة، ومن المعجبات كثيراً بهيلاري. فاستقبلتهما السيدة الأولى وأمضت معهما نصف ساعة، رغم أن الزمن المعطى لهما في البرنامج هو خمس دقائق فقط، والسبب هو لطفها، رغم أن والديّ لا يملكان ما يقدمانه لها بالمقابل. وكانت تلك أسعد لحظات عاشتها أمي في آخر سنة من عمرها.

بعد ذلك بشهور، حين أشرفت أمي على الموت، كانت تتصل دائماً لتواسيني، ولتشاركني في تجربة مرت بها قبلي حين توفي أبوها منذ عام مضى. وكانت عوناً كبيراً لي في التغلب على أحزاني إلى حد لا يمكن أن أنساه. وفي يوم وفاتها تلقيت برقية حارة من هيلاري.

لكنها حين تتعرض للغش والهمز واللمز، تتأثر أحشاؤها وتمرض. فبعد حادث مارانيس نبذتني، وأصبحت مشاعرها تجاهي أبرد من أي شيء آخر في هذا الكوكب. ورغم أنها عطوفة وحساسة وشديدة التأثر حين تهان، ويصيبها الصداع عند أول نسمة تهب، إلا أنها جعلت من برودها قناعاً خارجياً يخفي تحته آلاماً هائلة. فشعرت وكأنها بالغت في ردة فعلها تجاه تعليقاتي لمارانيس، لكنني فهمت ردة فعلها وقدرتها، فقد تزامن الحدث مع فترة

كانت فيها عرضة للإيذاء من جميع أعدائها، وكنت آسفاً بالفعل على ما سببته لها من ألم إضافي.

خلال تلك الفترة السوداء، اتصلت بهيلاري عن طريق الرئيس، وتابعت تشجيعها على ألا تغيب عن الصورة، كما اقترح الآخرون، ونصحتها بأن تشغل نفسها بمشاريع واهتمامات جديدة، مثل عدم كفاية الاستجابة الحكومية مع مرض حرب الخليج، ومع الحاجة إلى توسيع الرعاية الصحية للنساء المسنات. فقد شجع تأثير هيلاري بمسألة مرض حرب الخليج البحوث العلمية، على إثبات أن الفرق العسكرية الأمريكية تعرضت إلى سموم خطرة حين قصفت الطائرات الأمريكية مراكز التموين والتخزين العراقية.

كانت هيلاري تحيرني دائماً، بأخطائها في مناقشة مسألة الرعاية الصحية عام ١٩٩٣ ــ ١٩٩٤ ــ فقد تحدثنا مرات عديدة عن الموضوع، مؤكدين دائماً على أهمية استخدام معايير التكلفة في تخفيض الإنفاق على الرعاية الصحية. إلا أنها كانت مفتونة بفكرة إصلاح نظام الرعاية الصحية، وتحديث أسلوب النظام بشكل يشمل العائدين للعمل، هذه الفكرة التي لن تنجح، وستقوّض مصداقية الرئيس.

وتذكرت مكالمة هاتفية جرت بيننا في أوائل سبتمبر/أيلول عام ١٩٩٤، بعد أن اتضح لي أن الرئيس لم يحصل على أصوات تكفي لمرور مشروع قانون الرعاية الصحية من لجنة الكونغرس صاحبة العائدية، فحذرت هيلاري من أن عدم مرور أي مشروع قانون لإصلاح الرعاية الصحية سيلحق ضرراً خطيراً بالإدارة ككل، وبسمعتها الشخصية على وجه الخصوص. واقترحت عليها أن تقدم مشروع قانون محدود، يضمن للعاملين اصطحاب التأمين الصحي معهم حين يبدلون أماكن عملهم، وإبطال استخدام الشروط المسبقة كعذر لرفض التغطية. وسيأتي القانون أشبه بقانون كينيدي ــ كاسيبوم الذي صدقه الكونغرس في أواخر عام ١٩٩٦، والذي تبنى بوب دول قانوناً يشبهه من حيث المبدأ. قلت لها لو أن الكلينتونيين يدعمون مشروع قانون دول كبديل، فسيضطر دول إلى دعمه باعتباره صاحبه، رغم أنه يعارض تمرير أي شيء على الإطلاق في هذا الصيف، آملاً أن يوظف فشل كلينتون في إصلاح الرعاية الصحية كشعار في حملته الانتخابية المقبلة.

كانت هيلاري عنيدة قاسية إلى حد رفضت معه دعم أي مشروع من هذا النوع. لأنه، لا يمكن، كما قالت، حلّ جزء من المشكلة، فإذا حاولت حل هذا الجانب انعكست محاولتك سلباً على الجانب الآخر، عليك أن تعالجها كلها أو تتركها كلها. وكانت قلقة أيضاً، من أن يعطى مشروع القانون المقترح قيمة أكبر منه.

وشعرت بأن هيلاري قد اقتنعت بعد سنة من دراسة الرعاية الصحية ، أن لا شيء أكثر صلاحية من القوانين المثالية الموجزة . لقد عرفت هيلاري الواقعية في الثمانينيات ، وها أنذا أعود لألتقي بها في عام ١٩٩٥ .

بعد الهزيمة الانتخابية في عام ١٩٩٤ ، أصبحت هيلاري أقل ثقة بنفسها . وندمتْ على أنها لم تدعم صفقة مشروع قانون الرعاية الصحية ، وتساءلتْ عما إذا كانت قد أخطأت ، وحاولت أن تقنع نفسها بإلقاء اللوم على عشرات ملايين الدولارات التي أنفقها لوبيّو الضمان الصناعي في سبيل إفشال مشروع القانون وهزيمته . في الحين الذي كنت أنا أتساءل فيه عن السبب الذي يجعل إدارة قادرة على جمع عشرات ملايين الدولارات لنفسها ، أن تترك دعايات الضمان الصناعي تمتد وتنتشر دون أن تتصدى لها بالجواب .

****

لم تتحسن علاقاتي بهيلاري إلا في مايو / أيار ١٩٩٥ ، بعد خمسة شهور تقريباً من صدور كتاب مارانيس . وكانت عودة صعبة .

بعد موت أمي ، تلقى أبي مكالمة من بلانش فانك ، حبيبته القديمة أيام الدراسة الثانوية والجامعة ، حين كان المهاجران اليهوديان والجاران بالشارع رقم ١٥ شرق برونكس على وشك الزواج ، لولا أن جاءت أنثى ذات سحر لا يقاوم اسمها تيري ليسِّر ، هي أمي . كانت بوهيمية في أساليبها ، مغرية بتحررها الخادع ، أغوت أبي واختطفته . وبعدها باثنتين وستين سنة ، ماتت أمي ، وتلقى أبي أول مكالمة هاتفية من بلانش ، وذهبا معاً لتناول العشاء . ثم مضت تسعة شهور أخرى ، تزوجا بعدها . كان في الثالثة والثمانين ، وكانت في التاسعة والسبعين . وكنت أتساءل متعجباً : لماذا ترى انتظرا هذه المدة كلها ؟

تصادف أن فلورنس توماسيز أعز وأقدم صديقات بلانش ، كانت أم سوزان توماسيز . وتصادف أن تقابلت فلورنس وبلانش في حفل خريجي جامعة هنتر حيث تعرفت بلانش على سوزان التي أحبتها مذ كانت طفلة . وكما هو معروف فإن سوزان أعز صديقات هيلاري كلينتون المخلصات .

اعتقد الجميع بشكل مفروغ منه أنني سأختصم مع سوزان . ولقد كنت فعلاً خصماً طبيعياً لسوزان ، مركز الثقل الليبرالي في دائرة كلينتون . إلا أننا شعرنا ، هي وأنا ، برباط يجمعنا معاً ، هو زواج بلانش من أبي . ورغم ما نعرفه عن بعضنا ، وما يسمعه أحدنا على لسان الآخر من أخبار حسنة ، إلا أن التخلخل السياسي لم يتح لنا أن نكون على تماس قريب في أركنساس .

اتصلت هاتفياً بسوزان بعد الزواج ، واقترحت أن نلتقي ، قلت لها : « أنت أساسا نصف أخت بالنسبة لي » . فأجابت : « نحن فعلاً ميشباشاه » واستعملت اللفظة العبرية التي تعني أقارب .

والتقينا على الغداء يوم ٣٠ مايو / أيار بمكتبها في سيتيكورب سنتر بمانهاتن وكنت واثقاً أنها سمعت قصصاً شنيعة عني ، كالقصص الشنيعة التي سمعتها عنها . لكن السوزان التي التقيتها ذلك اليوم ، كانت وما زالت إلى اليوم ، دافئة عطوفة كريمة ، أقرب إلى الحنان منها إلى القسوة ، تصوغ عباراتها بحزم إنما بوضوح ، وتتمسك كثيراً بالآداب الدبلوماسية ، وسارت الأمور على ما يرام .

كنا نثرثر ونتحدث ، حين اتصلت هيلاري ، فأعطتني سوزان الخط ، وكانت أول مرة نتحدث فيها مباشرة منذ يناير / كانون الثاني . لم تُلمح أبداً إلى قطيعتنا ، رغم أنني انتهزت الفرصة لأعتذر لها للمرة الخامسة ، إنما بشكل مباشر هذه المرة . وكان الهدف من مكالمتها واضحاً : عليك أن تعود ، لا تحاول المراوغة ، سوزان هي الرسول المعتمد من طرفي .

العاصفة الكبيرة التي ثارت حول كتاب مارانيس ، لم تكن بسبب تعليقاتي على قصة حوض السباحة ، بل أتت من أف بيتسي رايت ، صديقة هيلاري ورئيسة موظفي كلينتون ومديرة حملته الانتخابية في أركنساس ، أخبرت بعض الأصدقاء أنها « كانت تتستر عليه منذ سنين ، وهي مقتنعة تماماً بأن رجال شرطة الولاية ، يقومون بإغواء النساء له ، وبأنه يقوم بإغواء النساء لهم » . ولم ينسب مارانيس هذه المقتطفات إلى بيتسي في كتابه ، بل إلى « أصدقاء » لها لم يذكر أسماءهم ، وزعم أنه قابلهم .

استشاط الرئيس غضباً حين قرأ هذه الاتهامات « كيف سيكون شعور ابنتي وهي تقرأ هذه الأكاذيب ؟ » تلك كانت كلماته الصارخة على الهاتف ، وهو يحدثني في أواخر يناير / كانون الثاني . وكان شاحباً يشعر أن بيتسي خانته ، ويردد قائلاً : « كيف استطاعت أن تفعل ذلك بي ؟ » . لكنني أشرت إلى أن التعليق في الكتاب ليس تعليق بيتسي .

أصدر محامي بيتسي بياناً يتضمن أقوالها حول ما تعرفه عن الموضوع . أنكرت معرفتها برجال شرطة يقومون بإغواء النساء لكلينتون ، لكنها قالت إن رجال الشرطة كانوا يستغلون مناصبهم كمرافقين وحراس لكلينتون في إغواء النساء لأنفسهم . وساهمت هذه الإفادة بتهدئة الأمور بشكل أو بآخر ، إلا أن الألم عند كلينتون يلزمه أسابيع وشهور ليتلاشى ، وسيخلف وراءه ندوباً يلزمها شهور أخرى لتشفى .

كان همّ كلينتون الأول هو مدى الأذى الذي سيلحقه الكتاب بهيلاري وتشيلسيا . وكان يود كزوج وكأب أن يدفع عنهما هذا الأذى ، أما كرئيس ، فالمهمة ليست سهلة . لقد تملكه الحزن في البداية ، لكنه حين اكتشف أن بإمكانه أن يفعل شيئاً ، تحول الهم والحزن إلى غضب ، فاحمرَّ وجهه وطبعته القسوة وهو ينحني باللائمة على من يظلم الآخرين وينتهك حرماتهم . كان لا يتوقف عن التهديد والوعيد في الليل والنهار ، ملوحاً بقبضته ، معبراً عن استيائه وغضبه .

وأقلقني ذلك كثيراً ، رغم أن من الطبيعي أن يدافع عن كرامته . كنت أراقبه كطفل صغير يراقب أباه الغاضب ، ويغالب دهشته وهو يكتشف الجوهر الإنساني في أبيه . فما بالك لو كان هذا الأب رئيساً للولايات المتحدة .

بعد سنة أو أكثر ، التقيت بمارانيس ، وحكيت له عن مدى ألم كلينتون . فكانت مفاجأة صادقة له أن يستطيع كتابه تحريك عواطف الرئيس . ولقد أدهشني ، باعتباري ممن عانوا الأمرين من تعرض الصحافة لهم ، أن لا يعبأ الصحفيون بالآلام التي يسببونها للآخرين . لعلهم معذورون بداعي واجبهم الصحفي ومسؤوليتهم أمام الجماهير ، إنما على هذه الجماهير أن تقدر المعاناة والألم عند من تنزل بهم العقوبة .

في الأسابيع التي تلت صدور كتاب مارانيس ، اقترحت على كلينتون أن يصرف انتباه الناس عن الموضوع ، بالتركيز على أحداث الشغب والعنف . وكان الرئيس مستاءً منذ فترة طويلة من إضرابات عمال نوادي كرة السلة ، فأشرت عليه بأن يحاول تسويتها .

بعد ليلة كاملة من العمل على جمع الأطراف معاً ، قال لي الرئيس : « هذا ليس تفاوضاً بين عمال وإدارة على الإطلاق ، إنه أشبه باجتماع شركاء في مؤسسة قانونية بآخر السنة . هناك ثلاثمئة من الملاكين يمثلون رؤساء جميع الفرق ، وهناك ستمئة لاعب تقريباً . هؤلاء التسعمئة من الأثرياء يحاولون أن يتقاسموا ريعاً يصل إلى بليوني دولار » ثم تابع مشيراً إلى تعليق المفاوض العمالي ويليام أوزيري الذي جاهد لإنهاء الإضراب وقال : « لقد شارك في إضرابات عمال مناجم الفحم ، حيث يقتل الرجال بعضهم بعضاً ، لكنه لم ير كما قال لي القسوة والحدة التي رآها هنا على طاولة المفاوضات » .

واستطاع المجلس الوطني للعلاقات العمالية أن يوقف الإضراب في النهاية ، بإبطال محاولات المالكين فرض سقف أعلى غير قانوني على الرواتب والأجور . ولم يرفع هذا من رصيد الرئيس ، رغم أنه هو الذي حققه بالفعل ، ورغم أن جماعته في المجلس هم الذين توصلوا إلى تسوية الموضوع بتوجيهاته .

كان الرئيس محبطاً تماماً في تلك الفترة. فهو لم يحصل على الرصيد الذي يستحقه عما فعل، بل كان ملوماً لعدم اعتماده خطاً ليبرالياً في هذه المسألة. إلا أن فشله في الاتجاه الليبرالي الذي كان موظفوه يسوقونه إليه، هو الذي أجبرني في النهاية على توسيع دائرة مصادر معلوماتي في الإدارة، فقمت أولاً في فبراير/شباط بإضافة شوين منظم الاستطلاعات الإحصائية لحضور الاجتماعات الأسبوعية مع الرئيس. وفي آذار استدعى الرئيس ليون بانيتا رئيس الموظفين لحضور الاجتماعات. وبعدها بوقت قصير شاركنا نائب الرئيس آل غور الاجتماعات مع رئيس موظفيه جاك كوين، ثم انضم إلينا معاونا رئيس موظفي كلينتون إرسكين بولز وهارولد آيسكيس عدوي اللدود القديم منذ أيام نيويورك.

في أول اجتماع تم عقده، أوضحت أنني لا أريد أية دعاية إعلامية أو نشر، والعمل على إبقاء حواراتنا بعيدة عن الأضواء. فقال آيسكيس بخبث: «الشيء الوحيد الذي أضمنه لك يا عزيزي ديك، هو أنك لن تبقى سراً لمدة طويلة». ولعله كان السبب بانكشاف أمري فيما بعد. وسرعان ما وصلت رياح أخباري إلى جين مائير المحررة في جريدة النيويوركي، التي تصادف أنها كتبت مقالاً منذ سنة تمدح فيه آيسكيس، فاتصلتْ بي بعد أول اجتماع موسع. حاولتُ أن أقلل من شأن دوري في القصة فلم أستطع، فرفضتُ إجراء مقابلة صحفية معي وجهاً لوجه، ووافقت على الحديث معها بإيجاز على الهاتف. وسرعان ما تعلمت بعد ذلك ألا أجري مقابلات صحفية مسجّلة مع محررين اعتادوا أن يؤلفوا حولي القصص. وفي اللحظة التي قمعتُ فيها تلك التوجهات الصحفية، شعرت أن أغلب الحكايا التي حيكت عني كانت نتيجة تسربات قام بها خصومي في البيت الأبيض أو في الحزب الجمهوري. بدأ دور مائير في منتصف أبريل/نيسان ١٩٩٥، بكاريكاتير للرئيس يصغي بنشوة إلى حديثي الهاتفي معه على الجانب الآخر. وكان ذلك أول ذكر لي ولدوري في وسائل الإعلام. ثم توالت القصص بعدها على الصفحات الأولى من الواشنطن بوست والنيويورك تايمز تعلن عن وجودي.

لم يكن الرئيس مسروراً بهذه الدعاية، لكنه كان يعرف أنني لم أصنعها، وأنني بذلت ما بوسعي لتفاديها. ولم أنتبه إلى أن قيامي بما كنت أقوم به في أركنساس، على الصعيد الفيدرالي، سيؤدي إلى هذه الحملة الإعلامية الهائلة التي لم أعتبر أنني أستحقها. كنت فقط أقوم بما اعتدت أن أقوم به على مدى سبعة عشر عاماً بصمت هادىء.

منذ ١٥ سبتمبر/أيلول ١٩٩٤، حين استلمت أول مخابرة من الرئيس عن هايتي، وحتى منتصف أبريل/نيسان ١٩٩٥، كنت أعمل مع الرئيس دون أن يعرف أحد بذلك، وكانت تلك أسعد أوقات حياتي التي أتمنى لو دامت إلى الأبد.

حين أصبحت فجأة هدفاً للفحص والتدقيق ، عثرت الصحافة صدفة على رجل لم تسنح له من قبل فرصة الظهور علناً أمام الجماهير .

لقد أعماني البريق ، وأنا آت من عالم الظلال أبحث عن ضوءٍ يلفت انتباه أجهزة الإعلام . ثم كبرت واعتدت على الأضواء ، لكنني لم أستطع ضبط هذا الاندفاع الطاغي نحو الشهرة ، الذي قادني في النهاية إلى الهاوية .

كانت تجربتي في أن أصبح مشهوراً من أغرب ما تعرضت له من تجارب على الإطلاق . شعرت وكأنني فوريست غامب ، أظهر فجأة مع هذا الشخص الشهير ، وأخرى مع ذاك ، وأحوّل الخيال إلى حقيقة . كان سام دونالدسون يتصل بي بالهاتف ، وبوب وودوارد ، الحائز على جائزة بوليتزر ، يطلب مقابلة مكنتني شجاعتي أن أرفضها . ريتا برايفر تحذرني من المقابلات الصحفية الخاصة غير المسجلة ، كيلا أصبح موضع ريبة تشوه سمعتي ، وتدعوني إلى إلقاء كلمة في مجموعة من موظفي محطة CBS الإخبارية في واشنطن ، الذين كنت أرى وجوههم في برامج الأخبار على شاشة التلفزيون وأستمع إليهم ، وسأقف الآن أمامهم ليستمعوا إلي .

كان العالم كما هو على حاله ، إنما أنا الذي وجدت نفسي فجأة في الصورة فشعرت أنني غريب . لقد كبرت بما يكفي لأقبل الوضع ، لكنني لم أقبله أبداً ، وخفت منه كثيراً . والحقيقة الأساسية هي أنني لم أستطع تغييره .

شعرت بما يشعر به الغريب في بناية غريبة بمدينة غريبة . كنت بحاجة ماسة إلى أنصار ، وأسرع نائب الرئيس لنجدتي . ففي أواخر شتاء عام ١٩٩٥ ، خلال أحد الاجتماعات الأسبوعية ، ناقش الرئيس مع غور مسألة عملي في الإدارة . وشعوراً منه بعزلتي ، فقد شجعني على مقابلة نائب الرئيس ، وسارعت فعلاً إلى تحديد موعد معه .

والتقينا بمنتصف شهر مارس / آذار في مكتب جاك كوين ، رئيس طاقم الموظفين وقتئذ ، والمستشار في البيت الأبيض فيما بعد . حيث جلس غور على أريكة ذات مسند للرأس ، وجلست أنا بجانبه . شرحت له أفكاري ونظرياتي خلال نصف ساعة دون مقاطعة . وأستطيع أن أخمِّن أن نائب الرئيس وافق على كل ما قلت ، فقد أصغى إلي بكل اهتمام وتركيز . أكدت له أنني بحاجة لمساعدته لتكليفي بأي عمل ، وأوضحت له ما أعانيه من إحباط .

وفهم فوراً ما أقول ، وعرض علي دعمه الكامل ضمن شرطين : أولاً أن أحترم أولويته ، كمسألة البيئة مثلاً ، وأن أضع لها مكاناً في مخططاتي . ثانياً أن أعد بألا أفشي أية أسرار

تتعلق بالحملة الانتخابية إلى لوت ، فوافقت على الشرطين ، وأوضحت أن محادثاتي مع لوت انحصرت بالمسائل الحكومية ، ولم نتعرض فيها للحملة الانتخابية .

أخبرني غور أنه يزداد قلقاً وانزعاجاً من انجراف البيت الأبيض واندفاعه ، وأنه متأثر بهزيمة عام ١٩٩٤ . قال إنه تعب بلا جدوى وهو يدفع الإدارة باتجاه المركزية ، لكن طاقم موظفي البيت الأبيض أوصد في وجهه الأبواب . وقال إنه علم مؤخراً فقط بانضمامي إليهم وإنه لا يعرف عني شيئاً على الإطلاق . لكنه قال : « نحن بحاجة هنا إلى تغيير ، تغيير كبير ، وأنا أرجو وأدعو الله أن تكون الرجل الذي يحقق التغيير » ، وتصافحنا عربون التحالف والصداقة .

حين توثقت معرفتي بنائب الرئيس غور ، أحببت فيه حرارته ومرحه فهو من وجوه عديدة صورة طبق الأصل من الرئيس كلينتون ، كالمرآة التي تعكس الصورة دقيقة لكنها مقلوبة . كلينتون عاطفي جداً في المجالس العامة ، ويستمد أحاسيسه من أحزان وأفراح من حوله من الناس ، أما في المجالس الخاصة فهو خجول ومتحفظ ، وغالباً ما يكتم مشاعره . غور على العكس تماماً . فهو يبدو بارداً قاسياً جافاً في المجالس العامة ، ويكاد يتجمد برداً على المنصة . أما في الحوارات والمناقشات فيكشف عن عواطفه الفياضة .

بيل كلينتون على المنابر يتفجر حيوية ومرحاً وظرفاً مطبوعة كلها بطابع العفوية والصدق . لكنه في المجالس الخاصة نادراً ما يمزح في محادثاته العملية ، وقليلاً ما يروي نكتة ، فإذا فعل جاءت مناسبة للسياق العام للحديث . وهو ليس من النوع الذي يحمل الناس على الضحك في الاجتماعات السياسية الاستراتيجية . حتى حين يعبر عن خفة روحه في المجالس الخاصة ، يأتي تعبيره رسمياً جافاً ، ينهمر على رؤوس من حوله . أما غور ، في الجانب الآخر المقابل ، فيحمل مرحه معه إلى كل مكان ، عدا المنصة . يمزح في كل الاجتماعات مهما كان نوعها ، ويضفي على كلماته عباءة الهجاء والسخرية . قام ذات مرة بالتنكيت على مصروفه الخاص ، ثم التفت إلي موضحاً : « هذا التنكيت على الذات ، حاول أن تجربه أحياناً » .

كانت خفة دم غور في أحسن حالاتها بأحد الاجتماعات ، بعد أن ناقشت فكرة التخطيط لعقد مؤتمر صحفي احتفالاً بنجاح قانون حماية الأنواع المعرضة للخطر ، والذي عارضه دول ، وضمان مستقبل صحي آمن للنسر الأقرع ونسر الكوندور ونمر فلوريدا ، وأنواع أخرى على ظهر كوكبنا . فانتقد نائب الرئيس الصحافة على اهتمامها فقط بما أسماه « الثدييات التي تعوي » وأشار إلى أن من المهم أن نصون كل مستويات الحياة في « نظامنا الصّدوي » !! بعد قذيفته تلك ، لم أعد أسأل إيلين عن كلابنا في الحديقة حين أكلمها على الهاتف ، بل كنت أسألها عن صحة « الثدييين اللذين يعويان » .

كنت اصف تفاصيل الحفل الصحفي المقترح، فقلت للرئيس ونائبه: «سيكون خلفكما ثور يرعى، ونمر في قفص، وأنتما تطلقان نسراً أقرع، فليس ثمة طيور تأكل القواقع هنا». وكنت أشير بعبارتي الأخيرة إلى الجدل الحاد حول وضع حدود للتوسع التجاري حماية للطيور آكلات القواقع، وهي من أندر الأنواع وجوداً في الطبيعة «ستكونان مثل نوح وهو ينقذ هذه الأنواع على ظهر السفينة». قلت هذا وأنا أتعمد استعمال الصور البلاغية الرنانة، بشكل يفهمان منه أنني أتعمد ذلك.

التفت كلينتون إلى غور الجالس عن يمينه وقال: «لعلك تعرف ياآل، أنه لم يكن ثمة آكلات للقواقع على ظهر السفينة». فعبس غور وقست ملامحه، وأدار رأسه بخيلاء تلفت الأنظار إلى اليسار ليواجه به الرئيس، بينما جسمه ما زال متجهاً إلى الأمام ورقبته ممطوطة، قال بلهجة رسمية مفخمة مضحكة: «يا سيدي الرئيس.. لقد كان». قال الرئيس بفضول ساخر: «أحقٌ هذا؟ فكيف عِرفت ذلك؟». فأجاب نائب الرئيس، وهو يشدّد على كل كلمة، كما يفعل المعمداني الأصولي، وقد رفع وجهه كتاج عمود قوطي أمريكي من صنع غرانت وود «لأنهم هنا». ثم عدّل من التفاتته، وأحنى رأسه كما يفعل آكل القواقع.

بدأ الصراع لإنقاذ الرئيس من موظفيه بشكل جدي ومفتوح في شهر مارس/آذار. واكتشفت نصيراً وحليفاً فصيحاً في دون باير كاتب خطابات كلينتون، وخصماً ذكياً عنيداً في ليون بانيتا، الذي كانت علاقتي به سيئة منذ بدايتها.

بتاريخ ١٦ مارس/آذار، اقترحت أن يلقي الرئيس خطاباً أسميته «خطاب كومة الفيتو» يكون بمثابة رد شامل على مقولات الجمهوريين، ويعلن تنازل الرئيس عن حقه في النقض فيقول: «أنا لم آت إلى واشنطن لإصدار أكوام الفيتو». جواباً على مواجهات الحزبين وصراعاتهما. ثم يدعو الجمهوريين في خطابه إلى التعاون على إيجاد أرضية مشتركة عامة. كانت الفكرة تحث على عدم معارضة المقولات اليمينية التي ستصل ميتة إلى أبواب البيت الأبيض، فاقترحت أن يقوم الرئيس بجولة عامة يفحص فيها برنامج الجمهوريين من حيث الشكل، ويحدد بالاسم ما سيقبله من اقتراحات ومشاريع قوانين، وما سيرفضه وينقضه. كنت أدفع بالفكرة إلى الرئيس، وأضغط عليه بها، وأصورها له عاجلة وملحة، في اجتماعات الاستراتيجية بالبيت الأبيض بتاريخ ٢٣ مارس/آذار و ٥ أبريل/نيسان.

كان اجتماع تخطيط الاستراتيجية بتاريخ ٥ أبريل/نيسان نقطة تحول حقيقي في تحرك الرئيس نحو المركزية. انتقدت مواقفنا بفظاظة وخشونة: «عباراتنا الطنانة الجوفاء ضد

الكونغرس وضد الجمهوريين، الدخول في لعبة (الرصيد صفر) مع الكونغرس، انتصار الكونغرس في معركة العلاقات العامة، معدلات مؤيدي الكونغرس التي تتراوح بين ٥٨ ــ ٣٥ خلال المئة يوم الأولى، ومعدلات تتراوح بين ٤٩ ــ ٣٩، لأعضاء يقولون إن الكونغرس لم يتجاوز حدوده حين اقترح التخفيضات على الميزانية». انتقدت بشدة عباراتنا المفخمة الطنانة التي تدور حول مقولة (أغنياء مقابل فقراء)، وانتقدت غيابنا الكامل عن كل محاولة جاهدة جادة لرسم موقف لكلينتون منفصل ومتميز عن موقف الديموقراطيين في الكونغرس، فقلت متذمراً محتجاً: «إن المواقف الكلينتونية الجديدة تحظى بقبول قليل، وتتجسد فقط في صورة صراع ثنائي ديموقراطي ــ جمهوري».

وحذرت من أن موقفنا الحالي المتطابق مع السلبية الديموقراطية، «سيفرض علينا ممارسة حق النقض مما سيهدم عنصر المركزية في استراتيجيتنا، الذي نعتبره بديلاً معتدلاً وطريقاً ثالثة. سيصبح الرئيس خارج الصورة تماماً، مالم يدمج ويربط ويصهر الخلافات القائمة في بوتقة الحلول التي تقدمها هذه الطريق الثالثة. وسيؤدي عدم قيامه بذلك إلى تحجيم وتقزيم الدور الرئاسي».

ثار بانيتا بشدة على فكرة خطاب من هذا النوع، واقترح بدلاً من ذلك التركيز على السياسة التعليمية خلال شهر أبريل / نيسان، وقال إن على الرئيس ألا يكسر وحدة صف الديموقراطيين في الكونغرس، في الوقت الذي أفلحوا فيه بتلطيخ صورة غينغريتش وبالرد على إهاناته وبتعطيل أسلحته.

فأوضحت أن مناقشة الرئيس لمسألة التعليم فلسفياً، ستجعله يبدو خارج صورة الأحداث فعلاً، وأن علينا أن نهاجم ونقاتل في سبيل طريق ثالثة.

كان نائب الرئيس غور، الذي انضم حديثاً إلى الاجتماعات، يجلس صامتاً، وكذلك كان الرئيس، خلال حواري مع بانيتا. أخيراً، التفت الرئيس إلى غور قائلاً: «ما رأيك يا آل؟؟». فأجابه غور، وكأنه يكتب رأياً قانونياً إلى المحكمة العليا. استعرض التاريخ الحديث منذ هزيمة عام ١٩٩٤، ثم انعطف بانحناءة مبالغ فيها إلى موقف ليون «إنني أدرك تماماً أهمية أن نصغي إلى ليون، وألا نكسر وحدة صف الديموقراطيين في الكونغرس مع باقي صفوف الحزب، وأقدر تماماً صحة رأي ليون في أن مثل هذا النهج سيقودنا إلى كارثة، وإلى متاعب أكبر حجماً مما نعانيه الآن» ثم وصل أخيراً إلى الـ «لكن» التي طال انتظارنا لها فقال: «لكن علي أن أقول إنني، تحقيقاً للتوازن، أوافق على وجهة نظر ديك عن حاجتنا الآن إلى الخروج من ظلال كواليس الأحداث، وإلى وضع أنفسنا في لب مركز الخلاف مع

الجمهوريين بتحديد ما سنقبل وما سنرفض ، بشكل واضح مستقل ضمن خط طريق ثالثة » . وصحت في سرّي مصفقاً « برافو » .

حين رأيت الحوار بين كلينتون وغور ، بدأت أفهم مدى أهمية نائب الرئيس عند الرئيس . غور هو الشخص الوحيد في العالم الذي يقدر الرئيس آراءه ونصائحه ، لأنه يرى فيه رئيس المستقبل . ويرى أنه وإن لم يبلغ الذروة بعد ، لكنه مؤهل لأن يشغل المنصب حين يؤون الأوان . إذ كلما احتاج الرئيس إلى عين صافية نفاذة ، التفت إلى غور ، تماماً كما يفعل دائماً حين يحتاج إلى من يعالج له أمراً هاماً معالجة صحيحة واقعية .

كان الرئيس يعرف ما سيقول غور في الاجتماع . وكانت عادته أن يترك لنائبه حرية التفكير والتعبير عن أفكاره . وكان قد تأمل في توصياتي ومقترحاتي خلال الأسبوعين السابقين ، وهو يرى رئاسته تأخذ طريقاً جانبياً ، لتتسم بطابع المنشقة عن الخط الديموقراطي في مواقفها . وكان يتوق إلى التغيير . واستعدت في مخيّلتي وهو يتحدث ، صورة الظهير الربعي القابع خلف خطوطه الدفاعية ، التي يمثلها قادة الديموقراطيين بالكونغرس في حالتنا هذه ، والتي يوشك أن يكسرها ليخرج منها .

بدأ الرئيس قائلاً : « ليون ، أود لو تمت الأمور كما رسم لها ديك في هذه المرحلة . أنا أعرف إلى أي خط تنتمي ، لكننا جربناه على مدى شهرين دون فائدة تذكر . أعتقد لو أنني خرجت الآن لأتحدث عن التعليم ، فلن يتصدى أحد لتغطية الخبر ، ولن يهتم أحد بما أقول . عليّ أن أعود إلى اللعبة ، وأظن أن اقتراح ديك هو الطريق إلى العودة » .

حاول ليون أن يضحي بآخر بيادقه كيلا يخسر اللعبة فقال : « حتى لو وافقت على الخطاب ، فيجب ألا تتم إذاعته يوم الجمعة ، في مؤتمر المحررين الصحفيين بدالاس (يعني حيث اقترحت إلقاء خطاب كومة الفيتو) ، فهو قريب من موعد الاحتفال بمرور مئة يوم على استلام الجمهوريين مقاليد الأمور في الكونغرس ، وسنبدو وكأننا نقر بالاحتفال ونصدقه لو ألقينا الخطاب فيه ، وحاولنا أن نلعب في ملعبهم وبين جماهيرهم » .

فأوضحت أن الاعتراض صحيح ، إلا أننا باختيارنا إلقاء الخطاب بهذا التاريخ ، سنفسد الحفل على الجمهوريين ، ونبين أننا الآن نتجاوز المواقف القديمة إلى مرحلة جديدة من الحوار ، هي مرحلة القيادة الرئاسية .

تعب الرئيس من الجدل والخصام ، فنهض يتفحص بعض الكتب في مكتبته ، بينما راح ليون يتحدث . وكانت تلك طريقته ليقول إنه قد اتخذ قراره ، وأن الاجتماع قد انتهى ، وأن الرئيس قد استلم دفة القيادة .

طلب مني الرئيس أن ألتقي مع دون باير في اليوم التالي لإعداد مسودة الخطاب، ليستطيع صياغتها بشكلها النهائي وتجهيزها ليوم الاحتفال في دالاس. قال: «سيعجبك دون، فأنت تعجبه».

لقد جاؤوا بي من بعيد، لأعمل مع موظفي البيت الأبيض بإعداد خطاب الرئيس، وهذا أسعدني كثيراً.

****

باير، كاتب خطابات الرئيس منذ سنتين، صحفي سابق، انضم إلى طاقم موظفي البيت الأبيض من بداية فترة كلينتون الرئاسية، وقام بصياغة وسبك العديد من تعابير كلينتون الكلاسيكية (بما فيها: إتاحة الفرص، والمشاركة في المسؤولية، وروح الجماعة). كان يقوم بتنقيح عبارات الرئيس وكلماته في الأشهر الأخيرة، دون أن يعرف أنها عباراتي وكلماتي أنا. لكنه ما إن قابلني وتحدث معي حتى ربطها بي.

قال وهو يرحب بي بحرارة: «لقد كنت أقاتل هنا وحيداً، لأجعل الأمور تسير كما يجب، حتى سئمت وقررت أن أترك، بعد أن أثّر ذلك كله على روحي وصحتي». ثم عدّد أسماء موظفي البيت الأبيض السابقين الذين هجر العمل معهم اشمئزازاً من نزعتهم اليسارية، بما فيهم دافيد غيرغين وبيل غالستون.

في تلك الأثناء، كان قد تم تعيين بيل كاري إرضاءً لي، ووفاءً من الرئيس بوعده، فقيّد بانيتا قدميه وحاول أن يحرفه إلى عمل خارج البيت الأبيض. ورحبت بذكاء كاري وبموهبته الإيرلندية في سبك الألفاظ والتعابير، وباعتدال المشاعر تجاه القضايا الذي نعمل باير وأنا انطلاقاً منه في إعدادنا للخطب.

انطلقنا ثلاثتنا للعمل، فاستولينا على طاولة في مكتب بوب سكواير في وسط واشنطن، الذي أردته منفّذاً إعلامياً للحملة الانتخابية لكنه لم يتمكن من ذلك. كان باير يطبع المسودة على الآلة الكاتبة وأنا وكاري نقاطعه، فوضح لي وأنا أسمع باير يكتب بصوت عالٍ، أنني لا أعرف اللغة الرؤسائية، فسررت لتعرفي على قوافيه وأوزانه الشعرية. كنت غالباً ما أقترح سطراً حاداً حازماً فيقول بتسامح: «هذا رائع، إنما لا يمكن للرئيس أن يقوله، لأنه رئيس».

وأخيراً انتهت الخطبة، ومضينا إلى منازلنا، على أن نلتقي، كاري وباير وأنا، مساءً عند كلينتون. الذي قام بتعديلات عديدة، مسبغاً بعض الحدة على الجمل، ومعدلاً اللغة إلى شكل يعكس خصائص الطريق الثالثة التي قرر التزامها.

وكان نائب الرئيس غور قد اقترح عليّ أن أحاول جعل الرئيس قادراً على الارتجال. قلت: «لقد سمعته يرتجل، وكان جيداً جداً». فأنا أذكر كم كان خطيباً رائعاً وهو يتكلم بدون ورقة أمامه أيام أركنساس. وقررت أن أتحدث إلى كلينتون ليلقي خطبته القادمة ارتجالاً دون نص مكتوب.

قلت: «أنت لست بحاجة إلى نص مكتوب. فقد رأيتك تخطب بطلاقة ساعات دون تلعثم، وليس أمامك سطر مخطوط». وكان يعرف أنه لا يحتاج بالفعل إلى نص مكتوب، فسألته: «ألم يكن بوسعك أن تخطب أمام حكومة الاتحاد دون نص؟» أجاب بلا تردد: «طبعاً كان بوسعي» قلت بدون تردد أيضاً: «فماذا عن هذه؟ ما رأيك بأن تحمل إلى هناك ملخصاً فيه رؤوس أقلام، وتجرب غداً؟».

في البداية قال الرئيس إنه سيفكر بالأمر، لكنه بعد أن شجعته أكثر، وافق على أن يجربها.

كان يحترق بنار مرض شديد هو تحصير القرارات وصياغتها، كما عند لاني غينييه في «الموعد»، أو في كتابه الأول «مرحون في الجيش» الذي مال فيه إلى الإفراط في الصياغة والإعداد، ولم يسمح لنفسه بالاسترسال بعفوية دون قيد. لكنني كنت في أركنساس، وأتذكر كم كان أفضل وهو يرسم لنفسه خط سير الخطبة، مهتدياً بملخص يحوي الأفكار الرئيسية.

أدركت أيضاً مدى تدهور ثقته بنفسه أمام مصاعب أول سنتين له، وأمام هزيمته المدمرة عام ١٩٩٤. وأدركت أن حمله على نبذ النص المكتوب وعلى الثقة بالنفس هو الخطوة الهامة الأولى، فصممت على أن أراه وهو يخطوها.

وهكذا، تم إلقاء خطبة كوم الفيتو ارتجالاً، شأن خطب أخرى عديدة تلتها. وسارت الأمور في دالاس بشكل جيد. وعلّق المحررون أنهم سمعوا كلينتوناً جديداً، متميزاً بالشكل والمضمون. ورصدوا له وقتاً مماثلاً لما رصدوه لاحتفالات غينغريتش بمناسبة مرور مئة يوم على استلامه المنصب في الكونغرس. باختصار، عاد كلينتون إلى أرض الملعب.

لقد عارض بانيتا، بعد هزيمته الأولى، أية توجهات جديدة نحو المركزية. فبدأ يظهر ودوداً، يضع ابتسامة نظامية على وجهه، مع هزة رأس لبقة، لكن سلوكه لم يكن ليعبر عن شيء مما يدور في ذهنه. وتحت قناع من اللطف ومن الرغبة الظاهرية بإرضاء الآخرين، كانت تختفي إقليمية شديدة وريبة طاغية بالوافدين الغرباء.

وتم نقله بناءً على اقتراح غور من منصبه كمدير لمكتب الإدارة والميزانية إلى وظيفة رئيس للموظفين ، فجمع بانيتا موظفي البيت الأبيض ووحّدهم ، ووضع بذلك حداً للتسريبات الهدامة التي أحرجت الرئيس وشوهت صورته في أول سنة من ولايته .

اعتمد ليون في صراعه مع التسريب ، على التسريب المضاد ، بحيث إذا قام موظف مجهول بالإدلاء بموضوع ما إلى الصحافة ، استطاع ليون أن يكتشفه فوراً . من الذي تربطه روابط صداقة بالمحرر ؟ من الذي ورد اسمه في فقرة من فقرات المقال ؟ من الذي ورد مديحه في الصحيفة قبل أيام بقلم المحرر ذاته؟ ولم يكن ليون في محكمته الشخصية هذه يحتاج إلى أية أدلة عدا الشك المنطقي والريبة المعقولة . فإذا شكَّ بأنك أنت ، فهو أنت !!

ثم انتقل ليون بمنهجه هذا إلى سكرتيره الصحفي باري تويف . رجل بشاربين ، بريء المظهر ، ذو وجه كوجوه الأطفال ، معروف في البيت الأبيض باسم « السفّاك » . اعتاد باري أن يتحدث إلى أحد المحررين الصحفيين ، في جريدة وول ستريت على الأغلب ، وسرعان ما ظهر مقال يقول إن موظفاً معيناً من الطاقم كان على اتصال مع أحد الشخصيات خارج الحكم ، وأخبره بأمر حدث منذ عدة شهور ، فخضع باري للتحقيق . وتوقف التسرب .

وهكذا فرض ليون انضباطاً في البيت الأبيض ، كانت الحاجة إليه ماسّة جداً . لكن الأصالة والإبداع لم يكونا من صفاته القوية . فقد كان من قادة البيت الأبيض لفترة طويلة ، كرئيس مسؤول عن لجنة الميزانية ، وكان أحد اثنين مسؤولين عن قيادة الديموقراطيين في المجلس . هدفه الوحدة والإجماع في الحزب . لكن الوحدة الحزبية في هذه المرحلة كانت آخر ما نحتاج إليه . كنا بحاجة إلى رسم طريق ثالثة مستقلة ، أكثر من حاجتنا إلى الذوبان في بوتقة التقليدية العتيقة الطراز للقيادة الديموقراطية .

كان التعامل المباشر (وجهاً لوجه) مع ليون عديم الجدوى ، إذ لم يكن يصغي لأحد . وحين يعارضك في الرأي والموقف ، لا يدعك تعرف أبداً أنه يعارضك ويختلف معك .

كنت أعرف أن بانيتا أصدر نشرات تعليمات كاملة لطاقم الموظفين ، يطلب منهم فيها مراقبة تحركات موريس عن كثب وإعلامه بها ، ويأمرهم بتجميدي ما وسعهم ذلك . والمؤكد أنه ذهب إلى أبعد من هذا ، بإبعاد بيل كاري عن نشاطات البيت الأبيض ، حتى نسي أن يدعوه لحضور الاجتماعات . وجعل موظفيه يمنعون كاري ذات مرة من الدخول ، حين جاء لحضور أحد الاجتماعات .

ناقش كلينتون معي موضوع المبادرة بنهج جديد يتعلق بالجريمة والهجرة . وفي اجتماع يوم ١٦ مايو /أيار من عام ١٩٩٥ ، الذي حضره ليون ، لمجموعة رسم الاستراتيجية ، اشتكيت من قمع أفكاري وإخمادها . قلت : « ثمة أسنان كثيرة مقلوعة » وأعني الأفكار التي ولدت مقتولة :

ــ بعد مناقشة موضوع أليزابيث هولتزمان النائبة العامة في قطاع بروكلين ، اقترحتُ اتخاذ إجراءات صارمة بحق المليشيات . كان بإمكاننا أن نطالب بتنظيم ملفات بجرد ومخزون الأسلحة لدى الشرطة المحلية ، مع ملاحظة منح الشرطة ورجال المكتب الفيدرالي (FBI) حرية الحركة والمناورة ، وأن يحذر الرئيس المواطنين الأبرياء عن طريق نشر قوائم بمنظمات الإرهاب المحلية . لكن هذه الخطة تم القضاء عليها ، إذ عارضتها إدارة العدل محتجة بالحريات المدنية .

ــ وركزت بإلحاح أكثر على الهجمات المكثفة على سياسة التجارة اليابانية ، التي أوقفها موظفو مجلس الأمن القومي الذين بدلاً من أن يكونوا حراساً وحماة لها ، سرّبوها إلى الصحافة .

ــ أراد الرئيس ، سعياً مع التوجه الوطني إلى التغلب على مشكلات الأجانب المقيمين بشكل غير شرعي وقانوني ، زيادة حملات الترحيل ، فاقترحت تشجيع الولايات على رفض منح إجازات سواقة للمهاجرين غير الشرعيين . وبما أن معظم نقاط الشرطة على الطرقات العامة ، فسيسهِّل الاقتراح التعرف على غير الشرعيين . فإذا وجدنا مواطناً أو مهاجراً شرعياً يسوق سيارة دون إجازة سجلنا عليه مخالفة ، أما إذا كان مقيماً بشكل غير شرعي أرسلناه إلى « مصلحة الهجرة والجوازات » ليتم ترحيله . لكن مصلحة الهجرة والجوازات قضت على هذه الفكرة ، قائلة إنها لا تريد التعرف على مزيد من هؤلاء غير الشرعيين ، طالما أنها لم تستطع ترحيل من تعرفهم منهم فعلاً . يا له من جواب غريب !!

ــ وحتى مشروعي في دعم عدم التسامح بمسألة قيادة المراهقين للسيارات وهم سكارى ، الذي بمقتضاه يعتبر وجود أي كمية من الكحول في دم المراهق قيادة في حالة السكْر ، فقد تم القضاء عليه أيضاً ، لأننا لم نحصل على موافقة حكام الولايات الديموقراطيين عليه .

لقد قام موظفو البيت الأبيض بتعطيل أو بتأخير اقتراحاتي ، وأسعدهم أكثر لو أنهم استمعوا كل يوم إلى أسطوانة خطابات غيبهارد المكررة المملة التي يهاجم فيها تخفيضات الجمهوريين للميزانية ، إذ نادراً ما يقترح طاقم الموظفين في البيت الأبيض أي مشروع ، أو يقدمون فكرة من إبداعهم .

وبعد أن عبرت عن مدى الإحباط الذي أصابتني به هذه الحواجز الطرقية ، تساءلت في اجتماع يوم ١٥ مايو / أيار قائلاً بسخرية : « لماذا الإسراع والعجلة ؟ هل يجب لمجرد انخفاض

عدد شركائنا إلى ٤٠٪ وانخفاض عدد مؤيدينا إلى ما دون الـ ٥٠٪، أن ندق ناقوس الخطر؟».

غضب ليون بانيتا وقال إنه «يرفض أن ينتقل البيت الأبيض إلى يد مستشار سياسي»، فرددت عليه ضربته بمثلها قائلاً إنه سينقل هذا البيت الأبيض إلى أيدي الجمهوريين بعد سنة واحدة، إذا ما تابع مسيرته على المعدل الذي هو عليه الآن.

كنت قبل الاجتماع قد أطلعت غور على همومي ورجوته مساعدتي في كسر هذا اللجام. فنحن نرفع الشواهد على قبور الأفكار في مقبرة مهملة، في الوقت الذي نحتاج فيه إلى إحيائها.

لقد آمنا، كلينتون وأنا، منذ سنوات وسنوات، بأن القضايا الحية هي المجداف الذي يجب استعماله ليزودك بالقدرة على عبور المستنقع السياسي. بينما يفضل آخرون الخيال والصور والإجراءات والسلبيات. كما آمنا بأن المسائل الواقعية هي الطريق الوحيدة التي يعرفك الناس من خلالها على حقيقتك.

من هنا قلت لغور، واضعاً هذا كله في بالي، إن جهودي ومحاولاتي لن تثمر، إذا ما استمروا (بانيتا وجماعته في البيت الأبيض) في إقامة الحواجز والعراقيل. فتعاطف نائب الرئيس معي، وانتبه لمدى البرود الذي سبق لطاقم الموظفين أن استقبل به أفكاره ومشاريعه منذ سنتين مضتا، وكيف كان يشعر وكأن الأبواب توصد في وجهه.

علّق الرئيس باقتضاب على الجدل الذي احتدم في اجتماع ١٦ مايو/أيار، وأوقف المعركة قائلاً إنه سيهتم بأمر هذا الخلاف «فيما بعد». فطلبت مقابلة الرئيس ونائبه بعد الاجتماع على انفراد. وجلسنا في قاعة المعاهدات، الرئيس بيني وبين نائبه. قلت لنفسي: «لقد حشر نفسه بين فكي ستيريو».

بدأت فأوضحت فشلي وألم الإحباط الذي أشعر به ثم قلت: «إسمع، لقد استأجرتني لأعيدك إلى حلبة السباق، وقد حققنا تقدماً حسناً في هذا السبيل، لكنه لا يكفي. لقد غامرت على الصعيد الشخصي بكل ما أملك، مستقبلي، قدرتي على العمل في هذا الحقل مرة أخرى، لأتمكن من الفوز بهذا السباق، إلا أنني الآن محبط محرج، وفي وضع يتهدد الموت فيه «شاهي» بنقلة واحدة على يد البيروقراطية المكتبية».

انضم غور إلى صفي، فتحدث عن معاناته هو في التعامل مع الطاقم بمسائل عزيزة عليه، كالإصلاحات الحكومية وحماية البيئة. فأجاب الرئيس بضعف واضح: «أنا لم أسترح بعد مما لحقني من عناء في رحلتي إلى روسيا»، قال هذا رغم مرور أسبوعين على الرحلة.

قاطعته قائلاً : « أنا لا أريد الكلام عن حادث بعينه ، ولا أريد حتى الكلام عن طاقم موظفيك ، أنا أريد الكلام عنك أنت » ، وأشرت إليه بإصبعي وأردفت وصوتي يعلو على سلم الكلمات صعوداً « أنت أكبر مشكلة عندي . أنت لست ذات الرجل الذي عملت معه مرة في أركنساس . ذاك كان شاباً يحب المخاطر ، ويقبل تحدي المسائل الواقعية ، ويعرف أن القتال مع الأعداء يبني له قاعدة سياسية ، ويفحص المدرسين ، ويصارع المؤسسات ، فأين ذاك الرجل ؟ أين الذي وقعت معه عقداً بأن أعمل لأجله ، وبأن أتبعه إلى آخر الدنيا ثم أعود به ، وبأن أراهن عليه في كل السباقات اليومية . أين هو بحق الجحيم ؟ » .

همس غور يطلب مني أن أخفض صوتي . وابتسم كلينتون وهو يقول : « لو استمريت بهذا الصوت المرتفع ، فسيظن موظفو الأمن أنك تحاول قتلي ، وسيسرعون إليك بمسدساتهم » ، فهدأت .

عادت الجدية إلى وجه الرئيس ، وشبك يديه فوق صدره ، حتى لتكاد أصابعه الطويلة تتلامس وهو يستعين بها على توضيح ما يدور في خلده ، ثم أوضح قائلاً : « ثمة فوضى تشويشية تحكمنا هنا . نحن نعقد يومياً ثلاثة أو أربعة اجتماعات ، تدوم ساعات وساعات ، أجلس فيها ، ونتخذ القرارات كما تفعل أية لجنة أخرى ، ثم أقرأ محاضر هذه الاجتماعات والقرارات الصادرة عنها على الورق . حتى ترك ذلك انطباعاً عاماً بأنني متردد ، في حين أنني لست كذلك . كل ما في الأمر أنني لا أملك وسائل صنع قراراتي على انفراد . كل خطواتي وحركاتي وكلماتي تتسرّب . ثم جاء ليون ، وفرض بعض النظام والانضباط ، ولعله تمادى في هذا الخط ، أو لعلنا نحن ما زلنا بحاجة إلى مزيد من الانضباط » ... ومضى يراوغ ويداور حول النقطة الأساسية في الموضوع ، ولا يتحدث عن نفسه .

قلت : « أنا لا أستطيع يا سيدي أن أساعد على إعادة انتخابك إلا إذا تغيرت . أنت الآن يا سيدي تشبه قطة « بيرش باي » .

كنت أشير إلى قصة مارك توين التي اعتاد عضو مجلس الشيوخ أن يرويها بعد الحرب الفييتنامية معارضاً الاتجاه الانعزالي . وتابعت قائلاً : « بعد أن جلست القطة على غطاء فرن حار ، تعلمت ألا تجلس أبداً أبداً على غطاء فرن حار . لكنها لم تعد إلى الجلوس أيضاً على غطاء فرن بارد . أنا أعرف أنك تعيش الهزيمة القذرة النجسة التي حاقت بمشروعك عن الرعاية الصحية ، وأعرف أن زيادة الضرائب قضت عليك ، وأعرف جميع الضباط في القوات المسلحة ، ولكن عليهم لعنة الله جميعاً ، علينا أن نقاتل ، علينا أن نخوض كل المعارك . عليك أن تقف مواقف جديدة ، مواقف صحيحة تؤمن بها . عليك أن تتصرف بجرأة وجسارة ، وإلا فلن يجدي ذلك كله شيئاً » .

رفع الرئيس ذراعيه في حركة استسلامية وقال : « فهمت .. فهمت . لقد كنت قلقاً من مسألة الإرهاب وأوكلاهوما ، وقضيت الليل أعمل في مسألة البوسنة ، حتى أنني لم أنم حتى الآن . لقد فهمت ، وسنحقق ذلك » .

كلما شعر الرئيس بفشله ، بحث عن شخص أو عن أي شيء يضع عليه اللوم . لكنني كنت أعرف أيضاً ثقل الأمر عليه ، فألتمس له الأعذار وأترك الأمور تجري ، وهذا ما فعلته هذه المرة رغم خطورة الوضع وأهميته .

قلت له إنني أشك باحتمال حدوث أي تغيير حقيقي ، طالما بانيتا على رأس طاقم الموظفين ، وأردفت : « إنه يقيم الحواجز في وجه كل شيء ، حابساً نفسه في الخط الليبرالي الديموقراطي القادم من الكونغرس . حتى الأشياء التي يوافق عليها إيديولوجياً ، يرفضها لأنها تغير من أسلوب الحكومة في العمل . أما الأشياء التي يوافق عليها من جميع الجوانب ، فيرفضها لأنها من عندي » .

قال الرئيس يدافع عن بانيتا « إنه ليس ليبرالياً ، إنه مجرد معتدل فقط ، ولقد أخطأت فهم الرجل » . قلت : « أنا لا يهمني ما إذا كان ليبرالياً ، أو عضواً في المؤسسة ، أو بيروقراطياً ، أو مجرد معارض . أنا لا يهمني السبب . ما يهمني هو ألا يقف بالموظفين في وجه ما أقوم به لصالحك ، لأدفع بك نحو المركز . حين أخطىء فله أن يفعل ما يشاء ، لكنني أصيب أحياناً . وليس في جعبتي دائماً ثلاثون اقتراحاً وفكرة أستبدل بها الثلاثين التي أعدمها هو رمياً بالرصاص » .

انبرى غور للدفاع عن ليون فقال : « ديك ، أنا أعرف ليون جيداً ، فأنا الوحيد الذي أقنع الرئيس بتسميته رئيساً للطاقم . ولو أننا جلسنا معه ، وتولّى الرئيس توضيح اهتماماتنا له ، فسوف يتبنى ليون تنفيذها ، صدقني » .

وانتهت المقابلة ، ومضى غور . فقلت للرئيس بعد أن أصبحنا وحدنا : « توقّف عن التماس الأعذار لتبرير هزيمتك في عام ١٩٩٤ ، التي جاءت مثل هزيمتك في عام ١٩٨٠ ، أنت تهيم حزيناً ، لائماً نفسك على كل القتلى من الديموقراطيين في عام ١٩٩٤ ، تعُدُّ قبورهم كل ليلة . دع عنك كل هذا ، فأمامنا انتخاب يجب أن نفوز به ، ولن نفوز إلا إذا تحركنا » .

تأملني بهدوء عميق ، وهو يفكر بما قلت . كنا واقفين بجانب رفوف الكتب المصفوفة في آخر قاعة المعاهدات . فوضعت يديّ على أعلى ساعديه وضغطت مشجعاً ، ثم همست « أعدْ إلى روحك طمأنينتها . استعد هدوء أعصابك القديم » . نظر إلي بعينين محتقنتين متعبتين وبوجه هادىء حزين ، وهزَّ رأسه قائلاً : « سأفعل » .

كان كلينتون يود لو يتحرك نحو المركز ، لكنه يريدني أن أدفعه . لم يكن يريد أن يتدخل إلا إذا اضطر لذلك . ما فائدة اللجوء إلى العضلات السياسية لتحقيق ما أستطيع تحقيقه بالرضا ؟ لكنني أوضحت الآن وأنا أعني ما أقول ، أنه ما لم يتحرك ويحقق ذلك بنفسه ، فلن يراني هنا أتجول وأشهد السفينة وهي تغرق . قد لا يستعمل الناس كلمة « سلبي كسول » في وصف كلينتون ، لكنه في أحيان كثيرة كان سلبياً كسولاً بليداً .

مشيت مع أنسام الليل الباردة على طول شارع بنسلفانيا متجهاً إلى غرفتي في فندق جيفرسون . كنت مرتاحاً ، نشيطاً ، ماضي العزيمة ، فلقد تحدثت مع كلينتون بشكل لم يسبق لي أن فعلته من قبل ، إذ لم يحصل أن اضطررت إلى ذلك من قبل ، ولم يكن ثمة ما يدفعني إليه . وعرفت أنه إما أن يغضب ويستاء مني إلى الأبد بسبب هذا التطفل الغني عن الوصف ، أو أن يفهم أن الأوان قد آن ليستعد ويتجهز للعمل .

توالت أشياء كثيرة جداً على كلينتون دفعة واحدة بين منتصف أبريل / نيسان ومنتصف يونيو / حزيران من عام ١٩٩٥ . خطبته في أوكلاهوما ، براعته في مؤتمر القمة مع يالتسين ، هبوط شعبية غينغريتش ، ساهمت كلها في رفع طاقاته ، ولعل محادثتنا قد ساهمت بذلك أيضاً .

لحسن الحظ أنه فهم المقصود ، فتغيرت الأمور فوراً . وافق على خطبة توازن الميزانية ، وواجه تحديات القضايا التي تحتاج إلى تحرك حازم ، وهاجم بعنف شركات التبغ ، وبدأ يصدر سلسلة من القوانين التنفيذية ، ووافق على قصف البوسنة بالقنابل ، ووافق على حملة إعلانية ضخمة ، ووقف موقفاً حازماً في معركة الميزانية بوجه الجمهوريين .

ولم يكن ذلك بفضل حديثنا فقط ، لكن التغيير بدأ من تلك الليلة . أنا لم أفهم بالفعل العلاقة التي تربطنا أبداً ، ولم أشأ أن أفهمها البتة ، لأنه ليس شخصاً انبساطياً من الجانب العاطفي ، رغم شخصيته المحببة . ومع ذلك فأنا أعرف بالتأكيد أنه أصبح يمشي بشكل مختلف ويتكلم بشكل مختلف ويتصرف بشكل مختلف منذ تلك الليلة في مايو / أيار .

لم يسبق لأحد أن تحدث مع الرئيس بالشكل الذي فعلته أنا . والذي مكنني من ذلك هو الفترة الطويلة التي قضيناها معاً منذ أيام أركنساس ، ولم أنتظر طويلاً لأجني الثمار . في الرابع من يونيو / حزيران استدعيت لاجتماع خاص في البيت الأبيض مع الرئيس بمسكنه يحضره بانيتا . اتصلوا بي للحضور إلى واشنطن قبل الاجتماع بليلة ، حين كنت مع زوجتي نتناول العشاء في مطعمنا المفضل بشارع ماين ، وقد استأجرنا منزلاً ذا إطلالة رائعة على البحر ، وتظاهرنا كما لو أن وقتنا كله لنا . لكن شيئاً أفسد تلك المقطوعة الخيالية الرائعة ، هو

مخابرة هاتفية من الرئيس. قال: «لقد رتب آل موعداً مع بانيتا، وعلينا أن نجتمع يوم الأحد، أين أنت الآن؟» أجبته متردداً: «في ماين، ببيتنا الصيفي»، قال: «أنا آسف لقطع عطلتك في نهاية الأسبوع، إنما يجب أن نجتمع يوم الأحد». قاطعته قائلاً: «الأحد مناسب جداً» قال: «بإمكاننا أن نجعله في ساعة متأخرة، ما رأيك بالساعة التاسعة والنصف مساءً؟» قلت: لا بأس حتى لو كان في الثالثة صباحاً، فالأمر لك. وانتهت المخابرة.

هذا شأن كلينتون دائماً، معي على الأقل. فهو يحذر ويراعي أن يقاطع أوقاتي العائلية. وكان ذلك يؤثر بي، خاصة وهو يظن أنه يكاد يفتقدني بعد اجتماعنا الأخير.

من الملفت للنظر، أن المشاركين في الاجتماعات الأسبوعية المنتظمة يميلون إلى أن يجلسوا في ذات الأماكن التي يجلسون فيها بكل اجتماع، وكأن ثمة أوامر اصطلاحية غير مكتوبة يحترمونها جميعاً، رغم أن بإمكان كل منهم، نظرياً، أن يجلس حيث يشاء. هكذا كانت الحال في اجتماعاتنا، التي تعقد عادة في قاعة المعاهدات، وهكذا كانت الحال في اجتماع يوم الأحد. جلس الرئيس على أريكته ذات المساند، وظهره إلى طاولة مكتبه وإلى النافذة، مقابل الضلع الصغير من طاولة القهوة المستطيلة، وجلس نائب الرئيس بجانبه على الأريكة عند الطرف الآخر من الطاولة على يسار الرئيس. وجلس بانيتا مقابل نائب الرئيس.

بدأ غور الاجتماع، بترتيب من الواضح أنهما اتفقا عليه قبل هذا الوقت. تحدث عن الصعوبة التي يعانيها جميع أفراد الطاقم بالبيت الأبيض، في التوحد مع أنفسهم والاندماج مع الفرق الأخرى في الموسم الانتخابي. وبتصويره المشكلة بألوان العمومية الشاملة، أكثر مما هي مشكلة محددة بيني وبين ليون، فقد جمَّد الكثير من غضبنا، وأرسى أول قاعدة للحل. قال إن الحاجة إلى اجتماعنا الآن، هي لتوضيح إرادة الرئيس في أن يعمل الطاقم في عمليتي السياسية معي جنباً إلى جنب.

كان توم فريدمان قد أعدَّ لي موجزاً لخص فيه الخلافات الماضية بين البيت الأبيض وعمليات الحملة الانتخابية أيام كارتر ١٩٨٠ وريغان ١٩٨٤ وبوش ١٩٩٢، ومحاولات إعادة الانتخاب. كما كنت قد مررت هذا الموجز إلى موظفي نائب الرئيس، ليساعده هذا على إضفاء شمولية أكثر على الاجتماع.

هنا تدخل الرئيس قائلاً: «ليون، لقد اخترت ديك، ليكون مخطط استراتيجياتي، ولقد سبق أن عملت معه من قبل، ويعرف أحدنا الآخر. أنا بحاجة إلى أن أبني عالياً. لدينا مساحة شاسعة هنا، وعلينا أن نبني عالياً. ولقد أحضرت ديك ليساعدنا على البناء، وأريدك أن تساعده في هذه المهمة».

هز ليون رأسه بإذعان، لكنه قال ساخطاً: «سيدي الرئيس، سأتقدم باستقالتي قبل أن أسمح لأفكار فجة أن تنفذ في هذا البناء، وقبل إتاحة الفرصة للخبراء الذين أمضوا حياتهم في العمل بهذه المساحات لأن يعدلوها ويجعلوها مجدية. نحن لا نستطيع أن نحول طاقم البيت الأبيض ومجلس الوزراء إلى أيدي مستشار سياسي بهذه البساطة».

أجاب الرئيس: «ليون، أنا أعرف أن ديك طموح ومندفع، وهذا أحد الأشياء التي تعجبني فيه. وأعرف أن عنده أفكاراً متطرفة، لكنها كلها أفكار جيدة. لقد عرفنا بعضنا وعملنا معاً مدة سبعة عشر عاماً، ويعرف كيف أفكر، كما يعرف تماماً ما أريد، وأحياناً نكتشف أننا نفكر في الشيء ذاته دون أن نتكلم. أنا بحاجة إلى هذا الرجل يا ليون».

قلت أناشده: «ليون، سأكون مسروراً جداً لو استطعت أن أعمل معك وبك. فمعك أتجنب الخروج من السباق، وبك أستطيع العمل عبر أقنية متعددة، وأضمن تنفيذ الأمور بدقة تكفل لأفكاري ومشاريعي الحياة. ونحن بحاجة إلى أن نضع النقاط على الحروف».

لقد سمعت من الرئيس الكلمات التي طالما أردت سماعها، وليون سمع مني الكلمات التي طالما أراد سماعها. ولهذا، سار الاجتماع أنيساً، هادئاً، عميقاً. لقد كان كل اهتمام ليون منصباً على ضبط الطاقم بالنظام، ووقف التسريب إلى الصحافة، وأصبح عليّ أن أضع الطاقم في مكانه من اللعبة.

منذ ذلك اليوم، تغير ليون. صحيح أنه ما زال حذراً مني، يحافظ على مسافة دائمة بيننا، إلا أننا كنا متسامحين، وبدأنا نتعلم كيف نعمل معاً. ومع ذلك ما زلنا بحاجة إلى تقارب أكثر نلتقي بعده في الوسط. فلقد منحني اجتماع يوم ٦ يونيو / حزيران، من وجهة نظر ليون، سلطة واسعة تتيح لي التدخل في شؤون طاقمه وموظفيه، ولم يشعر أن إنهاء ما تم الاتفاق عليه هو بيدي وحدي. كنت أتمشى في أروقة الجناح الغربي، حيث مكاتب الموظفين، أحاول تطبيق ما أحسُّ أنه يتوافق مع ما أراده الرئيس على جميع المستويات، وأمد رأسي من فوق أكتاف الذين يقومون على إعداد البيانات، فأضيف بعض الكلمات أحياناً، وأحذف بعضها أحياناً أخرى. فقام ليون، وهو يشعر بانخفاض رتبته، بالدعوة إلى اجتماع بعد ظهر يوم الأربعاء ٢٨ يونيو / حزيران في المكتب البيضوي، حضرته عصابة الأربعة ذاتها برئاسة غور، إنما بترتيب من ليون هذه المرة.

بدأ نائب الرئيس الحديث عن اجتماعنا قبل ثلاثة أسابيع، وبحثنا عن الطريقة التي يستطيع ليون بها أن يعمل معي. أما في هذا الاجتماع، فعلينا أن نضع أسس القسم الآخر المقابل، أسس الطريقة التي أستطيع أنا بها أن أعمل مع ليون.

ثم تحدث ثائراً غاضباً ، كيف أنني أشيع الفوضى ، بل وأبث روح التمرد عليه بين الموظفين . أنا لا أسمح لك ، ولن أسمح لك ، بالتسكع في قاعات الجناح الغربي ، تمدّ رأسك متطفلاً في كل مكتب ، لتسأل عن سير العمل ولتعطي التعليمات لهذا وذاك . أفضّل أن أستقيل قبل أن أسمح بهذا » . كانت الاستقالة تهديداً خطيراً لرئيس ما زال غير ذي خبرة بدروب واشنطن وحاراتها ، وما زال وضعه السياسي في خطر .

أكّد غور على طرح بانيتا وقال إننا بحاجة إلى تنظيم يقوده رجل واحد هو بانيتا . ولم يقل الرئيس شيئاً . فأثار صمته الغضب في داخلي ، وشعرت أنه تركنا لنغرق .

في اللحظة التي كنت أفكر فيها بتقديم استقالتي ، خطر لي أن الرئيس يحاول بصمته أن يقول لي : « ضع بالتعاون مع ليون ما شئت من قواعد وتعليمات » . فالبيت الأبيض تحكمه روح الملكية المطلقة ، وقد قال الملك كلمته . وباعتباري المستشار السياسي الأول للملك ، في سنة سياسية مثل هذه ، فأنا لست بحاجة إلى موظفي ليون لتسير الأمور في الاتجاه الذي أريده . مهمتي هي أن أقنع رجلاً واحداً ، لا شيء يمنعني من الوصول إليه سواه .

كان الرئيس برسالة صمته يأمرني بأن أخفف من قبضتي ، وألفلف الأمور ، وأخرج من الاجتماع سليماً معافى ، وقد فعلت . أوضحت أنني لا أجيد بالفعل العمل مع طواقم الموظفين أو مع الإدارات . وشرحت أنني اعتدت على العمل منفرداً في منزلي بكونيكتيكت دون طاقم ، بل ودون مكتب ، ودون طاولة . ولم تكن عندي حتى سكرتيرة ، فكنت أجيب على المخابرات الهاتفية بنفسي . وبيّنت بكل وضوح أنني لم أعتد على الروتين المكتبي وأنظمته ، ولم يسبق لي العمل في المؤسسات الحكومية . قلت : « ليس ثمة أصعب من العلم في الكبر » ، وكانت نكتة خففت قليلاً من التوتر القائم .

ثم قلت إنني بناءً على هذا أقدر طروحات ليون وأحترمها . فقام غور بإرساء بعض القواعد التي تحكم وتحدد صلاحياتي في البيت الأبيض ، على مدى الشهور الثمانية القادمة على الأقل . وبحلول عام ١٩٩٦ ، تحلحلت الأمور قليلاً ، وتنامت الثقة أكثر . فكنت لا أذهب إلى مكاتب الجناح الغربي إلا إذا دعيت لحضور اجتماع هناك . ولم أكن أقابل أحداً من أصحاب المناصب الرسمية في الحكومة إلا إذا قرر ليون أو إرسكين بولز بوضوح مع من ألتقي ، ومع من أعمل . كانت ثمة مجموعة إنجاز تجتمع مع الرئيس في اليوم التالي من اجتماعات رسم الاستراتيجية ، أنا لست من بينهم ، لتقرر بأي الأفكار تأخذ ، وأيها ترفض .

بعد اجتماع ٢٨ يونيو / حزيران لم ألتق بأي موظف رسمي من الهيئة التنفيذية ، دون موافقة مسبقة من بولز أو ليون ، وأصبحت أحوالي أفضل باتباعي هذه القواعد .

★★★★

بعد ذلك بعدة أسابيع، التقيت بالرئيس على انفراد في قاعة المعاهدات، لمدة ساعة في وقت متأخر من الليل. وأردت أن أفحص القرارات التي توصلنا إليها، غور وبانيتا وأنا. قلت: «أعتقد أنني فهمتك أخيراً». فأجاب: «حقاً؟ حدثني كيف». كان يرتدي بنطالاً فضفاضاً وقميصاً، ويرتب الأوراق المتناثرة في مكتبه هنا وهناك، ويتشاغل بهذه المهمة المنزلية عني متجنباً النظر إلي وأنا أتكلم. قلت وقد أدار ظهره لي يرتب الأوراق في أماكنها: «لقد نفذت جميع ما تم اقتراحه في اجتماعنا، يوم كانت ردة فعلك المعتادة نظرةً جامدة لا تدل على شيء. يومها لم أفهم ما أردت، أما الآن فأظن أنني أعرف تماماً ما كنت تعنيه بتلك النظرة الجامدة الفارغة». قال مشجعاً: «تابع»، وتابعت قائلاً: «كانت نظرتك تقول: (أنا أعرفك منذ سبعة عشر عاماً، وأنت تعرف كيف أفكر، وإلى أين أتوجه، وتعرف أنني أريد أن أصل إلى أهدافي، فافهم الأمور على هذا الأساس، وأعلمني بما ستقرره). وكنتَ تعني إذا ناسبك ذلك فتقدم، وإن لم فلا».

وتابعت بينما هو ما زال يرتب الطاولة والرفوف «لقد اعتدت أن أتساءل وأعجب، لماذا لا تحكي لي أبداً عن همومك ومقاصدك، ولماذا لا تشرف بنفسك على المسائل التي أعمل أنا بها. لكنني أدركت بعدها أنك رئيس، وأن لديك أشياء أخرى يجب القيام بها».

تلفت الرئيس حوله، ثم توقف بعصبية وهو ينظر إلي مباشرة نظرة جامدة فارغة. فتابعت قائلاً: «أنت تقول لي بشكل أساسي (أنت في مثل عمري، ومع ذلك فأنت سياسي جيد، تستطيع أن تفهم الأمور أفضل مما أفهمها أنا، فامض في عملك، وسأشرف بنفسي على موضوعك حين يصبح جاهزاً). وهذا ما جعلك لا تشارك في دفع الناس عني بمرفقيك، وجعلك تمنحني سلطة في البيت الأبيض على أساس أن يبقى ذلك سراً. فأنت لا تريد أن تنفق رأسمالك السياسي على أمور تخصني، أستطيع أنا أن أقوم بها بشكل أو بآخر. فثمة أمور أخرى أحق بأن تنفق رأسمالك السياسي عليها».

نظر إلي حوالي عشرين ثانية، ليستوعب ويصنف ما قلت، ثم جلس على أريكته ذات المساند وابتسم بارتياح قائلاً «لقد فهمتها أخيراً». هززت رأسي متمنياً له ليلة سعيدة، ثم مضيت دون كلمة.

لقد أصبحت أعرف أين أقف بالضبط. ويبدو أنه حان الوقت كي أتوقف عن افتراض أن كلينتون سيحميني مقابل أن أقدم له النصائح السياسية. فعليّ أن أقوم بالأمرين بنفسي، الحماية والنصائح. لقد قام في الاجتماع الأول مع بانيتا بما توجب عليه أن يقوم به، وأنفق وقتها بعض رأسماله السياسي، وليس مستعداً أن ينفق المزيد. إنه دوري الآن.

كان البيت الأبيض قبل أن آتيه، يسير في مدار بانيتا، وهارولد آيسكيس معاون رئيس الطاقم، وجورج ستيفانوبولوس المستشار الأول. أما آيسكيس فقد كان وسيبقى منافسي وخصمي الخاص، ومعه حق في أن يكون كذلك. إذ حين جئت كان مشرف التنظيم الوحيد على الحملة الانتخابية، شأنه في كارثة عام ١٩٩٤. أما الآن فأنا أزاحمه في حلبته. بقي عليه أن يظل مسؤولاً عن مراقبة العلاقات مع الحزب الديموقراطي وحزب العمال، والسياسات المحلية، والتعيينات، والمجال التنظيمي، وزيادة الاعتمادات، وطاقم الموظفين. بعد أن أخذت أمر الاهتمام بالرسالة والإعلام.

كان يعارض بشدة الخط المعتدل الذي رسمته مع الرئيس، بعد أن كان ليبرالياً فترة طويلة من الزمن، وابناً لوزير داخلية ورث عن أبيه الكثير من حدة الطباع والبخل.

يعتبر هارولد مثالاً للمدرسة التقليدية القديمة، وللعقيدة العمالية الليبرالية الديموقراطية. نادراً ما يتحدث في اجتماعاتنا لرسم الاستراتيجية، التي كانت تمتد بين ساعتين إلى ثلاث ساعات، وأحياناً كان ينام، أو ينصرف مبكراً، أو لا يتجشم عناء الحضور. لم يكن واضحاً ملتزماً. كلما ألقى خطبة عن كيفية ترتيب اجتماعات التخطيط التي نعقدها، قرأها حرفياً من ورقة مطبوعة على الآلة الكاتبة. وكلما تكلم، طرح أسئلة، أراها عدوانية، يتراجع عنها بسرعة حين يحصل على أجوبة لها، أو حين يتم دحضها من حيث المضمون.

أما خلف الكواليس، فقد كان مقاتل شوارع حقيقي. عارض كل ما أردت القيام به، بكل وسيلة استطاعها. بدءاً من فواتير المشروبات في فندقي (لم تكن أكثر من كولا دايت وعصير برتقال ليس معها كحول، قمت بإعادتها فيما بعد) وانتهاءً بتسريب القصص التي تشوه سمعتي. حين واجهت آيسكيس بمسألة التسريب إلى الصحافة، أنكر مسؤوليته عنها، لكنني لم ولن أصدقه. كان خصماً عنيداً.

ومع ذلك، لم يكن يشكل تهديداً يومياً مستمراً. قال لي الرئيس ذات مرة: «أنا أعرف أن هارولد لا يستطيع إدارة وتسيير الحملة الانتخابية». كان كلينتون يعجب ويستغرب هذا الغضب المكبوت الكامن تحت سطح هذا الوجه النحيل، والمختفي تحت طيات شعر أحمر «إنه يبدو ثائراً دائماً، ولا أدري ما الذي يثيره ويغضبه». ثم تابع الرئيس قوله إنه يأمل أن يسيطر هارولد على غضبه، قبل أن يكون سبباً في دماره.

أنا لم أكن، إلى حد ما، أكره هارولد، أو أحمل له ضغينة. فقد خسر وضاع، ومن حقه أن يغضب. لقد أعطاني الرئيس الدور الذي سعيت إليه. ولم أكن أطمع في تسيير السياسات الداخلية، أو في السيطرة على أقسام أخرى من حلبة هارولد. كانت هجماته

مزعجة ومخيفة أحياناً، لكنني كنت أفضل ألا ألقي إليها بالاً. لقد قاتلته فقط حين حاول القضاء على حملتنا الإعلانية، أو حين حاول التشكيك بأني أرتشي.

آيسكيس يستحق شرف الفضل في مساعدته الرئيس على تفادي الهزيمة في الانتخابات التمهيدية، بإقامته الجسور بين كلينتون واتحادات العمال من طرف، وبين كلينتون والناطقين باسم الأقليات من طرف آخر. فقد كانت عينه دائماً على مطالب الجناح اليساري في الحزب، وعالجها ببراعة وحنكة.

لكن هارولد لم يكن له أي شأن في السبب الأهم الذي جنّب الرئيس الهزيمة في معركة الترشيح عند الديموقراطيين، هذه المعركة التي نافسه فيها ديك غيبهارد وبيل برادلي وسام نان وبوب كيري. إن الذي أنقذ كلينتون من هذا الفخ هو ببساطة معدلاته في الاستطلاعات الإحصائية.

ولعل لحساب كلينتون المصرفي العامر المنفوخ فضلاً في إسكات الخصوم وإخماد أصواتهم. رغم أن نجاح الرؤساء بفضل أرصدتهم المالية قليلاً ما فشل في الماضي بالانتخابات التمهيدية للفوز بالمناصب في عهد الرؤساء الديموقراطيين، من مثل المناصب التي اعتلاها جين ماكارثي وتيد كينيدي.

ومع ذلك، فلا يجوز لغيظي أن يحجب حقيقة أن اتصال آيسكيس بالأقليات والليبراليين قد ساهم كثيراً في تفادي التحديات الانتحارية عند اليساريين، أمثال جيسي جاكسون. فمن هذه الناحية، قدم هارولد خدمة للبلد بدعمه بيل كلينتون.

****

قصة علاقتي مع جورج ستيفانوبولوس، قصة أكثر بهجة وتعقيداً. قابلته أول مرة في دعوة عشاء أقامها هارولد بمطعم كينكايد، المطعم المفضل في واشنطن عند طاقم الموظفين بسبب قربه من البيت الأبيض، وموعد إغلاقه المتأخر. وكان هارولد قد دعا أيضاً يانيس إنرايت، مساعده الخاص، الذي يجلس على الطاولة المجاورة له في المكتب، ونادراً ما يغيب عن جانبه. ويانيس رجل عاقل، دمث، حلو المعشر والمحضر، رحبتُ بوجوده حين اتفقت مع هارولد.

تحدثت مع ستيفانوبولوس في مطعم كينكايد أكثر من أربع ساعات، عن النظرية السياسية والاستراتيجية. وكانت وجهة نظره تختلف تماماً عني، حول تصديق خطة الميزانية التي حصلت من قبلَ. وحذر من تأثير الاعتدال على سياستنا الأساسية في الكونغرس.

حاولت جاهداً أن أكسبه لصفي. فتجاوب بصبر رائع، موضحاً النقاط التي يتفق معي عليها، والنقاط التي لا يتفق. ورغم أنني لم أفلح في إقناعه بشيء، إلا أننا مع انتهاء العشاء عرفنا أين يقف كل منا. إن أمانة ستيفانوبولوس وارتباطه بمواقفه أمر مميز يثير الإعجاب.

بعد أن غادرنا المطعم، تاق آيسكيس وإنرايت إلى الذهاب إلى البار. وبين كأس ويسكي له وكأس كونياك لي تحرر الحديث وانفكت عقدة الحوار، وشعرت تجاهه بدفءٍ ما زال مستمراً إلى اليوم.

اشتهر جورج كثيراً بضرباته العنيفة الوحشية. فهو رجل قصير، ذكي، تجاوز الثلاثين، في الأغلب الأعم تجده في مكتبه الصغير الضيق المجاور للمكتب البيضوي، حيث يجلس مكوماً على كرسيه ورجلاه فوق الطاولة، يرتدي في الصيف بدلة مخططة، ويجري الاتصالات الهاتفية، مستعرضاً الأقنية التلفزيونية بجهاز التحكم وهو يبحث يائساً عن الأخبار. إنه من الذين يريدون أن يكونوا على رأس الأوائل في معرفة كل شيء، وأي شيء.

كان تركيزه يعادل تركيزي، وبراعته وحنكته لا تقل عن براعتي وحنكتي، فكأن أحدهما تتمم الأخرى. كان سيد داخل واشنطن، وكنت سيد خارجها. كان شديد التأثر والاهتمام بصحافة واشنطن وديموقراطيي الكونغرس، أمران أعرف عنهما أقل من القليل باعتباري أهتم وأركز على مواقف الناخبين والرأي العام في طول البلاد وعرضها.

تعتبر جوانب المقدرة والقوة عند ستيفانوبولوس ناجحة وفعالة اليوم وغداً في تفادي أخطاء المستقبل، والحفاظ على إيجابية الدورة الإخبارية. فإدارته لفريق «الجواب السريع»، الذي تخطى كل هجوم قام به دول، أفقدت الحملة الانتخابية السخيفة للجمهوريين توازنها تماماً. وفي قمة الحوارات المتبادلة مع الحملة الانتخابية لدول، يقول: «كان علينا أن نفوز كل أسبوع، وكل يوم، وكل ساعة». وأعجبت بهذه العاطفة الفياضة وبهذا التركيز.

كان جورج قليل الاهتمام بالاستراتيجية، لكنه كان مهووساً بالتكتيك. يستطيع أن يحملك إلى الغد، لكنه لا يستطيع أن يحدد لك وجهتك بعد سنة. أما أنا فأركز على استراتيجية بعيدة المدى، ثم أحاول أن أحققها يوماً بعد يوم. لكنني لسوء الحظ، حين أثبت أنظاري على الأفق مستغرقاً في الأهداف الاستراتيجية، أصبح عرضة للتعثر بأية حصاة مرمية في طريقي. أنا لا أقدر خطورة الحواجز في السباقات قصيرة المدى، فأحاول أن أدوسها كالدبابة، بينما كان جورج يعرف كيف يناور ويدور حولها.

ولكن برغم إعجابي وتأثري به ، كنا نختلف كثيراً . فجورج ليبرالي الفكر والعقيدة . كان خصماً لي في ثلاثة وقائع : الجدال حول خطبة الميزانية في مايو /أيار ١٩٩٥ . الخلاف حول تقديم أو عدم تقديم اقتراح بميزانية لسبع سنوات في نوفمبر /تشرين الثاني ١٩٩٥ . النقاش حول تصديق أو نقض مشروع إصلاح المعونة الاجتماعية . إلا أننا ، بعيداً عن هذه الاصطدامات ، كنا نعمل معاً بسهولة ويسر ، ونتشاور كل يوم على الهاتف من خمس إلى خمس عشرة مرة ، ولم يكن أحدنا يتحرك حركة دون أن يناقشها مع الآخر . كان يومي يجب أن يبدأ بمخابرة مع جورج .

في بداية عملي ، كان الرئيس ينظر إلى جورج نظرة شك . رأى فيه شاباً (واحداً من الأولاد ساعدوا على انتخاب الرئيس بحسب تعبير الرئيس نفسه) ، وشعر أنه ومستشاريه اعتمدوا أسوأ استراتيجية متاحة في عام ١٩٩٤ ، وكان يشك أيضاً بأنه مصدر عدد من التسريبات الصحفية . ولاحظت بالتدريج أن لقاءاتي الأسبوعية مع الرئيس كانت ترتب بشكل يتم معه استبعاد جورج .

كانت علاقة ستيفانوبولوس مع نائب الرئيس أكثر وعورة . فقد كان جورج قبل قدومه إلى البيت الأبيض يعمل مساعداً أول لعضو الكونغرس ريتشارد غيبهارد ، أقوى منافسي غور على الترشيح للرئاسة عام ٢٠٠٠ .

إلا أنني أعرف ــ كما كان الرئيس يعرف ــ أن جورج سيتورط لو فزنا . في يوليو /تموز ، التقيت بجورج في بهو مبنى المكتب التنفيذي القديم ، حيث تقع مكاتب معظم موظفي البيت الأبيض وحيث يعقدون اجتماعاتهم ، وانتحيت به زاوية خالية ، إذ لم أكن أثق بأي مكتب أو بأي خط هاتفي في مثل هذه المحادثة . سألته : « ما هو تحليلك للصلاحيات في البيت الأبيض ؟ » أجاب بلطف : « أنت تملكها كلها ، وأنا لا أملك شيئاً منها » . قلت : « أتريد أن يتغير الوضع ؟ » أجابني وسألني بقلق : « نعم . كيف يمكنني أن أفعل هذا ؟ » .

قلت وأنا أعني كل كلمة أقولها : « هلم واشترك معي في العمل . إن مستقبلي بالكامل مرهون الآن بانتصار بيل كلينتون أو بهزيمته . أنا لا أبالي بما فعلته بي ، كما لا أبالي بما فعلته بك في الماضي ، فقد كان ذلك صراعاً على السلطة أو على خطة الميزانية ، وكان صراعاً متكافئاً . لكن كل هذا انتهى الآن . فهلم اشترك معي . أنا وأنت ولا أحد آخر معنا . هلم استلم قيادة العملية إلى جانبي كأنداد ، وشركاء ، وحلفاء . وحين نختلف في رأي ، نختلف بنزاهة ، ثم نسوّيه بيننا ، لنعود معاً مرة أخرى » .

قال إنه سيفكر بالأمر. وبعد دقائق، اتصل بي من مكتبه موافقاً على الاقتراح. لكنني لم أعرف هل أعجبه الاقتراح، رغم أنه اهتم به؟ ومع ذلك انطلقت لأجمع بين جورج والرئيس مرة أخرى. وحصلت على موافقة كلينتون بانضمام جورج إلى اجتماعاتنا الأسبوعية لرسم الاستراتيجية، لكنه لم يوجه إليه الدعوة لحضور الاجتماعات، فطلبت من نائب الرئيس أن يدعم انضمامه إلينا.

نفد صبر جورج. وفي أوائل سبتمبر /أيلول، بعد شهرين من حديثنا في مبنى المكتب التنفيذي قال لي: «ليس بوسعنا الاستمرار بهذا الشكل». وطلب أن ينضم إلى الاجتماعات، فشددت الضغط على الرئيس، وتمت دعوته في النهاية. بعدها أصبح جورج أحد أهم المشاركين في الاجتماعات، في نظر الرئيس والمستشارين العاملين معي.

ورغم أن جورج، وظيفياً، كان المستشار الأول في الشؤون السياسية والاستراتيجية، إلا أنه، فعلياً، كان يسيطر على طاقم الموظفين في البيت الأبيض الذي يرأسه بانيتا، لكن جورج استطاع أن يجعل ليون يقوم بما يريده هو بالذات. ولما كنت أتبع قواعد ليون وتعليماته ولا أضايقه، فقد توافق ذلك مع ترتيبات جورج وجهوده. واستكان باقي أفراد الطاقم إلى التعاون معي بمجرد أن باركني جورج.

ظل دون باير أقرب الحلفاء الأنصار إلى قلبي من بين جميع أفراد الطاقم، بعد بيل كاري، الذي كانت تربطني به علاقة شخصية حميمة، والذي كان ما زال مجمداً خارج الاجتماعات، نتيجة مرحلة تواجدي السري في البيت الأبيض وما نتج عنها. حتى في فترة نشاطه وسلطانه، كان باقي أفراد الطاقم يتجاهلون مواهبه ويطمسونها. لقد عملنا معاً جنباً إلى جنب في تحسين وتطوير مبادرات تمهيدية سياسية قدمناها للرئيس، فأعجب بالكثير من الأفكار إعجاباً شديداً. إلا أنني رغم جهود الرئيس ودعمه، لم أستطع إدخاله في اجتماعاتنا الأسبوعية لرسم الاستراتيجية، أو في اللقاءات الأخرى مع الرئيس، فكان عدم مساهمته الجدية في هذا كله خسارة للبيت الأبيض.

مع نهاية عام ١٩٩٥، أصبحت مهمتي أوسع من مجرد تقديم النصح والاستشارات إلى الرئيس في المجال الاستراتيجي. فقد صرت مسؤولاً عن الحرب الإعلانية التي سأصفها تفصيلاً في الفصل التالي، وعن الاستطلاعات الإحصائية والتحليلات المتعلقة بها. كما واكبت جورج يوماً فيوم، في عملية «آلة التحليل» التي تصنع يومياً شلالاً من الخطب، والمواضيع، والاقتراحات. وحين يقرع جرس الإنذار معلناً عن هجوم جمهوري، أو عن مؤشر يدل على ضعف في مواقف الجمهوريين، كان جورج يستلم قيادة الدفة، تدعمه مساندة قوية من جين سبيرلينغ، مستشار الرئيس في الشؤون الاقتصادية. وكنت أشرف مع

باير على مسودات الخطب والاقتراحات والمبادارت الأولية ، وكان جورج يهب لإنقاذي من مآزق وأخطار أتعرض لها بسبب خبرتي المحدودة بواشنطن وأساليبها .

أقام بانيتا ، لمعالجة شلال الخطب والبيانات الرئاسية العامة المتدفق يومياً ، اجتماعاً أسبوعياً برئاسته أو برئاسة إرسكين بولز ، أحضره أنا وجورج . وقد أفاد هذا الاجتماع كثيراً في تنسيق العمل بين أفراد الطاقم ، الذين لا يحضر أغلبهم اجتماعات الاستراتيجية .

حين شغر منصب مدير الاتصالات في البيت الأبيض ، بأوائل صيف عام ١٩٩٥ ، بذلت كل جهد لأجعل دون باير يستلمه . فمن الأهمية بمكان أن يكون لي حليف يستطيع تسيير الأمور دون خلل ، ضمن خطنا المرسوم إلى الهدف .

كان الرئيس يرغب بهذا ، لكن السيدة الأولى كانت لها أفكارها الخاصة . اتصلت بي بالمنزل في عطلة نهاية الأسبوع بشهر أغسطس / آب ، لتقترح آن لويس ، مديرة مشروع « تنظيم الأبوة والأمومة » وصديقتها القديمة ، لهذا المنصب . ودعتني إلى اللقاء بآن ذاتها ، وبحث الموضوع معها ومع مساعديها .

ولما كنا ، هيلاري وأنا ، لم يمض على عودة اتصالاتنا الهاتفية أكثر من شهرين ، وكانت تلك أول دعوة تأتي منها بعد ورطة حوض السباحة ، فقد قبلت الدعوة بحماسة بالغة .

احتشدت جماعة هيلاري في البهو المشمس المغطى بالزجاج بالبيت الأبيض ، الذي يعتبر المقر غير الرسمي للقيادات النسائية التي تطلق عليهن هيلاري اسم المستشارات . كانت الصالة ملعباً للأنسام ولأشعة الشمس ، تزدان مقاعدها وجدرانها بتطاريز الورود ، مما يضفي عليها طابعاً أكثر حداثة مما تجده في الأقسام الأخرى من المبنى ، وأثاثاتها التي تعود إلى القرن الثامن عشر . مع هيلاري ، كانت ماغي ويليامز ، رئيس طاقم الموظفات ، وميلاني فيرفير ، صديقة السيدة الأولى منذ أيام الدراسة ، وآن لويس . وكانت السيدة كلينتون ترتدي بدلة تنس رمادية بدون جوارب ، وبدون ماكياج ، وقد عقدت شعرها من الخلف كذيل الحصان .

كنت أنشد إقامة علاقات تحالف مع المجموعة ، وكنت أعرف أنهن قاطعن وهزمن ما يسمى « بالأولاد » ، أي بانيتا وآيسكيس وستيفانوبولوس ، كما قاطعن وهزمن جماعة غور . قلت لنفسي : « لو أننا نعمل معاً ، لاستطعنا تغيير أشياء كثيرة ، ولأتحنا للرئيس فرصة للفوز » .

كانت هيلاري تشتكي من أن جماعتها لا تملك وسيلة للحصول على معلومات عن الخطط التي يضعها الموظفون للرئيس . وانتقدت « الأولاد » بخشونة على إخفاء هذه المعلومات ، وتحدثت بحماسة متقدة عن افتقارهن إلى شخص سياسي واعٍ يفهم .

قلت إنني أعتقد دائماً بأن آيسكيس هو رجلها (فالعلاقة بين هارولد وسوزان توماسيز تفترض ذلك). فقالت هيلاري بتحفظ: «إنه ليس كذلك». ثم أضافت أنها حاولت شخصياً إدخال بعض الجيدين إلى طاقم البيت الأبيض، لكنها لم تفلح. إلا أنها حثت على اختيار مايك ماك كوري كسكرتير صحفي، وعلى ترقية بولز من مدير إدارة المشاريع الصغيرة إلى معاون رئيس الطاقم، وكان كلا الاختيارين رائعاً.

وعدت «الفتيات» بتنسيق قريب متكامل، وأوضحت أنني «سأعلمهن بكل ما أفعله، وسأحكي لهن عن كل ما أقوم به، وسنعمل معاً». وكانت إحدى ثمار هذا التحالف الجديد، أنني أصبحت ألتقي مع هيلاري على انفراد، كل أسبوع تقريباً، لأضعها في صورة ما يجري، ولأجيب على أسئلتها. وشعرت أنها زبونتي مثل زوجها تماماً، وأنني أحتاج إلى تعليماتها، تماماً كما أحتاج إلى تعليماته.

أما بالنسبة إلى لويس، فقد شعرت أنها حنونة كجدة، لكنها قاسية حادة اللسان. وبدت كأنها تميل إلى التسلط، لكنها تضبط نفسها جيداً. وكانت هيلاري مدينة لها لوقوفها بجانبها، ودفاعها عنها خلال فضائح وايت ووتر في العامين الماضيين. واستنتجت أن لويس تريد - ك العمل في مشروع «تنظيم الأبوة والأمومة» وأنها بحاجة إلى وظيفة أخرى.

ونظراً لقدرات آن كناطقة رسمية، ولخبراتها في الصحافة، فقد اقترحتها كمديرة للاتصالات في الحملة الانتخابية، وتسليم دون باير مهمة الاتصالات في البيت الأبيض، التي تتطلب بذاءة لسانية أكبر. ولن تضطر آن، كمسؤولة عن الاتصالات في الحملة الانتخابية تتعامل مع المسؤولين السياسيين، إلى ارتكاب أية أخطاء مع المحررين الصحفيين العدوانيين.

رحب ماك كوري بأن يكون لديه شخص يحوّل إليه الأسئلة السياسية، التي كان يشعر أن الجواب عليها لا يجب أن يتم عن طريق السكرتير الصحفي في البيت الأبيض. وسارت الأمور جيداً، وأبدع كل من لويس وباير في مهمتهما الكبيرتين. فأصبح باير المعين الأساسي لي في صياغة رسائل البيت الأبيض ومقاصده.

كما عملت مع ماغي ويليامز وميلاني فيرفير جنباً إلى جنب. وكانت ماغي حنونة، لطيفة، ذات أسلوب مهذب، إلا أنها تميل لإرغام رئيسها على سماع أفكارها الجديدة. أما ميلاني، فلديها حس سياسي رائع، ولقد تعاونا معاً في العمل بأمور كثيرة.

لقد أقمت لنفسي أنصاراً من أصحاب المناصب في الداخل، لكنني أقمت أيضاً أنصاراً من الغرباء الوافدين. إن من الصعب أن نسمي الرئيس «وافداً غريباً» بين موظفيه ومساعديه، لكنه، مثل غور وهيلاري، يبقى على خلاف دائم مع الطاقم الذي يمشي وراء الديموقراطيين الأحرار في الكونغرس. كان الرئيس ونائبه وهيلاري هم حلفائي الرئيسيون، الذين جعلتهم معي صفاً واحداً في مواجهة «الأولاد» من موظفي البيت الأبيض.

الفصل الثامن

السلاح السري: الدعاية والإعلان

لماذا فاز كلينتون بهذه السهولة في عام ١٩٩٦؟ ولماذا لا تتغير دقة تسديداته وإصاباته لأهدافه؟ ما سرُّ قوته مع الناخبين، التي لم يستطع دول أن يهزها؟

في رأيي، إن مفتاح فوز كلينتون هو إعلاناته التلفزيونية المبكرة، التي لم يكن لتوقيتها بهذا الشكل أية سابقة في تاريخ الانتخابات الرئاسية. ففي عام ١٩٩٢ أنفق كل من كلينتون وبوش حوالي أربعين مليون دولار على الإعلان التلفزيوني خلال الانتخابات التمهيدية والعامة. أما في عام ١٩٩٦، فقد بلغت الإنفاقات، بناءً على توصية الرئيس ذاته، خمسة وثمانين مليون دولار على الدعاية والإعلان، أي أكثر من الضعف.

قليل جداً هم الناخبون الذين لم يتم الاتصال بهم عن طريق الإعلان التلفزيوني. فمنذ أن وقّعت على العمل مع كلينتون عام ١٩٩٤، قاتلت كثيراً لأقنع الجميع بأننا لن نفوز، إلا إذا بدأنا على غير العادة والمألوف بوقت مبكر بملء طبقات الجو وموجاته بما نراه من أولويات التشريع وبما نعتقده من أمور وقضايا. وطرقت طويلاً على سندان هذه المقولة في كل اجتماعات رسم الاستراتيجية، حيث تعرضت دائماً لسماع سخريات آيسكيس، التي داوم على إطلاقها حتى في فترة انتخابات ١٩٩٦، ونسي الجميع معها كل ما قيل في عام ١٩٩٥. كنت أعارضه وأتنبأ بأننا إن أقحمنا الأمور التشريعية في كل بيت أمريكي عن طريق الدعاية والإعلان، فسيتم القضاء على الطروحات الجمهورية قبل أن يبدأ السباق. وهذا ما حصل بالفعل.

أسبوعاً بعد الآخر، وشهراً بعد الآخر، منذ يوليو/تموز من عام ١٩٩٥ إلى يوم الانتخاب في عام ١٩٩٦، أي حوالي ستة عشر شهراً، ونحن نقصف الجماهير بالإعلانات. وكان القصف الإعلاني المركز يستهدف أهم الولايات المتقلبة المتأرجحة مثل: كاليفورنيا، واشنطن، أوريغون، كولورادو، نيومكسيكو، لويزيانا، أركنساس، تينيسي، كينتاكي، فلوريدا، كارولينا الشمالية، نيوجرسي، بنسلفانيا، أوهايو، ميتشيغان،

ويسكونسين ، إيلينوي ، مينيسوتا ، ميسوري ، وأيوا . فخلال تلك الفترة ، رأى مشاهدو التلفزيون في تلك الولايات ١٥٠ ــ ١٨٠ برنامجاً مبثوثاً عن كلينتون ، بمعدل مرتين في الأسبوع على مدى سنة ونصف . هذه الحملة الإعلانية المسبقة كانت سر الفوز ومفتاحه .

كنت أعرف أن الحملات الإعلانية يجب أن تبدأ مبكرة ، وأن تتواصل باستمرار ، وأن تركز على ذات الشعارات أسبوعاً بعد الآخر . وفوق هذا كله ، ألا تتعارض مع الصحافة (وهو ما نسميه الإعلام الحر ، الذي هو عكس ما نسميه بالإعلام المأجور) .

لتأمين «السرية النسبية» (مصطلح ساخر يعني الحملة الإعلانية التي تصل إلى ١٢٥ مليون أمريكي ثلاث مرات في الأسبوع) قررنا ألا نبث إعلاناتنا في مدينة نيويورك أو في مدينة واشنطن ، وأن نبثها أحياناً في لوس أنجيلوس . لأن هذه المدن كانت مقراً لسكن ولعمل الصحفيين ، فإذا جرى بث الإعلانات فيها ، فستفهم الصحافة خطر ما نقوم به . أما إذا بقيت هذه المدن تحت «التعتيم» ، فلن تجعل الصحافة من ذلك قضية ، وهذا ما ثبت فعلاً .

إن ما جعلنا ننجح بهذا الشكل الجيد ، هو مجرد ملاحظة صغيرة دقيقة ، حول مسألة حدود الإعلام الحر في بلد بحجم أمريكا . محرر أو محرران ، ونخص بالذكر أليسون ميتشل من نيويورك تايمز ، لاحظوا جانباً مما نقوم به ، أما أغلب الباقي فلم تكن لديه أية فكرة عما نفعل . فرق من المحررين كانت ترصد كل حركة ، وكل زلة ، وكل خطوة خطأ ، وكل كلمة في الخطابات ، وكل سعلة أو عطسة تصدر عن كلينتون ودول وغينغريتش ، ما عدا موجات القصف بالإعلانات الموجهة المأجورة التي كنا نشنها . ولما كانت الإعلانات تأخذ شكل مواقف الناخبين ، وإعادة صياغة نظرة الأمة ورأيها بكلينتون ، وبناء فهم جديد عندها لمسألة معركة الميزانية ، فقليل من المحررين من كتب عنها مقالاً ، وأقل منهم من أعطى لمقاله مكاناً في الصفحة الأولى . أما التلفزيون ، أفضل أداة للبث والنشر كنا نستخدمها ، فنادراً ما تم كشف دوره الإعلاني .

ومع اقتراب يوم الانتخابات ، بدأ الإعلام الحر بتغطية الحملات الانتخابية لكلينتون ودول بإعلانات ودعاية بالغة الكثافة . لكن الإعلان المبكر كان قد حصر تماماً الحملات الانتخابية داخل مسطرة أساسية ، بشكل بدت معه إعلاناتها ، والمقالات الصادرة عنها في الصحف ، معدومة التأثير . قد يحدث أن يرفع أحد الإعلانات أو أن يخفض مؤشر الاستطلاع الإحصائي ، إنما لا يمكن أن يعادل ما أحدثته إعلاناتنا المبكرة ، أو أن يحل محلها في التأثير . ومن هنا ، فقد أضاع المحررون السياسيون ، على المستوى المطبوع والمسموع ، فرصة الحصول على قصة الصفحة الأولى لعام ١٩٩٥ ــ ١٩٩٦ .

كانت استطلاعاتنا تبين كل أسبوع الاختلاف الكبير بين مواقف الناخبين في الولايات المتأرجحة ، حيث كنا نبث إعلاناتنا ، وبين الولايات الثابتة المؤيدة للديموقراطيين أو الجمهوريين التي تجنبناها . من الوجهة النظامية ، حين أشارت الاستطلاعات إلى تقدم كلينتون على دول بسبع عشرة نقطة وسطياً في البلاد كلها ، فقد أشارت إلى تقدمه عليه في الولايات التي جرى فيها بث إعلاناتنا بسبع وعشرين نقطة ، كما أشارت إلى تقدمه عليه في الولايات التي لم يجر فيها بث الدعايات الإعلانية بسبع نقاط فقط . أما قبل بث الإعلانات فكان الفرق بين هاتين المجموعتين ثلاث نقاط . ومع اقتراب موعد الانتخاب ، تغلغل الإيمان بفوز كلينتون حتى في الولايات التي لم نبث فيها إعلاناتنا كثيراً ، مما ضاقت معه الفجوة بين مجموعة الولايات التي أعلنا فيها وتلك التي لم نعلن فيها .

لقد كنت وما زلت من المهتمين جداً بالتغيرات البارزة في الاتصالات السياسية وعلاماتها . فحين أذيع صوت الرئيس من منزله قرب الموقد ، في حوار غير رسمي ، كان تأثيره هائلاً . استعمال أيزنهاور للتلفزيون هو السبب في الأغلبية التي أعادت انتخابه . المؤتمرات الصحفية الحية عند كينيدي ، والدعاية السياسية المضادة عند جونسون كانت علامات بارزة لتغييرات في فعالية الاتصالات السياسية .

في أركنساس ، كنت وكلينتون رواداً لنوع جديد من الدعاية الإعلامية المأجورة . فعلاوة على أن الإعلان يتم قبل أسابيع فقط من الانتخاب ، وتنحصر مهمته بتوضيح مقاصد المرشح وأهدافه ، قمنا بالإعلان طوال فترة ولاية الحاكم ، ليس للتشجيع على إعادة انتخابه فقط ، بل لنشر آرائه في المسائل التشريعية الهامة . وفي النتيجة ، وجد الناخبون الذين لا يحبون كلينتون أنفسهم يتفقون معه على القضايا الهامة ، ليصبحوا بعد فترة من مؤيديه المتحمسين . الدعاية الإعلانية تقود إلى كسر أوج الانتخابات وحدتها .

السر هو في الإعلان عن المسائل التشريعية ، وليس في الدعاية لنزاهة كلينتون والتشجيع على ترشيحه . وبالتركيز على هذا المفهوم ، استطاع كلينتون تمرير برنامجه وبناء قاعدة تأييد كبيرة له . وأردت استخدام مثل هذه الدعاية الإعلانية لأدفع برنامج الرئيس التشريعي على حساب البرنامج الجمهوري ، أملاً ببناء دعم قومي كما نجحنا في بناء تأييد محلي في أركنساس .

لم يسبق أبداً لرئيس من قبل أن استخدم الدعاية والإعلان في التلفزيون خلال مرحلة المعارك التشريعية كما فعلت مجموعات المؤيدين في حملاتها الانتخابية لدعم القاضي روبرت بورك ، صاحب إصلاح الضمان الصحي ، والضمان ضد أضرار الغير غير المقصودة ، وغيره . أما انتخاب عام ١٩٩٦ ، فلولا استخدامنا للتلفزيون في الوصول إلى ما وراء الناخبين

الذين يتابعون الحوارات التشريعية والقضايا المتعلقة بالكونغرس والموازنة، لما استطعنا أن ندعم قضيتنا مع الشعب الأمريكي.

لقد عارض الجميع، عدا الرئيس ونائبه، مسألة الدعاية الإعلانية المبكرة. لكن الرئيس كلينتون كان يعرف ما فعلته هذه الإعلانات في أركنساس. فقد نجحت حملته بخصوص اختبار المدرسين بين صفوف الناخبين في أركنساس بفضل الإعلانات المأجورة التي ظهرت على فترات منتظمة قبل موسم الانتخابات. ورأى كيف أثّرت هذه الإعلانات في تقوية روابطه والتزاماته مع الناخبين وبالعكس.

أردت أن أفعل ما فعلناه في أركنساس من قبل، وأسوّي الخلافات بين الديموقراطيين والجمهوريين حول التشريعات والميزانية. كنت أعرف أن الناخبين ما إن يتبينوا تفاصيل ومواصفات الاقتطاعات الهائلة والتخفيضات في ميزانية الجمهوريين، ويروا أن كلينتون يسعى أيضاً إلى ميزانية متوازنة، حتى يرفضوا المخطط الجمهوري. وبهذه الطريقة نربح المركز السياسي. ويصبح بإمكاننا من موقعنا القوي القائم على انتصاراتنا التشريعية أن نعالج موضوع فوزنا بالانتخاب.

التقيت مع محامي الحملة الانتخابية لين أوتريخت، ومع محامي اللجنة الوطنية الديموقراطية جو ساندلر. وشرحت ما بذهني من تصورات إعلانية. ولحسن الحظ، قالا إن القانون سمح للأحزاب السياسية بمثل هذه الإعلانات دون حدود أو قيود. ومع انتهاء السباق، كان حجم ما أنفقناه على الإعلانات قد بلغ ٣٥ مليون دولار تقريباً (إضافة إلى ٥٠ مليون دولار أخرى، تم صرفها على المؤتمرات والاحتفالات الإعلامية لصالح المرشح) في سبيل القضاء على المقترحات الجمهورية، وبناء إجماع قومي موافق يدعم طروحات الرئيس.

كنت بحاجة إلى مؤسسة إعلانية تقوم بإبداع الإعلانات وتنفيذها. فاخترت وكالة بوب سكواير. ورغم تاريخه الطويل في حقل الإعلانات السياسية، وقيامه بإعلانات هيوبيرت هامفري، إلا أنه ما زال يحتفظ بطابع صبياني متحمس. وكان ذو علاقة لصيقة بنائب الرئيس الذي سرَّ بتعيينه.

كان الفضل في تنفيذ إعلانات كلينتون يعود لشريك سكواير، بيل ناب، الذي أتاحت لنا قدراته الإبداعية والإدارية أن نقوم بأكبر حملة دعاية إعلانية مؤثرة في التاريخ. قام ناب بتنفيذ الحملة الإعلامية المأجورة، ممسكاً بكل خيوطها، وجامعاً لكل قطعها الواحدة بجانب الأخرى، على مدى شهور ما قبل الانتخاب.

كما أشركت معنا أيضاً هانك شاينكوف من مؤسسة شاينكوف في نيويورك ، وماريوس بينزنر من مؤسسة ممفيس ، للتعاون معنا في الدعاية والإعلان . كان هانك يهودياً روسياً شعوبياً متحمساً ، ذو شعر جاف أشعث ، وأفكار لا تقل جفافاً وتطرفاً عن شعره . وكان شرطياً سابقاً في مدينة نيويورك ، ساهم في طبع الإعلانات بطابع عاطفي حاد جارح . أما بينزنر ، فلطيف معتدل محافظ ، يتصف بدماثة الجنوبيين ، من عالم موسيقي كان ينتج فيه الفيديوهات لصالح مؤسسات مثل آلمان اخوان وغارث برووكس وغيرها . وقد أفادنا بما قدمه من أفكار جديدة بعيدة عما هو سائد في الإعلانات السياسية .

في أركنساس ، كنت أكتب مع كلينتون جميع نصوص الإعلانات ، وأشرف على إنتاج اللقطات وتنفيذها ، بمساعدة دافيد واتكينز من ليتل روك . أما هنا فالرئيس ليس متحمساً لمؤسسة سكواير . قال إنه يحب سكواير ويعجب به ، لكن عمله لا يؤثر فيه . وكانت السيدة الأولى تعارض تشغيله واستخدامه بشدة ، وتردد اعتراضات تستقيها من سوزان توماسيز ، التي كانت تشعر أن سكواير سيستأثر بالفضل بكل حركة ناجحة في الحملة الانتخابية ، وسيتوارى عن الأنظار حين تسوء الأمور .

ولم أستطع حل مشكلة سكواير عن طريق إرسكين بولز ، فواجهت الرئيس بشأنها مباشرة في مقابلاتي النادرة معه بالمكتب البيضوي . قال كلينتون إنه يعترف بعبقرية فرانك غرير المبدع الإعلاني ، الذي تعاون معه في عام ١٩٩٢ « لم يشتهر فرانك ولم يذع صيته لأنه كان يرفض الحديث مع الصحافة ، مما ترك المجال للآخرين الذين نفذوا إعلاناته في عام ١٩٩٢ ، بأن ينسبوا فضلها لأنفسهم ، ويلقوا به أرضاً » . ثم أبدى الرئيس رغبته بأن يقوم غرير بتأمين الفواصل الزمنية اللازمة للدعاية الإعلامية ، الأمر الذي كان يفترض أن يقوم سكواير بتأمينه . فقلت له إنني لن أعمل إلا مع سكواير .

قررت أن أتفادى الفوضى التي سيطرت على جهود كلينتون الإعلانية في عام ١٩٩٢ ، حين تنازع المسؤولون عنها ، الواحد مع الآخر ، وكان القرار لا يصدر بشأن أحد الإعلانات إلا بعد معركة . أردت إما كامل المسؤولية عن التوجيه والتحكم في الموضوع ، أو كامل الإعفاء منها ، ولم أقبل المواقف الوسط .

كان كلينتون من الصنف الذي يحب أن ينوع في مستشاريه ، ليتمكن من معرفة القضايا المهمة ، ومن رؤية الهفوات والتصدعات حين وقوعها . هذه « التوليفات الترقيعية » هي التي فتحت له سبيل التدخل بنفسه ، الأمر الذي لن يتحقق له في العمليات والمسائل ذات الطابع الواحدي الفردي .

كان غرير ليبرالي العقيدة، حليفاً حميماً لآيسكيس، ولم أشأ أن أرى نفوذ آيسكيس يمتد على أي من مناطق الدعاية الإعلامية. فقررت أن أرمي غرير بقذائف سباق عام ١٩٩٠ لمنصب الحاكم، عندما لم يتبع تعليماتنا المعطاة له، وقدّم لنا إعلانات لا نريدها. قلت: «لا تعرّضنا لأن نلدغ من الجحر مرتين». فقال: «لكنه حقق شيئاً عظيماً، بشرائه الفترات الإعلانية لحملاتي في عام ١٩٩٢، بأسعار أرخص كثيراً مما اشتراها بها جماعتك». قلت بصلابة متشنجة «إما أن تدع لي أمر تماسك الصف في فريقي، كما هو الآن، أو أن تتولى أنت إنشاء فريق آخر بعيداً عني. فوضعنا لا يحتمل التخربات والانشقاقات التي سادت في عام ١٩٩٢. يجب أن تكون الدعاية الإعلامية متماسكة وراسخة، وهذا لا يتحقق مع فريق خليط مرقع».

أجاب الرئيس بصبر هادىء: «من الواضح أن إيماني بك عميق وشامل، وأنا أضع نفسي مع حملتي الانتخابية بين يديك. لديك شوين، إنه جيد، ومن النوع الشديد المراس الذي يفرض أفكاره فرضاً. ولديك بن، إنه يتميز ببصيرة نفاذة وأفكار جيدة. ولست أرى أن عند سكواير أفضل من هذا».

قلت: «الجملة الأولى من عبارتك هي وحدها المفيدة. إن كنت تؤمن بي حقاً، فامنحني أدوات ووسائل أنفذ بها المهمة الموكولة إلي بشكل يجسد إيمانك بي، ودع لي أمور الحسابات، ولا تفرض علي طرقاً أخرى للقيام بما أفعل». هنا جاء اعتراض الرئيس الحقيقي فقال: «إذا تحكمت أنت في كل عناصر الإعلام والاستطلاع، فكيف أستطيع أنا السيطرة على العملية؟ وكيف تتاح لي فرصة انتقاء واحد من الخيارات المختلفة؟ وكيف أستطيع السيطرة عليها؟».

كان السر يكمن في كلمة واحدة هي: السيطرة والتحكم.

أجبته: «ستبقى لك السيطرة، وسيبقى بيدك التحكم. بالشكل نفسه الذي كان عليه خلال سبعة عشر عاماً الماضية. سأضع بين يديك كل معلومات الاستطلاعات وأرقامها، كما كنت أفعل دائماً، وأنت بارع في قراءتها كأي خبير أعرفه. وسأعمل معك بالأسلوب نفسه الذي عملنا به معاً، وسأوضح لك كل حركة باستمرار، وسأناقش معك وضع أسئلة الاستطلاعات، وأطلعك على نتائجها، وسنكتب معاً نصوص الإعلانات، وندققها قبل عرضها. وستكون معنا في كل حركة وفي كل لحظة. ولن تحتاج لخلق الصراعات بين أعضاء الفريق لتحصل على المعلومات، فسأضعها أمامك في اللحظة التي تريدها، مما يتيح لك التحكم بها والسيطرة عليها دون معارضة».

ووافق الرئيس على تشغيل سكواير وناب مؤقتاً. لكن كل ما نسميه مؤقتاً من أشياء في الحياة، هو الذي يدوم، فقد استمر هذا التشغيل «المؤقت» إلى ما بعد المؤتمر الوطني الديموقراطي، أي سنة وثلاثة شهور. وكانت تلك المدة كافية لسكواير وناب وشاينكوف لتهدئة الشكوك التي حامت حول سيطرتهم على الدعاية التلفزيونية. كما انتفت الشكوك التي أثارتها سوزان توماسيز حول سكواير وتحولت إلى لغو بلا أرضية، بعد أن تعمّد سكواير السكوت بشكل غير عادي عن دوره الهام في الحملة، وأثبت كفاءته في كل مجال يُحتاج إليه فيه.

إلا أن الرئيس، رغم جهودهم الفعالة المؤثرة، استمر بالتذمر من سكواير. فخلال مرحلة المفاوضات الحادة حول الأجور بين المستشارين وآيسكيس، رفعت سؤالاً حول القضايا المالية إلى الرئيس في أحد اجتماعاتي معه بالمكتب البيضوي. فقال: «أنا لا أعارض بدفع أي مبلغ تريده أنت».

في ذلك الوقت، كان الرئيس قد تحقق من تقدمه على دول، الأمر الذي لم يكن ليخطر على البال في مطلع عام ١٩٩٥. قال: «ليس ثمة مبلغ يفي أجر مثل هذه المعجزة، ولكن لماذا تطلب لسكواير هذا المبلغ الكبير؟». فشرحت له أنه لولا ناب وسكواير، لما أثبتت الدعاية الإعلامية فعاليتها، وأنني أريد أن يتأكدا من أنهما سينالان ما يستحقانه من الأجور والتعويضات.

بنتيجة هذا النقاش، ونقاشات أخرى غيره جرت في المكتب البيضوي، أصبح الرئيس مديراً دائماً، يتابع يوماً بيوم أمور الحملة الإعلانية في التلفزيون. فأشرف على كل النصوص، وشاهد كل اللقطات، وأمر بتعديل العديد من المشاهد، وقرر أي الإعلانات يبث، وأيها لا يبث، وحدد زمن البث ومكانه، واعتبر نفسه مسؤولاً كأي مستشار إعلامي عنده، بحيث لم تعد الإعلانات من إبداع رجال الدعاية بل من صنع الرئيس نفسه. من هذه الزاوية، كانوا معجبين بالخطب الاثنتين والثلاثين، التي كتبها وحمَّلها آراءه إلى الشعب الأمريكي.

سألني ذات مرة: «لماذا لم تذكر أنني قد خفضت الضرائب عن الـ د. ر. أ؟». فأجبته: «لأنه لا أحد يعرف ما هذه الـ د. ر. أ». (دخل الرواتب والأجور). قال: «كان يجب أن تشرح أنها ضريبة تم تخفيضها عن ١٥ مليون أسرة عاملة، هذا هو معناها الحقيقي».

كان كل سطر في نصوص الإعلانات يخضع عنده للنقد، وللنظرة الفاحصة. وكان كل إعلان، إعلانه هو، ومن صنعه هو.

وكانت إعلاناتنا الأولى تدور حول فكرة رفضه السقوط والاستسلام للجمهوريين في الكونغرس بإلغاء تحريم أسلحة القتل الهجومية. فقد مثلناها برجل شرطة يصف كيف قتل رفيقه بسلاح هجومي، وبشرطي آخر يحكي كيف تم إطلاق النار عليه من سلاح هجومي وهو في مهمة روتينية لتنظيم المرور. هذه الإعلانات التي أبدعها شاينكوف كشرطي قديم، حملت مقاصد ومعاني كبيرة.

وانتشر تأثيرها كالتيار الكهربائي، حيث وافق عليها الناخبون واجتذبتهم إليها في المناطق التي تم بثها فيها. ومع ذلك فقد تجاهل آيسكيس نتائجها، وناقش أنه كان يجدر بنا أن نوظف هذه المكاسب في يوم الانتخاب.. لأن الإعلانات المبكرة سوف تُنسى.

«ليس إذا تابعنا بثها على الهواء»، قلت هذا وأنا أشدد طامعاً في مزيد من الاعتمادات المالية. وفي الواقع، ونتيجة لهذه الإعلانات في أوائل يوليو/تموز ١٩٩٥، ارتفعت معدلاتنا بمجال «مكافحة الجريمة» لتوازي معدلات الجمهوريين، رغم رسوخ قدمهم القديم في هذا المجال، واستمرت هذه المعدلات على حالها طوال فترة ما قبل الانتخابات. إضافة إلى ذلك، فقد ساعدت إعلاناتنا المبكرة على بناء قاعدة ضخمة من الناخبين تؤيد مواقفنا من القضايا الهامة أمام الكونغرس.

في نهاية آب/أغسطس ١٩٩٥، بدأنا بمهاجمة وضرب التخفيضات الجمهورية على الميزانية في إعلاناتنا، وبعرض خطة الميزانية التي قدمها الرئيس. وظلت هذه الإعلانات تذاع على الهواء على فترات، حتى إقامة مؤتمر الحزب الديموقراطي، فأوجدنا بذلك أول برنامج إعلاني كامل عن الرئاسة في تاريخ الولايات المتحدة، الذي ضرب أرقاماً قياسية في سجل المنجزات التشريعية.

قام بن وشوين بالعديد من الاستطلاعات المكثفة لمعرفة آراء الناخبين في مجال التخفيضات بالميزانية التي اقترحها الجمهوريون. وبناءً على هذا البحث، استطعنا تحديد التخفيضات التي تهم الناخبين أكثر من غيرها، فجاء على رأسها التخفيضات على الرعاية الصحية، والعناية الطبية، والتعليم، وحماية البيئة. موضوع زيادة مخصصات الرعاية الصحية وترك الأطباء يتقاضون من مرضاهم أجوراً أعلى مما تسمح به تسعيرة الرعاية الصحية، استقطب أوسع اهتمامات الناخبين. إلغاء الضمان الصحي لعلاج وتداوي الأطفال دون الثالثة عشرة من العمر، أضر كثيراً بالجمهوريين، الذين اقترحوا تخفيض مستويات حضانة الأطفال، واقترحوا إلغاء التعويض العائلي عن الأطفال الذين يبلغون الثامنة عشرة من العمر. أما في مجال التعليم، فقد كان أكثر ما أزعج الناخبين، تخفيضات المنح الدراسية. وإلغاء التوسع في القبول الجامعي، وتخفيض المساعدة في معدلات العلامات مما يؤدي إلى ازدياد

عدد الطلاب في الصفوف . وفوق ذلك كله ، تخفيض برامج مكافحة المخدرات في المدارس الابتدائية . كما أعلن الناخبون عن انهيار ثقتهم بمن يخفض اعتمادات التخلص من النفايات السامة .

لقد ساعدت إعلاناتنا في توضيح التخفيضات الجمهورية على الموازنة ، والأهم من ذلك أنها شرحت اقتراح الرئيس حول توازن الميزانية كبديل للاقتراح الجمهوري ، إذ لم يكن من السهل نشر وتعميم معارضتنا للتخفيضات الجمهورية على الميزانية دون إعلان . فالصحافة توقظها المعارك ، والمعركة حول التخفيضات تحتل دائماً عناوين الصفحات الأولى . لكن إعلاناتنا أوضحت أن لدى كلينتون بدائل ، وطرق أفضل لتوازن الميزانية وتخفيضات الضرائب . ونجاح الإعلانات بهذا الشكل أتى من أنها تحدّت حلّ الجمهوريين الوحيد في الحصول على ميزانية متوازنة . والمعركة لم تعد الآن مجرد معركة على ميزانية متوازنة ، بل أصبحت معركة « كيف نجعل الميزانية متوازنة » .

هل لجأنا في إعلاناتنا إلى التحريف والتشويه؟ لقد اتهمنا الجمهوريون بعدم النزاهة حين أطلقنا اسم « الاقتطاع الكلي » على ما هو مجرد تخفيض في معدلات الإنفاق المتزايدة . لكنهم نسوا أنهم أول من استعمل الكلمة بهذا المعنى ، بوصف فشل كلينتون في زيادة مخصصات الدفاع في الميزانية زيادة تلائم التضخم . في مجال مخصصات الدفاع ووضع ميزانية لها ، تبدو كلمة « الاقتطاع » مناسبة وكافية ومبررة . وفي مجال بنود الإنفاق على برامج مثل الرعاية الصحية والعناية الطبية ، تبدو الكلمة دقيقة أكثر فإذا ارتفعت كلفة الخدمات الطبية ، وارتفع عدد المرضى المحتاجين إلى الرعاية الطبية بمعدل واحد ، ونقصت زيادة الاعتمادات والمخصصات ، فهذا يعني بشكل جلي واضح أن عدداً أقل من المرضى سيعالجون ، وأن مستوى المعالجة المقدمة لهم سيتدنى .

إن أي إعلان هجومي على الميزانية هو بمثابة تشويه لأسئلة معقدة . لكننا كنا بمنتهى الدقة ونحن نختار كلماتنا . فمثلاً ، جين سبيرلينغ ، أحد أفراد طاقم البيت الأبيض ، رفض مرة أن يتركنا نصف اقتراح دول بتخفيض الضرائب عام ١٩٩٦ بـ « النمو الاقتصادي البطيء » ، باعتبار أن الاقتصاديين مجمعون على أن تخفيض الضرائب يسرّع النمو الاقتصادي على المدى القصير ويبطيء من سرعته على المدى الطويل . وأصر جين على إضافة كلمة « على المدى الطويل » إذا ما أردنا أن نتوجه بهذا الاتهام .

كل إعلان أنتجناه على مدى سنة كاملة ، كان يضرب على سندان الاقتطاعات الجمهورية . كانت إعلاناتنا تختلف في موضوعاتها ، لكنها تتشابه جوهرياً بأنها تضرب كلها على سندان التخفيضات ، والقيم المشوهة التي تتضمنها هذه التخفيضات . كل إعلان كان

يشرح اقتراحات الرئيس كلينتون لميزانية متوازنة بعيداً عن هذه التخفيضات. قولوا ما شئتم، لكن هذه الإعلانات هي العامل الذي منع، أكثر من أي عامل آخر، الجمهوريين من تخفيض الرعاية الصحية، وإنقاص الضمان الطبي، واقتطاع اعتمادات التعليم وحماية البيئة، حسب اقتراحاتهم.

كانت إعلاناتنا واقعية حقيقية، عاطفية، وعالية الفعالية، قمنا بإعدادها وصياغتها بناءً على استطلاعاتنا الإحصائية، التي وضعنا أسئلتها أنا ومارك بن ودوغ شوين. شرحنا أولاً كل كلمة في كل سؤال لكلينتون، ثم تركنا نمضي في الإنجاز. كان الاستطلاع يقيس ردة فعل الجماهير على كل بند من بنود برنامج الرئيس التشريعي، وبرنامج الجمهوريين. وبعد أن تتضح لنا، أنا وبن وشوين، المسائل التي يوافقنا الجمهور عليها، يقوم مستشارونا الإعلاميون بكتابة نص الإعلان. ثم كان يلتقي بعدها مرتين أو ثلاث مرات في الأسبوع كل من بوب سكواير، بيل ناب، معاونة سكواير بيتسي شتاينبيرغ، هانك شاينكوف، ماريوس بينزنر، بيل كوري، توم فريدمان، ومحامي اللجنة الوطنية الديموقرطية جو ساندلر، معي ومع مارك بن ودوغ شوين لصياغة المسودة. وكنا نبقى على اتصال بالهاتف مع موظفي البيت الأبيض رام إيمانويل وجين سبيرلينغ، لضمان دقة تعابيرنا وكلماتنا. وكنت غالباً ما أستعين لوضع الكلمات بجورج ستيفانوبولوس أو بالمؤلفة ناوومي وولف أحياناً. فقد كنت ألتقي شخصياً بناوومي مرة كل بضعة أسابيع على مدى عام كامل لأستشيرها في كيفية الوصول إلى الناخبات من النساء. إضافة إلى أنها كانت تزودني بالتنبؤات التحليلية للاتجاهات المستجدة في المجتمع.

قمنا بتحضير نسخ لعدد من الإعلانات المتنوعة، جرّبها مارك بن على خمسة عشر تجمعاً للباعة الجوالين منتشرة في أنحاء البلاد. فبعد أن بدأ الجمهوريون مهاجمتنا بإعلاناتهم، اختبر بن إعلاناتنا المضادة في نفس الوقت الذي بثوا فيه إعلاناتهم ليقيس ما تحدثه من تأثير. كان مساعدو بن يهيئون أنفسهم في أحد تجمعات التسوق هذه، ويدعون المشترين واحداً بعد الآخر لملء إجاباتهم على أسئلة الاستطلاع حول كلينتون، ودول، ورأيهم السياسي فيهما. ثم يعرضون عليهم الإعلان موضوع الاختبار، بعدها يملأ المشترون استبياناً آخر يحمل الأسئلة ذاتها، بحيث يستطيع بن أن يقيس أثر الإعلام في تغيير الآراء.

حين دفعتُ الرئيس في البداية إلى استخدام مؤسسة بن وشوين لتنفيذ الاستطلاعات الإحصائية، كنت أخطط للاستفادة من صديقي القديم دوغ شوين. إلا أنني سرعان ما أعجبت بمهارة شريكه مارك بن، الذي كان دائماً مشعث الشعر، بملابس قذرة غير

مكوية، ومظهر خالٍ من الذوق والجاذبية، إلا أنه كان يطفح ذكاءً، مما جعله بالتدريج عضواً هاماً في فريقنا الاستشاري.

بناءً على هذه التجارب والاختبارات، حددنا الإعلانات الصالحة للبث، وتوضحت لنا التعديلات التي يجب إدخالها على الإعلانات غير الصالحة. ومضينا نعمل بجد لتحضير إعلان مناسب مدته ثلاثون ثانية، وأرسلناه بعد انتهائه إلى دوغ سوسنيك المدير السياسي في البيت الأبيض، لتقديمه إلى الرئيس للموافقة عليه.

في بداية حملتنا الإعلانية، كنا نذهب إلى المكتب البيضوي في مقابلة للرئيس ونائبه مدتها عشر دقائق، للحصول على الموافقة، وكانت نانسي هيرنريتش تشرف بنفسها على هذه الدقائق العشر، لتتأكد من انصرافنا بانتهائها. وكان الرئيس يقوم دائماً بالتعديل والتغيير. ثم يهب بعدها ناب وبينزنر وشاينكوف وشتاينبيرغ إلى العمل طيلة النهار لإنتاج الإعلان، بما في ذلك اللمسات الأخيرة التي لا بد منها لاكتمال العمل وتحسينه. فلتسليط الأضواء والأنظار على الاقتطاعات التي اقترحها غينغريتش في مجال التعليم، مثلاً، كان من الضروري البحث عن فيلم له، وهو يلوح بيده رافضاً، كما يرفض الإنسان طبق الفواكه والحلوى بعد تناول الطعام في المطعم. أما غور، فقد أعجب بشكل خاص بقدرة ناب وسكواير على اكتشاف لقطة لدول وهو يعرج زاحفاً خلف غينغريتش في أحد المؤتمرات الصحفية، وقارنها بمشهد من فيلم «حديقة من العصر الجوراسي» ظهر فيه ديناصور أشبه بالكنغر وهو يتهيأ للصيد.

لقد سبق أن عملت في أكثر من مئة سباق على المستوى العالي، إلا أنه لم يسبق لي أبداً أن عملت مع مثل هذا العدد من المساعدين والمستشارين الرائعين. شعرت وكأنني عازف كمان، وجد نفسه فجأة وسط أوركسترا ضخمة، أو كلاعب كرة وجد نفسه ضمن فريق من كبار النجوم. فقد أعطانا كلينتون فعلياً اعتماداً مفتوحاً للاستطلاع ولاختبار الإعلانات، وقضينا الشهور ندرس ألعاب الحرب، ونعالج نصوص ومشاهد معركة الميزانية، ونعد العدة لصد هجمات الجمهوريين علينا في مختلف المسائل والقضايا. وبعد تحويل الفرضيات النظرية إلى حقائق، لم يبق علينا إلا أن نضغط زر الكومبيوتر، لتقوم نتائج الاستطلاعات واختبار الإعلانات بتحديد ما يجب لموقعنا أن يكون عليه. أذكر أننا جلسنا مرة بعد الظهر نستعرض نسخة إعلان أعددته أنا وسكواير وشاينكوف، ونحلل نتائجه، ونحاول استباق الأمور بتوقع خطوة دول التالية، فتذكرت عبارة لديغول، وصف فيها لحظة خروج الألمان من فرنسا مندحرين، قال إنه يود لو يتوقف الزمن عند تلك اللحظة فلا يتغير

شيء أبداً. نظرتُ إلى المجموعة من حولي، وقد انصرف كل فرد فيها إلى لعبته، فوددت لو أبقى معهم إلى الأبد غارقين في إعلانات الحملة الانتخابية، وسط هذا الحماس المتقد الجارف.

كان عرض كلينتون لأهدافه عبر الإعلانات التجارية التلفزيونية لا يقل دقةً وإتقاناً عن صورة ريغان التلفزيونية، ولا يقل فصاحة وبلاغة عن أسلوب وودرو ويلسون، ولا يقل منطقية عن مقدمات لينكولن في رسائله المفتوحة. ليست السياسة أن تفهم كيف تسير الأمور، بل أن ترسم لها الطريق الذي تسير فيه. وليست أن تتمنى حدوث الأشياء، بل أن تجعل هذه الأشياء تحدث. إن الطريقة الفعالة المؤثرة التي استخدمها كلينتون في لقطاته الإعلانية لعرض مواقفه وآرائه السياسية، هي إحدى وجوه القوة عنده، ولهذا فقد استحق أن يصنَّف في عداد الرواد العظماء في مجال الاتصالات الرئاسية.

لقد قامت الحملة الإعلامية عند الرئيس على المسائل الحيوية والقضايا الحياتية الواقعية، وليس على النوايا الإيجابية الطيبة، بعد أن شعر بأن عصر الإعلانات المضادة الهدامة قد ولّى. وفضَّل أن يترك الطرف الآخر يبدأ الهجوم، ليقوم هو بعدها بدحض حججه إعلامياً وبالرد عليه.

في أواخر السبعينيات وأوائل الثمانينيات، كنا أنا وكلينتون أول من استكشف حقول الدعاية المضادة. فكانت إعلاناتنا تركز على تهديم ثقة الناخبين بالسياسة، وتستخدم النظرة المعاكسة إلى القضية الواحدة في دحر الخصوم. وكانت دعايتنا المضادة فعالة على صعيد معدلات كلينتون في عودته كحاكم عام ١٩٨٢، وفي تغلبه على فرانك وايت، كما سبق أن أثبتت فعاليتها، حين قمنا بترتيب أمور دافيد بريور في عام ١٩٧٨، فتمكن من هزيمة جيم غاي تاكر.

إلا أننا آمنا الآن بأن الناخبين كانوا يرتابون بصحة وصدق الدعاية المضادة، التي ساهمت في فضح الكثيرين ممن وقعوا مرة في فخ الفتنة والإغراء الذي نصبه لهم معارضوهم. ومنذ ذلك الحين آمن كلينتون بصدق بالدعاية الدفاعية.

سألني مرة في أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية، بينما كان الجميع ينظرون إلينا بفضول «هل تذكر كيف رتبنا الأمور ونجحنا في أركنساس؟ لقد قدمنا الحجج والوقائع في الرد على الدعايات الهدامة أولاً، فالوقائع الحقيقية هي التي يجب أن تتصدر الواجهة أولاً، ثم نمضي بعدها في دعايتنا المضادة».

كان كلينتون يحب دائماً القيام بكتابة ورسم مخطط الإعلانات. لكن مشاغله خلال الحملات الانتخابية في عام ١٩٩٥ و١٩٩٦، حرمته من متعة الجلوس خلف

الطاولة ، كما كان يفعل في أركنساس ، والمشاركة في العمل . ذات مرة قال بحزن بعد أن قرر البدء بحملة انتخابية « سأفتقد لمتعة كتابة الإعلانات ، وستنفردون بهذه المتعة لوحدكم » .

كنا كلما اقترب موعد النهاية ، أدركنا أكثر وأكثر ، أن كل شيء يتوقف على حسن قدرتنا على رواية قصتنا في الصراع ضد التخفيضات الجمهورية على الميزانية . قلت للرئيس في اجتماع خاص به بأوائل أغسطس / آب « إن موقفك لم يتضح أبداً أمام العامة في معركة ميزانية عام ١٩٩٣ ، فقد تركزت الزيادة الضريبية عندك على أصحاب الدخل العالي ، لكن العامة اعتقدت أن هذه الزيادة شملتهم جميعاً . بالإضافة إلى أنك لم تبين وجهة نظرك بدقة في مسألة الرعاية الصحية ، إذ اقتصرت في مخططك على الدعوة إلى الحرية الكاملة في اختيار الطبيب ، لكن شركات التأمين أظهرت في إعلاناتها عكس ما هدفت إليه فهزمتك . حاول هذه المرة أن تبين في إعلاناتك وجهة نظرك في معركة الميزانية التي أمامك ، فمن الهام جداً أن توضح ذلك في الإعلانات بدقة وتركيز وتكرار .

قال الرئيس باهتمام : « سيكون لك ما تريد من إعلانات » .

لكن ثمة فرقاً كبيراً بين أن تهمس عبارتك آمراً ببدء المسير ، وبين أن تؤمّن الأموال التي تدفع هذا المسير ، ولهذا فالأمر الحقيقي بالمسير لم يصدر إلا في سبتمبر / أيلول . ففي اجتماع رسم الاستراتيجية بتاريخ ٧ سبتمبر / أيلول ١٩٩٥ ، في قاعة المعاهدات بالبيت الأبيض ، ضغطت بكل ضراوة على الموضوع . كنت أؤمن وقتها ، وما زلت ، بأن مصير كلينتون الرئاسي بأكمله معلق بهذا القرار الخطير . وأننا ما لم نهزم ميزانية الجمهوريين ، ونجعل الأمريكيين يفهمون أننا نريد خفض العجز بقدر ما يريده غينغريتش ، إنما بطريقة صحيحة ، فلن نربح أبداً معركة ميزانية عام ١٩٩٥ ، ولن نفوز بانتخابات عام ١٩٩٦ . قلت شارحاً : « نحن الذين نحدد نتيجة الانتخاب ، منذ الآن ، ومن هذا المكان . إذا ربحنا معركة اليوم ، فسنفوز بالانتخاب غداً ، وإذا خسرنا معركة اليوم ، فلن تقوم لنا غداً قائمة مهما فعلنا » .

إذا استعدنا أحداث الماضي ، وجدنا أن قرار الدعاية المبكرة المستمرة كان ، بالفعل ، أحد أربعة أسباب أدت إلى انتصار عام ١٩٩٦ . أولها ، قرار كلينتون أن يهجم باتجاه المركز بإلقائه خطاب الميزانية لعام ١٩٩٥ ، هذا القرار الذي جعل الفوز محتملاً . ثانيها ، قرار الدعاية الإعلانية ، الذي جعلنا في عام ١٩٩٦ نتقدم على دول . ثالثها ، خطاب الحكومة الاتحادية في عام ١٩٩٦ ، الذي جاء متمماً للدعاية الإعلانية ، وأعطانا دفعاً واسعاً وثابتاً . آخرها ، قرار الرئيس بالتصديق على مشروع قانون إصلاح المعونة الاجتماعية في عام ١٩٩٦ ، مما قضى نهائياً على احتمال انخفاض علاماته بشكل يخسر معه طليعة السباق .

كان عليَّ ، في اجتماعات رسم الاستراتيجية خلال سبتمبر / أيلول ١٩٩٥ ، أن أخوض معركة كبيرة مع آيسكيس لأقنع الرئيس بالموافقة على المزيد من الدعاية الإعلانية . ولما كان لا يوجد بين أيدينا سيولة نقدية لمثل هذا الإنفاق ، فقد تحتم في النهاية أن نقترض الكثير من الأموال .

ناقشنا ، بن وشوين وأنا ، أن الدعاية الإعلانية مسألة أساسية في هزيمة الجمهوريين بمعركة الميزانية « سنجعل مقترحات الجمهوريين تبدو غير لازمة لتحقيق توازن الميزانية ، وسيضطرون إلى الاستسلام قبل أن تصل الميزانية إلى مكتبك » . ثم أضفت متنبئاً بأن الجمهوريين ، بحلول نوفمبر / تشرين الثاني ، ستتفرق وحدتهم شيعاً ، بشكل لن يتمكنوا معه من لمِّ شتاتهم قبل وقت طويل .

في هذه النقطة كانت نبوءتي كاذبة . إذ لم يحصل الشتات الجمهوري إلا بعد سنة ، حين تفرق الجمهوريون وأصبح كل واحد منهم لوحده . ولكن حتى ذلك الوقت ، ما بعد ربيع عام ١٩٩٦ ، قرر الجمهوريون أن يتكاتفوا معاً ، هذا القرار الذي لم أحسن تقديره حق قدره وقتئذ . إلا أن الجانب الآخر من نبوءتي قد تحقق ، إذ أصبحت ميزانيتهم المقترحة محط السخرية والتندر في طول البلاد وعرضها . لقد استخففت بقدرة الحزب الجمهوري على الالتحام والتكاتف في وضع لا يحبه ولا يوافق عليه الناس ، لا بل يزدادون نفوراً منه يوماً بعد يوم . لقد استخففت بقدرة غينغريتش ودول على الانتحار السياسي .

انضم بانيتا وستيفانوبولوس ، حلفاء آيسكيس الطبيعيين ، إلى صفي في مسألة أن نمضي قدماً بالدعاية الإعلانية ، لكن إرسكين بولز أصر على وضع خطة واضحة لمجموع ما نريد إنفاقه لغاية انتهاء العام ، بدلاً من هذه الخطط التي نضعها أسبوعياً . قال محتجاً : « إن ما نفعله ليس طريقة في إدارة العمل » .

وتمت الموافقة في النهاية على عشرة ملايين دولار كموازنة لعام ١٩٩٥ . لم يسبق لرئيس من قبل أن بدأ سلفاً بدعاية إعلانية ، أو حتى فكر بها ، كما لم يسبق لأحد أن استخدم مسألة مناقشة القضايا في الدعاية الإعلانية ، بعيداً عن الحث والتشجيع على إعادة انتخابه ، وركّز على موضوع الميزانية أمام الكونغرس . كانت العشرة ملايين دولار تعادل تقريباً ما أنفقه الرؤساء والمرشحون على أجهزة الإعلام في موسم الانتخابات التمهيدية ، ومع ذلك فنحن هنا نقوم بإنفاقها على الإعلان على القضايا قبل أكثر من عام من بدء الانتخاب وأنا واثق من أنني أغضبت الجميع ، وأنا أعيد وأكرر أن دعمنا للدعاية الإعلانية وإنفاقنا عليها سوف يرفع من علاماتنا في الاستطلاعات ، وأن هذا الارتفاع سيزيد الأموال المتدفقة علينا من المؤيدين . وقد

رأى الرئيس ذلك يحصل فعلاً في أيام أركنساس، كل ما هنالك أن الأمور هنا مضروبة بعشرة أمثال ما كانت عليه هناك.

تذمر كلينتون كثيراً من اضطراره إلى زيادة مدفوعاته من الأموال بهذا الشكل، قال لي: «أنت لا تدري، لأنك تنظر إلى الأمور عن بعد، ولهذا فأنت لا تعرف بالضبط الجهد الذي عليّ، وعلى آل، وعلى هيلاري أن نبذله لتغطية هذه الزيادة». ولم يكن يعني طبعاً جهد الاتصالات الهاتفية. فهو نادراً ما يرفع سماعة هاتفه، كما يرفعها الرؤساء، ويطلب دعماً لحملته الانتخابية. كان يعني الجهد الحقيقي فزيادة مخصصات الإنفاق بحدود مليون واحد من الدولارات، تقتضيه الاهتمام بالبحث عن مصادر للتمويل، كلها خارج واشنطن، وتستلزم منه مصافحة مئات ومئات من الأيدي التي تموله.

ولقد حضرت مع إيلين بعض هذه المشاهد، ورأينا ما معنى الجهد والمعاناة في مصافحة الأيدي المنقبضة الأصابع. كنا نقف عادة في آخر الصفوف لأننا لسنا من الزبائن، ولا نريد أن نزاحم الزبائن على أماكنهم في الطابور، وتمضي الساعات بنا ونحن نتأمل كلينتون يتوقف عند كل يد ليصافحها، وعند كل آلة تصوير ليبتسم لها، وعند كل مؤيد متبرع ليتحدث إليه. كانت أقدامنا تتخدر ثم تؤلمنا، فنراوح بينها في الوقوف حيناً، أو نستند إلى الجدار حيناً آخر، ونحلم بمقعد فارغ نجلس عليه، كما يحلم العطشان المسافر في الصحراء ببئر في واحة. كنا نقف، ونقف، ويبدو وكأن الطابور بلا نهاية. وكان الرئيس يقف في آخر هذا الخط من المعاناة ليلة بعد ليلة بعد ليلة، ووقتها فقط عرفت الثمن الذي يدفعه الرئيس مقابل زيادة الإنفاق على الدعاية والإعلان.

المرة الوحيدة التي تذمر فيها من العبء الثقيل الذي تلقيه عليه زيادة اعتمادات الإعلانات كانت حين قال لي: «عندما أكون هناك أتوقف عن التفكير. أتوقف عن القيام بأي شيء، سوى أن أصافح أيدي الممولين. أنت تريدني أن أصدر تعليمات وأوامر، لكنني لا أستطيع وأنت تطلب زيادة اعتماد الإعلانات في الوقت نفسه، أن أفكر بأي أمر آخر، لا أنا، ولا آل غور، ولا هيلاري، فزيادة الاعتمادات هذه تورث المرض وتدفع إلى الجنون».

لكن الدعاية الإعلانية أعطت ثمارها، فبدأ الناخبون يرفضون الميزانية التي اقترحها الجمهوريون. وبدأنا قليلاً قليلاً، أسبوعاً بعد أسبوع، نصعد على سلم المعدلات في الاستطلاعات والجمهوريون يهبطون. وارتفع معدل الموافقة على نهج الرئيس من ٥٤٪ في أغسطس / آب إلى ٥٥٪ في سبتمبر / أيلول، إلى ٥٦٪ في أكتوبر / تشرين الثاني، وظهر التقدم بشكل فعلي في كل مكان مارسنا فيه الإعلان.

كانت الإعلانات جارفة طاغية. ظهر أحدها، وهو من إبداع ماريوس بينزنر، يمثل راسمة كهربائية للقلب تقيس دقات قلب أحد المرضى، بينما المذيع يشرح فداحة الاقتطاعات التي اقترحها الجمهوريون على مخصصات الرعاية الصحية. ثم ينتهي المشهد فيصمت الصفير المتقطع في الراسمة، وتتوقف التعرجات في خط نبضات القلب ليصبح على الشاشة مستقيماً، دلالة على احتضار الرعاية الصحية وموتها.

ثمة إعلان آخر، استلهمه بوب سكواير ابتهاجاً بولادة إيمّا، أول حفيدة له، يمثل إيمّا في مهدها وهي تلعب بألعابها تحت مقطورة ضخمة، بينما المذيع ينتقد بعنف الاقتطاعات التي اقترحها الجمهوريون في مجال التعليم.

حين سار البث الإعلاني في مساره، تحول الناخبون إلى تفضيل موازنتنا المقترحة عن تلك التي قدمها الجمهوريون بنسبة ٢×١، ومنحوا ثقتهم لكلينتون لتحقيق ميزانية متوازنة بشكل يضمن العدالة للجميع، بفارق ١٥ — ٢٠ نقطة عن مؤيدي ميزانية الجمهوريين واقتطاعاتها. لقد تم اجتياح قلب الجيش الجمهوري، واقتحام أهم معقل من معاقله القوية، هو حصن الميزانية، وأثبتنا أننا نستطيع تحقيق توازن فيها، بشكل أفضل مما يستطيعونه.

أصبح المسنون جداراً استنادياً يدعم اقتراحات كلينتون وميزانيته. وثارت ثائرة النساء، وخاصة من تجاوز منهن سن الخامسة والستين، على اقتطاعات وتخفيضات الرعاية الصحية. فأوضح أحد الاستطلاعات كيف أيد كلينتون جميع الناخبات المؤيدات للديموقراطيين التقليديين من الأفرو أمريكيات أو ذوات الأصل الإسباني والبرتغالي والأمريكي اللاتيني.

وظلت الصحافة على تجاهلها لإعلاناتنا، رغم أثرها وتأثيرها على صياغة وإعادة تشكيل السياسات الأمريكية. كانوا يدفنون أخبار إعلاناتنا في الصفحات الداخلية، فقمنا بشراء فترات البث التلفزيوني، بشكل لا ترصدنا فيه راداراتهم، من المحطات المحلية مباشرة، بدلاً من شرائها عن طريق شبكات البرامج، التي كانت ترى تماماً ما نفعل دون أن تفهم معناه، إلا بعد زمن طويل من بث هذه الإعلانات.

تعرفت البلاد، عبر هذه الإعلانات، على وجهة النظر في هذا الصراع، التي يؤيدها كلينتون بحزم. قلت لكلينتون مؤكداً بعد أن سدّت الحكومة كل منافذ الحوار والتواصل «لأول مرة نتمكن من توحيد الأرضية بين الدعاية الحرة والدعاية المأجورة، فلقد فهمت البلاد خفايا المعركة، وتريدك أن تتابع ما بدأته».

ولكن ما الذي جعل الإعلانات تنجح؟ هل هو مجرد أننا نملك المال الذي نستطيع به نشرها وبثها؟ وهل بإمكان أي إنسان يملك المال أن يفوز بالانتخابات؟ لا .. فالساحات مليئة برجال ونساء حاولوا شراء طريق توصلهم إلى المناصب، ثم فشلوا تماماً. مايكل هافينغتون من كاليفورنيا، وكلايتون ويليامز من تكساس، وآندي شتاين من نيويورك، وميت رومني من ماساتشوسيتس، وغيرهم مثل روس بيروت في عام ١٩٩٢ المرشح في جميع السباقات لمختلف المناصب. السر هو الإعلان عن مواقفك التي يؤيدها الناس. فإذا لم يقتنع الناس مبدئياً بما تقدمه لهم، فلا قيمة لما تنفقه على الإعلان بالغاً ما بلغ، ولا قيمة لتقنية الإعلان ودرجة جودته الفنية بالغة ما بلغت. لقد نجحت إعلانات كلينتون، لأن مخطط ميزانيته المعتدل وافق ميل الأمريكيين إلى طريقة تحقق توازن الميزانية، دون تخفيض البرامج المقبولة عندهم. ومن هنا اتضح فشل ميزانية الجمهوريين التي تقوم على تخفيض الإنفاق الضخم وعلى تخفيض الضرائب.

منذ أن بدأنا هجومنا الإعلاني، كنا قلقين من أن يقابلنا الجمهوريون بالمثل. قال إرسكين بوكز في سبتمبر / أيلول محذراً، حين قررنا متابعة الدعاية الإعلانية «لا تتضايقوا إذا ما رأيتم أحداً ينافسكم، يملك ثلاثة أضعاف ما تملكون من أموال».

لكن الأمر الذي لا يصدق، هو أن الجمهوريين لم يظهروا في سماء المعركة، وكنا نراقب المحطات على مدار الأسبوع. حاولوا بين الحين والآخر أن يجتذبوا انتباه الصحافة واهتمامها، ببث إعلانات في منطقة مدينة واشنطن، وأن يصوروها كجزء من حملة تشمل كل البلاد، إلا أنهم لم يجعلوها شاملة.

اعتاد كلينتون في البداية أن يسألني أربع مرات في الأسبوع «هل ظهرت طائراتهم في الجو؟» واعتدت أن أجيبه في كل مرة «كلا يا سيدي، حمداً لله». لم يظهروا على الخط، رغم أنهم يملكون أموالاً هائلة. ماذا ينتظرون؟

وبعد مضي الأسابيع والشهور واكتمال عام تقريباً، وإعلاناتنا تدور مقابل صمت وتعتيم مطبق من طرفهم، قمت في الليل مع كلينتون بوضع قائمة بجميع أنواع الفرضيات المحتملة. كان كلانا يحب أن يتأمل ويحزر ما الذي يجري. قلت لعل دول والسناتور التكساسي فيل غرام، المنافس الرئيسي لدول على الترشيح، لم يتفقا على نص موحد، ولعل هالي باربور رئيس اللجنة الوطنية للجمهوريين لم يرغب بأخذ الموضوع على مسؤوليته الخاصة. وافترضت تخميناً أن باربور رفض أن يشارك في أعباء المخصصات المالية لمختلف مرشحي الحزب الجمهوري للرئاسة.

لقد احترق الجمهوريون في السابق بنار الإعلانات المبكرة في سباقات عضوية مجلس الشيوخ والمناصب الأخرى. ووقف استراتيجيوهم كالأموات أمام الدعايات المبكرة في طول الولايات وعرضها، وفضّلوا إمساك نيرانهم إلى أن يقترب يوم الانتخاب. إلا أن الاستراتيجيين لم يفهموا أنه إذا ما استمر الإعلان وتتابع مع سير المعركة، وبخاصة إذا ما تعلق بموضوع كالميزانية، فسينتبه إليه الناس ولا ينسونه. فالناخبون يتذكرون ما يقوم به الرئيس معارضاً الآخرين.

في كل الأحوال، ومهما كان بثنا الإعلاني كثيفاً ومركزاً، فلن تخفق أية استراتيجية عاقلة منطقية في التصدي له، وبخاصة إلى جوانبه الهجومية العدوانية التي تستهدف طروحات دول وغينغريتش ومواقفهم. كنت أقول لنفسي دائماً «المفروض أن يردوا علينا»، لكنهم لم يردوا أبداً. وقررت ألا أحكي لترينت لوت أبداً عن حيرتي من عدم ظهورهم في سماء المعركة، وأن أقتصر في مقابلاتي معه على الأسئلة المألوفة، وأن أتجاهل وأتفادى الأسئلة الكبيرة التي لا تطرح عادة.

لعل الجمهوريين لم يصدقوا مسألة أن نبقى على الهواء طول سنة ونصف، أو لعلهم كانوا ينتظرون أن نتوقف، مقتنعين بأن التوقف سوف يدفع بإعلاناتنا إلى أحضان النسيان دون جهد منهم. لكن كلينتون تابع الإعلان خلال يوليو / تموز ونصف أغسطس / آب، وكامل سبتمبر / أيلول، أوكتوبر / تشرين الأول، نوفمبر / تشرين الثاني، والنصف الأول من ديسمبر / كانون الأول، وعاد في أوائل يناير / كانون الثاني من عام ١٩٩٦ إلى بث إعلاناته حتى ليلة الانتخاب، سواء على صعيد المواقف والقضايا، أو على صعيد الدعاية الانتخابية المجردة.

لقد أنفق الجمهوريون على إعلانات ميزانيتهم، بحسب اعتقادي وتقديراتي، ثلاثة أمثال ما أنفقناه. وكان من المحتمل أن يربحوا معركة الميزانية (إما بإجبارنا على توقيعها، أو بدفع عدد من الديموقراطيين المحافظين لإجبار الرئيس على استخدام حقه في النقض)، كما كان من المحتمل باعتقادي أن يفوزوا في انتخابات عام ١٩٩٦. إن جميع من عارضوا وقضوا على الخطط الإعلانية عند الجمهوريين (أو فشلوا في تنفيذها) هم الذين يتحملون مسؤولية الهزيمة.

مع نهاية عام ١٩٩٥، سارت إعلانات كلينتون وعلى مدى ستة أشهر دون أية دعاية إعلانية جمهورية معارضة، وكان تأثيرها جارفاً. ففي الولايات المتأرجحة، حيث تم البث الإعلاني، مثل ميتشيغان وويسكونسين، تقدم كلينتون على دول بدرجة أكبر من التي تقدم

عليه بها في معاقل الديموقراطيين مثل رود آيلاند ونيويورك . أما في مجال الإعلان عن المواقف والقضايا ، فقد ترك الجمهوريون لنا أمر تحويل أغلبية أنصارهم إلى جانبنا .

★★★★

كان قلقي من الجمهوريين أقل بكثير من قلقي من الأشخاص من مثل آيسكيس ، الذين يجب بالفرض أن يكونوا بجانبي ، حتى أصبح الأمر يستلزم براعة في فن الملاكمة الوحشية ، براعة كنت أعرف عنها القليل قبل قدومي إلى واشنطن . إذ كان عملي في سباقات مجلس الشيوخ ومناصب الحكام ينحصر عموماً بالمرشح ، ولم أكن ألقي بالاً إلى طاقم موظفيه ومساعديه بشكل أو بآخر .

أما الآن ، فقد طوّرت أسلوبي في الملاكمة ، إلى أسلوب ضبط النفس . كنت في أمان لموقعي من الرئيس ، وشعرت بأنني سأنجح أكثر باستعمال الجزرة بدلاً من العصا في التعامل مع الموظفين ، وجعلت من نفسي موضع سر وثقة جورج ستيفانوبولوس ، إضافة إلى جميع من عارضني في عام ١٩٩٥ . قلت لرام إيمانويل : « لقد كان قتالك معي نظيفاً وعادلاً ، وأود لو تقبل العمل معي ، لأني أحب أن أعمل معك » . كان إيمانويل قصيراً ، نحيلاً ، مدرساً سابقاً لرقص الباليه ، ومولاً رئيسياً لكلينتون في عام ١٩٩٢ ، ويشرف الآن على قضايا الجريمة والمخدرات والهجرة في البيت الأبيض ، فهو المصدر الوحيد للأفكار الجديدة بين موظفيه . إذ ساهم في تحسين وتطوير موقف كلينتون الصارم في محاربة الجريمة ، سارقاً بذلك انفراد الحزب الجمهوري بالاهتمام بهذه القضية .

لقد تساءل عدد من أعضاء فريقي الاستشاري عن سبب هذا السخاء على الموظفين الذين عارضوني ، ولماذا أصر على الترحيب بهم في فريقنا ، مؤكداً أن لهم سلطة عليه ودوراً فيه ؟ قلت لهم : « إذا أظهرنا بأننا منفتحون ، وتواقون إلى دعوة كل الجيدين إلى فريقنا ، فستصبح معارضتنا أقل » .

كان أطرف ما في المشكلة هو التعامل مع الأنانيين من المساعدين الذين كنت أجذبهم للعمل معي . فكل منهم كان يعرف بأن استمرار دوره في السباق يتوقف علي ، إلا أنه يتأثر أيضاً صعوداً وهبوطاً بمقدار قربه من الرئيس وبمدى تقديره لما يفعل ، بعيداً عن علاقتي به وعلاقته بي .

صادفت بعض المشاكل ، وبخاصة مع مارك بن ، الذي كان له دور مميز في تطوير كثير من مفاهيمنا الأساسية ، وكان لمعطياته الأصيلة من الأثر ما لم يكن لأي عضو آخر في الفريق . كان لامع الذكاء ، لولا أن منصبه الجديد كمستشار للرئيس أثمله ، فدفعته خمر

السلطة في واشنطن التي يقضي فيها دواماً كاملاً، إلى أن ينصب لنفسه مقراً في الغرفة الصغيرة الملحقة بمكتب دوغ سوسنيك. وكان سوسنيك، المدير السياسي في البيت الأبيض قد تزايد نفعه لي بالتدريج كوسيلة للالتفاف على هارولد آيسكيس. فبحكم منصبه كنائب لآيسكيس، كان سوسنيك مؤهلاً وقادراً ومعقولاً، أعانني في الحصول على الموافقات دون حاجة إلى مواجهة مباشرة مع آيسكيس.

لقد اشتممت رائحة علاقة حميمة بين سوسنيك وبن، قد أتمكن معها من إقامة تحالف تكنوقراطي معهما في وجه هارولد. ولعلهما كانا يظنان أنهما يستطيعان الاستيلاء على دفة السفينة وقيادتها، بينما أنا وآيسكيس مشغولان بالقتال. ولم أكن أنوي أن أترك مارك بن يعمل منفرداً بحرية. لقد استخدمني الرئيس، وأنا في النهاية المسؤول عن النجاح والفشل. وثارت شكوكي حين علمت أن بن يذهب لحضور اجتماعات في البيت الأبيض لست مدعواً إليها، في الوقت الذي كان أعضاء طاقم البيت الأبيض يحاولون فيه إغواء بن بالابتعاد عن فريقي.

إضافة إلى ذلك، فقد أقلق وضع بن جميع المستشارين في فريقنا لأسباب سياسية. فتحدثت مع الرئيس حول هذا الموضوع، وحذرته من خطر وجود مستشار ذي منصب في البيت الأبيض. حدثته عن بعض مشاريع بن الأخرى، وأشرت إلى احتمال أن يرى النقاد فيها تضارباً في المصالح. وذكرت بالتحديد أنه يعمل مستشاراً لدى شركة A.T.&T.، في الوقت الذي تجري فيه مفاوضات حساسة حول مشروع الاتصالات. كما ذكرت مساهمته في بعض الانتخابات الأجنبية خارج البلاد، التي قد تخلق لنا إشكالاً محتملاً. قلت: «لا بأس بأن يقوم بالاستطلاع الإحصائي لصالحنا، إنما يجب ألا يستلم أي منصب أو مكتب في البيت الأبيض».

وافق الرئيس، الذي انزعج من مسألة الإشكالات الأجنبية الخارجية المحتملة، وطلب مني الاهتمام بالموضوع.

اتصلت مع بن، وأخبرته بوجوب ترك المكتب في البيت الأبيض وإنهاء صفقاته مع سوسنيك، ومع باقي أفراد الطاقم. إلا أنني أخبرته بالمقابل عن رغبتي في إبقائه إلى جانبي، وإطلاعه على كل اجتماعاتي ومخابراتي الهاتفية، بعد أن شعرت أنني بهذه الطريقة أمنحه أفضل مظهر ممكن، وأضع حداً في الوقت نفسه لالتفافه المحتمل حولي. وأثبت هذا الحل جدواه الرائعة، إذ أعطى بن ما يريده من السلطة بعمله قريباً مني.

وبينما أنا غارق في حروبي الداخلية، أطل شبح الجنرال كولن بويل، المرشح الرئاسي الذي دفع بيل كلينتون إلى النوم، لكنه بعد أن نام، بدأ يأتيه في أحلامه ويقض مضجعه

خلال أوكتوبر / تشرين الأول وبداية نوفمبر / تشرين الثاني من عام ١٩٩٥ ، ولم يصدق الرئيس أن بوسعه دحر بويل « سوف يسحب مني الزنوج ، وسينفرد بنفسه بعيداً عن الجمهوريين في الكونغرس ، وسيقوم بحملة انتخابية ضخمة ، وسيهزمني بشكل مريع » كانت تلك نبوءة الرئيس في أواخر أوكتوبر / تشرين الأول ، بينما كانت أمريكا مهووسة بصرعة بويل في كتابه « رحلتي في أمريكا » الذي جعل منه بطلاً مشهوراً على الصعيد الوطني .

في يونيو / تموز من عام ١٩٩٢ ، حين كان كلينتون يحضّر لسباقه الأول نحو الرئاسة ، تباحث معي مطوّلاً حول مسألة اختيار نائب للرئيس . فشجعته على اختيار غور ، موضحاً أنه بحاجة إلى نائب يشبهه شخصياً . ولتجنب المقولة التقليدية التي تزعم وجوب قيام توازن بين المرشحين ووجوب أن يختلف النائب عن الرئيس ، قلت إن كلينتون لم يوضح للناخبين صورة كيف كان في شبابه ، وقد يساعده الشبه بينه وبين غور على أن يحكي للناخبين حكاية شبابه . في هذه المحادثة جرى ذكر بويل ، فقلت إنه سيكون اختياراً طريفاً .

قال كلينتون : « أعرف ذلك ، فأنا أحبه ، لكنه لن يفعلها » . لم أعرف وقتها ، ولم أحاول أن أعرف ، ما إذا كان كلينتون قد عرض المنصب فعلاً على بويل ولم يقبله ، أم يعني أن بويل لن يقبل المنصب لو عرضه عليه ، بعد أن صرح بأنه يتطلع إلى منصب أكثر فاعلية .

زاد خوف كلينتون من بويل ، وزاد انزعاجه من حصول بويل على اهتمام المداهنين والمتملقين . قال متذمراً على الهاتف : « إنهم يعطونه أكثر مما يستحق ، والمضحك أنه بدا على شاشة التلفزيون كالقديسين ، ولم يطرح عليه أولئك المحررون البيض المجرمون الأحرار أي سؤال ، مرعوبين من قداسته » . وأردف قائلاً : « لقد كان ضد ما قمنا به في البوسنة ، ولم يوافق على قصفها بالقنابل لوقف الحرب ، ولا على إرسال قوات لحفظ السلام ، فهل سأله أحد لماذا؟ هل لامه أحد على ذلك؟ كلا ، كلا . كان كل همهم حماية صنيعتهم ، فبويل مرشحهم ، مرشح المؤسسة الإعلامية الأمريكية ، وهيهات أن أهزمه » .

كان لا يستطيع حل المشكلة وهو أمامها ، كان يشكو ويتذمر فقط إلى أن يأتي من يدله على الحل الذي يمكّنه من الإحاطة بها . كان يتذمر ويشتكي دائماً ، في كل مقابلة ، وفي كل اجتماع ، وفي كل مخابرة هاتفية ، وكأن شكاواه لا تنتهي .

دعوت بن وشوين إلى اجتماع عاجل ، بعد أن قام شوين بسلسلة من الاستطلاعات على حقل الواقع ، لنرى كيف نعالج مسألة بويل ، فوجدنا أنه كجمهوري يستطيع فعلاً أن يهزم الرئيس . إلا أنه لم ينل ترشيح الجمهوريين له . مما جعله كمستقل لا يستطيع هزيمته أيضاً ، وهذا يعني أنه شاه ميت .

كانت المعطيات واضحة: دول تقدم على بويل بفارق بسيط في الانتخابات التمهيدية للجمهوريين، ضد العديد من المرشحين الجمهوريين، ولكن حين خرج هؤلاء المرشحين من السباق تاركين دول وبويل وحدهما فيه، استطاع السناتور أن يهزم الجنرال بنسبة ٢×١، وكانت نسبة قاتلة قضت على ترشيح بويل. فعملياً، جميع الناخبين الذين أيدوا غرام، أو بوكانان، أو فوربيس، أو أليكساندر، في الانتخابات التمهيدية، كانوا مع دول ضد بويل.

إن دعم الجنرال للعمل والتحرك الإيجابي، وبخاصة ضبط إنتاج وبيع الأسلحة، وموقفه المؤيد لهذا وذاك، جعله محروماً ملعوناً في الانتخابات التمهيدية، حيث الحقوق الدينية مهزوزة متأرجحة. ولقد أدركت منذ أن بدأ جولته في البلاد ينشر التراتيل، ويقرأ في الكتب، أنه لن ينجح في سباقه، بل لن يحاول أن يشترك فيه، فالأرقام لا توجد في الكتب ولا في التراتيل. يبقى أن ننتظر لنرى ما إذا كان الناخبون سيشملونه بسخائهم وكرمهم في عام ٢٠٠٠ وهو يواجه جاك كيمب.

حين أعدنا قراءة المعطيات التي تشير إلى عدم استطاعة بويل أن يحصل على ترشيح الجمهوريين، انهار أمامي أهم حاجز يعيق إعادة انتخاب كلينتون. وأعلنت في اجتماع رسم الاستراتيجية المنعقد بأوائل شهر نوفمبر/تشرين الثاني أن الانتخاب قد انتهى، وانحسم أمره. قلت للرئيس ونحن نشرب القهوة على الطاولة المستطيلة «تهانينا فقد فزت». ومضى اثنا عشر شهراً قبل أن تتحقق النبوءة، وتنفتح صناديق الاقتراع، ويصمت الجميع دهشة، وسط ضحكات الشهور الاثني عشر الساخرة التي رنت في الغرفة. لكن الرئيس ظل صامتاً، رافعاً بصره إليّ عبر نظارة القراءة، ليعود بعد فترة صمت أخرى إلى قراءة مفكرته دون أن ينبس بحرف. لقد جاءت نتيجة الانتخاب، كعنوان لانتصارنا الفعلي، من ذلك اليوم الذي بدأنا نعمل فيه، ولم يداخلنا الشك لحظة واحدة في أنه سيتحقق.

الفصل التاسع

معركة الميزانية

أكثر الأسرار غموضاً هو أن الديموقراطيين في الكونغرس لم يقتنعوا أبداً بأن مجرد إيمانهم العميق ببرنامجهم المتعلق بالمجتمع وبالعنف قادر على إحياء مسألة الميزانية ، لكن الجمهوريين شعروا بهذا . فقد أدركوا أننا وقعنا في العجز المالي منذ أن تم جرّ الحكومات الفيدرالية بالكامل إلى الشؤون الفردية الأمريكية . وحين عمد أيزنهاور إلى تقليص الاعتمادات والمخصصات العسكرية في الميزانية ، تحقق التناسب بين الدخل الإجمالي الفيدرالي والإنفاق المتدفق ، لكن هذا التناسب بين الدخل والإنفاق نادراً ما تحقق في السنوات التالية . حتى حين تضاعفت الديون القومية ثلاث مرات على يد الجمهوريين في عهد ريغان وبوش ، كنتيجة لتخفيض الضرائب وزيادة الإنفاق العسكري ، فقد تابع الحزب تراتيله البلاغية الرنانة المنمقة أمام هيكل الميزانية المتوازنة .

وتظاهر الديموقراطيون أيضاً بدعم تقليص العجز المالي في خطبهم وأحاديثهم المبهمة الغائمة عن تطبيقهم لوسائلنا وإيمانهم بأهدافنا ، لكن القضاء على العجز كان يخيفهم . وبين هؤلاء وأولئك كان ثمة اقتصاديون ليبراليون يزعمون أن التوازن في الميزانية ليس مهماً ، إذ طالما بقي معدل العجز أقل من الحجم الاقتصادي فالأمور على ما يرام . إلا أن نقص رأس المال العالمي ، وعدم قدرة التجارة والأعمال على مزاحمة الحكومة الفيدرالية على شباك القروض ، والمعدلات العالية للفائدة ، تحكي لنا قصة مختلفة أخرى .

شعرت على الصعيد السياسي بأن ثمة خمسة أمور معقولة يستطيع الجمهوريون استخدامها في هزم الديموقراطيين . الأول والثاني ، الثقة الخاصة التي تربط الناخبين بهم في المسائل المالية والجريمة . وتأتي في هذه النقطة سمعتهم التاريخية بالصلابة والعدل في الإنفاق لتعطيهم الأفضلية . الثالث ، أنهم أقاموا لأنفسهم ، منذ أيام نيكسون ، زاوية خاصة حول مسألة المعونة الاجتماعية وغيرها من المسائل التي لها علاقة بالسباق ، مثل إصلاح سياسة التحرك السريع والهجرة . فالديموقراطيون مقيدون في هذه المسائل بالأقليات للحصول على ثقة

الناخبين المحافظين البيض. الرابع، المسائل المتعلقة بالدفاع والسياسة الخارجية. فقد ساعد فشل الديموقراطيين في فييتنام، ونجاح بوش في الخليج الفارسي، على ترسيخ الاعتقاد بتفوق الجمهوريين في الشؤون العسكرية، الذي بدأ مع أيزنهاور. ولقد أيّد افتقار كلينتون إلى الخبرة العسكرية هذا الاعتقاد. أما الأمر الخامس فهو الاقتصاد الذي يعتمد في صعوده على كيفية الأداء، وعلى المسؤولين عنه في ذلك الوقت. الأمور المالية، والجريمة، والمعونة الاجتماعية، والشؤون الخارجية والدفاع، والاقتصاد هي الأمور الخمسة التي على الجمهوريين أن يفوزوا بفضلها في الانتخابات، أو أن يخسروها.

كنت أؤمن بأن علينا أن نهزمهم في كل قضية من هذه القضايا. فلو استطعنا أن نجعل كلينتون يقدم حلولاً وبدائل لهذه القطاعات الخمسة، لتمكّن من تجييرها لصالحنا. مثلاً، معارضة الجمهوريين لضبط صنع وبيع الأسلحة، قضى على ما كسبوه في مجال محاربة الجريمة. ومفهوم مستوى الأداء في الحقل الاقتصادي وقف سداً منيعاً في وجه مسيرتهم بهذا الحقل. إلا أن الجمهوريين ما زالوا يملكون المسائل المالية، والمعونة الاجتماعية، والشؤون الخارجية والدفاع، وعلينا أن ندك مصداقيتهم في هذه القطاعات، وأن نسلبهم قطاع الأمور المالية الذي يزعمون أنه لهم، وذلك بأن نتبنى مشروع ميزانية كلينتون وليس مشروع ميزانيتهم.

لقد كان إنجازاً ضخماً لكلينتون أن يوظف أصوات الديموقراطيين في حقل تخفيض العجز عام ١٩٩٣ بعد استلامه مهام منصبه مباشرة. لكن نصف هذا التخفيض على الأقل أتى من زيادات الضرائب، وليس من تقليص الإنفاق. ومات البرنامج بمضي الوقت، وما زال شبح العجز يخيم من بعيد بقيمة مئات الملايين من الدولارات.

ليس ثمة بديل سياسي عن تعبير «المجموع يساوي الصفر» في لعبة تخفيض العجز، لأن معظم الأمريكيين، وهذه مسألة أخلاقية، إما أن يدفعوا ما عليهم، أو لا يدفعون أبداً. وبما أن الجمهوريين يتمتعون بإعفاءات تقتصر عليهم حصراً، فهم يبررون لأنفسهم وضع الاقتطاعات التي يريدونها.

هل يعني هذا، إذن، أن الجمهوريين سيقتطعون مخصصات الرعاية الصحية من جذورها؟ ويخفضون تأمينات العناية الطبية المجانية للفقراء تخفيضاً كبيراً؟ وينقصون من منح الدراسة الجامعية؟ ويضعفون قوانين حماية البيئة إلى حد تصبح معه نقشاً على قطعة نقدية؟

سيكون ذلك إجراءً مشؤوماً لكنه من وجهة نظر العامة، ضروري، لو اقتضته موازنة الميزانية. لكن هذه التخفيضات ستكون، من جهة أخرى، ذنباً سياسياً لا يغتفر، لو أمكن تحقيق التوازن بتخفيض الإنفاق في البنود التي لا تمس جوهر قيمنا ومثلنا العليا.

منذ اليوم الأول من استلامي العمل، حثثت الرئيس على تقديم مشروع ميزانية متوازنة. فكان في البداية يفضل ألا يبادر بالتحرك. ورغم أنه ملزم تشريعياً بتقديم مشروع ميزانية إلى الكونغرس في بداية العام، لكنه لم يرغب بذلك. فقد شعر أنه لو اقترح تخفيضات تحقق التوازن في الميزانية، فسيقدم بذلك تغطية سياسية للجمهوريين، يقترحون تحتها تخفيضات أكبر. لكنه إن قدّم ميزانية غير متوازنة مع هوامش وتوصيات بتخفيض الإنفاق، فسيقود ذلك إلى تعرية ميزانية الجمهوريين باقتطاعاتها الهائلة أمام الرأي العام. وهكذا تقدم الرئيس بمشروع ميزانية، قال النقاد الجمهوريون أنه أسقط فيها مئة بليون دولار من بند العجز، أخفاها عن العيون.

كان موقف الرئيس غامضاً غير مفهوم. كل ما فعله أنه انهزم هزيمة ساحقة، وافتقر إلى القوة السياسية لإقناع الناس بالاقتطاعات اللازمة للقضاء على العجز. وليحقق ذلك، كان عليه أن ينشق عن مؤيديه في الكونغرس، وأن يخوض معركة للحصول على ترشيح الحزب له، كل ذلك بلا جدوى. فهذا الكونغرس لم يأخذ ميزانيته على محمل الجد، بل اعتبرها بداية ينطلق الكونغرس منها إلى اقتطاعاته وتخفيضاته.

كان يدرك تماماً أنه خوزق نفسه على عمود الزيادة الضريبية في عام ١٩٩٣، في محاولة ناجحة ساذجة لتخفيض العجز. وكان يحمر وجهه في المجالس الخاصة حين يأتي ذكر الموضوع، ويلوح بسبابته في الهواء ويصيح «لكنني مررت المشروع دون أن أحتاج إلى صوت واحد من الجمهوريين»، ثم يبتلع دواءه دفعة واحدة ويتابع قائلاً «إنه دورهم في اللعب الآن».

كان موظفو البيت الأبيض، وبخاصة ستيفانوبولوس وبانيتا، مستعدين لأن ينتظروا سنة كاملة دون أن يقدموا أي مشروع لميزانية متوازنة، وكأنه انتظار بلا نهاية. كانوا يقولون أحياناً بأن نتريث حتى يمررالجمهوريون ميزانيتهم في المجلسين، وأحياناً أخرى بأن علينا وقف إطلاق النار إلى ما بعد خروج ميزانية الجمهوريين من لجنة المؤتمر أو لما بعد مرورها في المجلسين مرة أخرى، أو لما بعد نقضها من قبل الرئيس. كانوا أحياناً لا يعتقدون بأن من الأسلم تقديم مشروعنا البديل بعد تثبيت النقض. انتظروا، تمهلوا، تريثوا. هذا كل ما كانوا يفكرون فيه. كانوا يشعرون أن الرئيس لن يستطيع متابعة تسجيل نقاطه السياسية بمهاجمته للتخفيضات الجمهورية، ما دام لم يقدم مشروعه الخاص للميزانية.

أوضحت أن هذه الطريق مسدودة. فالصحافة لن تناقش نقدنا بجدية ما لم نقدم البديل، وقلت أن معظم الناس لن يرفضوا تخفيضات الجمهوريين في ميزانيتهم، ما لم يفهموا أن ثمة طريقة أفضل وأسهل لتخفيض العجز.

انصب شك الرئيس، وأنا معه، على أن الجمهوريين لم يعمدوا إلى اقتطاع الرعاية الصحية والمعونة الطبية والتعليم وحماية البيئة وتخفيضاتها بقصد توازن الميزانية، بل لأنهم يريدون ميزانية متوازنة تضمن هذه التخفيضات.

أوضحت أن من الضروري أن يتبين الناس ماذا يريد الحزب الجمهوري، وما الذي ينويه. لقد عارض الجمهوريون الرعاية الصحية منذ أن طرحت لأول مرة، بحجة أنها ليست من الضروريات الواردة في البرنامج، ووقف الحزب الجمهوري ضد المساعدة الفيدرالية للمدارس، بحجة أنهم يخشون من أن يصبح التعليم تحت سيطرة واشنطن، خارج السلطان المحلي. ولقد اعتاد الجناح اليميني للحزب أن يعارض دائماً الدور الفيدرالي في حماية البيئة، ويطالب بإشراف الولايات عليه (مما يمكّن رجال الأعمال من التأثير فيه بسهولة) وتأمين متطلبات المياه النقية والهواء النظيف. إن ما أراده الجمهوريون هو تخفيض الضرائب، مما يفتح أمامهم السبيل لتقليص هذه البرامج وتخفيضها.

من جهة أخرى، كان الديموقراطيون يحمون هذه البرامج ويدعمونها كعذر مبرر ولكن ليس لتوازن الميزانية. فمعظم الديموقراطيين في المجلس يدركون أن هذه البرامج الحيوية لا يجوز تخفيضها لتحقيق التوازن. فهناك طرق أخرى توصل إلى هذا الهدف، عدا تقليصها الذي لا يرغبون به. فخلف كل برنامج وظيفة حكومية، وخلف كل وظيفة حكومية اتحاد عام للموظفين، وخلف كل اتحاد تبرعات للحملات الانتخابية، وخلف كل تبرع قائد عمالي مستعد لأن ينقلب بكل برود وبكل سرعة حين يجد أن معدل مستحقاته قد تقلص بسبب تخفيضات الميزانية.

لكل حزب سياسي مؤيدوه المخلصون، لكن الديموقراطيين لا وجود لهم من دون حزب العمال، والجمهوريون لا يستطيعون تحقيق شيء من دون هبات الأغنياء وعطاياهم. وكما أن الجمهوريين يميلون إلى الاختباء تحت سقف السوق الحرة لحماية الأغنياء، كذلك يختفي الديموقراطيون خلف العبارات الرنانة الحنونة، ليتفادوا التخفيضات التي تنقص معدل الموظفين الحكوميين. لقد غدت اتحادات العمال والموظفين الحكوميين القوة الدافعة للحركة العمالية، وهي لا تقبل ولا توافق على التخفيضات الكبيرة في مجال الإنفاق العام.

ولكل حزب من الحزبين الجمهوري والديموقراطي خدعة يحمي بها منقذيه، تزعم أن الطريقة الوحيدة لتحقيق توازن في الميزانية، دون زيادة الضرائب، هي تقليص الخدمات الحيوية في الرعاية الصحية والعناية الطبية والتعليم وحماية البيئة. فالجمهوريون يعتمدون على

هذه القصة الخيالية ليكسبوا الأغلبيات التي يحتاجونها في تخفيض ما يريدون من برامج ، سيتم تخفيضها في كل الأحوال . كما يعتمد الديموقراطيون على الخدعة ذاتها ليقنعوا ناخبيهم أن الخيار إما رفع الضرائب ، أو تأجيل الميزانية . والذي يريدون في الواقع تأجيله هو التخفيضات على البرامج الأقل أهمية عند العامة ، لكنها أساسية لقاعدتهم السياسية ، كبرامج الإسكان ، والإعانات المالية الحكومية ، والتطور الاجتماعي ، ومساعدات الخدمات القانونية ، والأعمال الموسمية ، وبرامج التدريب المهني .

لم يكن الناخبون يصدقون أن الديمواقرطيين ، بما فيهم كلينتون ، يريدون فعلاً ميزانية متوازنة . في اجتماع رسم الاستراتيجية المنعقد بتاريخ ١٦ مايو/أيار ١٩٩٥ ، قلت بموضوع الميزانية إن استطلاعاتنا أظهرت أننا خلقنا عند الناس انطباعاً جلياً ، وتابعت موضحاً « إنهم يعتقدون بأنك تعارض أية ميزانية متوازنة من حيث المبدأ ، وتوافق على ميزانية فيها عجز . وأنك تعارض أي تعديل لأي ميزانية متوازنة . وإذا كان أمامهم شيء يصيح كالبطة ، ويمشي كالبطة ، ويبدو بالشكل كالبطة .. فهو لا شك بطة . ومن هنا يعتقد الناخبون بأن كلينتون ليبرالي في فرض الضرائب وإنفاقها » .

كان أفراد طاقم البيت الأبيض مجمعين على معارضة فكرة خطاب يتم فيه تقديم ميزانية متوازنة ، عدا إرسكين بولز ، وبيل كوري ، ودون باير ، والمستشار بروس ريد . قالوا : « ليس قبل أن نضع الجمهوريين على حبال المشانق . لماذا نفتح لهم سبيل الإفلات باقتراح تخفيضات على مسؤوليتنا ؟ » . وحذروا من أن الفئات المتقدمة بالسن من المواطنين ستنقلب علينا ، باعتبار أن الميزانية المتوازنة ستتضمن تخفيضات على الرعاية الصحية . قال جورج ستيفانوبولوس : « سوف نخسر مصداقيتنا الأخلاقية في هذه المسألة » . فأجبته أننا نستطيع التفريق بين تخفيضاتنا نحن ، التي تقتضي إجراءات تخفيض الكلفة ، وتخفيضات الجمهوريين ، التي تقوم على خدمات أقل أو علاوات أكثر للمستفيدين .

قال معارضو خطاب الميزانية المتوازنة أن الناخبين لن يأخذوا اقتراحات الرئيس على محمل جدي ، لأنها لم تصدّق بعد . فقلت معارضاً أن هذه المقترحات ضرورية لتبين كيف أننا نختلف عن الديموقراطيين التقليديين ، وعن الجمهوريين ، وأن الخط الثالث في المثلث هو سبيلنا الأساسي للفوز بالانتخابات .

بانيتا وستيفانوبولوس ، بشكل خاص ، جادلا بشراسة أن مثل هذا الخطاب سيبعدنا عن صفوف الديموقراطيين في الكونغرس . قال جورج متنبئاً : « سيفجرون مبنى الكونغرس ، ولن يغفروها لك أبداً » .

لكن الرئيس كان يميل إلى إلقاء هذا الخطاب . ولم يكن مرتاحاً لعدم قدرته على تقديم بديل «أنا لا أستطيع أن أجلس هنا مستسلماً ، دون أن ألعب دوراً في هذا الحوار . يجب أن أشترك فيه . ولكني لا أستطيع ذلك دون مخطط » . كان واثقاً من أنه يمكن تحقيق توازن في الميزانية دون تخفيضات على الأولويات الأساسية فيها .

نائب الرئيس غور أيد مسألة تقديم مشروع ميزانية متوازنة ، فبدونها لا نستطيع الصمود في الحوار ، ولا إقناع الناخبين المتأرجحين بموقفنا المالي المعتدل .

اتجهت صوب هيلاري ، مستغلاً عودة علاقاتنا مجدداً ، وطلبت عونها في إقناع الرئيس بمقاومة خط بانيتا وستيفانوبولوس . في أيام أركنساس ، كانت هيلاري دائماً القناة الخلفية التي أدفع كلينتون عبرها للقيام بما أريد دون أن ينزعج أو يتضايق . كانت واقعية لاذعة ، تصل إلى قراراتها ، وترحب في الوقت نفسه بمحاولاتي لتغيير هذه القرارات ، وهذا ما حصل هذه المرة . ففي الوقت الذي قلقتْ فيه من نفور اليسار الديموقراطي ، كانت تشعر أن على زوجها أن يتكلم ، وأن يدافع عن ميزانيته المتوازنة . قالت بأسلوبها التأكيدي المعتاد : «أعتقد أن علينا القيام بهذا . فليس من الممكن أن نبقى خارج الحوار . علينا أن نشارك فيه ، وأن يكون لنا موقف ، وأن نجد لنا مكاناً على الخارطة » .

لكن الرئيس ظل متردداً بالضغط على الزناد . واحتج بأنه بحاجة إلى خطة كاملة قبل أن يتحدث إلى الأمة . قلت له إن بإمكانه أن يعلن عن عزمه على موازنة الميزانية ، ثم يحدد موعداً لذلك ، ويستعرض الأرقام العامة ، ويتابع . إلا أنه رفض قائلاً : «لن أسترد مصداقيتي إن لم أتقدم بميزانية كاملة بديلة » .

كان ما أقلقني في هذا هو خطر سرقة الأولوية وحق الاختراع منه . فقلت محتجاً : « بينما أنت جالس هناك تعد ميزانيتك اللعينة ، يكون موظفوك غارقين بتسريب ما تكتب يوماً بيوم ، وحين يأتي موعد الخطاب ، تكون الصحافة قد نشرت كل النقاط ، ولن تحظى وقتها بالأولوية عند الشبكات التلفزيونية والإذاعية ، إذ سيصبح خطابك في عداد الأخبار القديمة ، ولن ينال ما يستحق » وأضفت إن تنبوءاتي المشؤومة عن التسريب قد لا تتحقق بدقة تماماً ، وختمت قائلاً بهدوء «لقد حدث ذلك كثيراً من قبل » .

إصرار الرئيس على ملء كل سطر من سطور الميزانية الكاملة المقترح تقديمها إلى الأمة ، انعكس على أسلوبه في التفكير ، فلم يعد ينظر إلى المفاهيم والعموميات ، بل إلى التفاصيل . من عادة الرئيس حين ينظر إلى السماء في الليل ، ألّا يرى شريحة من الكون ، بل يرى كوماً من النجوم . وكان علي أن أشير إلى مجموعة العملاق الجبار (الجوزاء) وأقول

« انظر ، ذاك هو الحزام ، تلك النجوم الثلاث في صف واحد ، وذاك هو مرفقه ، وهذان النجمان ساقاه » . فيجيب الرئيس معترضاً : « هذا لا يمكن أن يكون حزاماً ، فالنجوم ليست على استقامة واحدة ، انظر كيف أن النجم الأوسط أخفض قليلاً من رفيقيه » . كان رفضه لكل ما دون الكمال يجعل العموميات صعبة المنال ، إلا إذا تم ترتيب تفاصيلها بدقة بوضعها الصحيح .

يمتاز ذكاء بيل كلينتون بقوى هائلة ، تعتوره نقاط عمياء ، فهو يستوعب المعلومات ويحفظها بسرعة لا تصدق ، وبدقة متناهية ، ثم يستعيدها بكاملها تقريباً من ذاكرته . يعرف الحقائق اللامتناهية ، ويحوّل إلى رموز مشفّرة كل نصيحة يحصل عليها من أي مصدر كان ، حيث تكون في دماغه بكامل تفاصيلها وهو يفكر بقرار ما أو حلٍ ما . إلا أنه يصعب عليه أن يحدد نسبة الأهمية لمختلف الحقائق والآراء . فهو بطيء في رؤية النماذج والمناهج ، وأبطأ في استخلاص النتائج . ورفضه من حيث المبدأ لكل ما هو دون الكمال ، يجعله لا يقبل الافتراضات الخشنة الفظة في بناء النظريات العامة الضرورية لصنع القرار . لكنه ، بالطبع ، ما إن يصل إلى قراره ، حتى يصبح بإمكانه أن يوصله إلى أعظم الأذكياء ، وإلى متوسطي الثقافة من الناس ، فهو يملك القدرة على مخاطبتهما معاً .

كان لدى كلينتون طول عمره ، شخص يقف بجانبه يساعده في تطبيق معلوماته عملياً على النموذج ، وإحكام صياغتها في نظريات ، ثم يساعده على استخلاص النتائج من هذه النظريات ، لكنه لم يكن دائماً مستشاراً بالمعنى التقليدي يستعان به في المواسم والمناسبات . فكلينتون بحاجة إلى شخص يدخل إلى عمليته الفكرية ، كالأنزيم والأنسولين ، ليساعده على امتصاص المعلومات وهضمها وتحويلها إلى قرار .

كانت هيلاري تساعده على رؤية الأشياء بصورتها الكبيرة ، وكنت ألعب هذا الدور أيضاً أحياناً ، وبخاصة في الفترة التي يغطيها هذا الكتاب ، فأحاول مساعدته في صياغة الفرضيات . كنا متكافئين يكمل أحدنا الآخر ، هو ينتقل من خصوصية التفاصيل إلى العموميات ، وأنا من العموميات إلى التفاصيل ، هو تحكمه أرضيته المعلوماتية ، وأنا تحكمني أرضيتي النظرية ، هو استقرائي في تفكيره ، وأنا استنتاجي في تفكيري . ومن هنا فإن نجاح تعاوننا يأتي من تنامنا وتكاملنا في القوة والضعف .

حين يواجه موقفاً حاسماً ، كان يحدثني عن الحقائق التي يعتبرها أساسية فيه ، والأولويات كما تبدو له ، ثم يسألني رأيي . فأقدم له آرائي وأفكاري النظرية في الوصول إلى أهدافه بحسب أولوياتها ، وأحاول تطبيقها عملياً على ما نحن أمامه . فكان يُخضع هذه المسلمات الأساسية إلى المقارنة بمعلوماته ، وحين يقتنع تتحول هذه النظريات إلى أسس

يوظفها في بناء قراره . أما إذا لم يقتنع ، فكنت أعود إلى نتائج وأرقام استطلاعاتي ، وأعيد التأمل والتفكير في كيفية تعديل النظرية لتلائم أهدافه وأوضاعه . هذا الحوار المستمر بين الخاص والعام ، بين الوقائع والاستراتيجية ، هو الذي حكم علاقتنا ، وساعد كلاً منا على أن يكون فعالاً ومؤثراً في صحبته للآخر . ولم تكن الصحافة بالطبع على علم بهذا كله ، فتوهمت أنني أمارس قوى خفية غريبة على الرئيس ، كما فعل راسبوتين والسحرة الكهنة في القبائل البدائية . فقد كتبت جريدة « بوسطن غلوب » خبراً يقول إن موظفي البيت الأبيض ، بعد أن سمعوا عن احتمال معالجة بوريس يالتسين بأدوية (عقلية) بديلة ، علقوا قائلين : « ابحثوا عن ديك موريس ، فالعلاج عنده » .

كان يلتقي كل بضعة أيام بموظفي مكتب الإدارة والميزانية ، وبموظفي البيت الأبيض لرسم ميزانية متوازنة ، بكل بنودها وبرامجها ومخصصات الحكومة فيها ، ويكتب في دفتر ملاحظاته بالقلم الرصاص كل ما هو مطلوب لتحقيق ميزانية متوازنة . وكنا نجد أننا أمام رئيس يعرف من تفاصيل الميزانية ما يعرفه أي موظف في مكتب الإدارة والميزانية بالبيت الأبيض . كان يلاحق موظفيه بوابل من الأسئلة : ما تأثير أن نضع ميزانية لتسع سنوات بدلاً من سبع؟ ماذا لو أنقصنا مدفوعات الرعاية الصحية بواقع ١٪ إلى المستشفيات التي تطالب بالزيادة بحجة التضخم؟ ألا نستطيع أن نحول تكاليف رعاية المسنين من بنود الرعاية الصحية ، وأن ندفعها من الواردات الضريبية العامة؟ كان رائعاً في فهمه الذكي لدقائق الميزانية ، أكثر مما كان مدهشاً وهو يكتب أول ميزانية ديموقراطية عملية متوازنة خلال ما يزيد عن أربعين عاماً .

كان دوري في العملية أن أرى إلى أين تقوده أرقام الميزانية ، وأدققها سياسياً على ضوء معطيات استطلاعاتي . فكان واضحاً ، مثلاً ، أنه غير راغب بالتخفيضات الحادة التي اعتاد الجمهوريون اللجوء إليها لتحقيق التوازن في الميزانية خلال السنوات السبع . وقررت وأنا أراه يناضل دون جدوى لتوفيق هذه الاقتطاعات مع منطلقاته وأساساته الاجتماعية ، أن أقوم باستطلاع شعبي أتلمس به مواقف الناس من مسألة تحديد تاريخ لميزانية متوازنة . فوجدت أن الغالبية تفضل تحديد تاريخ معين تصبح فيه الميزانية متوازنة ، وتفضل أن يتحقق هذا الهدف سنة بعد أخرى ، وليس دفعة واحدة . لكنني وجدت أيضاً أن الناخبين لم يهتموا كثيراً بالمدة التي سيتحقق التوازن في نهايتها ، وهل ستكون سبع أو ثمان أو عشر سنوات ، طالما أننا نسير ونتحرك في الاتجاه الصحيح .

إن كل سنة تمر باتجاه القضاء على العجز ، تتيح للرئيس أن يقلل من حدة تخفيضاته سنوياً . وكان الرئيس سعيداً بهذه الطريقة الآمنة ، فأراد في البداية أن يحدد المدة بعشر سنوات .

كان ثمة سؤال هام آخر ، هو إلى أي مدى محتمل سيصل النمو الاقتصادي ، وإلى أي حد سترتفع تكاليف الرعاية الصحية وخدماتها ، على الصعيد الحقيقي الفعلي أو في ضوء التضخم؟ وكانت أجوبة الاقتصاديين في مكتب الإدارة والميزانية بالبيت الأبيض ، على هذا السؤال ، أكثر تفاؤلاً من تلك التي قدمها الاقتصاديون في مكتب الميزانية بالكونغرس . وكان من الواضح أن يرغب الرئيس بانتهاج خط مكتب الإدارة والميزانية في البيت الأبيض ، الذي أثبت تاريخياً أنه أكثر دقة وصحة من خط مكتب الميزانية في الكونغرس الذي يسيطر الجمهوريون على اقتصادييه . لكن انتهاج فرضيات مكتب الإدارة والميزانية في البيت الأبيض والسير على خطه ، سيتيح لنا تخفيضاً أقل حدة ، باعتبار أن النمو الاقتصادي العالي سيولّد مزيداً من الموارد المالية الضريبية ، بينما التخفيضات في معدل التضخم ستنقص الإنفاق على الرعاية الصحية ، وعلى العناية الطبية .

وأظهرت استطلاعاتي أنه لا ضير في استخدام الفرضيات الأكثر تفاؤلاً ، طالما أنها تتوافق مع التفاؤل الشعبي بالاقتصاد ونموه الثابت المضطرد .

إلا أن الرئيس ظل متردداً بإلقاء الخطاب ، وبدأتُ أتلقى نظراته الجامدة الجوفاء من جديد وهو يجيب صامتاً على أسئلتي . فأدركت أنه يريد نصائح بخصوص الخيارات الصعبة المفروشة أمامه في شأن تجزئة موضوع الميزانية . ليس كافياً في رأيه أن يقف هكذا ببساطة ليقول : « نحن بحاجة إلى ميزانية متوازنة » ، ومن هنا كان يبحث بنظراته الجامدة عمن يقول له ، أي التخفيضات سيؤذيه سياسياً ، وأيها يتعايش معه دون أن يسيء إليه .

الموضوع ليس موضوع بحث عن قناعات وأحكام سياسية تطغى على قناعاته وآرائه الأساسية ، فيترك هذه ويتبنى تلك ، وليس البحث عن أيها أكثر فائدة ونجاحاً . لقد بانت أمامه خيارات كلها مقبوله لديه وكلها تقضي على العجز ، وهو يبحث الآن عمن يقول له أيها المقبول سياسياً . في الأول جاء المنهج والحساب ، ثم جاء بعده الاستطلاع والتطبيق .

كنا ، جورج ستيفانوبولوس وأنا ، قد اتفقنا على ألا نوافق على أن يلقي الرئيس ، أو لا يلقي ، خطبة الميزانية في ذلك الوقت . إلا أنني طلبت من جورج مساعدتي في تلخيص الاقتطاعات والتخفيضات التي تسيء إلى الليبراليين ، وتغضب الاتحادات ، وتسخط المسنين ، وتثير حفيظة الأقليات ، وغيرها من شرائح الناخبين ، على أمل أن تساعد هذه المعلومات في حل مشكلات الرئيس السياسية . ورغم أن جورج لم يوافقني على استراتيجيتي ، إلا أنه وافق على مساعدتي في رسم المؤشرات السياسية للميزانية . فقد أدرك أن كلينتون سينفرد باتخاذ قراراته مهما قدم إليه من نصائح ، وسأظل أحمد لجورج معروفه هذا . فلولا مبادرته بالمساعدة لما قدرنا على انتهاج خطة ناجحة مثل هذه .

خلال ثلاثة اجتماعات، حصلنا، جورج وأنا، على الأرقام من الرئيس، ووضعنا الخيارات السياسية مستخدمين مؤشرات ونتائج الاستطلاعات في توصياتنا. وأعلنا معارضتنا لأي تخفيض في مجال التعليم، لا بل اقترحنا زيادة مخصصاته ليتوافق مع أهداف الرئيس وأولوياته. وحثثنا على إبقاء برامج حماية البيئة على حالها، هذه البرامج التي يشجعها غور شخصياً وسياسياً، ويبين دائماً أنه لن يتسامح مع أي تخفيض يحصل عليها.

ثمة برامج أخرى لم تمانع العامة تخفيضها. وهناك اعتقاد تقليدي بين السياسيين هو أن الناخبين لا يعرفون ما يمكن تخفيضه، لكنهم يعرفون ما لا يجوز تخفيضه، ولكن العكس هو الصحيح. فقد عبّر الناخبون في استطلاعاتنا الإحصائية عن رغبة واضحة بأن يروا معظم الإعانات الحكومية للإسكان والتطوير المديني تنخفض، وجميع الحوافز التشجيعية في مجال إنتاج الطاقة تلغى، ومعظم برامج وزارة التجارة تتلاشى، والوظائف المدنية في وزارة الدفاع تقص وتشذب.

حين قويت رياح التخمين بأن الرئيس على وشك تقديم ميزانيته المتوازنة، ضرب قادة الكونغرس وحلفائهم في البيت الأبيض الأرض بكعوبهم استعداداً، وأمطروا الرئيس وابلاً من النداءات وزادوا من الضغط عليه.

تكررت التساؤلات في الصحافة، عن اتجاهات الرئيس ومقاصده. والطريف أن بانيتا أوقف تسريب خطط الرئيس، فلم يظهر منها شيء في الصحف، عدا بعض المقتطفات عن الميزانية، الأمر الذي دفع بالصحافة إلى حافة الجنون. بتاريخ ١٩ مايو/أيار ١٩٩٥، سئل كلينتون في مقابلة مع إذاعة نيوهامبشاير عما إذا كان يتعهد بتحقيق توازن الميزانية في موعده المحدد، وأجاب كلينتون بالإيجاب. وانفتحت أبواب الجحيم.

قصف ديموقراطيو الكونغرس الرئيس بقنابل الاتهامات، وبدأ موظفو البيت الأبيض يتصرفون وكأنه اعترف بارتكابه جريمة من جرائم الحرب. وتحت هذا الضغط الداخلي الكثيف للانسحاب، وعدم جاهزيته على المضي قدماً في ميزانيته البديلة، ارتد على عقبيه متراجعاً بخطبة ألقاها في روز غاردن من تلحين بانيتا وستيفانوبولوس.

وظهرت القصص في الصحف والمجلات عن أخذي بيد الرئيس في دروب الضلال، لولا أن الرؤوس الراشدة أعادته إلى طريق الصواب وأنقذته من كارثة محققة. وشعر الديموقراطيون والجمهوريون في الكونغرس بالارتياح على حد سواء. الديموقراطيون لأن كلينتون لم يذعن لأورثوذكسيتهم، والجمهوريون لأنهم خافوا أن يروا قضيتهم تُغتصب، ومجالهم يُحتل.

قلق كلينتون وتضايق من تسرّعه الأحمق في الإذاعة وفي خطاب روز غاردن ، وقال إنه أرغم على الثانية ودفع إليها دفعاً ، واحتج بأن قلة النوم بعد عودته من روسيا هي السبب .

وبتاريخ ٢٥ مايو / أيار ، فتح في اجتماع رسم الاستراتيجية ملف المسألة بكاملها ، وما إذا كان عليه أن يلقي خطاب الميزانية ، وكنت قد عدت لتوي من المستشفى بجانب والدي . الذي كان بعد زوجتي أهم شيء في حياتي ، وكان يجري عملية جراحية هناك . وحاولت في طريق العودة من نيويورك إلى واشنطن ، وأنا مشوش مضطرب ، أن أرتب مقدمة للاجتماع . وما إن وصلت إلى واشنطن حتى اتصلت بغرفة الإنعاش، وعلمت أن والدي بخير ، حتى إنه حدثني بنفسه على الهاتف ..

إذا كان والدي المسن يستطيع أن يستجمع قواه ، فأنا أستطيع !! وعزمت على أن أغالب نفسي وأضغط عليها ، لأناقش وأجادل مطولاً وبقوة في سبيل أن يلقي الرئيس خطابه . قلت في الاجتماع إن مثل هذا الخطاب يجب ألا يكون مجرد نقلة سياسية جيدة ، بل إعلان عن بداية تحول الحزب الديموقراطي من ليبرالية الحكومة الكبيرة ، إلى سياسات تغطي حاجات الناس ضمن حدود الواقعية . وبعبارة أخرى ، يجب أن يكون الخطاب صورة صادقة تعكس تغلب الجناح المعتدل في الحزب الديموقراطي .

بعد أن اطلع الرئيس على كل الآراء ، غرق في صمت مطبق . قاد بانيتا وآيسكيس المعارضة ، أما ستيفانوبولوس فلم يكن قد قبل بعد كمشارك في الاجتماعات ، إلا أن أثره كان واضحاً في كلام بانيتا . وبعد أن قال الجميع كل ما عندهم ، التفت الرئيس إلى غور ، كعادته دائماً ، وقال : « ما رأيك يا آل ؟ » .

استعرض غور ، كما لو كان يقدم مطالعة في المحكمة العليا ، جوانب المسألة من جذورها ، مشيراً إلى النقاط التي اختلفت الآراء فيها ، لكنه قال أخيراً : « سيدي الرئيس ، أعتقد أن هذا الأمر يجب أن نقوم به » .

أعددت المسودة الأولى بمساعدة دون باير ، وبيل كوري ، وبروس ريد ، وتوم فريدمان ، فأعجبت الرئيس . راجعناها ونقحناها في المكتب البيضوي ، حيث جلس الرئيس خلف مكتبه ، ونحن حوله نعالج النص سطراً بسطر .

مرة أخرى تدخلت الاعتبارات الشخصية . كان والدي بخير ، لكن كلبي لم يكن كذلك . فقد اتصلت إيلين ونحن في ذروة العمل بالمكتب البيضوي لتقول إنها اضطرت إلى إعطاء المنوّم لكلبتنا السيبيرية الضخمة ساشا البالغة من العمر خمسة عشر عاماً . وعدت إلى الاجتماع لأعلن لهم الأنباء الحزينة . سألني غور عن عمرها فقلت خمسة عشر عاماً . فصاح

الرئيس ساخراً : « إنها تبدو وكأن عمرها مئة وخمسين عاماً » . مثبتاً مرة أخرى أنه في الأرقام أبرع منه في العواطف .

ظل كلينتون يتلقى المخابرات اللاذعة من قادة الديموقراطيين في المجلس ، فأرعبه عمق غضبهم وإحساسهم بخيانته لهم ، كانوا يصيحون : « إننا في سباق مع الجمهوريين ، وأنت تساعدهم على الانطلاق بتخفيف الأحمال عنهم » . ولم يخطىء الرئيس فهم الرسالة الموجهة إليه « صارت لك طريقك يا رفيق ، إنما لم يعد لك حزب بعد الآن » .

تلا ذلك مكالمات من السناتور جون بروكس من لويزيانا ، وجون ليبيرمان من كونيكتيكت ، وكلاهما يساند خطة الرئيس بإلقاء الخطاب . وشجعته كلمات ليبيرمان على القيام بأكبر مقامرة سياسية قام بها خلال رئاسته .

قرر بيل كلينتون أن يلقي الخطاب . إلا أن شبكات البث التلفزيوني لم تقرر بعد إذاعته على الهواء . فاتصل غور بكل المحطات لبث الخطاب في فترات البث الرئيسية . ولكن في النتيجة ، استطاع نصف الناخبين فقط في أمريكا سماع الخطاب بكامله . ولو أن البث تم في الأخبار المسائية فقط ، لما شاهد الرئيس أكثر من ربع الناخبين ولدقيقة واحدة فقط .

لم تكتمل التحضيرات لخطاب الرئيس كلينتون بشكل منظم . ففي يوم ١٣ يونيو / حزيران ١٩٩٥ ، ونحن نتهيأ للبث على الهواء ، تمت مراجعة مسودة الخطاب مرة أخرى قبل ساعة ونصف من البث . ثم احتشدنا ، سكواير وستيفانوبولوس وباير وكوري وبولز وبانيتا وثلاثة آخرين بما فيهم أنا ، حيث جلس الرئيس على طاولة صغيرة قرب الباب ، بيده قلم ، ينتظر لحظة البدء . بينما تزاحمت دزينة أخرى في البهو خارج الباب المفتوح ، بعضهم يحاول الدخول ، والبعض يحاول الاستماع ، والبعض يحاول التعليق .

أعاد الرئيس قراءة كل كلمة للمرة العاشرة . وخطر له أن النص ما زال بحاجة إلى وضوح أكثر من التفريق بين تخفيضاته هو في مجال الرعاية الصحية ، على ما يدفع لمقدمي خدمات الرعاية من أطباء ومستشفيات ، وبين تخفيضات الجمهوريين التي سترفع حتماً من العلاوات المخصصة للمستفيدين من الرعاية الصحية .

أخذنا ، دون باير وأنا ، المسودة ، وحذفنا الاقتطاعات ، وأعدنا صياغة البدائل بعد إدخال الأرقام إلى الكمبيوتر . وقبل أربعين دقيقة من موعد البث ، جاءت مكالمة هاتفية تقول ، إن لدى هيلاري أفكاراً جديدة تجب إضافتها . فعرفت أنها امتحان جديد لعلاقتنا التي عادت حديثاً إلى مجاريها . لقد كانت هيلاري ذات أثر في ولادة الخطاب ، وتريد أن ترى الآن إن كنت سأتصرف « كواحد من الأولاد الآخرين » وأرفض إضافة التعديلات التي نراها .

لكنني نفذت التعديلات، وكانت رائعة جداً. أرادت هيلاري، مثلاً، صياغة أكثر إحكاماً ودقة للمكاسب الإضافية الصحية التي اقترحنا إضافتها لبرنامج الرعاية. إلا أنني كنت مستعداً لأن أقاتل بسرور لتعديل الخطاب حسب اقتراحاتها، حتى لو كانت سخيفة وتافهة، فقد انتظرت خمسة شهور لإعادة علاقاتي مع السيدة الأولى، ولا أريدها أن تنقطع مرة أخرى.

قبل موعد البث بخمس وعشرين دقيقة، سلّمنا المسوّدة إلى الرئيس. أشرت له إلى التعديلات التي اقترحتها هيلاري، وهز رأسه موافقاً. وبدلاً من أن يلقي نظرة فاحصة على الصفحات خلال أربع أو خمس دقائق، بينه وبين نفسه في المكتب البيضوي، كما توقعته أن يفعل، جلس مكانه ثانية وأمسك بالقلم وأجرى بعض التعديلات. وهنا طفح الكيل عند بوب سكواير، فقال بأهدأ نبرة يتكلم بها الوالد الذي يأمر ابنه بأن ينام بعد أن تأخر موعد نومه «يا سيدي الرئيس، الخطبة رائعة هكذا، رائعة، وما عليك إلا أن تتهيأ، وتتمرن عليها، فلكي تستطيع أن توصلها، عليك أن تتمكن منها أولاً».

واستجابة لتوسلاتنا، جلس ليستعد للخطاب. كان عند كلينتون انتفاخ تحت عينيه، أحبه كثيراً، لكن معظم الناس لا يتفقون معي بذلك. فبوب سكواير وهو واحد من أصحاب الرأي المخالف، وجد طريقة لحل هذه المشكلة. فقد تعرف على فنانة تجميلية قالت إن لديها دهوناً تزيل هذه الانتفاخات خلال ساعة، لكن المشكلة هي في جعل الرئيس يوافق. وبكل روح الفرسان الأخوية، أرسل سكواير تلك الفنانة الفاتنة إلى الرئيس لتقوم بتجميله، وبكل براءة ابتلع كلينتون الطعم بسهولة ودون مقاومة.

كان الرئيس ما زال منكباً على كتابة الخطاب، في الحين الذي كانت فيه عملية التجميل قائمة على قدم وساق. وصل إلى المكتب البيضوي قبل سبع دقائق، لا تكاد تكفي لقراءة الخطاب مرة واحدة قبل البث على الهواء.

غادرت المكتب إلى الغرفة المجاورة لأشاهد البث، وأنا في غاية التوتر لأنه لم يعط نفسه الوقت الكافي للتهيؤ والاستعداد، وتساءلت هل سيرتبك ويتلعثم؟ لكنه لم يفعل. كان متمكناً واثقاً من نفسه، وهو يشرح سبب تقديمه لميزانية متوازنة. ثم وهو يمضي ليبين بدقة الفروقات المميزة بين ميزانيته وميزانية الجمهوريين حول مسألة القضاء على العجز.

واستعدت في ذاكرتي يوم قام بتصوير الإعلان الذي يعتذر فيه ببيت طوني شفارتز، حين عاد إلى منصبه كحاكم في أركنساس. كنت يومها أيضاً قلقاً على قدرته على صياغة وتوصيل الرسالة التي يريدها. ولكن مع بيل كلينتون، ثمة أوقات على المستشارين فيها أن

يصمتوا، ويجلسوا في المقاعد الخلفية، ويتفرجوا على «المعلم» وهو يؤدي دوره. فحين تدور الكاميرا، لا تبقى أية قيمة لفترة التحضير وقصرها، ولا للضغوطات وثقلها، ويخرج كلينتون من هذا كله سليماً معافى.

بانتهاء الخطاب، تعانقت مع إرسكين بولز، حليفي الحميم في تشجيع الرئيس على إلقاء الخطاب، قال بولز: «كنت حتى اللحظة التي بدأ فيها بالكلام غير واثق من أنه سيفعلها» وكان هذا هو بالضبط ما شعرت أنا به.

بعدها مباشرة، عرضت شبكات البث التلفزيوني جواب الجمهوريين وردة فعلهم ممثلة ببوب دول. وكان واضحاً في تعليق دول أنه لا الجمهوريين ولا الموالين القدامى لهم، يملكون أي جواب. لكن جواب الجماهير كان مشجعاً، بقبولهم واستحسانهم الذي أظهرته قبل الخطاب زيادة معدلات الرئيس في الاستطلاعات. وكانت الصحافة إيجابية إلى حد كبير. عدا الديموقراطيين في الكابيتول هيل من المخالفين المنشقين. فقد ظلت محطة CNN الإخبارية تتابع بشغف على مدى ثلاثة أيام، تغطية اتهامات الديموقراطيين للرئيس بالانشقاق والهرطقة، تماماً كما تنبأ جورج وليون من قبل، ولكن لم يعبأ أحد بذلك. فقد أثبتت الاستطلاعات موافقة الديموقراطيين الأحرار والأقليات على خطاب الرئيس وخططه.

بالنسبة لي، كانت اللحظة لحظة رضا عن الذات. فالإدانة المرتجلة الصحفية لدعمي لفكرة الخطاب، التي تلت المقابلة الإذاعية في نيوهامبشاير والانسحاب في روزغاردن، تلاشت إلى غير رجعة، وثبت الآن أنني ربحت المعركة الداخلية في البيت الأبيض. قد لا تعني مثل هذه الانتصارات شيئاً ذا بال في أنحاء البلاد، إلا أنها تعني الكثير في واشنطن، رغم أنها تقضي على سريتي وخفائي الذي أفضله.

لقد اجتزت عتبة البداية، وأثّرت في قرار سياسي هام، وكنت فخوراً بهذا، إلا أنني لم أشعر بالاكتفاء والقناعة. هل كان صواباً ما فعلت؟ وهل أعرف عم أتحدث الآن؟ لقد اقتضاني إقناع الرئيس أن أثق كثيراً بحكمتي السياسية، ولكن هل كنت أعرف فعلاً ما أفعل؟ وكان علي أن أدفع عني هذه الشكوك.

خلال أربعة عشر شهراً مضت على وجودي بجانب الرئيس، كانت الشكوك عندي تنمو وتتشعب، وكان علي أن أعالجها وأجد لها حلاً. وبدأت أغرق أكثر فأكثر، وأصبحت متغطرساً أكثر فأكثر. وحين تحققت نبوءاتي، بدأت أصدق بأنني أملك كشفاً صوفياً كما تقول الصحافة، ونسيت نصيحة روديارد كيبلينغ المعلقة على جدار غرفتي وأنا طفل «لو أنك تستطيع أن تواجه النصر كما تواجه الهزيمة، وتتعامل مع هذين المحتالين بالطريقة نفسها».

رأيت أنني أصبحت أكثر فظاظة وحدة مع الناس، وأكثر ديكتاتورية في الأمور التي اعتدت معالجتها بالإقناع. أصبحت قاسياً نافذ الصبر ضيق الصدر، وتحول حس الفوز عندي إلى حس آخر أكثر تدميراً للذات. وبعد فترة قصيرة من خطاب الميزانية، بدأت علاقتي بالعاهرة التي أدت إلى إحراج الرئيس وإلى انهياري. شعرت أن ليس بإمكاني أن أنجو من العواقب مهما فعلت. أردت لكلينتون أن يفوز، ولتحقيق هذا، كان علي أن أعمل على تغيير مساره، تماماً بحسب طلبه هو. ولإنجاز هذا التغيير، كنت بحاجة إلى سلطة، لكن السلطة أفسدتني وحرفتني، حتى أصبحت مدمن سلطة، شعرت معها أن باستطاعتي تغيير كل القواعد.

أستطيع أن أقول إن الضغط هو الذي قادني للمخاطرة بمستقبلي المهني بهذا الشكل البعيد عن التفكير والتصديق. ورغم أن كثيراً من الناس يستطيعون معالجة مثل هذا الضغط بليونة أكبر، لكنني لم أكن بكامل استعدادي في واشنطن، وفي هذه المرحلة الأولى بالذات.

لقد تعلمت أكثر من درس بسبب سهولة انقيادي، حين دعوت دافيد برودر من الواشنطن بوست، لأزوده بأرضية استراتيجية لما ورد في الخطاب من مفاهيم، فحاك من ذلك قصة. وافترض بانيتا (وكان محقاً بذلك) أنني أنا الذي زودت برودر بالقصة. رغم أنني لم أقم خلال فترة عملي بالبيت الأبيض بتسريب أي معلومات، عدا ما وجهوني هم إلى قوله للصحافة. في ضوء هذه الزلة، وجد حارس الطاقم القديم أن الفرصة قد حانت لإنزال بعض العقوبة، فجاء بالمقال إلى الرئيس محتجاً بأنني تكلمت أكثر من اللازم. وطلبني كلينتون على الهاتف وانتقدني بعنف حتى اضطررت إلى إبعاد السماعة عن أذني، وشعرت أن من الأفضل ألا أجيب. فقد افترضت أنه يحاول أن يثبت لباقي أفراد الطاقم أن مجرد فوزي في معركة، لا يعني أنني حر بأن أفعل ما أريد.

لم يرد ذكر الحدث في أية محادثة لاحقة. فالرئيس يحافظ على التوازن في كل الأشياء. فإذا طغى جانب على آخر، ضغط عليه قليلاً ليعود إلى توازنه مع الجوانب الأخرى. هذه هي طريقته.

التزاحم على المناصب: حرب الميزانية تبدأ:

لا أظن أن العامة فهمت ما كان يجري خلف معركة الميزانية، التي دامت من سبتمبر/أيلول إلى ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٥. فنحن لم نذكره، والجمهوريون لم يعترفوا به. من حيث الظاهر السطحي، بدت المعركة كما لو أنها حول توازن الميزانية، وحول المدى الذي يجب أن تقف عنده التخفيضات الضريبية. لكن ذلك لم يكن المسألة الحقيقية على الإطلاق في رأيي.

قال الجمهوريون ثمة تخفيضات معينة يقتضيها توازن الموازنة، لكن كلينتون أظهر للعيان أن الميزانية يمكن أن تتوازن دون تخفيضات. ونظراً لوضوح موقف الجمهوريين، فقد افترض كثير من المعلقين أنهم يريدون بالفعل تخفيضاً ضريبياً ضخماً. ولكن، مع بدء مفاوضات الغرف الخلفية، تخلّى الحزب الجمهوري عما يطالب به من تخفيض ضريبي ضخم، وقبل من حيث المبدأ، بميزانية فيها تخفيضات أكثر قليلاً من تلك التي تضمنتها ميزانية الرئيس المقترحة.

كانت مواقف الحزبين متقاربة بشكل يثير الدهشة. الجمهوريون يرون تخفيض الرعاية الصحية بحدود ١٦٨ بليون دولار، بينما كلينتون (الذي تعهد علناً بألا يتجاوز التخفيض ١٢٤ بليون دولار) يصل التخفيض عنده إلى ١٣٤ بليون دولار إذا شمل التخفيض إعانات ذوي الدخل العالي من المسنين، أي أقل من التخفيض الذي يطالب به الجمهوريون بـ ٣٣ بليون دولار مقسمة على سبع سنوات. أما في مجال العناية الطبية، فقد كانت الفروقات أقل من ذلك، إذ وصل عرض كلينتون الأخير إلى ٥٤ بليون دولار، بينما طالب الجمهوريون بـ ٧٢ بليون دولار. ومرة أخرى كانت الفجوة بين الجانبين غير ذات بال.

لماذا إذن يصر الجمهوريون على هذه الفروقات مخاطرين بفرصتهم في الفوز بالانتخابات؟ لقد فتح ترينت لوت عيني على الجواب، حين طرحت عليه هذه الأسئلة في اجتماعي معه بنوفمبر / تشرين الثاني ١٩٩٥ قال: «المسألة ليست مسألة توازن في الميزانية، وليست مسألة تخفيضات ضريبية نحن بصددها الآن. إنها مسألة تخفيض الإنفاق الحكومي». فأجبته: «دعك من هذا، فالفروقات بيننا وبينكم ضئيلة إلى حد مضحك. لماذا لا تسحبون الزناد وتصلون معنا إلى اتفاق؟».

قال: «ثمة أمر آخر إلى جانب الإنفاق الحكومي، إنه الإعانات والمناصب، علينا أن نخفض الإعانات والمناصب». فسألته: «لكننا متقاربون في مسائل الرعاية الصحية والعناية الطبية، فلماذا لا نقسم الفرق بيننا على الإعانات والمناصب؟». أجاب لوت: «علينا أن نقوم بإصلاح أساسي في مجال الإعانات، فالتخفيضات وحدها لا تكفي. علينا أن نغير الهيكلية ونقوم بإصلاح أساسي شامل، وإلا فما إن نغادر، حتى يعود الديموقراطيون إلى العجز مرة أخرى».

حيرني الجواب. فذهبت إلى كلينتون أسأله عن معنى ما قصده لوت، فقال مهتاجاً: «المعنى هو ما أحاول إفهامك إياه منذ شهور. إنهم لا يريدون ميزانية متوازنة، فهي مجرد عذر للتسويغ. إنهم لا يريدون تخفيض الضرائب أيضاً، ولا يريدون تخفيض الإنفاق الحكومي، فهذه حجج يختفون وراءها. ما يريدونه حقاً وفعلاً، هو إنهاء وظائف وإعانات الطبقة

المتوسطة تماماً. سيطالبون بالقضاء على جميع الإعانات، لكنهم يعرفون أن هذا غير ممكن. إنهم يريدون القضاء على إعانات الطبقة المتوسطة، لكنهم يعرفون أنهم بحاجة إلى حيلة سياسية مضمونة. هذا هو سبب محاولتهم تحويل الرعاية الصحية إلى بند من بنود برنامج المعونة الاجتماعية، بفصل الشباب، والأغنياء، والأصحاء من المسنين، في أحواض ضمان صحي خاص باسم «حسابات الادخار الطبي»، ويتركون الشيوخ والفقراء والمرضى للرعاية الصحية التقليدية، ليبقى المشمولون بضمان حسابات الادخار الطبي هم المستفيدون من برنامج المعونة الاجتماعية. وهذا هو أيضاً سبب مطالبتهم بتخفيض المنح الدراسية والقروض الطلابية. إنهم لا يريدون أية منافع للطبقة المتوسطة».

وتذكرت فرنسا. فنادراً ما تحولت المعونة الاجتماعية، منذ أن تم تطبيقها على الجميع، إلى مسألة سياسية. والفقراء هناك يحصلون على نقد أكثر مما يحصل عليه الأغنياء، لكن الجميع يأخذون، تماماً كالضمان الاجتماعي والعناية الطبية في الولايات المتحدة. الجمهوريون يريدون القضاء على منافع الطبقة المتوسطة، لتعود هذه المنافع عليهم وعلى الفقراء، وليس علينا جميعاً كأمة. إن تخصيص وحصر المنافع بالفقراء، سيجعل ضبط الاعتمادات وتنظيمها وتوزيعها أسهل، كما هو الحال في مخصصات المعونة الاجتماعية.

وحين تقدم كلينتون بطريقة لتوازن الميزانية، وتخفيض الضرائب، وإنقاص مخصصات الإعانات دون تغيير جوهري في هيكلية منافع الطبقة المتوسطة، فقد سحب بذلك الغطاء الذي كان يختفي تحته الجمهوريون.

تابع الرئيس وهو يؤكد بحركات يديه وأصابعه على ما يقول: «عليك أن تتذكر هدفهم دائماً. هدفهم هو إدخال الخلل إلى برامج العناية الطبية والرعاية الصحية، وتفكيك الإنفاق على التعليم وحماية البيئة فيدرالياً، أما توازن الميزانية والتخفيضات الضريبية فهي مجرد واسطة مبررة للوصول إلى الغاية».

في محادثتي الثانية مع لوت التي جرت على الهاتف، كنت أكثر تحديداً وتركيزاً ووضوحاً، قلت: «أنتم تقولون فعلاً أنكم تعرفون إمكان تحقيق توازن في الميزانية، سواء حصل ذلك على طريقتنا، أو على أية طريقة أخرى قريبة منها، وتعرفون إمكان الوصول إلى أرقام عامة، لكنكم لن توافقوا عليها إلا إذا تم تخفيض أكثر للرعاية الصحية». فأجاب لوت بحذر: «ليس تماماً. فنحن جميعاً نأمل أن تكون أرقامكم العامة صحيحة ومطابقة للأسلوب الذي تنتهجونه، إلا أننا سنظل غير واثقين، ما لم يتم ضبط تلك المنافع والإعانات».

قلت ضاغطاً عليه أكثر: «لكنكم تقولون إن آخر حدود القاع عندكم هو تخفيض المنافع والإعانات، وليس توازن الميزانية أو تخفيض الضرائب، فهذه حجج تخفي رغبتكم

بالقضاء على المنافع والإعانات » . قال لوت بلهجة حاسمة موجزة : « ضبط وتنظيم هذه المنافع والإعانات هو آخر حدود القاع عندنا » .

حين دخلت مسألة الميزانية في انهيار عام ١٩٩٥ ، وجدنا أن خطاب الميزانية في يونيو / حزيران ، أعطانا مصداقية تمكننا من مهاجمة تخفيضات الجمهوريين على الميزانية . لم تعد معارضة الآخرين لنا تنصبّ في حقل ميزانية متوازنة ، بل أصبحنا الآن نعارض ميزانيتهم المتوازنة بميزانية متوازنة من إعدادنا . لقد أتاح لنا خطاب الميزانية أن نهاجم تفاصيل التخفيضات المقترحة في ميزانية الجمهوريين ، وأن نوضح عدم ضرورتها لتحقيق التوازن في الميزانية .

ولأول وآخر مرة أجمع مستشارو الرئيس على ضرورة التصدي ومعارضة ميزانية الجمهوريين . لكننا ، بانيتا وسيتفانوبولوس وأنا ، كان لنا رأي آخر . في أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية ، استشهدت بعبارة لونستون تشرشل بعد أن أصبح رئيساً للوزراء خلال الحرب العالمية الثانية قال فيها : « تسألون ما هي سياستنا ؟ أقول هي أن نحارب » .

كان المحور الرئيسي في استراتيجية الميزانية عند الجمهوريين يدور حول توازن الميزانية وتخفيض الضرائب ، مفترضين (كالديمواقراطيين في الكونغرس) أن الإدارة ستحارب كل تخفيض ، وستقاتل دفاعاً عن كل برنامج . عندها يستطيع الجمهوريون أن يهزوا أكتافهم استهجاناً ويقولوا : « نحن نعرف أن هذه التخفيضات مؤلمة ، لكن علينا أن نحقق التوازن للميزانية » .

لكن خطاب الميزانية غيّر هذا كله . فالمسألة لم تعد الآن مسألة أن نحقق توازناً في الميزانية ، بل كيف نحقق هذا التوازن . ولم تعد مسألة تخفيض الضرائب ، بل ما هي الضرائب التي يجب تخفيضها ، وما هي حدود هذا التخفيض . ولم يكن الجمهوريون مهيأون لمعركة من هذا النوع . فلم يعد بوسعهم الزعم بأن حزبهم هو الوحيد في البلاد الذي ينادي بميزانية متوازنة وبتخفيضات ضريبية ، كما لم يعد بوسعهم المطالبة بتخفيضات أكبر مما ورد في ميزانيتنا .

إذا ناقشنا وتأملنا أسباب انتصار كلينتون في عام ١٩٩٥ ، بعد أن بدا وكأنه انكشف وتعرّى في عام ١٩٩٤ ، رأينا أن الكثيرين ينسبونها إلى نجاحه في التصدي والصمود بوجه غينغريتش وبوجه الجمهوريين في معركة الميزانية . وينسون أن الرئيس كان بوسعه الصمود ، لمجرد أن خلفه ، سياسياً ، خطوطاً دفاعية . وأنه بانشقاقه الجريء عن الديموقراطيين التقليديين في يونيو / حزيران ١٩٩٥ وبتقديمه ميزانية متوازنة ، زاحم الحزب الجمهوري على القاعدة الضخمة التي يستند إليها ، وأنه بعد أن أصبحت المسألة مسألة كيف نحقق التوازن ، استطاع

أن يجتذب التأييد العام إلى جانبه ، وأن يبني معارضة تقف في وجه البرنامج الجمهوري . وأنه لو لم يرفض الموقف الذي فرضه عليه ديموقراطيو الكونغرس وكثيرون من طاقم البيت الأبيض ـــ أي مجرد معارضة تخفيضات الحزب الجمهوري دون تقديم ميزانية تحقق التوازن بعيداً عن التخفيضات ـــ لما استطاع أبداً أن يربح المعركة ، حتى لو أنفق ضعف ما أنفقه على الدعاية الإعلانية .

لقد وضحت الآن أمام ليون وجورج الحاجة إلى استخدام خطة ميزانية بلا عجز ، تتضمن تخفيضات ضريبية معتدلة ، تمكننا من نقد الجمهوريين . وأحسست بأنهم شعروا بأن الرئيس أصاب بإلقاء الخطاب ، رغم أننا لم نأت على ذكر الموضوع ولم نناقشه .

أنشأ إرسكين بولز فريقاً أسماه « فريق ردود الميزانية » برئاسة جين سبيرلينغ ، لمقارنة ميزانيتنا بميزانيتهم . وكان سبيرلينغ ، الذي عمل إلى جانب كلينتون منذ عام ١٩٩٢ ، حاد المزاج ، قصيراً ، واضحاً ، يعبر عما يريد بشكل ممل إنما قوي ، متمكناً من معلوماته الاقتصادية . كان جين يومياً يأمر بنشر معلومات مؤذية عن نتائج مخطط الميزانية الجمهورية وما ستؤدي إليه ، فظهرت المقالات الصحفية والفقرات التلفزيونية الأخبارية في أنحاء البلاد ، لتعكس بشكل موثق آثار التخفيضات التي اقترحها الجمهوريون . وكان جين يحصل أسبوعياً على نتائج استطلاعاتنا عن التخفيضات التي تصيب مقتل الجمهوريين ، ويطلب مني بين الحين والآخر تقريراً عن المزيد من التخفيضات الفظيعة التي نعثر عليها في الاقتراحات الجمهورية، كما يطلب إجراء اختبار عليها لمعرفة ما إذا كانت تصلح مادة لإعلاناتنا .

في سبتمبر / أيلول من عام ١٩٩٥ ، التقيت مع ترينت لوت مرة أخرى ، وبحثنا في موضوع الحوار حول الميزانية . وأكدت على عدم شعبية الميزانية الجمهورية ، وعلى الكارثة التي ستقودونا إليها هذه الميزانية . ونصحت رفيقي وزبوني سابقاً فقلت : « تخلصوا من هذه العقبة الجهنمية التي تسدّ عليكم الطريق » .

أصبح لوت الآن حائراً أمام رفض الجمهوريين الكامل أن يدخلوا الحقائق السياسية في مخططاتهم . ففي الوقت الذي كان يواصل فيه اللقاء معي دفاعاً عن المحاسن في ميزانيتهم ، وعدم تضييع فرصة الهزء بميزانيتنا الزائفة ، ومحاولة إيجاد توازن بين ميزانية عصرية وميزانية بدائية ، الفرق بينهما كالفرق في مجال الاتصالات « بين الدخان الأزرق والمرايا » ، إلا أنه أدرك الآن تماماً أن مسألة تخفيض الرعاية الصحية ، أصبحت أمراً لا يمكن الدفاع عنه سياسياً . وصار يبدو لي كسياسي عملي واقعي اكتشف فجأة أن رفاقه قد انضموا سراً إلى فرقة دينية ، وأنهم بسبيلهم ليتناولوا قربانها المسكر المقدس .

إلا أن لوت كان يملك حساً مرهفاً رائعاً بالتوقيت السياسي. فقد شعرت، وهو يزعم أنه عضو قيادي لا حول له ولا قوة في حزب يدمر نفسه، بالشك في أنه يدرك ذلك فعلاً، وهو الجمهوري رقم ٢ في مجلس الشيوخ، وبالشك في أنه ينتظر فقط أن تأخذ هذه العملية مسارها، ليرث القيادة، ويلملم قطع الجرة بعد أن تنكسر.

أما بالنسبة للرئيس، فقد أصبح واضحاً من دراسة الاستطلاعات أن ابتعاده عن الجناح التقليدي الديموقرطي ساعده كثيراً، إلا أن شيئاً ما كان ناقصاً. قال الناخبون للقائمين على الاستطلاع: «نعم، إن نية كلينتون حسنة، وأهدافه طيبة، مبارك قلبه، لكنه لا يستطيع إتمام شيء، لأنه ضعيف جداً وغير كفؤ». لقد بدأ خطاب الرئيس يصلح من صورته الليبرالية، وبقي علينا الآن أن نتغلب على صفة الضعف هذه التي يرونه من خلالها.

وبدأت أرى أن موضوع الميزانية وموضوع البوسنة هما الأهم في تصليح رؤية العامة للضعف عند الرئيس، ففي كليهما كان الرئيس يقوم بما يشعر بأعماقه أنه صحيح، ويصرّ على موقفه منهما بقوة.

وافق ليون وجورج على وجوب أن يقف الرئيس من موضوع الميزانية موقفاً في منتهى الحزم، إلا أنهما، مثل كل أفراد طاقم البيت الأبيض، يخافان أن ينفر — كالجمهوريين — من استباق الأمور.

لكنني طمأنت ليون وجورج مؤكداً «إنه لن يتراجع أو ينهار، ولن يهتز له جفن». فقد أمضى الرئيس سنة كاملة في تحضير هذه الأرضية. في أواخر عام ١٩٩٤، أعلن عن ملخص لبرنامج تخفيض ضريبي من إعداده في خطاب عام. ودعا في خطابه أمام الحكومة الاتحادية الحزبين إلى التعاون الذي قوبل بالرفض والازدراء. وأوضح في خطاب «كوم الفيتو» الأمور التي سينقضها، والأمور القابلة عنده للمساومة. وأخيراً في خطاب الميزانية، أوضح المواقف والأوضاع التي يدعمها ويساندها. فاستعرض بكل دقة كل برنامج وكل نفقة، وحدد الأساسي منها، والثانوي الذي يمكن تخفيضه. لقد وضع مخططاً جيداً، بينما الجمهوريون الذين وجدوا أنفسهم فجأة قادة للكونغرس، لم يفعلوا أكثر من أن قدموا ميزانية تناسبهم إيديولوجياً، لكن آثارها على الناخبين لم تؤخذ بعين الاعتبار والفحص والتدقيق.

في فبراير / شباط الماضي، ناقشت مع الرئيس العقوبات التي هدد بأن يفرضها على الصين، لوقف قرصنتها وسرقتها الأفلام الأمريكية وديسكات البرامج الكمبيوترية. فقارن نجاحه مع الصين، بفشله في إنهاء إضرابات كرة السلة. وقال: «أنا بحاجة إلى أداة، بحاجة إلى سلاح. وحينَ تتوفر لي الأداة كما حصل مع الصين، أستطيع باستخدامها الصمود إلى الأبد، أما حين لا تتوفر لي كما حصل في مسألة كرة السلة، فلن أستطيع الصمود».

حاولت أن أشرح لليون لماذا يمكننا أن نعتمد على صمود الرئيس، فقلت: «إنه يعرف ملعبه جيداً، وهو سعيد بموقفه. فلديه تغطية على الهواء هي الدعاية الإعلانية الشغّالة، ولديه السلاح، حق النقض. ولن ينحرف عن الطريق».

ولم يصدق ليون ذلك. كان هو وجورج خائفين كثيراً من أن يرمي الرئيس بكل شيء من يده، في مخابرة تلفونية ليلية واحدة. وأشعر الآن أنهما كانا يريان فيّ شخصاً غامض النفع. فقد ساعدتهم إعلاناتي على النصر في حرب الميزانية مع الجمهوريين، ورغم أنهم لم يكتشفوا السبب، إلا أن الرئيس كان يقدر نصيحتي حق قدرها ويشعر أن موقفه يزداد حزماً وصموداً بفضلها.

الفرق الوحيد بين نصيحتي لكلينتون ونصائح المستشارين الآخرين، هو ميلهم إلى التعامل مع الإشكالات اليومية الجارية، بينما أنا أركز على الاستراتيجية. كنت أتصل أحياناً بالرئيس لأبحث معه تعديلاً لكامل الخطة، ويستغرقنا الحديث الشيق ساعات، أقوم بعدها بتعديل الخطة لتتلاءم مع ما بحثناه من آراء. وتعلمت من هذه الأحاديث أمراً واحداً هو حسن الإصغاء.

كنت أستمع في البداية إلى ما أقوله أنا، وليس إلى ما يقوله الرئيس. ولم يكن كلينتون يرفع صوته في الأمور الهامة. وحين يرفع صوته، فعلى الأمور التي تثير الغضب بتفاهتها. كان أسلوبه يقتضيك أن تصغي بدقة إلى ما يقول، وأن تراقب لغة جسمه وهو يتكلم، فإذا كان الحديث هاتفياً عليك أن تصغي إلى وقفاته الصامتة لتقيس مدى اهتمامه. وقبل ذلك كله عليك أن تراقب أجوبته وتلاحظ متى لا يجيب إطلاقاً، ومتى يعود ليكرر أسئلته ذاتها، كدلالة على أنه لم يقتنع بمقترحاتك، وأن عليك إعادة النظر والتفكير لتصل إلى ما يرضيه. الرئيس ذكي جداً ومهذب دمث جداً، وعليك أن تصغي إليه وتراقبه بعناية لتتملك مفاتيح فهمه، ولتتمكن من التقاط إشاراته.

وما إن فهمت هذه النقطة، حتى عرفنا، كلانا، ما هي الاستراتيجية، التي تصبح القرارات معها أسهل. قد أبدو أمام الصحافة وكأنني أتمتع بقدرات خفية أتنبأ معها بما سيفعل، أو أؤثر بها على قراراته، لكن الذي لم يستطع موظفو البيت الأبيض أن يدركوه، هو أننا، الرئيس وأنا، متفقان سلفاً على الصعيد النظري أو الاستراتيجي، وأنني لا أقوم بأكثر من تقديم مخطط مبدئي لما تم الاتفاق عليه.

حين اشتد الجدل حول الميزانية، استمر الرئيس في وقفته الحازمة، فقد عرف أنه يحمل، على الصعيد السياسي، ورقة رابحة يستطيع أن يلعب بها. لكنه أراد مع ذلك أن

يلعب بما في يده من أوراق ، ليفاوض ويتوصل إلى صففه أقرب ما تكون من أهدافه وأولوياته . في الحوار حول الميزانية ، أرادها الرئيس إنجازاً ، بينما أرادها حزبه في الكونغرس قضية .

بتوجيه من الرئيس ، تابعت فتح القناة مع ترينت لوت ، الذي أحس ، على المستوى السياسي ، بضعف أوراق اللعب في يد حزبه ، فكان يحاول متلهفاً ألا يكون بعيداً . وكان يعرف أن حلفاءه المتطرفين في المجلس ، وخاصة الجدد منهم ، كانوا ساذجين إلى الحد الذي يظنون معه أن كلينتون سيتراجع ويوقع على ميزانيتهم ، ولا يجازف بسقوط الحكومة . كنت دائماً أقول لترينت في لقاءاتنا الأسبوعية ، أننا حين يحين أوان الطحن والمضغ فلن يرف لنا جفن . وأوضحت أننا ربحنا المعركة بفضل الرأي العام ، وجعلته يفهم أننا لن نكون بحاجة لأن نتردد .

كان ترينت مقموعاً ومحبطاً بشكل مخيف . فبدأ يُلمح إلى الجمهوريين الجدد وإلى المتطرفين الأصفياء ، من مثل آيات الله ، الذين يتفق معهم أساساً في آرائهم المحافظة ، إنما يظل ذلك السياسي المحترف الذي يزدري سذاجتهم . وكان يرى رفضهم للتنازلات جحوداً لكل ما عليه الكونغرس والحكومة الرئاسية . (مشكلة لوت مع الجمهوريين الجدد تشبه إلى حد ما مشكلة كلينتون مع «الأولاد الذين ساعدوه على الفوز بالانتخابات») . كان لوت يعرف أن هؤلاء الجدد سرعان ما سيتعلمون الطرق والأساليب في العالم . وإلى أن يحين ذلك ، ومع عدم وجود سلطة حقيقية في مجلس الشيوخ ، ولا عند أعضائه ، فعليه أن يقود مركبه بعيداً عن الحواف الصخرية .

كانت المسألة عند الناس ، مسألة معركة حول الرعاية الصحية والتخفيضات الضريبية . أما عند الصحافة ، فمعركة بين كلينتون وغينغريتش . وأما عند الخبراء ، فهي معركة بين تقديرات مكتب الميزانية والإدارة في البيت الأبيض ، وافتراضات مكتب الميزانية في الكونغرس .

ومع ذلك ، فلم يكن أحد متأكداً مما سيكون عليه الوضع الاقتصادي . وأصر متطرفو الجناح اليميني في مكتب الميزانية بالكونغرس على أرقامهم . ولو أنهم أظهروا مرونة أكثر ، لما اضطر غينغريتش ودول إلى خوزقة أنفسهم على عامود هذه التخفيضات الضريبية الفاحشة ، ولكان دول رئيساً للبلاد اليوم . كان كلينتون ، على كل حال ، يرى ما يحدث ، وأدرك أن محافظي الجمهوريين مصرون على أرقام مكتب الميزانية في الكونغرس ، ليس لأنهم يؤمنون بأنهم بالضرورة على حق ، بل لأنهم اقترحوا هذه التخفيضات على برامج أساسية ، هم يتمنون أصلاً القضاء عليها . كان بوسعهم تحقيق توازن الميزانية وفرض التخفيضات الضريبية

اعتماداً على تقديرات مكتب الميزانية والإدارة في البيت الأبيض، لكن هذه الأرقام لا تحقق للجمهوريين المحافظين ما يريدونه من تخفيضات واقتطاعات.

إلا أن لوت كان يريد ميزانية يستطيع الجمهوريون أن يقدموها للعامة في انتخابات الكونغرس عام ١٩٩٦، الأمر الذي يعني أنه كان يريد الاتفاق مع البيت الأبيض. كان صريحاً باعتماده على تقديرات مكتب الميزانية والإدارة في البيت الأبيض. وكانت نظريته أنك بمجرد وجود ميزانية متوازنة أمامك على الطاولة، فإن بوسعك دائماً أن تقتطع وتخفض المزيد إذا كانت الأرقام غير كافية. قال لي بلسان الواقعي الفائق «اسمع، لا أحد لديه أدنى فكرة عما سيحدث في السنة القادمة، فما بالك بسبع سنوات في طي المستقبل الآتي. دعنا نعقد اتفاقاً على أساس أحسن ما بأيدينا من أرقام، كل طرف يتنازل قليلاً، وسننجح».

كان لوت، كالرئيس تماماً، يتوق إلى اتفاق. لكن الجمهوريين الجدد لم يكونوا كذلك، فالاتفاق بالنسبة إليهم لعنة حرمان بغيضة. إنهم يريدون استسلاماً، ولم يفهموا أبداً أنهم لن يحصلوا عليه.

في الإدارة، كان جورج ستيفانوبولوس هو الأكثر معارضة للاتفاق من حيث المبدأ. أما حليفنا القوي رئيس الأقليات في المجلس ديك غيبهارد فقد أراد لمسألة الرعاية الصحية أن تبقى حية للانتخاب القادم. بينما أراد بانيتا، من جانب آخر، الاتفاق، لأنه في النهاية ممن يريدون للحكومة أن تعمل. إلا أنه متعاطف تماماً مع حاجات ورغبات الوزارات والمكاتب التنفيذية، في معارضتها لمقترحات الجمهوريين.

ثمة فرق دقيق آخر يميز كلينتون عن نائبه غور. فكلاهما يريد الاتفاق، وكلاهما يريد ميزانية متوازنة تخطف القضية من أيدي الجمهوريين. إلا أن كلينتون يريد المساومة. أما غور فيريد اتفاقاً لا يمسّ أياً من أولوياته: كحماية البيئة والتقنية وغيرها. غور يهتم بالجزئيات وليس بالعموميات، بالمواصفات وليس بالعناوين والمقولات، ولهذا فهو يرى أن الاتفاق مطلوب، لكنه غير ممكن، بينما يعتقد كلينتون دائماً بأن الاتفاق أمر ممكن ومفيد.

إلا أننا جميعاً اتفقنا على أن التخفيضات المطلوبة حسب تقديرات مكتب الميزانية في الكونغرس تجعل من التفاوض والمساومة أمراً مستحيلاً.

وشعر لوت أن أعضاء الجناح اليميني قد دفعوا غينغريتش إلى فخ القبول بأرقام مكتب الميزانية في الكونغرس. قال: «إنه بحاجة إلى طريقة يحفظ بها ماء وجهه».

درسنا إمكانية أن نطلب من غينغريتش تسمية اقتصاديين، يراجعون المعلومات والأرقام الاقتصادية ليروا ما إذا كانت تقديرات مكتب الميزانية في الكونغرس، التي وضعت قبل ستة أشهر، ما زالت مقنعة، فنكون بذلك قد فتحنا له منفذاً للخروج. لكن هذا الأمر

تسرب على شكل كلمة تقول إن قادة الجمهوريين « يزوّرون » تقديرات مكتب الميزانية . وهبَّ آيات الله في الكونغرس بوجه غينغريتش ودول ، فاتحين عليهما أبواب الجحيم ، فحين تندلع نيران التطهير ، تهوي كل عناصر العقل والمنطق عن عروشها . وأصر غينغريتش على أن نتوقف ، أنا ولوت ، عن الكلام العرضي في لقاءاتنا ، لإرضاء معارضي الاتفاق من كلا الجانبين ، وابتسم الرئيس ولوت ساخرين ، لكنهما لم يستطيعا أن يفعلا شيئاً .

بدا وكأن ثمة اصطداماً سيقع لا سبيل إلى اجتنابه . كنت أراقب المفاوضات وهي تجري ببطء وتثاقل ، وأشعر بالقلق من عدم مرونتنا الكافية ، وأتساءل عن سبب عدم واقعية الجمهوريين سياسياً إلى هذا الحد . هذه النقطة التي فهمها نائب الرئيس غور ، ولم أفهمها أنا : لن يحصل اتفاق حول الميزانية ، لأن أهداف الطرفين متعارضة . نحن نريد ميزانية متوازنة بأقل تخفيضات واقتطاعات ممكنة ، وهم يريدون اقتطاع وتخفيض أكبر قدر ممكن من الإعانات .

والتقيت مع نائب الرئيس ، بعد أن قال شيئاً ضد الجمهوريين ، رأيت فيه خشونة وعنفاً بالغين . سألته : « ألا توافقني على أن الاتفاق على الميزانية هو الإجراء الهام الذي يضعنا في مكاننا الصحيح بهذا الانتخاب ؟ أليس هو المرساة الوحيدة التي تثبت لنا هامشاً متيناً نعبر عليه في الانتخاب المقبل ؟ » .

ونظر إلي نائب الرئيس من خلف مكتبه بعينين ساخرتين مملوءتين بالفكاهة ، ثم فتحهما على آخرهما كأنما خطرت له فكرة وصاح : « وجدتها !! . لعلنا إذا أمسكنا بأيدي بعضنا بعضاً حول دائرة مستديرة ، وركزنا أفكارنا بقوة ، وأغمضنا عيوننا ، قد نستطيع التوصل إلى اتفاق حول الميزانية » .

شعرت أن الرئيس ، مع عدم وجود اتفاق قائم أو مرتقب ، سيغرق في معركة يبدو فيها وكأنه سوط في يد سلطة تنفيذية ، أو محاسب يرسم الأرقام في جداول . لكنه لن يبدو كرئيس . وكان كلينتون يشاركني هذا الشعور ، فقد قال لي متبرماً في أواخر أوكتوبر / تشرين الأول « أشعر وكأنني عضو في الكونغرس ، أذهب يومياً مع بدء الدوام ، لأعرض آخر قراراتنا حول الميزانية . وأود لو أعود رئيساً » . فوافقته على ما قال ، وشجعته قائلاً : « ارتفع بنفسك فوق المعركة . كن رئيساً ، واترك الشجار للآخرين » . وأعددنا برنامجاً قوياً لتحرك دفاعي يضعنا فوق المعركة .

لقد لعبت منجزات الرئيس السياسية الخارجية دوراً مميزاً في هذه العملية . قصف البوسنة بالقنابل ثم وقف إطلاق النار هناك ، توقيع اتفاق للسلام بين إسرائيل والفلسطينيين ،

واستقبال كلينتون للبابا يوحنا بولس الثاني عند وصوله إلى الولايات المتحدة في الرابع من أوكتوبر / تشرين الأول ، كل هذا ساعده في الارتفاع عن صخب الجدل حول الميزانية .

كانت لدى غور أفكار مشابهة . فقد استدعاني إلى مكتبه قائلاً إنني أحسنت صنعاً بعملي مع الرئيس ، وتحدثنا عن جميع المواقف الصحيحة في الموضوع ، التي أراد الرئيس الأخذ بها لولا أن الليبراليين من مساعديه وموظفيه عارضوه . لكن غور أشار إلى أن أهم ما يحتاجه الرئيس ، هو أن يبدي مدى قوته وديناميكيته كقائد .

قال معلقاً : « لقد رأيت بعيني كيف أن كلينتون قائد حقيقي . أذكر ذلك حين تحدث في الكنيسة السوداء بممفيس . كان يومها قائداً بالفعل » نهض نائب الرئيس وهو يمثل المشهد قائلاً : « نظر في عيون الناس مباشرة وقال : (إن المرحوم مارتن لوثر كينغ لم يضح بحياته ليرى أطفالاً في الثالثة عشرة من العمر يحملون أسلحة رشاشة ويجندلون أطفالاً آخرين دون التاسعة من العمر لمجرد أنهم عارضوهم ليس هذا هو ما جاء من أجله) حين قال هذا كان قائداً » .

ثم ذكر غور أمثلة أخرى فقال : « حين وقف في أوستن وتكساس وتحدث عن التمييز العنصري ، وحين دافع عن التحرك السريع الذي شجعه الجميع على التخلي عنه ، عندها كان قائداً ، وحين خطب في مدينة أوكلاهوما وللم جمع أمريكا ، كان قائداً أيضاً » . توقف نائب الرئيس لحظة ثم قال مختتماً حديثه : « لقد عرفك قبل أن يعرف الكثيرين منا ، وهو يثق بك ، وعليك أن تساعده على بعث هذه الروح القيادية في داخله » .

أجفلت من الإخلاص والصراحة والإلحاح في كلام غور ، فقد كان إيمانه بكلينتون واضحاً في مثل وضوح خيبته به . واستمرت علاقتي بالرئيس بعدها عشرة شهور أخرى ، لم أنس خلالها كلمات نائب الرئيس .

كان الرئيس قد بدأ بالفعل بتقوية قدراته القيادية حين تحدث غور إليّ . فبدأ شهراً بعد شهر ، يتحدث أكثر فأكثر عن الشؤون الداخلية والخارجية .

تحدثت مع كلينتون ، وتعليقات غور ترن في ذاكرتي ، على انفراد بعد اجتماع رسم الميزانية بتاريخ ١١ أوكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٥ ، رسمت له فيه خطاً يبين التغيرات في صورته العامة عبر السنوات . وكنت قد أجريت عدة محادثات مع ناومي وولف ، تكلمنا فيها عن شوق البلاد إلى نموذج مثالي يلعب دور الأب الطيب . فحكيت لكلينتون كيف رأت فيه أركنساس ذات يوم ابناً ضالاً أضاع طريقه في عام ١٩٨٠ ، لكنه عاد إلى حظيرة الرشاد في عام ١٩٨٢ . وكيف شعرتْ بالفخر حين نجح ، لأنه ما زال طفلها . كان كلينتون في حملته

الانتخابية عام ١٩٩٢ صديق أمريكا ورفيقها ، يجلس على الأرض ، يركب الحافلات العامة في حملته الانتخابية ، يحضر الاجتماعات العامة في الساحات ، يأكل الشطائر في مطعم ماكدونالد ، يمشي مع جميع الناس ، يظهر على شاشة التلفزيون ، ويعزف على الساكسوفون . ثم قلت للرئيس : « أما الآن ، فقد آن أوان أن تصبح أباً للأمة . وأن تبدأ بالتحدث إلى الناس كأب لهذه البلاد ، وليس كرفيق صديق أو كابن » .

اقترحت عليه أن يركز على الشؤون العائلية : وضع قيود تلزم بالإنفاق على الأطفال ، وضع حدود لمعدلات العنف في التلفزيون ، تحسين العملية التعليمية . فهذه القضايا تناسب صورة أب يهتم بأطفال أمريكا ، في وقت وصلت فيه المسيرة العائلية إلى حد التمزق ، خوفاً من أن يتمرد الأطفال على أبويهم .

قال معلّقاً : « لقد فعلنا الكثير في هذا المجال ، إلا أن علينا أكثر » . فانتقدت الطريقة التي يظهر بها في المجالس العامة قائلاً : « أنت تتباهى بنفسك كثيراً ، والآباء لا يتباهون . أنت تبدو وكأنك تهتم كثيراً بما يظنه الآخرون بك ، والآباء لا يفعلون ذلك . لا تتحاور مع جلسائك ومشاهديك ، تحدّث إليهم . لا تتذمر في المجالس العامة من أن الناس لا تقدّر إنجازاتك ، ولا تبخس الناس أشياءهم . لا تطرح أسئلة في خطاباتك ، أعط أجوبة فقط » .

قال الرئيس وهو يدوّن ما أقول : « يعجبني هذا . وأعتقد أن ما قمتُ به مؤخراً على الصعيد الخارجي ، وظهوري مع البابا ، يتوافق مع هذا الخط » .

في هذه الأثناء ، كان سكواير وناب قد باشرا بحضور اجتماعات رسم الميزانية ، وفي أول اجتماع منها ، عرضتُ بمساعدة بوب سكواير على الرئيس فيلماً عن خطاب ألقي مؤخراً في آيووا ، واستعرضنا فيه اللقطات الجيدة واللقطات السيئة .

كان في أحد المشاهد يتحدث عن المخاطر السياسية التي يتعرض لها في تحديه ووقوفه بوجه صناعة التبغ ، وركز على نقطة أن البعض قد نصحه وشجعه على مهادنتها . قلت : « ليس هكذا يتحدث الآباء . هذا ليس أسلوباً رئاسياً في الحديث » . مشهد آخر يظهر فيه متباهياً ، ويحكي كيف سقط في عام ١٩٩٤ ، وكيف أن الكثيرين من الناس ظنوا أن لم يبق له أمل بالوقوف والعودة . مرة أخرى ، هذه ليست صورة أب يتحدث إلى أولاده ، ففيها الكثير من الرفاقية والكثير من الطفولة .

مع كل نقد ، كان كلينتون يعترف بأنه شعر وهو يقرأ هذا السطر أنه في غير محله المناسب ، ثم يتابع كتابة ملاحظاته . ولم يحدث بعدها أنه أخطأ في أمر مرتين . حتى ملابسه تم إعادة النظر فيها . كان يفضل الألوان الفاتحة لبدلاته ، ولا يختار لها ربطات عنق ملائمة .

قلت له متطفلاً في أواخر أوكتوبر / تشرين الأول : « الألوان الفاتحة لا تجعلك تبدو رئيساً . خذ اللون الأزرق ومعه ربطة عنق حمراء » . وفي الشهر التالي كنت مع إيلين في باريس ، فاشترينا له بعض ربطات العنق الحمراء الزاهية ، فأرسل لزوجتي مذكرة بخط يده يشكرها فيها على اهتمامها بحسن هندامه ولوازمه .

في أواخر عام ١٩٩٥ ، طلب مني أن أرصد كل خطاباته في التلفزيون ، وأن أهتف له ليلاً بملاحظاتي وانتقاداتي . وبدا وكأنه قد أحب هذه الطريقة في العمل .

كانت إنجازاته هي مشكلته . فغالباً ما كان في اجتماعات رسم الاستراتيجية يتحدث عن نجاحه في خلق سبعة ملايين فرصة عمل ، وفي تخفيض العجز ، ويشتكي من أنه لا أحد لاحظ هذه المنجزات . ودائماً ما كان يشير في خطاباته وبشكل سمج محرج إلى هذه المنجزات ، التي أظهرت استطلاعاتنا أن مستمعيه قسمان ، قسم لم يسمع بهذه الإنجازات من قبل ، وقسم سمع عنها ولم يصدق أنها حصلت .

في أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية ، اقترح بوب سكواير طريقة أفضل تلفت الانتباه إلى ما تم إنجازه ، هي أن يأتي على ذكر المنجز في معرض الحديث عن أمر آخر ، كأن يقول : « المئة ألف رجل شرطة الإضافيين الذين أنزلناهم إلى الشوارع لا يستطيعون حل مشكلة الجريمة لوحدهم ، علينا أن نرصد اعتمادات مالية في الميزانية لمكافحة المخدرات في المدارس ، ومنع الجمهوريين من تخفيضها » أو أن يقول : « إن الملايين السبعة من فرص العمل التي خلقناها ، لن تجدي كثيراً إذا لم نجد أشخاصاً متعلمين يملؤونها . ولهذا أردت إعفاء الأقساط الجامعية من الضريبة ، لأساعد الفتيان على الدراسة الجامعية ، بحيث يتمكنوا من ملء هذه الوظائف الشاغرة » قد تبدو هذه التغييرات سطحية ، لكنها في حالة بيل كلينتون هذه ، أعطت أثراً حقيقياً . فكلما تصرف كأب لأمريكا ، زادت صورته الأبوية رسوخاً .

الحكومة تقفل أبوابها :

بين ١٤ ــ ١٩ نوفمبر / تشرين الثاني ١٩٩٥ ، أقفل مكتب الجوازات ، وأغلقت الحدائق العامة والمتاحف ، وأقفل مكتب الضمان الاجتماعي ، باختصار : لقد أغلقت الحكومة أبوابها . وتذكرت مشهداً من مشاهد « الكاميرا الخفية » منذ عشر سنوات ، يرتدي فيه أحد الممثلين ثياب رجل شرطة ، ويستوقف راكبي الدراجات على حدود ولاية ماريلاند ، ليقول لهم بلهجة رسمية أن عليهم الدوران حول ماريلاند لأنها مغلقة اليوم . كان البيت الأبيض ، خلال ذلك الحصار ، منهمكاً في معركته اليومية ، وكنا نعمل بحماس لتحضير نشرة الأخبار المسائية في التلفزيون ، نركز فيها على : تعهد الرئيس بتحقيق توازن في الميزانية ، ونركز

فيها على النقاط الرئيسية التي استهدفها الجمهوريون بالتخفيض الفاحش، الرعاية الصحية والعناية الطبية والتعليم وحماية البيئة. كما نركز فيها أخيراً على محاولات الجمهوريين ابتزاز الرئيس وتهديده بالفضيحة للموافقة على تخفيضاتهم، وصمود الرئيس أمامهم ومقاومته لهم. كان فريق إعداد الإجابة برئاسة ستيفانوبولوس، وعضوية سبيرلينغ وبانيتا وباير وبن وأنا. وكنت أتصل بالرئيس عدة مرات في اليوم لبحث التعديلات.

في إحدى الملاحظات مثلاً قال الرئيس: «لقد ضاع تعهدنا بتحقيق توازن الميزانية في المواجهات بين الحزبين، ولوم كل منهما الآخر بوقف العمل في الحكومة». لقد استعمل الرئيس مصطلح «ميزانية متوازنة» أربع عشرة مرة في خطابه ذلك اليوم.

كنا نقوم، كل ليلة من ليالي أزمة الميزانية، باستطلاعات لقياس ردة فعل الناس. كان القائمون على ملء الاستمارات يبدأون الاتصالات الهاتفية في السابعة صباحاً وحتى الواحدة بعد منتصف الليل، على التوقيت الشرقي، ليلحقوا بزبائنهم في الساحل الغربي قبل أن يناموا. وكنت أستيقظ في الرابعة صباحاً على صوت آلة الفاكس وهي تقذف بأرقام ونتائج الاستطلاعات التي تم جمعها قبل عدة ساعات. وفي السابعة والثلث من كل صباح، كان جورج يتلقى مني هاتفياً بيانات الليلة الماضية، فيصوغها في تقرير لقاء السابعة والنصف الصباحي الذي يقوم به ليون مع صفوة موظفي البيت الأبيض (الذي لم أحضره أبداً). فإذا ما استيقظ الرئيس، استلم مكالمتي، وبدأ يومه بموجز من بيانات آخر استطلاع تم إجراؤه.

كنا نراقب أرقام الاستطلاعات تصعد يوماً بعد يوم، إلى أن وصلت إلى أعلى ذروة بلغها كلينتون خلال ثلاث سنوات من رئاسته. لقد فهم الناخبون رسالتنا تماماً، وكانوا متعاطفين متفهمين لموقفنا. حين نقض كلينتون مشروع قانون الميزانية المتوازنة الذي قدمه الجمهوريون بتاريخ ١٣ نوفمبر/تشرين الثاني ١٩٩٥ وأوقف الجمهوريون العمل في الحكومة، شعر بالقلق لأن واشنطن نفسها هي التي ستلام في النهاية على هذا التخبط والتشويش. قال لي على الهاتف في منتصف نوفمبر/تشرين الثاني: «إنهم يفضلونني الآن على الجمهوريين. وبعد وقف العمل ستظل معدلاتي أفضل، لكننا سنسقط بعد ذلك معاً. لأن الحكومة ستبدو ملخبطة إلى الحد الذي لن ينجو معه أحد في واشنطن». كان يعبّر في مكالماته الهاتفية الطويلة غير العادية عن قلقه، وكنت أستخدم أرقام استطلاعاتنا اليومية لأطمئنه. فلم يعد ثمة استراتيجيات عظيمة تقوم على بصيرة نفاذة فحسب، تلك طريقة دفاعية مضى زمانها، والاستراتيجية العظيمة الوحيدة هي التي تقوم على الحزم والعزم والأرقام.

واطمأن الرئيس وهدأ، بعد أن رأى أنه ما زال صامداً في المعركة، وأنه يربحها. كان يذهب إلى غرفة التعليمات في البيت الأبيض ليخوض معركة، ثم يعود ليتابع عمله كرئيس.

وساهمت إعلاناتنا في تقوية تأييد الجماهير لنا، وكان الرئيس يكسب في كل أسبوع موقعاً جديداً لصموده في وجه العدوان الجمهوري.

بتاريخ ٢٤ أوكتوبر / تشرين الأول، قال غينغريتش إنه سيترك عناقيد الرعاية الصحية تذبل على عرائشها. وفي اليوم نفسه، أخبر دول إحدى مجموعات المحافظين أنه «كان هناك يشترك في معركة عام ١٩٩٤، ويصوت ضد الرعاية الصحية». هذه التعليقات أثبتت وجهة نظر كلينتون، وأكدت ما قاله لوت من أن الجمهوريين رفضوا أن يتزحزحوا عن مواقفهم ليس لأنهم يريدون تخفيض الضرائب، بل لأنهم يريدون القضاء على الرعاية الصحية. فالهدف الحقيقي لأولئك الجمهوريين المحافظين هو الحكومة الفيدرالية التي لا يحبونها ولا يريدونها.

تجادلنا حول كيفية الاستفادة من تعليقات غينغريتش ودول في إعلاناتنا. فاستدعاني الرئيس إلى المكتب البيضوي لمحادثة غير عادية على انفراد. وغالباً ما كنا نتحدث في قسم السكن بالبيت الأبيض وحدنا إلى ساعة متأخرة من الليل، لكنه منذ المواجهة مع ليون في يوليو / تموز، كان يكره الانفراد معي بمكتبه. قال بتحفظ: «لا أريدك أن تقتبس تعليق دول على الرعاية الصحية وتحشره في إعلاناتنا الوطنية». فسألته: «هل تخشى أن أبالغ في الإساءة إليه إلى حد يخسر معه الترشيح؟» سألني مقاطعاً: «ألن تفعل ذلك؟» وكنت أنوي فعلاً أن أفعل ذلك، فنحن نريدها معركة انتخابية ضد دول.

في أوائل نوفمبر / تشرين الثاني، استخدمنا تعليق غينغريتش في إعلاناتنا وتركنا دول، وقمنا ببث الإعلانات لمدة ثلاثة أسابيع في ٤٠٪ من أمريكا خلال فترة التوقف عن العمل. فارتفع معدلنا بين الناخبين تسع درجات في تلك الولايات المتأرجحة.

رغم عدم موافقة العامة على وقف العمل في الحكومة، إلا أن الجمهوريين واصلوا محاولة ابتزازنا، وأذهلني هذا. كنت قد شاهدت مؤخراً فيلم «غيتيسبيرغ»، وأخبرت الرئيس أن ما يقوم به الجمهوريون يبدو لي أشبه بـ «هجوم بيكيت»(*)، الذي رمى فيه المتمردون أنفسهم بآخر هجمة باسلة انتحارية تحت وابل رصاص ونيران الاتحاديين ليسقطوا صفوفاً وأرتالاً.

ثم جاء نيوت غينغريتش ليرتكب حماقة أكبر حتى من هجوم بيكيت. فقد طار زعيم المجلس في طائرة حربية مع الرئيس وعدد من الرسميين في الحكومة إلى إسرائيل لتشييع جنازة الذبيح إسحاق رابين، فشعر خلال تلك الرحلة الطويلة في الطائرة بأنه مهمل بشكل

(*) جورج إدوارد بيكيت ١٨٢٥ ــ ١٨٧٥ أحد جنرالات الجيش الكونفيدرالي في الحرب الأهلية الأمريكية ١٨٦٠/١٨٦١. اشتهر بهجومه الفاشل الذي قام به عام ١٨٦٣ على القوات الاتحادية في حملة غيتيسبيرغ فأبيدت فيه فرقته بكاملها. ــ المعرب ــ

واضح ، إذ أجلسوه في مؤخرة الطائرة ، ولم يستدع إلى المقدمة للحديث مع الرئيس عن الميزانية كما هو المفروض . بعد ذلك ، حين حميت معركة الميزانية ، ذكر غينغريتش هذه الحادثة كسبب من الأسباب التي أدت إلى عناده وتصلبه في المفاوضات . فأصدرت صحيفة نيويورك دايلي نيوز عددها في اليوم التالي ، يتصدره عنوان بارز « بكاء الأطفال » تحت رسم كاريكاتيري يمثل غينغريتش طفلاً يحمل دمية ويبكي .

لقد أثر التوقف عن العمل ، وتعليق الرعاية الصحية الذي اقتبسناه ، وحادث الطائرة وما جرى فيها ، إلى حدٍ أخرس غينغريتش وأنزله عن عرش السلطة في عيون الجماهير على صعيد البلاد كلها .

بعد ستة أيام من وقف العمل انهار الجمهوريون . وأعلنوا أنهم قد يسمحون للحكومة بالعودة إلى العمل لمدة شهر ، إذا نحن وافقنا على ميزانية متوازنة لسبع سنوات بدلاً من عشر سنوات كما اقترحنا ، وقبلنا أرقام الدخل الضريبي والتضخم الواردة في تقارير مكتب الميزانية بالكونغرس كأساس للمفاوضات .

قبل ذلك بشهرين ، كان إصرار الجمهوريين على تبني الأرقام المتشائمة لمكتب الميزانية في الكونغرس يعرقل الوصول إلى اتفاق . أما الآن فهو لم يعد كذلك ، لأن الوضع الاقتصادي ، كما تنبأ مكتب الإدارة والميزانية في البيت الأبيض ، تحسن كثيراً ، مما أوجب على مكتب الميزانية في الكونغرس أن يعدل أرقامه ، لتشمل الدخل الضريبي الإضافي الذي لم يأخذه اقتصاديوهم بعين الاعتبار حين إعداد تقديراتهم في السابق . وأصبح بإمكاننا في ضوء أرقام مكتب الإدارة والميزانية بالبيت الأبيض ، أن نصوغ ميزانية يتحقق فيها التوازن خلال سبع سنوات . كما أصبح بإمكاننا الآن أن نفاوض على صفقة لا نضحي فيها بأولوياتنا الأساسية .

قبل أيام قليلة من تقديم العرض ، أظهرت استطلاعاتنا ضيقاً ونفاد صبر عند الناخبين ، من استمرار لعبة التهديدات هذه ، وانعكس ذلك على أعداد المؤيدين لاقتراحات الجمهوريين ، فهزني ذلك خوفاً وناشدت جماعتي أن يقبلوا التفاوض ، ما دامت أهدافنا المتعددة مصونة ولا خطر عليها .

لقد كشفت أمام ترينت لوت الكثير من أوراقي ، حين حكيت له عن تبدل مواقف العامة كما أظهرتها الاستطلاعات ، وفي هذا ما يقوي الجمهوريين ويشجعهم . كانت هفوة ، اعتذرت عنها للرئيس . واعتبرها ليون وجورج سبباً قد يضعف من موقفنا في المفاوضات ، ولعلهما كانا على حق .

بقي إرسكين بولز على اتصال معي، بينما قاد ليون وجورج المفاوضات في مبنى الكونغرس. ودهشنا جميعاً حين استسلم الجمهوريون، وعرضوا عودة الحكومة إلى العمل دون اتفاق على الميزانية، ودون أية تعهدات من طرفنا، عدا الالتزام بتحقيق ميزانية متوازنة خلال سبع سنوات، يتم فيها اعتماد أرقام مكتب الميزانية بالكونغرس. وفهمنا أن هذا يعني استسلام الحزب الجمهوري الأمريكي. لكننا لكي نتأكد من أن الصحافة ستفهمه أيضاً على هذا النحو، أصررنا على أن نؤكد للجمهوريين عزمنا على حماية الرعاية الصحية والمعونة الطبية والتعليم والبيئة.

اتصل بي بولز هاتفياً بتاريخ ١٩ نوفمبر/تشرين الثاني في منزلي بكونيكتيكت، حيث كنا، إيلين وأنا، نستضيف سبعين ضيفاً لنحتفل بعيد ميلادي. كنت أهرول جيئة وذهاباً للرد على مكالمات بولز، وأعاني الكثير وأنا أحاول أن أسمع ما يقول في هذه الضجة. واتفقت آراؤنا، بانيتا وستيفانوبولوس وبولز وأنا، على أنها صفقة جيدة ونصر أكيد.

كان نائب الرئيس غور، في الجانب المقابل، ضد عقد أي اتفاق. فبعد عودته من اليابان، حيث مثّل الرئيس في زيارة رسمية هناك، قال لي غور يحدثني من الطائرة بأننا قد فرّطنا كثيراً، فقد شعر بأننا كنا نستطيع أن نحصل على صفقة أفضل.

لكن الرئيس كان أميل إلى الأخذ بالصفقة، ليضمها في الاستطلاعات إلى حصيلة انتصاراته، ويترك طاولة اللعب. قلت للرئيس: «لقد حققت هدفك السياسي. أما الاستمرار في التوقف عن العمل الحكومي، فسيعرضك لأخطار الردة المعاكسة في كلا المجلسين».

كان الرئيس مدهوشاً، ككل إنسان آخر في البيت الأبيض، من تنازل الجمهوريين بهذا الشكل. فما إن تم الاتفاق على عودة الحكومة إلى العمل، حتى اقترحت على جماعتنا أن نضع على الطاولة ميزانية متوازنة لسبع سنوات، تقوم على أساس أرقام وتقديرات مكتب الميزانية في الكونغرس، لتظهر أننا — حتى تحت أرضية الشروط التي وضعها الجمهوريون — قادرون على حماية برامجنا الأساسية. إلا أن الرئيس لم يتحمس وهو يسمع اقتراحي، الذي رأى فيه جورج ستيفانوبولوس، وهارولد آيسكيس، وليون بانيتا، وقبلهم جميعاً نائب الرئيس غور، خطأً قاتلاً. قال غور: «ما الذي يضطرنا إلى رمي أوراقنا الرابحة على الطاولة، واقتراح تخفيضات أكثر مما هو مفروض علينا فعلاً؟ دعونا نؤجل تنازلاتنا إلى المفاوضات».

وعلى غير عادتي بالحوار مع غور، حليفي الطبيعي، قلت: «نستطيع أن نربح الجانب الأخلاقي المثالي، حين نثبت أن الأهداف الأساسية لا يجوز تخفيضها، لا على ضوء

أرقام مكتب الميزانية في الكونغرس ، ولا مع نهاية السنوات السبع » . قال جورج إنه لا يرى كيف نستطيع تحقيق ذلك . فأوجزت له كيف نستطيع .

كان اعتراض جورج حاداً حين قال : « أرقامك كلها هراء ، أنت لا تدري عم تتحدث » . أجبته بحماس أنني حصلت على أرقامي من أليس ريغلين ، رئيسة مكتب الإدارة والميزانية في البيت الأبيض ، ولم أكن أدري أن جورج يحمل شهادة دكتوراه تخوله حق معارضة أرقامها .

وهبّت الغرفة بمن فيها جميعاً لمهاجمتي الواحد بعد الآخر ، سيتفانوبولوس ثم بانيتا ثم آيسكيس . هاجم ستيفانوبولوس اقتراحي ، أما آيسكيس فقال إنه اقتراح ينم عن عدم فهم لموضوع المفاوضات . وأشار بانيتا إلى أن الاقتراح سيقابل بالشجب والرفض من قبل جميع الديموقراطيين في الكونغرس .

قعد الرئيس صامتاً ، بينما استمر النقد اللاذع بالهطول . ثم قال أخيراً مقاطعاً الحوارات الجانبية : « لقد أثار ديك نقطة هامة جداً . فعلينا أن نثبت قدرتنا على تحقيق توازن في الميزانية خلال سبع سنوات على أساس أرقام وافتراضات مكتب الإدارة والميزانية في الكونغرس ، وإلا خسرنا القاعدة الكبيرة التي دعمتنا في يونيو / حزيران حين ألقيت خطاب الميزانية » .

وخمدت الثورة الغوغائية ، وانتهى الاجتماع بعد دقائق قليلة .

بعد ذلك أصدر الرئيس بالفعل اقتراحاً جديداً ، يحقق توازن الميزانية خلال سبع سنوات على أساس تقديرات مكتب الإدارة والميزانية في الكونغرس ، أعطاه تأييد القاعدة التي أرادها ، وأبقى الحوار والجدل حول الميزانية في إطار كيف نحقق التوازن في الميزانية ، وليس في إطار هل يمكن صياغة ميزانية متوازنة أم لا .

لكن هجوماً آخر قام به الجمهوريون في حرب الميزانية ، أدى إلى وقف العمل ثانية في الحكومة . حصل ذلك بين ١٧ ديسمبر / كانون الأول ١٩٩٥ و٦ يناير / كانون الثاني ١٩٩٦ ، وكان أكثر سخفاً من سابقه ، لأن الجمهوريين كانوا يعرفون أننا لن نتراجع ولن ننهار ، وكانوا يعرفون الثمن الذي دفعوه في التوقف الأول . معظم الناس لا ينتحرون مرتين ، لكن غينغريتش فعلها .

انتهت الورطة ، حين مزق دول صفوف حزبه وخرج على أنظمته ، ووافق على حل الأزمة بعودة الحكومة إلى العمل . هنا فقط أدرك حتى المستجدون في الحزب الجمهوري أنه قد آن أوان التراجع والانطواء .

لعله كان بوسع دول نفسه أن يوافق قبل ذلك على تسوية أكثر معقولية ومنطقية . فلولا وجود مثل هذا الشخص الواقعي على رأس هيئة الكونغرس التشريعية ، لما استطاع

الحزب الجمهوري الصمود طويلاً في مواقفه السخيفة، لكن سيطرته على الناخبين المحافظين في الانتخابات التمهيدية كانت قوية، وهذا ما أثبتته الأحداث، وكان يخشى أن يهزمه السناتور فيل غرام لو تزحزح إصبعاً واحداً عن مواقفه.

انجلت معركة الميزانية والرئيس في أحسن حال، بعد أن أثبت أنه معتدل وقوي، يقف بحزم ويواجه بحرارة. وبدأت الاستطلاعات تشير إلى تقدمه على الجمهوريين في أمرين هامين: توازن الميزانية ومحاربة الجريمة.

ونجحنا مع نهاية عام ١٩٩٥ في تنفيذ المخطط الذي كنت قد رسمته في بداية العام. الاستيلاء على مقولات الجمهوريين واحتلال المركز. هذه المكاسب مهدت الطريق أمام كلينتون لتحقيق منجزاته بعد خطابه أمام الدولة الاتحادية في نهاية يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٦.

لقد تركت معركة الميزانية الحزب الجمهوري مهملاً، ضعيفاً، متهالكاً. وانتهى العام ونحن نتقدم على دول بنسبة ٤٧ ــ ٣٨. صحيح أن تقدمنا لم يصل إلى ٥٠٪ ولم يتجاوز ثمان علامات، لكننا في النهاية عدنا إلى المسار، وصرنا في المقدمة.

لكننا، مارك بن وأنا، حين كانت معركة الميزانية قائمة على قدم وساق، كنا نخوض معركة أخرى لوحدنا داخل الإدارة، حول كيفية وصف الوضع الاقتصادي.

الديموقراطيون متشائمون بحكم العادة. فبعد اشتراكهم في سباقات الرئاسة على أساس الكوارث الاقتصادية في أعوام ١٩٨٤، ١٩٨٨، ١٩٩٢، أصبح الحزب أسيراً للتنبؤات بالقيامة. وكان الديموقراطيون يرحبون بالأنباء السيئة وينزعجون من الأنباء الحسنة، معتقدين أن الرفاه والرخاء يقضي على آمالهم في الوقوف بوجه الجمهوريين الحاكمين، الذين كانوا على العكس تماماً، يرحبون بالأخبار الاقتصادية الحسنة.

لقد ذكرني الديمواقرطيون بالكاتب اليهودي الشهير هاري غولدن الذي قال: «إذا انهار السقف، جلس المستأجرون على الأنقاض يضحكون بجنون، لأن ذلك سيسبب مشكلة للمالك».

حتى بعد أن سيطر الديموقراطيون على البيت الأبيض، ظل التشاؤم القديم قائماً، وانعكس صداه عند الرئيس حين قال في سبتمبر/أيلول ١٩٩٥ خلال دردشة مع بعض المحررين الصحفيين إن أمريكا مذعورة. وما إن سمعت بهذه العبارة، حتى أدركت أنه ارتكب غلطة تماثل الغلطة التي ارتكبها الرئيس كارتر حين قال إن أمريكا تعاني من علة مرضية، وكانت غلطة ساعدت على هزيمته فيما بعد.

حين يقول كلينتون شيئاً أساسياً وهاماً ، فهناك وسيلة واحدة تجعله يغير رأيه ، هي نتائج الاستطلاعات . ولهذا قمنا باستطلاع المواقف الأمريكية من الاقتصاد . حتى بعد أن عاد الرئيس إلى الوطن وملاحظته حول أمريكا المذعورة ، كانت أرقام الاستطلاعات بانتظار عودته .

أظهرت الأرقام اندفاعة تفاؤلية كمثيلتها التي تدفقت أيام إعادة انتخاب رونالد ريغان عام ١٩٨٤ . فقد شعر الناس أن الاقتصاد كان أفضل مما كان عليه يوم استلم كلينتون منصبه ، وأنه سيتحسن في المستقبل . الأهم من ذلك أن الاستطلاع أثبت إيمان الأمريكيين بأن المتاح لأولادهم سيكون أفضل مما أتيح لهم بنسبة ٢×١ .

أعلنت في اجتماع رسم الاستراتيجية بسبتمبر / أيلول ، الذي حدثت فيه الرئيس عن نتائج الاستطلاعات ، أننا اكتشفنا علاقة متبادلة محددة بين التفاؤل الاقتصادي وطريقة الناس في الانتخاب ، وقبل الكشف عن المعطيات ، طلبت من المجموعة مشاركتي في عرض لرفع الأيدي ، وسألت : « من يشعر بأن المتفائلين أكثر ميلاً لانتخاب دول ؟ » وارتفعت كل الأيدي في الغرفة عدا واحدة . عدت إلى السؤال : « من يعتقد بأن المتفائلين بالاقتصاد أكثر ميلاً لانتخاب كلينتون ؟ » وارتفعت يد واحدة هي يد الرئيس نفسه . وكان على حق . فقد كانت نسبة المتفائلين الذين انتخبوا كلينتون إلى أمثالهم ممن انتخبوا دول ٢×١ . ونسبة المتشائمين الذين انتخبوا دول إلى أمثالهم ممن انتخبوا كلينتون ٢×١ أي النسبة نفسها أيضاً .

بعدها ، قمت أنا ومارك بحملة للقضاء على التشاؤم الاقتصادي ، والتأكد من أن الإدارة كلها تتحدث بروح إيجابية متفائلة عن الاقتصاد وأخباره . قلت : « حين نتحدث عن أمور لا تسير بالشكل الذي نريد لها أن تسير فيه ، أو عن النمو الضعيف ، فنحن نخلق تشاؤماً لدى ثلاثة أشخاص ، اثنان منهما سينتخبان دول للرئاسة » .

وحلّ الرئيس المشكلة بإضافة جرعات متفائلة إلى خطاباته تعادل التشاؤم الموجود فيها . أما توم فريدمان ، محرري الصحفي عند الرئيس ، فكتب في تقريره أن على كلينتون أن يتحدث عن المنجزات الاقتصادية حين يريد أن يتحدث عن جمود الأجور ، والتسريح المؤقت ، وتفاوت الدخل . كنا نأخذ كل أسبوع ما قاله الرئيس ، ونقرؤه على الناخبين ، ثم نطرح عليهم السؤال الثاني ، بعد طرح الجوانب السلبية والإبقاء على الإيجابي من أقواله . ونسألهم ما إذا كانت هذه الأقوال تجعلهم أكثر أو أقل ميلاً للتصويت لصالح كلينتون وانتخابه . وبحذف الأخبار السيئة كان المعدل يرتفع عشرين درجة . كان الناخبون يصدقون الأخبار الحسنة فقط أكثر مما يصدقون الأخبار التي يختلط فيها الحسن بالرديء .

أكد كلينتون على الانتعاش الاقتصادي، وتحدث بروح تفاؤلية عن تحريك الأجور المجمدة وعن تزايد التفاوت في الدخل. ولما أكدتْ المعطيات والأرقام أن الأجور الفعلية بدأت حقاً بالارتفاع على كل المستويات، أصبح أسهل عليه أن يبدل موقفه.

لكن بعضهم لم يفهم هذه النقطة. فقد بدا بوب رايتش وزير العمل، مثلاً، كما لو أنه يتصيد الأخبار الحامضة عن تجميد الأجور، مثلاً، ويضعها على رأس منشورات وزارته في الصحف. فكنت أرسل بالمنشور إلى الرئيس، وأرسل آخر المعطيات الإحصائية عن التفاؤل الاقتصادي إلى رايتش. وفي النهاية تخلص رايتش من عقدة عشق الأخبار السيئة. وانتقلت البلاد إلى التمتع بدورة الانتعاش في عام ١٩٩٥/١٩٩٦، بعد سنين من النمو المتجمد، ولم يعد ثمة حاجة أو سبب يدفع الرئيس إلى التركيز على الضعف الاقتصادي.

الفصل العاشر

كيف أصبحت عصفوراً جثم على كتف كلينتون

التفت إليّ الرئيس محمر الوجه، ووكزني بسبابته وصاح «أنت سبب الانشقاقات هنا، أنت هو السبب منذ أن أصررتَ وألححتَ على تشغيل سكواير، وجعلت من نائب الرئيس أجيراً لك... أنت وحدك خلقتَ الانشقاق والتصدع هنا، أنت وحدك». ومضى بتشامخ غاضب ليشرف على شؤون واشنطن المسائية.

كان محقاً بثورته الهائجة عقب وقف العمل في الحكومة بتاريخ ٧ ديسمبر/كانون الأول. وكنا قد فرغنا للتو من اجتماع لرسم الاستراتيجية، فأدهشتني ثورته هذه. قلت لنفسي هو محق بأنني سبب الانشقاقات في البيت الأبيض، محق تماماً. لكنه نسي أن ما أحدثته من انشقاق كان سببه كلينتون بالذات. لقد جاء بي لنغير المسار، وننقذ مؤيديه الليبراليين الذين تعاونوا جميعاً على مدى سنتين لدفع الأمور باتجاه الهاوية. لقد قمت بما يسميه انشقاقات، لأجعله يفوز بالانتخاب.

ثمة أوان للعمل وأوان لترك العمل، وبدا كأن الأوان آن لترك العمل. ودّعتُ مارك بن، ودوغ شوين، ودون باير المدهوشين، الذين شاهدوا ثورة الرئيس الهائجة، وانطلقت إلى كونيكتيكت، مرسلاً مذكرة إلى الرئيس أعلمه فيها باستقالتي.

لقد بدأ الانفجار يتشكل ويُبنى منذ وقت طويل. فبعد اجتماعاتنا يونيو/حزيران ١٩٩٥، بانيتا وغور والرئيس وأنا، سارت الأمور على خير ما يرام. وكنا، ليون وجورج وأنا، نعمل كفريق واحد مع الرئيس ونائبه، وبدا لي وقتها أن هذه هي الطريقة التي يجب أن تدار بها الأمور في البيت الأبيض. فكنا نزود الرئيس جميعاً بنصيحة واحدة، هي أن يصمد بحزم في موضوع الميزانية. وكنت أتمنى لو أن هذا التناغم المتوافق استمر إلى الأبد.

كان يجدر بانتصارنا في معركة الميزانية وبمكاسبنا فيها، أن ترسخ هذا التكاتف والاتحاد بين مساعدي وموظفي البيت الأبيض، لولا أن تأثيرها كان معاكساً تماماً، فقد وجد

خصومي فيها فرصة للتخلص مني ، بعد أن لم يعودوا بحاجة إليّ في جعل كلينتون يقاوم ميزانية الجمهوريين المقترحة . وها هم الآن قد أعدوا العدة للدفعة الأخيرة .

لماذا ؟ لأنني أظل في نظرهم ، بغض النظر عن التعاون وحسن الأداء ، دخيلاً غريباً على عملهم ، مثل دافيد غيرغين وماك ماكلارتي وميكي كانتور وإيلي سيغال . وعليّ أن أمضي مع الشلال إلى حيث مضى أولئك من قبل .

بدأت أرى بوادر تدل على أن هارولد آيسكيس يرسم بعض المشاكل . وأخبرني أصدقائي في نيويورك بأنه أعلن متباهياً « سيتم طرد موريس بحلول عيد الميلاد » . فقام أحد المحررين من الواشنطن بوست بالحصول على فاتورة من بار فندق جيفرسون ، كنت قد طلبت تسجيلها على حساب الحملة الانتخابية . أنا لا أحول عادة فواتير البار على حساب الحملة ، وألتزم تماماً بقاعدة عدم استرداد ما أدفعه على المشروبات الكحولية . وإذا حصل ذلك ، فالوحيد القادر على اكتشافه هو شخص يضبط حسابات وسجلات الحملة الانتخابية ، وهو الوحيد القادر على تسريب مثل هذه القصة . وكانت هذه الحسابات والسجلات تحت إشراف آيسكيس المباشر بالذات .

وفجأة ، اندلع الصخب في الصحافة بفضح مواردي المالية الخارجية ، التي لا أستطيع كشفها لأن اسمي ليس وارداً في جدول الرواتب العام ، وليس لدي بطاقة تخولني الدخول إلى البيت الأبيض . لكن سلفي في الخدمة جيمس كارفيل ، الذي كانت لديه بطاقة دخول ، كان قد ملأ بياناً وكشفاً مالياً ، فاعتبر مجلس البيت الأبيض ذلك قاعدة ألزمني بها .

في البداية أصلاً ، طالب مكتب المجلس بأن تقدم زوجتي أيضاً بياناً مالياً مماثلاً ، إلا أن إيلين رفضت قائلة إنها لا تعمل عند كلينتون ، وليست مجبرة على ملء بيان مالي لمجرد أن زوجها يعمل عنده ، قالت : « أنا لا أعمل عندهم ، وليس من شأنهم أبداً أن يعرفوا من هم زبائني ، وكم أتقاضى منهم » . وحين أحس مكتب المجلس أنها لن تتزحزح ، ولم يشأ أن يجعل من الموضوع قضية عامة ، فقد تراجع واكتفى بأن طلب مني أنا فقط ملء البيان . ورغم أن اسم البيان هو « استمارة بيان سري » ، فقد تم توزيعه فوراً على الصحافة ، استثناء من كل بيانات المستشارين الآخرين .

يكشف البيان الذي قدمته ، من ضمن ما يكشف ، أنني أجّرت خبرتي الاحصائية لتوم بوتشيو ، وهو محامي دفاع يمثل شاباً من كونيكتيكت اسمه أليكس كيلي ، اتهم بالاغتصاب منذ عشر سنوات ، ويتم النظر في قضيته تحت حراسة مشددة ، بعد أن هرب وعاد بعد عشر سنوات ليسلم نفسه . فأظهرت استطلاعاتي أنه لن يحصل على الأرجح على محاكمة عادلة في ستانفورد ، واقترحت مدينتين أو ثلاث مدن في ولاية كونيكتيكت تجري

المحاكمة في إحداها ، حيث لا أحد هناك يعرف شيئاً عن القضية . وكتبت ما وجدته في تقرير رفعته إلى المحكمة ، أوصيت فيه بتغيير مكان النظر في الدعوى . فاعتبرت حملة دول الانتخابية مذكرتي تلك « دفاع عن مجرمي الاغتصاب » وحملت بعض عضوات الكونغرس الجمهوريات الصحافة على التنويه والاشارة إلى تورطي في تلك الحادثة ، لكن كل ذلك لم يؤثر عليَّ كثيراً . فأولاً ، لا يجوز تسمية كيلي مغتصباً إلا إذا حكم المحلفون بأنه كذلك . ثانياً ، أنا لم أحاول تخليصه من ورطته ، كنت أحاول فقط أن أبين أنّ على الدولة نقل النظر في الدعوى إلى مكان آخر ، يحصل فيه كيلي على محاكمة عادلة . ومثل هذه الافادات مقبول في المحاكم ، ولم أكن أتصرف بشكل غير عادي .

ثمة أمر آخر مزعج حدث في هذه الحملة الانتخابية ، من أكثر ما حدث إزعاجاً على الإطلاق ، أثاره ما تسرب إلى آن ديفروي ، مراسلة الواشنطن بوست في البيت الأبيض . فقد زعم المسربون أنني استأجرت أفلاماً إباحية في غرفتي بالفندق ، وحولت فاتورتها على حساب الحملة الانتخابية . سألتني ديفروي عن الموضوع ، وقالت إنها حصلت عليه من مكتب الحسابات في الحملة . لكن فواتيري لا تتضمن أية أجور لأية أفلام من أي نوع كان . وزودتها بنسخ طبق الأصل عن كل فاتورة قبضتها من الحملة الانتخابية ، وطلبت من مدير فندق جيفرسون أن يؤكد أنني لم أستأجر أي فيلم أبداً .

وافترضت تخميناً أن التسريب كان جزءاً من مخطط إساءة موجه ضدي من قبل هارولد آيسكيس وجيمس كارفيل مستشار كلينتون عام ١٩٩٢ .

كان جيمس يحمل لي الامتنان لتوصيتي كلينتون به ، وكنا على ود خلال أول سنتين من رئاسة كلينتون . في عام ١٩٩٣ شكوت له الدور الكبير الذي يلعبه الليبراليون في البيت الأبيض فأجاب « الليبراليون كطوفان الماء المخرب ، يغرقون في سيلهم كل الأنحاء » .

وكنت أستشير جيمس دائماً خلال شهور الهزيمة في عام ١٩٩٥ . قال إنه على استعداد ليقوم بأي شيء لصالح الرئيس ، حتى وهو خارج لب الحملة . وطلب مني ألا أمانع اشتراكه بدور مع مجموعة رسم الاستراتيجية ، لعله يستطيع تخفيض التكاليف والأجور كما كان يفعل حين كان قريباً من المركز .

وجدت نصيحة جيمس جيدة ومفيدة . لكنني قطعت لقاءاتي المنتظمة المتكررة معه بعد أن ارتبت بأنه وراء بعض الأخبار الصحفية التي تسيئ إلي ، فقد أخبرني أحدهم ، مثلاً ، أنه شاهد كارفيل يتغدى مع ديفروي قبل يوم من انتشار القصص المخزية المؤذية ، وقيام زوجته الجمهورية ماري ماتالين باتهامي علناً في الإذاعة بأنني أستأجر الأفلام الخليعة الاباحية . فهذا شأن كارفيل دائماً حين يريد فرك أنف أحد الديمقراطيين أمثالي ، فهو يدفع

زوجته لتقوم بذلك نيابة عنه . أو لعله كان يرد إليها جميلاً أسدته إليه ، شأن الاتفاق مع إدغار بيرغن وتشارلي ماكارثي .

هذه الهجومات المركزة المستمرة كانت تتعبني . ثم انضم الجمهوريون إلى الهجوم ، تواقين إلى إبعادي عن حملة كلينتون الانتخابية ، وهو ما يسعى إليه آيسكيس . وشعرت بالفخر لهذا التقدير الضمني ، الذي يعني أنني أقوم بإنجاز جيد إلى جانب كلينتون ، لولا أن تكتيكاتهم كانت تبدو أحياناً غير محبوكة وكأنها من عمل هواة . ففي يوم جمعة (طلائعهم الهجومية تظهر عادة في الساعة ١٥ من أيام الجمع) اتصلت ديفروي بي لتقول إن أليكس كاستيلانوس ، وهو جمهوري يعمل في الإعلام ، أخبرها بحديث مسجل أنني حين كان كلينتون حاكماً ، كنت أقود له النساء كلما جاء لزيارة نيويورك . وزعم أليكس أنني أخبرته شخصياً بقيامي بتوصيل النساء إلى فندق والدورف أستوريا . كانت قصة طائشة متطرفة ، ليس ثمة ما يسندها في الواقع على الإطلاق . فعرضت عليها أن أخضع لفحص كاشف الكذب ، لأثبت عدم صحة القصة ، وزودت ديفروي بما يثبت أن كلينتون نادراً ما نزل في فندق والدورف أستوريا حين كان حاكماً ، وأنه ينزل عادة في ضيافة أصدقائه . ولما كانت ديفروي محررة مجتهدة وصادقة في تعاملها معي ، فلم تنشر القصة .

رغم كل محاولات تشويه سمعتي ، ظل الأمر مقبولاً عند البيت الأبيض ، بفضل رجل واحد هو إرسكين بولز . فقد ساعدني إرسكين صديقي الحميم وأستاذي في القضايا المكتبية الروتينية على أن أتفادى الصراعات الداخلية في البيت الأبيض . اعتدت أن أقول : هناك مساعدان لرئيس طاقم الموظفين عند كلينتون ، أحدهما مهمته أن يجعل حياتي تسير هو إرسكين بولز ، والآخر مهمته أن يحولها إلى جحيم هو هارولد آيسكيس . لكن بولز قدم استقالته في هزيمة عام ١٩٩٥ ، وقبل بتمديد فترة بقائه بناء على طلب الرئيس كلينتون بالذات .

حين كان أرسكين يتهيأ لمغادرة واشنطن في نهاية عام ١٩٩٥ ، كان آيسكيس يخطط لحركة ضدي ، بعد أن أوشكت على أن أفقد حليفي الوحيد . توقعت أن يستبدل بولز بآخر يتعاطف مع وجهة نظري ، فبقائي يتوقف على هذا ، إلا أن ذلك بدا غير مؤكد . لقد رمى آيسكيس ضاغطاً بثقله لتغييب رأي هذا المساعد «الآخر» لرئيس الموظفين ، بعد أن استلم هو منصب المساعد الأول ، تاركاً لذلك الآخر مهمة مساعدة بانيتا فقط . بعد ذلك أراد ستيفانوبولوس المنصب ، وطلب مني أن أدعمه في هذه الترقية ، فرفضت ، لأن جورج كان زميلاً غالياً ، لكنه ليس حليفي ، وكلانا يعرف ذلك .

في أواخر نوفمبر/تشرين الثاني، حين سمّى الرئيس إيفلين ليبيرمان، معاونة وزير الصحافة سابقاً، خلفاً لبولز، أصابني ذهول شديد. إذ لم يكن بيني وبينها أي تفاهم من أي نوع، وكان عندي انطباع بأنها من المقربين إلى آيسكيس. (علمت مؤخراً أنها من المقربين إلى هيلاري دون سواها). وفي الواقع، فقد تحولت إيفلين لتصبح عوناً لي في معظم الأحيان، إلا أنني في نوفمبر/تشرين الثاني لم أكن أعرف شيئاً من هذا. كل ما كنت أعرفه أنها ليست إرسكين بولز، وليس من المرجح أن تكون حليفة لي في الأمور الدقيقة والهامة.

ثم علمت أيضاً أن الخطط قائمة على قدم وساق لتسمية كيفين ثورم مديراً للحملة، وهو من أزلام آيسكيس — حسبما قيل لي — ورفيق غرفة لجورج أيام الدراسة في الجامعة. وبهذا بدا وكأن الطوق حولي قد اكتمل.

وسرعان ما تم الإعلام عن تسمية إيفلين ليبرمان قبل بدء اجتماعنا الاسبوعي لرسم الاستراتيجية في قاعة الخرائط من قسم السكن في البيت الأبيض. وسار الاجتماع بشكل حسن، ولكنني قبل انتهائه، سلّمت الرئيس مذكرة غاضبة تقول «أنا لا أفهم كيف تتوقع أن أقوم بمهمتي، وأنت تعيّن أناساً يحملون وجهة نظر تعارض تماماً وجهة نظرك ووجهة نظري على الصعيد الاستراتيجي والسياسي». هذه المذكرة هي التي أثارت عاصفة غضب الرئيس.

بعد أن شفيت من لدغة الرئيس غير المتوقعة في ثورته الهائجة عام ١٩٩٥، عدت أتأمل كلماته. ولم أستطع أن أفهم اتهامه لي بأنني جعلت من نائبه غور أجيراً عندي. الصحيح أنني عملت مع غور جنباً إلى جنب، وكنت في بعض الأحيان أبدو أجيراً عنده، لكن العكس ليس صحيحاً بكل تأكيد. لعل الرئيس كان يشير إلى اتكائي الدائم على نائب الرئيس لتمرير آرائي ووجهات نظري خلال اجتماعهما أسبوعياً على الغداء. وأصبح من الواضح أنه غضب من طريقتي في التأثير عليه.

كان صحيحاً — كما قال الرئيس — أنني قاتلت طويلاً لاستخدام سكواير في تنفيذ اعلاناتنا. وأنا سعيد بذلك. لأن تلك الاعلانات هي التي دفعت بنا على مشارف النصر. لقد قادت أفكاره إلى التصدع، لكنه تصدع غير معدود في ثورة الرئيس الهائجة التي تضمنت معارضة كلية لوجهة نظري في عملية البيت الأبيض.

في الساعة الحادية عشرة ليلاً من يوم ٧ ديسمبر/كانون الأول، وبعد عدة ساعات من عودتي إلى كونيكتيكت، اتصل بي الرئيس ليعتذر، ودهش حين علم أنني وصلت إلى البيت في العاشرة قال: «بهذه السرعة؟». فقلت: «كل شيء ممكن حين يريد المرء فعلاً أن يخرج من تلك المدينة الملعونة» جلست إيلين بجانبي وأنا أفرغ ما بجعبتي على الرئيس. لم

يسبق لي أبداً أن قضيت مثل هذا الوقت الطويل في مضايقته بالتذمر من موظفيه ، لكنني في هذه اللحظة فعلتها .

قبل شهور طلبت النصيحة من دافيد غيرغن مستشار البيت الأبيض حول السياسات هناك . كان غيرغن يتطلع إلى تحريك إدارة كلينتون أكثر فأكثر باتجاه المركز خلال فترة عمله القصيرة مع البيت الأبيض عامي ١٩٩٣ ، ١٩٩٤ ، ثم أُخرج عنوة على يد عدد من ذات الأشخاص الذين يقومون بذات الدور معي . قال غيرغن : « لم أشتك أبداً للرئيس عما كانوا يفعلونه معي . واعتبرت أن من واجبي ألا أضيع وقته بالشكاوي . لكنني أدركت الآن أنه كان يجدر بي حمل موضوعي إليه مباشرة » . ولقد عملت بنصيحة غيرغن .

بدأت قائلاً : « ثمة معسكران أساسيان في بيتك الأبيض ، الديموقراطيون الجدد والديموقراطيون القدامى حراس المعبد . وإذا لم تفهم ما أقصد ، فأنت الوحيد في واشنطن الذي لا يعرف هذا الأمر » . تظاهر كلينتون بالجهل ، فقلت : « لا أستطيع أن أصدق أنك لم تر ذلك بنفسك ، ومع ذلك دعني أوضح لك ما يجري » ومضيت أصف له حلم الليبراليين بالعودة إلى الوضع القديم ، حرب ديموقراطية ــ جمهورية على أساس صراع طبقي ، وبمعاداتهم وحقدهم على طريق ثالثة معتدلة جديدة . وحكيت له عن مخططات آيسكيس اليومية لتشويه سمعتي وتدميري ، والفضل لبولز وحده في جعل الوضع محتملاً ومقبولاً ، لكنه استبدل بشخص لا يصاحبك في أيام الصحو ، ويعاديك في أيام العواصف .

قال كلينتون إنني أسيء الحكم على ليبيرمان ، ويجدر بي أن أمنحها فرصة . قال : « من الواضح أنني أثق بك ، ولهذا فأنا أوكل أمر الحملة اليك » .

وتخيلت ، وهو يشرح مشاعره ، كأن يده الطويلة تحيط بكرة زجاجية أمامه يرى فيها الغيب . قلت له إنني تارك الحملة لا محالة مالم يتركني هو أساعده على الفوز بالانتخاب ، ثم أضفت مؤكداً « سأهجر مقام السلطة هذا ، قبل أن أرى هؤلاء يجرونك إلى جحر الأرنب الذي جروك إليه قبل قدومي . إنهم ذات أولاد العاهرة الذين أفسدوا برنامجك لإصلاح الرعاية الصحية ، والذين سيطروا على انتخابات الكونغرس عام ١٩٩٤ ، فإذا أردتهم فخذهم ، وشأنك وما تريد » .

قال الرئيس إنه يريد بقائي ، وأن علينا أن نبحث سريعاً عن طريقة لتحقيق ذلك . وشعرت بالدهشة والريبة من أن يكون الشقاق والنزاع القائم في البيت الأبيض جديداً على كلينتون . وهو الذي لا أحد يضارعه في حدة إدراك ما يدور حوله ، ويعرف ما تنويه قبل أن تفعله . المهم في الموضوع أنني كشفت له عن المسألة برمتها وأجبرته على التفاوض معي . ووافقت على العودة .

في اجتماع تال ، قال كلينتون إنه أخبر إيفلين ليبيرمان بأن أول مهمة لها ، إنهاء الشقاق والنزاع الحزبي . ولهذا ، بدأ اهتمامها بي . وأرادت معرفة كل شيء عني ، وعن جهازي الهضمي ، وصحة كلبتي ، ولوازمي المكتبية ، وأي شيء يحقق تكليف الرئيس . كانت لطيفة ولكن دون سلطة أو نفوذ .

لسوء الحظ ، قليل هو الذي تغير بالفعل في البيت الأبيض . ففي أوائل ديسمبر/كانون الأول ، أخبرت إرسكين بأنني سأرحل بعد خطاب الرئيس أمام الدولة الاتحادية . وكان آيسكيس ما زال يحاول إحباط كل حركاتي . فطلبت من إرسكين أن يخبر كلينتون بأنني « لم أقم بتسريب أية قصة تسيء إلى آيسكيس أو تؤذي الرئيس وتحرجه . وأنني سعيد بنشر مضامين رسالة الرئيس وفكره ، تاركاً لآيسكيس الجوانب التطبيقية » .

وقام بولز بتوصيل الرسالة ، التي أصبح معها كلينتون منذ ذلك الحين أكثر انفتاحاً علي وتواصلاً معي . فبدلاً من تبادل الأحاديث خمس مرات في الأسبوع صرنا نتحدث عدة مرات في اليوم . وصار يجيب على مخابراتي بعد عشر دقائق بدلاً من أربع ساعات . أخبرني بولز أن كلينتون قال إنه إن لم يستطع تغيير طاقم موظفيه ، إلا أن تواصله معي يثبت تقديره لي .

لم يتم تعيين كيفين ثورم ، وحاولت ليبيرمان أن تجعل من نفسها الوجه الانساني الوحيد في الطاقم ، ومع ذلك فقد كان من الواضح أن عليّ وضع حد لتصرفات آيسكيس العدوانية .

اعتمدت في تحقيق ذلك على نصيحة لشارل ديغول ، الذي كان يعتقد بأنه حين تضعف إمكانية الدفاع عن موقع أنت فيه ، فعليك مغادرته قبل أن تجبر على ذلك . كان ديغول يرى في الاستقالة سبيلاً من سبل القوة . إن أعطت جدوى فبها ونعمت ، وإن لم ، فالخروج يحفظ عليك كرامتك ، ويتيح لك أن تعود إلى المعركة في يوم آخر . هذا هو سبب استقالة ديغول وهو في أوج سلطته وسلطانه ، حين رأى أن انكساره أمر محتوم . قال « لقد قررت أن أنسحب من أرض المعركة والأحداث ، قبل أن تنسحب هي مني » .

إذا رأيت أن السقوط والهزيمة أمر محتوم لا يمكن تفاديه ، فقدم استقالتك وأنت قوي ، ولكن إحذر أن تتراجع عنها . تهيأ للانسحاب في وقت ما زلت تملك فيه السلطة والمصداقية .

اتصلت بالرئيس في أوائل يناير/كانون الثاني قائلاً « لقد أمضيت وقتاً طيباً بالعمل معك ، وأنا فخور بما حققناه في عام ١٩٩٥ ، فقد كان عاماً رائعاً بالنسبة لي ، لكن الحين قد حان لأنسحب ، وأترك لهارولد أن يأخذ بيدك فيما بقي من الدرب » فقال « لا ... أنا بحاجة إليك ، وبحاجة لبقائك ، فقد تحصل أمور كثيرة في عام ١٩٩٦ » . قلت « صحيح ، لكنها ستحصل بغيابي ، ولن أكون السبب فيها » .

وفهم الرئيس لعبتي . لكنه أدرك أنني جاد بقولي إن لم تتغير الأمور . فأبلغت جماعتي من المستشارين أن عليهم أن يستقيلوا معي ، لتكون الفرصة كاملة أمام آيسكيس لخوزقة الحملة كلها . ووافقوا على اللحاق بي .

كان تهديدي واضحاً وخطيراً . وكان على الرئيس أن يفهم أنني مستعد لترك مكاني على الطاولة بما عليها من أموال قبل التوزيع ، ولترك العمل قبل توزيع الرواتب في عام ١٩٩٦ . وكنت آمل بأن يدرك الرئيس أنني أتخلى عن مركزي وسلطاتي مرغماً ، لأنني أريده أن يفوز . كانت استقالتي ، بتعبير آخر ، البرهان الأخير على إخلاصي له وإيماني به .

ثم جاءت إيلين لتلقي الضوء على نقطة أصبحت مركز المحور في علاقتي مع الرئيس ، فقد سبق لها أن درست علم النفس ، وما زالت اهتماماتها به واسعة . ولاحظت ميلي إلى إقامة علاقات تكافلية تكاملية مع الرئيس ، واعتقدت أنني وكلينتون نمثل حالة من هذا النوع ، وأن علاقتي بكلينتون لم تكن عادية . فأنا أتصل به وأنصحه ، وأترك له حرية الأخذ بنصيحتي إن وافق عليها ، وأشترط أن تكون علاقتنا سرية .

قالت « من الواضح أن غضبه يثور كلما أصبحت معروفاً ومشهوراً ، وكلما ضعفت قواعد السرية في علاقتكما . إنه يعرف تماماً أن ايسكيس لن يستطيع إدارة الحملة ، وقد اعترف لك بذلك . لكنه يستخدم آيسكيس وسيلة للتعبير عن غضبه عليك لخروجك عن قواعد السرية والتكاملية ، وهذا ما يمنح آيسكيس قوة وسلطة » .

هذه النظرية الرائعة التي تجمع الفرويدية والميكافيلية ألقت الضوء أمامي ، وكشفت السر في علاقة عشتها مع كلينتون على مدى عشرين عاماً . كانت نصيحة إيلين « ذكّره دائماً بقدرتك على ترك الحملة . فأنت لا تستطيع أن تعمل ضمن هذه الظروف » وكانت على حق . فقد أثرت حرب الغوريلا هذه على صحتي وقدراتي الجسدية والفكرية ، وصرفني الصراع مع آيسكيس عن التركيز على الجمهوريين . وتحول الموضوع لدي ، كما يتحول التلبك المعويّ في الجهاز الهضمي إلى مرض خطير قد يؤدي إلى الموت إن لم يعالج بحزم ، فأصبحت أعاني من نوبات ضعف معوي تهددني مرة كل شهر . ثم ساءت حالتي ، وقررت إجراء عملية جراحية بعد خطاب الدولة الاتحادية في أواخر شهر يناير/كانون الثاني . وهذا وضع لا يمكن الاستمرار فيه .

وقدمت لي إيلين حلاً في نصيحتها الثانية « أظنه يريدك أن تفهم أنه يود المحافظة على علاقته التكاملية معك ، فاقبل ذلك والتزم به . أنا أعرف أنك قضيت عمرك متجنباً علاقات التكامل هذه ، لاعتقادك بعدم جدواها ، ومع ذلك فالأفضل لك هنا أن تقبلها . إنها ما يرغب هو به . فأعطها له » .

ذكرتني إيلين بالسعادة التي كانت تغمرنا، كلينتون وأنا، ونحن نعد خطاب الحكومة الاتحادية عام ١٩٩٥، قالت «هذا ما يريده كلينتون، أن تعمل معه بصمت، وتربط نفسك به مباشرة، وتقف إلى جانبه وليس أمامه أو خلفه. إنه لا يريدك أن تعمل مع موظفيه أو أن تشتهر عند الصحافة» ونصحتني بالابتعاد عن اجتماعات الموظفين في البيت الأبيض «إنها مجرد مضيعة للوقت، فهم يحذرون طاقم الموظفين سلفاً من أفكارك، وهذا يعطيهم وقتاً كافياً لتدميرك، ولتسريب ما يريدون إلى الصحف، وأخيراً إفساد علاقتك بالرئيس.

بتجنب طاقم موظفي البيت الأبيض، وبالعمل مع الرئيس حصراً، كان بوسعي إنجاز الأمور دون هزات وانفعالات عاطفية.

وعملت بنصيحتها. ففي منتصف يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٦، دخلت إلى المكتب البيضوي لمقابلة هامة مع الرئيس. كان جالساً خلف مكتبه على كرسي منخفض الظهر، أعلى قليلاً من الكراسي التي نراها عادة في المطبخ، وبدا عالياً كالبرج فوق الكرسي، وفوق المكتب، وفوقي. فأخذت لنفسي كرسياً مثله يبعد عنه حوالي ١٢٠ سم. كنا وحدنا، وبينما هو يتأملني متفحصاً، دخلت مباشرة في الموضوع قلت «لقد فهمت منك منذ أسبوعين أمرين(*). الأول، أنك عينت موظفيك لاعتبارات تنظيمية، وسمّيت لحملتك الانتخابية أناساً، لا يعارضون ايديولوجيتي واستراتيجيتي أنا فقط، بل ايديولوجيتك واستراتيجيتك أنت أيضاً. أناساً أرادوا تدميري، أناساً سيحاولون في اللحظة التي تدير فيها ظهرك أن يسيروا بالحملة في عكس الاتجاه الذي جئت بي لأسيرها فيه» حاول الرئيس أن يعترض لكنني قلت «أرجوك، دعني أكمل» ثم تابعت «إنهم نفس الأشخاص الذين وقفوا ضد «العقد مع أمريكا» في عام ١٩٩٤، رغم أنك لم تطلب منهم ذلك. نفس الأشخاص الذين كان المفروض أن يساندوك صفاً واحداً في مسألة الرعاية الصحية لكنهم لم يفعلوا. نفس الأشخاص الذين قالوا لك ألا توافق على تقديم ميزانية متوازنة. فهل أنت بحاجة ليضللوك للمرة الرابعة؟ أنت تفتح معي نوافذ للتواصل أعرض من شارع الشانزليزيه بباريس، فماذا أفعل بها؟» وظل الرئيس صامتاً وهو يتطلع إلي بفضول، ويتعجب إلى أين سأصل. وتابعت «أظن أنك تطلب مني أن أفهم أنك لا تريدني لادارة طاقمك أو جماعتك في الحملة. أنت تريدني فقط أن أقوم بالاعلان والاستطلاع. لقد عينتَ باير لتمكنني من الاطلاع

(*) يتحدث المؤلف في هذه الفقرة عن أمر واحد فقط، ولا ندري ما هو الأمر الثاني. فرأينا التنويه حتى لا يسيء القارىء بنا الظن. — المعرب —

على خطاباتك والعمل فيها . أما عدا ذلك فأنت لا تريدني فرداً من أفراد الطاقم أنصرهم عليك » وهز الرئيس برأسه موافقاً على هذا التحليل .

كان كلينتون من الذين يتركون مسافة بينهم وبين موظفيهم . ويتخذون قراراتهم بأنفسهم . إنه بطبعه انبساطي ثرثار ، لكنه في البيت الأبيض يدرب نفسه على أن يكون انقباضياً . كالأعسر الذي يدرب نفسه على رمي كرة البايسبول بيده اليمنى . ويعمل حسب قناعاته الخاصة . ويراوغ ويتملص . وقد يحضر اجتماعات بكاملها لا يقول فيها حرفاً ، ويترك الآخرين يتكلمون ووجهه كوجه لاعب البوكر ، ويودع زواره دون أن يترك عندهم أي انطباع بما ينوي أن يفعل . نفس النظرة الجوفاء الجامدة التي لا تحمل أي معنى . كان كلينتون لا يثق بأحد .

أشرت إلى كتفه الأيسر قائلاً : « أنت تريدني أن أجلس هناك ، على كتفك الأيسر ، كالعصفور ، لأهمس في أذنك أربع خمس عشر مرات يومياً . فإذا أعجبك ما أقول ، طبقته على موظفيك ، وعلى حملتك الانتخابية ، وعلى صَفقاتك مع الكونغرس ومع مجلس الأمن القومي » .

ابتسم ابتسامة عريضة وقال « ها أنت ذا قد فهمت . أنا آخذ ما يعجبني وأترك ما لا يعجبني ، وأريد أن تدع لي أمر الانتقاء ، فلا تفرض علي شيئاً . وحاول أن تعمل من خلالي » .

أنا لم أكن ذا ثمن بخس . فهو يطلب مني صادقاً أن أعبر المسافة التي يضعها عادة بينه وبين كل الذين يعملون معه ، وبالمقابل ، أن أتجاهل النظم المرعية في البيت الأبيض وأعمل من خلاله . هذا ما كان يحاول أن يجعلني أفهمه بمساندته لآيسكيس ، وتركه يملأ البيت الأبيض بموظفين من جماعته . إنه لا يريدني على إدارة الطاقم . ولا جزءاً منه . إنه يريدني أن أعمل له فقط .

للرئيس عادة أسلوب خاص به في ضبط الأمور والسيطرة عليها ، فهو يعين الأشخاص الذين يرجح عدم صلاحيتهم . فالنزاع بين أفراد الطاقم يصقل الخيارات ويعددها . أما الطاقم المتناغم غير المتنافر من جهة أخرى ، فسرعان ما يقع في أحضان البيروقراطية ، حيث كل فرد فيه يحذو حذو الآخر ، إنما بالاتجاه الغلط .

وكنت قد أخبرت الرئيس أنني لا أستطيع أن أكون جزءاً من هذا النزاع . ولا أستطيع دخول معركة على كل قضية ، وأنني أفتقر إلى المزاج القتالي وإلى القدرة على الاحتمال . هنا قرر الرئيس أنني لم أعد بحاجة إلى إرهاق نفسي بمصارعة الطاقم في الحفر الطينية . علي أن أهمس

في أذنه فقط ، بعدها سيناقش نصائحي بينه وبين نفسه ، وقد يجد أنه يستطيع السيطرة على الأمور دون حاجة إلى معارك ومصارعات على الحلبات الطينية .

هذا الترتيب ناسب بانيتا ووافقه ، فقد تعود على أهواء الرئيس ، واعتبر أن من واجبه ، بل مما يشرفه ويسعده ، أن يرضيها وينفذها ، فهذا معنى أن تكون رئيساً لطاقم الموظفين . إن من واجبه أن يحل شيفرة الإشارات التي ترده من الرئيس ، ويعتمدها في رسم صيغة يفهمها أفراد الطاقم ، وليس بحاجة وهو يفعل ذلك أن يقلق على رغباتي ويراعيها .

منذ ذلك الحين وصاعداً ، سار كل شيء على ما يرام . فانسحبت تماماً من معارك البيت الأبيض الداخلية ، وتوقفت عن حضور الاجتماعات ، ماعدا اجتماعات رسم الاستراتيجية أسبوعياً . لا بل تركت لبانيتا أو لآيسكيس أمر إخراجي كلياً من الدائرة . باختصار ، انسحبت إلى داخل عالم خاص بي ، هو عالم الهمس من فوق كتف الرئيس .

في البداية ، ظن بانيتا وآيسكيس وستيفانوبولوس وآخرون أنهم قد تخلصوا مني ، لكنهم سرعان ما أدركوا أننا ، الرئيس وأنا ، نشكل فريقاً واحداً . قلت لجماعتي من المستشارين « طاقم البيت الأبيض يشبه القمر ، الذي لا يستطيع أن يشع بالنور من دون أشعة الشمس ، الرئيس في حالتهم . وإذا لم تنعكس عليهم أشعته ، فلن يعرف بوجودهم أحد . ثمة خوف ثابت دائم عند كل طاقم رئاسي ، هو أن يفقد رئيسه . رغم أن رئيسه هذا مخلوق مراوغ محيِّر ، يأتي إلى الاجتماعات ، فلا يحدثك عما يفكر به ، ولا يقول لك ما إذا كان يتفق معك بالرأي أم لا ، ولا يقاتلك وجهاً لوجه ، إنه فقط لا يتواجد حيث تتوقعه أن يكون » .

كنت في ضوء الترتيبات الجديدة ، إذا لم يعجبني الخطاب الذي وضعوه ، أكتب مسودة خطاب آخر ، وأعطيها للرئيس ليفعل بها ما يشاء . وإذا لم أوافق على ما أرادوا للرئيس أن يقوم به في الأسبوع التالي ، أعطيت الرئيس خططي واقتراحاتي البديلة . وبدأ الطاقم ، وعلى رأسهم جورج ، يفهم اللعبة تدريجياً . وأخذوا يلتزمون بتدقيق الأمور معي قبل البدء بها أو تقديمها . وكنت عادة أقول ما أعتقد ، دون أن أدفع جانباً أو أرجح آخر . فإذا لم أوافق على المطروح ، ذهبت إلى الرئيس .

في نفس الاجتماع بالمكتب البيضوي الذي ناقشنا فيه ، الرئيس وأنا ، علاقتنا ومستقبلي معه ، حدد الرئيس موقفه من غور . فقد شعر بدون شك بالانزعاج بعد اتهامه لي بأنني جعلت من نائب الرئيس أجيراً عندي ، وقال « أريدك أن تعرف فقط أنني سأعمل دائماً وبشكل متواصل لأتأكد من أن آل غور سيفوز بترشيح الحزب الديموقراطي له للرئاسة في عام ٢٠٠٠ ، دون أن يخوض انتخابات تمهيدية إن أمكن » .

علقت قائلاً إن أيزنهاور في عام ١٩٦٠ قضى على نيكسون ، ونشره كالثوب حتى جف ، حين سئل في مؤتمر صحفي عما إذا كان نائبه قد أسهم إسهاماً فعالاً في أي من قراراته التي اتخذها كرئيس ، فأجاب آيك ، لو أعطيتموه مهلة أسبوع ، لتوصل حتماً إلى قرار من هذا النوع . فقال كلينتون باسماً ثم ضاحكاً « أظن أن ذلك أساء إلى نيكسون » .

بعد ذلك ، قدم الرئيس إلى غور رمزاً آخر من رموز تقديره له ، بتعيين مدير موظفيه السابق بيتر نايت مديراً للحملة الانتخابية ، معطياً بذلك لنائبه حق الهيمنة على الحملة ، كما أعطاني في الوقت نفسه ما تقت إليه طويلاً ، مديراً للحملة ليس ألعوبة في يد آيسكيس . لقد أعطاني الرئيس هذا المدير بعد أن صرت لاعباً في فريقه ، وليس عضواً في الطاقم يحاول توزيع الأحاديث الصحفية .

حين أعدت كلمات الرئيس على مسامع غور ، وهو ما أوحاه لي كلينتون أن أفعله ، قال نائب الرئيس في مرح عابث « هل قال ذلك فعلاً ؟ يا للعجب !! » .

قبل نهاية اجتماع المكتب البيضوي ، قلت للرئيس إن لي طلباً هاماً : هو تسمية شخص من جماعتي يرافق طائرة الحملة ، أستطيع عن طريقه تمرير رسائلي إلى الرئيس وهو في الجو ، دون مخاطرة الحديث على هاتف الطائرة المشترك .

حين كان الرئيس في البيت الأبيض ، لم يكن الاتصال مشكلة على الإطلاق . إلا أننا بمضي الوقت ، أصبحنا كثيراً ما نتحدث طويلاً على الهاتف كل ليلة . في النهار ، كان بوسعي أن أرسل له ثلاث أو أربع مذكرات مختصرة ، توضع مباشرة على مكتبه عن طريق نانسي هنريتش أو بيتي كوري ، اللتين تجلسان على باب المكتب . وكلتاهما تعرف مدى صعوبة الاتصال بالرئيس ، فتبذل وسعها لتسهيل أمر اتصالي به .

غالباً ما كانت رسائلي تتعلق باجتماع معقود قائم ، فكانت الرسالة تدخل إليه وهو في الاجتماع . فأحذره ، مثلاً ، من حركة يقوم بها أحد المشاركين في الاجتماع ، تعاكس أهداف الرئيس واهتماماته . أو أذكّره ، مثلاً ، بالضغط على أحد المجتمعين معه ليتحرك في اتجاه معين كنا قد رسمناه معاً على الهاتف في الليلة الفائتة . كانت هذه الرسائل واضحة مباشرة ، كما أريد لها أن تكون ، ذلك لأننا متفقون على أن لا أحد غير الرئيس نفسه يمكنه الاطلاع عليها ، وهذا ما أراده هو لها أن تكون .

كان كلينتون في سفره يجدول ما سيقوم به من اجتماعات وأعمال من الفجر حتى منتصف الليل ، فكان الاتصال صعباً . وطلبت أن يكون توم فريدمان معه على الطائرة . ورغم أن فقدي لتوم يحز في نفسي ، إلا أنني قلت لكلينتون « إنني أقدم لك بكري ، أول

أولادي »[*] وأحب كلينتون فريدمان، وعمل معه بشكل جيد، فكان فريدمان يصلني مباشرة بآخر أخبار ما يجري على الطائرة، لأتمكن من رسم تحركاتي وخطواتي متوافقاً معه.

توم فريدمان، طويل ألحقته بالعمل معي منذ أيام هزيمة ١٩٩٥، جلف، نحيل، يفتقر لخفة الدم وليس للسخافة. وجدت فيه صفة أعانتني في البيت الأبيض، على إصابة الأهداف باعتباره لاعب كرة سلة، وذكي، ومخلص وفي.

كنا، إيلين وأنا، نقدر كثيراً صداقته وحكمته، فقد استطاع كرئيس تحرير سابق لنشرة حقوقية قانونية في بيركلي، أن يرفع من قدرة كلينتون على ملاحظة أدق المؤشرات، وعلى فهم ما يفكر به الآخرون خلف أقنعة الموافقة السطحية. وكان دائماً بعد انتهاء الاجتماعات يصف بدقة كل ما حصل وما دار فيها، مترجماً التغيرات بلغة صريحة، موضحاً التعليقات الغامضة التي سجلها، بشكل ما زلت حتى الآن أعجز عنه، إذ كان استغراقي في الحديث يشغلني عن رصد ما يدور حولي. لقد أبعدني توم عن العديد من المشاكل، وكان نبعاً للأفكار الجيدة في مجال التحرك الرئاسي. كان يأتيني كل أسبوع بعشرة مقترحات جديدة، معظمها مستقى من مقترحات سبق تقديمها إلى الكونغرس وأهملت هناك، وكان بعضها مفيداً جداً لنا.

كان توم يخبرني، في سفره مع الرئيس، بما يقوله الرئيس في خطاباته. فقد كان كلينتون يحب اللعب بالأفكار، ويحاول طرحها في خطاباته، ليرى ردة الفعل عليها. لكن توم، منذ أن ساهم معنا في وضع استراتيجيتنا، صار يعرف اللغة التي على كلينتون أن يتكلم بها. وكان يبلغني كل سطر أو مدخل جديد يضعه الرئيس، فأبادر إلى اختباره في أول استطلاع أقوم به. ثم أضع النتائج أمام الرئيس، ليقوم بالتعديلات اللازمة في ضوئها. وأعود إلى اختبار التعديلات الجديدة في استطلاع جديد، إلى أن نصل في النهاية إلى الصيغة الملائمة المطلوبة.

كان توم فريدمان يمسك أحياناً غلطة في أحد خطابات الرئيس، فينبهني إليها، فأرفعها إلى الرئيس فوراً كيلا يتكرر الخطأ في الخطابات اللاحقة. ولولا أن حملة دول الانتخابية كانت منهمكة بالدفش والرفش، لاستطاعت عشرات المرات أن تعرقل مسيرتنا باستغلالها هذه الأغلاط.

(*) هذه العبارة من التوراة (العهد القديم) هي التي قالها إبراهيم لربه وهو يهم بذبح ابنه البكر إسحاق، تنفيذاً للأمر الإلهي الصادر إليه في المنام، إذ يعتقد اليهود بأن الذبيح هو إسحاق، وليس إسماعيل كما يؤمن أهل القرآن. — المعرب —

ففي أوائل أغسطس/آب من عام ١٩٩٦ ، مثلاً ، شبّه الرئيس عصابات المراهقين بحشود المصلين في الكنيسة . وكان تشبيهاً دقيقاً وذكياً ، قارن فيه الاحساس بالانتماء الراشد عند المصلين ، بالاحساس بالانتماء الضال عند أفراد عصابات العنف . وأوضح أننا إذا أردنا لأولادنا هجر العنف وتنظيماته ، فعلينا أن نعطيهم شيئاً آخر ينتمون إليه . ولكن من الذي يستطيع أن يدافع عن مثل هذا التشبيه والتوضيح ، والجمهوريون في مؤتمراتهم يتهيأون لاطلاق النار؟ إنما لحسن الحظ ، كان الحزب الجمهوري نائماً في برج المراقبة ، ونجا التعليق من الهجوم .

في مرة أخرى ، قال كلينتون إنه « مرتبك مشوش » من هذه التغيرات التي تحصل في مجتمعنا . قلت لنفسي حين أبلغني توم العبارة « اللهم ارحمنا » . فإذا كانت كلمة « أمريكا مذعورة » قد خلقت لنا مشكلة في سبتمبر/أيلول من عام ١٩٩٥ ، فإن كلمة « مرتبك مشوش » في ربيع عام ١٩٩٦ كفيلة باغراقنا . مرة أخرى ، كانت جماعة دول مشغولة بمعاركها الداخلية ، فلم ينتبهوا للهفوة ، ومرت الأمور بسلام .

كان واضحاً ما أراده الرئيس مني : الخيارات . فحين يستلم الرئيس منصبه ، يغرق بسهولة في التفاصيل اليومية . ولهذا ، فهو يعتمد على طاقم مساعديه وموظفيه ليضعوه أمام المسارات المتاحة للتحرك ، إذ لا وقت لديه ليكشف عنها بنفسه . إن بإمكانه أن يصدر ما شاء من أوامر . أما البدائل والخيارات فيقترحها عليه أفراد طاقمه . ومن هنا تأتي سيطرة الطاقم على الرئيس . فهو لا يستطيع بهذه السهولة صرف جماعته من العمل ، بسبب خروجهم عليه ، أو حجبهم له عن الخارج ، أو التسبب له في مشاكل أكبر من التي وجدها قائمة أمامه حين استلم الرئاسة . إضافة إلى أن كل موظف ـــ على الأقل في إدارة كلينتون ـــ يمثل قاعدة انتخابية ، وصرفه من العمل يعني صرف الناخبين معه ، أو صرف الممولين المتبرعين ، أو صرف السياسيين الذين يمثلهم هذا الموظف .

وهذا هو سبب اهتمام كلينتون الشديد بقراءة المجلات والصحف التي تعبر عن الآراء ، والافتتاحيات والزوايا الثابتة ، وعدم اهتمامه بقراءة الأخبار ، لأنه هو ذاته محور هذه الأخبار . وهو بحاجة إلى قراءة تحاليل يضعها مستشارون مختصون ، وإلى آراء توسع له مجال الاختيار .

لقد وظّف فريدمان في الطاقم أربعة من نخبة الناس : برايان لي ، وماري سميث ، ومات ليفينغ ، ومارك شفارتز ، دافعاً لهم ألف دولار شهرياً ، لمراقبة ورصد الأخبار المسائية ، وبرامج الأحاديث والحوارات التلفزيونية ، وخمساً وعشرين صحيفة محلية ، ودزينة من الدوريات ، وإحضار ما قد يرد فيها من أفكار مفيدة ذات قيمة . كنت أحاول رسم سياسة بدائل للرئيس ، تساعده على التعامل مع القضايا التي تثيرها وسائل الاعلام هذه .

كما اعتمدت أيضاً على الشبكات الشعبية غير الرسمية . ففي الحكومة ، كنت أستشير وأتباحث مع وزير التعليم ديك رايلي ، ووزير العمل بوب رايتش ، ووزير التجارة ميكي كانتور . أما في مسائل المرأة والجريمة فكنت أستشير اليزابيث هولتزمان وإيليوت سبايتزر من نيويورك . وأما من طاقم البيت الأبيض ، فقد كنت ألتقي دائماً وبانتظام مع رام ايمانويل حول شؤون الجريمة ، ومع بروس ريد حول المعونة الاجتماعية ، ومع كاتي ماك غينتي حول البيئة ، ومع جين سبيرلينغ حول الضرائب والسياسة المالية ، وقبل هؤلاء جميعاً مع بيل كوري ، الذي زودني بأفكار لا نهاية لها في مسائل تطوير المجتمع المدرسي ، وتعميم استخدام الحواسب الآلية في الصفوف ، ومحاربة عصابات المراهقين ، وإصلاح الرعاية الصحية ، والحد من نفوذ جماعات الضغط ، وإدارة الصلاحيات المتنازل عنها من الحكومة المركزية للإدارات المحلية . كما عملت أيضاً مع ناوومي وولف ، التي أصبحت أماً مؤخراً ، فأقنعتني بمتابعة أمور اللباس المدرسي الموحد ، وتخفيف ضرائب التبني ، وتسهيل معاملات تبني أطفال من عروق أخرى ، وتوفير ظروف أفضل للتكيف والتلاؤم في مكان العمل . كانت تقول دائماً ، إن المرشح الذي يفهم جيداً مدى تعب المرأة الأمريكية هو الذي يجب أن يفوز .

كنت أحضر أفكارهم إلى الرئيس دورياً . وكان بإمكان الوزراء مخاطبة الرئيس مباشرة ، لكنهم كانوا يفضلون وساطتي التي تساعد على لفت انتباه الرئيس إلى أفكارهم .

لكن طريقة العمل هذه تعرضت لمحنة في أواخر يناير/كانون الثاني ١٩٩٦ ، حين قررت دخول المستشفى مباشرة ، بعد الانتهاء من وضع صيغة خطاب الرئيس أمام الحكومة الاتحادية . كان توقيتاً سيئاً لدخول المستشفى ، لكنني كنت سعيداً بإنهاء هذه الانسدادات . كان الرئيس يخشى أن أكون مصاباً بسرطان دون أن أخبره ، لكن مع ذلك رافقني بدعواته حين انطلقت إلى مستشفى جبل سيناء في نيويورك .

حين أفقت من التخدير ، تذكرت أن شيئاً هاماً حصل لي ، يجب أن أعرفه ، ولكن أنى لي الخلاص من السياسة التي شغلت كل فكري . كان أول سؤال طرحته على الممرضة الحائرة في غرفة الانعاش : كيف كانت الخطبة أمام الحكومة الاتحادية ؟

عبثاً كنا نأمل ، الرئيس وأنا ، في الشهور الماضية بأن نكره « لوت » أو « دول » على التحرك نحو اتفاق على ميزانية . فقد كنا بحاجة إلى اتفاق من هذا النوع ، لرفع نسبة مؤيدينا إلى ما فوق ٥٠٪ ، هذه النسبة التي تراوحت حول ٤٥٪ شهوراً طويلة ، ولم تفلح الدعاية والإعلانات في رفعها . كنا بحاجة إلى منجزات حقيقية ، من مثل ميزانية متوازنة ، تضمن لنا نصراً كبيراً .

قلت مذكِّراً كلينتون « لم يسبق لرئيس أن فاز بإعادة انتخابه دون منجزات . روزفلت قضى على الكساد وقاد البلاد في الحرب العالمية الثانية ، وأيزنهاور أنهى الحرب الكورية ، وجونسون أصدر قانون الحقوق المدنية . ونيسكون حقق السلام في فييتنام (أو هكذا قيل في انتخاب عام ١٩٧٢) . وريغان خفض الضرائب . ونحن بحاجة إلى إنجاز من هذا الوزن بالأهمية ، مثل الاتفاق على الميزانية » .

وافق الرئيس بقوة متحمساً ، أو لنقل يائساً ، على أن نحاول الوصول إلى اتفاق . فكنا نبحث كل ليلة عن طريقة نعدل بها الأرقام ، لتقريب وجهات النظر المتباعدة وصولاً إلى اتفاق . وطلب مني الرئيس أن أعمل مع مديرة مكتب الإدارة والميزانية في البيت الأبيض أليس ريفلين في مسألة تعديل أرقام الميزانية ، إلا أنه أراد قبل أي شيء آخر معرفة ما يجري في لقاءاتي مع ترينت لوت .

كان بانيتا وستيفانوبولوس يرغبان بقطع مفاوضاتي مع لوت . ليون أراد الموضوع بإشرافه ورئاسته ، وجورج رفض الاتفاق من حيث المبدأ ، وأخبرني أنه في سبيله ليطلب من ليون ، أن يأمرني بوقف هذه الاتصالات . فقلت موافقاً « أنا عبد مأمور ، لا أتصرف على هواي ، والفكرة هذه ليست فكرتي أنا فقط » . كنت أشرح له الوضع مشيراً ضمناً إلى أن الرئيس يريد لهذه الاتصالات أن تستمر .

وكما قلت ، فقد كانت المواقف من مسألة حوار الميزانية محكومة بأمرين يتعلق بعضهما ببعض . فبعد أن نجح ليون بحنكة وبراعة في التفاوض حول الاتفاق مع الكونغرس على ميزانية عام ١٩٩٦ ، وأنهى مسألة التهديدات بتوقف الحكومة عن العمل ، أصبحت الأطراف أكثر تقارباً . ولكن ترينت أخبرني أن الاتفاق مستحيل . قال « إن دول يخشى أن ينهزم أمام غرام ، إلى حد أنه لن يلقي أية نظرة على أي اتفاق حول الميزانية ما لم يحصل على الترشيح إنه خائف جداً من أن يبرم اتفاقاً مع كلينتون ، ثم يهزمه غرام ، باتهامه بأنه خان رفاقه وقدم تنازلات كثيرة . إنه حائر لا يدري ما يفعل ، فهو لن يتركني أحضر اجتماع المفاوضات لأنه لا يثق بي ، ولعلك أنت السبب » .

كانت أرقام دول تتهاوى في ولاية آيووا ونيوهامبشاير ، لصالح ارتفاع أرقام فوربيس وبوكانان ، ولم يبق سوى أسابيع على الانتخابات التمهيدية . وعرفت أن سبب سقوطه هو أن أنصار الجمهوريين من الناخبين في الانتخابات الأولية شعروا بأن دول لا يستطيع إنجاز شيء . فقمت بتفويض من سوسنيك وآيسكيس (الذي كان مضطراً إلى الموافقة على أي استطلاع جديد) بمسح إحصائي شامل على أنصار الجمهوريين في هاتين الولايتين ، وجاءت النتائج كما توقعها : إذا أبرم دول اتفاقاً حول الميزانية ، حتى ولو كان من النوع الذي سيتهمه معه غرام

وبوكانان بالاستسلام لكلينتون، فسيفوز بالانتخابات التمهيدية. فالناخبون الجمهوريون يريدون ضرائب مخفضة وميزانية متوازنة، ويرغبون بانتخاب دول لتحقيق ذلك إن استطاع، حتى ولو هاجمه الجناح اليميني في الحزب بالانتخابات.

أوجزت الأرقام والنتائج للرئيس، ثم ارتكبت غلطتي الفاحشة. ففي صباح يوم ذهابي إلى مستشفى جبل سيناء، وبعد صيام ست وثلاثين ساعة، أعطيت جماعة دول مذكرة خطية، أشرح فيها كيف أن الاتفاق على الميزانية سيدفع دول إلى الفوز بالانتخابات التمهيدية، معتقداً أن ذلك سيشجع دول على الاتفاق معنا، وانطلقت من أن يأس دول من الفوز بالترشيح سيدفعه إلى الموافقة على مساعدة كلينتون بالوصول إلى اتفاق حول الميزانية، لأن السياسيين عموماً لا يفكرون إلى أبعد من الانتخاب الذي يقفون أمامه.

مرَّرت لهم المذكرة عن طريق بول مانا فورت، شريك صديقي القديم شارلي بلاك، وصديق دول الحميم الذي رتب لصالحه الأمور في المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري. كان مانافورت مسافراً إلى أوربا، فأعطى المذكرة دون علمي إلى سكوت ريد، صلة الوصل بينه وبين معسكر دول. أخبرني مانافورت فيما بعد أن ريد أعطى المذكرة إلى جيل هانسون مساعده الرئيسي، والصديق الحميم لماري ماتالين. أما كيف وصلت المذكرة إلى آن ديفروي في الواشنطن بوست، فهذا ما لا أعرفه. إلا أن صديقاً أخبرني فيما بعد أن كارفيل وديفروي شوهدا معاً قبل انتشار القصة.

بعدها بأسبوع علمت أن مذكرتي إلى دول قد تسربت، وأنها ستنشر في الواشنطن بوست. فأسرعت بالاتصال بالرئيس متهماً جورج بتسريبها. كان ثمة نسختان من المذكرة، أعطيت الأولى للرئيس، وأرسلت الثانية إلى مانافورت، ولا أظن مانافورت خبيثاً أو مهملاً بحيث يترك الرسالة تتسرب. ومن هنا، ذهب ظني إلى أن ستيفانوبولوس عثر عليها وأعطاها لكارفيل، الذي مرَّرها إلى ديفروي، فجورج هو المصدر الذي تستقي منه ديفروي عادة معلوماتها.

كان ثمة فرق طفيف بين نسخة الرئيس من المذكرة، والنسخة التي أرسلتها إلى مانافورت، التي اتضح أنها عين النسخة الواصلة إلى آن. ولقد أخطأت باتهام جورج بهذه السرعة والبساطة، التي أثارت غضبه إلى حد قال لي معه وأنا أقدم له اعتذاري «اعتذارك غير مقبول».

وتركنا للصحافة تعرف أن الرئيس قد نبذني، وأنني صرت محبوساً في قفص الكلاب، بلا حظوة ولا سلطة.

لكن الرئيس حاول على انفراد ، بعد مشهد مسرحي غاضب أمام الناس ، أن يعيد لي ثقتي به وبنفسي . كان جل اهتمامه منصباً على أن دول لم يعد يستطيع إبرام اتفاق حول الميزانية ، لأن الأمر سيبدو خطوة سياسية من رسمي أنا .

مضت العاصفة بعد عدة أسابيع . فجاء وولف بليتزر من محطة CNN يسألني وأنا أدخل البيت الأبيض في فبراير / شباط ، عما إذا كنت ما زلت في قفص الكلاب ، فأشرت إلى البناء قائلاً « هذا ليس قفص كلاب » .

في ذلك الوقت ، كانت علاقتي بالرئيس قد عادت قوية وثيقة . قال لي الرئيس في منتصف فبراير / شباط ، إنه قد دعا رؤساء الطاقم إلى اجتماع ، بما فيهم آيسكيس طبعاً ، قال لهم فيه : « تريدون أن أختار ، إما أنتم أو موريس ، وبإمكاني بالطبع أن أختار ، لكنني لا أنصحكم أن تدفعوني إلى ذلك دفعاً ، لأن ما سأختاره وقتها لن يعجبكم . ثمة اثنان ، عداي أنا وآل ، لهما الفضل في النهج الذي أنتهجه الآن هما تيري ماك أوليف وديك موريس ، لهذا أنصحكم ألا تدفعوني إلى الاختيار » .

بعد أن انتهت كل هذه المعارك الداخلية ، لم يبق لي عدو أواجهه دون أن أتمكن من التغلب عليه سوى نفسي .

الفصل الحادي عشر

القيم والأولويات الأمريكية

كيف تحقق لكلينتون هذا الفوز الساحق؟ تقول الشائعات والتعليقات الشعبية إنه أحد سببين: إما لأنه استهدف القلب والمركز باقتراحه الميزانية المتوازنة وإصلاح المعونة الاجتماعية. أو لأنه حاز الجماهير إلى جانبه يوم قام غينغريتش والكونغرس الجمهوري بوقف الحكومة عن العمل.

كانت تلك خطوات هامة إلا أنها غير كافية لتفسير ما حدث، أعادتنا إلى حلبة اللعب، لكنها لم تضعنا في المقدمة. حين كانت معارك الميزانية تدور في منتصف يناير/كانون الثاني، كان كلينتون يتقدم على دول بهامش قليل ومحدود، وكان ذلك واضحاً. أما الشيء غير الواضح فهو لماذا انتفخ بالون هذا الهامش المحدود بعد خطاب الرئيس أمام الحكومة الاتحادية في عام ١٩٩٦ بنسبة ٣٦ إلى ٥٣، وليبقى هكذا إلى يوم الانتخاب؟

السبب هو أن الرئيس كشف عن القيم في خطابه هذا ــ فقد ساعده اعتماده عليها في خطاباته، وتركيزه عليها في إعلاناته طوال عام ١٩٩٦، على أن يرفعها ويرتفع بها.

للجمهوريين جدول بقيمهم وأولوياتهم، لكنها قيم سلبية، ضد الشباب وعبثه، وضد الجنس، وضد الأمهات العازبات، وضد الاجهاض، وضد كل شيء عدا الأسرة. أما نحن فقد قدمنا شيئاً مختلفاً: جدول قيم إيجابية، تجاوبت العامة معه أفضل كثيراً من تجاوبها مع قيم الجمهوريين السلبية. لقد تشكل موقف وطني من تجارب الأمة المختلفة بين أسلوب ترك الحبل على الغارب عند بوش، واستخدام القوة لتحقيق الغايات السياسية عند كلينتون، والأسلوب الرجعي عند غينغريتش. ولقد تعرفنا على هذا الموقف وفهمناه من خلال استطلاعاتنا. وأقرت ناوومي وولف اكتشافاتنا هذه بحيادية وتجرد، حين لاحظت في الثقافة الأمريكية لمسة متجددة واهتماماً روحياً متغيراً، لا يمكن مقارنته بالعقيدة الدوغمائية الموروثة. فقد رفضت الأغلبية الكبيرة رفضاً باتاً الآراء النظرية اليسارية واليمينية، واعتنقت مزيجاً من المواقف المحافظة والليبرالية:

الإجهاض: اجعلوه قانونياً واسمحوا به، ولكن نظّموه. شجعوا الزواج وروابط الأمومة والأبوة، واعتمدوا التبني كبديل.

الاعانة الاجتماعية: اشترطوا الرغبة بالعمل عند المستحق، وحددوا فترة زمنية لكشوفات المستفيدين، ولكن قدموا لهم الرعاية اليومية وفرص العمل والتعليم والتدريب المهني، لتضمنوا أن من يستطيع العمل منهم سيعمل.

عجز الميزانية: حققوا التوازن في الميزانية بالمستقبل القريب، وخفضوا العجز فيها سنة بعد أخرى. ولكن دون عدوان على الأولويات الأساسية، كالرعاية الصحية والمعونة الطبية، والتعليم، وحماية البيئة.

اللوائح التنظيمية الحكومية: اجعلوها أبسط وأكثر انسيابية، وامنحوا الأنشطة التجارية والصناعية مرونة أكبر كي تجد طريقة لتطبيق اللوائح والتلاؤم معها. ولكن ضعوا رقابة حازمة عليها بمسائل البيئة، ومياه الشرب النظيفة، والغذاء والدواء، والسلامة.

الجريمة: افرضوا أحكاماً قاسية، بما فيها حكم الإعدام، وعينوا المزيد من الشرطة، وراقبوا المسدسات والأسلحة الهجومية، ولكن أعفوا بواريد الصيد والرياضة.

كان هذا الموقف جلياً في كل استطلاع قمنا به حول هذه المسائل. كما كان جلياً أن رفض الأمريكيين للسياسة والسياسيين يعود بأصله إلى فشل الحكومة في تحقيق هذه المعتقدات العامة. يقول الناخبون للموظفين الرسميين: «انجحوا في الاقتراع وامضوا في سبيلكم» لكنهم قلقون حائرون بالتطورات الأخرى التي تحصل في مجتمعنا خلف هذه المسائل، ويتوسلون للقادة السياسيين إرشادهم إلى طريقة يعالجونها بها، فلا يلقون اهتماماً.

كيف نجعل الآباء الهاربين الغائبين يحملون مسؤوليتهم المالية، في الانفاق على أسرهم وإعالتها؟

كيف نمنع التلفزيون من جعل أولادنا يستسيغون العنف ويمارسونه؟ وهل نستطيع منع مراهقينا من الإدمان على التدخين؟

كيف يمكن المحافظة على الضمان الصحي عند تغيير مكان ورب العمل؟ وهل يكفي ضمان التقاعد لتغطية الرعاية الصحية؟

هل ستبقى للإعانة الطبية فائدتها، رغم ارتفاع كلفة العلاج والدواء؟. وهل ستتبنى المدارس التقنيات الحديثة المطلوبة في الأنشطة والأعمال؟

ما هو دور الحكومة والمدرسة والأهل في تحفيز وضبط أطفال اليوم؟ وهل بالامكان إيجاد توازن بين متطلبات البيت ومتطلبات العمل خارج البيت؟

هل يمكن جعل الدراسة الجامعية مدخلاً مالياً للهروب من الفقر، والارتقاء إلى الطبقة المتوسطة؟

كيف نضع المزيد من رجال الشرطة في الشوارع، وننظف الأبنية والحارات من الأسلحة المخزنة فيها؟

ويتوسل الناخبون إلى الحكومة لمساعدتهم في هذه المشاكل، لكن العملية السياسية تتجاهلهم تماماً، والإعلام يسفه آراءهم، رغم أن استطلاعاتنا أثبتت أن هذه المسائل هي التي تشغل بال الناخب العادي.

كتب روبيرت فروست ذات مرة أن الشعر يشفي الحزن، وأن السياسة تعالج المظالم والشكاوى. ولقد بحث الرئيس في خطابه أمام الحكومة الاتحادية عام ١٩٩٦، العديد من أسباب الأحزان، ولخص قائمة بالشكاوى التي سوف يسعى لحلها وإنصافها، فترجم بذلك الحوار السياسي الطبيعي.

كثيرون سألوني عن القيم والأولويات التي أعتقدها وأؤيدها، وأنا أرى وأقابل عاهرة. كان سلوكي الجنسي أقذر من أن يمكن الدفاع عنه، لكن ذلك أصبح الآن أمراً محصوراً بي وبأحبابي، ويجب ألا تمنعني سقطاتي واخفاقاتي الشخصية من المساعدة على وضع سلطة في أيدي الآباء يسيطرون ويضبطون بها الصور والأفلام التلفزيونية التي تستهدف أطفالهم، ويتمكنون معها من إبعاد أولادهم عن إدمان التدخين، ويتمتعون بموجبها بأوقات راحة من العمل للقيام بواجباتهم الأبوية. لكل واحد منا إبليسه الخاص، لكن نضالنا ضد الأبالسة يجب ألا يمنعنا من عمل وتقديم ما نراه خيراً في حياتنا بأوسع منظورها.

★★★★

بدأ الرئيس تركيزه على القيم والأولويات الإيجابية مع أحداث التفجير في أوكلاهوما بأبريل/نيسان من عام ١٩٩٥.

علمت بتفجير مبنى موراه الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما، حين كنت مع إيلين بباريس نقضي عطلة عيد الفصح. وكنت قد تحدثت قبل ذلك في نفس اليوم مع الرئيس، حيث اتفقنا على أن نتحدث معاً مساء يوم ١٩ ابريل/نيسان. كان مذهولاً من الصدمة، وسألني بصوت مرتجف «ألم تسمع بما حدث؟ أحد الارهابيين نسف المبنى الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما، وقتل العشرات أو لعل المئات من الناس».

سألته ما إذا كان للإرهابيين الأجانب علاقة بالحادث، لكنه لم يكن متأكداً. بعد بضعة أيام اتضح أن رجالاً من الميليشيات المحلية لهم علاقة بذلك، فاقترحت على الرئيس

عدداً من الاجراءات الجريئة لوقف الإرهاب المحلي يقدمها في خطاب إلى الأمة . لكنه قال «إن مكتب التحقيقات الفيدرالي أخبره أنه إن قام بذلك، فقد يتسبب في هجوم إرهابي ثان، وإن عليه أن يتحرك بحذر في الموضوع، وهذا ما يجعل الموقف بالغ الخطورة».

وبينما كان الأوكلاهوميون ينبشون الأنقاض، كان الرئيس غارقاً تماماً بفحص وتدقيق جميع المستويات المتاحة لمقاومة الإرهاب في غرفة قيادة العمليات، وبتشييع الجنائز في المدينة، وبإعداد كلمة تأبينية في التلفزيون ومقابلة لمدة ستين دقيقة، شرح فيها برنامجاً قوياً لمقاومة الإرهاب، ودعا إلى إصدار قوانين جديدة للتعرف على الجماعات الإرهابية والسيطرة عليها، خلال حديثه وشرحه وصل إلى قلب أمريكا بأسلوب لم يبلغه من قبل. فتكلم باسم أمريكا، معبراً عن غضبنا وغضبها، وتكلم كرئيس أمريكي وليس كرئيس من الحزب الديموقراطي.

لم يعط الرئيس كلينتون موهبة التعبير عن العواطف الخصوصية والانفعالات، فنادراً ما رأيت انفعالاته ــ عدا الغضب ــ تطفو على صفحة وجهه، رغم أن بيل كلينتون رجل عاطفي شديد التأثر، يستطيع أن يحس أدق انفعالات الآخرين ويتجاوب معها بشكل أفضل مما يتجاوب به مع عواطفه هو وانفعالاته.

لقد رأيت تجاوب الرئيس مع أحداث أوكلاهوما أساساً في ظروف سياسية، فلم أجد فيه أكثر من طريقة للتعبير عن خطر الجناح اليميني المتطرف، وشعرت أن الجمهوريين ارتكبوا خطأً سياسياً خطيراً بمعارضتهم الأجزاء الهامة في خطة الرئيس حول مقاومة الإرهاب، لكن أحداث أوكلاهوما لم تكن وقتها موضع بحث في سياسات الحزبين، وجاء التطور والتحول في صالح بيل كلينتون، الذي يخاطب الآن قلب أمريكا كرئيس، وليس رأسها كمفاوض يبحث عن اتفاق.

يتمتع الرئيس دائماً بحس عميق روحاني، لمسته عنده أحياناً، لا علاقة له بالسياسة، ونادراً ما أعلنه وكشف عنه أمام الجماهير، لأنه يفرّق عادة بين مجالات السياسة العامة ومجالات الروحانية الشخصية. لكنه أمام هزة أحداث أوكلاهوما، بدأ يتحدث أكثر وأكثر في مجالسه الخاصة عن القيم والمثل العليا، التي نحتاج ــ كأمريكيين ــ إلى التمسك بها.

شعر الرئيس بأن ثمة ناخبين كثيرين يزدرون ويرفضون ــ مثله ــ الحق الديني، لكنهم يعتنقون الدين ويؤمنون به. ولقد أظهرت استطلاعاتنا أن أكثر من نصف الناخبين الذين يسمّون أنفسهم «متدينين جداً» رفضوا وحدة المذاهب المسيحية. فأراد الرئيس أن يجد مكاناً في سياساتنا يخاطب به هؤلاء الناخبين بطريقة جديدة.

وقرر أن يجرب ذلك في ٦ يوليو/تموز ١٩٩٥، بخطابه في جامعة جورجتاون، إلا أنه كان غامضاً في خططه، وأستطيع القول أنه لم يحسن صياغة أفكاره جيداً. لم أكن أعرف

ما ينويه، ومن هنا كنت حائراً مشوشاً. فقد أمضى ليلة يوم الخطاب بأكملها في إعداد خطابه، الذي قال إنه سيكون حواراً مع الطلاب، يتحدث فيه وحده ــ حسب تقديري ــ.

في طريقه إلى جورجتاون، اتصل ليطلب مني ومن ستيفانوبولوس أن نسمع خطابه على شاشة التلفزيون. قال «لا تقرأوا النص فقط، اسمعوه على الهواء مباشرة». لم يسبق له أن طلب هذا منا من قبل، ولم أعرف ما الذي يخطط له. فجلسنا، جورج وتوم فريدمان وأنا، على أريكة في مكتب بيل كوري. وتحدث كلينتون، شارحاً بكل وضوح ما كان يفكر فيه منذ أحداث أوكلاهوما، وكأنه امتص ما ارتسم على وجوه الطلبة من ردود فعل وتجاوب معها، مما خلق نوعاً من الحوار الصامت معهم. إنه الإلهام.

ربط القضايا السياسية اليومية بالقيم. فبحث مثلاً نفور تجار الأسلحة من مشروع برادي، ومن التقييد بما نص عليه من فترات انتظار وتحقيق حول المشترين، وقارنها بالازعاجات والمصاعب التي تطبقها عناصر الأمن في المطارات، قال «أنتم لا تتضايقون حين تمرون عبر كاشف معادن في المطار، لأنكم تدركون العلاقة بين هذا الازعاج البسيط الآني لكم، وبين احتمال انفجار الطائرة التي ستركبونها أو احتمال اختطافها». ثم ناشد الأمريكيين أن يفكروا بروح جماعية، وليس بروح فردية، وأن يركزوا على ما فيه خير للجميع. وأشار إلى الأرضية العامة التي تقوم عليها مواقفنا الوطنية، ودعا السياسيين إلى احترامها ودعمها بدلاً من تمزيقها في سبيل مكاسب سياسية.

دهشنا، جورج وأنا، وكان منظرنا مضحكاً ونحن نتساءل «أين الدعاية، وأين الصياح في هذا الخطاب؟».

في البداية لم أجد أياً منهما. ما هي النقطة المغزى التي يدور حولها الخطاب؟ ولكن بعد خمس عشرة دقيقة توضح ذلك أمامي. قلت لجورج «ألا ترى ما يفعل؟ إنه لم يقدر أن يجمع كل هذه الأفكار في رأسه معاً، وأن يشرحها لنا. لكنه أمام آلاف الشباب استطاع أن يصوغها بشكل يفهمونه، وأرادنا أن نسمعه لنفهم ما كان يريد أن يقول، ونرى أين يمكن توظيفه سياسياً». هكذا ولد جدول القيم والأولويات في فكرنا السياسي.

انطلق الجمهوريون دائماً في بناء ايديولوجيتهم على الفردية والحرية الشخصية. إلا أن الضرائب واللوائح التنظيمية والحكومات الكبيرة كانت خطراً يهدد الحريات الفردية ويحدّ منها. أما كلينتون، فهو يقدم الآن بديلاً هو روح الجماعة.

لقد وصل بالنتيجة إلى خلاصة، كان الكثيرون قد توصلوا إليها في حياتهم الشخصية، هي أن ما يعيق تحقيق حياة أفضل ليس الأداء الاقتصادي بالمرتبة الأولى، بل العوائق المشتركة العامة والطائفية، ونوعية الحياة الفردية ذاتها. هذه العوائق التي أعطيت هامشاً صغيراً من الاهتمام في حياة الأسرة، كالجريمة والتلوث البيئي وارتفاع كلفة الدراسة الجامعية ونفوذ العنف التلفزيوني وتغلغل المخدرات وتدخين المراهقين، يمكن التوجه إليها إذا وقفنا معاً كمجموعة. وقد تتحرك الجماعات أحياناً من خلال الحكومة، لكنها تتحرك في الأغلب الأعم من خلال المتطوعين في المنظمات الدينية أو العملية العمالية أو النوادي المدنية.

الحزب الجمهوري الأمريكي يقيم دعوته على «الأنا»، أما بيل كلينتون فيدافع عن الـ «نحن».

منذ أن رفع ريتشارد نيكسون شعار «الأكثرية الصامتة» في الفترة الفييتنامية، لرفض من يحرق الأعلام، ويدمن التدخين، ويرتدي حمالات الثدي الصغيرة التي تعيق التنفس، أصبحت المسائل الاجتماعية من اختصاص الجمهوريين. فمضى الديموقراطيون يركزون على القضايا الاقتصادية، تاركين أمور القيم والمثل العليا للجمهوريين. إلا أن جدول القيم الاجتماعية عند الجمهوريين أصبح من السلبية بمكان لا يستطيع معه مواجهة المغريات السياسية. كانوا يقولون «لا تفعل هذا، وافعل هذا، ولا تفكر بالقيام بذاك». إلا أنها كانت استراتيجية تفتقر إلى تركيز إيجابي، تركيز على ما يجب عمله لترسيخ قيمنا كشعب. وجاء الرئيس ليخلق جدولاً بالقيم الديموقراطية.

لقد زودنا مارك بن، منفذ الاستطلاعات، بدليل طريف عن أهمية موضوع القيم. فطرح على عينة من الناخبين خمسة أسئلة تتعلق بالقيم:

١ ـــ هل تعتقد بأن ممارسة الجنس قبل الزواج خطأ؟
٢ ـــ هل تعتقد بأن اللواط والسحاق خطأ من الناحية الأخلاقية؟
٣ ـــ هل الدين ضروري في حياتك؟
٤ ـــ هل تتفرج شخصياً على الصور الإباحية؟
٥ ـــ هل تزدري الذين يقيمون علاقات خارج إطار الزوجية؟

كان ثلث سكان البلاد من المحافظين، وكانت أجوبتهم أخلاقية على أربعة أسئلة على الأقل من أصل خمسة. أما الباقون فكانت أجوبتهم محافظة متشددة على سؤال أو سؤالين فقط، وأحياناً غير محافظة نهائياً.

وبمقاطعة هذه النتائج ، وجد بن أنها تعطي مؤشراً مسبقاً عن الجهة التي سيصوت لها الناخبون في الانتخابات الرئاسية ، فأصحاب الاجابات المحافظة المتشددة سيصوتون لصالح دول ، أما أصحاب الاجابات الوسط فسينشطرون إلى قسمين متساويين ، وأما الباقي فسيفضل كلينتون ، ثم قارن بن هذا المعيار القيمي بمعايير أخرى تتنبأ بسلوك الناخبين ، ووجد أنه أكثر دقة في مجال الدخل والمستوى التعليمي والجنس والعمر . أما في مجال سباق دول ــ كلينتون فالحكم للناخبين فيه يكون من المنظور الحزبي والسياسي . كان الاستنتاج واضحاً : علينا أن نستعيد استقطاب الناخبين أصحاب القيم .

في أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية بيوليو/تموز ، أوضح بن الموضوع لكلينتون بصورة خشنة قاسية قال « إذا كان الشخص عازباً ، نستطيع عندها أن نعتمد عليه في التصويت لصالحنا ، كذلك إذا كان مطلّقاً أو أرملاً ، سيصوت معنا إنما ليس بشكل مؤكد . ولكن ما إن يتزوج الناخب حتى نخسره ، وما إن يرزق بأولاد حتى ينضم إلى دول » .

ثم عاد بن إلى تصنيف نموذجه هذا بحسب العمر ، فاستنتج أن المحافظين الأكبر عمراً قد ضاعوا منا ، عدا من صوّت منهم لكلينتون معارضاً التخفيضات التي اقترحها الجمهوريون على الرعاية الصحية . أما الذين هم من جيل كلينتون وجيلي فلم يكونوا محافظين متشددين . لكن المحافظين الأصغر سناً ، في العشرين أو في الثلاثين من العمر ، الذين يحاولون تربية أولادهم ، ويتلمسون الطريق إلى موقف مقنع يتخذونه ، فقد كانت لمسألة القيم أهمية كبرى عندهم .

بدأنا بتوضيح مواقف الرئيس في ضوء المعيار القيمي ، وقمنا باستطلاع سألنا الناس فيه عمن يثقون به في مجال كل قيمة من القيم ، كلينتون أم دول . فوجدنا أن ثمة خمسة مجالات للقيم ، فضلوا فيها كلينتون على دول :

١ ــ إتاحة الفرص للجميع .
٢ ــ القيام بما يجب علينا تجاه والدينا .
٣ ــ الدفاع عن بلادنا .
٤ ــ القيام بما هو صحيح ، ولو تعارض مع الشائع والسائد .
٥ ــ احترام القواعد العامة للقيم الأمريكية .

وصممنا على التركيز في عروضنا خلال الحوار حول الميزانية ، ليس على الأرقام أو البرامج ، بل على تلك القيم والأولويات . فبدلاً من أن يتحدث الرئيس عن رغبته برفع مخصصات الانفاق على التعليم ، أو مضاعفة معونات الدراسة الجامعية في سنتها الأولى ،

أصبح الآن يتحدث عن إتاحة الفرص لأطفالنا ، أو عن قيامنا بواجبنا تجاه أبوينا بدلاً من الحديث عن حماية الرعاية الصحية ، أو عن تكريم الأرضية العامة الأمريكية بدلاً من الحديث عن إنقاذ البيئة . فالوتر الذي لمسه الرئيس في خطابه بجورجتاون ، فرض عليه أن يتعلم لغة جديدة بكل معنى الكلمة .

كان الليبراليون من موظفي البيت الأبيض بطيئين في فهم هذا الاتجاه الجديد . فخلق الثروة وتوزيعها ، عندهم هو أهم ما يهتمون به . وكان تجميد الأجور ، والتفاوت الاقتصادي ، والتسريحات المؤقتة للعمال ، هي القضايا التي تحكم تفكيرهم ، ويرون وجوب التركيز عليها . ولكن مع هزيمة عام ١٩٩٥ التي جعلت الحس الاقتصادي عند الناس يتنامى ، تعلمنا أننا نستطيع الوصول إلى هؤلاء الناخبين ليس من خلال المسائل المتعلقة بجيوبهم فقط ، بل من خلال اهتماماتهم ومعاييرهم القيمية أيضاً .

كان فهم الرئيس للقيم وأثرها ، أسبق كثيراً من فهمي وفهم بن لها . فقد أدرك بحدسه ما قمنا به من جهد في استخلاص نتائج استطلاعاتنا وفيما بنيناه بعد ذلك على أساسها . لقد أراد الأمريكيون سماع المزيد عن القيم ، وسماع القليل عن المكاسب المادية ، فقرر أن يتحدث إليهم كما أرادوا .

أصر كلينتون في البداية على مشكلة الدين والأخلاق في مدارسنا . فقد احتكر الجمهوريون هذا الموضوع وراثياً ، بدعمهم لتعديل دستوري يسمح بالصلاة المدرسية ، الذي أبطلته المحكمة العليا باعتباره انتهاكاً لمبدأ فصل الكنيسة عن الدولة .

لقد حذرتُ من خطر الحديث في مسألة ، تؤيد الجماهير فيها موقف الجمهوريين بشكل طاغ ، لكن الرئيس كان قد قرر . أراد أن يشرح للإدارات المدرسية الإجراءات التي يمكنهم اتخاذها بشكل قانوني ، لتشجيع ودعم نظام ديني وقيم أخلاقية في المدارس الحكومية . وأمر وزير التعليم رايلي أن يوزع قائمة بهذه الاجراءات والخطوات ، كالسماح باجتماع النوادي الدينية في المدارس وتدريس علم الأخلاق والسلوك الأخلاقي ، وهو التعديل الأول الذي بدا أن المحكمة سمحت به حسب فهمها له . وكان رأيه أنه بدلاً من دعم تعديل دستوري قد يخدش مسألة فصل الكنيسة والدولة ، لماذا لا نحقق كثيراً من أهداف هذا التعديل من خلال القوانين النافذة .

خطبته عن الصلاة المدرسية فجرت مبادرة الجمهوريين في هذا المجال . وتمنى قليل من الناخبين لو يمضي إلى أبعد مما تسمح به الحدود القانونية النافذة . وبدا أن الموضوع برمته قد مضى وتلاشى .

التحرك الإيجابي : قضينا شهوراً طويلة ، كلينتون وجورج وأنا ، ونحن نناقش مسألة التحرك الإيجابي . أراد جورج من الرئيس أن يقف بحزم أمام هجمات الجمهوريين ، وأن يدافع عن التحرك الإيجابي ، وخشيت أنا أن يعرضنا ذلك لنيران الجمهوريين ، واقترحت أن ننطلق في التحرك الإيجابي على أساس الدخل والسكن في المناطق الفقيرة ، وليس على أساس العرق أو الجنس . وكان الرئيس يعرف أن دعم التحرك الإيجابي قد يكلفه التضحية بالناخبين المحافظين الذين قد يدعمونه بدونه . إلا أن هناك حسابات أخرى سياسية في الجانب المقابل . فقد كان يعرف أن التردد في مسألة التحرك الإيجابي سيكون عرضة للتحدي في الانتخابات على يد جيسي جاكسون إما كمستقل أو كمرشح ديموقراطي . وتوازنت الحسابات السياسية ، لكن كلينتون أنهى الموضوع بتجاهل الجوانب السياسية جميعاً . فقد نشأ في الجنوب ورأى العنصرية يومياً في حياته ، وهذا ما جعله يتمسك بالتحرك الإيجابي بسرعة ، وكان يعرف أن العنصرية هي عدونا الخالد في أمريكا . كانت طفولة كلينتون الفقيرة تحيا في أعماقه ووجدانه ، ولهذا حين يضطر إلى أن يقوم بما يؤلم الفقراء ، كتخفيض المعونات واقتطاعات الرعاية الصحية ، كان يعاني جسدياً من الصداع وآلام المعدة . لقد قبل عقله المنطق والسياسة ، أما قلبه فلم يستطع .

لقد فجّر المسألة سياسياً ، بالوعد بإصلاح التحرك الإيجابي للقضاء على الامتيازات العنصرية ، وللتأكيد على أن الأشخاص غير المؤهلين والأكفاء لن يتم تشغيلهم . بهذه الطريقة خاطب كلينتون جوهر المثل العليا الأمريكية ، متيحاً الفرصة لأولئك المعدودين خارج الاعتبار ، ومصراً في الوقت ذاته على عدم منح أية امتيازات لأحد .

لم تلعب العنصرية أي دور في انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٦ ، رغم أن مقترحات الاقتراع السري المعادية للهجرة والتحرك الإيجابي هددت بجعلها أكبر تنافس عنصري في العصر الحديث . لكن كلينتون استطاع أن يتفادى هذا الاستقطاب بتوجهه إلى قيمنا . فوجدنا في مسح قمنا به بعد خطابه عن التحرك الإيجابي مباشرة ، أن أكثر من ثلاثة أرباع السود ، وثلاثة أرباع البيض ، شعروا بأن كلينتون لم يفضل عرقاً على عرق آخر .

التبغ : خلال ربيع وصيف عام ١٩٩٥ ، قاتلتُ بضراوة لتوسيع جدول القيم حتى يشمل تحريم الإعلان عن المنتجات التبغية على المراهقين . ففي المسائل الأخرى التي بحثتها مع الرئيس ، كنت أتحدث كمستشار سياسي ، وأقترح الطرق التي تجعله يفوز . أما في مسألة التبغ ، فقد كنت متعصباً متطرفاً . كانت أمي مدخنة منذ الرابعة عشر من عمرها ، وماتت بالسرطان ومرض القلب . أخت نائب الرئيس غور راحت ضحية هذه العادة أيضاً ، فقد

روى لي في صيف عام ١٩٩٥ قصة موتها، تلك القصة التي أثرت على كثير من الأمريكيين ممن سمعوا خطابه في المؤتمر الوطني للحزب الديموقراطي بأغسطس/آب عام ١٩٩٦.

في تلك الأثناء، اتخذ دافيد كيسلر مفوض إدارة الغذاء والدواء عدة إجراءات لمعرفة ما إذا كان النيكوتين مخدراً يمكن إدمانه، وما إذا كانت السجائر مثل جرعات المخدر، يجب إخضاعها للوائح التنظيمية الفيدرالية. وكان غور يتابع هذه المسألة عن قرب ويوافي كلينتون بملخص عنها.

لكن التبغ سيطر على السياسات في نورث كارولينا وكينتاكي، وكانت له تأثيرات بالغة في تينيسي وفرجينيا وجورجيا. والأكثر من ذلك أن صناعة الدعاية والإعلان تعتمد كلية على المخصصات الإعلانية في ميزانية شركات التبغ التي تبلغ أربعة بلايين دولار في السنة. فالدخل الإعلاني من التبغ حيوي وأساسي لحياة العديد من الصحف. لقد أجبرت شركات التبغ من خلال محاميها شبكات البث التلفزيوني على تعديل وإلغاء تغطيتها للموضوع مفضلة ذلك على الأجور القانونية الباهظة. المتاجر الفخمة وبعض فروع السوبرماركت الكبيرة هي أيضاً من أقوى مؤيدي شركات التبغ، رغم أن التبغ يقتل مئات الألوف من الأمريكيين سنوياً

من هنا، يحتاج التبغ كل عام إلى مدمنين جدد يحلّون محل الذين ماتوا. والسوق الأكثر رواجاً هو بين المراهقين. إذ حوالي مليون طفل يبدأون التدخين سنوياً، وثلث هؤلاء يموتون فيما بعد بسببه.

وكشفت استطلاعاتنا عن قناعة شعبية عريضة بوجوب منع الإعلان عن التبغ على المراهقين، فقد فهم الناس أن إعلانات التبغ لا تقصد إقناع المدخنين بتغيير الماركات، بل لتشجيع الأطفال على اكتساب هذه العادة.

فحثثت الرئيس على أن يطالب صناعة التبغ بوقف توجيه إعلاناتها إلى أولادنا، وواجهت معارضة ضمن الدائرة الداخلية للرئيس. كان حليفي في معركة الميزانية معاون رئيس الطاقم إرسكين بولز من نورث كارولينا، ومن الذين عارضوا بشدة، إذ كان يدرك جيداً مدى سلطة ونفوذ صناعة التبغ في ولايته الأم، وأشار بخداعهم وعدم مواجهتهم بشكل جدي.

لعب إرسكين في عودة الرئيس دوراً دفاعياً، في بحث ومعالجة أمور الجمهوريين، كتوازن الميزانية وإصلاح المعونة الاجتماعية. ولكن كما قال ونستون تشرشل وهو يتلقى تكريم انجلترا وثناءها على سحبه الرائع للجيش البريطاني من دنكرك في الحرب العالمية الثانية «الحروب لا تكسب بالانسحابات».

قلت للرئيس في اجتماع رسم الاستراتيجية بتاريخ ١٢ يوليو/تموز ١٩٩٥ «علينا أن نرد العدوان. إننا بحاجة إلى قضية ننفرد بها وندافع عنها»، واقترحت على الرئيس أن يتبنى ما وصل إليه كيسلر من أن النيكوتين على الأرجح مخدر يمكن إدمانه، وأن يتخذ إجراءات تحدُّ من الإعلانات الموجهة إلى الأطفال.

وتعاطف الرئيس مع اقتراحاتي، فأمه هو أيضاً ماتت بالسرطان. لكنه كان قلقاً من أن يلقي خطاباً يجد الاستحسان، ثم ينساه الجميع، ويخسر هو الولايات الخمس. ولم يدرك في قلقه هذا، الأهمية التي ستنالها قضية مثل هذه لو أنه عرضها بمنظور قومي شامل. فقلت إن الموضوع ليس مجرد خبر صحفي يومي «بل سيكون واحداً من ثلاثة أو أربعة أمور هامة حاسمة في الحملة الانتخابية، ما إن ترفعه إلى مستوى القرار الرئاسي، حتى تنطلق حملات منع المراهقين من التدخين». قال كلينتون بحذر «سأقضي بذلك على كل أمل لي بالفوز في نورث كارولينا، وسأخسر فرجينيا في كل الأحوال، لكنني قلق على كينتاكي وتينيسي، فأنا بحاجة إلى هاتين الولايتين».

عندها قال غور «أستطيع ضمان ولاية تينيسي. لكنني عندما أيدت وضع تحذيرات على علب السجائر، قال الجميع إن هذا هو مقتلي السياسي. إلا أنني أوضحت لهم أن التدخين يضرهم ويضر أولادهم، وعلينا أن نحذر الجميع من الكوارث الصحية. أذكر أنني قلت ذلك في خطاب لي في إحدى مدن ولاية تينيسي، معقل زراعة التبغ وصناعته، وكان الجميع يهزون رؤوسهم موافقين على ما أقول».

في ذلك الوقت كان دوغ شوين يقوم باستطلاعات لصالح بول باتون، المرشح الديموقراطي لمنصب حاكم ولاية كينتاكي. قال شوين «باتون خائف من مسألة التبغ، لكن استطلاعاتي تشير إلى أن الناخبين حتى في ولايات التبغ سيؤيدونك، طالما أنك تعالج الموضوع فقط من زاوية الإعلانات الموجهة إلى الأطفال».

أطلعتُ الرئيس على نتائج وأرقام كل مسح جرى في ولايات التبغ، مشيراً إلى إمكان نجاحه فيها لو عارض إغراء الأطفال بالتبغ. فكلف بولز لمعرفة مدى ما يمكن أن تصل إليه شركات التبغ بالتراضي. كان يريد أن يعرف فائدة عقد اتفاقية معها. وكنت أخشى أن توافق الشركات على مواصفات محددة في التعبئة ثم تمزق الاتفاق ولا تحترمه، لأنني كنت أعرف سجلها غير النظيف في تنفيذ ما توافق عليه.

وضع كيسلر سلسلة من المعايير القوية، بما فيها منع جميع اللوحات الاعلانية التي تصور دعوات مغرية إلى التدخين، قصد منه الحد من إعلانات السجائر للسود والبيض،

التي تقوم على الكلمات دون صور . أما إدارة الغذاء والدواء ، فطالبت بمنع جميع المعروضات والملصقات في المتاجر القريبة من المدارس ، وكل الهدايا والعينات المجانية كالقمصان والقبعات ، الموجهة إلى المراهقين . كانت صفقة قاسية ، تستحق القتال من أجلها .

قلت «إن بإمكانك أن تجعل من التبغ قضية تعادل قضية المخدرات . فالجماهير تعرف الجرأة والشجاعة التي تلزم لقتال هذه الصناعة ، وستفهم أنك تقوم باختراق أرض جديدة دون رواد سابقين» .

قدم لنا ليون بانيتا فكرة هامة في يوليو/تموز ، قال «بما أننا لن نستطيع تحقيق الكثير عبر الكونغرس ، فعلينا أن نبذل وسعنا لتحقيقه عن طريق التحرك بإصدار أوامرنا التنفيذية» .

وافقت على الفكرة وحاولت دعمها ، فقد كانت تلك هي الطريقة الوحيدة التي يستطيع كلينتون بها أن يمارس سلطته الرئاسية على الأمور المحلية دون دعم من الكونغرس . وسيكون موضوع التبغ خطوتنا الأولى . لكن المشكلة كانت في التنفيذ .

كان أفضل دافع في واشنطن ، كيلا تفقد السيطرة على موضوعك ، هو أن تتحرك . وكان دافيد كيسلر والعلماء في إدارة الغذاء والدواء مستعدين لإثبات أن النيكوتين مخدر بالفعل ، وأن السجائر وسائل لتعاطي جرعاته ، ولوضع لوائح تنظيمية شاملة تكبح وتضبط التدخين بين المراهقين ، بعد أن اتضح أن شركات التبغ لن يبادروا طواعية بوضع معايير جديدة . كانوا يشعرون بأن كلينتون لن يفوز في عام ١٩٩٦ ، فقعدوا بانتظار أن يفوز جمهوري من مؤيدي التبغ مثل دول ، وكان الوقت مناسباً للرئيس كي يتحرك .

وتحرك كلينتون . فأقر كل اللوائح التنظيمية التي أصدرتها إدارة الغذاء والدواء في صيف عام ١٩٩٥ ، وصرح بأنه ما لم يسن الكونغرس قوانين بهذا الشأن ، فسوف يسمح لإدارة الغذاء والدواء بعرض موضوع التدخين على القضاء .

في الأشهر القليلة التالية ، أصبح يرى في مسألة التبغ معركة يجب أن يكسبها . وما إن وضحت له العلاقة التي تربط اليمين الجمهوري بجمعية البواريد الوطنية وبصناعة التبغ ، حتى بدأ يرى وجوه الشبه بين المعركة ضد الأسلحة ، والمعركة ضد السجائر ، فكلاهما معارك في سبيل حماية الأطفال . وتلاشى الخوف الذي كان من الطبيعي أن يشعر به أي رئيس يستعرض نتائج الاستطلاعات ، لتحل محله الشجاعة وهو يركز أنظار الأمة واهتماماتها على مسألة التبغ .

ثم قام دليل قوي آخر على أن شركات التبغ أخفت عن عمد وخلال عشرات السنين معرفتها بأضرار الإدمان على التدخين . وكان أكثر التقارير إثارة للغضب والغيظ هو الذي

أوضح تلاعب شركات التبغ عمداً بنسب النيكوتين في السجائر للمحافظة على إدمان المدخنين.

قال لي كلينتون في أوائل عام ١٩٩٦ «أتدري؟ أظن أننا في النهاية سنترك أمر اللوائح التنظيمية للمحاكم والقضاء. وأراهن على أننا سنقضي بالتدريج على التدخين عند المراهقين، لمجرد أننا لفتنا الأنظار والاهتمام إلى هذا الموضوع». قلت «ستنقذ بذلك مئات ألوف الأرواح، فالقضية تشبه قضية إصلاح الرعاية الصحية. أذكر أنك ناديت بتخفيض مستوى تضخم كلفة الدواء والمعالجة الطبية، وطالبت بإصلاحات كبيرة لم يصادق الكونغرس على أي منها. لكن كلفة الدواء والعلاج انخفضت كثيراً منذ ذلك الحين، والسبب هو أنك ركزت أنظار الجماهير على هذه النقطة». قال «ومع ذلك فلم ينسب لي أحد أي فضل بهذا».

★★★★

ظهر جدول القيم بشكل كامل في خطاب الرئيس أمام الحكومة الاتحادية عام ١٩٩٦، فغير بخطابه كل شيء. كانت نسبة مؤيدي كلينتون قبل الخطاب ٥٠٪، فارتفعت بعد الخطاب إلى ٦٠٪. وارتفعت نسبة ناخبيه من ٤٧٪ مع هامش تسع درجات، إلى ٥٣٪ مع هامش سبع درجات. حين دخل إلى مجلس النواب ليخطب في تلك الليلة، كان رئيس أقليات، لكنه حين خرج، كان رئيس أغلبيات، وظل كذلك. بعد ذلك، ولغاية يوم الانتخاب بعد عشرة شهور، لم يفقد الرئيس سوى نقاط قليلة من الناخبين، ومن تقدمه على دول. وكشفت الاستطلاعات التي تلت خطابه أمام الحكومة الاتحادية في يناير/كانون الثاني من عام ١٩٩٦، عن الأرقام ذاتها والنسب ذاتها. فخلال أحداث وايت ووتر، وقضية الملفات، والرحلات الخارجية، وجلسات هيلاري لاستحضار الأرواح، والتفجيرات الارهابية الثلاثة، والانقلابات في الشرق الأوسط، وانتخابات الجمهوريين التمهيدية، ومؤتمر الحزب الجمهوري، خلال هذه التأرجحات في رئاسة كلينتون بين رفع وخفض، بقيت النسب والأرقام على حالها.

ثمة قيم نادى بها الرئيس تلت الجدول، اقتفى بها طريقاً كانت هيلاري قد رسمته له منذ سنين، بتركيزها على قضايا الطفولة والمرأة والتعليم. فقد تنبأت في كتابها «الأمر يكلفنا قرية» بكثير من القضايا التي رفع كلينتون لواءها في خطبته.

كانت الجماهير متعبة من مسألة الميزانية، فوجدت صعوبة بالغة باقناع الرئيس بأن علينا تغيير الموضوع. ودهش كثيراً حين نصحته بأن يخصص دقائق قليلة لا أكثر في خطابه

أمام الحكومة الاتحادية لموضوع الميزانية. لكنه سرعان ما أدرك الحكمة في ذلك. لقد ملّ الناس هذا الموضوع.

وجدت صعوبة أكبر في التركيز على القيم خلال الحديث عن المسائل الاقتصادية. فمنذ أن طرح شعار «الصفقة الجديدة» أصبح الاقتصاد هو الأساس عند الحزب الديموقراطي. والحديث عن قضايا القيم الاجتماعية، عند الديموقراطيين، باعتبارها تعارض المجالات الاقتصادية، أشبه ما يكون بإطعام الحمار فولاً سودانياً، أو إطعام الفيل شعيراً وتبناً.

لكن الاستطلاعات أظهرت أن ٦٥٪ من الناخبين يعتقدون بأن مسائل القيم، كالجريمة، والنظام المدرسي والعنف في التلفزيون ومنع إعلانات التبغ هي الأهم عندهم. وأن ٣٠٪ منهم فقط يشعرون بأن المسائل الاقتصادية، كالأجور والمكاسب وفرص العمل وتجميد الأجور والاستيرادات هي الأهم. كما أظهرت الاستطلاعات أيضاً أن قاعدة مؤيدينا الفعليين هم أولئك الذين شعروا بأن المسائل الاقتصادية هي الأهم، وأننا ما زلنا نفقد قسماً من أولئك الذين فضلوا مسائل القيم، وهؤلاء هم الناخبون الذين يجب استقطابهم.

بمرور الشهور، اتجهت الإدارة إلى التركيز أكثر فأكثر على القيم، والابتعاد عن الحلبة الاقتصادية التقليدية.

ونجحت في النهاية لائحة القيم بإرساء خطة جديدة للتحرك، خطة ركزت عليها أمريكا على مدى شهور عديدة قبل الانتخاب. لكن تحديد الأفكار وطريقة عرضها لم تكن أمراً سهلاً في البيت الأبيض.

كنت أريد أن نتوجه في خطاباتنا انطلاقاً من جدول القيم ثلاث أو أربع مرات أسبوعياً. وكان علينا أن نحدد من خلال الاستطلاعات القيم الأهم عند أمريكا. فما إن أعطى الرئيس موافقته، حتى بادرنا باتخاذ إجراءات لدعم كل قيمة من القيم بتحرك حكومي، ثم جاء الجزء الأصعب: الحصول على موافقة طاقم موظفي البيت الأبيض على مقترحاتنا. بعد ذلك، كان علينا توقيت المناسبة التي يستطيع الرئيس أن يتحدث فيها. ثم قمنا بمراجعة الموضوع مع سكرتير الصحافة مايك كوري لنتأكد من أهميته الصحفية. فوجدنا أن لكل قضية مشاكلها الفريدة المميزة، وهذا بعضها:

الأسلحة اليدوية والعنف المنزلي: أطلعني توم فريدمان على مشروع قانون قدمه إلى الكونغرس السناتور فرانك لوتينبيرغ وعضو الكونغرس بوب توريشيللي، ديموقراطيان من نيوجيرسي، بمنع بيع الأسلحة الخفيفة لكل محكوم بجنحة أو جناية في مجال العنف المنزلي. ولما كانت عشرات ألوف حوادث العنف المنزلي تتم بالمسدسات والأسلحة اليدوية كل سنة،

فقد صار الموضوع عادياً طبيعياً عندنا . فبموجب القوانين السارية لا يسمح للمجرمين بشراء الأسلحة ، ولكن المحكومين بجرائم العنف المنزلي ليسوا مجرمين ، فالمحكوم بضرب زوجته مثلاً ليس مشمولاً بهذا المنع من شراء الأسلحة النارية . وعرفنا أننا بتوسيع مسألة الأسلحة اليدوية لتشمل العنف المنزلي ، سنتمكن من خلق مودّة أسرية لا يستطيع دول اعتناقها وتبنيها بسبب علاقاته مع جمعية البواريد الوطنية ، رئيسة المعارضة لضبط وتنظيم الأسلحة . وافق الناخبون ، وقمت بطرح المسألة في أحد الاجتماعات .

الرئيس أعجبته الفكرة ، لكنه خشي أن تثير الجمعية الناخبين ضدنا ، وتثبت أن الفكرة مجرد خطوة أخرى لتمييع ضبط وتنظيم الأسلحة ، وأنها مجرد هراء لا علاقة له بالموضوع . شخص آخر قال إنه ليس من الانصاف أن نمنع أحداً من اقتناء سلاح ناري ، إذا كان قد مضى على تجريمه وقت طويل . ثمة من خشي أيضاً من أن هذا سوف يثير لَغط الناخبين ضد الرئيس .

في استطلاعات الأسابيع التالية ، قدمتُ دليلاً على معارضة جمعية البواريد الوطنية لهذا الاجراء ، فقلت إن الفكرة خطوة أولى نحو تحريم كل أنواع الأسلحة ، وحاز الاقتراح موافقة الناخبين وحماسهم . إلا أن الاستطلاع أظهر شعوراً عند الناخبين بأن الحصر سيكون أكثر إنصافاً ، لو أنه اقتصر على المحكومين بجرائم العنف المنزلي منذ عشر سنوات ، بدلاً من تعميمه على كل المحكومين إطلاقاً . وقمت بإعداد تقرير شمل كل هذا للاجتماع التالي .

في هذه الأثناء ، تم اختبار هذه الفكرة في جولة على الغرب ، وتم إقرار الفكرة في ضوء النتائج . ورغم ذلك ، ظل كلينتون قلقاً .

لم أعرف سبب تردد الرئيس ، إلا بعد أن قرأت نص خطابه السياسي ، وتابعت توضيحاته عن وجوب ألا يمنع مشروع برادي وقوانين الأسلحة الهجومية الصيادين من اقتناء البواريد . بعد بضع ليالٍ ناقشت القضية معه على الهاتف ، ثم قمت بثلاثة استطلاعات ضمنتها حرفياً الاهتمامات التي عبر عنها كلينتون ، واتضح أنه ليس لقلقه أي أساس في ضوء الواقع السياسي . ووافق الرئيس على الفكرة في اجتماعنا التالي .

وتحولنا لبثها وإذاعتها . فاقترحت إعلانها في اجتماع الجمعية الوطنية لتطوير الملونين في نورث كارولينا . وكان دول يقاطع هذا المنتدى العام ، وحاول مؤخراً أن يسحب دعمه الطويل وموافقته السابقة على إلغاء قرارات تحريم ومنع الأسلحة الهجومية . وأدركت أن الفرصة مناسبة لنرد له الضربة في هذه القضية . لكن أليكسيس هيرمان ، وهو أفرو أمريكي مسؤول عن استقطاب الناخبين ، شعر أن هذا الطرح في اجتماع لمنظمة زنجية ، قد يوحي بأن العنف

المنزلي مشكلة خاصة بالزنوج، وقد يثير قضية أو. ج. سيمبسون. فتراجعت وتخليت عن الموضوع.

ثم اقترحنا إعلانها في جولة الساحل الغربي بشهر يونيو/حزيران. لكن رام إيمانويل، الذي يشرف على أمورنا التنظيمية والقانونية، اصطدم مع الشرطة الذين أخبروه بأنهم قد لا يوافقون كلينتون، لأن اقتراحه سيؤثر على كثيرين من رجال الشرطة. فأوضح لهم رام أن رجال الشرطة أنفسهم لن يخضعوا لهذا المنع، بدليل أنهم مؤهلين للعمل كشرطة. ولانت مواقف الشرطة بعد أن قام كلينتون بجولته في كاليفورنيا.

أخيراً، قررنا أن نجعل من هذه الفكرة محور اليوم الأول من رحلة الرئيس بالقطار إلى شيكاغو يوم المؤتمر الوطني للحزب الديموقراطي. وقوبلت بشكل جيد واستحسان لكنها سرعان ما تلاشت. إنني أرجو أن يتاح لهذه الفكرة كونغرساً ديموقراطياً يصادق عليها في النهاية.

العنف التلفزيوني: في الأشهر السبعة التي تلت خطاب الحكومة الاتحادية وضع كلينتون برنامجاً يتعلق بالأسر والأطفال والسلامة.

إحدى أولويات البرنامج كانت كبح جماح العنف التلفزيوني. فقدمني توم فريدمان لأطلع على عمل ريدهاندت، رئيس أكبر مساعي تنظيف وإصلاح البرامج التلفزيونية منذ أيام نيوتون مينو. وأخذ نائب الرئيس غور على عاتقه إقناع الشبكات التلفزيونية بتبني نظام طوعي يحدد مستوى العنف في البرامج، يساعد الآباء على معرفة البرامج العنيفة والجنسية الفاضحة لإلغائها من شاشات أجهزتهم، مستعينين بـ«رقاقة العنف» التي نجح الرئيس بالمطالبة بوضعها في جميع الأجهزة التلفزيونية. فاندمجت مؤخراً شبكتان تلفزيونيتان هما A.B.C. و C.B.S. الأولى مع شركة والت ديزني والثانية مع مؤسسة وستينغهاوس للكهربائيات. وأدركنا أن شركة والت ديزني لن ترغب بأن تبدو معادية للأسرة برفضها النظام الطوعي المقترح. لكن المفاوضات لم تجد نفعاً، وقاومت الشبكات التلفزيونية بعناد كل مقترحاتنا بأن تبادر بوضع نظام يحدد مستوى العنف في برامجها.

في مسائل القيم، لكل عامل من العوامل الوسيطة تأثيره الخاص في اتجاه معين. كانت الصحف حذرة في نشر مهاجماتنا لشركات التبغ. أما في الأخبار التلفزيونية فالهجوم على التبغ كان يناسبها، لأن إعلانات السجائر ممنوعة في التلفزيون. إلا أن الأمر حين وصل إلى نقد البرامج التلفزيونية، تعبّأت كل طاقات شبكات التلفزيون ضدنا.

اقترحت أن نضرب ضربة قوية، ونوظف خطاب الحكومة الاتحادية لدعوة مدراء الشبكات التلفزيونية إلى عقد اجتماع مع الرئيس ونائبه في البيت الأبيض، دون أي التزام

مسبق من جانبهم يتبنى نظاماً طوعياً لتحديد مستوى العنف. وشعرت أننا إن وضعناهم أمام الأمة كلها في مواجهة القضية، فسينصاعون للرأي العام. وأدركت أن موافقة الشبكات التلفزيونية، فيما بعد، على نظام من هذا النوع، سيجيّر لصالحنا. أما إذا رفضت وقاومت، فسنستطيع توبيخها وإلقاء اللوم عليها علناً. لكن اقتراحي في اجتماع رسم الاستراتيجية قوبل بالسخرية. فلو وضع مسرِّب مجهول عنواناً في صحيفة مشيراً إلى ما اقترحه، فسيكون ذلك خير مثال نموذجي على غبائي وحمقي. كان العديد ممن يحضر اجتماعات رسم الميزانية ينادي بعدم التعرض للشبكات التلفزيونية، ويخشى أن نخسرها في الحملة الانتخابية. كان ثمة ذعر شديد من تحدي الشبكات التلفزيونية وإثارة غضبها، حتى أن ماك كوري تساءل، في حالة ضغطنا على هذه الناحية، ما إذا كانت الشبكات التلفزيونية ستعرض خطابات الرئيس الموجهة إلى الأمة في المستقبل.

في البداية شعر غور بأنه يستطيع أن يحقق شيئاً عن طريق المفاوضات. لكنه في النهاية انتهى إلى دعم فكرة وضع الشبكات التلفزيونية تجاه الأمر الواقع، بدعوتها إلى اجتماع ضمن خطاب الحكومة الاتحادية. ونجحت الفكرة. حين جاء مدراء المحطات التلفزيونية إلى البيت الأبيض يوم ٢٩ فبراير/شباط ١٩٩٦، تراموا جميعاً لاظهار كم كانوا تواقين إلى بدء تطبيق مثل هذا النظام.

لقد شك الكثيرون في استخدام الآباء لرقاقة العنف هذه، لكنني كنت أعتقد بأنهم سيفعلون. فقد أظهرت الاستطلاعات اهتماماً وقلقاً أبوياً كبيراً بالعنف التلفزيوني، أكثر من الاهتمام بدعوة الآباء أو الأمهات العاديات للتغلب على عقدة الخوف من التقنية عندهم واستعمال الرقاقة. هل سيكون الأطفال أذكى من والديهم؟ بالتأكيد!! وسيعود سباق التقنية من جديد.

لكن الشبكات فيما يخص مطلبنا الثاني، تقديم ثلاث ساعات أسبوعياً كحد أدنى من برامج الأطفال التعليمية، كانت عنيدة ومتصلبة. ففي فترات إعادة بث البرامج العامة، كان على شبكات الإعلان أن تخلق برامج مثل «افتح ياسمسم» تساعد على تعليم الأطفال. في ربيع عام ١٩٩٦، هدد أندرو باريت باستقالته من لجنة الاتصالات الفيدرالية، وإعطاء ريد هاندت، رئيس مجلس إدارة اللجنة ذي العقل المتفتح المتطور، الأغلبية في المجلس، فور إعلان تمديد رئاسة كلينتون للمرة الثانية. كان مجرد تهديد بقلب هذا التوازن في اللجنة، لكنه أغرى الشبكات التلفزيونية بأن تعلن عن برنامج طوعي يتوافق مع تخصيص الساعات الثلاث المطلوبة.

إلا أنه لم يتم البت في مطلب الإدارة حول تخصيص ساعة كاملة لبرنامج أسري بين الثامنة والتاسعة من مساء كل يوم، وهي الفترة المسائية التي يجب أن تخلو فيها البرامج من العنف والجنس، وفي مطلبها حول إخضاع البرامج الموجهة للأطفال إلى المراقبة، مثل مسلسلات حراس الفضاء ومورفي الخارق، للتخفيف من العنف الموجود فيها. لقد أدركتُ معنى العنف الوحشي في مثل هذه المسلسلات، حين عرضت عليّ ماري سميث، إحدى العاملات عندي، أعداد القتلى ووسائل القتل في كل عشر دقائق من هذه البرامج، وكيف ترتفع أعدادها وتتزايد بشاعتها في كل مشهد عن سابقه. ومع ذلك تستمر الشبكات التلفزيونية في معارضة هذه الإصلاحات. ولكن بوجود مؤيدين للإصلاح من أنصار كلينتون في لجنة الاتصالات الفيدرالية، ستتلاشى المعارضة وتزول.

اقتطاع رسوم التعليم الجامعي من الضرائب:

لم يغب عن ذهن الرئيس التأييد الكبير الذي لاقاه اقتراحه باقتطاع رسوم التعليم الجامعي من الضرائب، وهو يصوغ جدول القيم. قال «نحن لم نتعمق في هذا الاقتراح. فضاع في الحوارات الجانبية حول حجم هذه الاقتطاعات بمجموعها. إلا أنني مازلت أعتقد أنه فكرة رائعة، وعلينا أن نطورها ونناقشها أكثر».

قلت للرئيس إنني أعتقد بوجوب تبسيط الفكرة، فأكثر من ثلثي الناس غير مصنفين لدى المصالح الضريبية، ولا يعرفون حتى ما هو الاعفاء أو الاقتطاع الضريبي.

كان هذا كله ماثلاً في ذهني وأنا أسأل وزير التعليم ديك رايلي عن الرسوم الجامعية، ودهشت حين علمت أن الجامعات تتقاضى في المتوسط حوالي ألف ومئتي دولار في السنة كرسوم. وبناء على هذه المعلومة، طورنا الفكرة إلى حسم ألف ومئتي دولار من ضرائب السنتين الأوليتين بدلاً من الاعفاء الضريبي، ثم رفعنا المبلغ ليصبح ألف وخمسمئة دولار سنوياً عن كل دارسٍ جامعي خلال السنتين الأوليتين من الدراسة الجامعية.

أعددت تقريراً للرئيس بهذا كله أقول فيه «إن من الأسهل عليك توسيع حقل التعليم الحكومي المجاني بحيث يشمل الصفوف الأربعة عشر الأولى». وقارنت مبادرتنا هذه بما كان يدعو إليه هوراس مان في القرن التاسع عشر بالتعليم المدرسي المجاني.

وأثارت هذه المناقشة اهتمام الرئيس بمسألة أن يستطيع كل مواطن إكمال دراسته الجامعية. فقلت مشجعاً «علينا أن نوضح تماماً أن الدراسة الثانوية لم تعد كافية، وأن الدراسة الجامعية يجب أن تعمم كالدراسة الثانوية» قال كلينتون «لقد حل التعليم الآن محل

العرق والجنس ، كمؤشر على دخل مستقبلي أفضل» وصمت قليلاً وهو يستعيد شريط ذاكرته التصويرية ، ثم قال بحزم «لقد أعجبتني الفكرة فعلاً» .

قلت «ماذا لو أكدنا على المستويات والمعايير التعليمية ، وطالبنا بأن يحصل الطالب على درجة جيدة في الشهادة الثانوية ليستحق المنحة الضريبية الجامعية؟» فقاطعني الرئيس متابعاً «أو نطلب منهم الحصول على معدل معين في الجامعة للحفاظ على هذه المنحة إذ من الأفضل أن نفتح الباب للجميع ، شرط أن تؤهلهم معدلاتهم الدراسية لذلك» .

حملت أفكار الرئيس ، وذهبت بها إلى رايلي ، أفضل صديق لي في مجلس الوزراء . كان رايلي لبقاً ، ارستقراطياً ، ودوداً يغلب عليه الطابع الرسمي ، يمثل صورة الجنتلمان الجنوبي كما أراه . وكانت سياسة وزارته يغطيها عادة ضباب علماء الاجتماع والتعليم ، لكنه تجاوزها كلها وشرح أهدافه بلغة انكليزية واضحة ، لغة لا يستعملها البيروقراطيون الفيدراليون دائماً .

مستشارو الرئيس الاقتصاديون ، ولورا تايسون مستشارة الاقتصاد القومي ، وروبيرت روبين وزير الخزانة ، وروبيرت رايتش وزير العمل ، وأليس ريفلين مديرة الميزانية ، وجوزيف ستيغليتز كبير مستشاري المجلس الاقتصادي الأعلى ، ناقشوا الفكرة وراجعوها ، ثم بدأت الاعتراضات . شعر روبين وتايسون أنها ستفتح باب الخزانة على مصراعيه لتفريغها قبل الانتخابات ، وروبين لم ير أبداً الهدف من هذا الاعفاء وهذه المنحة . قال «إذا أردنا مساعدة الناس على دخول الجامعة ، فلنقم بزيادة المنح الدراسية الجامعية» . فأجبته «يريد الناس منا سياسياً تقليص حجم الحكومة ، ونحن نحاول عن طريق التخفيضات الضريبية أن نحقق هدفاً اجتماعياً في الوقت ذاته» فأوضح روبين أن الاقتطاعات الضريبية ليست طريقة مناسبة لتقديم المساعدة ، وأن أسلوب توسيع برنامج المنح الدراسية أفضل في تحقيق الهدف المنشود . قلت له إن المنح الدراسية تزيد من البيروقراطية ، وأننا بحاجة إلى كسب إبداع الجماهير ليس عن طريق المنح الدراسية التي قد تتاح وقد لا تتاح ، بل عن طريق جعل أول سنتين من الدراسة الجامعية مجانيتين .

ورفض روبين الفكرة ، ووصف الفكرة بأكثر الكلمات شيوعاً في قاموس مفرداته فسماها «فكرة سياسية» .

قلت في نفسي هكذا كان شأن ما سبقها من مشاريع . برامج هامة تفتح أبواب الجامعات ، وتجتذب مئات الألوف من الطلاب الجدد ، وتتيح لنا أن نهزم مخططات دول في التخفيضات الضريبية . قلت مجادلاً «سياسياً نحن بحاجة إلى تخفيضات ضريبية تضرب ما سيقترحه دول من تخفيضات ، ولا نستطيع أن نزاود عليه في مسألة التخفيضات ، لأننا

نبين في الجانب المقابل من أين سنغطيها . أما الرسوم الجامعية فهي بمجموعها أرخص وأكثر جاذبية » .

أما ريفلين فخشيت من المغالاة في المتطلبات . وأما رايلي فخاف من أن ترفع الولايات ، التي تحافظ على انخفاض الرسوم في جامعاتها ، هذه الرسوم ضمن الحد المسموح به فتمتص كل الوفر الحاصل . واقترح رايتش أن يحصل كل بالغ يعود إلى الدراسة الجامعية لتحسين وضعه الوظيفي على الاعفاء الضريبي ذاته . وأعجب الرئيس بفكرة رايتش وعدّل مخططه ليشملها .

في النهاية ناقش الجميع الفكرة ، ورغبوا بتأجيلها للدراسة ، عدا الرئيس وأنا . والتقيت مع تايسون وطاقم موظفيها ، الذين قالوا إنها فكرة رديئة ، يجب النظر إليها ودراستها دون تحديد أي موعد لإنهاء تلك الدراسة . فقلت لقد تكون لدي انطباع بأن الرئيس يؤيد الفكرة ، لكن هذا لم يعنِ شيئاً لهم ، بل ظلوا يناقشون في النقاط الثانوية . قلت إن الرئيس يريد منا أن نمضي قدماً في الحوار ، لكنهم لم يتجاوبوا . أخيراً قلت لهم إن الرئيس كما يعرفونه طويل ، أشيب ، ذو لكنة جنوبية ، يريد لهذه الفكرة أن تتحقق ويطلب مساعدتهم في ذلك . فخرج أحد أفراد الطاقم غاضباً . وشككت فيما بعد أنه هو الذي سرَّب للصحافة أن الرئيس يضع الاعتبارات السياسية في المقام الأول ، وأنني أريد الإغارة على الخزانة العامة لأجعله يفوز بإعادة انتخابه .

وظل الجدال محتدماً إلى أن قدم جين سبيرلينغ مذكرة رسمية لكلينتون . كان سبيرلينغ يعرف أن الرئيس يريد للفكرة أن تتحقق ، فوضع في مذكرته بعض الخيارات التي تحقق الغرض . وتجاوز كلينتون كل الاحتجاجات وأعلن المخطط ، مع بعض التعديلات ، في خطابه بجامعة برينستون في يونيو/حزيران ١٩٩٦ . وأصبح البرنامج أحد المحاور الرئيسية في حملته الانتخابية ، ومثلاً من أمثلة القيادة الرئاسية .

في تلك الأثناء ، كانت المعارك مع طاقم البيت الأبيض تفعل فعلها في تغير شخصيتي ، فأصبحت فظاً خشناً لا أقيم اعتباراً للأشياء أو الأشخاص ، وشعرت إيلين بذلك لكنها لم تملك لها تغييراً . إلى أن صرت شخصاً آخر .

إذن المغادرة العائلي : فكرة السماح بمغادرة العمل لأسباب عائلية أو علاجية ، بدون أجر وبدون فصل من العمل أيضاً ، كانت شائعة بين الأمريكيين منذ وقت طويل . فالقوانين النافذة تسمح للآباء أن يتوقفوا عن العمل لغاية اثني عشر أسبوعاً ، لملازمة طفلهم المولود أو المتبنى ، أو للعناية بطفل مريض أو بقريب مسن . لكننا أردنا أكثر من ذلك .

وجدنا طريقة في تعديل حاول الجمهوريون استخدامه لالغاء زيادة الحد الأدنى للأجور الذي طالبنا به وعارضوه. فحاولوا إضافة ثلاثة تعديلات على مشروع القانون المقترح، آملين أن ترغم هذه الحبوب المسمومة الرئيس على استعمال حقه في النقض. كان اثنان من التعديلات الثلاثة مجرد أفكار رديئة: منع الاتحاد من صرف أمواله على الحملات الانتخابية، والسماح لأرباب العمل بعقد عقود جماعية مع عمالهم. إلا أن التعديل الثالث كان جيداً، إذ يسمح للعمال أن يتقاضوا أجور عملهم الإضافي إما نقداً أو استراحة.

ناقشت الفكرة مع الرئيس فأعجب بها فوراً. طرحتها كسؤال في الاستطلاع، فوافق عليها الناخبون، لكن الاتحادات أطلقت نيران الجحيم. وحين بحثنا الموضوع في أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية، قال آيسكيس، الذي كان محامياً عمالياً «لن يحصل العمال على أية إجازة مقابل عملهم الإضافي. سوف يتنمّر عليهم أصحاب العمل كي يستبدلوا الراحة بالنقود. وحين يرغبون بوقت مستقطع يرتاحون فيه، لن يسمح لهم رؤساؤهم بذلك».

لكن الرئيس قال «أنا لا أوافق على كل هذه النظريات التي تجعل مكان العمل مقراً للمكائد والمؤامرات. أنا أعتقد أن معظم أرباب العمل مؤمنون، وأن معظم العاملين مؤمنون أيضاً. ومع بعض الحدود والحمايات ستسير الأمور على ما يرام».

قال آيسكيس إن الاتحادات ستفكر مرتين قبل أن تدعم الديموقراطيين، لو تم تصديق هذا المشروع ووقعه الرئيس. فالتفت إليه كلينتون بحرارة خفيفة وقال: «أنا الرئيس هنا، والقرار لي. وإذا أراد أحد هنا أن يهدد، فليذهب إلى الجحيم. وأنا أريدكم أن تنفذوا».

وصفقت في سري استحساناً. وبمرور الشهور أصبح الرئيس يتكلم بفظاظة أكثر فأكثر. في عام ١٩٩٥، كان يدع الكلام للآخرين، ويوجههم إلى طريقته في التفكير. أما في عام ١٩٩٦، فقد بدا رئاسياً، أكثر ثقة، يقول للآخرين ما يريدهم أن يفعلوه بحدة وعدوانية.

قررنا أن نزاوج بين هذه المبادرة وتوسيع إجازة المغادرة، واقترحت أن نوسعها لتغطي المنشآت التي يتراوح عدد عمالها بين ٢٥ ــ ٥٠ عاملاً (القوانين النافذة الآن تغطي المنشآت ذوات الـ ٥٠ عاملاً فما فوق). فحذر السناتور كريس دود من كونيكتيكت، الذي بدأ في عام ١٩٩٦ حضور اجتماعات رسم الاستراتيجية، من تأثير ذلك على الناخبين في المنشآت الصغيرة. قمت ببعض الاستطلاعات، فوجدت أن أرباب العمل في المنشآت الصغيرة لا يرون في هذا التعديل المقترح عبئاً ثقيلاً، وأن ٢٠٪ من الناخبين فقط يعملون في هذه المنشآت التي يقل عدد عمالها عن ٢٥ عاملاً.

ولكن تحت ضغط المدفعية المضادة التي تعرض لها الرئيس بسبب اقتراح العمل الإضافي وإجازة المغادرة، لم أعد إلى الضغط على الموضوع. وبناء على اقتراح مارك بن، فقد اقترحنا توسيع إجازة المغادرة العائلية، بحيث تشمل أربع ساعات مغادرة شهرياً لمراجعة طبيب الأطفال، أو حضور مجلس الأولياء في المدرسة. عارضت تايسون قائلة إن أربع ساعات كثيرة جداً، وطالبت بحد أعلى ساعتين شهرياً. وشعرت بأنها غير منطقية أبداً. لماذا يكسب الأهل هذا الوقت الإضافي للعناية بأولادهم؟ ورحنا نتساوم على أربع ساعات في الشهر، مع حد أعلى سنوي يبلغ ٢٤ ساعة.

الحمل في سن المراهقة: نحن جبناء أحياناً. فقد أثارني أن أرى ما إذا نضج الناخبون في الأمور المتعلقة بالقضايا الجنسية، إلى حد يقبلون معه برمجة الحمل والولادة في المدارس أظهر كلينتون في أركنساس شجاعة حقيقية بوضع برنامج لتوزيع موانع الحمل في المدارس الثانوية على البنات اللواتي يقبل آباؤهم ذلك. وودت لو أن برنامجاً مماثلاً يتم تبنيه على الصعيد القومي. قلت للرئيس «حين نصبح واقعيين ونضبط الحمل والولادة في المدارس، فلن نصطدم بمشكلة الحبل في سن المراهقة» فأجاب «علينا أن نزاوج هذه المسألة مع برنامج التقشف لتشجيع الأولاد على تأجيل ممارسة الجنس». قلت «سياسياً، هذا كلام مؤكد، أما التقشف فميؤوس منه، لأن الأولاد سيمارسون الجنس مهما قلت». قال «يجب أن يدخل هذا في البرنامج».

طرحت الموضوع في الاستطلاع، ووجدت أن حوالي ٦٠٪ من الاجابات تفضل توزيع موانع الحمل. وحين جمعنا بين التوزيع وموافقة الأهل وبرنامج التقشف ارتفع رقم الموافقين إلى ٦٤٪.

فكرة موافقة الوالدين أعجبت كلينتون فقال «ماعدا العائلات المتخلخلة غير المترابطة. علينا أن نستثني العائلات التي لا تسير أمورها الأسرية بشكل سليم». حين سألت الناخبين أي الأمرين يفضلون، برامج تقشف، أم برامج لتوزيع موانع الحمل، كان تأييد البرامج من النوع الثاني بنسبة ٢ × ١.

لكنني فقدت أعصابي، فأخبرت كلينتون أن الفكرة هامة، إلا أننا لا نجرؤ على دخول انتخاب ندعم فيه برامج موانع الحمل دون تأييد ٧٠٪ على الأقل من الناخبين. قلت «بعد فوزك بالانتخاب، يجب أن يكون الموضوع على رأس أولوياتك، أما الآن فالمخاطرة كبيرة». ووافق الرئيس.

خصائص التعليم ومعاييره: قوبلت ملاحظة الرئيس بالتصفيق الحار. بأن المجتمعات الصغيرة تحترم الأحكام العرفية (صاغ ملاحظته على شكل ما كانت أمه تقوله له: «حين

تشتعل المصابيح ، عد إلى البيت يا بيل) . اقترح اللباس الموحد في المدارس ، كفكرة تحمس لها بالتدريج . قال « حين كنت أتجول وأرى الفرق الذي تحدثه الألبسة الموحدة ، أشعر أننا فعلاً في طريقنا لنصنع شيئاً . لا شعارات ملونة للعصابات ، لا ثياب ضيقة للبنات . لقد كانت فكرة رائعة أنا مقتنع بها » .

لكن ملاحظته ، التي ألقاها في اجتماع جمعية حكام الولايات يوم ٢٦ مارس/آذار ١٩٩٦ ، حول تبني الولايات المتحدة إلزام طلابها باختبار مسبق كشرط للترفيع أو للتخرج ، كانت ملاحظة في غير محلها . لقد أراد الرئيس فعلاً من الولايات المصادقة على مثل هذه الاختبارات ، لكنه لم يجد قاعدة شعبية تدعم مثل هذا الالزام . ولهذا فقد اقتصرنا على دفع الولايات وتشجيعها لتبنّي مثل هذه الاختبارات .

أما الموضوع الذي أهملناه فعلاً ، فهو أننا لم نطالب بوضع نهاية لفترة ولاية المعلمين . ولو أن الجمهوريين تابعوا هذا الموضوع ، بدلاً من سحق اتحادات المعلمين ، والدعوة إلى ترك الخيار للمدارس ، لاستطاعوا انتزاع مسألة التعليم منا ، ولكان ذلك خطوة هامة لصالح دول . لقد أظهرت الاستطلاعات أن الناس يمتعضون كثيراً من مسألة الولاية غير المحددة هذه . حين كانت الأجور منخفضة ، كانت مدة الولاية ذات معنى ، لكن المعلمين الآن يتقاضون في بعض الولايات أكثر من ستين ألف دولار سنوياً كمعدل متوسط . والناخبون لا يعجبهم هذا ، ويريدون أن تكون لهم القدرة على مطالبة المعلمين الذين يتقاضون رواتب جيدة بأداء جيد . لكن اتحادات المعلمين أقوى سلطاناً على كلينتون من أن يعارضها . ولهذا لم نهتم أبداً بهذه القضية الهامة .

اقتراح دول بشأن إعانات المدارس الخاصة والمدارس التي تديرها منظمات دينية ، أفزع كلينتون . فقد أدرك أن هذا الاقتراح ، إلى جانب استعماله الفيتو في مرحلة سابقة في وجه منع الإجهاض ، قد يتسبب بارتدادات كاثوليكية كبيرة . وأظهرت استطلاعاتي المبدئية أن الناخبين أيدوا مخطط دول بنسبة ٥٥ إلى ٣٥ . فقضينا ، الرئيس وأنا ، ساعة كاملة ذات يوم ونحن نبحث عن طريق نعارض بها مخطط دول . لم يفكر الرئيس أبداً بالالتفاف بالحوار . فوجدنا أن الناخبين حين يدركون أن الأموال التي ستدفع للمدارس الخاصة والدينية ستأتي من مخصصات التعليم ، فسيثورون وينقلبون بسرعة ضد المخطط . لقد شعر الناخبون بأن معونة المدارس الكاثوليكية والأديان الأخرى أو المدارس الخاصة لا ضير منها طالما أنها لا تأتي من الاعتمادات المخصصة للمدارس الحكومية . واستند الرئيس إلى هذه النقطة في حواره الثاني مع دول حول مسألة الاعانات .

كانت المعركة كبيرة للحصول على موافقة البيت الأبيض على اقتراح الرئيس في أوائل يوليو/تموز ١٩٩٦ ، بتخصيص اعتمادات فيدرالية لبناء المدارس . ورغم أن الجماهير أيدت هذا البرنامج بقوة ، وأن الرئيس كان شديد الحماس لتنفيذه فوراً ، إلا أن الجميع عملياً كانوا ضده . حتى وزير التعليم رايلي ، رأى أن الآجر والملاط ليس المكان الصحيح الذي توضع فيه أموال التعليم . وزير الخزانة روبين ولورا تايسون عارضا تزويد الحكومة الفيدرالية بإعانة بناء المدارس . جين سبيرلينغ ، الذي قاد دفة الفكرة إلى سواحل الموافقة النهائية ، خشي أن تنفق المخصصات على الأبنية المدرسية القائمة ، وليس على بناء أبنية جديدة ، وكما كان يفعل غالباً في عام ١٩٩٦ ، رمى الرئيس جانباً بكل هذه الاعتراضات والاحتجاجات ، وأعلن عن البرنامج مع بعض التعديلات ، مطالباً بأن تذهب الاعتمادات إلى مشاريع جديدة فقط ، بدلاً من مشاريع قيد الإنشاء .

الجريمة : كانت أكبر عقبة واجهناها بالحصول على الموافقة على معايير عادلة للجريمة هي النائب العام . جانيت رينو ، أكرر مرة أخرى ، رينو وموظفون آخرون في إدارة العدل أقاموا الحواجز والموانع في الطريق . وكان من الصعب فهم السبب .

اقترحتُ بموافقة الرئيس تزويد الأسلحة النارية بقفل أمان ، كي لا يقتل الأطفال بعضهم بعضاً ، أو يقتلوا أنفسهم ، وهم يلعبون بمسدس والدهم ، وعارضت إدارة العدل هذه الفكرة .

بعدها ، أراد الرئيس تشديد العقوبات على من هم دون سن الواحدة والعشرين ويحملون المسدسات . فقالت رينو « لا » . وعلمت أنها هددت بالاستقالة إذا تم تقديم الفكرة .

كما عارضتْ أيضاً اقتراحات بتعديل دستوري ، يعطي ضحايا الجريمة من الحقوق مثل ما للمدعى عليه ، لكن الرئيس صادق على التعديل رغم اعتراضاتها . ورغم احتجاجات السناتور كريس دود .

منذ سنين والنواب العامون في الولايات المتحدة يستخدمون قانون ريكو (سلطة منظمات الابتزاز والرشوة) لملاحقة عصابات المراهقين ، كما يستخدمونه في القبض على عصابات الاجرام وقضايا اتحاد المخدرات . إدارة العدل قتلت اقتراحاً تقدم به الرئيس لعقد مؤتمر صحفي ، يتم فيه إلقاء الأضواء على هذه الاستراتيجية ، وتتخذ فيه التوصيات لكل النواب في الولايات المتحدة ، رغم أن النائب العام رقَّ فيما بعد ولان موقفه أمام هذه النقطة .

ولعل أبلغ مثال حي لما لاقاه كلينتون من صعوبات مع رينو جاء في يونيو/حزيران ١٩٩٦ ، حين وجد مكتب التحقيقات الفيدرالي ، استنتاجاً من تحليلات خاصة ، أن معدل

جرائم القتل عند الأحداث آخذ بالانخفاض، على عكس ما هو شائع من أنه يطير بارتفاع كالصاروخ. فخطط رام ايمانويل ليلقي الرئيس كلمة حول الجريمة عند الأحداث في نفس الوقت الذي أعلن فيه مكتب للتحقيقات الفيدرالي معلومته تلك. وكان الحدث الكبير في كاليفورنيا.

كان رام قبل ذلك بأسبوع قد حثنا على إعلان برنامج عن تعقب واقتفاء أثر الأسلحة، ناسياً كما نسينا جميعاً أننا قد أعلنا عن مخطط من هذا النوع. وحاولنا تغطية الأمر بتوضيح أن هذا البرنامج مخطط متدرج المراحل، إلا أننا بقينا محرجين. كان رام واحداً من الذين قاتلوا لنشر الأفكار بين الجماهير، وكانت هذه إحدى غلطاته القليلة جداً.

ومع هذا كله كانت رينو غاضبة. شعرت أن إدارة العدل قد استغلت لمقاصد سياسية. فحبست عندها المعلومة عن جرائم الأحداث. قال لي رام مؤكداً «سنلتقي بها مصادفة في الأسبوع القادم. فهي لا تريد سوى خوزقة كلينتون في جولته إلى كاليفورنيا، حيث تستطيع إيذاءنا بسبب حكاية اقتفاء أثر الأسلحة» وكانت تنبؤاته بمنتهى الدقة.

أنا لم أفهم أبداً سبب معارضتها لهذه الخطوات. ولم أسألها مباشرة في ذلك. إلا أننا كنا كلما ناقشنا اقتراحاً حازماً بشأن الجريمة، خشينا أن تحاول رينو القضاء عليه.

زواج العاهرين والعاهرات(*): كان الرئيس يؤيد بقوة القوانين التي تمنع تمييز العاهرين والعاهرات عن غيرهم، لكنه كان يؤيد أيضاً أن نترك للولايات أن تمنع الزواج بالعاهرين والعاهرات إذا رأت ذلك، باعتبار أن الموضوع — كما يقول — لا شأن لواشنطن به. وحين تقدم الجمهوريون بتشريع يعطي الولايات الحق بمنع زيجات العاهرين والعاهرات المسموح به في ولايات أخرى، قرر كلينتون إمضاءه. والذي أثار الموضوع، هو أن هاواي كانت على وشك أن تسمح بزواج العاهرين والعاهرات، وكان لا بدّ من صدور تشريع من هذا النوع تستطيع الولايات التسع والأربعون الباقية معه من توليف حقوق وقوانين الزواج عندها، مع العاهرين والعاهرات الذين تزوجوا في هاواي، لكنهم يعيشون في ولايات أخرى.

(*) يستعمل المؤلف كلمة gays، التي فيها معنى العهر والفجور والفسق عند الجنسين، الأمر الذي نفهم معه أن الحديث هنا يدور عن زواج محترفي البغاء واللواط عند الجنسين، ويجدر التنويه إلى أن في بريطانيا وأمريكا نواد ونقابات رسمية مرخصة لهؤلاء المحترفين، شاركت في مؤتمر المرأة العالمي الذي انعقد في بكين عام ١٩٩٦.
— المعرب —

اقترحت في اجتماع رسم الاستراتيجية، في حال صادق الرئيس على مشروع القانون هذا كما قال، أن عليه أن يعلن ذلك فوراً على الجماهير. قلت للرئيس «أمامنا مشروع قانون قدمه الجمهوريون نستطيع المصادقة عليه. وإذا ما تأخرنا في إعادته مصدقاً، فسوف يدخلون عليه كل التعديلات التي تعارض زواج العاهرين والعاهرات بحيث يصبح من الصعب عليك تصديقه. ولهذا، وقبل أن يضيفوا إليه كل أنواع القيود الحصرية الأخرى، دعونا نوافق عليه من حيث المبدأ».

قال جورج ستيفانوبولوس أن بعض أفراد طاقم البيت الأبيض قد يعارضون الرئيس في موقفه «أعتقد أننا نستطيع تنفيذه، لكننا نحتاج إلى بعض الوقت لصقله والتمهيد له».

أجاب الرئيس بحدة غير عادية «حسناً، لقد انتخبني الناخبون وأعطوني أصواتهم، وهذا يعني أنني رئيس، أليس كذلك؟ وأنا كرئيس أريد المصادقة على مشروع القانون هذا، وأريد إعلانه على الناس فوراً، وليس ثمة أي غموض أو تشويش في موقفي. أما إذا كان هنا من لم يعجبه ذلك، فلقد خلقت سبعة ملايين وخمسمئة ألف وظيفة جديدة، يمكنه الالتحاق بواحدة منها». وساد الصمت المطبق في الغرفة. وبعد بضعة أيام أعلن مايك كوري عن موقف الرئيس في الصحافة.

★★★★

كانت لائحة القيم هذه، التي اتسعت وتعددت على مدى ثمانية شهور، هي العمود الرئيسي في حملة إعادة انتخاب كلينتون. ورغم أن الصحافة حاولت أن ترسمه بصورة التافه السمج، إلا أن الناخبين رأوا ما يمكن لرئيس فعال مثله أن يقدم للانسان العادي، بمساعدة الكونغرس أو بدونها. ففي كل اقتراح من اقتراحاته، كان كلينتون يوجه رسالة إلى أناس لم يتوجه إليهم أحد بالخطاب منذ أكثر من عشر سنين.

قلت للرئيس «ستكون لنا أيامنا المئة المزدهرة المحظوظة، إلا أنها ستأتي في النهاية، وليس في البداية». فخلال سبعة شهور، وبسرعة هائلة فائقة، تحدث الرئيس عن الأحكام العرفية ومنع التجول على المراهقين، وعن اللباس الموحد في المدارس، وعن الهروب من المدرسة. واقترح اعتماد الحكومة ببرنامج ضخم لإصلاح وبناء المدارس. واستطاع بمخصصات قليلة ومساهمات خاصة أن يزود معظم مدارس كاليفورنيا بتمديدات للحواسب الالكترونية، وأن يرسم ويرسي الطريق لاكمال التجهيزات المطلوبة بحلول عام ٢٠٠٠. أما في مجال المعايير التعليمية في الولايات، فقد حث على إخضاع الطلاب لامتحانات المستوى كشرط للتخرج أو الترفيع. وباقتراح اقتطاع الرسوم الجامعية من الضريبة، وسَّع قاعدة التعليم المجاني حتى شمل نهاية السنة الثانية من الدراسة الجامعية. وطالب بفتح المدارس ليلاً وأيام

العطل لاستخدامها كمراكز للأنشطة الاجتماعية . كما طالب بتكثيف البرامج لضمان أن يستطيع الطفل القراءة في الصف الثالث .

تم تسليم جماعات المراقبة في الأحياء هواتف خلوية ، تبرعت بها الشركات الصانعة بتشجيع من الرئيس ، للابلاغ عن الجرائم حال حدوثها . كما تم ملاحقة كل من له سوابق في جرائم الجنس على طول الحدود بين الولايات . ترحيل الأجانب المقيمين في البلاد بشكل غير شرعي ارتفع في عام ١٩٩٦ إلى ضعف ما كان عليه في عام ١٩٩٢ . قدم الرئيس اقتراحاً بتعديل دستوري يحمي حقوق ضحايا الجرائم . وقام بحبس الاعتمادات الفيدرالية عن الولايات التي لم تلتزم أصولاً بتطبيق فحوصات المخدرات على الذين أطلق سراحهم بكفالة .

أصدر كلينتون قراراً تنفيذياً يقضي على الأمهات المراهقات المستفيدات من المعونة الاجتماعية ، إما بالعمل أو بالدراسة على أن تعيش في منزل . وصادق على تشريع يعفي المتبني من الضرائب . وشجع المستشفيات على السماح للنساء بعد الولادة بالبقاء أكثر من ٢٤ ساعة في المستشفى .

ورأى مالكو العقارات أن هيئة الاسكان الفيدرالية تخفض الإيجارات بمعدل ألف دولار . واقترح الرئيس أن يتمكن العاملون من الحصول على فترات راحة يختارون توقيتها بدلاً من ساعات عملهم الإضافي المأجورة . وطالب بتوسيع إجازة المغادرة العائلية للعناية بصحة الطفل أو زيارته في المدرسة .

الآباء المتسكعون الهاربون من مسؤولياتهم، ستنشر صورهم في مراكز البريد ، وستحجز ممتلكاتهم في أنحاء البلاد فيدرالياً ، وطالب كلينتون بالسماح بملاحقتهم قضائياً وقانونياً .

ارتفعت مستويات تحليل وفحص اللحوم لأول مرة منذ عشرات السنين ، فخضعت للفحص المجهري في المخابر . وتم تطبيق تعليمات أكثر صرامة على مبيدات الحشرات والفئران ، كما تم التصديق على مشروع قانون هام بشأن مياه الشرب الصافية النظيفة ، وتم إنقاذ حديقة يللوستون العامة من حفريات التنقيب ، وضاعف الرئيس مخصصات تنظيف مقالب القمامة والنفايات السامة .

كل هذا خلال سبعة شهور ، إضافة إلى اقتراحات أخرى كثيرة لم يكتب لها أن تخرج إلى حيز التنفيذ .

كنت أريد تخفيض ضريبة رؤوس الأموال إلى حدود ٢٠٪ ، لكن لاري سامرز معاون وزير الخزانة تقدم بهذا الاقتراح . وقال إنه لن يكلف شيئاً ، لأنه سيحفز ارتفاع مبيعات الأصول ، مما سيحقق فائضاً إضافياً صافياً بحدود عشرة مليارات دولار على مدى سبع

سنوات، شرط ألا يكون له مفعول رجعي. وكان ذلك مقبولاً ومعقولاً من الناحية المادية والسياسية. فلقد قام بتدقيقه السناتور جون بروكس مع خبراء الضرائب في الكونغرس، الذين أقروا بأنه لن يكلف شيئاً، رغم أنهم كانوا أقل تفاؤلاً في مسألة نمو الدخل. أنا لا أفهم أبداً لماذا لا تلغى كل الضرائب التي لا تنتج أي ريع مالي. يقول الليبراليون إنها ضرورية للحفاظ على الدخل الضريبي، ورغم ذلك أجدني لا أفهم السبب الحقيقي. وماتت الفكرة عندما صادق الرئيس على قانون إصلاح المعونة الاجتماعية. وإنني أعتقد بأن تخفيض منافع الفقراء الحاصل من تخفيض ضرائب الأغنياء هو تفكير جمهوري متطرف بالنسبة لنا.

لقد أردت الإعلان عن اتفاقية مصرفية «طوعية» تحقق معايير أمنية جديدة، للماكينات النقدية على أبواب المصارف. فالمجرمون ينتظرون حلول الليل لمهاجمة الذين يملأون محافظهم من هذه الماكينات. والمعايير الأمنية المطلوبة بسيطة. فقد اقترحت محامية النيابة العامة في بروكلين سابقاً إليزابيث هولتزمان، التي كانت واحدة من الضحايا، تزويد هذه الماكينات بكاميرات فيديو تعمل بعيداً عن المتناول، مع إنارة كافية حول منطقة الماكينات بحيث يرى المارة ما يجري. وكان المفروض أن يضغط وزير الخزانة روبين على المصارف للموافقة على هذه المعايير، لكنه لم يفعل أبداً، ولم تتحرك الفكرة من مكانها.

احتج بانيتا على السرعة الهائلة التي تسير بها الاقتراحات، وطلب تهدئة الأمور والتريث ليتسنى لنا دراستها، لكن الرئيس أراد شلالاً من الاقتراحات لا يتوقف ولا يهدأ، وكان على ليون أن يسرّع من عملية الموافقة ودفعها للتنفيذ.

ما كان يدهش كلينتون، هو إلحاح الناس بطلب المساعدة من الحكومة، في الوقت الذي يطالبون فيه بتصغير دور وحجم الحكومة. ففي أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية المسائية، حدثنا عن خطاب كان قد أعده ليعلن فيه عن تقديم العون لإحدى الولايات التي اجتاحتها العواصف، وقرأه بين ابتسامات ساخرة ووجوه عابسة، قال فيه:

> يا أهلي الأمريكيين. إنني أعرف ما عانيتم من خراب ودمار بسبب العواصف في ولايتكم، وأعرف أن الكثيرين خسروا بيوتهم وأعمالهم، وأن البعض خسروا حياتهم. كل ما فيّ يبكي لأعطيكم ما أستطيع من عون يساعدكم على إعادة بناء حياتكم. لكنني أعرف كيف تفكرون وكيف تعبّرون عن أفكاركم، وأنا أحترم آراءكم. أنا أعرف أنكم تعتقدون بأن الحكومة، وبخاصة على المستوى الفيدرالي، لا تستطيع مساعدة الناس، وبأن الحكومات الأصغر هي الأفضل، ولا أريد أن أطلب منكم تدنيس مبادئكم في وقت مثل هذا، أنتم تريدون حكومة تدعكم وشأنكم، وتخرج من حياتكم. ولهذا، أقول لكم الليلة وداعاً... وحظاً سعيداً.

لماذا لم يتخذ الجمهوريون من جدول القيم فكرة محورية تقوم عليها حملتهم، خصوصاً وهم يروننا نسرق منهم قضاياهم المركزية التقليدية في أمور المال والمعونة الاجتماعية والجريمة؟ لماذا لم يستعملوا سلم الاستطلاعات والإحصاءات كما فعلت أنا؟

أعتقد بأن السبب هو أن المستشارين الجمهوريين لم يعتادوا من قبل على فرض دروب جديدة في معالجة الأمور. كانت كتابات بيل باكلي في الخمسينيات، والثورة الريغانية. والعقد مع أمريكا، هي نصوصهم الأساسية الجوهرية، التي لا مزيد فيها لمستزيد. كان المستشارون الجمهوريون يقتصرون في نصائحهم عادة على الأسئلة الاستراتيجية والتكتيكية، وعلى الترويج لبيانهم الانتخابي ولمرشحهم. لم يكن لديهم أبداً أي تعديل يطورون به سياستهم أو برامجهم.

لكن كلينتون اكتشف حلبة أخرى يقيم عليها سباقاته، هي امتداد لجدول القيم عند حزبه. لم يحصر نفسه بمعتقدات موروثة مسبقة، واستخدم الاستطلاعات الاحصائية لتحديد اهتمامات الجماهير بدقة، واختبار مدى الموافقة على مقترحاته وحلوله. وكان دوري يتعلق بتطوير الخيارات السياسية وبإيجاد البرامج البديلة للرئيس، ليأخذها بعين الاعتبار وهو يصوغ قراره.

وبدأت أحب هذه الاستطلاعات الأسبوعية عن أمريكا. ورأيت فيها فرصة للحوار مع الناس في البلد. وبعد أكثر من مئة استطلاع صرت أعرف الأمريكيين جيداً، وكانت تلك التجربة من أمتع الفرص التي أتيحت لي في حياتي لأتعلم.

مهاجمة اليمين الراديكالي المتطرف: بعد أن أوضحنا جدول قيمنا، أردت أن أجعل من الأولويات الاجتماعية التقليدية للجمهوريين أقل جاذبية عند الناخبين. ففي الحين الذي شجعت فيه الرئيس على الاعتدال في مواقفه، أيدت بقوة المواقف العدوانية المجابهة في مسائل الاجهاض، وتنظيم وضبط الأسلحة، وتحرك الميليشيات. وبإظهارنا الجناح اليميني في أسوأ صوره، قضينا على مزاعم الجمهوريين في المركز.

لقد شجعت على الوقوف بحزم إلى جانب الدكتور هنري فوستر في تعيينه جراحاً عاماً، وعلى استخدام حق النقض في منع إجهاض الأجنة مجهولي الأب، الذي مرره الجمهوريون إلى الكونغرس. وفي كلتا الحالتين، أضاع الجمهوريون قاعدة مؤيديهم بسبب معارضتهم العنيدة بمنح المرأة حق الاختيار.

وعملت جاهداً على توسيع ضبط الأسلحة في المناطق التي يريد أهلها ذلك. وكنت خلف اقتراح كلينتون بمنع المحكومين بجرائم العنف المنزلي من اقتناء الأسلحة، فقدمت

التوصيات التي لم يتبناها الرئيس (حتى الآن) . كان من بين اقتراحاتي ، تزويد الزناد في جميع الأسلحة بقفل أمان . وبعد جدال مع مات ليفين ، اقترحت قانوناً فيدرالياً مماثلاً لقانون نافذ في فرجينيا ، يمنع شراء أكثر من مسدس واحد في الشهر ، وذلك لمنع سكان الولايات التي تطبق إجراءات صارمة على الأسلحة من القدوم إلى الولايات التي تطبق إجراءات أقل صرامة ، وتملأ مخازنها بالأسلحة المصادرة لتعيد بيعها مرة أخرى . كما اقترحت أخيراً ، بالنسبة لكل من يملك أكثر من عدد معين من المسدسات ، الحصول على رخصة خاصة أشبه بتلك المطلوبة من المخازن .

لقد عرضتنا هذه المواقف إلى هجوم الجناح اليميني الحاقد وجماعات الضغط بفعالية أكثر ، الذين كان لهم تأثيرهم على القواعد الجماهيرية للحزب الجمهوري . وشعرت أننا كلما أثرنا حنق هذه المنظمات أكثر وضغطنا عليها أكثر ، زاد احتمال سيطرتها على عملية الترشيح الجمهورية ، وحصلنا في النتيجة على مرشح خصم ، نستطيع التغلب عليه في هذه القضايا .

لدى الحزب الجمهوري اليوم ذات المشكلة التي كانت لدى الحزب الديموقراطي في الثمانينيات . فهو لا يرشح من يستطيع الفوز بالانتخابات . لأنه عالق في فخ جناحه اليميني ، كما كان الحزب الديموقراطي عالقاً في فخ جناحه اليساري في عام ١٩٧٢ و١٩٨٤ و١٩٨٨ . ويبدو أن على الشخصيات المركزية مثل الجنرال كولين باول ولامار ألكساندر أن تتنحى جانباً لمرشحين محافظين مثل جاك كيمب الذين يفوزون بالترشيح ويخسرون بالانتخاب .

إن ذات المواقف التي جعلت أعضاء الجناح اليميني جذابين عند ناخبي الجمهوريين في الانتخابات التمهيدية ، هي التي أطاحت بهم في الانتخابات العامة . وإذا استطاع نيكسون أن يلعب بورقة الأكثرية الصامتة ضد الشباب حارقي الأعلام ، والمحتجين على لوائح القرعة في الجندية ، ومعارضي منع التدخين ، فإن بوسع الديموقراطيين أن يلعبوا بورقة محبي الحياة ضد تجار الأسلحة ، ومؤيدي شركات التبغ ، ورجال العصابات والميليشيات .

الفصل الثاني عشر

العطلة الرئاسية

أحياناً، أؤكد على الاستطلاعات الاحصائية بشكل متطرف متعصب. وخير مثال على ذلك، إصراري على استخدام المعلومات الإحصائية في إعطاء الرئيس نصيحة لم يطلبها مني حول ما يجب أن يفعله في عطلته الرئاسية بشهر أغسطس/آب. قلت متحمساً «إنها المرة الوحيدة التي يجب أن يراك الناس فيها مع أسرتك دون رتوش».

كان الرئيس في عطلة سابقة قد ذهب إلى «مارثا فينيارد»، ولم تساعد الصور التي التقطت على اليخت مع جاكلين أوناسيس في تحسين صورته الشعبية أبداً. وكنت قد أنهيت لتوي قراءة كتاب «العقيدة المذهبية الشعبية» لمايكل كازين، الذي تتبع تاريخ العقيدة الشعبية عبر المئة سنة الماضية. أعطيت الكتاب للرئيس، بعد أن وضعت علامات على الصفحات الهامة الرئيسية، التي اعتقدت أنها يجب أن تقرأ بعناية خاصة.

حدد كازين تسع حقب شعبية في تاريخنا. الثلاثة الأولى منها هي: الحقبة الأصل عند المزارعين وعند ويليام جيننغز برايان محاميهم في الثمانينيات من القرن الماضي. وحقبة تشكيل اتحادات عمال صناعة الطائرات التي تتوجت باتحاد العمل الفيدرالي في السنوات الأولى من القرن الحالي. وحقبة تطور اتحادات الفولاذ والفحم والصناعات الأساسية الأخرى في الثلاثينيات، التي شكلت فيما بعد هيئة المنظمات الصناعية، ويسميها المؤلف «العقيدة الشعبية الصناعية». وأستطيع أن أضيف إليها حقبة العصيان الضريبي الشعبية في عهد ريغان من الثمانينيات.

كما حدد كازين ثماني حركات اجتماعية شعبية: منع بيع المسكرات في العشرينيات، المذهب الشعبي الكاثوليكي للأب كوفلين في الثلاثينيات، المكارثية في الخمسينيات، ثورة الطلاب في الستينيات، جورج والاس وجماعات العنصريين عام ٦٨، وأغلبية نيكسون الصامتة في السبعينيات.

أقام الديموقراطيين حزبهم على الشعبية الاقتصادية، بينما أقام الجمهوريون حزبهم على الشعبية الاجتماعية. والنقطة الأساسية عند كازين هي أن الشعبية الاقتصادية في طريقها إلى الزوال، بينما الشعبية الاجتماعية آخذة بالازدهار. وأن العدو الأكبر للشعبية الاقتصادية هو الثروات والامتيازات، بينما العدو الأكبر للشعبية الاجتماعية هم الأذكياء المفكرون والنخبة المثقفة.

قلت مؤكداً «لقد أسأت إلى الشعبية الاجتماعية بابحارك على اليخت من فينيارد مع جاكي أوناسيس وكارلي سيمون» وعلق مارك بن قائلاً «أنت تتصرف بشكل فاضح مع أناس متزوجين ومع أولاد، وقد حان الوقت الذي يجب فيه على أسرتك كلها أن تتصرف كما يتصرف الناخبون العاديون».

ولم يكن بن بالذي يترك مثل هذا الأمر للمصادفة. كانت نظريته أننا نستطيع معرفة الناخبين المتأرجحين بمخابرة هاتفية مركزة، ثم نرسل إليهم بالبريد مخطط حملتنا الانتخابية، لولا أن من الصعب العثور على هؤلاء المتأرجحين. فالاقتراع السري الذي نص عليه الدستور، يجعل التعرف على هوياتهم أمراً يحتاج إلى بوليس سري خاص. والطريقة المعتادة للعثور عليهم هي بفحص الأصوات في مراكز الاقتراع الصغيرة وفي الدوائر الانتخابية والقطاعات بالانتخابات السابقة. فإذا صوّت الناخبون في مدينة صغيرة لصالح الجمهوريين مرة، ثم لصالح الديموقراطيين في المرة التالية، فهم ناخبون متأرجحون، من السهل إقناعهم.

إلا أن لدى بن طريقة فريدة في العثور على الناخبين المتأرجحين. فقد استخدم في مؤسسته الاستشارية جدول أسلوب الأفضليات في الحياة للتعرف على الزبائن الذين يميلون على الأرجح إلى الانتقال من ماركة إلى أخرى. فالباحثون ودارسو الأسواق يقسمون الأمريكيين إلى أكثر من أربعين مجموعة بناء على جدول أسلوب الأفضليات في الحياة، ويطلقون عليها أسماء خاصة. فالباحات والبرك تعني عندهم متوسطي الدخل، والأبيض يعني المتزوج من الضواحي ذا الأولاد، والقبعات والعباءات تعني المفكرين من أهل المدينة الذين يعيشون قرب الجامعات. وتنقسم مناطق صناعة التسوق إلى قطع مربعة (وحدات صغيرة جداً تشمل عدداً من الأبنية والمحال التجارية) تقطنها هذه المجموعات.

اقترح بن أن نقوم بمسح ضخم واسع، يشترك فيه عشرة آلاف مسّاح إحصائي، نسأل الناس فيه عن جوانب معينة من أسلوب الأفضليات في حياتهم: كل متى تذهب إلى السينما؟ أي الأفلام تحب؟ هل تمارس البولينغ؟ هل أنت صياد؟ هل تلعب التنس؟ ما موقفك من الدين؟ هل سبق لك أن طلّقت؟ وهكذا... وكانت فكرته أن يضع كل

مسَّاح في مربع لإحدى الطبقات ، ثم يسألهم هل يفضلون كلينتون أم دول ، فيستطيع من هذه المعلومات التعرف على الناخبين المتأرجحين . فقد يكتشف مثلاً أن الأغلبية الساحقة من القبعات والعباءات تفضل كلينتون ، ولا حاجة لأن نستهدفهم ونتوجه إليهم . لكنه قد يكتشف أن الباحات والبرك نصفهم يفضل دول ونصفهم يفضل كلينتون ، وهذا هو النوع المتأرجح الذي نبحث عنه . وباستعمال خريطة يعلّم عليها أماكن تجمع كل فئة من هذه الفئات ، يستطيع أن يعثر على الناخبين المتأرجحين ويتوجه إليهم قبل يوم الانتخاب .

أثارت الفكرة اهتمام الرئيس ، وأضحكته طموحاتها رغم إيمانه بجدواها ، وأعجبه الجانب التقني والنفسي فيها الذي يجعلها ممكنة ، لكن المشكلة كانت مع غور . فرغم أنه الأكثر إعجاباً بعمل بن وأفكاره ، إلا أنه ناقش طويلاً قدرات هذا الأسلوب وإمكانياته . كان كل ماله علاقة بالتقنية يستحوذ على اهتمام نائب الرئيس ، وكنت أحسبه كمبيوتراً ناضجاً سريعاً .

ذهبت إليه مرة في مكتبه لأمر وجدت أنه هام ، فقال « انظر إلى هذا » وتجاهل أهمية ما أتيت من أجله وهو ينقر على لوحة مفاتيح كمبيوتره وتابع « دعنا نرى ما هناك من حكايا عن ديك موريس » ثم طبع اسمي على الشاشة أمامه ، وضغط زراً ، فلم يحصل شيء ، وارتبك نائب الرئيس محرجاً . وعاد إلى الآلة مصمماً على أن يجعلها تعمل . وبعد ثلاث أو أربع دقائق من الشخير والنخير ، استسلم يائساً والتفت إلي ليرى المستعجل الذي جئته به . لكنه بدا واضحاً أنه ليس معي ، فقد كان يحاول أن يكتشف الخطأ الذي ارتكبه مع الكمبيوتر .

بعد أن أمضى كلينتون عطلة عام ١٩٩٥ ، بدأنا بتنفيذ مخطط بن . وعلمنا أن الصيادين مع دول وأن مشاهدي التلفزيون مع كلينتون ، لكن جماهير كرة السلة متأرجحين ، ومثلهم محبو النزهات الخلوية والتقنيات . كما علمنا أن إقامة المخيمات والمعسكرات هي المفضلة عند الناخبين المتأرجحين .

قدمت إلى مجموعة رسم الاستراتيجية جدولاً بما يجب أن تتضمنه العطلة الرئاسية القادمة من نشاطات ، وأنا أحسب حساب ما قد ألقاه من سخرية ورفض . فاقترحت أن يجعل الرئيس عطلته جبلية ، يتسلق وينزل وينام في خيمة بمعسكر . وأشرت إلى أن الغولف (رغم أنه من ألعاب ناخبي دول) ضرورة رئاسية . ثم توصلنا إلى معادلة وسط لما يجب أن يفعله الرئيس ويمارسه في عطلته .

لم يكن كلينتون سعيداً ، فقد كان الأمر برمته تمادياً في حمل الأمور على غير محملها . سأل بلهجة تقطر سخرية « هل أستطيع ممارسة الغولف ؟ وهل بإمكاني أن أضع

قبعة على رأسي ؟ » وأجبته عابساً « عليك أن تلعب الغولف بأي شكل تشاء » . وعاد إلى التساؤل الساخر مرة أخرى « ولكن ماذا لو تسلقت الجبال وأقمت في مخيم وذهبت لصيد السمك ولكني لم أصطد ولا سمكة ، أيناسبكم ذلك ؟ » .

وشعرت أنني أستحق سخريته . فهذه النصائح القائمة على أرقام الاستطلاعات تطرف غير معقول ، رغم أنه حين أمضى عطلته بعد ذلك ، أقام في خيمة ، وتسلق المرتفعات في الحدائق العامة ، لكنه مارس الغولف اللعين . ومن هنا فلا عجب أننا في تلك المرحلة كنا نتخلف عن دول .

قال كلينتون بانفعال بعد عودته « هذه أول عطلة أقضيها لا تفيدني في الاستطلاعات . كنت بعد كل عطلاتي الأخرى أرتفع درجة أو درجتين ، أما في هذه فلم أتزحزح على الإطلاق » . كان يسخر من تطرفي بالاعتماد على استطلاعاتي في تقديم النصائح ، فقابلت سخريته هذه بروح مرحة متسامحة .

إلا أنني شعرت بحدته وهو يعارض التدخل في حياته العامة وأوقاته الخاصة ، وخاصة التي يقضيها مع تشيلسيا . لقد أحسست في سخريته تلك ألماً وشكوى جعلتني أندم على المبالغة في تدخلي .

حاولت في مجال المحافظة على الصورة الشعبية للرئيس ، أن أبعده عن هوليوود . ففي عام ١٩٩٦ ، دعي الرئيس وهيلاري إلى حفل زفاف صديقتهم القديمة الهوليوودية ماري ستينبيرغين على تيد دانسون ، وحين علمت بالخبر في أحد اجتماعاتي مع بانيتا أطلقت آهة ساخرة . فأعلن ليون ليساعدني أن موسم الأعاصير قد بدأ ، وقد لا يستطيع الرئيس أن يطير إلى هناك ، وأكملت مع ستيفانوبولوس المؤامرة ، إنما لم تجد كل المفاوضات المباشرة مع هيلاري في تسوية الموضوع . لقد حاولتُ وفشلتُ . قالت « إننا أصدقاؤهم ، وقد قررنا الذهاب » .

نجحنا فقط في تحديد فترة تواجدهم في فينيارد ، ورتبنا جولة إلى منطقة بوسطن فور انتهاء زيارتهم هذه ، لإلقاء كلمة هناك عن التعاون مع الشرطة وحمايتهم . وطلبت من هيلاري توجيه من معها بعدم تصوير الرئيس أو السيدة الأولى مع أي من نجوم السينما الموجودين في الحفل .

ثبت صدق التنبؤ الجوي الذي تنبأ به ليون ، وثارت زوبعة بالفعل ، لم تمنع كلينتون من الذهاب إلى حفل الزفاف ، لكنها أرغمتهم على العودة سريعاً ، بعد أن اقتلعت السقف في الحفلة .

خلال عطلة الرئيس عام ١٩٩٦ في جبال روكي، اتصل بي كلينتون متسائلاً «أريد اصطحاب تشيلسيا في نزهة بقارب نهري، فهي تحب ذلك فعلاً، فهل ثمة ضير؟». لم أفهم ما يقصد، فسألته «هل هي نزهة خطرة؟» قال «لا أبداً، لكنني أخشى أن يجعلوها محطاً للسخرية». قلت وقد فطنت إلى ما يرمي إليه «لعلك تقصد التعابير التي أطلقتها الصحف في فضيحة وايت ووتر (التجديف في المياه البيضاء)؟» قال «نعم» قلت «لا بأس عليك منها يا سيدي، حتى لو جعلوها محطاً لسخريتهم، فسيضطرون إلى القول أنك كنت تجدف طافياً على السطح وليس غارقاً تحته».

لم تكن تشيلسيا متأثرة بمركز والديها، كما يجب أن تكون بنات الرؤساء. كانت تملك إحساساً بذاتها، وتعرف من هي، وتمضي في الطريق الخاص بها. عاشت حياتها كلها إما ابنة حاكم لولاية صغيرة، يكون الحاكم فيها عادة محور الاهتمام ومركز الأحداث، أو ابنة رئيس للبلاد كلها. ومع ذلك، لم يترك هذا عندها أي أثر للغرور، أو العجرفة، أو التمييز الطبقي. كانت تعرف أن مركزها مؤقت، يعتمد على إنجازات والديها، وليس على إنجازاتها هي، وأن عليها أن تشق طريقها الخاصة حين ينتهي ذلك كله.

عرفتها منذ أن كانت طفلة تقتحم اجتماعاتنا راكضة في قصر الحاكم بولاية أركنساس، بشعرها الأشقر المجعد الجميل. وعرفتها في مراهقتها دمثة، ذكية، مهذبة. وكانت حين أتصل بالرئيس في مسكنه بالبيت الأبيض، تذهب بكل احترام لتتأكد ما إذا كان أبوها يستطيع الرد علي، أو لتسجل رسائلي بمنتهى الدقة.

في عام ١٩٩٣، وخلال أحد لقاءاتي بالرئيس، اندفعت مع صديقة لها إلى المكتب البيضوي وهي مبللة، بينما كان أحد عناصر الأمن يلحقهما مجهداً. صاحت تشيلسيا بانفعال «كنا نجذف بالقارب حين انقلب بنا».

ضحك الرئيس من منظر ابنته الملطخة بالوحل، وقال بلطف حازم «ألن ترحبي أولاً بالسيد موريس؟». ولم يبد على وجه رجل الأمن أنه مسرور. وفي عطلة عيد الميلاد من عام ١٩٩٥، كنت على موعد مع الرئيس في مسكنه بالبيت الأبيض، لبحث أمور سياسية، فاستأذنته أن أحضر معي ابنة أختي كاتي ماكسويل، لأدخل السرور على قلبها بمقابلة الرئيس والسيدة الأولى.

كاتي طفلة في الرابعة عشرة من عمرها، نموذج كامل لأطفال أمريكا. دخلت معي إلى البيت الأبيض، وانتظرنا معاً في قاعة الخرائط قدوم الرئيس، الذي يدخل عادة بصمت دون أن يشعر به أحد، بينما أنت تفترض أن تتقدمه فرقة من الطبول لتعلن عن وصوله. كان هادئاً

غير متطفل ، لا يصيح بالآخرين الذين معه بالغرفة ليلفت انتباههم . كان يدخل فقط دون صوت ، وينتظر أن يلاحظ الآخرون دخوله .

كادت كاتي تصطدم به وهي تتجول ، وأجفلت وهي ترى الرئيس واقفاً يبتسم لها ، وقد أذهله سحرها ، لكنه استدار خارجاً من الغرفة قائلاً إنه سيعود إلينا فوراً . بعد دقائق ، دخلت هيلاري بوجه مشرق ، فقدمت لها كاتي . موضحاً أنها في مقام ابنتنا ، إيلين وأنا ، إذ ليس عندنا أولاد .

أصرت هيلاري على أن تتعرف كاتي على تشيلسيا ، التي كانت تعد بعض الفطائر على آلة جاءتها هدية بمناسبة عيد الميلاد . فساعدتها كاتي كثيراً إذ كان لديها واحدة مثلها في البيت . وانصرفتا لتحضير الفطائر مع صديقة ثالثة خلال الساعة التي أمضيتها مع الرئيس .

****

كانت تشيلسيا في تواضعها صورة طبق الأصل عن أبيها . زرتُ مؤخراً زبوناً سابقاً ، طباعه على عكس طباع كلينتون تماماً . لم يكتف بتقديم زجاجة كولا ترحيباً بي ، بل أصر على إلقاء محاضرة عليّ عن حياته ، مستعرضاً صوره المعلقة على الجدران مع المشهورين من الناس ، وميدالياته وجوائزه التي حصل عليها . لكنك حين تزور بيل كلينتون ، لا تجد شيئاً من هذا كله . فهو لا يحاول أن يجعلك تشعر بأنه شخص هام ، لكنه بالمقابل لا ينتقص من قدر نفسه ، بل يترك للوقائع أن تتحدث عنه ، بينما هو يتحدث عن أمور أخرى . صاح أحد الجنود ذات مرة « تلك هي مروحية الرئيس » فقال له الرئيس ليندون جونسون « هذه كلها مروحياتي يا بني » . وأشار إلى جميع طائرات الهليوكوبتر في الجو وفي المطار . بيل كلينتون ليس من هذا النوع مطلقاً .

يقول عن الواجب المفروض عليه « إنه واجبي كرئيس » ، ويفرّق بين كلينتون الرجل وكلينتون الرئيس . ولا يزعجه الجانب الاحتفالي الاستعراضي في عمله ، لا بل يستمتع به أحياناً ، لكنه يعرف أن ذلك يقدم له بحكم عمله ، وليس لذاته . إنه كما قال تشرشل ذات مرة ، لا يدع أهواءه تدير رأسه . التواضع هو أقل الصفات التي يتميز بها كلينتون .

لدى كلينتون ، بدلاً من الغرور والخيلاء ، شهية مخيفة للنقد . فبالرغم من حساسيته الشديدة تجاه التجريح والهجوم ، إلا أنه يتوق إلى سماع نقد الناس الذين يطمئن إليهم . ويعود هذا لحد ما إلى حاجته للتغذية الاسترجاعية التي تساعده على فهم نقائصه وعيوبه ومواطن الضعف عنده ، لكنه يعكس أيضاً حالة القلق والخوف وعدم الاستقرار التي يعيشها دائماً . راداره لا يستطيع أن يرصدك ما لم تتوجه إليه بالنقد . وإعجابك به لا يتأكد عنده ما لم يعرف الأشياء التي لا تعجبك فيه .

دون بابر لم يلق من كلينتون ما يستحقه على كتابة خطبه ، أو على توجيهاته المستمرة له في مختلف المجالات . لم يطمئن كلينتون إلى باير أبداً ، ولم يعينه مديراً للاتصالات إلا على مضض وبعد تذمر كبير . حتى بعد أن استلم باير عمله ، ونظم الاتصالات في البيت الأبيض ، لم يمدحه كلينتون ، ولم يحاول توثيق علاقته الشخصية به . قلت لدون إنني أعتقد أن السبب الوحيد هو عدم نقده لكلينتون وجهاً لوجه .

في اجتماع بالمكتب البيضوي حول الحملة الانتخابية عام ١٩٩٦ ، قدم باير مسودة خطبة رائعة دقيقة متماسكة إلى الرئيس . قرأها كلينتون ، ثم تحدث عن كل شيء آخر خطر بباله يمكن أن يدخل في الخطبة . وكدت أقول له إن مسودة خطاباته تفتقر إلى التسلسل والتنظيم ، وحبذا لو يركز على مسودة باير التي أعطاها له . إلا أن باير سارع إلى إرضاء الرئيس . وبدلاً من أن يدافع عن الخطبة الرائعة التي قدمها له ، اقترح أن يتم تعديلها لتشمل كل أفكار الرئيس المتعرجة الملتوية . وراقبت وجه الرئيس أثناء حديث باير ، فوجدته يعكس الخيبة من استسلام دون وانهياره بهذه السهولة . كان كلينتون يريد من يتحداه ، وليس مرؤوساً يتنحى عن الدرب خوفاً من غضبه .

إذا لم تذكر خلال الدقائق الخمس الأولى من لقائك بكلينتون أحد الأخطاء التي ارتكبها ، خسرته نهائياً . فليس أسرع مللاً منه بسماع الأشياء الصحيحة التي قام بها . سيحاول أن يخدعك ، ويمثل عليك وهو يروي لك بحرارة وعينين لامعتين حكاية ما فعله هنا وما قاله هناك . لا تنخدع ... فهو في الحقيقة ينتظر منك أن تقول له « خطابك كان جيداً جداً ، إنما لم يعجبني فيه ما قلته عن كذا وكذا ... » .

****

من اللحظات التي لا تنسى في عطلة الرئيس عام ١٩٩٥ ، هي التي حصلت يوم ١٦ أغسطس / آب . حين أعلن السناتور بيل برادلي من نيوجيرسي أنه سيعتزل من منصبه في مجلس الشيوخ بعد انتهاء مدته . وكان المتوقع أنه يخطط كمرشح مستقل لمنافسة كلينتون على الرئاسة ولتحديه في الانتخابات التمهيدية . إلا أنني لم أعتقد أنه سيقوم بشيء من هذا ، خصوصاً بعد هزيمته المنكرة أمام كريستي تود وايتمان الأقل منه ثراء في السباق الأخير . لكنه ترك هذه الشائعات تنمو خلال عدة أسابيع ، ربما ليؤكد إدانته وشجبه للسياسات التي تمارسها واشنطن .

قلق الرئيس ، واتصل بي على هاتفي الخلوي في اليوم التالي من صدور التصريح . أنت لا تستطيع أن تتحدث مع الرئيس أو نائبه على هاتفك في السيارة أو على هاتفك الخلوي ، فخطر تداخل الخطوط فيها كبير جداً . مرة أو مرتين فقط تحدثت فيهما مع الرئيس على

خطوط هشة من هذا النوع ، وكانت حالات طارئة ، أعلمته فيها مسبقاً من أين أتحدث . كنا في طريقنا ، إيلين وأنا ، بمحاذاة الساحل إلى البيت الصيفي الذي استأجرناه ، قالت إيلين « كلينتون في عطلة ، وسنقضي وقتاً هادئاً » . لكن نبوءتها لم تكن دقيقة .

كان عليّ أن أجد هاتفاً بأسرع ما يمكن ، ولم أر على مدّ النظر أمامي أية محلات تجارية أو كابينات هواتف عامة . أخيراً وجدت مركزاً لصيد السرطانات البحرية ، شرحت لصاحبه حاجتي الماسة إلى إجراء مكالمة هاتفية . فقادني إلى مكتبه خلف البناء المملوء بأحواض السرطانات .

حين تتصل بالرئيس ، عليك أن تتصل أولاً بمقسم البيت الأبيض ، فإذا كان اسمك على قائمة من يجوز لهم الاتصال ، وصلتك عاملة المقسم به . أما إذا كان الرئيس خارج البيت الأبيض ، حولتك لقسم الاتصالات ، لتخبره أنك تريد الاتصال بالرئيس ، وليقوم هو بتحريك المخابرة ، فيرد عليك أحدهم ، حسب المكان الذي يتواجد فيه الرئيس ، ليقول لك مثلاً « البيت الأبيض في وايومينغ ، أهلاً وسهلاً » أو « البيت الأبيض في باريس ، أهلاً وسهلاً » . في البداية لم أكن أفهم هذا النظام الاتصالي وأتساءل عما إذا كان ثمة بيوت بيضاء صغيرة سرية في كل أنحاء العالم . لكن صديقاً لي نصحني فيما بعد ألا أدعو الرئيس إلى زيارة منزلي ، خوفاً من أن يملأوا الجدران بالثقوب وهم يمددون له أسلاك الاتصال الهاتفي ، مما يستحيل بعدها السكن في المنزل .

هذا كله استغرق وقتاً طويلاً ، وأنا أنتظر بين أحواض السرطانات . وحين انتظم الاتصال في النهاية ، كانت أولى كلمات الرئيس كالعادة « أين أنت ؟ » . وصفتُ له البناء والمكان والرفاق الذين يشاركونني المخابرة ، وطمأنته أن الخط آمن ، وأن بإمكاننا أن نتكلم بحرية .

كان قلقاً من موضوع برادلي ، فقلت له إنني أشك أن ينافسه برادلي ، والأفضل أن نتحدث عنه بالخير كيلا نثير غضبه . ووافق الرئيس ، لكن مزاجه بقي معكراً .

كانت التعكيرات المزاجية أمراً لا يمكن اجتنابه في العطل والإجازات . ولولا أنه لا بدّ للصحافة من أن تلتقط له الصور وهو يمارس الغولف سعيداً ، لكره العطلات كلها . كلينتون يحب عمله كثيراً ، ولا يحب ما يبعده عنه أبداً ، لكنه لا يعرف ذلك . هو يظن أنه يحب العطلات ، إلى أن تبدأ إحداها ، فيتحول إلى قلق ، عصبي ، هائج ، يموت شوقاً للعودة إلى عالمه الحقيقي . فإذا بدا مرتاحاً وهو يعود من عطلته ، فلأنه يحمد الله على انتهائها ، وعلى تمكنه من العودة إلى حياته الطبيعية .

الرئيس يظن أنه ينام جيداً في العطلة ، لكنه بالفعل ليس كذلك . وحين يكون في عطلة ، يتوهم أن شخصاً ما أو شيئاً ما يفسدها عليه ، فيكتئب ، ويتحول إلى شخص بذيء يهاجم من حوله .

بعد عطلة عام ١٩٩٥ ، ارتاح أكثر حين قرر ما يجب أن يفعله بشأن البوسنة ، ومعركة الميزانية مع الجمهوريين ، والتنافس مع دول في سباق الرئاسة القريب . بالمقارنة بالعطلة ، كانت هذه الضغوطات كلها بالنسبة إليه راحة مطلقة .

الفصل الثالث عشر

قنوات أجنبية

حين تجددت علاقتي بالرئيس كلينتون في سبتمبر/أيلول من عام ١٩٩٤، بمخابرة هاتفية حول هايتي، موضوع الفصل الأول من هذا الكتاب، لم يكن لي أي أثر أو وجود على تصرفاته في الشؤون الخارجية. هذه مقدمة هامة أستهل بها هذا الفصل، فالشؤون الخارجية ليست من اختصاصي. لكنني أردت أن أصف دوري المحدود في إلقاء بعض الأضواء على القرارات التي اتخذها الرئيس في سياسته الخارجية. فلقد وجدت أنني قد أكون ذا نفع له في ذلك الصعيد كقناة توصل له آراء الخبراء ونصائحهم، وكوسيلة إيضاح تشرح للأمريكيين قراراته بطريقة محكمة مقنعة. ذلك الصعيد الذي تتفتح فيه شخصية الرئيس الأصلية، وتظهر فيه قدراته على أتمها.

حين استلم الرئيس كلينتون منصبه، كانت خبراته على الصعيد الخارجي محدودة، وإنما ليست بالسوء الذي ألمح إليه بوش حين قال مازحاً إن خبرات كلينتون العالمية لا تتعدى «المؤسسة العالمية للحلويات والمعجنات»، إنما كباحث وليس كمشارك. ورغم ذلك فقد قرر أن يعطي الأولوية للأمور الداخلية المحلية، وهاجم بوش، كمرشح، لأنه لا يعطي الكثير من وقته لهذه المسائل. لقد ترك كلينتون العديد من الأمور الخارجية لوزير الخارجية وارين كريستوفر ولمستشار الأمن القومي توني ليك، رغم أنه يؤمن بدور أمريكا الخارجي إلى حد يجعل من الصعب معه أن نسميه انعزالياً. وحين انضممت إلى الرئيس لم تكن عنده رؤية خاصة لسياسته الخارجية. كان ينفعل ــ على كره ومضض أو على رضى ــ بالاهتمامات العالمية حين تتدخل بعمق في السياسات الأمريكية إلى حد يضطره أن يفعل شيئاً. فتدخله في هايتي مثلاً كان إلى حد كبير ردة فعل لخوفه مما يتضمنه تدفق اللاجئين الهايتيين الهائل إلى الولايات المتحدة. فقد رأى أزمات خارجية أجنبية كثيرة، مثل راواندا وليبيريا وكمبوديا، التي تفجر فيها الوضع إلى التجزئة والتقسيم بضغط خارجي، وتحاول أن تطلب مزيداً من التحرك الأمريكي للتدخل في منطقة ليس للشعب الأمريكي أية مصالح فيها. لقد دفعته التغطية

التلفزيونية المستمرة لمناظر الفجور والفسق في البوسنة إلى أن يعلق قائلاً « إنهم يحاولون إرغامي على أن أزج بأمريكا في حرب » . فقط في مجال التجارة الخارجية ، الذي كان يعرف عنه الكثير قبل قدومه إلى البيت الأبيض ، كان لدى كلينتون جدول يبرمج بموجبه ما يفعل . في هذا المجال غالباً ما كان يؤيد وزير التجارة ميكي كانتور في مواقفه القوية الحازمة تجاه اليابان والشركاء الآخرين التجاريين ، التي كان النهج السياسي الخارجي يحاول التخفيف منها .

انعكس اهتمام الرئيس الطارئ بالسياسة الخارجية في أوائل عام ١٩٩٥ على التنظيم في بيته الأبيض . فمجلس الأمن القومي بقيادة توني ليك ، ومعاون مستشار الأمن القومي ساندي بيرغير ، كانوا متحصنين داخل خندق عن باقي أفراد طاقم الموظفين في البيت الأبيض . حتى بانيتا لم يكن له شأن يذكر في الأمور الخارجية ، وستيفانوبولوس كان يشتكي لي دائماً من منعه من الكلام عن كل ما يتخذه مجلس الأمن القومي من قرارات في المسائل الهامة .

كان لمجلس الأمن القومي كتّابه المختصون بمسائل الخطابات والكلمات والبيانات . وكان على دون باير وموظفيه أن ينتظروا بلهفة ما يرسله إليهم « مغرورو السياسة الخارجية » في مجلس الأمن القومي . حول خطاب الرئيس أمام الحكومة الاتحادية في عام ١٩٩٥ ، نزلت المسودة منقوشة على ألواح حجرية ، يجوز فيها إضافة النقط والفواصل وتصحيح تهجية الكلمات ، إن أثبت المعجم وجود خطأ فيها . أما عدا ذلك فلا يجوز .

وإذا كان هذا هو حد الهامش المسموح لطاقم البيت الأبيض أن يصل إليه من مجلس الأمن القومي ، فبإمكانك أن تتخيل حد الهامش المسموح به لي أنا . كنت كلما اقتربت أكثر من اللازم من حدود أمور مجلس الأمن القومي ، صاح طاقم السياسة الخارجية كالأوز على بركة ، تحذر إحداها الأخرى من أن كلباً قد اقترب . وكان توني ليك مثالياً جداً ، لكنه اقليمي متشدد ، ونصائحه السياسية غير نظيفة . أما نائبه ومعاونه ساندي بيرغير ، فتغلب عليه السمة السياسية ، مع سجل طويل مشبوه في مجال الحملات الانتخابية . متين البنيان كلاعب الدفاع في كرة القدم . حاول أن يفرض حساً سياسياً واقعياً على النهج الفكري لدى مجلس الأمن القومي ، لكن رؤيته السياسية لم تكن صحيحة دائماً ، إلا أنه حاول .

لم يكن الرئيس سعيداً مع طاقم سياسته الخارجية . فقد سألني في ديسمبر/كانون الأول ١٩٩٤ ، إثر التحاقي بالعمل لديه ، عما إذا كنت أعتقد بأن عليه تغيير وزير خارجيته ، قال مقترحاً « ما رأيك بسام نان ؟ » . قلت معارضاً « ستخسر بذلك مقعد ولاية جورجيا في مجلس الشيوخ . وليس ثمة ديموقراطي يستطيع أن يفوز به في ضوء معدلات الاستطلاعات

التي لدينا» . قال الرئيس «أظن أنه سيعتزل في كل الأحوال بعد انتهاء مدته في عام ١٩٩٦» . وكان ظنه في محله . قلت «إنه اختيار جيد ، ولكن هل سيكون وفياً وموالياً لك؟ ألن يستقل برأيه بعيداً عنك؟» أجاب «لا أدري ، قد يفعل» . ثم صمت لحظة وهو يفكر ، وغيّر الموضوع . ومع ذلك ، لم تكن ملاحظته تلك عن نان تعني الموافقة على وارين كريستوفر .

بعد بضعة أسابيع ، أعلن كريستوفر عن استعداده للتنحي ، حين سمع بما يفكر فيه كلينتون ، فقيّد بذلك يد الرئيس الذي طلب من كريستوفر البقاء ، طالما ليس في ذهنه بديل له . هكذا تسير الأمور في واشنطن .

قرر كلينتون تعيين بيل كوهين ، السناتور الجمهوري المعتدل من ماين ، رئيساً لوكالة الاستخبارات المركزية CIA ، فسألت ترينت لوت عن نان وعن كوهين ، وكان رأيه فيهما إيجابياً .

في مارس/آذار ١٩٩٥ ، شعرت أنني أصبحت قريباً من الرئيس إلى حد أستطيع معه أن أحدثه بما يدور في ذهني ، عن ترك تسيير السياسة الخارجية لموظفيه المعنيين عنده . قلت «أظن أنني بدأت أرى كيف يقوم ليك بتسيير السياسة الخارجية هنا ، بشكل أشبه بالوصاية على العرش» كنت أشير بقولي هذا إلى الطريقة التي تعين بها الأنظمة الملكية الأوربية الوزراء المسنين الراشدين أوصياء على الملوك القاصرين . وتابعت «أنت الآن أصغر من أن تستطيع تسيير سياستك الخارجية بنفسك ، ولهذا يقوم ليك وكريستوفر بتسييرها عنك ، لكنهما سيتركان لك الأمر بعد أن تبلغ سن الواحدة والعشرين» .

تصلبت قسمات الرئيس قليلاً لهذا الوصف ، لكنه اكتفى بأن قال «ليس لدي خيار آخر ، ليست لدي مصادر أخرى للمعلومات» .

لقد واجه كلينتون في مسألة السياسة الخارجية ، ذات المشكلة التي واجهها أغلب الرؤساء الآخرين ، حتى الذين كانوا أكثر خبرة وحنكة منه في الشؤون الخارجية . فمعلوماته تأتيه من دواوينه ومكاتبه ، التي قد تختلف شكلياً عما يأتيه من وزارة الخارجية أو وكالة الاستخبارات المركزية أو مجلس الأمن القومي ، إلا أنها جوهرياً واحدة ، أتت من نبع واحد .

كان كلينتون بحاجة إلى آراء ونصائح من خارج هذه الأطر كلها . كما كان بحاجة إلى رؤية سياسية خارجية . فلعبة الكلمات الناقصة التي يُحكم ليك إعدادها ، بأن السياسة الخارجية في دولة يموقراطية لا يمكن ، أو لا يجوز ، أن تقررها السياسات الداخلية ، هذه اللعبة في رأيي هراء لا معنى له . فلتحقيق سياسة خارجية رئيسية وهامة ، وفيها كل الفعالية والنشاط المطلوب ، عليك أن تحصل على تأييد جماهيري . والاعتبارات السياسية لا تحتاج إلى التدخل

في اتفاقات الرئيس مع مئتي قطر آخر وإخضاعها للروتين. وحين يطلب الرئيس من الأمريكيين أن يخاطروا بأرواحهم في هايتي أو البوسنة، وأن يوافقوا على دعم المكسيك أو روسيا مالياً، فعليه أن يتأكد أولاً من أنهم يفهمونه ويؤيدون قراراته هذه.

من الواضح أن أولئك الذين رسموا السياسة مع الفييتنام لم يعبأوا بما يفكر به الشعب الأمريكي. فهنري كيسينغر والآخرون لم يبالوا أوافقت الجماهير الأمريكية على ما يفعلون أم لم توافق. وافترضوا أن علينا أن نقبل آلياً بكل القاذورات التي تدفعنا الأقلية الحاكمة إليها، طالما أن الشيوعية هي العدو. لقد قيل عن ميترنيخ، الذي قاد العلاقات الدولية للنمسا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، إنه لا يعتبر النمسا وطناً عليه أن يخدمه، بل مصطلحاً ديبلوماسياً. وأتعجب أنا من أن ينغرس مثل هذا الموقف الفردي المتعالي في أعماق مؤسسات سياستنا الخارجية.

كان بيل كلينتون يعبأ ويبالي بما تفكر به أمريكا. ولم يكن اهتمامه هذا نابعاً من رغبته بإعاده انتخابه، بل لأن مسألة فييتنام ما زالت ماثلة أمامه، ولأنه كان يعرف أنه لا فائدة من أية سياسة لا تؤيدها الجماهير. ومن هنا، فهو لم يسجن نفسه ضمن جدران الاستطلاعات، بل كان يستأنس بها ويستشيرها فقط في قراراته وسياساته، وكان يستخدمها لمعرفة أفضل الحوارات إقناعاً للحصول على التأييد الداعم لما يقرره. ففي البوسنة مثلاً، توجه بأمريكا في الوجهة الصحيحة، رغم أن الاستطلاعات بمعطياتها وأرقامها حذرته من مغبة إقحام أمريكا فيها.

★★★★

أظهرت استطلاعاتي أن حوالي ٤٠٪ من الأمريكيين انعزاليون، يعارضون أن تكون لديهم سياسة خارجية على الإطلاق. في أحد الاستطلاعات وضعنا ثلاثة خيارات: أن نتدخل خارجياً لحماية مصالحنا وقيمنا، ونتصرف كشرطي عالمي. أن نتصرف كصانعي سلام، نفعل ما نستطيع دون أن نرهق وارداتنا. أن نركز على حاجاتنا الداخلية، ولا نضيع وقتنا بالقلق على الأمم الأخرى ومشاكلها. ووجدنا أن ١٤٪ فقط اختاروا التدخل ودور الشرطي، بينما أراد ٤٣٪ دور صانع السلام المرن، و٣٧٪ رفضوا بكل تشاؤم أي دور خارجي على الإطلاق. كانت الانعزالية واضحة جداً، وقوية جداً.

لم يفهم مجلس الأمن القومي أن الحصول على أغلبية تؤيد أي تدخل خارجي للولايات المتحدة، يحتاج إلى خبرة وحنكة سياسية، طالما أن ٣٧٪ من أهل البلاد يعارضون كل تحرك خارجي من حيث المبدأ.

الفرق الهام بيني وبين مجلس الأمن القومي في طريقه تقديم منهجنا السياسي الخارجي إلى الأمة، هو أنهم يميلون إلى توليف مواقفنا وتحركاتنا مع اتفاقياتنا مع الدول الأخرى، ومع متطلبات أمننا القومي، ومع أهدافنا الاقتصادية. بينما اعتقدت أنا بأن الجماهير مهتمة أكثر بتقديم القيم الأمريكية على مصالحها الخاصة. فمثلاً، حين طلب مني الرئيس إعداد استطلاع يهتدي بمعطياته إلى توضيح سبب إرساله الفرق العسكرية إلى البوسنة لوقف قتل النساء والأطفال، ولوقف الابادة الجماعية القائمة هناك. فالأمة لم تقتنع بحجج مجلس الأمن القومي: دعم حلفائنا في الناتو، والحاجة إلى مساندة أوروبا كي تساندنا أوروبا بدورها في محاربة الإرهاب، ومصداقية الولايات المتحدة في العالم.

إن موافقة الأمريكيين على فكرة التميز والفائقية الأمريكية بأن الولايات المتحدة أمة خاصة، عادلة، منصفة، تثق بها كل الأمم الأخرى، تنبع من أننا نتصرف بعدل، وليس من أننا نحقق مصالحنا الخاصة. ومع ذلك مال مجلس الأمن القومي إلى الأخذ بهذا الاعتبار النظري الخطر، الذي سينفّر على الأرجح حلفاءنا بسبب ما نزعمه من تفوق وتميز أخلاقي.

يفخر اليابانيون ويعتزون بعملهم الجماعي، والألمان بكفاءتهم، والفرنسيون بثقافتهم، والانكليز بعزمهم الثابت، والأمريكيون بقيمهم العادلة. وحين نعزو سبب تدخلنا في البوسنة إلى «المصالح الوطنية» أشعر وكأننا نطلب من الناس أن يصدقوا أمراً ليس عسير الاثبات فقط، بل ينسف السبب الوحيد الذي وافقوا على التدخل من أجله، هو أننا عادلون ومنصفون بلا مقابل.

لقد أظهرت استطلاعاتنا أن أكبر صعوبة يجب التغلب عليها لتبرير ما قمنا به في البوسنة، هي أن الأمريكيين لم يفهموا الفرق بين حفظ السلام والحرب. فقد شعر ثلثا الأمريكيين أن قواتنا أرسلت إلى البوسنة تحت شعار إسمي فقط هو حفظ السلام، بينما هي أرسلت في الحقيقة لتهزم المعتدين وتفرض السلام بالتحرك العسكري المسلح. ومن هنا، حين أعلن الرئيس قراره إرسال قوات إلى البوسنة، كان عليه أن يوضح الفرق بين حفظ السلام والحرب.

ورغم أن الخطاب الذي ألقاه الرئيس في الأمة بتاريخ ٢٧ مايو/أيار ١٩٩٥، تضمن إشارات مجلس الأمن القومي إلى مصالحنا، والحاجة إلى أن نثق ونؤمن بحلفائنا، إلا أن الرئيس أوضح بدقة الفرق الكبير بين حفظ السلام والحرب، وأكد على فكرة التميز والتفوق الأمريكي. قال: «إنها قوة المبادىء والمثل، أكثر مما هي قوة الحجم والثروة والتفوق العسكري المطلق، التي تجعل من أمريكا أمة موثوقة بشكل فريد استثنائي. إننا لا نستطيع إنقاذ كل

النساء وكل الأطفال ، لكننا نستطيع إنقاذ العديد منهم ، ولا نستطيع أن نفعل كل شيء ، لكن علينا أن نفعل كل ما نقدر عليه » . وشعرتُ أن هذا السطر ، من أفضل وأخص ما اقترح على الرئيس ، في تلخيص فكرة « صنع السلام » .

★★★★

سألت كلينتون ذات يوم عن الدور الذي يريدني أن ألعبه في السياسة الخارجية ، فكانت توجيهاته محددة ، أردفها قائلاً : « لا تحدثني أبداً في أمر من أمور السياسة الخارجية بحضور شخص ثالث . إفعل ذلك دائماً بيني وبينك فقط » .

واتفقنا على أن نلتقي على انفراد ، قبل أو بعد اجتماعات رسم الاستراتيجية ، لبحث أمور السياسة الخارجية ، لأتمكن من تغطيتها بمذكرات خاصة أقدمها له ولنائبه في اجتماعاتنا الأسبوعية .

وبدأت باستشارة الخبراء في الخارج ، وتوصيل نصائحهم إلى الرئيس مباشرة . كان منهم : جون راغي عميد جامعة كولومبيا / مدرسة العلاقات الدولية ، ومات نيميتز مبعوث الولايات المتحدة الوسيط في المفاوضات القبرصية ، ثم الوسيط مؤخراً في المفاوضات بمقدونيا ، وجيمي روبين سكرتير عام الصحافة في الأمم المتحدة ، والسفيرة مادلين أولبرايت ، وخبير الشؤون الروسية ليندساي ماديسون ، وريتشارد هولبروك المبعوث المفاوض في البوسنة منذ منتصف عام ١٩٩٦ . وكان الرئيس على علم وثيق بشبكة العمل هذه ، وكنت أحرص على أن يسير العمل بحسب توجيهاته ، ولم أطمع بأي ترخيص أو صفة أمنية ، كما لم أتلق أية معلومات سرية من هؤلاء المستشارين . كما لم يحصل أن أطلعني الرئيس على أي من الأمور السرية . بل كان غالباً ما يلمح إلى أمور فيقول : « لا أستطيع إطلاعك عليها » محافظة منه على مبدأ السرية الذي يعرفه .

من هذا الدور الذي مارسته كقناة وسيطة ، عرفت كيف وضع كلينتون بصمته بالتدريج على السياسة الخارجية ، جاعلاً منها سياسة كلينتونية ، وليس مجرد حصيلة بيروقراطية .

★★★★

جاءت أول علاقة لي بالأمور الخارجية ، بعد انتخابات عام ١٩٩٢ مباشرة ، حين كان كلينتون على وشك الفوز ، واتصل هاتفياً بي روجر ستون مستشار سياسي جمهوري اعتدت أن أعمل معه ، ليعلمني أن الرئيس السابق ريتشارد نيكسون يرغب بفتح قناة سياسية خارجية لكلينتون .

بعد فوزه بالانتخابات بيومين ، اتصل بي ليشكرني على جهودي خلال هذه السنين ، فحدثته عن نيكسون ، واعتقدت أنها دعوة من نيكسون تستحق التلبية . سألني : « هل بمقدوره استقبال نيكسون علناً دون مخاطرة سياسية ؟ أجبته : « كان نيكسون الوحيد الذي استطاع الذهاب إلى الصين ، وكلينتون هو الوحيد الذي يستطيع الذهاب إلى نيكسون » .

ضحك وقال : « أظنك على حق ، فلا فورد ولا ريغان ولا بوش جرؤ على الاقتراب من نيكسون . أما أنا فأستطيع ذلك باعتباري ديموقراطياً غير ملوّث ، إضافة إلى أنني أحب نيكسون ، فقد أخذ ما أغدقتموه عليه ، محتفظاً بما لديه » .

انتظر كلينتون فترة قبل أن يتصل بنيكسون . وكان ستون يتصل بي مرة كل بضعة أيام ، ليمرّر لي رؤية أو ملاحظة طلب منه نيكسون تمريرها ، في محاولة لإغراء كلينتون بالاتصال الهاتفي . فقد نصح نيكسون الرئيس مثلاً ، بتعيين الجمهوريين في مجلس وزرائه ، وخاصة منهم جاره في نيوجيرسي وزبون روجر ستون ، الحاكم السابق توم كين . ومرّرت أفكار نيكسون إلى كلينتون ، وحوّلت له توصيته بكين ، واقترحت تسميته وزيراً للتعليم .

أخيراً ، تحدث نيكسون وكلينتون مع بعض مباشرة . وكتبت عن ذلك مونيكا كرولي في كتابها « نيكسون غير المعد للنشر » . وأعتقد أنه كان لنيكسون ضلع كبير في تركيز أنظار كلينتون على روسيا ويالتسين . لقد حذر نيكسون الرئيس بوش من أن روسيا تتعرض لخطر الارتداد إلى الحكم الشيوعي . وإذا حصل ذلك ، فسيكون السؤال الكبير هو : من أضاع روسيا ؟ وكان نيكسون هو القادر الوحيد على إطلاق مثل هذا التساؤل المؤكد ، بعد الزخم الذي كسبه في الأربعينيات والخمسينيات من اتهام هاري ترومان بأنه « الذي أضاع الصين » . نيكسون يعود الآن إلى تحذيره ، مفترضاً أن كلينتون قد يهزم في عام ١٩٩٦ أمام سؤال : من أضاع روسيا ؟ وفهم كلينتون اللعبة . فأصبحت روسيا في سياسة الرئيس الخارجية ، كما هي كاليفورنيا في سياسته الداخلية ، المكان الوحيد الذي لا يستطيع تضييعه .

★★★★

بعد أن صرت مخطط الاستراتيجية لحملة الرئيس الانتخابية ، بحثنا موضوع رحلته إلى روسيا بتاريخ ٩ / ١٢ / ١٩٩٥ . كان الإعلان عن نية روسيا ببيع مفاعلات نووية لإيران يخيم على اجتماع الكرملين . ورغم اعتراضات الولايات المتحدة بأن صفقة مثل هذه سيساعد ذلك النظام الإرهابي على تطوير الأسلحة النووية ، إلا أن روسيا نوت المتابعة نظراً لحاجتها الماسة إلى الأموال .

في اجتماعات رسم الاستراتيجية الأسبوعية، طرح نائب الرئيس غور مسائل خطيرة ومقلقة حول المضامين السياسية لفشل الرئيس في إقناع روسيا بإلغاء الصفقة. وكان السناتور الجمهوري ألفونس داماتو يطالب بقطع المعونات عن روسيا مالم تقم بإلغاء الصفقة. فنظمت استطلاعاً لأرى شعور الناس تجاه الصفقة الإيرانية وتجاه قطع المعونات عن روسيا.

وكشف الاستطلاع عن أن الناخبين قلقون بشأن بيع المفاعلات لإيران، لكنهم متعاطفون مع العلاقات المعقدة الأمريكية الروسية، ويودون لو يروا المحادثات الدبلوماسية تستمر. لم يشأ الناس أن نقيم علاقاتنا مع روسيا على ثلج هش للقضاء على صفقة المفاعل، لكنهم طالبوا بقطع المعونات عن روسيا، إذا ما تمت في النهاية الصفقة الإيرانية. إلا أن الإدارة كانت تعرف أن قطع المعونات المالية الروسية قد يعرض الديموقراطية في روسيا للخطر، ويسمح للشيوعيين بالعودة.

قرر الرئيس أن يقضي على صفقة المبادلات، وأن يبقي على المساعدات الروسية. وأخبرني ليندساي ماديسون الخبير الباحث بشؤون الكرملين، أن الحاجة الحقيقية كانت رصد الاعتمادات لعلماء الذرة الروس العاطلين عن العمل بعد انتهاء الحرب الباردة، وإذا ما تلقوا المساعدة فلن يحتاجوا لبيع المفاعلات. ومرّرت هذه النقطة إلى الرئيس ونائبه، اللذين قالا إنها نقطة مفيدة. وأوقفت صفقة المبادلات في مباحثات القمة الروسية، واعتبر ذلك دليلاً على حنكة نائب الرئيس ودبلوماسيته.

أخبرني الرئيس بعودته من روسيا، أنه طوّر علاقة جديدة مع يالتسين. قال: «حين التقينا من قبل، شعرت أن كلاً منا كان يؤدي دوراً مرسوماً له، وكنا نتبادل الحديث عن طريق المترجمين، أما في هذه المرة فقد توصلت إلى حديث حقيقي معه. إنه يريد ترشيح نفسه لإعادة انتخابه، ويركز على الفوز بالانتخابات». صمت لحظة ثم أضاف بذهول: «إنه يعتقد فعلاً بقدرته على الفوز».

كانت معدلات يالتسين في الاستطلاع أكثر غماً من معدلات كلينتون، ١٠٪ فقط من الشعب الروسي قال إنه سينتخبه. واكتشفت أن يالتسين ربما ضحك كثيراً حين أخبرته ابنته (التي تدير حملته الانتخابية) أن كلينتون يفكر بترشيح نفسه لإعادة انتخابه في أمريكا.

كان الرئيس في شتاء عام ١٩٩٥، تحت وابل متزايد من النيران بسبب التورط في البوسنة. لقد انتقد الرئيس بوش على سلوكه الفوضوي، ثلاث حروب جانبية، جاءت نتيجة للعنف الصربي ضد عضوين سابقين في الاتحاد الفيدرالي اليوغوسلافي هما البوسنة

وكرواتيا ، بعد أن قرر سلوبودان ميلو سيفيتش ، حاكم صربيا ، أن يحقق حلمه بإقامة « صربيا العظمى » ، وضم إليه كثيراً من أراضي جارتيه ، وأقام عملاء له من الدمى بين الصربيين الذين يعيشون في البوسنة سرعان ما أنشأوا كياناً خاصاً بهم يرأسه رادوفان كارادزيتش والجنرال راتكو ملاداك ، وشنَّ صرب البوسنة حرباً شريرة آثمة « لتطهير عرقي » أعاد إلى الأذهان ذكرى مذابح هتلر .

في البداية نادى كلينتون ، كما فعل بوش ، بدور ثانوي للأوربيين : وأرسلت بريطانيا وفرنسا بقواتها إلى البوسنة بتكليف من الأمم المتحدة لحفظ السلام . ثم أصبح حفظ السلام أضحوكة ، حين هدد صرب البوسنة قوات الأمم المتحدة ، ومنعوها هي وقوات الناتو من وقف أعمال العنف التي يمارسونها .

كانت المدن التي تواجدت فيها قوات الأمم المتحدة وتحولت إلى ملاذات للاجئين المسلمين البوسنيين ، تتساقط أمام موجات القصف والهجمات الأرضية الصربية . وتزايد الضغط بوجوب التحرك . وكان التلفزيون يعرض كل ليلة صور المذابح والخراب . وفي ضوء الدور الصغير والتأثير المحدود الذي قدمه كلينتون ، أصبحت البوسنة رمزاً مجازياً لضعفه في نظر أمريكا .

كان كلينتون دائم الحذر من مسألة التورط في المعارك ، ولكي يتمكن مسلمو البوسنة من التسلح وحماية أنفسهم ، فقد فضل فرض حظر دولي يمنع بيع الأسلحة لكل الأطراف المتحاربة . لكن الأوربيين ، الذين تتواجد قواتهم على أرض المعركة ، عارضوا هذا الموقف بقوة ، موضحين بأن ذلك سيخدم في تصعيد النزاع ، الذي تقف قواتهم في وسطه . وتراجع الرئيس عن فكرته على أمل أن تبدأ الرغبة بالسلام عند الصربيين ، في ضوء ازدياد قسوة القرارات الدولية ضدهم . لكن هذه الاستراتيجية السلبية لم تجد نفعاً ، لا بل أعطت درعاً وتبريراً لأعمال القتل . ثم ساءت الأمور أكثر . فقامت قوات الناتو بطلب من الأمم المتحدة بقصف مواقع صرب البوسنة انتقاماً لضرب الصربيين مخيمات اللاجئين المسلمين . ورد صربيو البوسنة بالمثل وأسروا قوات الأمم المتحدة لحفظ السلام وربطوهم بالأشجار كرهائن ، قرب القواعد العسكرية الصربية .

وفاجأ وزير الدفاع ويليام بيري الرئيس ، فقال علناً إن من الأرجح أن تصبح الحاجة ماسة إلى القوات الأمريكية في البوسنة في القريب العاجل . وسمع الرئيس هذه العبارة وهو في طريقه إلى كولورادو يوم ٣١ مايو/أيار ١٩٩٥ ، ليلقي كلمة في أكاديمية القوى الجوية . وتصدرت القصة نشرات الأخبار ، وعرف كلينتون أنه سيواجهها حين تحط طائرته على الأرض .

حاول الرئيس تحجيم الضرر الذي أحدثته عبارة بيري، بتوضيح الظروف التي إن تكاملت قد تحمل الولايات المتحدة على التدخل العسكري في البوسنة. قال: «علينا أن نستعد لمساعدة الناتو على سحب قواته، أو على نشرها وتنظيمها، وعلى دعم هذه القوات وتقويتها، سوف نراجع ونعيد النظر بكل دقة في أي طلب لأي تدخل مؤقت مفيد لقواتنا المرابطة هناك».

ولم تعد القصة قصة ما قاله بيري، بل قصة ما يقوله الرئيس الآن. فكانت العاصفة الوطنية عنيفة عاتية. إذ لم يتم وضع أرضية مسبقة لهذه البيانات المتسرعة، ولم تكن الأمة مهيأة لتدخل عسكري يذكرها بفييتنام. وسقطت معدلات الرئيس، مهددة بفقدان كل نقطة كسبها منذ أحداث أوكلاهوما سيتي، وازدادت خطورة الوضع أكثر بعد أن تم إسقاط طائرة أمريكية ف ١٦ يقودها سكوت أوغرادي فوق البوسنة. وما إن عاد الرئيس من كولورادو، حتى اتصلت به في البيت الأبيض، وأبلغته قلقي من عبارته التي لم يسبقها تحضير جماهيري ملائم. وكان عدم التدخل في البوسنة هو المحور الرئيسي في نصيحتي. قلت: «أنت لا تريد لنفسك أن تتحول إلى ليندون جونسون آخر». وكنت قد قلت له قبلها: «أنت تضحي بقدرتك على تحقيق إنجازات جيدة في الجبهة الداخلية في سبيل تدخل مدمِّر لا ينتهي أبداً. وهذا هو مرض الديموقراطيين، إذ يتركون للشفقة التي تحرك سياساتهم الداخلية أن تزج بهم في حروب بطولية أجنبية غير محسوبة».

كانت الساعة الحادية عشرة من ليل الجمعة، فاقترحت أن يبين كلينتون بوضوح في خطابه الإذاعي صباح السبت، أن احتمال التدخل في البوسنة ضعيف جداً، وأن الوضع مسيطر عليه إلى حد لا مبرر معه لأحد أن يسهر الليالي قلقاً. بعبارة أخرى، عليه أن يتراجع عما قاله في خطابه أمام القوات الجوية.

قال بلهجة آمرة: «أرسل لي بالفاكس مسودة بما تعتقد أنه يجب أن يقال، أرسلها إلى قسم السكن في البيت الأبيض فوراً». وأرسلت له ما طلب إلى قسم السكن، وليس إلى المكتب البيضوي حيث قد يراه آخرون.

وفي صباح اليوم التالي، ناقشنا المسودة على الهاتف سطراً سطراً. وأدخلنا العديد من التعديلات عليها، محافظين على روح النص الأصلي.

وأوضح كلينتون في بيانه الإذاعي أن الأمم المتحدة أمام خيارين: إما أن تدعم قواتها، أو أن تخرج. وإذا ما قرر «حلفاؤنا» البقاء، فسوف يرسل قوات: «في حالة وجود أمل بسلام حقيقي دون قتال ودون إطلاق نار»، أما إذا قرروا الخروج، فستساعدهم قواتنا على ذلك. لقد عزم على التدخل العسكري فقط في حالة أن القوات البريطانية أو الفرنسية أو

قوات البلدان الأخرى، انقطعت بها وسائل الخروج من مكان ما في البوسنة. وهي حالة كما سماها في خطابه «بعيدة الاحتمال والوقوع». وانتهى الخطاب وهدأ الهياج.

كنت مع كلينتون في قسم السكن بالبيت الأبيض يوم ٧ يونيو / حزيران ١٩٩٥، بعد انتهاء اجتماع رسم الاستراتيجية، في غرفة الملابس الملاصقة لغرفة نومه. كنت أراقبه وهو يلعب لوحده بورق اللعب، ونتجاذب أطراف الحديث حول وجوب أو عدم وجوب إلقائه خطاب الميزانية، حين استلم الرئيس مخابرة هاتفية حوالي منتصف الليل. وأضاءت وجهه ابتسامة وهو يقول: «ظفرتم به؟ أحقاً ظفرتم به؟» ونهض واقفاً ودبك برجليه، ثم ضم قبضته أمام وجهه، كهاوٍ لكرة السلة يرى فريقه يسجل نقطتين في الوقت الإضافي ويربح المباراة.

بعد أن علق السماعة مكانها، أخبرني أن عملية الإنقاذ قد نجحت، لكننا لا نستطيع الإعلان عنها إلا بعد عودة أوغرادي، واسترخى في مقعده وقد كسا الارتياح وجهه، ثم فرك صدره بيديه كأنه يفرك قلبه من ألم انتابه، وقال: «كنت قلقاً طوال الليل، كنت أعرف أننا وجدناه، لكنني لم أعرف حتى الآن ما إذا كنا نستطيع إخراجه». ثم راح يحدثني بشغف وحرارة عن ذكاء أوغرادي: «لقد ثبت في النهاية أنه ليس طياراً عادياً، كان موضوعه الأساسي في الكلية: كيف تتفادى الوقوع في الأسر، وتبقى حياً في أرض معادية إذا سقطت طائرتك هناك. لم يكن الرئيس قد عرف بعد أن أوغرادي اقتات على التوت البري ليبقى حياً، وكان على وشك أن يعثر عليه ويؤسر.

جاء توني ليك، فانتحيت بالرئيس جانباً وأنا خارج. كان مستشار الأمن القومي منتشياً طرباً بالأخبار، إلى حد أنه لم يجد وقتاً ليرمقني بتلك النظرة الفئرانية الخبيثة التي اعتاد أن يرمقني بها كلما التقينا بالبهو.

وبقيت مسألة البوسنة سؤالاً صعباً لا جواب له عند الرئيس. فنقلت إليه نصيحة خبراء الخارجية بأن علينا أن نهاجم صرب البوسنة بكثافة جوية. قلت: «أنا لا أعني القدرات الموجودة حالياً، فالناتو لم يرسل سوى بضع طائرات، أنا أعني هجوماً جوياً لا يتوقف قبل استسلام الصرب في البوسنة». قال متبرماً: «لقد قررت الأمم المتحدة استخدام قوات مقيدة في مجموعات، بحيث لا يستطيع أحد بالنتيجة أن يفعل شيئاً، لأن بطرس غالي لن يسمح له بأن يفعل شيئاً».

كان جميع الخبراء الذين استشرتهم من خارج الحكومة يعتقدون بأن على الرئيس أن يعمل على تخفيف القيود التي تحد من حركة القوات الجوية، بالتنسيق مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك ورئيس مجلس الوزراء البريطاني جون ميجر. ومع ذلك كلما ناقشت مسألة

البوسنة مع الرئيس، كنت أصطدم بكلمة «لا يمكن» و «لا نستطيع» المرة بعد الأخرى. سألته في أحد اللقاءات: «ماذا تعني بقولك لا يمكن؟ أنت في موقف قيادي هو الذي يحدد الممكن من غير الممكن».

الحقيقة أن الرئيس كان غارقاً بالمسائل الداخلية المحلية، ويود لو تنتهي مسألة البوسنة، ومن هنا وافق على ما بدا لي أنه تجاوز كبير لصلاحياته الدستورية. فالاتفاق الضمني المبدئي على ترك القيادة لفرنسا وبريطانيا فيما يسمى مشاكل إقليمية أوروبية، نما وكبر حتى أصبح تفويضاً رسمياً للأمم المتحدة بأن تكون صاحبة الأمر بالضربات الجوية، وكان بطرس غالي، كما أخبرني الرئيس، يمارس هذه الصلاحية ويعارض بشدة الضربات الجوية. قال الرئيس: «إنه يفهم اللعبة، فالأمم المتحدة أضعف من أن تصمد، ومن أن تتحرك».

قلت للرئيس، بناءً على نصيحة الخبراء، إن عليه بدلاً من السير على طريق وزراء الخارجية، أن يتفق مباشرة مع شيراك وميجر على قواعد جديدة للضرب الجوي. واقترحت عليه أن يشرك الرئيس الفرنسي الجديد معه في غرفة القيادة، ويغريه بإظهار المزيد من الحزم العسكري. وما إن ينجح في ضم شيراك إليه، حتى ينضم ميجر إلى الصف على الأرجح.

بعد مضي شهر، بدا الرئيس متعباً مترنحاً وهو يقول: «لقد قضيت الليل بطوله أتحدث مع شيراك، ويبدو أنني أنجح. فقد زرعتُ عند شيراك فكرة إرسال قوات ضاربة. هي ليست فكرة عملية، لكنني كنت أحاول تقريبه من فكرة القوات الجوية الكثيفة».

حذرته قائلاً: «الفرنسيون معروفون بحبهم لأمجاد الفروسية، وبتهورهم المميت المشؤوم، والقضية قضية شرف أكثر مما هي قضية نجاح مع الفرنسيين».

يركز كلينتون بسبب حدة طبعة على أمر أو أمرين هامين في وقت واحد، ونادراً ما يركز على الأمور الأخرى. وهو الآن يركز على موضوع البوسنة في الليل، بينما يقوم في النهار بإعداد ميزانية متوازنة تكون موضوع خطابه المقبل، ولم يكن يفكر بعد كثيراً بقضايا أخرى مثل قضية التبغ وقضية تنظيم حملة إعلانية عن إصلاح المعونة الاجتماعية، إذ لم يأت دورها بعد.

بعد ذلك، حصل الرئيس على ما يريد من شيراك وميجر. ففي أواخر يونيو / حزيران أعلن الحلفاء عن سياسة جديدة تنظم الضربات الجوية، أعطت الناتو صلاحية البدء بها، والقدرة على تحديد زمان ومكان القيام بها.

بتاريخ ٢٨ أغسطس / آب ١٩٩٥، ارتكب صرب البوسنة غلطة استحقوا عليها ضربات جوية من قوات حلف الناتو، لقصفهم السوق المركزي في سيراجيفو، واستمرت

الضربات متوالية من ٣٠ أغسطس / آب إلى ١٤ سبتمبر / أيلول ، وكانت كثيفة تلتها هجمات بصواريخ كروز ، حطمت إرادة صرب البوسنة ، فوافقوا على وقف لإطلاق النار كان الأول الذي تم تطبيقه في تلك الفترة .

حين آن أوان إرسال عشرين ألفاً من قوات حفظ السلام إلى البوسنة ، أدرك الرئيس ، كما قال لي ، أنَّ عليه أن يوافق رغم ما أظهرته استطلاعاتنا من معارضة الأمريكيين للتحرك بنسبة ٥٥٪ . فانطلق في إقناع أمريكا ، ونجح في تخفيض نسبة المعارضة إلى ٥٠٪ ، إذ ما إن رأى الأمريكيون الفرق الحقيقي بين الحرب وحفظ السلام ، ورأوا أن لا أحد سيقتل أو يجرح ، حتى بدأت آراؤهم تتغير بالتدريج .

في عام ١٩٩٦ ، تمركزت الشؤون الخارجية الهامة حول ثلاثة انتخابات : في إسرائيل ، وفي روسيا ، وفي البوسنة . في إسرائيل كان اختبار التحدي الحفاظ على الاستمرار في عملية السلام . أما في روسيا فكان منع الشيوعيين من تولي السلطة . وأما في البوسنة فكان في إثبات أن البناء الوطني لن يجدي إلا بانتخابات حرة سلمية .

أدرك كلينتون بسرعة أننا على أبواب حقبة جديدة في مجال الشؤون الخارجية ، تحكم فيها الديموقراطية معظم أنحاء العالم ، ففي حقبة الأنظمة الفاشية ، كان على الرئيس أيزنهاور أن يوسع النفوذ الأمريكي ، وأن يحارب الشيوعية بمعارك خفية تشنها الـ CIA ، تزعزع الحكومات المعادية ، وتساعد أصدقاءنا على الاحتفاظ بالسلطة سواء كانوا منتخبين أم لا . أما الآن فنحن نتعامل مع أنظمة ديموقراطية ، وإذا ما تعاملنا مرة واحدة مع الدكتاتورية ، فسيصبح السؤال : كيف نؤثر على الشعوب التي تحكمها الدكتاتوريات وعلى سياساتها ؟.

كان الأمر تحدياً لمواهب كلينتون غير العادية وقدراته على إقناع الناس ، ففي إسرائيل ، حيث أراد لشمعون بيريز أن يهزم بنيامين ناتان ياهو ، كانت لنا أفضلية خاصة . إذ اتخذ رابين قبل موته ببضعة شهور من دوغ شوين مستشاراً له .

فقد صدر عنوان بوفاة رابين يقول : « لم يكن رابين بحاجة إلى ديك موريس » ، وأشار صاحب المقال إلى أن رابين نجح في قيادة إسرائيل ببسالة رغم آراء الاستطلاعات وأرقامها . وأنا لا أشك في شجاعة رابين ، إلا أنني أعرف أيضاً ، أن لديه ديك موريس يدعى دوغ شوين .

حين استلم شمعون بيريز منصبه ترك شوين يستمر في عمله ، دون أن يفهم في البداية الدور الهام الذي كان شوين يلعبه في رئاسة كلينتون . ومع وضوح مسيرة السباق ، أصبح شوين قناة نظامية غير رسمية ، رحب بها كلينتون وبيريز جميعاً . فكلينتون أراد لبيريز أن يفوز

لتستمر عملية السلام ، وكان يسعده أن يسمع أخبار الحملة الانتخابية لرئيس مجلس الوزراء ، وكان شوين في آخر الليل بعد انتهاء اجتماعنا الأسبوعي لرسم الاستراتيجية يشرح لكلينتون الوضع السياسي في إسرائيل .

من جهتي أنا ، كنت أحث الرئيس بحماسة على تسخير شعبيته الهائلة لصالح بيريز ، فقد أظهرت استطلاعات شوين أن كلينتون هو الأعظم شعبية في إسرائيل من بين جميع الشخصيات الدولية ، بل أعظم من أي مرشح يسعى لمنصب رئاسة الوزراء . وبذل الرئيس كل وسعه ليظهر مع بيريز في إسرائيل وفي الولايات المتحدة ، لدعم صورة حليفه الإسرائيلي .

مع اقتراب الانتخابات ، تقدم بيريز بطلب إلى كلينتون عن طريق شوين ، قال فيه إن مشاعر الإسرائيليين ستتحسن كثيراً تجاه عملية السلام ، لو أن الولايات المتحدة تعهدت رسمياً بدعم إسرائيل في حال الهجوم عليها . ومع أن الولايات المتحدة كانت دائماً على استعداد للدفاع عن إسرائيل ، إلا أن ذلك لم يكن بموجب تعهد رسمي . قال بيريز بشكل محدد إنه لا يطلب تعهد قوات الولايات المتحدة ، إنه يطلب تعهداً بالدعم العسكري والمعونات الأخرى .

وجد الرئيس الفكرة لطيفة مقبولة ، لكن شعلة حماسه بردت حين هاجمت إسرائيل لبنان لمعاقبة الغوريلات المعسكرة هناك على مهاجمتها لإسرائيل . وغضب المجتمع العالمي بشكل خاص حين قصف الجيش الإسرائيلي مخيماً للاجئين ، فسقط كثير من القتلى والجرحى بين الأبرياء من النساء والأطفال . وزعمت إسرائيل أن الهجوم كان غلطة غير مقصودة ، لكن بعض الأدلة أثبتت غير ذلك .

بعد الهجوم ، كان كلينتون فظاً في إدانة بيريز شخصياً بعدم قدرته على ضبط قواته ، وأشار إلى أن ذلك سيجعل من العسير عليه جداً أن يساعده في الانتخابات الإسرائيلية . ثم اقترح الرئيس توسيع « الضمانة الإسرائيلية » إذا ما تحملت هي مخاطر السلام . بعبارة أخرى ، إذا مضت إسرائيل في خطوتها نحو اتفاقية سلام مع سورية ، فستتعهد الولايات المتحدة بحماية الحدود الإسرائيلية التي سيعرضها للخطر تقدمها نحو السلام . في النهاية ، لم يتم التوصل إلى اتفاقية رسمية ، ولكن قبل الانتخابات تعهد كلينتون بأن تدعم الولايات المتحدة إسرائيل إذا ما قبلت أن تخاطر في تحقيق السلام ، وكان ذلك أقصى ما يستطيع أن يقدمه من دعم لبيريز .

اقترب الانتخاب كثيراً ، وبدا أن بيريز قد فاز . فقفزت متسرعاً مفترضاً أنه المنتصر واقترحت على كلينتون أن يهنئه فوراً . وشعرت أن الرئيس يستحق أن ينسب إليه فضل ما قام في سبيل السلام بالشرق الأوسط ، وقررت أن أجعله يحصل عليه . وكان قراراً متسرعاً غير

محسوب ، فقد تبين أن بنيامين ناتان ياهو هو الذي فاز بفارق ضئيل جداً . وانتصر ستيفانوبولوس وبيرغير وغيرهم من أصحاب الرؤوس الباردة ، وأسعدني أن الرئيس لم يحرج نفسه ويحرجني ، ولم يعمل بنصيحتي . وتعلمت ألا أتسرع في استباق الأحداث بعدها أبداً .

كانت خيبة أمل الرئيس لاذعة جداً لهزيمة بيريز ، لكنه واجه الأمر بفلسفة قائلاً : «أنت لا تستطيع أن تدفع بالناس أكثر من قدرتهم على السير . وإذا لم يكونوا قادرين ومستعدين للسلام ، فليس بوسعك أن تفعل شيئاً . وهذا هو الثمن الذي علينا أن ندفعه لجعل السياسة الخارجية في العالم تتجه إلى مزيد من الديموقراطية . ليس بإمكانك أن تسير متقدماً الناس بمسافة طويلة ، وإلا تخلوا عنك وتركوك تمضي وحدك » .

لقد أغضبني أن يترك الإسرائيليون « العرب الإرهابيين » يتحكمون بأصواتهم الانتخابية ، في ردة فعل على القصف الذي حدث ، وكان السبب الوحيد في انتخاب ناتان ياهو ، ويبدأون حقبة من مواجهات طالما سعى العرب الرافضون إليها .

حين سأل الرئيس عن موقف الناخبين اليهود منه ، طلبت من شوين أن يقوم باستطلاع حول ذلك . مع أن ٨٠٪ من اليهود في صف كلينتون ، حتى أنه أقوى عند التقليديين الشرقيين ، إلا أنهم مالوا لدعم ناتان ياهو .

بمنتهى التفاؤل أقفل كلينتون هذه المناقشة ، بأن تمنى أن تكون لناتان ياهو الصقر مصداقية بين المقاتلين الإسرائيليين يتمكن معها من تحقيق السلام ، كما تمكن نيكسون المعادي للشيوعية من الانفتاح على الصين .

بعد أيام قليلة ، قال كلينتون إنه شعر أن الخاسر الكبير في الانتخابات الإسرائيلية كان ياسر عرفات . وأخبرني أنه خاف على حياة القائد الفلسطيني «فكثيرون في الأقطار العربية يخشون أن يغتاله شعبه » .

★★★★

كانت جهود الرئيس أكثر مباشرة وعمقاً في مساعدة بوريس يالتسين في روسيا . فقد تم توظيف شريكي السابق في العمل ديك دريزنير ضمن فريق من المستشارين الأمريكيين لترتيب السباق لصالح يالتسين . لقد كنا ، دريزنير وأنا ، من أفضل الأصدقاء في السبعينيات ، ومن ألدّ الأعداء في الثمانينيات ، وعلاقاتنا الآن طيبة ، إنما تشوبها العواطف الفظة المتطرفة التي تشوب عادة علاقات شريكين في العمل افترقا .

حين تم استئجار ديك ، اتصل بي ليسألني ما إذا كان يهمني أن أبقى على اطلاع على السباق . فناقشت الأمر مع كلينتون ووافق على الفكرة ، وبالفعل صرت أتلقى أسبوعياً خا

مارس / آذار وأبريل / نيسان ومايو / أيار ويونيو / حزيران استطلاعاً موجزاً من دريزنير أمره إلى الرئيس .

لقد كانت هذه العلاقة مفيدة لكلينتون في زيارته لروسيا بتاريخ ١٩ ــ ٢١ أبريل / نيسان ١٩٩٦ . واعتقد كثيرون في وزارة الخارجية ومجلس الأمن القومي أن الرئيس سيبقى أسمى من الانتخابات الروسية ، ليفتح لنفسه باب الاختيار . لكن كلينتون رأى أن عليه أن يساعد يالتسين ، حسب توصية مساعد وزير الخارجية وصديقه القديم ستروب تالبوت ، الذي كان ينصحه دائماً بالاهتمام بالقضايا الروسية .

طلب مني كلينتون أن أسأل دريزنير عما يعتقده قومه الروس حول قدرة الرئيس على دفع يالتسين في الانتخابات . وعاد دريزنير إلى روسيا واستطلع آراء الناخبين ، وأبلغني توصياته . ولما كنت لا أشعر بالاطمئنان وأنا أتحدث عن روسيا بالهاتف ، فقد اتفقت مع كلينتون على استعمال الرمز في حديثنا . فيالتسين هو حاكم تكساس وكلينتون هو حاكم كاليفورنيا . كان الرئيس في طريقه إلى روسيا حين أرسلت له تقريراً بالنتائج استعملت فيه هذه الشيفرة . وأوضح دريزنير أن من المفيد ليالتسين في الانتخابات لو أن كلينتون قام خلال زيارته بثلاثة أمور :

ــ مدح دور يالتسين العالمي وحملته الانتخابية ، باعتباره من قادة العالم ، ولكونه عاملاً هاماً من عوامل النهضة الروسية .
ــ التصريح بأنه يعتبر الحرب الشيشانية شأناً من شؤون روسيا الداخلية .
ــ مدح التقدم الاقتصادي الحالي في روسيا .

وبدأ كما لو أن الرئيس كان يرغب بالقيام بهذا كله من ذاته ودون توصية . أراد أن يشارك يالتسين حملته الانتخابية ، على الطريقة الأمريكية ، لكن يالتسين تراجع في اللحظة الأخيرة ، وترك كلينتون وحيداً يصافح الناس .

تجلى الأثر الهام للاتصال مع دريزنير ، في التغلب على اعتراضات الذين شعروا بأن على كلينتون أن يبقى على مدى ذراع من يالتسين . أولاً خوفاً من أن يخسر في الانتخابات (وهو ما كان يتنبأ به معظم الناس في واشنطن) وثانياً كيلا يعرضه باقترابه كثيراً منه إلى اتهامات الشيوعيين بأنه دمية أمريكية . لكن استطلاعات دريزنير في روسيا أظهرت أن العكس هو الصحيح ، وأن علاقة يالتسين بكلينتون ستفيد يالتسين ولن تضره . فزاد ذلك من ثقة الرئيس بما يقوم به من ميل طبيعي نحو الالتحام مع يالتسين .

بالطبع، كان تأثير إدارة كلينتون الرئيسي على الانتخابات الروسية لا يحتاج إلى جهودي وجهود دريزنير. فقد كان الفضل الأكبر لتدفق المساعدات الاقتصادية التي قدمتها الولايات المتحدة إلى روسيا إما مباشرة أو عن طريق المنظمات الدولية، في خلق مناخ اقتصادي ساعد على انتصار يالتسين، وسمح له أن يزيد الأجور والرواتب التقاعدية، مما كان له أثر كبير بين صفوف الناخبين. لقد فاز يالتسين بفضل الدعم السياسي الأمريكي وأنصار أمريكا في روسيا.

لقد تمت الانتخابات الروسية على مرحلتين. كان على يالتسين أن يتغلب في أولاهما على قوات الاصلاح المنشقة. غريغوري يافالينسكي المصلح الاقتصادي ومثله الجنرال ألكساندر ليبيد الذي عارض التدخل في الشيشان، وسفياتوسلاف فيديروف جراح العيون، كلهم رشح نفسه وخطف بعض الأصوات من يالتسين.

في البداية، أظهرت استطلاعات دريزنير مدى تدني مؤشرات يالتسين وانخفاضها، وتوزع الدعم الانتخابي بين المرشحين الثلاثة الآخرين، وافتقار الرئيس الروسي إلى القاعدة الشعبية. قال لي دريزنير ــ ونقلت ذلك إلى كلينتون ــ أن معظم الروس يرون في يالتسين سكيراً فاسداً غير مؤهل.

قال دريزنير «روسيا بلد عجيب غير عادي. إنهم يصوتون لصالح يالتسين رغم كرههم له، لمنع الشيوعيين من العودة. ولقد صرح الناخبون بأن فوز الشيوعيين يعني قيام حرب». أظهرت تحليلات دريزنير أن الناخبين الروس قد يدعمون مرشحاً لا يحبونه ليتجنبوا ما هو أسوأ. وتذكرتُ أن الروس اعتادوا أن يدعموا قادة لا يحبونهم ليتفادوا التعرض لأخطار أكبر.

بعد أن اجتاز يالتسين الشقة التي تفصله عن الشيوعيين في أرقام الاستطلاعات قبل أسابيع من الانتخابات، شعر كلينتون بأمله يقوى في أن يفوز يالتسين، وقرر اتخاذ ما يلزم من إجراءات ضرورية لتحقيق هذا الأمل.

ذكّرني كلينتون بالسؤال الذي وجهه نيكسون إلى بوش: ماذا لو أصبحت القضية اليوم قضية من الذي أضاع روسيا؟ قال كلينتون «بالتأكيد لن أكون أنا».

كانت استراتيجية دريزنير مبنية أساساً على أن يثير يالتسين فزع الناس ورعبهم من عودة الشيوعيين. ودار الحوار في معسكر يالتسين حول إلغاء الانتخابات خوفاً من فوز شيوعي. واعتقد الرئيس كلينتون أن من الغريب صدور مثل هذا التفكير عن جهات قريبة من يالتسين، إلا أن دريزنير أوضح له أن القصة تم زرعها كخدعة لاثارة الذعر من فوز الشيوعيين، ونقل الدعم عن مرشحي الاصلاح إلى يالتسين.

وفي النهاية ، أتت استراتيجية دريزنير ثمارها ، وأثبتت استطلاعاته دقة أرقامها وصحة تنبؤاتها.

★★★★

لقد لاحظ كلينتون حين استعراض فوز ناتان ياهو في اسرائيل ويالتسين في روسيا ، أن ناتان ياهو قد أحسن استخدام الدعاية التلفزيونية أكثر مما فعل بيريز . كما لاحظ من ملخصات النتائج أن « المرشحين الذين يستخدمون الأسلوب الأمريكي في الاستطلاعات الاحصائية هم الذين يفوزون » .

وحاول الرئيس كلينتون في اسرائيل وروسيا أن يؤثر على النتائج . أما في البوسنة ، لكي يعلن عن نجاح مهمتنا وسحب قواتنا ، فقد أراد إجراء انتخابات بإشراف مراقبين دوليين يضمن لها أن تكون حرة وعادلة .

بدأت علاقتي بالموضوع في ربيع عام ١٩٩٦ ، حين قام دوغ شوين بترتيب لقاء لي مع ديك هولبروك ، مبعوث الولايات المتحدة الذي قام برسم اتفاقيات دايتون . دعوته إلى فندقي ، وطلبت منه العمل معي سراً ، وكان تأثيره عليّ قوياً ، إذ لم يكن يشبه كثيرين من العاملين في السياسة الخارجية . فهو يتكلم بوضوح ويعرف بفطرته كيف يأخذ المبادرة ويستعمل القوة .

قال لي هولبروك إنه مرشح للقيام بمهمة دبلوماسية في البوسنة ، إلا أن بعض الشخصيات الرسمية العالية في الدولة وفي مجلس الأمن القومي لم تصدر قرارها بالتنفيذ ، واكتفت بتزكيته عند الرئيس . ورغم أن هولبروك لم يقل أكثر من ذلك ، فقد شككت بأن تكون الغيرة استولت على ليك من عودة هولبروك إلى الحكومة ، ومن نجاحه في حل الوضع بالبوسنة ، هذا الوضع الذي ما زال غامضاً ومحيراً .

دهشت حين علمت من هولبروك أنه لم يسبق أن اتصل بالرئيس من قبل ، عدا لقائه به مع آخرين قبل ذهابه لمفاوضات دايتون . وبعد التشاور مع كلينتون أخبرت هولبروك أن الرئيس يرحب بأية معلومات تصل إليه منه عن طريقي ، وأن الرئيس تواق لسماع آرائه مباشرة دون غربلة أو تنقيح عن الطريق الرسمي أو عن طريق مجلس الأمن القومي .

كان رادوفان كارادزيتش ، الزعيم البوسني الصربي ، مطلوباً أمام محكمة العدل الدولية لارتكابه جرائم حرب ، لكنه رفض أن يخفف من غلوائه ، بحسب ما نص عليه اتفاق دايتون ، مما أغضب الولايات المتحدة والصحافة العالمية ، فمع سيطرة رادوفان كارادزيتش على الحكومة لن تتوفر إمكانية الانتخابات العادلة ، لا بل بدا من الأرجح أن المتهم بجرائم الحرب نفسه

سيسيطر على الانتخابات . وفشلت محاولات الولايات المتحدة باقناع كارادزيتش أن يخفف من غلوائه ، ولم يشأ سلوبودان ميلوزيفيتش أن يضغط على أتباعه في حكومة صرب البوسنة لطرد كارادزيتش .

شعر هولبروك أن الولايات المتحدة لا تقوم بضغط كافٍ للتأثير على ميلوزيفيتش ، فقال « عليكم أن تهددوه بإعادة فرض العقوبات الاقتصادية . فميلوزيفتش يموت خوفاً من العقوبات الاقتصادية ، فقد شلّت اقتصادياته من قبل ، وستشلها الآن ، وسيتنازل عن مطالبه لو واجه العقوبات الاقتصادية » وما إن غادر هولبروك غرفتي ، حتى نقلت للرئيس ما قاله لي .

قال كلينتون : « إنه على حق ، فالعقوبات الاقتصادية هي الأمر الوحيد المجدي » قلت « أعتقد أن عليك إرسال هولبروك إلى هناك ، فهو يعرف أولئك الناس ، ويعرف مواقع الأزرار التي يجب ضغطها » .

وتم إرسال هولبروك إلى البوسنة . قال لي قبل مغادرته « ما زلت لا أملك سلطة التهديد بالعقوبات الاقتصادية . إنهم يزجون بي إلى هناك بجعبة فارغة من السهام . وإذا ما دخلت ورأيت ميلوزيفيتش دون أن أصيح وأزبد وأهدد بالعقوبات الاقتصادية ، فسيعرف أنني أخدعه ، ولن أحصل منه بالنتيجة على شيء » ثم أخبرني أن مجلس الأمن القومي يؤمن بأنصاف الحلول وتدرجها ، كمنع الرياضيين الصرب مثلاً من الاشتراك في الألعاب الأولمبية القادمة ، وأضاف محذراً « لكن هذا لن ينفع ، وعليّ أن أضع الأمور أمامه بشكل مباشر ومكشوف ، إما أن يلعب أو أن يواجه فوراً إعادة فرض العقوبات الاقتصادية » . قلت له إنني سأتصل بالرئيس وأعود إليه .

قال الرئيس بحدة « قل له إننا ، إذا لم يتحرك ميلوزيفيتش ، سنفرض عليه من العقوبات الاقتصادية السريعة مالن يعرف معه من أين تأتيه الضربات ، ولن نحتاج حتى إلى العودة للأمم المتحدة لنفعل ذلك ، فنحن نعتقد أن بوسع قادتنا العسكريين تنفيذ الموضوع » .

نقلتُ كلمات كلينتون حرفياً إلى هولبروك فقال « الآن حصلت على سلاح أستطيع استعماله في المفاوضات » .

كان اللقاء مع ميلوزيفيتش ناجحاً ، وخفف كارادزيتش أخيراً من اندفاعه ، ولم يلعب أي دور علني في الانتخابات التي جرت بهدوء آمن في سبتمبر/أيلول ١٩٩٦ . وانتخب أتباع صرب البوسنة ميموسيلو كياجيسينك ، ولم يستطع المتهم بجرائم الحرب نفسه أن يجعل من اتفاق دايتون أضحوكة . قال لي هولبروك فيما بعد « لولا توجيهات الرئيس التي جاءتني عن طريقك ، ما كنت لأحقق شيئاً أبداً » .

كنت أستطيع أحياناً أن أنقل للرئيس رأياً أو فكرة صحيحة من أحد الخبراء في الخارج. ففي مسألة ردة الفعل الأمريكية على مهاجمة كوبا لطائرتين مدنيتين بقيادة أعضاء من مجموعة المغتربين الكوبيين، جاءت الفكرة من جون روجيه عميد مدرسة العلاقات الدولية في كولومبيا.

تصادف أنني كنت أتحدث مع روجيه على الهاتف، حين أعلن خبر الهجوم الكوبي، فطلبت منه الرأي والنصح. كان اهتمام الرئيس بالغاً بالهجوم الذي وقع في المجال الجوي الدولي وانتهك القوانين الدولية، وكان بمثابة القضاء على العلاقات الأمريكية ــ الكوبية التي بدا وكأنها تخلت عن تحفظها مع تقدم فيدل كاسترو بالعمر وازدياد عزلته السياسية. أخبرني روجيه حين قابلته في اليوم التالي أنه فكّر بطلبي وهو يستحم صباحاً، ونصحني مستقبلاً بإرسال حراسة مرافقة حربية مع كل رحلة جوية للطائرات الأمريكية. قال مقترحاً «لماذا لا نضع بعض السفن بعيداً عن الشواطئ داخل المياه الدولية، ونهدد باسقاط كل طائرة كوبية تعترض طائرات تحمل اللاجئين في المجال الجوي الدولي؟ هذا لن يصعّد الوضع، بل سيرى فيه العالم وكوبا والمغتربون المنفيون ردة فعل مناسبة».

وجدتُ الفكرة معقولة، فاتصلت بالرئيس، ورد علي فوراً لحسن الحظ. صمت كلينتون لثوان معدودة وهو يتأمل الفكرة ثم قال «تبدو فكرة جيدة قد تجدي.. قد تجدي.. اشكره نيابة عني.. سأتحرى الموضوع».

بعد بضعة أيام، أرسل كلينتون فعلاً سفناً لحماية الطائرات المدنية التي تحمل اللاجئين، وتوقف الهجوم الكوبي.

★★★★

بعد الهجوم المأساوي على الكتائب الأمريكية في المملكة العربية السعودية، الذي أدى إلى مقتل تسعة عشر جندياً أمريكياً، صارحني ديك هولبروك باستيائه من عجز الحكومة عن تحديد المسؤول عن هذا الانتهاك الفظيع. ثم تحدثنا عن الموضوع مرة أخرى في يوليو/تموز ١٩٩٦.

قال هولبروك «إن قواتنا مكشوفة هناك، في معسكراتها داخل المدن معرضة لهجوم الارهابيين» لم أكن أعرف وقتها أن قواتنا مكشوفة ومعرضة في كل لحظة لهجوم آخر. وأضاف هولبروك «على الرئيس أن يأمر القوات بترك المدن إلى الصحراء، حيث بوسعها إقامة خطوط دفاعية بوجه الهجومات المتوقعة».

نقلت إلى كلينتون اقتراح هولبروك فقال «لقد ناقشنا الموضوع بالأمس، وسنجتمع غداً صباحاً لنقاش التحرك في هذا الاتجاه، إلا أننا نتحرك ببطء كما أرى، وعلينا أن نسرع».

قلت مشيراً إلى الروح الفورية المستعجلة التي حملها اقتراح هولبروك «لن تغفر لك الأمة لو وقع هجوم ثان، كان يمكن تفاديه لو أننا تعلمنا درساً جيداً من الهجوم الأول» قال كلينتون «أعرف ذلك، شكراً على اتصالك، فقد كان هاماً ومفيداً، وسأعمل بالنصيحة فوراً». وتم فعلاً نقل قواتنا من مواقعها في العربية السعودية، وكان لمحادثتنا الفضل في تسريع هذا النقل.

★★★★

كنت أوالي، مدفوعاً بنصائح الخبراء، التركيز على القيام بإجراءات أكثر حزماً ضد الدول الارهابية. فقد أظهر استطلاع قمت به أن هذه المسألة تأتي في مقدمة أهم ما يهتم به الشعب الأمريكي، وأن دول الارهاب أخطر عنده من الدول المصدرة للمخدرات إلى الولايات المتحدة، تليها في الأهمية المسائل التجارية والاقتصادية، تأتي بعدها العلاقات مع روسيا والصين، ثم أخيراً قضايا الشرق الأوسط وبعدها البوسنة.

بدأت أهمية هذه المسألة تسخن بشكل خاص، منذ أن طالب السناتور ألفونس داماتو، في لحظاته الإيجابية الفعالة، بوضع قوانين تعاقب الشركات والمؤسسات التي تستثمر أموالها في الصناعات النفطية الايرانية، وتمنعها من الدخول إلى الأسواق الأمريكية. لكن مجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية قابلا مشروع داماتو، ومشروعاً مماثلاً يخص كوبا تقدم به جيسي هيلمز، بالشك والتحفظ. رغم أن مشروع هيلمز، بعد قيام كوبا باسقاط طائرتي اللاجئين، قد تمت المصادقة عليه بدعم من الرئيس، إن لم نقل بتعصب شديد منه، وظل حذر مجلس الأمن القومي ووزارة الخارجية قائماً في وجه مشروع داماتو بخصوص إيران. سألني ساندي بيرغير «ماذا سنفعل؟ هل نبقي بنوك الرايخ خارج الأسواق الأمريكية بسبب علاقاتها التجارية مع إيران؟».

لكن كلينتون أعجبه المشروع. فبعد أن عدّله بشكل يفتح له الباب عريضاً لفرض العقوبات الاقتصادية على الشركات الأجنبية، ويسمح له بنفس الوقت بأن يوقفها أو يتراخى بتطبيقها حين تتطلب المصالح الوطنية ذلك، قام بدعم المشروع وتصديقه. وشمل بالقانون ليبيا أيضاً. أوضحت للرئيس أن المشروع قد يؤمن له وسائل يفاوض بفضلها حلفاءه المعارضين إضافة إلى أعدائه، إذا ما أثبتوا رغبتهم الصادقة في قطع تعاملهم مع الارهابيين، بدلاً من الوقوف في مواجهة مع هؤلاء الحلفاء. لقد أعجبني خيط الشبه الذي يربط المشروع بتوماس جيفرسون، حين جعل من الحظر بديلاً عن الحرب. وقال الرئيس إنه يتوق إلى تنفيذ المشروع في أول فرصة تسنح له.

★★★★

في كل هذه الأحداث، أعود لأؤكد أنني لم أكن أعرف شيئاً عما دار بين الرئيس من جهة، ومجلس الأمن القومي ووزارة الدفاع وإدارة المخابرات المركزية ووزارة الخارجية من جهة أخرى. فأنا لا أريد أن أوحي بأن مداخلاتي كانت حاسمة جازمة، إذ لم تخرج عما كان حول الرئيس من مرجعيات غنية مذهلة، لكنني كنت أرى أثرها على الرئيس وما يفعله في مجال السياسة الخارجية، ولعل هذا الأثر في هذا المجال فاق مثيله في المجالات الأخرى خلال فترته الرئاسية. فقد وجد فيه الرئيس، كقائد مسؤول يستخدم القوة من موقعه بشكل حاسم ويعوقه الكونغرس الجمهوري، فرصة لاثبات وجوده الشخصي، وفرض طابعه الخاص بالقيادة.

لقد ابتعد العالم عن صراع القطبين، الذي تميزت به العقود التسع الأولى من القرن العشرين، واتجه نحو أزمات معقدة لا رابط بينها، برز من بينها إلى حد ما توق إلى السلام وإلى القيم الانسانية. كانت وسائل المواجهة في العالم الثنائي القطبين تتضح في: التسلح، العمل العسكري، المفاوضات المباشرة، الدعاية لكسب الرأي العام، التهديد باستخدام القوة، تنافس الأحلاف.

لكن كلينتون أدرك أن أهم نقطة الآن، هي حاجتنا إلى وسائل جديدة للتغلب على الأزمات المتزايدة المتنوعة التي نواجهها. مفتاح السر هو: المرونة والتجديد، وإبداع طرق جديدة لمواجهة كل مشكلة بما يناسب خصوصيتها وظروفها.

من الناحية السياسية، كانت السياسة الخارجية والدفاع هي المجال الرئيسي المتوقع أن يسجل دول فيه نقاطه، لولا أنه لم يتوجه إليه. وخطف كلينتون هذا المجال من دول حين وضع تعريفاً لوظيفة الرئيس، من حيث علاقتها بالشؤون الخارجية. فالرؤساء في ظل الحرب الباردة كان تعريف الرئاسة عندهم يتضمن: الكفاءة في مجال السياسة الخارجية، المؤهلات، القدرة، القيادة، المعرفة العسكرية، الصلابة، متانة الأعصاب، الخبرة التجريبية.

أما في رئاسة كلينتون، فالتعريف يتضمن: الابداع، المرونة، تجديد الأسلوب، الديناميكية، الحنكة السياسية، المظهر الجذاب، الصلابة والقوة حين اللزوم، إضافة إلى رهافة الحس والتعاطف مع الآخرين.

****

لقد واجه كلينتون، سواء في معركة الميزانية أو في الشؤون الخارجية، إتهاماً بالضعف في إظهار قوته، وبفبركته للنتائج. وكان عليه في بداية عام ١٩٩٤ أمام هذين المفهومين السلبيين، أن يعلن عن برنامج قيم يمحو عنه هذا الاتهام في الداخل وفي الخارج. ومع منتصف عام ١٩٩٦، صار في موقع يستطيع معه أن يواجه جميع التحديات.

الفصل الرابع عشر

كيف كان بوسع دول أن يفوز

ارتدى لامار ألكساندر، المرشح الجمهوري للرئاسة، قميصاً ذا مربعات ملونة حين قاد حملته الانتخابية، وأطلق شعار «أ. هـ. ك»، وهو الحروف الأولى من عبارة «ألكساندر هزم كلينتون»، ولكن لم يصدقه أحد من ناخبي الجمهوريين في المرحلة التمهيدية. إلا أن البيت الأبيض انقسم إلى فئتين: بيل كلينتون وآل غور، وكلاهما يخاف من ألكساندر، الرجل الوحيد (عدا كولين باول) الذي لم يكن كلينتون يرغب بمواجهته في نوفمبر/تشرين الثاني.

كان ألكساندر (حسب تصريح كلينتون) يشبه كلينتون إلى حد بعيد. كلاهما جنوبي، وكلاهما معتدل، جذاب المظهر، ذكي، شاب، أنيق، وحاكم ولاية سابق. وكلاهما جعل من التعليم قضيته خلال فترة حاكميته. وبدا الأمر لكلينتون وكأنه يتنافس مع نفسه.

وكان غور، مثل ألكساندر، من ولاية تينيسي، كما كان أكثر قلقاً من شعار «أ. هـ. ك». وحين تحدثت عن مهاجمة دول خلال معركة الميزانية، انحنى غور إلى الأمام مقطباً جبينه وقال: «ماذا لو كان ألكساندر؟»، مشيراً إلى خطر أن يستطيع ألكساندر أن يفوز بترشيح الجمهوريين.

لم أشاركهم كوابيسهم الليلية، فألكساندر لا يمكن أن يفوز بالترشيح، وقد أخبرتهم بذلك. ففي أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية قلت للرئيس ونائبه «ألكساندر عندكما كالتضخم وارتفاع الأسعار عند ألان غرينسبان» مشيراً إلى رئيس مجلس الادخارات الاحتياطية الفيدرالي، وتابعت قائلاً «لقد أمضى غرينسبان حياته قلقاً من تضخم غير موجود، وليس ثمة بادرة تدل على عودته، وأنتما تقضيان أيامكما خوفاً من ترشيح لن يحصل ألكساندر عليه» ومضيت في محاضرتي لهذين اللذين أمضيا حياتهما في الحزب الديموقراطي «الحزب الجمهوري أساساً عبارة عن منظمة ملكية، تشبه إلى حد بعيد حزب المحافظين في إنكلترا أكثر مما تشبه الحزب الديموقراطي في الولايات المتحدة. وكلمة السر عند الجمهوريين

ليست التحفظ أو حب الحياة أو دعم التسلح أو حتى الجانب المحافظ في الأمور المالية، كلمة السر عندهم هي الأعراف التقليدية. إنهم يصلون إلى الانتخابات فيسألون: دور مَنْ هذه المرة في دخول السباق؟».

سردتُ لهما تاريخ سلسلة الترشيح الرئاسي لدى الجمهوريين بطريقة تشبه طريقة العرض في سفر التكوين من الكتاب المقدس فقلت «في البدء كان أيزنهاور، أيزنهاور أنجب ولداً هو نيكسون جعله نائباً للرئيس، ثم جاء دور نيكسون، فأنجب ولداً هو فورد سمّاه نائباً للرئيس، ثم جاء دور فورد، ثم انهزم ريغان أمام فورد، ثم جاء دور ريغان، ثم انهزم بوش أمام ريغان، ثم جاء دور بوش، ثم انهزم دول أمام بوش، ثم جاء دور دول. هذه هي طريقتهم في التفكير، أما فيل غرام ولامار ألكساندر وحتى كولين بول فلم يأت دورهم بعد».

كنت رابط الجأش وأنا أتشدق بكلماتي الجريئة هذه في أوكتوبر/تشرين الأول ١٩٩٥، قبل بدء الانتخابات التمهيدية عند الجمهوريين. ولكن ما إن حمي وطيس الانتخابات التمهيدية حتى انتابني الفزع، ورحت أعيد النظر في تنبؤاتي هنا وهناك، كما يفعل معظم المستشارين السياسيين. ثم جاء كلينتون في نهاية الانتخابات قائلاً: «كان واضحاً منذ البدء أن ولاية العهد لدول، تماماً كما سبق أن قلت».

بهذه الخيالات والأوهام كان كلينتون تواقاً إلى التنافس مع بات بوكانان، وكان يعتبر مرشح اليمين المتدين خطراً حقيقياً على الولايات المتحدة، ينعطف بنا إلى سراديب الباطنية ويحرك فينا أوتار جنون الشك والارتياب. شعر كلينتون أن بوكانان يقيم حملته الانتخابية على أساس أفكار تخريبية هدامة: العرقية العنصرية داخل الوطن، والقومية المتعالية المتطرفة في الخارج، والعزلة الاقتصادية. لكنه مع ذلك لم يكترث به كثيراً، لأنه كان يعرف أن الجمهوريين لا يرشحون المجانين للرئاسة. في حقيقة الأمر كان بوب دول هو الشخص الذي أراد كلينتون أن ينافسه، إلا أنه وجده ضعيفاً بعد أن اطلع على معدلاته، كزعيم للأغلبية بمجلس الشيوخ، خلال مؤتمرات الحزب الجمهوري ومباحثاته.

قال لي كلينتون ذات مرة «يمكنك في مفاوضات الميزانية أن ترى كم كان يرغب بالتوصل إلى اتفاق، لكنه لم يجرؤ على ذلك. لقد اقترح آل وليون يومها بعض التعديلات والتنازلات على الرعاية الطبية فهز رأسه موافقاً، إلا أنه سحب رأسه كالسلحفاة حين أعلن غينغريتش عن رأيه صراحة، ولم ينبس بحرف. إنه يترك لهم فعلاً أن يقودوه».

كان كلينتون يعتقد بأن دول أسير تأثير مجلس الشيوخ، وليس له فعلاً من الأمر شيء. وكان يرى فيه، ما يراه الناقدون المنتقصون في كلينتون، شخصاً ضعيفاً هشاً، بلا

عزيمة ولا مواقف، ويرى أنه أكثر حزماً وعزماً من دول. قال: «إن لي قراراتي ومواقفي في البوسنة والميزانية والتحرك السريع. أما دول فقد أيد تحريم الأسلحة الهجومية ثم سحب تأييده، وكان ضد التمويلات المالية الجانبية لكنه يقوم بحملته الانتخابية الآن بفضلها. وبعد ذلك كله يقولون أنني أنا المتذبذب.. أليس أمراً غريباً بعيداً عن الفهم».

خلال مناقشات الميزانية، لم ينفر الرئيس من بوب دول ولم يكرهه، بل رأى فيه سياسياً محترفاً يحاول أن يسجل أهدافاً. كان يشعر أن دول لو انطلق من شعاراته الخاصة واستخدم مواهبه بعيداً عن قيود وأعباء التنافس على الرئاسة، لاستطاع تحقيق اتفاق على الميزانية خلال بضع ساعات.

لكن الاتهامات التي وجهت إلى هيلاري في مسألة وايت ووتر جعلت كلينتون أكثر خشونة في تعصبه الحزبي مما كان عليه من قبل. وحين أصبح الهجوم شخصياً، كان جواب كلينتون شتم الجمهوريين وتشويه سمعتهم، بما فيهم دول نفسه.

لقد اقتنع الرئيس في نهاية الأمر، أو لنقل أقنع نفسه، بأن بوب دول شرير. وشعر بعد أن افتخرت أليزابيث دول بزوجها ومدحته في المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري أن السناتور الكنساسي بدأ ينطلق، وخشي ألا أوافقه على مهاجمة دول بشكل عنيف. صاح بي على الهاتف خلال عطلته في وايومينغ «إنه شرير.. إنه رجل شرير» وتخيلت قسمات وجهه تتلوى ألماً وهو يشدد على حروف كلمة ش.. ر.. ي.. ر «إنه يتلذذ بمنع الوجبات الغذائية المجانية، ويتلذذ بقطع المعونة الطبية، ويستمتع بنكهة تمزيق أوصال التعليم، ويهوى طرد المهاجرين، وهذا ما يبهجه ويطربه. إنه ليس رجل طيبة وصلاح، إنه رجل ش.. ر.. ي.. ر».

في البداية ظننت أنه يحب غينغريتش. فقد كان يرى فيه شخصاً ذكياً أليفاً يستمتع المرء بأن يجاريه بخفة دمه ونشاطه، وكان دائم التوق إلى اللقاء به، وغالباً ما عاد بعد محادثاته معه وعلى وجهه ابتسامة خجولة. وكان ليون وجورج يخافان من أن تؤدي علاقة كلينتون هذه بغينغريتش وعلاقتي أنا بلوت إلى توقيع اتفاق على الميزانية في غير صالح الإدارة.

ولكن في نهاية عام ١٩٩٥، بعد أن أمر غينغريتش فعلاً رجال لجنته (نعني بالرجال هنا الذكور إذ لم يكن بين أعضاء لجنته نساء) باستجواب كلينتون، تعكرت العلاقة وصارت حامضة. وظننت في البداية أنه ليس بين الرجلين من يعتقد أن المعركة حقيقية، لكن نيوت رأى سمعته ومستقبله يتحطمان تحت مطارق دعاياتنا الإعلانية، وكلينتون رأى كيف امتدت فضائح وايت ووتر وملفات الـ FBI، لتقتحم حدود بيته، فأعاد كل منهما النظر في علاقته بصاحبه، وبدأ النفور بينهما.

ورغم تأكدي الراسخ من أن دول سيتجاوز ذلك كله في نهاية الأمر، إلا أنني كنت أخشى أيضاً أن يسقط في الانتخابات التمهيدية. فقد رأيت العديد من متصدري السباقات الانتخابية يعدّون أنفسهم فائزين قبل اكتمال التصويت في أول مركز للاقتراع، وهذا ما أسميه «الإفراط بالثقة بالنفس»، كثيراً ما يساء فهمه. فالثقة الزائدة بالنفس لا تعني ألا تعمل، بل تعني ألا تغامر كثيراً. ولا تعني ألا تأخذ مواقف قوية للتعريف بنفسك، بل تعني أن تحاول أن تكون محبوباً وشعبياً عند الجميع.

كلما زاد عدد أنصارك ومؤيديك، صار نجاحك محتوماً ومؤكداً. ولكن كل نصير مؤيد يضاف إلى رصيدك يعتبر قيداً ومعوقاً جديداً. فأنت لا تستطيع أن تتحدث عن الفساد والرشوة في المجال العمالي لأن اتحاد سائقي الشحن يدعمك بالأموال. ولا تستطيع أن تتبنى مسألة البيئة بسبب وقوف شركات ومؤسسات إنتاج اللحم والبيض إلى جانبك. ولا تستطيع أن تنادي بالرعاية الصحيّة لأن شركات الأدوية تساندك. في النهاية، يصبح ناخبوك هم سجانوك، ولا يبقى لديك شيء تقوله، فالدعم الواسع يعني أموالاً أكثر، لكنها خرساء لا تحمل أية رسالة.

هذا هو سبب سقوط الأوائل من المتسابقين. فالجماهير تنظر إليهم في الانتخابات التمهيدية فتراهم لا يقولون شيئاً، فتمضي لتعطي أصواتها لمن لديه شيء يقوله من المرشحين. في انتخابات الجمهوريين التمهيدية كان لدى كل من فوربيس وبوكانان أفكاره الخاصة، ففازا بها.

لقد زدنا الأمور صعوبة أمام دول باستيلائنا على قضاياه الهامة التي يرتكز عليها: توازن الميزانية، الجريمة، المعونة الاجتماعية، الإصلاح، الصلابة في الشؤون الخارجية، وتخفيض الضرائب.

كان هذا جوهر الاستراتيجية التي رسمها كلينتون وأنا بأواخر عام ١٩٩٤، مقتدين فيها بالنموذج الذي هزم به ميتيران شيراك في عام ١٩٨٧. لقد نجحنا في إنجاز العديد من أهداف دول، فخفضنا العجز المالي في الميزانية، وأعطينا شارة البدء بإصلاح المعونة الاجتماعية، وقام كلينتون بترويض البوسنة، وانخفض معدل الجريمة، وتقدم الرئيس بتخفيضات ضريبية محددة، وخفف من الإحباط والغضب الشعبي الذي قوبل به دول.

وكان على دول، بعد أن بقي دون كتاب تراتيل جمهوري، أن يرتجل تراتيله الخاصة، لكنه بعد خمس وثلاثين سنة في الكونغرس يغني ذات التراتيل، أضاع كل ما كان لديه من إبداع وقدرات خلّاقة.

ومع ذلك، فقد كان بوسع دول أن يفوز بانتخابات الرئاسة، وإليك كيف:

كانت الفرصة متاحة لدول أن يهزمنا خلال شهري سبتمبر وأوكتوبر / أيلول وتشرين الأول ١٩٩٦ . فقد سألني المحررون وقتها عمَّ يجب على دول أن يقوم به ، وعن مواطن الضعف عند كلينتون ، وأجبتهم مازحاً أنني أرسلت لدول آخر توصياتي ومذكراتي . أما الآن ، بعد أن تم فرز الأصوات ، فبإمكاني أن أجيب على ذلك السؤال .

كان بوسع دول أن يهزم كلينتون ، لو أنه بكل بساطة تقدم بأفكار واضحة حول مسألة القيم كما فعلنا نحن ، إضافة إلى أننا سرقنا منه أموراً كان صاحبها ، مثل توازن الميزانية وإصلاح المعونة الاجتماعية ، باعتبار أن كلينتون كان رئيساً ، ويمكنه أن يحقق جانباً منها . كان بوسعه أن يجردنا من قدرتنا على دعم قضايا القيم ، باعتباره من الحزب الجمهوري وأفضل منا في هذا المجال . لماذا لم يطالب دول بفرض منع التجول على الأولاد واليافعين ؟ أو بفرض اللباس المدرسي الموحد؟ أو بتمكين العمال والمستخدمين من استبدال عملهم الإضافي بإجازات بدلاً من تقاضي أجورها نقداً ؟ لقد كانت كل هذه الأمور وكثير غيرها خاصة به وبحزبه قبل أن نستولي نحن عليها .

مرة واحدة فقط اقترب فيها دول من الجواب الصحيح ، وذلك حين هاجمنا هوليوود في مايو / أيار ١٩٩٥ وفي منتصف عام ١٩٩٦ بسبب أفلام العنف ، فاستولى على قضية كانت من صلب برنامجنا ، وطالب بأن يدفع المسجونون أجور ونفقات سجنهم من رواتب أعمال يكلفون بها داخل السجن . لو أنه سبقنا في هذه المبادرات لهزمنا . لقد كانت مسائل القيم أشبه بكرة قدم تتدحرج عشوائياً لوحدها على خط الوسط ، فالتقطناها نحن ومضينا بها باحثين لها عن مستقر ، وكان بوسع دول أن يفعل ما فعلناه بمنتهى السهولة .

لكن الذين يعالجون أمور دول ويرتبونها كانوا دائماً يخطئون ، فقد ظنوا أن الفوز في مجال القيم يكون بالأقوال لا بالأفعال ، وحشدوا الكثير منها في مؤتمر سان دييغو ، وراحوا يتغنون بنزاهة دول وصدقه وجدارته وتأثره بالقيم التقليدية الموروثة . لكن الناخبين يريدون ما وراء الأقوال ، يريدون الأفعال ، يريدون النتائج الواضحة المحددة . واستطاع كلينتون بالإعلان عن أفعال محددة يوماً بعد يوم أن يستولي على المجال القيمي . فالأفعال في عالم السياسة تهزم الأقوال .

ارتكب الجمهوريون خطأً خطيراً آخر ، حين افترضوا أنهم ليهزموا كلينتون عليهم أن يدمروه . فنظرة الحزب الجمهوري الشاملة للعملية السياسية هي أن لكل مرشح مستوىً معيناً من الجانبين الإيجابي والسلبي . ويعتقد الجمهوريون أنهم ليهزموا شخصاً يحتل منصباً ما ، فعليهم أن يخفضوا مستواه الإيجابي ويرفعوا مستواه السلبي . ومن هنا فهم يعتمدون على الدعاية التخريبية الهدامة لتحقيق ذلك .

لقد ضلوا الطريق، فالفوز لا يتم دائماً بتشويه سمعة المنافسين، بل بتجاهلهم، وبالسير على خط أفكار إيجابية واضحة خاصة بك. فإذا كانت أفكارك أكثر جاذبية وقوة، استطعت أن تفوز دونما حاجة لتشويه سمعة خصومك أو تقليل مكانتهم الشعبية.

إنه أشبه ما يكون بالمفهوم القديم في المعارك البحرية، حيث تنطلق السفن ـــ كما في سباقات الجري ـــ على مسارات متوازية، إلى أن تسبق إحداها الأخرى فتعترضها. والاعتراض هنا هام وفعال لأنه يتيح للسفينة المتقدمة أن تطلق نيران مدافعها الجانبية على السفينة المتأخرة.

في المجال السياسي، أنت تنطلق جنباً إلى جنب مع خصمك مطلقاً الدعاية الإعلانية الإيجابية المناسبة، مرسخاً الجوانب الفعالة الإيجابية لصورتك كمرشح، لتتمكن بعد ترسيخها من اعتراض سفينة خصمك، بحيث لا يبقى خيار للحملات الانتخابية المعارضة سوى الجوانب السلبية. مع سرعة الإعلانات التلفزيونية في المجال السياسي الحديث بالرد على الدعاية السلبية الهدامة، لا يحقق الجانب الذي يعتمد على الدعاية السلبية أي مكسب أو فائدة، بل على العكس سيكون لها أثر سيء، فمخطط تخفيض الضرائب الذي تبناه دول جاء متأخراً جداً ولم يلق الرواج المأمول.

لقد بدأ تقدمنا على دول في يناير وفبراير / كانون الثاني وشباط من عام ١٩٩٦، وحافظنا على المقدمة خلال شتاء وربيع ذلك العام، وبفضل مسائل القيم التي طرحناها تجاوزنا سفينة دول. وأردناه أن يعتقد أن سبيله الوحيدة للفوز هي في أن يهاجمنا بدعايته الهدامة، وكنت أخشى ألا يبتلع الطعم، وأن يعود إلى السباق بدعاية إيجابية. وبالفعل فقد بدأت بواكير دعايته بالتركيز بشكل خاص على الجانب الفعال من سيرة حياته، وكان من الممكن جداً أن يربكنا لو أنه تابع هذا المدخل، وعرضه في إطار قيمي فعال، لكنه لم يفعل، بل سحب إعلاناته الإيجابية وبدأ بالهجوم. وكان بوسعنا (وقد فعلنا ذلك) الرد على كل هجمة من هجماته ونكيل له صاع اتهاماته بصاعين من عندنا.

لو أن دول أسرع أكثر بالإعلان عن جدول قيمه، لتقدم على كلينتون وقطع عليه الطريق، لكن استراتيجية الحزب الجمهوري تقول:

ـــ لا تبدأ حملتك الإعلانية مبكراً، فهذا تضييع للأموال.

ـــ لا تدافع، فهذا يعطي الجانب الآخر أفضلية الهجوم والمبادرة.

ـــ لكي تهزم خصمك، عليك أن ترفع مستوى سلبياته.

لكن كل هذه أفكار مغلوطة، لم يستطع أي سباق اعتمدها أن يفوز. ففي الواقع، أنت تستطيع أن تهزم منافسك أكثر حين تمدحه، ثم تبين بوضوح أكثر مما أوضح هو، إلى

أين يجب أن تتجه مسيرتنا في المراحل القادمة . لو كنت مدير حملة دول الانتخابية لأشرت عليه أن يقول : « لقد قام الرئيس كلينتون بأعباء منصبه بشكل جيد ، وساعد على إعادة اقتصادنا لمسيرته نحو أهدافه ، وأخذ بيدنا نحو ميزانية متوازنة ، إلا أن علينا الآن أن نلتفت إلى قضايا جديدة ، هي مسألة القيم » . ثم أركز على عدد من المسائل التي كان الرئيس يخاف أن يعرض لها ، أو لنقل لم تسمح له جماعته المؤيدة أن يتعرض لها ، كإنهاء خدمة المعلمين واختيار المدرسة ، والصلوات في المدارس ، وإنهاء وسائط النقل الخاصة المدرسية ، وتعديل الميزانية المتوازنة ، وتعليق ووقف الهجرة ، وإيجاد طريقة لتنفيذ القوانين الفيدرالية ، وتحريم الفحش والإباحية في شبكات الانترنيت . وغير ذلك من المسائل المتراكمة .

الهجومات الشخصية على الرئيس لم تعرقل أبداً ما كسبه من بيان قائمة قيمه . فالناخبون لم يلقوا أي اهتمام لما فعله في ماضي أيامه ، بقدر ما اهتموا بما سوف يفعل لمعالجة همومهم اليومية . لكن بطلاً مثل دول ، ليس لديه فضيحة في حياته يخاف منها ، كان بوسعه بسهولة أن يفوز في مجال القيم لو أنه فقط أعلنها بشكل واضح .

كانت قائمة القيم هي سلاحنا في قضية وايت ووتر وغيرها من الهجومات الشخصية الأخلاقية . كانت مقولة مارك بن « القيم العامة تهزم الهجومات الشخصية الأخلاقية » هي المقولة التي اعتدت أن أضعها أسبوعياً أمام الرئيس .

لفحص واختبار هذه الفرضية ، قمنا بإعداد إعلان يهاجم كلينتون بعنف وقسوة ، وطلب الرئيس أن يراه ليذوق طعم أقسى ما يمكن أن يتعرض له . فشحب وجهه وهو يراه على جهاز التلفزيون الذي اعتدنا إحضاره إلى اجتماعات رسم الاستراتيجية لعرض إعلاناتنا عليه ، وبدا انزعاجه واضحاً حين وردت في الإعلان إشارة إلى بولا جونز ، وجينيفر فلاورز ، والمسوّدة ، والمراهنات المالية ، ووايت ووتر ، والملفات ، والرحلات الخارجية(*) . وصاح بعد ثلاثين ثانية من النقد اللاذع المنهمر « يا إلهي .. لا أظن أنني سأسعد لرؤية هذا كله على شاشة التلفزيون » ولم يطلب بعدها أن يشاهده مرة أخرى أبداً .

حين عرضنا هذا الإعلان العدواني الهجومي على المتفرجين في الحدائق والأسواق وأتبعناه بشريط إعلاني عن قائمة القيم عند الرئيس ومواقفه من شركات التبغ ، وإذن مغادرة العمل لأسباب عائلية ، والإعفاءات الضريبية ، وإصلاح المعونة الاجتماعية ، وغيرها . فاز إعلان الرئيس ، وارتفع عدد المؤيدين بين الناخبين الذين شاهدوا إعلاننا . وفي يوليو / تموز

(*) المؤلف يعدد هنا أبرز الفضائح الشخصية الأخلاقية التي ثارت حول الرئيس كلينتون وزوجته السيدة الأولى . المعرب

١٩٩٦ أتيحت لنا الفرصة لإثبات صحة تنبؤاتنا ، التي بنيناها على أساس الاختبار الذي قمنا به على المتفرجين في مراكز التسوق ، وكان مؤشراً دقيقاً لردة الفعل المتوقعة عند الجماهير .

وتحولت مسائل القيم عندنا إلى وسيلة لحماية كلينتون من الهجومات الشخصية الأخلاقية مثل : وايت ووتر ، والملفات ، والدعوى القضائية التي رفعتها بولا جونز على الرئيس بتهمة التحرش المتكرر بها جنسياً ، وفضيحة مكتب السفريات ، وغيرها . ولو أن دول بادر بالسبق أولاً إلى تبني قائمة القيم هذه ، لاستطاع أن يجردنا من درعنا الدفاعي وأن يتركنا مكشوفين .

لمزيد من دعم موقفنا ، قام بن بتقسيم الناخبين إلى مجموعات بحسب العمر . وركّز على أن رأي المحافظين الاجتماعيين الشباب ، الذين يسعى الرئيس إلى مساعدتهم على تربية أولادهم تربية صحيحة ، أكثر تأثيراً على الوضع الانتخابي من رأي المهتمين بأخلاقيات الرئيس . قال بن : « حين تستأجر شخصاً ليعمل عندك لأول مرة ، فأنت تنظر إليه ككل . لكنه بعد أن يقضي أربع سنوات في العمل ، فأنت تنظر إلى أدائه الوظيفي . إن سؤال « هل قام كلينتون بتعديل المسوّدة ؟ » لا يهم أحداً . المهم هو سؤال : «أي نوع من القياديين هو ؟ » . وسؤال : « هل يدخن أم لا ؟ » لا يهم أحداً أيضاً ، المهم هو موقفه كرئيس في محاربة المخدرات . وسؤال « هل سلوكه الجنسي الشخصي غير ملائم ؟ » ليس مهماً ، المهم هو محاربته كرئيس لتفشي الحمل بين المراهقات . وسؤال « هل يريد حبس المراهقين ومنعهم من التجول ؟ » لا معنى له في النهاية . بعبارة أخرى ، يجب النظر إلى كل الفضائح والاتهامات من خلال عدسة سجله كرئيس .

لقد فشل الجمهوريون في التركيز على الخوف من أن ينحرف كلينتون إلى اليسار في رئاسته الثانية ، باعتباره لن يواجه الناخبين بعدها أبداً . وأظهرت استطلاعاتنا أن هذه المسألة هي أضعف نقطة في جهازنا الدفاعي ، وأنها منا بمثابة الكعب من أشيل . لقد حاول دول مناقشة هذه المسألة ، لكنه سرعان ما تركها إلى الهجومات الأخلاقية الشخصية ، تماماً كالثور الذي يهاجم الرداء الأحمر بدلاً من مهاجمة المصارع نفسه في الحلبة .

كنت أحذر دائماً وباستمرار من قدرة دول على هزيمتنا بسلاح قائمة قيمنا ذاته . حذرت كلينتون من هذا في اجتماع لرسم الاستراتيجية بأوائل شهر فبراير / شباط ، حين اعترض ليون ومايك كوري على استراتيجيتي بطرح قيم جديدة في الحملة الإعلانية اليومية .

قال ماك كوري « سيختلط الأمر على الصحافة ، إن من الأفضل أن نقدم فكرة كبيرة في الأسبوع ، من أن نقدمها في جرعات يومية ثقيلة الظل » . فأجبته بأننا في اليوم الذي

نرمي فيه بجرعتنا الضخمة ، قد تسقط طائرة أو يقوم شغب أو زلزال في البوسنة ، أو يحدث ما يغطي على منشوراتنا ، ويقضي على أسبوعنا بكامله .

وقال ليون إن البيت الأبيض يتحمل أكثر مما يطيق باضطراره إلى تدقيق أفكاري بالسرعة التي أقدمها بها ، وحذر من أننا « لا بد أن نخطىء في يوم من الأيام » . فأجبته بأننا لم نخطىء بعد ، إلا أننا سنخطىء كثيراً لو استرخينا وتركنا دول يسرق قضايانا ، وقلت : « حين نتباطأ ، نترك الكثير في متناول دول ، وما إن تنتهي الانتخابات التمهيدية حتى ينتبه إليه ، ويسرقه منا . عندها ليرحمنا الله إن لم نسيطر منذ الآن على حلبة السباق . لقد سنحت لنا فرصة بداية راسخة متقدمة حين ألقى الرئيس خطابه أمام دولة الاتحاد ، إلا أن علينا أن نحافظ على هذه المرتبة المتقدمة .

وغمغم ليون إن من حسن حظ لينكولن أن الاستطلاعات الإحصائية لم تكن معروفة أيام الحرب الأهلية .

★★★★

كنت أتخيل دائماً ، خلال الحملة الانتخابية ، ما يستطيع أن يفعله دول . وأتناقش مع نفسي وكأنها شخص آخر ، لأرى مواطن ضعفنا أمام كل استراتيجية يمكن لدول أن يتبناها . وكنت أرتعد بعدها خوفاً من الأخطار المحتملة التي تبدو واضحة أمامي في ذلك الوقت .

لكن قلقي كان بلا مبرر . فقد وجد دول خلال الانتخابات التمهيدية أننا قد احتللنا المواقع الجمهورية التقليدية في الحلبة ، وأن مستشاريه ومدربيه أخفقوا في إيجاد مواقع بديلة ، وأن ترشيحه سقط مؤقتاً ضحية رجلين كان لديهما ما يقولانه : بات بوكانان بانعزاليته الوطنية المتطرفة ، وستيف فوربيس بتأييده للمعدلات الضريبية المتزايدة .

كانت أفكار بوكانان الانعزالية تلقى قبولاً محدوداً عند الجمهوريين . وكنت أعيد وأكرر للرئيس ما سبق أن قلته له في أوكتوبر / تشرين الأول ١٩٩٤ حين كان يفكر بغزو هايتي « العنصرية العرقية والانعزالية هما السموم القاتلة الأكثر خطراً على سياستنا » .

لقد رأينا كيف استطاع برنامج بوكانان المتطرف أن يحقق ٢٠٪ من أصوات الناخبين ، وكيف كان من الممكن أن يفوز بـ ٣٣٪ لو أنه قاتل بضراوة وعناد أكبر ، إلا أنه لم يفعل . أما بالنسبة لدول فقد كانت اللعبة أن يحصل على ترشيح الجمهوريين له وعلى قدر مماثل لما يحصل عليه بوكانان من الناخبين ، ثم يجبر باقي الناخبين على التصويت لصالحه باعتباره المرشح الأكثر اعتدالاً .

وبعد سقوط غرام أمام بوكانان ودول في المناظرة بمؤتمر لويزيانا، وفشل ألكساندر في انطلاقة بدء السباق، بقي ستيف فوربيس الحاجز الوحيد الذي يتعين على بوكانان ودول أن يتخطياه، لينحصر السباق بينهما.

كان فوربيس، من حيث المبدأ كمرشح ذي فكرة واحدة وخط واحد، مقبولاً وجذاباً بين جمع من المرشحين ليس لديهم خط ولا أفكار خاصة بهم. فلقد برزت رسالته وصمدت، لأنها كانت — إلى جانب رسالة بوكانان — الوحيدة في الميدان. فالناخبون يصغون إليك ويتجاوبون معك، حين يردد المرشحون أقوال بعضهم، بينما تقول أنت شيئاً مختلفاً آخر. لا يهم إن كان ما تقوله جيداً، المهم أن يكون مختلفاً فقط.

ولم يكن ما يقوله فوربيس جيداً على الإطلاق. فتثبيت الضرائب دون زيادة أو نقصان، لم يقضِ على شكوك الناخبين بأنه ليس أكثر من طريقة لتخفيض الضرائب عن الأغنياء، وتحويل العبء الضريبي إلى كاهل الأسر المتوسطة. ولهذا، حين تبنى فوربيس الجمع بين تثبيت الضرائب وتخفيضها، ليتفادى انتقال العبء الضريبي، واصطدم بمسألة عجز الميزانية، لم يستطع الحفاظ على توازنه.

لقد كان بوسع فوربيس أن يصمد أكثر، لو أنه حافظ على رباطة جأشه، لكنه أثبت بدلاً من ذلك أنه سريع العطب. الفلك الزجاجي في معارك الملاكمة السياسية يعرض صاحبه لأن يخسر بالضربة القاضية. فبعد أن حصل على ما يقارب المرتبة الثانية في ولاية آيووا، شعر بالنشاط والتفاؤل، ثم الانكماش وخيبة الأمل حين جاء رابعاً في ولاية نيوهامبشاير، حيث قضت عليه الدعاية الإعلانية التي نظمها دول ضده. لقد شجعه فوزه في ولايتي ديلاور وأريزونا، لكنه أخفق في كسب الناخبين بالولايات الأخرى مثل ميتشيغان وإيلينوي وكاليفورنيا وويسكونسين، لأنه لم ينفق أموالاً كافية في وقت مبكر.

لم يكن بالإمكان إخراج بوكانان ولا إخراج فوربيس من السباق بالطريقة العادية، أي أن يسحب الممولون أموالهم بدعم مرشحهم حين يتضاءل أملهم بفوزه. فبوكانان لا يحتاج إلى أموال لنشر رسالته، لأن عنف أفكاره وتطرفها كان كافياً لأن تنشرها الصحافة مجاناً. وفوربيس لا يحتاج إلى أموال غيره، لأن لديه ثروته الخاصة، ولو أنه تابع ضرب دول ولاية بعد أخرى، لجمع أكواماً هائلة من أصوات الناخبين.

كان كلينتون يضحك لاهياً وهو يرى إعلانات دول المضادة تعرّي فوربيس وتصفّيه، ويعلق قائلاً « دول هو الوحيد الذي يجيد الدعايات الإعلانية المضادة، لكنه نجح مع فوربيس فاستعملها كلها، وأرغمه على اللجوء إلى الرد بدعاية مضادة مثلها، ثم تركه ومضى ليتناول

غداءه مطمئناً » . لقد تعلم كلينتون من هذا كله درساً يقول : إذا توقف فوزك على التشهير بخصمك في دعاية مضادة ، فلا تتردد أبداً في قبول الخسارة .

في نهاية الأمر ، لم يتمكن فوربيس من كسب عدد كافٍ من الناخبين . ، لأن تقاليد الحزب الجمهوري وقواعده تقف كتلة واحدة في وجه الدخلاء الوافدين . فالعديد من الولايات ـــ كولاية نيوجيرسي مثلاً ـــ تختار ناخبيها حسب المناطق ، دون أن تسمي لهم مسبقاً المرشح الرئاسي الذي عليهم أن يدعموه . وبهذا ، فهي تقطع الطريق على السياسيين المعروفين (كأعضاء الكونغرس وأعضاء الهيئة التشريعية وغيرهم) أن يؤثروا على الجماهير ، فيفوزوا كناخبين ممثلين ، بعيداً عن اسم مرشحهم الذي سيدعمونه للرئاسة . بينما لا تلجأ ولايات أخرى إلى الانتخابات التمهيدية ، بل تقوم بتسمية ممثليها في مؤتمرات انتخابية من بين أبنائها الموثوقين . هذه العوامل هي التي منعت فوربيس من أن يفوز ، ومنعته حتى من أن ينافس دول على الأغلبية ، رغم القاعدة العريضة من الناخبين التي أيدته في سان دييغو .

كان بإمكان فوربيس بقليل من الجهد ، حين تعثر دول وترنح ، أن يرغمه على التنحي . ولما اجتمع الاثنان في سان دييغو بمؤتمر شهر آب عام ١٩٩٦ ، كان الجمهوريون يخشون أن يخسر مرشحهم دول الانتخاب ، ويتمكن فوربيس من إثارة أعصابه أمام الناخبين . إلا أن فوربيس استطاع على كل حال أن يحجز لنفسه مكاناً في رحلة السباق القادم عام ٢٠٠٠ ، وأن يفوز بما يتطلبه الترشيح للرئاسة عند الجمهوريين ، فهزيمة عام ٩٧٦ هي التي دفعت بريغان ، وهزيمة عام ٩٨٠ دفعت ببوش ، وهزيمة عام ٩٨٨ دفعت بدول . لكن فوربيس أثبت أنه هاوٍ غير محترف بانهياره بعد مؤتمر أريزونا ، وبذله جهوداً ضعيفة في الولايات الباقية الأخرى .

****

حين كانت معدلات دول تتذبذب في الانتخابات التمهيدية بين أيام نحس وأيام سعد ، كانت اجتماعاتنا الأسبوعية لرسم الاستراتيجية غارقة في أمواج التنبؤ والتخمين عمن سيفوز . وكنت أخطىء ككل شخص آخر . وكان بوب سكواير يلقي علي المحاضرات مطالباً بأن أحتفظ بتنبؤاتي عن نتائج سباقات الآخرين لنفسي . كان يقول لي « اقصر تنبؤاتك على الشخص الذي يدفع لك أجورها .. على كلينتون وسباقاته » .

كنا في كل الأحوال ، بعد تسمية دول كمرشح ، ندخل الحلبة متقدمين بالنسبة نفسها التي حصلنا عليها منذ خطاب الدولة الاتحادية ـــ ١٧ نقطة . أما الآن فقد أصبحت مهمتنا المحافظة على هذه النسبة في التقدم بعد أن بدأ دول حملته الانتخابية .

انتظرنا هجوم الدعاية الإعلانية المؤيدة لقضايا الجمهوريين، وخشي الرئيس ـــ قبل سبتمبر / أيلول ١٩٩٥ ـــ إن اشترينا الدعايات بشكل كثيف، أن يبتلع الإعلام الجمهوري موجة بعد موجة رسالتنا، وأن يغرق المليون دولار التي ندفعها أسبوعياً في بحر المليونين اللذين يدفعونهما هم. لكن القلق تحول إلى شك حين ظل الجمهوريون خارج المجال الإعلامي، ولم يدخلوه حتى بعد فوز دول بالترشيح للرئاسة في الانتخابات التمهيدية. وبقيت أسأل نفسي «أين أموالهم؟». كنت أتصل مرتين أسبوعياً بجامي ستيرلينغ، المكلف بشراء إعلاناتنا، لأسأله بعصبية عما إذا ظهرت أية إشارات تدل على بدء الجمهوريين بشراء الإعلانات، ليجيبني بالنفي. ثم صرت أتصل به يومياً أكثر من مرة خلال أبريل / نيسان ١٩٩٦.

وأتعبني البحث عن أسباب تفسر خمولهم هذا. إن لديهم أموالاً كثيرة بإمكانهم استخدامها، فلماذا لا يفعلون؟

مع بقاء مدفعية العدو صامتة، فقد خلت لنا المجالات الجوية، وتفرغنا للتركيز على المسائل التشريعية المطروحة في الكونغرس، حيث لم تكن مواقف دول وغينغريتش تحظى بشعبية كبيرة. لقد ارتفعت معدلات دول إلى أقصى درجاتها بعد استيلائه على الترشيح للرئاسة، وبعد أن قرر الناس التعرف عليه أكثر، باعتباره أحد اثنين وصل إلى نهائيات نوفمبر / تشرين الثاني. لو أن دول بادر بخلق انطباع إيجابي لنفسه منذ البداية، لاستطاع دعمه وتعزيزه خلال العام. أما لو لجأ إلى الدعاية المضادة ومهاجمة سلبيات الآخرين فسيسقط نهائياً. لقد أضاع الحزب الجمهوري، بتخليه عن المجالات الجوية في تلك الفترة، كل أمل له بالفوز بالانتخابات. صحيح أنهم قاموا ببعض الإعلانات في يوليو / تموز، إلا أن دول كان قد انتهى، وكان السباق قد تحددت نتيجته.

لقد أهدتنا المعارضة اثني عشر شهراً بلا مقاومة، ومجالاً جوياً مفتوحاً. وفي الوقت الذي بدأ الجمهوريون فيه أول دعايتهم الإعلانية، كنا نحن قد صرفنا حوالي ثلاثين مليون دولار على إعلاناتنا دون أي معارضة، تعادل ثلاثة أرباع ما أنفقه بوش وكلينتون في عام ١٩٩٥ على الإعلام في الانتخابات التمهيدية والعامة.

لقد أظهرت الاستطلاعات في ديسمبر / كانون الأول عام ١٩٩٤، حصولنا على ٣٣٪ من الأصوات في الانتخابات التمهيدية والعامة أمام دول. أما في فبراير / شباط ١٩٩٦ فقد حصلنا على ٥٣٪ منها أمام دول وعلى ٥٠٪ منها أمام بيروت. وحقق الرئيس في النتائج النهائية ٤٩٪ من الأصوات، وهي تقريباً ذات النسبة التي تنبأت بها استطلاعاتنا قبل ذلك بثمانية شهور. وبرغم كل تذبذب المعدلات بين ارتفاع وانخفاض، فقد حافظ الرئيس كلينتون

على معدل التقدم على دول الذي حققه منذ أن فاز المذكور بسباق الترشيح، ثم ثبت كحقيقة واقعة يوم انتخابات الرئاسة بالذات.

بعبارة أخرى، لم تستطع حملة دول الانتخابية بأكملها أن تنقص درجة من معدل كلينتون عند الناخبين.

ومع ذلك، إذا ما طرحنا أسئلة محددة عن كلينتون من مثل: هل هو زعيم قوي؟ هل هو إيجابي فعال؟ هل يصمد لنصرة الحق ولو عارضه الآخرون؟ لوجدنا أن معدلاته من خلال الأجوبة فقيرة جداً، وأن معدلات منافسيه وخصومه متوسطة، ولقد حذرته من أن هذه المعدلات المتدنية هي النقطة الضعيفة الرخوة في حزامنا. إلا أننا لو قايسنا كلينتون بدول في أي من هذه الأسئلة بالذات، لوجدنا أن الرئيس يتفوق وبشكل ظاهر ثابت على المرشح الجمهوري. قلت له ذات مرة: «دعنا من محاولة تجسيد المثل الأعلى، ولنحصر السباق مع دول».

انطلقنا من استراتيجية المقارنة والمعارضة، التي قام بن وشوين على رسمها وتطويرها. كانت الفكرة أن نثير مواقف كلينتون من المسائل التشريعية ضد دول في جميع إعلاناتنا لتوضيح التعارض والتضاد بينهما. فحين يقاس كلينتون بمقياس المقارنة بخصمه، يبدو أفضل كثيراً من أن يقاس بمعيار مثالي طوباوي.

كانت الفكرة انتهاكاً صارخاً لكل ما اصطلحت عليه الأعراف والحكمة التقليدية. إذ ليس من المفروض بالرئيس أن يضع نفسه مع خصمه في الإعلانات بمستوى واحد. فإذا فعل ذلك وهو رئيس للولايات المتحدة لاعتبر خطؤه مضاعفاً. فهو يرفع قدر خصمه من جهة ويضع قدر نفسه من جهة أخرى.

ومع ذلك، فهذا ما قمنا به بالضبط، فارتفعت معدلاتنا بشكل حاد. لعل الناخبين لم يجدوا في كلينتون ذلك الإيجابي الفعال، لكنهم وجدوه فعّالاً أكثر من دول الذي أوقعه سوء طالعه مع مستشارين ضعفاء في مجال الدعاية، ووجدوا فيه قائداً أفضل، أميل إلى إحقاق الحق، وإلى دعم وترسيخ القيم الأمريكية.

في ذلك الوقت، كنا نركز كل ثقلنا واهتمامنا على إنهاء نتيجة الانتخاب سلفاً وبوقت مبكر. كنت أقول «سننهي هذا السباق في مايو/أيار، ولن يحصل بعده ما يغير النتيجة، عدا بعض النقاط هنا وبعض النقاط هناك. في مايو/أيار ستأخذ الأمور شكلها. في مايو/أيار ومع بداية الصيف وليس في نهاية الخريف ستحتدم معركة الحملات الانتخابية الحقيقية». وقاتلت علناً وبنجاح أسبوعاً بعد أسبوع لتبقى إعلاناتي على الهواء مباشرة،

مؤكدة مواقفنا التي نلتزمها في طرح التساؤلات أمام الكونغرس . وكان آيسكيس خلال ذلك كله يزمجر ويغمغم معارضاً .

لقد أضرَّ خمول دول كعضو في مجلس الشيوخ ، كثيراً بحملته الانتخابية . ففي البداية قرر دول أن يخطط حملته على أساس عضويته تلك ، وكان ذلك خطأً كبيراً فاضحاً بانت آثاره فيما بعد . قال جورج ستيفانوبولوس : « من الأفضل له لو أنه أقام حملته على أرضية من الرمال المتحركة » فالديموقراطيون استخدموا الأنظمة الإجرائية لتحويل زعيم الأغلبية إلى قطعة بسكويت مملّح . فلم يستطع تمرير وإنجاز أي شيء ، ولا عرقلة وإسقاط أي شيء ، بعد أن أقام الديموقراطيون المعوقات أمامه ، وقيدوه بمسألة الحصول على ستين صوتاً ، ليتمكن معها من كسر ما يريد ، بينما هو لا يملك أكثر من أربعة وخمسين .

قال لي جورج يشرح موقف الصحافة « سوف تتعب أقدامه وهو يصعد إلى مكتبه في مجلس الشيوخ وينزل ، وقد اصطف له المحررون في أرتال على جانبي ممرات المجلس يطرحون عليه الأسئلة ، ويدفعون ميكروفوناتهم الصغيرة في وجهه ، وسيضطر إلى الإجابة ، وستكون إجاباته عنيفة هجومية ، وسيجعلون منها قصة لصفحاتهم الأولى تختلف عن القصة التي أرادها هو » . وبدا الأمر وكأنه مشهد من مسرحية ساخرة ، لكنه حصل بالفعل كما تنبأ له جورج تماماً .

ثم زاد إعجابي بجورج وأنا أراه يدير ببراعة ورشاقة القوى الديموقراطية في مجلس الشيوخ لمحاصرة دول وإحراجه . كان يتصل بي صباح كل يوم ليقول « لقد قدم لنا دول هدية اليوم » ، ثم يمضي في شرح وبيان ما يخططه السناتور التعيس الحظ والخطوات المعاكسة التي يعد العدة ليقوم بها ، وكل يوم كان دول يفعل ما تنبأ به جورج صباحاً .

****

رغم معاركي الطاحنة وتعبئتي للصفوف ، ونجاحي في أن أقيم استراتيجيتي على قراءات ستيفانوبولوس واستنتاجاته ، فقد بقي لدي إحساس بقلق الرئيس من أنه يقوم بتسريب الأخبار إلى الصحافة . وطبقاً لإشاعات البيت الأبيض ، فقد كان كلينتون غاضباً بشكل خاص من إحساسه بأن لجورج دوراً في مساعدة بوب وودوارد على النقد الهدام لفترة السنوات الأولى لكلينتون في البيت الأبيض بكتابه « البرنامج » . لكن جورج من جانبه أنكر بعنف أن يكون قد أساء إلى كلينتون ، وأثبت بالدليل القاطع أن دوره مع وودوارد كان في كتاب إيجابي آخر لم يطبع . وكنت أنا مؤيداً لجورج .

بعدها، في خريف عام ١٩٩٥، ثار علي الرئيس بسبب خبر نشرته الواشنطن بوست، كشفت فيه عن بعض أرقام استطلاعاتنا. فأخبرته أنني لم أتحدث مع أي صحفي لا عن هذا الموضوع ولا عن غيره.

قال كلينتون: «أنا أعرف أنك لا تتحدث إلى الصحافة، لكنك مهذار كثير الكلام، ولا بد لكلامك في النهاية من أن يذهب إلى المطبعة. أنت تتحدث إلى أفراد الطاقم وهم يتحدثون إلى الصحافة، وهذا أسوأ من أن ترفع سماعة هاتفك وتتحدث إلى المحررين مباشرة»، ثم سألني عمن فاتحته وناقشت معه هذا الموضوع، فذكرت له جورج ورام إيمانويل. فانفجر الرئيس قائلاً «أنت فقط تحدثت مع جورج ورام، ألا يكفي هذا، لماذا بحق عيسى المسيح لم تنشره في بيان صحفي؟ لماذا لم تعممه عبر الهاتف الرباعي؟ فقط تحدثت مع جورج ورام.. ألم تفهم اللعبة بعد؟ أنت لا تحتاج هنا إلى أكثر من ذلك.. أحدثك فتصيح: أنا لم أقل شيئاً، أنا لم أطلب من أحد أن ينشر شيئاً. وكأنك ولدت البارحة، كيف تريدني أن أجعلك تفهم، هل أهجّيه لك حرفاً حرفاً؟».

لكنني مع هذا ما زلت أميل إلى أن جورج لم يسرّبها. ذات مرة طلب مني الرئيس أن أتصل مباشرة مع ترينت لوت، وأرى إن كان الاتفاق ممكناً حول موضوع الميزانية، فطلبت من جورج تزويدي بمعلومات عن الميزانية لأتمكن من التوصل إلى نتيجة بمحادثاتي مع السناتور الجمهوري. وقد تجاوب معي وزودني بمعلومات دقيقة صغيرة، لم يقرأ أحد عنها شيئاً في الصحف. وأطلعت الرئيس بعدها على محادثاتي مع لوت، وعلى دور جورج بتزويدي بالمعلومات.

في اجتماع رسم الاستراتيجية بشهر يونيو/حزيران ١٩٩٦، تقدمت بمذكرة إلى الرئيس ونائبه أنتقد فيها بعض أفراد طاقم البيت الأبيض. وبعد انتهاء الاجتماع، عدت مع الرئيس على انفراد لمراجعة المذكرة.

كانت الملاحظة الانتقادية الأولى تتعلق بجين سبيرلينغ، وكيف أكد قيام لورا تايسون بقتل مبادرة الرئيس بشأن المنح الجامعية وبناء المدارس. قال الرئيس «لقد قام جين بعمل رائع من الطراز الأول.. من الطراز الأول».

في الملاحظة الثانية أثنيت على رام إيمانويل لجهوده المدهشة في دعم برنامجنا عن الجريمة، والوقوف في وجه جانيت رينو واعتراضاتها. ووافقني الرئيس على عكس انتقاداته من قبل قائلاً «إنه يقوم بعمل جيد».

بعدها ذكرت أن جورج ستيفانوبولوس بدا منقبضاً قليلاً في الآونة الأخيرة، وأشعر كما لو أن لديه إحساساً بعدم رضى الرئيس تماماً عن عمله. وقلت إن الحدس السريع عند

جورج أفادنا كثيراً في لعبتنا، وشجعت الرئيس على التبسط معه والتقرب منه. لكنه رغم كرمه نحو سبيرلينغ وإيمانويل، كان صامتاً جامد الوجه لذكر اسم جورج. نظر إلي طويلاً بشفاه مضمومة بإحكام ولم يقل شيئاً.

بعد فترة صمت ثقيلة، انتقلت إلى الاسم الأخير في مذكرتي، دافيد شيبلي. وامتدحت فصاحته في كتابة الخطب، مشيراً إلى مساهمته في إعداد خطب الرئيس في أوستن، وفي حفل تأبين رون براون، وقال كلينتون مادحاً «لقد قام شيبلي بكتابة عدد من أحسن خطبي».

ومع ذلك ظل الرئيس ينظر إلى جورج كمستشار رئيسي بين أفراد طاقم البيت الأبيض. فقد قام جورج بإعداد معظم اجتماعات الرئيس في المكتب البيضوي، وكان دوره ــ بعد ماك كوري طبعاً ــ هاماً في إعداد المؤتمرات الصحفية للرئيس. وكان الرئيس يقدر عالياً ــ وهو محق بهذا ــ حكمة جورج في تسيير الأمور. فمن المستحيل أن تتحدث عن فترة رئاسة كلينتون، دون أن تعرض لجورج ستيفانوبولوس وكفاءاته المهنية.

****

انقضى أبريل ومايو / نيسان وأيار، والرئيس ما زال يحاول الوصول إلى اتفاق حول الميزانية، ويقترح التفاوض مع الجمهوريين في أي مكان وزمان يحددونه. وحين طرح على دول هذا السؤال وهو في طريقه إلى قاعة الاجتماعات في مجلس الشيوخ، اقترح أن يجلس مع كلينتون لوحدهما وجهاً لوجه ليصلا إلى اتفاق. وبناءً على اقتراح جورج قبلنا العرض، فقد كان هذا هو ما نبحث عنه ونسعى إليه. وكان على أفراد طاقم دول أن يغيروا مواقفهم ويبدلوا وجهتهم بسرعة.

وبدا أن دول يسير من سيء إلى أسوأ يوماً بعد يوم. فحاول أن يلغي ضريبة المحروقات التي كان كلينتون قد زادها، كجزء من برنامج لتغطية العجز في عام ١٩٩٣. ولم تكن زيادة السنتات الأربعة في كل غالون تعني شيئاً كثيراً مع انخفاض أسعار المحروقات، ولكن بعد قلة كميات النفط وارتفاع أسعاره في شتاء وربيع عام ١٩٩٦، بدت هذه الزيادة أكبر من أن يبلعها أصحاب المركبات. وفي مجال العزف على ألحان الضرائب، فقد ارتفعت أبواق دول تعلن عن رغبته بإلغاء الضرائب. فرددنا عليه أنه سبق له التصويت على زيادات ضريبية تتجاوز العشرة سنتات خلال السنوات الماضية، وأنه يعارض هذه الزيادة لمجرد أن كلينتون هو الذي اقترحها.

كانت مرة وحيدة، تلك التي أحكم فيها قادة الديموقراطيين في مجلس الشيوخ لعبتهم. فبادروا بربط مسألة إلغاء ضريبة المحروقات، بمسألة زيادة الحد الأدنى للأجور، تلك

المسألة المفضلة لديهم. وحين احتج الجمهوريون على هذا الربط بين الموضوعين، رد عليهم الديموقراطيون فرفضوا السماح لأي مؤسسة أو رجل أعمال بالتعامل مع أي عضو من مجلس الشيوخ، إلا إذا تمت الموافقة على إضافة مسألة زيادة الحد الأدنى للأجور على اقتراح إلغاء ضريبة المحروقات.

تكاد مسألة زيادة الحد الأدنى للأجور تكون المسألة الوحيدة التي درجت تقاليد الحزب الديموقراطي على المطالبة بها، وانغرس ذلك عميقاً في ذاكرة الناخبين. ورغم أن معظم العاملين لن يستفيدوا شخصياً أبداً من هذه الزيادة، إلا أن الكثير من الأمهات اللاتي يعملن مقابل ٢٥ر٤ دولاراً في الساعة سوف يستفدن منها في تربية أولادهن. فبقدر ما يكره الناخبون المعيار الأخلاقي في المعونة الاجتماعية بأن يحصل الإنسان على الشيء مقابل لا شيء، فهم يكرهون الأجور المنخفضة التي تعني أن يحصل الإنسان على لا شيء مقابل شيء.

أظهرت استطلاعاتنا أيضاً أن الناخبين لم تزعجهم مسألة ضريبة المحروقات ولم تشوشهم. فقد كانوا يعرفون أن دول يستخدمها مطية تعود به إلى حلبة السباق، وعرفوا من خلال إعلاناتنا أنه كان يؤيد زيادات هذه الضرائب في الماضي. ما عدا الناخبين في غرب البلاد حيث الأميال تضاف بسرعة، فقد ألقوا نظرة عابرة على ضريبة المحروقات.

قبل انقضاء سنة على هذا، لاحظتُ بداية ظهور فرق بين المسائل المتعلقة بالمصالح الشخصية، والمسائل المتعلقة بإحساس الناخبين بعدالة اللعبة. ومرة أخرى يثبت خطأ الحكمة التقليدية، التي تقول بأن المسألة كلما اقتربت من جيوب الناخبين أصبحت أكثر بروزاً وأهمية، في حين أن العكس هو الصحيح. فالمسائل المتعلقة مباشرة بمصالح الناخبين أقل إثارة لاهتمامهم من تلك المتعلقة بمساعدة أناس يحتاجون للمساعدة. إنه أمر فعال أكثر في الجانب السياسي أن نرفع الحد الأدنى للأجور لعشرة ملايين أم مع أولادهن، من أن نخفض سعر غالون المحروقات بضعة سنتات.

فهم كلينتون الفكرة بسرعة، وأنا أشرح له الفرق في اجتماع رسم الاستراتيجية بمايو/أيار ١٩٩٦، قال: «هذا ما اكتشفته بالضبط وأنا أتحدث إليهم هناك. إنهم يهتمون بالآخرين أكثر مما يهتمون بأنفسهم، وهذا يوضح أننا نفعل ما يريده الناس».

بناءً على هذه المعلومة، نصحت كلينتون أن يتخذ موقفاً حازماً، ويطالب برفع الحد الأدنى للأجور ثمناً لإلغاء ضريبة المحروقات. ولكن بما أن دول لم يجرؤ على التنكر لمؤيديه وداعميه من المؤسسات ورجال الأعمال، فقد بقي الحد الأدنى للأجور حتى الآن منخفضاً، وبقيت ضريبة المحروقات مرتفعة.

في منتصف مايو / أيار كان الرئيس يحلق في السماء، بينما دول يزحف على الأرض. وكانت إعلاناتنا تبث بلا منافس. وكانت قيمنا وبرامجنا تلهب الناخبين. في مايو / أيار دعا الرئيس إلى :

- إعفاءات ضريبية على التبني.
- رصد اعتمادات مالية لأبحاث الايدز.
- منح الأمهات حديثات الولادة إجازة أمومة خلال ٢٤ ساعة من الولادة.
- اتخاذ إجراءات صارمة بحق عصابات المراهقين.
- وضع أنظمة لمسؤولية مشتركة بين العمال وأرباب العمل.
- تطبيق نظام منع التجول بعد الغروب على المراهقين.
- وضع برنامج جديد لضحايا حرب الفييتنام.
- وضع استراتيجية جديدة لمحاربة المخدرات.
- تدريس القراءة والكتابة بالكومبيوتر في المدارس.
- الموافقة على تطبيق خطة إصلاح المعونة الاجتماعية التي بدأتها ولاية ويسكونسين.

وبينما كنا ــ الرئيس وأنا ــ نركز الجهود للوصول إلى اتفاق حول الميزانية، كالباحث دون جدوى عن الكأس المقدسة التي شرب بها المسيح في العشاء الأخير، كان دول يبدو ولا شيء يمكن أن يزحزحه عن عزمه على الوقوف في وجه تخفيض العجز، بدلاً من الوقوف إلى جانبه، رغم أن الأرقام بين الجانبين كانت متقاربة جداً.

كانت الأموال موجودة من أجل الوصول إلى اتفاق، لكن الاتفاق لم يتم لأن غينغريتش ودول وغيبهاردت وتوماس داشل ــ قادة الجمهوريين والديموقراطيين في المجلس ــ اتفقوا على أمر واحد، هو تحويل المسألة إلى دعاية انتخابية، فأعطوا الرعاية الصحية للديموقراطيين وعجز الميزانية للجمهوريين، ولم يتفقوا أبداً على أن يحلوا المشكلة. كلينتون لم يعجبه ذلك، وترينت لوت لم يعجبه ذلك أيضاً، إلا أن لوت لم يكن يمتلك أية سلطة.

كان واضحاً حين يترك دول مجلس الشيوخ أن يأخذ ترينت لوت مكانه كرئيس للأغلبية. فاتصلت به بحكم صداقتنا القديمة وأخبرته أنني سأسدي إليه معروفاً فأبتعد عن طريقه وعن هاتفه خلال السباق. ولكن حين أعلن السناتور الأوكلاهومي دون نيكلز أنه لن يرشح نفسه لمنصب رئيس الأغلبية، وسيكتفي بمنصب أمين سر الأغلبية، بدا واضحاً أن لوت قد ضمن الأصوات التي هو بحاجة إليها، ولم يعد أمامه سوى صديقه عضو مجلس الشيوخ القديم عن الميسيسيبي تاد كوكران، الذي ينافسه على المنصب، رغم أن لوت يسبقه فيه بعشر سنوات.

في لقائي الثاني مع غور ، سألني بانفعال عما إذا كان لدي وقت لمساعدته ومساعدة كلينتون في خضم انشغالي بإدارة حملة لوت الانتخابية في سباق زعيم الأغلبية بالكونغرس . وكانت علاقتي بنائب الرئيس متوترة منذ نوفمبر / تشرين الثاني الماضي ، حين اتهمني الرئيس بأنني قد جعلت من غور موظفاً عندي .

في اعتقادي أن غور كان يشعر بالأصل بانهماكي بالعمل مع كلينتون بعد لقائي معه في يناير / كانون الثاني ١٩٩٦ ، وتجديد علاقتنا الحميمة ، فبدأ ينظر إليّ بعدها كمستشار للرئيس ، وليس كمستشار له .

لقد رأى جماعة دول أنهم في مشكلة ، وكان دول نفسه أكثرهم إحساساً بها . فمع إعلان دول المؤثر عن استقالته من مجلس الشيوخ في ١٥ مايو /أيار ١٩٩٦ ، عادوا إلى التجمع والتئام الشمل ، الأمر الذي أثار تساؤلات الصحافة وعجبها مما إذا كان هذا الدور الجديد ، دور المواطن بلا منصب ، يبشر بسباق جديد . والنتيجة أن دول حصل على دعاية لمدة أربعة أسابيع . إذ شاهدناه ، منذ إعلان مايو وحتى مغادرته مجلس الشيوخ بتاريخ ١١ يونيو / حزيران ، متجهِّم الوجه لمدة خمس أو عشر دقائق في نشرات الأخبار المسائية ، وهو يتلقى ثناء ومديح زملائه في المجلس من كلا الحزبين . وكان يتوقع ، نتيجة هذا المشهد الجنائزي المسرحي المتملق على مدى شهر بطوله ، أن ترتفع معدلاته في الاستطلاعات ، استجابة لشلال الإطراء المتدفق عليه .

لكنه نسي أمراً هاماً .. نسي الدعاية الإعلانية . فقد استجبنا له نحن بإعلاناتنا ، عرضنا في أحدها أقفاصاً وصناديق تتحرك خارجة من مكتبه في مجلس الشيوخ ، لتتكدس عالياً على طاولة مزخرفة عليها لوحة تحمل اسم دول ، وصورة قديمة للسناتور المهجور ، بينما يعلق المذيع قائلاً « السناتور يتخلى تاركاً وراءه الشبكة المعقدة التي أحكمها هو وغينغريتش » . في المنظر الثاني كلينتون بالألوان ، منهمكاً في إنجاز الأعمال غير المكتملة الباقية : توازن الميزانية ، إصلاح المعونة الاجتماعية ، رفع الحد الأدنى للأجور ، بعد هروب دول ليتفرغ لحملته الانتخابية . وكان إعلاناً مقنعاً مدمراً صنعه ماريوس بينزنر ، احتوى على كل عناصر السخرية من استقالة دول ، وتجاهله لكل العهود التي قطعها على نفسه ووعد بتنفيذها في حال فوزه بالانتخابات .

أعجب كلينتون بالإعلان كثيراً ، بعد أن عدّل فيه بعض الكلمات هنا وبعضها هناك ، إلا أنه ترك كلمة « السناتور يتخلّى » على حالها . ولكن مع اقتراب « يوم الذكرى »(*)

(*) هو يوم ٣٠ مايو /أيار ، تحتفل فيه أكثر الولايات الأمريكية كل عام بذكرى الجنود الذين سقطوا في ساحات القتال . المعرب

اتصلْ ساندي بيرغر المستشار المساعد للأمن القومي يدعونا إلى إسقاط هذه الكلمة من اللقطة. قال: «إنه سيعود يحف به محاربوه الأشاوس من كل جانب ليقول (أنا لم أتخلَّ عن معركة في حياتي.. من يكون هذا البغل المحتال بيل كلينتون ليصفني بالتخلي والهروب؟) فقلت لساندي أننا فحصنا مسألة عودته هذه بدقة، ووجدنا أنها لم تشكل أي أثر على أرقام استطلاعاتنا.

لم يقتنع ساندي فاتصل بالرئيس. وفي الصباح الباكر من اليوم التالي اتصل بي كلينتون من طائرته يسأل ما إذا كان الإعلان قد تم «شحنه» فأجبته بالإيجاب، لكن بإمكاننا أن نعدل فيه بمحطات البث، إن كان ثمة ما يرغب بشطبه أو تعديله. قال بانفعال لاهث «عليك أن تشطب كلمة (يتخلى) من الإعلان، لأنها ستشكل ثغرة فيما بعد. ومن الأفضل لو بدلتها بكلمة (يمضي) أو (يذهب)».

وافقته على أن ذلك لن يفرق كثيراً، لكنني أعتقد أنه ليس أمراً خطيراً يستدعي تعديل الإعلان في محطات البث. فسألني غاضباً «من الذي وافق على النص؟» أجبته «أنت بالذات» وذكّرته بأن الشريط قد تم عرضه عليه مرتين قبل يومين في اجتماع رسم الاستراتيجية. فقال: «حسناً لقد مرّ الحوار سريعاً فلم أتبين الكلمة» ثم ذكرني بأحد الإعلانات التي ورد فيها لفظ مشابه، وكيف أنه أمر بتغييره، وصاح «لماذا لم تنتبه أنت للكلمة وتغيرها كما فعلنا بسابقتها؟» فقلت إن جميع الصحف تستعمل تعبير «دول يتخلى عن منصبه بمجلس الشيوخ» في وصف ما حصل. فأقفل الخط بانزعاج.

نجح الإعلان بشكل رائع، وعرقل إلى حد كبير سلاح دول بالاستقالة وخفف من مضائه وحدته. قليل من الصحف تحدث عن التخلي وعن دول عدة مرات، ولم ينتج عن ذلك مشكلة من أي نوع.

ومع ذلك، ظل كلينتون يعتبر هذه المشكلة مثالاً يشير إليه كما حلا له أن ينتقد إعلاناتنا.

★★★★

قبل مؤتمر سان دييغو، بعث كولين بويل الفزع في قلوبنا للمرة الثانية، خوفاً من أن يختاره دول رفيقاً له في حملته وسباقه إلى الرئاسة. فأظهرت استطلاعاتنا أن هذا الاختيار للجنرال البطل سيؤثر كثيراً، ويرفع من معدلات دول ٧ ــ ٨٪، مما يجعله يتفوق علينا بواقع ١٠٪ على الأقل. وكانت ردة فعل كلينتون من بويل هي الخوف والفزع كالعادة.

اجتمعنا أنا وبن وشوين، وقمنا باختبارات لأربع أو خمس فرضيات محتملة نواجه بها اختيار دول لبويل، كانت كلها ــ عدا واحدة ــ مجدية في خرق شعبية الجنرال البطل. لم

تكن الغاية إيذاء بويل أو الإساءة إليه، بل كانت منع دول من أن يستثمر ويستفيد من شعبية الجنرال. ووجدنا أننا لو قاطعنا رفض دول لمسائل التحرك السريع، وتنظيم وضبط تداول الأسلحة، والإجهاض، مع موافقة بويل عليها ودعمه لها، فقد نستطيع أن ندفع الجنرال إلى أن يرفض التعاون مع دول في الانتخابات.

فقمنا بإعداد إعلان يقول «التنافس العظيم على الرئاسة في عام ١٩٩٦ لن يكون تنافساً عظيماً كما يظنون، بل سيكون حواراً بين بوب دول وقارع الطبل كولين بويل». ولما كان الرئيس، وليس نائبه، هو الذي يصنع القرارات الهامة، فقد وضح لنا بشكل مؤكد كيف أن من غير المجدي والمفيد أن يكون نائب الرئيس جيداً، إذا لم يكن لديك رئيس جيد. كان غور يتململ في مقعده وهو يناقش الموضوع.

الفصل الخامس عشر

فضائح يونيو / حزيران من عام ١٩٩٦

في نهاية مايو / أيار ، وخلال شهر يونيو / حزيران بكامله ، حاول الجمهوريون كسر قبضة كلينتون على السباق بالتحكم بأخبار التحقيقات الأولية في فضائح وايت ووتر وملفات مكتب المخابرات الفيدرالي FBI . فأبعدت نفسي عن محاولات الإدارة وجهودها في دفع هذه الفضائح ، وكان ذلك في المؤتمر الوحيد الذي لم أشارك فيه . فقد اعتدت أن أقول مازحاً « إن عملي هو تشغيل المضخات والمحركات ، وليس رقع الثقوب التي يحفرها الناس في قاع المركب » .

أنا لا أعرف شيئاً عن الوقائع التي انبنت عليها تلك الاتهامات المختلفة ، ولا عن المحامين ، ولا عن استراتيجية الإدارة في دحضها . لقد أعطيت كلينتون ثلاث نصائح عامة لمعالجة فضيحة وايت ووتر :

١ ــ أن يزيد مع تصاعد الهجمات عليه من التركيز على القيم والأمور العامة ، لامتصاص تأثير الهجمات والتوازن معها .

٢ ــ أظهرت استطلاعاتنا أن رئيس هيئة المحلفين الخاصة كينيث ستار ، ورؤوس المهاجمين في الكونغرس ألفونس داماتو وبيل كلينغر ، متهمون بأنهم يحاولون تشويه سمعة الرئيس لأغراض حزبية . فنصحت كلينتون بأن يركز على كشف علاقة ستار بزبائنه من شركات التبغ .

٣ ــ نصحت كلينتون بألا يذكر أو يشير في أحاديثه إلى أي من الفضائح المنسوبة إليه ، وأن يترك أمر دحضها للمحامين ، ولأفراد الطاقم ، وللمتحدثين الرسميين . فإذا تحدث عن هذه الفضائح ولابد ، فليتحدث عنها بعيداً عن شخصه بالذات ، بشكل تشعر معه الجماهير أن هذه الفضائح تتعلق بمساعديه وموظفيه في أحسن الأحوال ، أو تتعلق بزوجته في أسوأ الأحوال .

لقد أزعجت اتهامات وايت ووتر وملفات الـ FBI وطبول التحقيقات الأولية الرئيس كثيراً. فقد كرّس التلفزيون ٤٠٪ من نشراته الإخبارية اليومية لأحد هذه المواضيع. توم فريدمان وضع تقريراً يبين فيه ارتفاع معدل الأخبار السلبية بواقع ثلاثة أضعاف الأخبار الإيجابية التي تحكي عن كلينتون في التلفزيون. أما بالنسبة لدول فكان الأمر عكس ذلك تماماً. إذ بلغ معدل الأخبار الإيجابية ضعف عدد الأخبار السلبية، بما في ذلك الفترة التي استقال فيها من عضوية مجلس الشيوخ.

خلال مايو ويونيو / أيار وحزيران تمت إدانة جيم غاي تاكر حاكم أركنساس وجيم وسوزان ماكدوغال في أول جولة من جولات محاكمات وايت ووتر على يد كينيث ستار. ثم تمت تسمية بروس ليندساي أفضل أصدقاء كلينتون من طاقم البيت الأبيض، كمساعد غير مباشر على التآمر الجريمي في قضية هيرب برانسكومب بمصرف أركنساس. وما كاد الشهر ينتهي حتى تم كشف النقاب عن أن اثنين من طاقم البيت الأبيض الجدد، أنتوني ماريسكا وكريغ ليفينغستون، اطلعا على ملفات الـ FBI للمشاهير من الجمهوريين بما فيهم وزير الخارجية السابق جيمس بيكر. وكان ذلك انتهاكاً صارخاً لحقوق الأسرار الشخصية.

حين أدين عضو الكونغرس الجمهوري بيل كلينغر في التحقيقات الأولية لقضية الملفات، أفاد بأن هذه الملفات تمت دراستها، أو لجزء منها على الأقل، في محاولة كشف ما ثار من قيل وقال حول بيلي ديل، الذي أدى صرفه من البيت الأبيض إلى تفجير فضيحة مكتب السفريات. وكان ديل متهماً بمخالفة الأنظمة المالية في تعامله مع المكتب، إلا أن المحلفين برأوه فيما بعد.

بعد ذلك أصدرت لجنة السناتور داماتو تقريرها، مهاجمة البيت الأبيض على طريقته في معالجة قضية وايت ووتر، والتحقيق في قضية انتحار فنسنت فوستر.

ثم اتهمت الصحافة هيلاري باتصالها سراً مع روح اليانور روزفلت وقام عميل سابق للـ FBI أصبح كاتباً فيما بعد باتهام الرئيس بالفسق والزنا وتعاطي المخدرات.

ويا لها من فترة!!

حين تفجرت القصة المزعومة عن استحضار هيلاري لروح اليانور روزفلت، قمنا باستطلاع حول أثرها وتأثيرها، فوجدنا أن ٢٥٪ من الأمريكيين يؤمنون بإمكانية حصول مثل هذه الاتصالات. وأن اثنين من كل ثلاثة ناخبين يعتقدون بأن هيلاري كانت تتخيل اليانور روزفلت، وما يمكن أن تقوله لو أنها بعثت حية الآن.

وحملت هذه المعلومات للسيدة الأولى فبدت مرتاحة لها. وتحدثنا طويلاً حديثاً عاماً، سألتني بعده بصوتها الشجي البريء «بالمناسبة يا ديك، هل هناك أحد تريدني أن أستحضر

روحه لك؟ أحسب أنك قد تود التحدث مع ميكافيللي أو غيره » فقلت لها إنني أود لو تطلب من ميترنيخ أن يتصل بي ويترك لي رسالة على آلة التسجيل ، قالت « سأفعل » .

كان الرئيس يعالج مشاكله ومشاكل زوجته بروح جدية أقل دعابة . وكانت الضربات الساحقة على زوجته تهمه شخصياً ، والعواصف المثارة حولها تقلقه سياسياً . إن من الصعب أن نبالغ في الصدمات العاطفية التي تتعرض لها هيلاري خلال هذا العدوان الجمهوري وهم يهاجمونها يومياً بالتلميح إلى قلة صدقها وأمانتها وشرفها . وكان الغضب والألم الذي يشعر به الرئيس وهو يرى زوجته تتعرض للضربات أمراً عويصاً يصعب فهمه .

فانفجر في أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية بتاريخ ٣ يوليو / تموز ١٩٩٦ ، بعد شهر ونصف من اندلاع فضائح وايت ووتر وملفات الـ FBI ، قال وقد احمر وجهه وامتلأت حنجرته بصيحات الألم « أنتم لا تستطيعون أن تقولوا عن هذا الهراء أنه لا تأثير له . إنهم يجرجرون الأبرياء في الوحل ، ويصيدون من يخطىء من الشرفاء بالفضائح ، ويلوون المعلومات في جميع الاتجاهات ، أليس هذا كافياً لقتلي » . ونظر غاضباً إلى أفراد المجموعة المدهوشين الذين تقبلوا هذه العواطف الرئاسية بنظرات زائغة واجفة . وبدا كما لو أن الرئيس يوبخهم ، لكنه كان بالطبع يوبخني أنا ، أنا الجالس على شماله مباشرة ، أرى جانباً من غضبه الذي يصبه على كل من أمامه عداي ، واستطرد يقول « هذا الضرب بالقبضات والمطارق ، هذه النفايات ، هذه الأكاذيب ، هذه السفالة ، هذا الغمز واللمز ، والتلفيق الذي تخترعه الحثالة ثم ترميني به ، وترمي زوجتي وأصدقائي .. أنتم لا تستطيعون أن تقولوا لي إن هذا كله ليس له أي تأثير .. لا .. أنتم لا تستطيعون » .

كان يتحدى إصراري المتكرر على أنه لن يكون لأي من هذه الاتهامات أدنى تأثير على حصته من أصوات الناخبين . وكنت أعرف أنه يوبخ المجموعة كطريقة يفحص بها مدى تأكدي مما أقول . كان يريد أن يسبر عمق اقتناعي أنا بأن هذه الهجومات لن يكون لها أي تأثير ، وكان يريد أن يهدىء من مخاوفه ويخفف من آلامه . فقلت له ما كان يتوقع مني قوله . وشددت قامتي وأنا جالس على مقعدي ، إلى أقصى ما يسمح به طولي الـ ١٦٠ سم ، مستجمعاً كل ما لدي من أدرينالين « بل أستطيع أن أقوله ، وسأقوله ، لن يكون لهذه الاتهامات أي تأثير عليك ، ولن يكون لها أي تأثير مهما طالت وتعددت » .

قال كلينتون : « كيف .. والاتهامات تذاع على الهواء مباشرة طوال الوقت؟ وليس لهم همّ غيرها ، ويسعون بشهية لا حدود لها خلف أي شيء صغير تافه بريء ليعملوا منه دليلاً . فكيف تستطيع أن تقول إن كل ذلك لن يكون له أي تأثير .. كيف .. » .

كانت عاصفة غضبه موجهة إلي هذه المرة ، فقلت رافعاً يديّ كما يفعل ضحايا السرقة في أفلام الغرب على شاشة التلفزيون « حسناً .. حسناً .. أنت على حق » وهززت كتفيّ استخفافاً ، ورفعت طبقة صوتي كما لو كنت أغني لحناً يهودياً ، وتابعت قائلاً وأنا أشير إليه بإصبعي « أنت على حق .. فأنت المدان .. وأنت المحكوم عليه .. وأنت المتهم .. وأنت المعزول عن منصبك .. ولهذا فلن ينتخبوك مرة أخرى » .

وقاطعتني ضحكة قصيرة من أحد الحاضرين شاركه الرئيس فيها ، وأنا أرسم الوضع معكوساً ، فانكسر جدار التوتر ، واسترخى الرئيس في مقعده وقد هدأت عواطفه .

عبر أجراس الخطر هذه ، سارت حملتنا الانتخابية نحو هدفها الوحيد : ترسيخ ودعم برنامج القيم الذي تقدم به الرئيس . فنشرنا بياناتنا عدة مرات في الأسبوع ، متضمنة عروضاً واقتراحات جديدة ، وأعلنا عن إجراءاتنا التنفيذية ، وتابعنا دعايتنا الإعلانية ، فسيطرنا بذلك على الحوار في الحلبة .

وتولى جورج ستيفانوبولوس مهمة « الرد السريع » والتصدي يوماً بيوم للمعارضة المزعجة المؤذية . بينما كانت مهمتي الحفاظ على مسيرة بث رسالتنا يومياً عبر وسائل الإعلام المجانية (الصحافة) ووسائل الإعلام المأجورة (الدعاية الإعلانية في الإذاعة والتلفزيون) .

كان زخم حملتنا الانتخابية يدفع ، بشكل يثير الدهشة ، الأضرار الجسيمة عن الرئيس ، وكان الوضوح في طرح قضايانا وأفكارنا هو المحور الذي أعطانا القدرة على العوم فوق التيار .

أعلن الرئيس ، خلال يوليو / تموز ، عن جملة أمور واحداً بعد الآخر . تخفيض أقساط التأمين ضد الحريق ، تخفيض أسعار معاطف الحريق المنزلية ، السماح باستبدال العمل الإضافي بإجازة مغادرة ، بدل أن يتقاضى العاملون أجرته نقداً إن رغبوا بذلك ، توزيع خمسين ألف جهاز هاتف خلوي على مجموعات المراقبة ، إعفاء المنح الدراسية من الضريبة ، حجز فيدرالي على أموال الآباء المتهربين من مسؤولياتهم ، نشر صور الآباء الهاربين في مراكز البريد ، المطالبة بتشريعات تحمي حقوق ضحايا الجرائم ، وضع نظام وطني لتقصي أثر الأسلحة وتطبيقه على الحدود بين الولايات ، توسيع مجال إجازات المغادرة من العمل لأسباب عائلية بحيث تشمل الرعاية الطبية للأطفال وحضور مجالس الآباء في المدارس . خلف هذه الاستحكامات الدفاعية من المقترحات الهامة في الحياة اليومية للناس ، بدت وايت ووتر بعيدة عن العيون والأذهان .

****

بدأ الجمهوريون بشن هجومهم الجوي ــ الذي طال انتظاره ــ في الأيام القليلة الأخيرة من مايو / أيار . والعجيب أنه كان محدوداً ، بعيداً عن التركيز . ففي حين غطت إعلاناتنا حوالي نصف البلاد ، لم تتجاوز إعلاناتهم الثلث . ودلّت الأسواق التي اختاروها لترويج إعلاناتهم على أنهم يركزون للفوز بمقاعد البرلمان ومجلس الشيوخ أكثر من تركيزهم على انتخاب دول . فاشتروا أسواق الولايات التي يصرون على الفوز فيها (تكساس ، داكوتا الجنوبية ، والميسيسيبي مثلاً) ليسيطروا على سباقات مجلس الشيوخ . وكانت إعلاناتهم مخيفة .

فقد عرضوا أولاً إعلاناً يظهر كلينتون وهو يعد بميزانية متوازنة خلال عشر سنوات ، ثم خلال سبع سنوات ، ثم خلال تسع سنوات ، ثم ما بين سبع إلى تسع سنوات . والفكرة أن يظهر الإعلان عدم صدق كلينتون في وعده بميزانية متوازنة . لكن الإعلان تعارض مع آخر كان الجمهوريون قد بثوه خلال معارك الميزانية ، وأجرينا عليه الاختبارات في حينه فلم يترك أي أثر ، تماماً مثل إعلانهم الجديد الذي لم ينجح حالياً .

كانت فكرتهم أن الدعاية الإعلانية يجب أن تتزامن مع ما يجري في الكونغرس ، وأن تدور في هذه المرة الثانية حول تعديلات الميزانية التي يعارضها كلينتون . وكان جوابنا على إعلانهم هذا ، أننا كررنا مجدداً معيار القيم الأولوية المطلقة في ميزانيتنا . قلنا في إعلاننا الجوابي إن كلينتون أرادنا أن نؤدي واجبنا تجاه آبائنا بتأمين العناية الطبية لهم ، وأرادنا أن نفتح أبواب الفرص أمام الجميع بتحسين مستوى التعليم .

كنا نختبر الإعلانين في المراكز التجارية ، فندعو المشترين واحداً بعد الآخر لمشاهدة إعلانهم الهجومي ، ثم لمشاهدة إعلاننا الدفاعي . وكنا نطرح عليهم قبل وبعد المشاهدة سلسلة من الأسئلة ، لمن سيعطون أصواتهم ، وما هو شعورهم تجاه كلينتون وتجاه دول . وأثبتت الاختبارات أننا ربحنا بدلاً من أن نخسر بفضل إعلانهم هذا .

قمنا ببث إعلاننا الجوابي ، وانتظرنا أن يدفع الجمهوريون بما يعارضه ، لكنهم لم يفعلوا ، واكتفوا بأن بثوا إعلانهم ثلاثة أسابيع خلال مايو ويونيو / أيار وحزيران ، دون أن يعدلوا فيه حرفاً واحداً رداً على إعلاننا الجوابي . يا للبلاهة والحمق . فالجمهوريون ينفقون خمسة ملايين دولار على بث إعلان من إعلاناتهم ، ولا يدفعون ثلاثين ألف دولار لاختبار ردة فعل مثل هذا الإعلان وتأثيره .

قام الجمهوريون ثانياً ببث إعلان حاولوا فيه استغلال اقتراح حول الهجرة معروض على الكونغرس . أظهر الإعلان كلينتون غير راغب في تخفيض المكاسب التي يجنيها المهاجرون غير الشرعيين . والحقيقة أنه ضد تسهيلات ومكاسب المهاجرين غير الشرعيين أنفسهم ، لكنه

يؤمن بوجوب السماح لأطفالهم بالدخول إلى المدارس طالما أنهم موجودون في البلاد . ولما كان الجمهوريون قد وضعوا مسألة التعليم تحت عنوان المكاسب والتسهيلات ، فقد نسبوا إلى كلينتون في إعلانهم أنه مع منح الإعانات الاجتماعية للمهاجرين غير الشرعيين . وأظهرت الاختبارات أن هذا الإعلان سيضر بنا كثيراً لو تركناه بدون جواب .

فبادرنا بإعداد رد يوضح أن الرئيس عارض منح المعونة الاجتماعية للمهاجرين غير الشرعيين ، وأنه زاد من عدد الدوريات الحدودية ، وزاد من مجال ترحيل الأجانب غير النظاميين . وأشرنا إلى أن دول نفسه عارض حصول المهاجرين غير الشرعيين على وظائف أمريكية . لقد بيّنت استطلاعاتنا أن هذا الرد سيوقف هجوم الجمهوريين ، لكن هنري سيزنيروس اعترض عليه بحجة أننا صورنا فيه أجانب من أمريكا اللاتينية غير شرعيين وهم يعتقلون ويقيدون .

فأشرت إلى أن إعلان الجمهوريين يظهر اللاجئين هاربين يعبرون الحدود وقد لمعت من خلفهم كلمة « المكسيك » ظاهرة رآها الجميع . أما نحن فنرد على دعاية إعلانية عنصرية . ومع ذلك ، فقد حذرنا سيزنيروس من ردة فعل عنيفة بين الذين هم من أصل أمريكي لاتيني أو إسباني . أخبرت سيزنيروس أنني لا أبالي حتى لو كان الفيلم عن نرويجيين زرق العيون ، وأن كل ما يهمني هو إظهار أننا نقوم باعتقال الأجانب غير الشرعيين . وأعدنا تمثيل مشاهد الاعتقالات بواسطة ممثلين محترفين ، ثم أدخلناها في الفيلم عن طريق غرفة التنقيح (المونتاج) .

كان سيزنيروس عوناً رائعاً لنا في الحملة الانتخابية وحليفاً جيداً . وكانت أفكاره الإبداعية رقيقة ونفاذة . اقترح ذات مرة فكرة أن يضغط الرئيس زراً فيحدث انفجاراً يطيح بمشروع قديم للسكن الشعبي ، أحد مشاريع الأحياء الفقيرة من الآجر الأحمر المميزة في مدننا . ثم يمضي الرئيس إلى ما بعد عدة أبنية ليقص شريطاً حريرياً بافتتاح مشروع سكني جديد أبنيته غير عالية . ولم يتح للفكرة أن تنفذ لكنني بدأت أعجب بسيزنيروس كثيراً .

في كل الأحوال ، لم يحقق هجوم الجمهوريين على مسألة الهجرة أكثر مما حققه هجومهم على صمود كلينتون أمام تعديلات الميزانية ، وبقيت سيطرتنا ثابتة .

****

كانت أعصابي تتوتر وتثور كلما استعرضت نتائج الاستطلاعات الأسبوعية . وكنت أتوقع كل مرة أن يكون هذا هو الأسبوع الذي تضربنا فيه الفضائح لتهوي بحصتنا من أصوات الناخبين إلى الحضيض ، ثم أجد أننا ما زلنا في المقدمة ، رغم هبوط معدلاتنا بواقع ثلاث نقاط على مدى ستة أسابيع من الضربات المتلاحقة .

في يونيو/حزيران، كانت الأمة تلتهب غضباً لإحراق كنائس السود في الجنوب. وكان الرئيس نفسه غاضباً من هذه الحرائق، وقرر إيقافها. فوجدت في ذلك فرصة سياسية سانحة للوقوف في وجه العنصرية والاستغلال، في الوقت الذي كان فيه الرئيس هدفاً لنيران الحزبية، معتمداً على سمعة الرئيس الحسنة في مجال المساواة والعدل العرقي، لا بل وجدت في ذلك فرصة أخلاقية سانحة للأمة بأكملها. كانت ناومي وولف تشجعني وتحثني دائماً على أن أترجم أفكارنا عن تسوية الخلافات والأوضاع إلى نهج سياسي. فمضيت أشجع كلينتون على أن يستنجد بالحرس الوطني لحماية الكنائس من التخريب، قلت «إن التحرك الشجاع، كما فعل كينيدي في ألاباما والميسيسيبي، سيولّد سيلاً من الدعم الوطني للكنائس، وسيقوّي الأصوات الوطنية الداعية إلى مقاومة العنصرية». فقال كلينتون لنائبه عقب أحد اجتماعات رسم الاستراتيجية «أظن أن ديك خلف شيء ما، قد لا يكون معقولاً، ولكن إن ثبتت جدواه، فلن أمانع في تنفيذه».

وبذل مجلس الأمن القومي ووزارة الدفاع كل ما بوسعهما لمنع مثل هذا الانتشار العسكري. فحذروا أولاً من التواليات السياسية المدمرة، لو طلبنا من مثل هذا العدد الكبير من الحراس حماية الكنائس. لكن استطلاعاتنا أظهرت العكس. أظهرت أن البلاد ستندفع وراء محاولة مثل هذه، وسيؤثر فيها مثل هذا التحرك الشجاع. ثم قالوا إن ذلك سيعرقل تدريبات الحرس الصيفية. وأخيراً قالوا إننا لا نستطيع الاستنجاد بالحرس دون موافقة حكام الولايات، إلا في حالة العصيان المسلّح، المبرر الذي أحدثه كينيدي لفدرلة حراس الجنوب خلال أعمال الشغب والعنف التي قام بها هناك معارضو الحقوق المدنية في أوائل الستينيات.

لقد دفعت الرئيس إلى حماية الكنائس بالتعاون مع حكام الولايات الجنوبية، ونشر الحرس الوطني أو أية قوات فيدرالية أخرى كقوات الـ FBI أو مكافحة التبغ والكحول ورجال الإطفاء. وكان من الصعب نقل روح اللاتحيز من اقتراحي إلى مؤسسات حكومية فيدرالية، كطاقم البيت الأبيض أو وزارة العدل أو وزارة الدفاع.

على خلاف معظم أفراد الطاقم، استحسن جورج ستيفانوبولوس التحرك الشجاع، واقترح أن نعقد قمة لحكام الولايات الجنوبية يتم فيها مناقشة كيفية معالجة مسألة الحرائق، فقام دون باير بإعداد برنامج للرئيس ولزياراته للكنائس المحروقة. لكن التحرك الحكومي القوي لم تكن له دائماً الأولوية اللازمة، على عكس ما يريده الرئيس.

أخيراً طفح الكيل عند كلينتون من هذا الجمود وعدم التحرك، فأوعز إلى إدارة الطوارىء الفيدرالية التي تشرف على مواجهة الكوارث، لتقديم يد العون إلى الكنائس،

وخصص للإدارة أموالاً إضافية لاستئجار حراس للعديد من الكنائس . وكان سبب تخصيص هذه الإدارة بالأموال هو أن رئيسها جيمس لي ويت صديق الرئيس القديم من أركنساس . قال لي الرئيس «إنه الوحيد الذي أعتمد عليه للقيام بهذه المهمة ، إذ لا أستطيع الاعتماد على أية إدارة أخرى في معالجة الموضوع لأهميته» .

وتناقصت بحمد الله الحرائق بفضل استجابة الرئيس وجهوده ، والتفت هو ونائبه إلى الاهتمام بإعادة البناء . ونجح الرئيس في فتح قنوات إلى المشروع تتدفق خلالها المعونات المالية الضخمة ، كما قاد نائب الرئيس حملة تطوع للمساهمة العينية في إعادة بناء الكنائس ، والوقوف في وجه شركات التأمين التي هددت بإلغاء تغطياتها وتعويضاتها .

لماذا كان تأثير وايت ووتر قليلاً جداً على صمود الرئيس ومتانة وضعه السياسي؟ لقد كان أهم سبب لذلك هو عدم استعداد الناخبين للوصول إلى حكم نهائي على رئيس يرونه يقوم يومياً بأعمال هامة تساعدهم في حياتهم .

أما السبب الثاني لفشل وايت ووتر في التأثير على الحملة الانتخابية ، فهو لأن ثقة الناخبين بمن قام بتوجيه الاتهامات أقل كثيراً من ثقتهم بالمتهمين . لقد كنا نقوم باستطلاعات دورية لمواقف الناخبين من التحقيقات التي تجريها لجنة داماتو في مجلس الشيوخ ، وهيئة المحلفين الخاصة برئاسة كينيث ستار ، ولجنة كلينغر ، في قضايا وايت ووتر وملفات الـ FBI في البرلمان . وكانت الغالبية الكبيرة من الناخبين ترى أن هذه التحقيقات «محاولة سياسية مدفوعة لإحراج الرئيس وتشويه سمعته قبل الانتخابات» أكثر مما هي «تحقيقات عادلة في تهم ثابتة» . وكانوا يشعرون أن هذه اللجان الثلاث ليست إلا «محاكم لا تراعى فيها مبادىء القانون والعدالة» وينظرون إلى قراراتها بكثير من الشك .

ومع اقتراب يوم الانتخاب ، تزايدت سخرية الناخبين من لجنة داماتو وستار وكلينغر ، وتصاعدت مترادفة مع تزايد حدة الاتهامات . فقد أدى تورط ستار مع شركات التبغ ، والمشاكل الأخلاقية عند داماتو في الماضي ، إلى جعل الرجلين غير مؤهلين للهجوم على الرئيس واتهامه .

الفصل السادس عشر

دعنا نتجاوز كل شيء .. ونحقق كل شيء

على مدى ثلاثة أسابيع من يوليو / حزيران ١٩٩٦ ، أي قبل توجه الناخبين إلى مراكز الاقتراع بأربعة أشهر ، قامت الحكومة أخيراً بما كان عليها أن تقوم به في السنتين الماضيتين ، فقد توصل ترينت لوت وبيل كلينتون إلى التصديق على مشروع قانون تاريخي ، كنت أنا الوسيط السري فيه .

فما إن ضمن لوت فوزه برئاسة الأغلبية في مجلس الشيوخ حتى اتصلت به في منزله لأول مرة بعد عدة أسابيع لأهنئه بالفوز . قال لوت « لقد قام كلانا بإنجاز جيد » فأجبته « هذا مؤكد ، هل تذكر يوم جلسنا معاً على شرفة منزلك في باسكوالا نتفرج على خليج المكسيك ؟ » قال « بالتأكيد أذكر » فقلت « لقد وصلتُ أنا إلى ما كنت أصبو إليه ، تماماً كما وصلت أنت » فسألني « وماذا بعد أن حققناه ؟ » أجبته « دعنا نسيّر الأمور ونتجاوز كل شيء » قال السناتور « يبدو لي كلامك مقبولاً ، دعنا نبدأ » .

اعتاد لوت أن يناديني حين نتحدث على الهاتف « السيد رئيس مجلس الوزراء » مع أنني ببساطة لست أكثر من حامل ناقل لرغبات الرئيس . كما اعتدت أن أناديه « صاحب الجلالة ملك المعارضة » .

أعددت مسودة برؤوس أقلام لكل المواضيع المعلقة ، وكل المستجدات ، وسألت لوت عن طريقة تنفيذها فقال « علينا أن نرفع الحد الأدنى من الأجور ، كيلا يعرقل جميع ما سنقوم به » . وتوقف مشروع القانون أمام مجلس الشيوخ شهوراً ، الديموقراطيون يرفضون مشروع قانون سليم نظيف بدون تعديلات ، والجمهوريون يرفضون أن يتركوا مشروع قانون من هذا النوع للتصويت . قال لوت « أحتاج إلى فترة زمنية لأضع جماعتي على الخط ، لكنني أعدك بتصويت نزيه على موضوع الحد الأدنى من الأجور رفعاً أو خفضاً ، فإذا تم التصديق عليه فنعم النتيجة ، وإذا لم يتم نكون قد حركناه من مكانه . إنما دعنا نختار التوقيت المناسب لتمرير ما نريد » . ثم تابع ملك المعارضة إيجاز ما يجب علينا أن نقوم به فقال : « علينا أن نعقد اتفاقاً

حول مشروع قانون كينيدي ــ كاسبوم ونحاول تصديقه، وعلينا أن نحصل على المياه النظيفة بالقضاء على المبيدات، وبعدها نرى ما إذا كنا نستطيع طرح موضوع إصلاح المعونة الاجتماعية». فقلت ساحباً الحوار إلى موضوعنا الرئيسي الخالد «ما رأيك بعقد اتفاق حول موضوع ميزانية متوازنة؟» أجاب «ليس الآن، ربما بعد تحقيق ما أشرنا إليه نصل إلى إصلاح أنظمة الهجرة، وبعده إلى اتفاق بشأن ميزانية متوازنة».

حملتُ تعليقات ترينت إلى الرئيس الذي كان حذراً كالعادة لسماع أخبار لوت. قال: «هل يستطيع أن يسلمنا غينغريتش؟» فهذا هو كل ما يريد معرفته. فقلت: «أراهن أنه يستطيع، فغينغريتش منبوذ، ولم يعد فيما سمعت يعول عليه بشيء، إضافة إلى أن لوت كان الناصح الخاص له في البرلمان، وهو الذي دفعه على أول درجات سلم الزعامة والقيادة».

كان غينغريتش يواجه تحدياً وخصومة قوية على زعامة الأغلبية من ديك آرمي من تكساس، الذي كان يحاول سحب السلطة من غينغريتش بعد انتخابات نوفمبر/تشرين الثاني. وخلال لقاءاتي واتفاقاتي اليومية مع لوت، بدا صاحب الجلالة المعارض قادراً على نقل وتحريك الدعم البرلماني. لم أوجه سؤالاً مباشراً عما كان يجري مع السناتور الجيورجي، إنما كان لدي انطباع غريزي أن الأمور ليست على ما يرام.

كان على الرئيس أن يثق بلوت. وأن يقنع الديموقراطيين في مجلس الشيوخ بتمرير مشروع قانون الحد الأدنى للأجور إلى اللجنة المختصة، لنتمكن من متابعة الأمور الأخرى. وكان ذلك مخاطرة في رأي الديموقراطيين. فالثمن الذي يطلبونه للسماح لمجلس الشيوخ بأن يتحرك مرة أخرى كان بسيطاً: أن يوافق الجمهوريون على تمرير مشروع قانون الحد الأدنى من الأجور من مجلس الشيوخ ليأخذ طريقه إلى لجنة المؤتمر المختصة، دون أية تعديلات تجبر الرئيس على استعمال حق النقض لإبطاله.

لكن حداثة عهد ترينت بزعامة الأغلبية في ذلك الوقت، منعته من إعطاء مثل هذه الموافقة. لقد وافق فقط على منح مشروع القانون هذا فرصة تصويت نزيه، أما عن النتيجة النهائية عند لجنة المؤتمر، فقد ضمن أن يبذل أفضل الجهود للوصول إلى مشروع قانون خال من التعديلات التي قد تضطر الرئيس إلى نقضه وإبطاله.

وقرر كلينتون أن يثق بلوت، وأقنع الديموقراطيين عن طريق مدير التشريعات الجديد جون هيلي، بتمرير مشاريع القوانين الأخرى بدون تعويق أو معارضة.

كان هيلي جديداً على طاقم موظفي الرئيس ، لكن خبرته في مجلس الكونغرس كانت عميقة . فقد كان ، كمعاون لزعيم الأقليات توم داشل في مجلس الشيوخ ، يعرف الكثير عن طرقه ودهاليزه . كما خدم في لجنة الميزانية التي تضم عادة أعضاء من الحزبين ، ومن هنا فهو لا يعرف الديموقراطيين وحسب ، بل والجمهوريين أيضاً ، وهذا هو الأهم . عملتُ على تماس مع هيلي ، وتحرّى عنه الرئيس بشكل كثيف ، وهو يرتب لخطواته في صيف عام ١٩٩٦ . كان دبلوماسياً رائعاً ، علاقته طيبة مع بانيتا وستيفانوبولوس ، ويستطيع التفاوض مع التيارات المعارضة في البيت الأبيض ببراعة مميزة .

ولكن هل سيفي لوت بوعده ؟ كانت الخطوة الأولى تمرير مشروع قانون كينيدي ــ كاسبوم كذريعة تتوقف عليها مسألة حسابات ادخار المعالجة الطبية .

كان صاحبا الاقتراح لمشروع القانون هذا ، السناتور الديموقراطي تيد كينيدي من ماساتشوسيتس والسناتورة الجمهورية نانسي كاسبوم من كنساس مدينة دول نفسه . ويقدم الاقتراح شكلاً سهل النقل والتداول للتأمين الصحي ، يلزم شركات التأمين بتوسيع سقف الحماية والضمان حتى يشمل العامل في عمله الجديد ، دون أية شروط إضافية أو مسبقة . وبما أن كلينتون قد صرف النظر الآن عن معالجة مشكلة الرعاية الصحية في أمريكا بمشروع قانون واحد ، وصار يستحسن فكرة التدرج ، فقد بدا اقتراح كينيدي ــ كاسبوم خطوة منطقية .

إلا أن الجمهوريين كانوا متمسكين بمفهومهم عن الادخار للمعالجة الطبية ، كعنوان أخير باق من الثورة الغينغريتشية ومشروع عقدها مع أمريكا . مسألة الادخار للمعالجة الطبية مسألة فردية ، تم تعديلها بحيث أصبح بوسع الناس معها حجز مبالغ معفاة من الضرائب لإنفاقها على العلاج والطبابة . ويستطيعون أن يسددوا من هذه المبالغ ــ لنقل أربعة آلاف دولار في السنة ــ جميع النفقات التي يرفض التأمين تسديدها ، أو الحسميات التي يقتطعها . فإذا تجاوزت النفقات المبلغ المدخر فعليهم دفع الباقي من جيوبهم . أما إذا لم تتجاوزه احتفظوا بالباقي المعفى من الضرائب . كان المفروض ، في ضوء نظرية الجمهوريين عن السوق الحرة ، أن يخفض هذا الاقتراح الرائع من الخدمات الصحية التي لا حاجة إليها ، ويوفر للمريض دعماً إضافياً بتخفيض النفقات والتكلفة .

كان كلينتون قلقاً من أن يقتصر الادخار للمعالجة الطبية على الأغنياء والأصحاء ، الذين سيدعمون هذا الاقتراح ثم يمضون لشراء بوالص التأمين بحسميات كبيرة ليحموا أنفسهم فقط من نفقات الكوارث الصحية . قال الرئيس : « إن هذا الاقتراح سيترك المسنين والمرضى والفقراء فقط لخدمات الضمان الصحي القليلة المتدنية المستوى ، أما الأغنياء فسوف

يدخرون أموالهم لعلاج أنفسهم بدلاً من أن يدفعوها لعلاج المسنين والمرضى الفقراء » . واقترح الرئيس تطبيق نظام الادخار للطبابة والعلاج كتجربة على مستوى القطاعات ، لكن لوت رفض الاقتراح قائلاً إن الجمهوريين يريدون لنظام الادخار هذا أن يطبق على صعيد كامل البلد . فاقترحت عليهما إخضاع النظام لفترة تجربة على صعيد البلاد كلها (لإرضاء الجمهوريين) مع وضع حدود عليا لعدد الناس المشتركين ، فوافق الاثنان على اقتراحي كحل وسط . والمشكلة الآن كانت في تحديد عدد المشاركين في التجربة ، والأسس التي تقوم عليها .

حين انتهت المحادثات حول تفاصيل مشروع القانون هذا ، وجد الرئيس أن علاقتي بلوت أصبحت حجر عثرة ، وخشي أن أكشف أكثر من اللازم عن نوايا الرئيس أمام لوت ، فأنسف بذلك قدرته على التفاوض وعقد الصفقات بوجه جامد لا يعبر عما خلفه . كما خاف أن يعرف لوت عن طريقي كم كان ذكياً حاذقاً باختياره اقتراح كينيدي ــ كاسبوم ، وزاد من خوفه أنني كبحت من فعاليته في معركة وضع الاقتراح تحت التجربة .

وكان محقاً في هذه النقطة . فقد كان عليّ أن أنسحب من عملية التفاوض حول التفاصيل ، وأستخدم علاقتي بلوت فقط بجمعه مع كلينتون على طاولة واحدة ، وتقديم الاقتراحات والمعايير العامة لكليهما التي ستجدي نفعاً في مجال التفاوض .

ومع ذلك ، فقد تذمرت دائماً في لقاءاتي المنفردة مع الرئيس من أننا نضيع فرصة إنجاز هام بعدم بحثنا في تفاصيل تطبيق تجربة الاقتراح ، من عدد المشاركين ، والأسس التي ستتم التجربة على أساسها ، قلت « الرعاية الصحية أكبر وعد أخلفته إدارتك ، وأكبر لطخة في وجه رئاستك ، وإذا استطعت تحقيق مشروع كينيدي ــ كاسبوم ، محوت ذلك كله . من الذي يهمه إذا كانت تجربة الادخار للطبابة والعلاج صحيحة أم لا ؟ المهم أن تمنح مئتين وخمسين مليون أمريكي القدرة على التحرك » . قلت له أنني شعرت بأن الأمر يشبه المحادثات الإسرائيلية ــ العربية ، يساومون ويدققون في التفاصيل أسابيع عديدة . لكن الرئيس شعر بأن أقسام ومراحل برنامج الادخار من أجل الطبابة والعلاج أساسية وضرورية في معركته من أجل الدفاع عن العناية الطبية وحمايتها .

كان على كلينتون أن يصغي بصبر ثم يقول « سيكون كل شيء على ما يرام ، دع هيلي ودعني نعالج الموضوع ، وابق أنت بعيداً » .

بعد أسابيع من الجدل والمشاحنات ، وافقوا أخيراً على تحديد حد أعلى للمشاركين ٧٠٠ ألف شخص ، وعلى أرضية قواعد ناظمة تجعل من الخطوة تجربة نزيهة للنظرية وتطبيقها .

كانت اتفاقية الادخار من أجل الطبابة والعلاج، التي توصل إليها هيلي ولوت والرئيس بعد أسابيع من الجهود المكثفة، مثالاً ناجحاً لما يمكن أن يعطيه الأخذ والرد بين السلطتين التنفيذية والتشريعية خلال دورة الكونغرس ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦، كما كانت أيضاً باكورة منجزات لوت كزعيم للأغلبية، أعطت مؤشراً طيباً لمستقبل ناجح. في ظل اتفاقية الادخار من أجل العلاج، مرَّ مشروع قانون كينيدي ـ كاسبوم في الكونغرس بسهولة.

حين بدأ لوت بتسيير الأمور التشريعية بسلاسة ويسر، بدأ الكثيرون يحزرون دوافعه ويخمنونها. فقال لوت ببساطة إن الوقت قد حان للبدء في تمرير مشاريع القوانين من أجل أمريكا، ثم ترك للصحافة أن تعرف أنه خشي أن يواجه الجمهوريون أصحاب المناصب ناخبيهم بسجلات إنجاز فارغة وسجلات إخفاقات مزدحمة. وكان مقتنعاً بأن دول لم يكن يظهر الوجه الذي يأمل به الجمهوريون، وأن من غير المعقول أن تقف عجلة الاقتراحات ومشاريع القوانين من أجل توفير طلقة لدول يرمي بها كلينتون يوم انتخابات عام ١٩٩٦.

لعل هذا القرار هو الذي مكن لوت من الفوز بمجلس الشيوخ، وربما بالمجلس النيابي أيضاً، لصالح الحزب الجمهوري في انتخابات عام ١٩٩٦، ولولا عناد الجمهوريين الكامل لرفضتهم الجماهير نهائياً وبشكل بات. ولكن حين تولى السناتور لوت منصب زعيم الأغلبية، وأوضح تماماً أن عهد الحارات المسدودة قد انتهى، فقد دل بذلك الناخبين على أن الحزب الجمهوري سوف يعمل من الآن فصاعداً على التأثير على الهيئة التشريعية وليس على قتلها. ولقد أظهر أيضاً أن الجمهوريين شبعوا من التطرف بالسير في اتجاه برنامج الرئيس نحو إصلاح المعونة الاجتماعية والرعاية الصحية وحماية البيئة ومياه الشرب النقية والحد الأدنى للأجور. لكن هذا لا يعني أنه ما إن يبدي لوت درجة واحدة من المعقولية حتى يتحول مجلس الشيوخ إلى مجلس جمهوري بالضرورة. فأنا أؤمن بأن أخطاء حملة كلينتون الانتخابية في النهاية هي التي أدت إلى وقوع مجلس الشيوخ في أحضان الحزب الجمهوري، إنما بعيداً عن التسويات التي حققها ترينت، لم يكن للجمهوريين أي أمل على الإطلاق.

لقد وفى ترينت بوعده، وأوصل الحد الأدنى من الأجور إلى التصويت، ومرّره دون أن يستوقفه أحد، ليستقر أمام لجنة المؤتمر المختصة، حيث نجح لوت في تمريره بيسر وسهولة، لينتهي على طاولة الرئيس دون انزعاج.

أصبح زعيم الأغلبية الآن يجرؤ على الإفراج عن إصلاح المعونة الاجتماعية وعلى إرساله ليأخذ طريقه، بعد أن فشلت كل المحاولات السابقة. فخوفاً من أن يوافق الرئيس عليه، فيسرق منهم بذلك أحد أعز قضاياهم، عمد الجمهوريون إلى عرقلة المشروع، وقيدوه بإلغاء

الرعاية الصحية المجانية للأولاد الفقراء، وربطوه بإلغاء التمريض والرعاية المنزلية للمسنين، مطالبين بأن تستبدل هذه العناية الطبية بمنح يمكن الإفادة منها في جميع الولايات دون قيد أو شرط. وكانوا يعرفون أن الرئيس لن يوافق أبداً على هذه التخفيضات الفاحشة، ويتوقون طرباً لرؤيته يمارس حقه في النقض للمرة الثالثة على مشروع قانون إصلاح المعونة الاجتماعية. وكان على تشريعاتهم أن تتعثر لتحيا شعارات حملتهم الانتخابية.

لكن الأمور تغيرت. فقد تنبأت، قبل الأحداث وخلالها، بأن الجمهوريين سينقسمون شيعاً ومجموعات. وها هو دوغ سوسنيك مدير الشؤون السياسية في البيت الأبيض يقول إن النبوءة تحولت إلى حقيقة. وأصبح الجمهوريون — رغبة منهم في دعم إعادة انتخابهم بدلاً من التضحية بأنفسهم في سباق خاسر على الرئاسة — متلهفين على سن قوانين يعودون بها إلى ولاياتهم كدعاية انتخابية لحملتهم.

حين أحس لوت بهذا التغير، أطلق سراح مشروع قانون المعونة الاجتماعية من قفص العناية الطبية، ليقف حراً أمام مجلس الشيوخ.

في المرتين اللتين تم فيهما نقض مقترحات الجمهوريين لتعديل مشروع إصلاح المعونة الاجتماعية، كان كلينتون يعترض على المبلغ اليومي غير الكافي للرعاية الصحية. أما الآن فقد أصبح المبلغ كافياً. كما كان قد شكا من قلة اعتمادات المعونة الاجتماعية المرصودة لفترات الركود، لكن الاعتمادات الاحتياطية تمت زيادتها الآن. وكان قد احتج على إخضاع الخدمات والوجبات الغذائية وحماية الأطفال في المدارس لمزاج الولايات وتبرعاتها، إلا أنها الآن لم تعد كذلك، بعد أن تم تجديد العمل بقسائم المواد الغذائية والوجبات لجميع المواطنين في الولايات المتحدة. تلك كانت التغييرات الجوهرية التي تمت، لكن الرئيس كان يريد أكثر، بحكم وقوعه تحت ضغط جماعات الدفاع عن الطفولة، التي كانت السيدة الأولى تعمل في إحداها ذات مرة، بحجة مليون طفل سيقعون تحت خط الفقر نتيجة لهذا التشريع الذي ينادون بتحسينه. لكن الأهم من هذا الضغط الخارجي على الرئيس، كان الضغط الداخلي الذي تحركه فيه ذكرياته الشخصية عن الفقر.

معظم أعضاء الكونغرس تقبلوا فكرة العمل على استبدال المعونة الاجتماعية المحدودة المقيدة على المدى الطويل، بمعونة اجتماعية موجهة ومسيطر عليها، هي لب مشروع القانون المقترح. وأيد الرئيس هذه التعديلات، ووافق متجاوزاً اعتراضات الأحرار والمدافعين عن الطفولة على إنهاء مسألة المعونة الاجتماعية، لكي تتمكن واشنطن من تنظيم هبات ومنح تضعها تحت تصرف الولايات. سألني الرئيس «ما فائدة أن نسميها حقوق ومكتسبات،

وولاية تكساس لا تستطيع أن تدفع أكثر من ١٨٠ دولاراً في الشهر ، بينما تدفع ولاية أخرى سبعمئة ؟ أين المنطق في هذا ؟ » .

كان الحقلان الكبيران اللذان دار حولهما الجدل هما : آ ــ قطع المعونة الاجتماعية والطبية والضمان الاجتماعي . ب ــ قطع الوجبات الغذائية عن أطفال اللاجئين الشرعيين ، والفشل في تأمين الحفاضات المجانية ولوازم العناية الأخرى بأطفال الأمهات اللواتي كن يتقاضين المعونة الاجتماعية قبل قطعها .

حملت الاعتراضات إلى ترينت فقال : «أنتم تغيرون موقع شبكة المرمى في الملعب . طالبتم بتثبيت وجبة الغداء المجانية في المدارس ، ففعلنا . ثم طالبتم بتعديل المعونة اليومية ، فعدلناها . ثم طالبتم برفع الاعتمادات والمخصصات ، فرفعناها . وها أنتم تأتون الآن بمجموعة من المطالب الجديدة . لقد سلّمنا لكم بكل شيء ، ومع ذلك تعودون في كل مرة لتطلبوا المزيد » .

كان لوت يعرف أن كلينتون في موقف صعب ، واكتشف أن على الرئيس مهما فعل الجمهوريون أن يوقع مشروع القانون ، أو أن ينقضه فيتعرض لغضب الناخبين . تساءل لوت : « لماذا نقطع المساعدات عن اللاجئين ؟ لقد جاؤوا إلى هنا ليعملوا ويعيلوا أنفسهم ، فهل نحن مسؤولون ــ إذا لم يستطيعوا ذلك ــ عن تقديم المساعدات لهم ؟ » . كان منفتحاً على فكرة التكفل بحاجات أطفال أولئك الذين تجاوزوا حدود الزمن ، أضاف «إن مشروع القانون لا يقدم أية معونة أو مساعدة تستطيع معها الأم أن تأكل وتلبس » .

وكان كلينتون من جانبه أكثر حماساً في معارضته لمشروع القانون . قال : «لقد دخل المهاجر بلادنا بشكل شرعي قانوني ، فعمل بجد ، ودفع ضرائب ، وتعرض لصدمات الشاحنات والسيارات ، ويريدون الآن قطع معونة العجز عن أطفاله ؟ فهل هذا عدل ؟ » . كنت أشعر كلما سمعته يتحدث عن إصلاح المعونة الاجتماعية بمعنى ما كان يسميه جيفرسون « الحرب بين العقل والقلب » .

كان قلب كلينتون مع الأطفال الفقراء الذين تنقطع عنهم المساعدات بسبب عجز أمهاتهم عن حمل المسؤولية ، كما حصل مع زوج أمه ومعه حين كان طفلاً . وكان خوفه لا حدود له على المهاجرين الذين يطيعون القانون ويدفعون الضرائب ، ثم يفصلون مؤقتاً عن العمل ، فلا يستطيعون الحصول على الرعاية الطبية والعلاجية لأطفالهم بسبب انقطاعها أو تخفيضها . القضية بالنسبة إليه ليست تنظيراً تجريدياً ، إنها قضية معاناة إنسانية . وكان عليه أن يستحضر جميع صور هذه المعاناة من مخزن ذاكرته وهو يناقش مشروع القانون هذا ، وأن يتحدث عن جميع الأسر التي قابلها في حملته الانتخابية بأرجاء البلاد . ففي خلوة معي على

انفراد ، حكى لي عن مهاجر قام على خدمته في فندق نيويورك ، قال : « ماذا سيكون حال أطفاله ؟ إنه لا يستطيع أن يؤمن لهم الرعاية الصحية » .

ورغم ذلك ، فقد كان عقل كلينتون مع ضرورة وأهمية إنهاء العمل بالجوانب الرئيسية من المعونة الاجتماعية ، التي تعهد في حملته الانتخابية أن يحافظ عليها كما هي . وكان يؤمن في أعماقه بأن عليه أن ينفذ تعهده .

أخبرته بشكل واضح مكشوف أن الفيتو على مشروع قانون المعونة الاجتماعية سيكلفه كثيراً في الانتخابات . فقد أعد مارك بن نموذج استطلاع أظهر أن أي فيتو بحد ذاته على أي مشروع قانون للمعونة الاجتماعية ، سيكلفه ١٨ نقطة ، وسيحول تقدمه بـ ١٥ نقطة إلى تراجع بـ ٣ نقاط . فإذا اقترن الفيتو مع تسمية بويل نائباً للرئيس في حملة دول الانتخابية ، اجتمع علينا أسوأ ما يمكن أن يحصل من تأثير يقضي على أمل الرئيس بالفوز .

سألت الرئيس « أي خير ستجنيه من خسارتك السباق ؟ إذا استعملت حق النقض وخسرت ، ماذا سيفعل الجمهوريون بالناس الذين أردت مساعدتهم ؟ » .

لقد أعاد مجلس الشيوخ اعتمادات العناية الطبية ، لكنه خفَّض من المعونة الاجتماعية والبرامج الأخرى . ورغم أنهم رفضوا تقديم المساعدات لسد حاجات أطفال الأمهات اللاتي تجاوزن سن العمل القانونية ، لكنهم وافقوا على رصد الاعتمادات للهيئات التي تعنى برعاية الطفولة ، لمساعدة الأطفال في مثل هذه الحالات . كما سمحوا للولايات أن ترفض تخفيض وإلغاء المعونة الاجتماعية في حالات عديدة . إلا أن التخفيضات التي أقرت ظلت تشغل الرئيس كثيراً .

وكانت السيدة الأولى مثله تماماً ، حيث كانت هذه النقطة مدار لقاءاتي بها خلال عام ١٩٩٦ بين أسبوع وآخر . قالت لي في إحدى هذه اللقاءات إنها لا ترغب بأن يكون لها أي شأن في مسألة إصلاح المعونة الاجتماعية ، وأضافت « علينا أن نقوم بما يجب أن نقوم به ، وأرجو أن يفهم أصدقاؤنا ذلك . لا بأس بأن نضع حدوداً لزمن العمل ومتطلباته ، فأنا أشعر بضرورة ذلك » . لكنها بعد أن أصبح إلغاء المعونة للمهاجرين وأطفالهم حقيقة واقعة على طاولة الرئيس ، شعرت بالتعاسة ، وعلّقت على نصائحي بوجوب التوقيع وليس النقض ، بأنني أنظر بحكم عملي إلى الجانب السياسي من الموضوع ، وأضافت «أنا أعرف ما تعنيه السياسة ، وما تعنيه الأرقام ، ومع ذلك فالأمر يزعجني كثيراً » .

حواراتي مع الرئيس وصلت إلى نتيجة مماثلة . فقد كان مزاجه رديئاً وهو يتصل بي ليلاً يوم ٣١ يوليو / تموز من عام ١٩٩٦ ، ليعبر عن تعاسته بسبب مشروع قانون المعونة

الاجتماعية . وكنت قد أقنعته سابقاً بأن لوت سيعد مشروع قانون أفضل من جوانب عديدة من الاقتراح المقدم إليه ، وظننت أن ترينت قد أخلف وعده وأنقص مساعدات اللاجئين الشرعيين وألغى الوجبات المجانية ، لكنني كنت مخطئاً . فالاقتراح بشكله النهائي يضمن المعونة الطبية والعلاج للمهاجرين ، لكنه يخفض البنود الأخرى من المساعدات . وهو الآن يتهم لوت شخصياً بأقسى التهم . صاح قائلاً : « إنه يعشق القضاء على الأطفال ، لو أنك رأيت وجهه وهو مسرور لمهاجمتهم بعنف ، وسعيد .. » .

ثم التفت يهاجمني « لقد أعطيتني استطلاعاً محرّفاً حول هذا المشروع . هل سألت الناخبين ما إذا كانوا يريدونني أن أوقع أو أنقض مشروع قانون يترك الأطفال يتضورون جوعاً في سن الثالثة ، ويهيمون في الشوارع لمجرد أن المعونة لأمهم قد انقطعت . هل سألتهم عن هذا ؟ أنت لم تسألهم لأنك لم تشأ أن تعرف الجواب . أليس كذلك ؟ هل سألتهم ما إذا كانوا يوافقون على أن يصل والد إلى هذه البلاد ، بعد أن ينتظر سنوات وسنوات ، ويعمل بجد ونشاط ، ثم تصدمه شاحنة ، فأقوم أنا بقطع المساعدات عن طفله الرضيع لأنه لم يعد يستطيع أن يعمل ؟ هل سألتهم عن هذا ؟ أراهن أنك لم تفعل !! » .

فأشرت إلى أنه كان من الممكن طرح أي سؤال في الاستطلاع ، لكنني أنكرت تحريف الاستطلاع لأجعله يوقع على مشروع القانون المقترح ، وأضفت « إن واجبي كما تعلم هو تقديم المشورة من الناحية السياسية الصرفة ، وسأقول لك ما أعتقده في ضوء هذه الناحية بشكل موضوعي ، ثم نبحث الموضوع إن أردت » . كان خصومي في إعداد الاستطلاعات يتهمونني دائماً بطبخ المعلومات ، لدعم وجهة نظري وتأييدها ، لكنني لم أفعل ذلك أبداً . والجواب البسيط على هذا النوع من الاتهامات هو أنني سأفشل لا محالة لو تجاهلت مشاعر الناس الحقيقية ولم أعتبرها في استطلاعاتي ، أو استبدلتها بمشاعري الخاصة .

بدا وكأن الرئيس يتهاوى على الطرف الآخر من الخط ، وكأن ثورة غضبه قد تلاشت ، وتخلص من عبء اللوم الذي ألقاه على نفسه بسبب تخفيض المعونة الاجتماعية في مشروع القانون المقترح ، وبدا وكأنه أصبح مستعداً ليسمع .

لقد حركني بالفعل بصدق انفعالاته المتصارعة ، فالأمر لم يكن عنده مجرد قضية سياسية ، أو اهتمام بإغضاب الليبراليين وإرضاء المعتدلين ، والجانب السياسي يشير إلى اتجاه واحد بعينه هو اتجاه التوقيع على المشروع . أحسست من جانب آخر أن الرئيس يشعر بأن متطلبات العمل ، ورفع المعونة اليومية ، ووضع حدود للسن والخدمة ، أساسية وهامة لإنقاص روح الاعتماد على المعونة الاجتماعية في أمريكا ، لكن هذه التخفيضات تؤلم ضمير الغلام الفقير الذي كانه الرئيس ذات يوم ، ويحتاج إلى التعبير عن هذا الألم .

قلت أجادله : « أعتقد أن عليك أن ترى في مشروع القانون هذا بداية لعملية كاملة، وليس شكلاً تشريعياً نهائياً . فأنت لن تحصل أبداً على مشروع قانون يصدقه مجلس شيوخ ديموقراطي يتضمن تخفيضات واقتطاعات لمكتسبات العمل ، فهذه المعادلة لا يحققها لك وهذه المسؤولية لا يتحملها عنك إلا مجلس جمهوري . فانتهز فرصة وجود الاقتراح على طاولتك ووقعه ، وما إن تفوز بالانتخابات حتى يصير المجلس إلى جانبك ، و ... » .

قاطعني قائلاً : « أتظن أن المجلس سيصير بجانبي إن أنا وقعت المشروع ؟ » فتابعت مجيباً « أعتقد أنك لو وقعت المشروع ولم تهمل الجوانب الأخرى من حملتك الانتخابية ، فستفوز بزيادة ١٢ ــ ١٧ نقطة . عندها يمكنك إرساء أمرين : تثبيت الاقتطاعات الفاحشة الواقعة على المهاجرين بالحدود المبينة في القانون ، وتمرير بعض المساعدات والإعانات للأطفال . ثم يمكنك في فترتك الثانية أن تنتقل إلى مرحلة ثالثة ، وإتاحة الفرص للأشخاص الذين لا تشملهم المعونة الاجتماعية عن طريق تقديم برامج مكثفة لخلق وظائف لهم داخل المدن . أما لو نقضت مشروع القانون هذا الآن فلن تتاح لك فرصة إصلاح المعونة » .

أجاب الرئيس : « لقد ألمح بروس ريد إلى النقطة ذاتها في اجتماع اليوم ، قال إن المعونة الاجتماعية عملية مسلسلة المراحل ، وليس مجرد نص تشريعي » . كان ريد ، وهو من الديموقراطيين الجدد الصامدين الأوفياء ، واحداً من أقرب أنصاري في معركة إصلاح المعونة الاجتماعية ، قاتل وحده بين المخضرمين من أفراد طاقم البيت الأبيض في دفع الرئيس لتوقيع مشروع القانون ، فقد كان يعرف الكثير عن مسألة المعونة الاجتماعية ، ووظف معرفته هذه في فضح مزاعم الليبراليين من أفراد الطاقم الذين بالغوا في افتراض مساوىء الاقتراح .

سألني الرئيس « هل تظن أنني أستطيع عند توقيعي على المشروع ، أن أذكر حرفياً ما سأسعى إليه من تعديلات في فترتي الثانية ؟ » فقلت « بالتأكيد تستطيع . بل وتستطيع أن تعلن ذلك بملء صوتك على السطح ، فأنت على حق . فهذه التخفيضات والاقتطاعات ليس ما تريده أمريكا . والجمهوريون غلطوا في فهم ما تريده أمريكا ، أنت تستطيع توقيع مشروع القانون والاستمرار في مهاجمة التخفيضات ، وسيكون البلد خلفك في هذا الآن ، وخلفك حين تحدُّ من التخفيضات في السنة القادمة » .

قال وقد انتصر العقل على القلب « تلك فكرة جيدة . إنها عملية كاملة وهذه مجرد بداية ، لقد ألمح بروس إلى نقطة أخرى جيدة اليوم ، قال إنه مشهد لمشروع قانون جيد لإصلاح المعونة الاجتماعية بدفن مشروع قانون رديء لميزانية مخفضة ورغم ذلك ، فإن الجوانب الأخرى من المعونة التي بقيت كما هي لا بأس بها . صحيح أنها ليست كافية ، إنما

بمرور الوقت ستأتي فترات ركود وكساد، وسيضطرون على الأرجح إلى رصد أموال إضافية. والمشروع بعد كل ما حصل ليس رديئاً على الإطلاق، فهو يتضمن كل ما قاتلت من أجله منذ سنين، لولا أنهم أضافوا إليه هذه الاقتطاعات التي لا علاقة لها بإصلاح المعونة الاجتماعية من قريب ولا من بعيد، كإلغاء المعونة للمهاجرين. إنها بالفعل قضية ميزانية سنتمكن من تغييرها عند عودتنا في يناير / كانون الثاني، وقد نتمكن من تغيير بعضها في مشروع قانون الهجرة بشهر سبتمبر / أيلول.

أجبته «أعتقد أن توقيعك على مشروع القانون هذا، سيتوافق مع الانخفاضات الحديثة في معدلات الجريمة، مبشراً بحقبة الستينيات، حقبة وعد بمساعدة الفقراء. لقد كانت الشوكة في السرج التي دفعت أمريكا إلى حافة الجنون هي الأمهات اللاتي يتقاضين المعونة الاجتماعية ولا يبحثن عن عمل، وارتفاع معدل الجريمة في ظل عقوبات رمزية، أما الآن فقد تلاشت كل الأشواك المثيرة، وانتصرت الروح الأمريكية الأصيلة في تحقيق الكرم والمساواة. وسيعمل مشروع القانون هذا على تسريع العملية، وسيجعل من الممكن إيجاد فرص عمل ومدارس في المدن الداخلية، الأمر الذي لم يكن ممكناً من قبل».

كان الرئيس يتأثر بمثل هذا الحوار، ويسألني: «أتعتقد حقاً أن هذا سيحسن من المواقف العنصرية؟» فأجيبه «نعم، أعتقد ذلك. وبعد التوقيع سيجعل التغيير تلقائياً وذاتياً.

وضعت أمامه استطلاعاً كناقد أجريناه منذ عدة شهور، لاختبار تأثير إصلاح المعونة الاجتماعية، قلت «لقد قمنا باستطلاع على نموذجين متماثلين، طرحنا عليهما مجموعة الأسئلة نفسها حول المدى الذي يدعمونه بالإنفاق على الفقراء. سألناهم أسئلة مثل: هل توافق على زيادة كبيرة في الإنفاق الحكومي على مدارس المدن الداخلية؟ هل تؤيد إحداث حوافز ضريبية كبيرة للأعمال والمشاريع لدفعها إلى تشغيل قسم من المشمولين بالمعونة الاجتماعية؟ إلا أننا في النموذج الأول طرحنا الأسئلة فقط، أما في النموذج الثاني فقد وضعنا مقدمة قبل الأسئلة تقول: افترض وأنت تجيب على الأسئلة أن الكونغرس مرّر، وأن الرئيس وقّع على مشروع قانون إصلاح المعونة الاجتماعية يطلب من المستفيدين الالتحاق بعمل، ويضع حداً للسن ومدة الخدمة، وحدا لمدة استفادة الناس من المعونة الاجتماعية.

وتابعتُ عارضاً النتائج «لقد وجدنا أن أفراد النموذج الثاني يرغبون أكثر من الآخرين بـ ١٥ نقطة بأن يروا الإنفاق الحكومي يزيد في المدن الداخلية، كما أيد حوالي ٦٥٪ منهم معايير إصلاح المعونة الاجتماعية، بينما أيدها من النموذج الأول نصف هذا العدد فقط».

قال الرئيس وهو ينهي المكالمة : « هذه أخبار طيبة .. طيبة » .

وحبست أنفاسي في صباح اليوم التالي ، وهو يعلن عن أنه سيوقع على مشروع القانون ، معيداً ما قاله في محادثتنا بالليلة الماضية ، من أنه مشروع قانون جيد لإصلاح المعونة الاجتماعية داخل مشروع رديء للميزانية .

واغتاظ طاقم البيت الأبيض من دوري في إقناع الرئيس وحثه على توقيع مشروع القانون ، بعد أن اعتقد بانيتا وستيفانوبولوس أن الرئيس سينقضه في اللحظة الأخيرة ، وافترضوا أن مشورتي هي التي « أدارت رأس الرئيس » .

أما الحقيقة فكانت شيئاً آخر تماماً . إذ لم يكن الرئيس بحاجة لمن يدير رأسه على الإطلاق . فقد كان يعرف دائماً أن إصلاح المعونة الاجتماعية عملية طويلة ، وأن مشروع القانون هذا هو أول خطوة فيها . وأن عيوب المشروع يمكن إصلاحها بعد الانتخابات . إضافة إلى ثقته بأحكامي السياسية التي أوضحت أنه سيستحوذ على الكونغرس إذا وقع على المشروع .

بعد ساعة من إعلانه الصحفي ، اتصل الرئيس بي هاتفياً ، ليسألني عن رأيي فيما أقدم عليه . فقلت : « ممتاز » .

قال « أردتك أن تعرف أنني وقعت المشروع لأنني أثق بك » . يثق بي ؟. لقد عرفت ما كان يعنيه . لقد وقع المشروع لأنه يعتقد أن بإمكاني مساعدته على الفوز بفارق كبير ، بإقناع الديموقراطيين في المجلسين لدعمه بتغيير الجوانب الرديئة في المشروع . وشعرت يومها أنه منحني تفويضاً وصلاحيات إضافية ، ليس في ضمان ودعم انتخابه فقط ، بل في العمل على انتخاب مجلس شيوخ ديموقراطي أيضاً .

بعد الإعلان عن قانون المعونة الاجتماعية ، بدأت أرى تغيرات كبيرة في الرأي العام تنبأت بها استطلاعاتنا . الناخبون يرغبون بفتح قلوبهم وبفتح دفتر شكات الحكومة ليتأكدوا من نجاح إصلاح المعونة الاجتماعية . ففي أحد برامج المسح الإحصائي سألنا الناخبين الريفيين في الولايات الجمهورية ، مثل داكوتا ونبراسكا وآيووا وكنساس وضواحي ميزوري الريفية ، عما إذا كانوا يرغبون في إلغاء الضرائب على الكحول الأثيلية ، العزيز على قلوب جميع زارعي الحبوب ، وتحويل مداخيلها إلى تأمين فرص عمل لمستحقي المعونة الاجتماعية في المدن الداخلية . فكان جواب ٨٠٪ من ناخبي تلك الولايات بالإيجاب ، رغم أن المدن الداخلية والمتوسطة قليلة في مناطقهم . كانوا يتوقون لرؤية « بالوعات » الضريبة عندهم وهي تقفل ، لتأمين عمل لمستحقي المعونة الاجتماعية بدلاً منها .

أثارت هذه الأخبار انفعال الرئيس وزادته اندفاعاً وقوة. فبدأ يرى في إصلاح المعونة الاجتماعية واجباً هاماً عليه أن يتممه في فترته الرئاسية الثانية، وليس مجرد مشروع قانون يوقعه، ثم يطويه النسيان.

في أوائل أغسطس / آب، وبعد الإعلان عن توقيع المشروع، أخبرت الرئيس أنني أشعر وكأن الأمريكيين أصبحوا مستعدين للموافقة على عقد اجتماعي عظيم. قلت «الطبقة المتوسطة تفهم أن الفقراء يشكلون خط النهاية في الصفقة. فالجريمة تنخفض، والمعونة الاجتماعية تتقلص، ومشروع إصلاح المعونة الاجتماعية تم تصديقه، وعلى الفقراء الآن أن يقبلوا بنهاية فقرهم، بعد تأمين فرص العمل والمدارس والرعاية اليومية والتدريب».

كان كلينتون مسحوراً في اجتماعاتنا بالفكرة، فمضى يستشهد بها ويشير إليها طوال الأسابيع التي قضيناها معاً، أكثر مما يشير إلى أي شيء آخر. وكنت أود لو طال بقائي فترة أطول، لأساعد على تطوير فكرة هذا العقد الاجتماعي الجديد، الذي سيبقى حقيقة سياسية جديدة. فالسياسيون الذين يعارضون برامج تأمين فرص عمل لمستحقي المعونة الاجتماعية، ويميلون إلى معاقبة الأمهات اللاتي يتقاضين المعونة بدلاً من مساعدتهن، يقدمون الأعمال التي تسيء إلى روح أمريكا. إصلاح المعونة الاجتماعية إنجاز يحتاج إلى جهود جيل بكامله، والناخبون مصممون على إنجاحه.

أما الآن فعلى كلينتون وحده أن يواجه الكونغرس الجمهوري. وأنا أشعر بعدم ارتياح حين أفكر باحتمال فشله أمامهم، وخاصة بعد تأكيداتي المتكررة للرئيس بأنه سينجح. لقد بنيت توقعاتي على أساس أنني أمام مهمة سأساهم بنفسي، إن حالفني الحظ، في إنجاحها وتنفيذها.

لكن كلينتون فاز فوزاً ساحقاً، بشكل ماكان ليتحقق لو أنه نقض مشروع قانون المعونة الاجتماعية. إلا أنني سأناقش فيما بعد لماذا فاز بثمانية نقاط فقط، وليس بالهامش الكبير الذي حافظ عليه خلال مراحل السباق كلها.

****

مع وشك انتهاء مدة خدمتي، تحولت محادثاتنا عن الجوانب السياسية اليومية إلى أفكار أكبر ذات صبغة اجتماعية. ففي صباح الأحد ٤ أغسطس / آب ١٩٩٦، بدأت أول مكالماتي الهاتفية العملية «هل لديك يا سيدي الرئيس دقيقة فراغ، أحدثك فيها عن بعض الأفكار. لقد كنت أفكر ليلة البارحة برؤسائنا العظام، وأين يأتي مكانك بينهم، فهل لديك دقيقة نبحث فيها هذا الموضوع؟» أجاب «بالطبع لدي»، وسمعته وهو يجلس على أحد مقاعد قسم السكن في البيت الأبيض.

قلت: «أستطيع أن أعدّ حوالي ثمانية عشر رئيساً بارزاً». بما أن كلينتون هو الشخص الحادي والأربعون الذي استلم الرئاسة(*)، اثنان وعشرون منهم لم يستحقوا التصنيف بدرجة عالية حسب تقديري.

قال «دعنا نسمع قائمة الأسماء» فأضفت قائلاً «يأتي في الصف الأول الرؤساء الذين قاموا بأعمال عظيمة، إنما في أوقات رائعة عظيمة. ولا أظنك تستطيع الحصول على هذه المرتبة، ما لم تكن لديك خلفية صحيحة» قال مقاطعاً «تعني حرباً، أو شيئاً من هذا القبيل؟» فتابعت «نعم. من هنا لدينا واشنطن وجيفرسون ولنكولن وويلسون وفرانكلين روزفلت في هذه المرتبة» سألني «ويلسون؟» وأجبت شارحاً «لقد فكرت به طويلاً. وحين أخذت بالاعتبار البرنامج الجديد للحرية، والاحتياطي الفيدرالي، وفكرة القانون العالمي، وعصبة الأمم، وضعته في هذه المرتبة».

قال كلينتون «يبدو هذا معقولاً عندي. فماذا عن ثيودور روزفلت، وترومان؟» فقلت «وضعتهما في المرتبة الثانية، فقد قاما بأعمال عظيمة، لكن خلفيتهما لم تكن تضاهي خلفية لنكولن وواشنطن». قال الرئيس «أعتقد أنك على حق. فمن وضعتَ في قائمتك الثانية؟» أجبته «وضعت جاكسون وبولك، لمضاعفته مساحة البلاد، ورونالد ريغان». وشدّدت على الاسم الأخير لإثارة التعليق عند كلينتون الذي قال «بولك اختيار جيد أوافقك عليه، ولكن لماذا ريغان بالذات؟» فأجبته «لقد ربح الحرب الباردة، وخفض المعدلات الضريبية بشكل قطعي في أمريكا، وبدأ حقبة الحكومة الصغيرة، أبرز إنجازاته أنه هزم الشيوعية، وهذا ما قدمه عندي» قال متأملاً: «ربما.. ولو أنه في اعتقادي يأتي بالمرتبة الثالثة» فتابعت قائلاً «أما مرتبتي الثالثة فتضم جيمس ماديسون لكسبه في حرب عام ١٨١٢، وأندرو جونسون لصموده في وجه الكونغرس وإحرازه الرئاسة، وتشيستر ألان آرثرلنظام الخدمة المدنية، وغروفر كليفلاند لبدئه حقبة الزعامة الرئاسية وترسيخه لمعيار سلامة العمل الحكومي، وجون كينيدي لإرسائه بداية نهاية الحرب الباردة وتوقيعه معاهدة مع خروتشيف ورسمه أسلوباً في السلوك لكامل الجيل. يأتي بعده ليندون جونسون، الذي يستحق في اعتقادي المرتبة الثانية على مشروع قانون الحقوق المدنية والمجتمع العظيم، لولا أن نكسة الفييتنام أنزلت من مرتبته». قال الرئيس: «صحيح، لقد قام ببعض الأعمال العظيمة لولا نكسة فييتنام، أعتقد أنك على حق، فماذا عن نيكسون؟» أجبته «إنه عندي في المرتبة الثالثة أيضاً، كان يستحق المرتبة الثانية بسبب الصين، لكن ووترغيت حرمته منها».

(*) يسمى أيضاً الرئيس الثاني والأربعين، باعتبار أن غروفر كليفلاند انتخب مرتين كرئيس، إنما ليس بشكل متوالٍ متعاقب.
— المؤلف —

قاطعني كلينتون « لا تنس قوانينه عن البيئة والخدمات والعديد من التشريعات الأخرى . فأين أيزنهاور الذي قفزت عنه ؟ » قلت « إنه لم يفعل شيئاً ، وشعبيته لم تنفعه في نيل هذه المرتبة ، أما بوش ــ ولا أدري ما هو وقع ذلك عليك ــ فقد وضعته في المرتبة الثالثة ، لإرسائه دوراً عالمياً للولايات المتحدة في أعقاب الحرب الباردة ومعالجته التحول الروسي بشكل جيد جداً » .

قال بتسامح وأريحية ، فهذه هي المرة الرابعة أو الخامسة التي أذكر فيها بوش أمامه ويبقى لطيفاً ورسمياً تجاه سلفه المهزوم « قائمة جيدة أوافق عليها ، فأين موقعي أنا ؟ » فأجبته « إذا أردت الصدق ، فأنا أعتقد الآن أنك على حدود المرتبة الثالثة . ومن السابق لأوانه أن أصنفك ، لكنك أقرب ما تكون إلى المرتبة الثالثة » قال متأملاً « أرى في هذا شيئاً من الصواب » وتابعت قائلاً « أتدري ما هو الطريف في هذه القائمة ، إنها لا تقيم وزناً للمسيرة الاقتصادية خلال الفترة الرئاسية لهؤلاء الرؤساء » .

قال كلينتون موافقاً « أجل ، إنها لا تهتم كثيراً بما إذا كان الرئيس قد أعيد انتخابه أم لا ، فالتاريخ من النوع الذي ينسى » . وتابعت قائلاً « الجريمة والاقتصاد حلقتان مترابطتان كما يبدو ، لكن ذلك لا قيمة له من وجهة النظر التاريخية ، ورغم أنهما على رأس المسائل التي يهتم بها الناس ، لكنهما لا يصنعان تاريخاً » . سألني « إلامَ أحتاج في رأيك لأصبح بالمرتبة الأولى ؟ » قلت مترفقاً بشرح الجانب السيء من الموضوع « لا يمكن أن تصبح بالمرتبة الأولى ، إلا إذا وضعتك القوى التاريخية غير المتوقعة فيها » قال « كالحرب مثلاً . فماذا عن المرتبة الثانية ؟ » فأجبته « سأعدد لك ثلاثة أشياء كبيرة وأربعة وسط » فاستوقفني ليحضر قلماً وورقة وعاد ليقول « حسناً ، ما هي تلك الأشياء الكبيرة » .

قلت « أولاً ، عليك إنجاز إصلاح المعونة الاجتماعية . هذا أول ما خطر لي البارحة . لقد وقّعت مشروع القانون ، وعليك إصلاحه الآن ، ثم عليك أن تزوده بما يجعله ينجح . إذا استطعت وضع حد لمعونات الطبقة الدنيا ــ ليس بالاقتطاعات والعقوبات كما يريد الجمهوريون ، بل بإتاحة فرص ومدارس تدعم مقتضيات العمل ــ يمكنني عندها القول بأنك حققت ما يؤهلك للمرتبة الثانية » . قال « أتدري .. لقد جاءني كثيرون ينصحونني بأن أتحدث عن إصلاح المعونة الاجتماعية كعملية كاملة ، وليس كمشروع قانون ، لكنني لم أنظر إليها من هذه الزاوية ، أعتقد أنك على حق .. »

قلت « لقد حاول فرانكلين روزفلت ، وحاول جونسون ذلك قبلك وفشل . وستقدر لك البلاد محاولتك لو فشلت . إن ثمة طبقة دنيا في هذه البلد ، ستظل تجرنا إلى الأسفل » .

سألني «ماهو الأمر الثاني؟» قلت «أعتقد أن عليك تنفيذ ماوضعته من خطط لتحقيق ميزانية متوازنة. فمنذ أن بدأ روزفلت بتكديس العجز، لم نعد قادرين على العيش والتنعم بإنتاجنا ومواردنا» قال كلينتون «لقد صرح دائماً بأنه سيحقق التوازن في الميزانية، لكنه لم يفعل أبداً» قلت «لقد قال إنه سيفعل» فقال مكرراً «لكنه لم يفعل أبداً»(*). قلت «لقد حقق أيزنهاور بعض الفوائض، لكنها لم تكن شيئاً يذكر. ومثله فعل ترومان حين طبق سياسة التسريح. لكنك ستكون أول من يثبت أن بوسع الحكومة أن تكون فعالة، وأن تحقق إنجازات وأن تعيش ضمن الإمكانيات المتاحة. فالعجز في الميزانية ليس الثمن المحتوم الذي يجب دفعه مقابل الفعالية» قال كلينتون «أوافقك على هذا».

كنت أؤمن من أعماقي بأن كلينتون سيتمكن بشكل أو بآخر، في فترته الرئاسية الثانية، من تقليص العجز في الميزانية. وتابعت قائلاً «أخيراً، أعتقد أن عليك أن تكسر الدعم الدولي للإرهاب. باتخاذ إجراءات اقتصادية وعسكرية ضد دول الإرهاب. ولقد رجوتَ أن تحقق ذلك من خلال عملية السلام، لكن هزيمة بيريز أغلقت بوجهك الباب. بقي عليك الآن أن تسحقهم عسكرياً ومن خلال العقوبات». وسادت فترة صمت قصيرة وأنا أنهي تعداد قائمة المنجزات الثلاثة الكبيرة، التي أعتقد أنها ستؤهله لو حققها لأخذ مكان بالمرتبة الثانية مع باقي الرؤساء.

قال كلينتون معلقاً «إنها قائمة جيدة، تضع الأمور في منظور متسلسل، فما هي الإنجازات الأربعة المتوسطة؟». قلت «التبغ، بوضع طريقة للقضاء عليه بمنع المراهقين من التدخين. التعليم، بتطوير نظرية المسؤولية الفيدرالية عن وضع معايير وطنية راسخة للتعليم، بالتعاون مع الإدارات المحلية. إن من السخف المضحك ألا توضع ثاني مسألة تهم الناخبين ضمن إطار المسؤولية الفيدرالية. الرعاية الصحية، بانتهاج سياسة الخطوة خطوة. لقد كان مشروع كينيدي ـــ كاسبوم هو الخطوة الأولى، ويجب أن يكون ضمن الرعاية الصحية للعاطلين عن العمل هو الخطوة الثانية، تليه خطوة ثالثة هي شمول كل الأطفال بهذه الرعاية» فعلق كلينتون قائلاً: «أعتقد أننا سنتمكن من إنجاز هذه الخطوة الثالثة مع نهاية فترتي الرئاسية الثانية».

قلت متابعاً: «أخيراً برنامج القيم، الذي عليك تطويره وترسيخه في حياة الناس اليومية من خلال التحرك الرئاسي وليس التحرك الحكومي. فالموضوع أكبر من توسيع المسؤولية الحكومية الذي تصدى له ثيودور روزفلت، وأهم من حماية المستهلك، وهو في

(*) حاول فرانكلين روزفلت موازنة الميزانية في عام ١٩٣٦، فكانت كارثة أدت إلى ركود وكساد اقتصادي آخر.

الطرف المقابل أقل شأناً من توسيع التفويض الحكومي بحيث يشمل الأداء الاقتصادي للمواطنين ، الذي نادى به فرانكلين روزفلت ، إلا أنه من النوعية نفسها . فأنت تستطيع أن تحصر اهتمامات الرئاسة بالأمور غير الاقتصادية في الحياة ، كما فعل نيكسون بمسألة الجريمة » . قال باقتضاب : « هذه قائمة جيدة أعتقد أنني سأتأملها طويلاً » ثم أقفل الخط .

تلك كانت المرة الأولى التي تحدثنا فيها عن أمور أسمى من السياسات اليومية ، ونظرنا فيها إلى الأمام بكل موضوعية . وكنت أتبع نصيحة غور بدفع الرئيس إلى قمة القيادة ، دون أن أعلم أنني سأتركه بعد خمسة وعشرين يوماً فقط .

الفصـل السابـع عشر

علـى الـطـريـق الـصـحـيـح

شيء مميز بارز حدث لأمريكا في يوليو/تموز ١٩٩٦. كان أهم سؤال تطرحه الاستطلاعات في مسحها الإحصائي هو: هل يمكنك القول بأن البلاد على الطريق الصحيح، أم أن ثمة أشياء تحرفها عنه إلى الطريق الخطأ؟. فنسبة الإجابات بأننا على الطريق الصحيح إلى الإجابات بأننا على الطريق الخطأ،من الأساسات الإحصائية التي تبنى بموجبها السياسات. هل الناخبون راضون أم غير راضين عن الطريقة التي تسير بها الأمور؟.

فمنذ حرب الخليج وما تلاها من ركود اقتصادي قضى على تفاؤلنا الوطني، صار الناخبون يقولون إن أمريكا على الطريق الخطأ. فاستغل كلينتون في البداية هذا التوجه في هزيمة بوش، وأن يفوز كمنشق عن خط حزبه يعد بالتغيير. إلا أن هذا القلق الساخط بقي مخيماً على فترة كلينتون الرئاسية، باستثناء بعض أنسام التفاؤل التي هبت بعد انتخابات عام ١٩٩٢.

وحين بدأت العمل لصالح كلينتون، قال ٣٠٪ فقط من الناخبين إن الأمور تسير في طريق صحيح، بينما أكثر من ٦٠٪ رأوا أننا على الطريق الخطأ. لكن بحلول يوليو/تموز ١٩٩٦، وبعد ثمانية عشر شهراً من التحسن الاقتصادي، وانخفاض العجز، وسقوط دواليب المعونة الاجتماعية، والنجاح على صعيد السياسة الخارجية، كان ٣٦٪ فقط من الناخبين يشعرون أننا نسير بشكل جيد، بينما ٥٤٪ منهم مازالوا يشعرون بأن الأمور تسير في الطريق الخطأ. ليس لاعتقادهم بأن الجمهوريين أفضل، فقد كانت معدلات الرئيس تتصدر الاستطلاعات، بل لأن الناس ما زالوا أسرى الانقباض وخيبة الأمل.

وبدا وكأنه لا أمل مطلقاً في أن نستطيع إقناع الناخبين بأن الأمور تسير على ما يرام، بشكل يعكس التفاؤل الذي ساد في السنوات الأربع الأخيرة. وبدا وكأن الأخبار الاقتصادية الجيدة، التي تؤكد عادة السير على الطريق الصحيح، قد فقدت تأثيرها. ومسائل الحياة اليومية، وبرنامج القيم الذي نستهدفه في مجال الجريمة، والخوف من التقاعد، والقلق على

ما تقدمه العناية الطبية ، والإحساس بعدم الارتياح أمام قضايا التعليم والقيم عند جيل الشباب ، كل هذا تغلب على التفاؤل الفردي الاقتصادي ، وترك انطباعاً عند معظم الناخبين بأن الأمور تسير على طريق الخطأ في شكلها العام . لكن كل ذلك تغير في يوليو / تموز ١٩٩٦ ، وبسرعة .

فقبل المؤتمر الوطني للحزب الجمهوري مباشرة ، أظهرت الاستطلاعات انحرافاً حاداً عنيفاً في نظرة الناخبين . فبعد أن كانت ٣٦ صحيح مقابل ٥٤ خطأ ، صارت ٤٦ صحيح مقابل ٤٤ خطأ . وهذا تغير هائل في فترة زمنية قصيرة .

لقد أسهم مؤتمر الجمهوريين ، وإصرارهم على أن كل الأمور في أمريكا خطأ ، في زيادة عدد القائلين بذلك . إلا أن المؤمنين بأننا على الطريق الصحيح سرعان ما سيطروا وسادوا خلال الأسابيع التي تلت المؤتمر ، وبقيت سيطرتهم إلى اليوم .

ما سبب هذا الانقلاب والتحول؟ لقد كان للألعاب الأولمبية شأن كبير فيه ، إضافة إلى الأخبار الجيدة عن الاستقرار الاقتصادي ، والانكسار المفاجيء للجمود في الكونغرس ، وبشائر إصلاح المعونة الاجتماعية ، ومشروع قانون كينيدي ـــ كاسبوم لإصلاح الرعاية الصحية ، ورفع الحد الأدنى للأجور ، وقانون مياه الشرب النظيفة ، وقوانين ضبط مبيدات الحشرات والفئران .

لقد تنبأنا ، دوغ شوين ومارك بن وأنا ، بمثل هذا الانحراف الحاد في اجتماعات رسم الاستراتيجية ، في أواخر يوليو / تموز وأوائل أغسطس / آب . فقد قال شوين للرئيس في يوليو / تموز « هل ترى هذا النوع من الانحرافات الحادة في هذه الفترة القصيرة من الزمن .. إنه أمر نادراً جداً ما يحصل » .

لقد خلق هذا التأرجح مناخاً مختلفاً تماماً للتنافس الرئاسي ، سمح لكلينتون على المدى القصير أن يستدرك بسرعة النقاط الثلاث التي نقصت من معدله بسبب فضيحة ملفات الـ FBI ، وتحقيقات وايت ووتر ، وأن يتابع تقدمه الذي وصل إلى ١٧ نقطة .

لكن الشيء الثابت أكثر ، هو التبشير بولادة إرادة وطنية تريد للأمور أن تتم وتنجز . فأثناء بحث هذا التحول مع الرئيس ، أشرت إلى الدراسة الرائعة لآرثر شليزينغر « دورة التاريخ الأمريكي » الصادرة عام ١٩٨٧ ، التي تضم ملاحظات معاصرة لوالد المؤلف ، تقول إن الأمريكيين يتأرجحون كما يبدو بين فترات خمول ونشاط نافذ ، وفترات أخرى من النشاط السريع ، بين العطالة والتأثير . وبرهن شليزينغر على أن هذا عبارة عن دورة تعاقبية للمسّ الانقباضي في المواقف الاجتماعية تظهر متناوبة عبر تاريخها ، فتهاوينا تحت تأثير الإنهاك

الانقباضي خلال الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية بين ذراعي السلبية الاستسلامية عند الجنرال أيزنهاور . ثم كتب يقول إننا تعافينا في الستينيات ، وشفيت القوى الحيوية فينا ، وغرقنا بعدها في حقبة تميزت بالاحتجاج والفعالية وبحركة الحقوق المدنية والمجتمع العظيم ، لنعود بعدها إلى التهالك تحت مطارق الفييتنام و ووترغيت ، واستمرت هذه الحقبة السلبية طوال عهد ريغان وبوش .

لقد ناقشنا أنا والرئيس عدة مرات ما إذا كانت ملاحظات شليزينغر عن طبيعة الدورة الماضية لتاريخنا تشرح كل شيء . أما الآن فيبدو أن نبوءته عن بدء دورة قادمة قد أصبحت حقيقة ماثلة أمامنا في يوليو / تموز .

الألعاب الأولمبية أفادت أمريكا كثيراً ، ليس لأنها فازت فيها ، بل لأن التلفزيون ركز في تلك السنة على قصص البطولات الفردية ، وعلى شجاعة الرياضيين من أمريكيين وأجانب ، وعلى المرونة التي ظهرت بعد أعمال التفجير . فقمنا باستطلاع ما يرغب الناس برؤيته مجسداً بالألعاب الأولمبية . وكانت الفكرة هي توجيه المسؤولية الفردية نحو تطوير الذات ، والتغلب على الحواجز والعقبات للوصول إلى أعلى مستوى إنجازي ينعكس في أعماق الوعي الأمريكي . وقد تمثل الرئيس هذه الأفكار وفهمها . لكن التحولات في الرأي والمزاج أتت بشكل أولي من السياسة وليس من الرياضة . وكسر الجمود في الكونغرس كان هاماً وجوهرياً ، وكان الفضل فيه لكلينتون ولوت .

وكان ضد هذا التفاؤل المنبعث من جديد ، أن يسعى بوب دول والجمهوريون إلى بناء قضية وهمية على أساس وطني وهمي . لقد كانت تلك رسالة خطأ ، حملها رسول خطأ ، في وقت غير مناسب .

لقد حذرنا التحليل التاريخي من أن معدل تأثير المؤتمرات منذ الستينيات هو عشر نقاط تظهر بشكل قفزة في الاستطلاعات . ولعبتنا هي أن نمنع تدهورنا أكثر من عشر نقاط ، لنعوضها في مؤتمرنا . فأقمت حساباتي على ألا يتعدى الفرق بالمعدل ــ بعد انتهاء المؤتمرات ــ منذ يوم العمال وحتى يوم الانتخاب أكثر من ٦٪ . فإذا قام مؤتمر الجمهوريين وتقدموا علينا بعشر نقاط ، استعدناها بقيام مؤتمرنا ، بقيت الفرصة قائمة لخسارتنا في الانتخابات .

كان لدينا أملان عزيزان بالنسبة لمؤتمر الجمهوريين الذي بدأ بأوائل أغسطس / آب في سان دييغو . أن يكون يمينياً متطرفاً كمؤتمر هيوستون عام ١٩٩٢ ، وأن يكون هجومياً عنيفاً على كلينتون . فقد أظهرت استطلاعاتنا أن مؤتمراً يمينياً ينادي بمنع الإجهاض وبطرد المعتدلين من الحزب ، سيحقق لنا فائدة عظيمة . كما أظهرت أن الناس تعبوا من المهاجمات العنيفة السلبية ، ويريدون بدلاً منها أن يسمعوا ماذا سيفعل المرشح الرئاسي لو أنهم انتخبوه .

إلا أن الجمهوريين ارتكبوا خطأ واحداً ، حين بعثوا بالرسالة الخطأ . فقد راهنوا بكل ما يملكون على التخفيض الضريبي بنسبة ١٥٪ الذي أعلنه دول قبل أسبوع من اجتماعهم . وكانت فكرته أن النمو الاقتصادي شديد الانخفاض ، وأن التخفيض الضريبي سيجعل البلاد تتحرك مرة أخرى .

لقد سعى دول إلى استعارة الأفكار التي استخدمها كينيدي لدفع التخفيض الضريبي الناجح في عام ١٩٦١ ، والذي بشّر بالفعل وأدى إلى فترة نمو عالٍ وبطالة منخفضة . ولكن رؤية بوب دول ابن الثالثة والسبعين وهو يقلد جون كينيدي ابن الثالثة والأربعين ، كانت تبعث على الإشفاق .

كان دول ، بتأييده مثل هذه التخفيضات الضريبية ، يخدع المعارضة بتخفيضات لا يمكن موازنتها بتخفيضات في الإنفاق على الطرف المقابل . وكان قد أنّب الممولين الجانبيين الذين أملوا أن تحفز التخفيضات الضريبية النمو الاقتصادي وأن تزيد من الموارد الجديدة ، بحيث يتناقص العجز أيضاً . لكن ذلك لم يجد نفعاً في الثمانينيات حين جربه ريغان . فقد شحَّ رأس المال ، وفزع المستثمرون من العجز وهربوا . لأن النمو الاقتصادي يتزايد ببطء ، ولا يقفز ليوازن العجز ، الذي خلق بنموه آثاراً بغيضة بعيدة المدى ، جعلت الاقتصاد ينكمش إلى حد لا تثيره معه مجرد فقاعات كأس كوكتيل من التخفيضات الضريبية . وها هو دول يروج لذات النظرية غير الموثوقة ، وها هي أمريكا تجده أمراً شاذاً وغريباً .

وتحركنا مع دول ، وأدرنا إعلاناتنا ثلاثة أسابيع ، معلنين عن الأخبار الاقتصادية السارة ، ومنتقدين دول على الضرائب التي وافق على زيادتها خلال السنوات الخمس والثلاثين من عمره السياسي . فبعد أن حكينا للناخبين كيف صوَّت دول لصالح تسعمئة زيادة ضريبية ، قام المذيع بتلخيصها قائلاً « بوب دول ، خمسة وثلاثون عاماً من الضرائب الأعلى » .

حين أعلن دول عن تخفيضاته الضريبية ، أبدى جين سبيرلينغ وجورج ستيفانوبولوس شكهما فيها . ولاحظا ، مثلاً ، أن أكثر من بليوني دولار من التخفيضات الضريبية لا يوجد ما يوازيها بالمقابل من تخفيضات في الإنفاق . وأظهرت استطلاعاتنا أن الناس وافقوا على كل تخفيض ضريبي اقترحه دول ، لكنهم اعتقدوا أن الصفقة بكاملها أكبر من اللازم ، وستزيد من حجم العجز . وكانت سنة انتخابية مجدبة على مرشح يائس . لم يصدق الناخبون أن دول قد اعتنق مذهباً اقتصادياً لبعض الممولين الجانبيين ، وما كانوا ليوافقوه لو أنه فعل ذلك .

لقد جاءت النتائج لتشرح قاعدة من القواعد السياسية المفضلة عندي : إذا غيّرت مواقفك ، فسيحقد عليك الناس الذين أيدوك أول مرة ، ولن يصدقك الذين عارضوك . بالمحصلة ، لا فائدة تجنيها من تغيير المواقف .

كان أطرف اكتشاف لنا ، هو إيمان الناس القوي بأن القليل كثير في مجال التخفيض الضريبي . فقد سألنا الناخبين ما إذا كانوا يفضلون تخفيضات ضريبية بمبلغ ٥٥٠ بليون دولار (اقتراح دول) أم بمبلغ ١١٠ بليون دولار (اقتراح كلينتون) ، فصوّتوا في الاستطلاع الذي قمنا به بنسبة ٢ ــ ١ لصالح المبلغ الأقل .

قلت للرئيس « إنها أشبه ما تكون بالنكتة القديمة عن مدينة أتلانتيك ، الجائزة الأولى أربعة أيام في المدينة ، والجائزة الثانية شهر واحد » .

لقد شعر الناخبون بأن التخفيض الضريبي الأكبر سيلخبط الاقتصاد . لكنهم كانوا ــ في رأيي ــ يعبرون عن قضية أكثر عمقاً . قلت للرئيس « يفترض الاستطلاع أن الناخبين لا يريدون إعطاء أصواتهم لمصالحهم الاقتصادية في هذه الفترة من تاريخنا . إنهم يريدون التصويت لما يعتقدون أنه حق عادل . إنه جزء من تزايد الموافقة على إتاحة فرص العمل لمستحقي المعونة الاجتماعية . إنهم لا يندفعون بتأثير المصالح الخاصة الذاتية بقدر ما يندفعون بتأثير المصالح العامة » .

أشرت ، مثلاً ، إلى أن معظم الناس يرغبون بالتخفيضات الضريبية من أجل تأمين فرص عمل لمستحقي المعونة الاجتماعية ، أكثر مما يرغبون بتخفيضات ضرائب الأرباح الرأسمالية عن الذين يبيعون بيوتهم ــ قلت « التخفيض الضريبي الثاني سيستفيد منه ٦٥٪ من الأمريكيين الذين يملكون بيوتاً ، وقد يفكرون يوماً ما ببيعها . أما التخفيض لصالح المعونة الاجتماعية فالغالبية العظمى من الناس لن تستفيد منه على الإطلاق ، لكنه سيسهم في حل مشكلة المعونة الاجتماعية . إنهم يفضلون التخفيضات لصالح المعونة على التخفيضات لصالح ملّاك البيوت ، لأنهم يهتمون ويركزون على المصلحة العامة ، وليس على مصلحتهم الذاتية » .

كان كلينتون مفتوناً بهذه الملاحظة . سألني « إذن حين يقولون إن الناس يصوتون لمصالحهم الاقتصادية ، فالأمر ليس كذلك بالحقيقة ؟ » .

أجبته « هذا صحيح ، لقد أساء دول فهمهم أساساً . فهو يقدم لكل منهم تخفيضاً ضريبياً يعادل ١٥٪ ، وأنت تقول لا ، وتقدم التخفيض الضريبي للذين يحاولون الالتحاق بالجامعة ، أو لأصحاب الدخل المنخفض ، أو للأسر التي لديها أطفال تربيهم ، أو للمؤسسات التي تشغل عمالاً من مستحقي المعونة الاجتماعية ، سيفضلون عرضك رغم أنه يعود عليهم بفائدة أقل مما يتوقعون الحصول عليه لو قبلوا عرض دول » .

وانتظرنا بصبر فارغ شهوراً عديدة ، إعلان دول مخططه للتخفيض الضريبي ، ونحن نعرف سلفاً أن الناخبين يفضلون التخفيضات الضريبية ذات الهدف التي قدمها لهم كلينتون . ومشى الجمهوريون إلى الفخ مباشرة .

ومرة أخرى أثبت عقد التسعينيات أنه عقد الـ « نحن » ، وليس عقد « الأنا » . قلت للرئيس « إنها شكل مثلثي . فالديموقراطيون القدامى لا يريدون تخفيضاً ضريبياً على الإطلاق . والجمهوريون يريدونه لاستعادة القطاع العام وليتركوا للناس أن يوفروا بعض المال . ونحن نريده لإنجاز أشياء محددة لشريحة من الناس محددة . وكما استهدفنا تقليص الإنفاق حين كانت الأجهزة الحكومية تتضخم ، علينا أن نسعى إلى التخفيض الضريبي مع انكماش الجهاز الحكومي وتقلصه » .

لم يكسب دول ولا نقطة واحدة في مؤتمره ، بسبب عجزه عن التأثير في المؤتمر بأفكاره ، وانغماسه في معارك على المنصة حول الإجهاض . وانتظرنا بشيء من القلق والتوتر أن يعلن عن زميله ونائبه في السباق .

كنت في أقصى حالات الذعر ، بأوائل أغسطس / آب ، حين اتصل بي الرئيس ليقول « لقد علمت من مصدر مفوّض أن دول عرض منصب نائب الرئيس على بيل بينيت » ، فأفزعني ذلك . إذ بوصفه وزيراً سابقاً للتعليم ، وقيصراً من قياصرة حرب المخدرات ، ومؤلفاً جاء كتابه عن الفضائل على رأس أحسن الكتب مبيعاً ، فإن باستطاعة بينيت أن يزاحمنا على قضايانا الأساسية مثل : الأطفال ، والقيم ، والمدارس ، وأن يكون خصماً صلباً عنيداً . وافترضت أن مصدر معلومات الرئيس هو بوب بينيت ، أخو بيل ، الذي يعمل محامياً لكلينتون . ثم علمت في اليوم التالي من الرئيس أن بيل بينيت خذل بوب دول ورفض المنصب . وسمعت أن دول جدد عرضه ، وأن بينيت ظل على رفضه . لو أنه قبل وأقنع دول برفع شعار القيم ، لوقعنا في ورطة كبيرة .

بدأ دول بتاريخ ٩ أغسطس / آب يسجل أهدافاً حقيقية على اللوحة . فإعلانه عن كيمب كزميل له في الانتخابات أوقع أمريكا بالشرك ، كما أوقعنا نحن أيضاً ، وأعطى ترشيحه حياة جديدة ، لأن كيمب محبوب وطنياً أكثر من دول . فقد كاد أن يهزم دول نفسه في الانتخابات التمهيدية . ويبدو أنه بتعيينه هذا يوحي بأن دول الآن قد انفتح على أفكار جديدة وناخبين جدد ، حتى لو لم يستطع دول أن يثيرهم ، فبإمكان المعيّن الجديد أن يفعل . وأظهرت الاستطلاعات أن مركز كلينتون قد انخفض ثلاث درجات .

مع افتتاح الجمهوريين لمؤتمرهم ، تابعوا مزاحمتنا على الصدارة والتقدم فانخفضت درجاتنا السبع عشرة التي تمثل تقدمنا إلى أربع عشرة نقطة ، بعد الإعلان عن اشتراك كيمب . ثم انخفضت نقطة أخرى بعد العرض الذي قدمته نانسي ريغان مساء الإثنين ، وبعد الخطاب الذي ألقاه الجنرال كولين بويل في الليلة نفسها . وأظهرت استطلاعاتنا أن الناخبين رأوا أن الجمهوريين يميلون نحو المعتدلين ، ويتوجهون بالنداءات إلى أنصارهم المخلصين .

ثم بدأ الجمهوريون مساء يوم الثلاثاء يدوس بعضهم بعضاً. فقد صدم أداء رئيسة المشجعين سوزان موليناري الناخبين في الخطاب الرئيسي للمؤتمر بصبيانيته وحمقه وضحالة ثقافته. كانوا يعتبرونها شابة لطيفة متحمسة، إنما ليس شخصاً يُستمع إليه في أمر خطير مثل اختيار رئيس للبلاد. لكن الذي خرج بالناخبين عن الخط فعلاً، هو خطاب كاي هاتشيسون الهجومي السلبي ليلة الثلاثاء. فقد نال أسوأ درجة عن أسوأ خطاب ألقته أسوأ خطيبة في أي مؤتمر على الإطلاق.

حين أطلقت عضوة مجلس الشيوخ التكساسية لسانها بسلسلة صفات تصف بها كلينتون: رافع الضرائب، المتحرر من قيود الإنفاق، ناكث الوعد، فارض الضرائب على الضمان الاجتماعي، الهادف لجعل الرعاية الصحية اشتراكية، مهادن المخدرات، المنفرد بالسلطة... انتاب الناخبين شعور من يشرب نبيذاً فاسداً. جميع استطلاعاتنا أظهرت أن الناخبين أرادوا مؤتمراً إيجابياً، ولهذا لم يسجل الجمهوريون أية أهداف في حفل ليلة الثلاثاء، واعتبر مؤتمرهم غير مقبول عند مختلف فئات الناخبين.

ثم جاء خطاب اليزابيث دول الصاعق، الذي استمال أمريكا بشكل كبير، حين انتقلت من المنصة لتقف في وسط الحضور، وتُعدِّ من جديد مواقف زوجها النضالية في وجه الضعف والعجز، وتترك الجوانب السياسية لتتحدث عن أمريكا بأسلوب آخر مختلف.

بعد خطابها، أظهرت استطلاعاتنا ارتفاعاً في معدل دول بحدود ثلاث نقاط، ليقل فارق تقدمنا عليه من ١٣ نقطة إلى ١٠ نقاط. ولكن بقدر ما أثلجت ليلة الثلاثاء صدري بخطاب هاتشيسون، جاءت ليلة الأربعاء لتبعث القشعريرة في جسمي كله.

كنت أتصل بالرئيس كل صباح خلال مؤتمر الجمهوريين وهو يقضي عطلته في غراند تيتونز، ليتجنب التوتر من مراقبة المؤتمر ومتابعته. وكنت قد دفعته، أملاً بتقليل مكاسب الجمهوريين، إلى أن يعلن يوم الاثنين ـــ قبل المؤتمر بيوم واحد ـــ عن اتفاقية لإنقاذ منتزه يلوستون الوطني من حفريات التنقيب. لقد كان من المحتمل أن يحقق ذلك هدفي المنشود، أو لا يحققه، لكنه أنقص يوماً من إجازة الرئيس، وعكر مزاجه مع بدء الجمهوريين لمؤتمرهم. كنت كل صباح أرفع من معنوياته، وأريه أن مكاسب الجمهوريين وارتفاع نقاطهم يسير ضمن تنبؤاتنا المرسومة تماماً، وحسب التقديرات المتعارف عليها أثناء المؤتمرات. وكان يشكو كل يوم من أنه لم ينم جيداً في ليلته الماضية، وهذا بلا شك بسبب قلقه لأنه لم يتفرج على التلفزيون.

كان الرئيس أسوأ حالاً في عطلة نهاية الأسبوع التي سبقت المؤتمر. فقد اتصل بي

عشر مرات خلالها، ليقترح خطأ جديداً في مهاجمة جاك كيمب: «ما مدى تأثير الإشارة إلى ممولي كيمب الاقتصاديين على انتقاد دول أمام الناخبين؟»

«كيمب يؤيد معايير الذهب، هل يرى الناخبون في ذلك حمقاً وغرابة؟».

ثم ارتكبت غلطة كبيرة، فاتصلت بالرئيس ليلة الأربعاء، بعد خطاب اليزابيث دول، لأؤكد له أننا استعدنا ما كنا قد كسبناه من نقاط في مؤتمرنا. إلا أنني دست بدلاً من ذلك على لغم أرضي. فالإجازة لم تكن ناجحة على الإطلاق، ولامني كلينتون لاتصالي به ليلاً، قاطعاً عليه أول ليلة ينام فيها منذ بدء الإجازة. قال «عليك ألا تتصل بي وأنا في إجازة، يجب أن تخجل من نفسك وأنت تقتحم عليّ خلوتي بهذا الشكل» قلت «أنا آسف يا سيدي.. إذ لم أعتقد..» فقاطعني «كان عليك أن تعتقد.. أنت تفسد علي كل صباحاتي، وتريد أن تفسد ليلي أيضاً. أنا لم أنم جيداً، وأمامي غداً لعبة غولف، ولأول مرة خلال الإجازة أتمكن من الجلوس والاسترخاء، فتأتي أنت لتفسد ذلك كله».

ودعوت الله في سري أن ينقذني من هذه الورطة، قلت «إنني أعتذر بالفعل» فقال «طبعاً عليك أن تعتذر، فإن لي حقاً بالإجازة مثل أي إنسان آخر. أنت ذاتك تأخذ إجازات، وتذهب إلى فرنسا دائماً، فلماذا لا آخذ أنا أيضاً إجازة، دون أن تقطعها بمخابراتك اللعينة». واستمر على هذا المنوال خمس دقائق، خمس دقائق كاملة، أي ثلاثمئة ثانية، سمح لي بعدها أن أنهي المكالمة.

اتصل بي ثانية بعد ساعة استعاد خلالها هدوءه ليعتذر. فأجابته إيلين على الهاتف غاضبة من طريقته في معاملتي، بالوقت الذي كنت أحاول فيه التخفيف من قلق لا بد أنه يشعر به. قالت عاملة المقسم كالعادة إن الرئيس على الخط، فأجابت إيلين بغضب «مارك لا يريد استلام أية مخابرات، لقد ذهب إلى النوم» قالت عاملة المقسم وهي لا تكاد تصدق ما تسمع «لكن الرئيس بذاته على الخط يا سيدتي..» وخطفتُ السماعة من يد زوجتي الباسلة، ومضت هي لتنام، ومضيت أنا إلى غرفة أخرى لأتحدث.

كان كلينتون نادماً على إزعاجي، تماماً كما كنت أنا في المخابرة الأولى. وتحدثنا عن مؤتمر الجمهوريين، وعن التأثير الذي نتج عنه. قال: «إنني قلق بالفعل لأننا لم نتقدم عليهم» ثم سألني عن توصياتي لتجنب التهجمات علينا في مؤتمرنا، وللتركيز على الجوانب الإيجابية المتعلقة بالقيم. قال مشاكساً «لا أدري أين ذهبت تلك الأحاديث الحلوة التي اعتدت أن ترسمها، ماذا جرى لك، لقد اعتدت على الإيمان بالسلبيات الهجومية، واشتهرت

بأنك أفضل من يخطط الحملات الهجوميه في البلاد كلها، هل أثرت عليك الشيخوخة، وأفقدتك لمساتك السحرية الخاصة ؟ » .

فأكدت له أنني مازلت قادراً على الهجوم أكثر من أي وقت مضى، حين يتطلب الموقف ذلك . ثم أمضينا نصف ساعة نناقش أمور مؤتمرنا .

لو أن بوب دول أتبع خطاب زوجته بنداء وجّهه إلى المستقلين، مع رسالة سعيدة متفائلة، لاستطاع أن يغير اتجاه الانتخابات في تلك الليلة . فقد مهدت له زوجته الطريق، وبقي عليه فقط أن يهز أرجوحته بقوة ليجد لنفسه ثغرة، لكن دول كالعادة فشل بأن يستغل الظرف والمناسبة .

وخوفاً من أن يعود فيتمكن من ذلك، كنت أراقب خطاباته في غرفتي بالفندق مع دوغ شوين وبيل ناب . حيث كنا على اتصال هاتفي دائم مع توم فريدمان، الذي كان برفقة جورج في سان دييغو، وبين يديه نسخة من نص الخطاب . وكنا — جورج وأنا — مرتاحين كثيراً لخطابه ذي الصبغة الحزبية، فقال ستيفانوبولوس متنبئاً « لن يحصل بهذا على النقاط العشر » .

تلعثم دول واضطرب كثيراً . كان الأسلوب جيداً، لكن المحتوى كان مخيفاً . فبدلاً من أن يتحدث عن المستقبل، فضّل أن يجعل من نفسه جسراً إلى الماضي، وخطاً كتب له أن يمثل نموذجاً تاريخياً للمؤتمرات الفاشلة . وبدلاً من أن يحكي عن دعمه لرجل الشارع العادي في أمريكا، تحدث طويلاً عن شجاعته وصدقه ونزاهته هو . وهذا حديث جيد للناخبين الكهول الذكور، الذين التفوا حوله بشكل بارز في تلك الليلة، لكنه لا يهم البتة من كانت أعمارهم دون الخمسين . وبعيداً عن الصورة الحنونة التي رسمتها له ابنته ليدي دول، بدا وكأنه يسير بين التظلم والحدة، وتنعكس عليه قسوة أفكار حزبه وحدة أنظمته .

اتصل بنا جورج، بعد أن تمنى لنا دول ليلة سعيدة، ليسأل « ما رأيك ؟ » فأجبته « إنه يقيد الزمن . فحديثه وجعجعته عن الجسور مع الماضي، أكبر غلطة تحصل في مؤتمر انتخابي، منذ أن دافع غولد ووتر عن التطرف والمتطرفين » . وافقني جورج على ما أقول، وانطلقت بعدها إلى الصحافة لأدير مغزلها حول هذا الخيط .

اتصلت بالرئيس صباح اليوم التالي (إذ لم تعد أمامي فرصة لأية مكالمات ليلية طالما هو في إجازة) قائلاً « كان خطابه — لا بل كامل مؤتمرهم — يدور حوله شخصياً . حول دول وحزبه . وهذه هي نقطة الضعف والمقتل . علينا أن نتحدث في مؤتمرنا عنك كناخب، وعما سنقوم به لمساعدتك، وليس عن عظمتك وعبقريتك » .

لقد فعلها دول. وأظهرت الاستطلاعات انخفاض معدلاتنا ثلاث نقاط أخرى، ليصبح فارق تقدمنا عليهم سبع نقاط فقط، نتيجة للانحراف في ثقل التغطية الصحفية. لكنني كنت واثقاً من أن دول قد أخطأ المرمى تماماً، ومن أننا سنعوض كل هذه النقاط، بل وأكثر منها.

لماذا كان دول على مثل هذا القدر من السخف والحماقة وعدم الكفاءة؟ لماذا كانت حملته الانتخابية، من بدايتها إلى نهايتها، أسوأ حملة في تاريخنا؟.

لقد درست الحزب الجمهوري من الداخل، حين كنت أحد مستشاريه السياسيين. إنهم لا يترددون في القضاء عليك حين تكون ضمن مرمى نيرانهم. ويتهمونك برفع الضرائب والتساهل مع الجريمة ومعارضة المعونة الاجتماعية وإضعاف الجيش، إذا ناديت بأنك ليبرالي. لكن ليس لديهم أية خطط أخرى يلعبون بموجبها، ولا طريقة أخرى يفوزون على أساسها. فإذا التففت من خلفهم وسرت معهم ولم ترفع الضرائب، ووقفت من الجريمة مواقف صلبة، وأردت إصلاح المعونة الاجتماعية وتنشيط الفعاليات العسكرية وتخفيض الإنفاق، لم يتعرضوا لك أبداً. الدبابة تستطيع أن تحرك برجها في جميع الاتجاهات، لكن الحزب الجمهوري لا يستطيع.

استطاع الرئيس أن يتجنب نيران الجمهوريين بفضل تطبيقه لنظرية المثلثات، التي جعلت من المستحيل على أي إنسان أن يسم كلينتون بأنه ليبرالي. لكن الديمواقراطيين الساعين إلى عضوية مجلس الشيوخ ارتبطوا في ذهن الناخب بالأموال العمالية من جهة، وبالأرثوذكسية الديموقراطية من جهة أخرى. ونظراً لعدم قدرتهم ورغبتهم في اعتماد نظرية المثلثات، فقد كانوا يتهاوون بالعشرات تحت مطارق اتهام الجمهوريين لهم بالليبرالية.

عشية يوم الانتخاب، حين صار مجلس الشيوخ جمهورياً. والمجلس النيابي أيضاً، فكرت بأنه لم يبق من سبيل أمام كلينتون إلا أن يطبق نظرية المثلثات.

لقد وقف الرئيس يتأمل طويلاً وبرباطة جأش النقاط العشر التي خسرها بعد مؤتمر الجمهوريين. فبعد ثورته ليلة الأربعاء، استعاد هدوءه، وآمن أننا سنستعيد هذه النقاط مرة أخرى.

الفصل الثامن عشر

المؤتمرات الحزبية

خلال شهور طويلة، وضعنا خطط مؤتمرنا، على أساس استطلاعات مارك بن، وعدد من اقتراحات توم فريدمان وناوومي وولف العملية. وكان مدخلنا إلى ذلك أن نشرح للأمريكيين أن حزبنا حزب قيم، مكرس لأن يحفر في الصخر لإحياء وتقوية القيم، ولخلق طرق عملية تسير عليها حياتنا تقوم على أساس هذه القيم. ثم نبين كيف عارض دول هذه القضايا القيمية وخالفها في مجال ضبط الأسلحة، وحصر بيع التبغ للمراهقين، وإجازة المغادرة لأسباب عائلية، وغيرها من المسائل التي كرسنا أنفسنا للدفاع عنها.

بدأ بن عملية التخطيط بأن أشار إلى أن استطلاعاته أظهرت «أننا لن نربح شيئاً بحملنا لهوية الحزب الديموقراطي. فنحن في نظر الناخبين أكثر مقبولية، وأكثر إحساساً بالمسؤولية المالية، وأكثر أصالة بالقيم من الحزب ككل. ولهذا فنحن لا نريد للمؤتمر أن يكون مؤتمراً للحزب الديموقراطي. نريده مؤتمراً عن بيل كلينتون».

هذه الرؤية أثارت الحماس لفكرة هاري توماسون، عن الرئيس وهو يطلق قبل المؤتمر صافرة قطار الرحلات. كان هاري رجلاً ملتحياً من أركنساس، انتقل مع زوجته ليندا بلود وورث إلى كاليفورنيا، لينجحا معاً في الإنتاج التلفزيوني. هاري يرسم مناظره بيديه في الهواء ليشرح أفكاره. كان له دور فعال في حملة كلينتون الانتخابية عام ١٩٩٢، فأنتج مع زوجته فيلم «الرجل القادم من هوب»(*) الذي به تعرفت أمريكا على كلينتون. لقد أعجبني الرجل وأحببته منذ البداية، إضافة إلى أن آل كلينتون كلهم، وخاصة السيدة هيلاري، يعتبرونه من خاصة أصدقائهم.

(*) هوب Hope مدينة صغيرة هي مسقط رأس الرئيس كلينتون، وتعني باللغة الإنكليزية «الأمل». — المعرب —

لقد عمل بن، صاحب ملاحظة «الصوت الذي نحتاج إليه لنفوز في الانتخابات يقع ضمن دائرة قطرها خمسمئة ميل مركزها شيكاغو»، مع هاري في تصميم رحلة بالقطار تمر بنا قرب بيوت الناخبين في أوهايو وميتشيغان.

كانت هيلاري تخشى أن يقوم المتحمسون من عناصر الخدمة الخاصة السرية بتوقيف القطارات والسيارات في جميع الاتجاهات، لتسهيل مرور قطار الرئيس. وكانت محقة في حساسيتها هذه. فقد علمنا أننا إذا أردنا المحافظة على مخططنا دون تعديل بالذهاب إلى بيتسبورغ بالقطار، فعلينا أن نوقف كل الرحلات على الخطوط الحديدية الشرقية. وتفادينا هذه الكارثة فجعلنا انطلاقنا يبدأ من ويست فرجينيا.

ترأس آل كلينتون أول اجتماعاتنا لبحث أمور المؤتمر، فسأل أحدهم ما إذا كانت هيلاري ستصحب زوجها في القطار. كانت السيدة الأولى نادراً ما تحضر الاجتماعات السياسية، وكان هذا أول اجتماع لرسم الاستراتيجية تحضره منذ أن التحقتُ بخدمة الرئيس قبل عامين، وكانت مطارق الصحافة تتهاوى عليها بسبب فضائح وايت ووتر وملفات الـ FBI، بينما الرئيس يتعاطف معها بعمق. وحين وصل الحوار إلى ما إذا كان يجب ذهابها بالقطار، أخذ الرئيس يدها قائلاً «أنا لا أريد قضاء ثلاثة أيام في القطار بدونك»، وخيم الصمت على الغرفة، ورفرفت على الجميع لحظات حنان، من التي يتمنى الناخبون أن يروها بعيداً عن الإطار السياسي. وعض الرئيس على شفته السفلى، وبدت هيلاري هادئة وسعيدة، وهي تبادله النظرات. ولكن المنظر مع الأسف لم يكن أمام العامة، إذ لم يكن هناك سوى محترفين قست عيونهم من طول خدمتهم لكلينتون، ومع ذلك شعروا أن العواطف التي أمامهم صادقة.

في مرة سابقة بعام ١٩٩٤، قلت لها على الهاتف «الناس لا يفهمون أنك تحبينه فعلاً، هذا كل ما في الأمر» فانفجرت باكية على الهاتف.

قلت ونحن نبحث رحلة القطار، إنها ستكون فارغة إذا لم نملأها بإعلان تشريعات حقيقية كل يوم. أما إذا استطعنا توجيه الأنظار إلى مسيرة القطار في النهار وإلى المؤتمر في الليل، أمكننا أن نحقق مؤتمرين في وقت واحد. أحدهما الساعة السادسة مع أخبار المساء، والثاني فيما بعد ينقل المؤتمر ببث حي ومباشر. نحن بحاجة فقط إلى التأكد من أن لدينا ما نقوله في القطار. ووافق الرئيس بحماس.

فقررنا أن نعلن يوم الاثنين عن دعمنا إصدار تشريعات تمنع بيع الأسلحة لأي شخص سبق أن حكم عليه في قضية عنف منزلي.

ثم تقابلت بعد ذلك مع ديك رايلي وزير التعليم وطاقم موظفيه. فقد وضعت استطلاعاتنا مسألة التعليم في المرتبة الثانية من أولويات الناخبين، وهو تطور جديد، بعد أن كانوا ينظرون إليها كمشكلة محلية تخص الولايات. اقترحت إقامة يوم عالمي سنوي للمدارس، يختاره جميع الأطفال. واقترح رايلي مشروع القراءة والكتابة بدلاً منه، فنصدر وعداً بأن يتمكن كل طفل في أمريكا من القراءة بنفسه دون مساعدة، وبأن يحوز على درجة جيد في الصف الثالث. وقدّر رايلي أن هذا البرنامج يشكل معظم الوعي عند الأطفال. وأكدت الاستطلاعات شعبية هذه الفكرة، فوضعناها في جدول أعمال اليوم الثاني.

لإعداد موضوع بيئي لليوم الثالث، تقابلت مع كاتي ماك غينتي، رئيس مجلس المنهج البيئي، الذي دفع غور كلينتون إلى إقامته في البيت الأبيض. لقد أثارها إصراري على تسليط الأنظار على المسائل البيئية، وهي التي اعتادت أن تكون الأخيرة في كل البرامج، فأعدّت عدداً من الاقتراحات غدت أساساً لبيانات يوم الأربعاء.

أما أكثر الأفكار إثارة وطرافة ليوم الأربعاء فجاءت من إيلين، التي أخبرتني أنهم في كونيكتيكت يلقون الحجوزات على أملاك المدعى عليه عند بدء المحاكمة لمنعه من بيع موجوداته قبل صدور الحكم وتنفيذه كاملاً. فقمنا بمساعدة من بيل كوري بإعداد برنامج لإيقاع الحجوزات على ملوثي البيئة عند رفع حادث التلويث إلى القضاء، لضمان أنهم سيقومون بتنظيف ما لوثوه. هذه الحجوزات ستمنع بيع ودمج وإدارة المؤسسات المذنبة إلى أن يتم تنظيف التلوث، الأمر الذي سيدفع الملوِّثين — كما يبدو لي — إلى تسوية وحل الدعاوى البيئية بسرعة، لا أن يتركوها تجر ملفاتها عشرات السنين كما هي الحال الآن. وأعجب غور وماك غينتي بالفكرة، وتم الإعلان عنها من القطار، وآمل أن تتحول ذات يوم إلى قانون.

★★★★

لقد اقتطع الجمهوريون عشر نقاط من فارق تقدمنا عليهم، إلا أنهم علقوا في الفخ بفشلهم بإرسال مشروع قانون إصلاح المعونة الاجتماعية، والحد الأدنى للأجور. ومشروع قانون كينيدي كاسبوم إلى الرئيس إلا بعد أن انتهى مؤتمرهم. والدستور يعطي الرئيس عشرة أيام فقط لتوقيع المشاريع المحولة إليه، لكنه يسمح للكونغرس بما شاء من الوقت لإرسال المشاريع إلى الرئيس بعد إقرارها. فانتظر الحزب الجمهوري ثلاثة أسابيع لإرسال مشروع قانون إصلاح المعونة الاجتماعية المختلف عليه إلى كلينتون، لإجباره على توقيعه — أو عدم توقيعه — قبل انعقاد مؤتمر الديموقراطيين مباشرة. آملين أنه إذا وقعه، فسيثور الجناح الديموقراطي اليساري مسعوراً، ويكرر ما حدث من مواجهات في مؤتمر عام ١٩٦٨.

لكن المؤامرة أعطت عكس ما تم التخطيط له . فقد أتاحت لكلينتون فرصة التوقيع على ثلاثة مشاريع شعبية عقب مؤتمر الجمهوريين مباشرة وخلال الأيام التي أعقبته على التوالي . أما في اليوم الرابع فقد أعلن أن القيود على تسويق التبغ الهادفة إلى حماية المراهقين ، التي أقرها قبل سنة ، ستوضع الآن موضع التنفيذ . كان تأثير هذه التواقيع يوماً بعد يوم هائلاً في تأجيج عواطف العامة بالتفاؤل ، وفي خلق إحساس بأن أمريكا تسير على الطريق الصحيحة ، مما ساهم في انخفاض أربع نقاط من معدل الجمهوريين قبل مؤتمر الحزب الديموقراطي . ففي الوقت الذي بدأ فيه المؤتمر كان فارق تقدمنا عن الجمهوريين قد ارتفع من سبع إلى إحدى عشرة نقطة .

شجعني مايك ماك كوري وزير الصحافة على القيام ببعض المقابلات المسجلة مع الصحف والمجلات قبل بدء المؤتمر . وكنت حتى ذلك الوقت أرفض وأقاوم مثل هذه المقابلات . فالانتخاب يدور حول المرشح ومساعديه ، وليس حول مستشاريه . وكنت أشعر دائماً بأن من الخطأ لمستشار مثلي أن يسرق الأضواء من رئيسه ورب عمله .

لكن مايك اخبرني أنني إذا ما بقيت متمسكا بالصمت ، فستطاردني الصحافة في المؤتمر ، وستلاحقني عدسات التصوير ، وسيحاصرني المحررون بأسئلتهم . ولم أشأ أن أكون هوارد هيوز في ثياب مستشار سياسي ، أو شخصاً بعيداً خفياً يطلب من يطلق عليه النار . فأجريت مقابلة مع فرانك كلاينز من نيويورك تايمز ، وكانت مقابلة ناجحة ، ومقابلة مع إريك بولي من مجلة التايم . وأقمت علاقة حميمة مع والتر إيزاكسون بعد أن قرأت كتابيه وأعجبت بهما ، واستنتجت أنه يصلح كمؤرخ أكثر مما يصلح محرراً صحفياً .

اتصلت بوالتر يوم الخميس ٢٢ أغسطس / آب ، لأراجع معه بعض الفقرات في عدد التايم يوم الاثنين حول المؤتمر . فطرح والتر معلومته بأنني سأكون على غلاف ذلك العدد . سألته « تعني قسماً من الغلاف ؟ » فقال : « لا ، أعني كامل الغلاف . أحلى صورة بالألوان لك سبق أن رأيتها في حياتك ، مع عنوان يقول (الرجل المختفي داخل عقل الرئيس) .

قلت مذعوراً « كيف بحق الجحيم تنشر صورتي في مؤتمر الرئيس ، لماذا لا تنشر صورته هو ؟ » أجابني إيزاكسون « لقد نشرناها عدة مرات ، وصورتك أنت هي ما نريد » قلت « يا إلهي .. والتر .. أنت بهذا تقتلني .. سيحرقني حياً .. ولن يترك لي مجالاً لأتنفس .. دعني أتحدث مع جماعتك مرة أخرى .. أنتم لم تأتوا على ذكر مسألة الغلاف مطلقاً .. ولقد طلبت بشكل محدد ألا أكون على الغلاف » .

إنني أعترف بأنهم لم يعدوني بعدم وضعي على الغلاف ، وظللت أكـرر «إنـه سيقتلني» . واتصل ماك كوري بإيزاكسون الذي قال أنه يفكر ببديل ، برسم كاريكاتيري يمثل كلينتون ، غطاء جمجمته مفتوح ومثبت بمفصلات ، وأنا واقف داخل مخه ، تماماً داخل مخه .

قلت لإيزاكسون في وقت متأخر من ليل الخميس «أتسمي هذا تحسيناً للفكرة؟. إنك تقول بها أنني دماغ الرئيس ، وأنا لست كذلك . وفي هذا ظلم له وتشويه لي» . واتصلت بالرئيس وأوجزت له موضوع الغلاف . فقال «هذه كارثة» قلت «أعرف ذلك . كانوا سينشرون صورة لي بالكامل على الغلاف ، لكن هذه أسوأ» .

اتصلت بوالتر ثانية عند منتصف الليل ، فأخبرني أنه قرر أن يكون الغلاف الأخير صورة لي وأنا جالس على كتف كلينتون ، وليس في رأسه ، وأن يكون العنوان (الرجل الذي يملك أذن الرئيس) . ولم يعجبني العنوان أيضاً . وكان كل ما أستطيعه هو أن أطلب ألا أكون على الغلاف ، لكنني لم ألق قبولاً .

في الثانية عشرة والنصف اتصلت بكلينتون مرة أخرى ، ووصفت له الغلاف الجديد فقال «لا بأس بهذا فأنت تملك أذني فعلاً» وبعد ذلك علق الرئيس ــ كما سبق أن ذكرت ــ على علاقتنا . قال : «أنا أدرك أن علاقتنا أمر له أهمية تاريخية وتشريعية ، إنها موضوع فريد في التاريخ الأمريكي . فلا أعتقد أن أياً من الرؤساء حظي بشخص قريب منه كما أنت مني ، ما عدا لوي هاو» .

كان هاو المدير السياسي لفرانكلين روزفلت ، الذي قاده من مشلول يرقد على ظهره في عام ١٩٢١ إلى حاكم ولاية نيويورك عام ١٩٢٨ ، ثم إلى البيت الأبيض في عام ١٩٣٢ . قلت «ثمة مشكلة واحدة فقط ، فقد مات لوي بعد الفترة الرئاسية الأولى لروزفلت ، وأنا آمل أن أعيش أكثر» . فضحك كلينتون قائلاً : «حسناً ، هاري هوبكنز إذن» . لقد استبدل المدير السياسي لروزفلت بصديقه وكاتم أسراره . فقلت أذكره بالتاريخ «لقد كان ايلينورياً أكثر مما كان فرانكلياً» فقال معلقاً «كان هذا بعد انتقاله إلى البيت الأبيض وافتقاده إلى النساء هناك» وضحكنا .

قال الرئيس «إنني أفهم فعلاً الجانب التشريعي التاريخي في علاقتنا ، لكنني أود أن أطلب منك أمرين فقط لو ألّفت كتابك . أولاً ، ألا تنشره إلا بعد الانتخابات . ثانياً ، أن تحكي فيه الحق عنك وعني ، الحق عن بيل كلينتون والحق عن ديك موريس» قلت «لك ذلك» .

أثناء حديثي مع التايم ومع الرئيس، كانت العاهرة التي اعتدت أن أقابلها منذ سنة واقفة على الشرفة خلف الباب. فقد اعتدت أن أطلب منها مغادرة الغرفة كلما تحدثت مع الرئيس. وكنت أخرج إليها بين المخابرات لأشرح لها أسفي على تركها تنتظر بهذا الشكل وأقدم لها كأساً من الشراب. كان ذلك حين التقطت لي مجلة ستار صورة، وضعت نهاية لعلاقتي بالرئيس، دون أن أعلم بها في وقتها.

بالنسبة لكلينتون، فقد وافق في النهاية على فكرة أنه ما لم يبق محبوباً عند الناخبين، ليس يوم الانتخاب فقط بل طوال فترة رئاسته، فلن يستطيع أن يحكم. كان بحاجة إلى استطلاعات جيدة ليس ليفوز فقط بل لينجح في واشنطن. فحين انخفضت معدلاته في الاستطلاعات لم يستطع تمرير مشروع قانون الرعاية الصحية رغم وجود كونغرس ديموقراطي. أما حين ارتفعت معدلاته فقد استطاع توقيع مشروع قانون معونة اجتماعية وإصلاح رعاية صحية وزيادة حد أدنى للأجور، كل هذا بوجود كونغرس جمهوري.

كان يرى نفسه رجلاً جيداً صالحاً. فضائله تدعمها خبرة ومهارة تجعل الناس يمشون خلفه. وكان يراني ليس كطبيب سياسي بل كناصح مرشد يستطيع أن يبرمج له الأفكار ويطورها، ويعبر له بشكل واقعي ملموس عن الفكرة التي يجب عليه أن يقود أمريكا بها.

وحين تركت الحملة الانتخابية افتقد بغيابي الفكرة التي أرادني أن أجدها له. فقال لبرنامج ساعة إخبارية مع جيم ليهرير «إن أكثر ما أفتقده هو إبداعه الخلاق، وأفكاره، وطاقته. فبإمكانه أن يخرج بالكثير من الأفكار، التي أجوس خلالها لأنتقي ما أريد وأترك الباقي».

سأعتز دائماً بهذه الكلمات، وأظل أتساءل عما إذا كانت محادثاتنا الأخيرة عن التاريخ وعن أهدافه النهائية ليس لها تأثير على علاقاتنا القادمة، بعد أن ضمن الأغلبية في الانتخابات.

لقد خذلته وخذلت زوجتي وخذلت نفسي. أما بالنسبة لنصائحي حول العفة والفضيلة، فأنا لم أعد أهلاً للاستمرار مع الرئيس.

****

تخيّل هاري توماسون افتتاح المؤتمر بليلة غير سياسية بالمرة، وبخطب غير حزبية بالمرة تركز على القيم. فوافق بن ووافقت أنا قائلاً «دع الحزبية للجمهوريين من البداية. ودعنا نقيم ليلة بدون سياسة، مملوءة بالقيم، لنعرض على الناس أين تتوضع أولوياتنا».

أعجب الرئيس بالفكرة، لكنه قلق من اقتراح هاري دعوة بيلي غراهام ليخطب في المؤتمر يوم الاثنين. فأوضح هاري أن ذلك سيعطي طابعاً غير سياسي، وطالما أنه لن يأتي على ذكر اسم الرئيس، فإن مجرد حضوره سيكون إشارة إلى التزامنا بالقيم.

كانت هيلاري معجبة بغراهام، لكنها حذرت من أنه مكرس كمبشر بروتستانتي. وسيقف ليتحدث عن الإجهاض كإثم، وعن أن طريق عيسى المسيح هي طريق الحق والخلاص. فانتابني القلق حول ردة فعل اليهود والآخرين. وسألت هيلاري عما إذا كانت تشعر أن بإمكانه أن يكون علمانياً، فأشارت إلى أن خطابه في مدينة أوكلاهوما كان رائعاً، لكنها لا تعرف شيئاً عما سيقوله في المؤتمر.

واستهوتنا فكرة أن نطلب من والتر كرونكايت أن يخطب، لكنه حين انتقدنا على تباطؤنا بالأخذ بفكرة بول تايلور والقبول بمناظرة مفتوحة الوقت مع دول خلال الحملة، استبعدنا والتر.

وشعرت أن كريستوفر ريف سيكون اختياراً موفقاً، وسيكون لشجاعته صدى عميق. ورغم أن الرئيس ونائبه أعجبا بالفكرة، إلا أنه كان علي أن أقنع الآخرين بأن حصر خطابات الليلة الأولى على غير السياسيين، سيكون بدعة وهرطقة عند السياسيين. ووافقنا أخيراً على أن يقوم غور بدعوة ريف لإلقاء الخطاب. وقبل ريف الدعوة على شرط أن يقوم هو بكتابة الخطاب.

ووافقنا جميعاً على دعوة ساره برادي لإلقاء خطاب يوم الاثنين، فسيكون لحضورها مع زوجها وقع الصاعقة، لأنه سيتوافق في التوقيت مع اقتراحاتنا حول الأسلحة والعنف.

لقد أعطتنا ليلة الاثنين نقطتين لنصبح متقدمين بثلاث عشرة نقطة. ولنكون قد انتزعنا حتى الآن ست نقاط من أصل عشر نقاط حازها الجمهوريون في مؤتمرهم، رغم أن مدفعيتنا الثقيلة لم تتكلم بعد.

وناقشنا مسألة أن تتحدث هيلاري في المؤتمر أم لا. فاقترح توماسون ألا تتحدث (فكان واحداً من الاقتراحات الخاطئة التي نادراً ما تصدر عنه) بل أن تظهر على الشاشة وهي ترحب بالمدعوين في مسقط رأسها، ثم تقوم بجولة في حارتها القديمة على المدرسة ودكان الحلويات. قالت هيلاري إنها فكرة ثمينة رائعة لكنها رفضتها.

كانت هيلاري حاسمة في رفض كل ما يبالغ برسم صورتها بشكل لا يعكس الصورة الحقيقية التي هي عليها. فقد نصحتها ذات مرة أن تجري تعديلات على أثوابها، بعد أن رأى الخبراء أن الأثواب المفتوحة العنق تلائمها أكثر من ذوات القبة العالية التي اعتادت أن تلبسها. لكنها قالت «إنني سريعة التأثر بالبرد، وأحتاج إلى ما يبقي عنقي دافئاً، كيلا

أصاب بالرشح والزكام » . وعاد الخبراء أنفسهم ليجعلوني أحظى بمزيد من الماء الساخن ، فقالوا إن الألوان الترابية كالبني الغامق والبيج أهدأ وأنعم من الألوان البراقة التي تحبها هيلاري . لكنها أجابت غاضبة « إذا كان زوجي لا يستطيع الفوز بالانتخابات لأن الناس لا تعجبهم طريقتي في لبس الثياب ، فعليه أن يبحث عن طريقة أخرى يفوز بها ، لأنني سألبس ما أحب ، لقد عاهدت نفسي حين يصبح رئيساً أن أبقى كما أنا ، وهذا هو ما أفعله الآن » .

قلت لها إنني أشعر بأن عليها أن تلقي كلمة في المؤتمر ، تركز فيها على ما قامت به في حياتها المهنية من دفاع عن الطفولة وقضاياها . فوافقت . وحين تحدثت اليزابيث دول في مؤتمرها بشكل مؤثر فعال عن زوجها ، حمدنا لهيلاري قرارها هذا .

هيلاري دافئة ودودة كإنسانة ، لكنها قاسية نسبياً كسياسية . وهي رائعة في المواجهات المباشرة وفي القتال عما يجب القتال من أجله ، مثل الرعاية الصحية ، والطفولة ، وحقوق المرأة ، والتعليم . لكنها لا تشارك زوجها في قدرته على التكيف . فهي لا تجيد اللطف والدوران ، لأنها بالأساس ليست شخصاً مناوراً .

سألني كثيرون عما إذا كانت هيلاري تشكل عائقاً في طريق زوجها ، وأجبت كلا ، فهي كنز ثمين من الناحية السياسية . وحين مالت الصحافة إلى التركيز على خصومها كان لديها قاعدة هائلة من مؤيدي معاركها من أجل الطفولة وحقوق المرأة . واعتدت أن أجيب من يسألني عما إذا كانت تؤثر سلباً على معدلات زوجها « إن نسبة مؤيدي دول ٥١٪ ونسبه معارضيه ٤٦٪ ، وهي نسب ومعدلات هيلاري نفسها . وتأثير هيلاري السلبي على بيل ليس أكثر من تأثير دول على دول » .

السر هو أن تترك هيلاري على سجيتها ، وأن تطلب منها أن تتحدث عما تؤمن به . وأن تدعها تقاتل من أجل الطفل والمرأة . ورغم أنني كنت أخشى أن تؤذي الرئيس بما تظهره من قدرة وسلطة ، فقد كنت أشعر أنها كلما تحدثت عن عواطفها الصادقة نحو الطفولة والأطفال ، كان ذلك أفضل لها وللرئيس .

لهيلاري سلطة قوية في البيت الأبيض ، إنما ليس بطريقة ميكافيلية كما يعتقد الكثيرون . ليس حديث الوسادة ولا التكرار الملح هو الذي يدير رأس الرئيس وأفكاره حين تتحدث . فمعاركها من أجل الأطفال توقظ في ذاكرة الرئيس صور طفولته الخاصة ، وتدق مباشرة نوافذ الغلام الفقير الغافي في أعماقه ، وتحكي بلسان طفل في أحضان زوج أم فاسد ، وأم حائرة منهكة ، في بلدة صغيرة ليس فيها أمل وكان الرئيس يرى طفولته في نظراتها وكلامها .

الأمريكيون يقدرون التأييد الإيجابي الذي تلقاه هيلاري على الصعيد العام، مع أنهم يرتابون في تسلطها الخفي بحياتها الخاصة، أما الحقيقة فمختلفة تماماً. فالحياة الخاصة لهيلاري ذات خصوصية لا علاقة لها بالسياسة، فهي زوجة وأم بكل المعاني التقليدية للزواج والأمومة. وحين يحصل أن تنصح زوجها في مجالسهما الخاصة بشأن من شؤون الحكم والرئاسة، فمن زاوية هيلاري العامة التي نحبها، هيلاري المدافعة عن الطفولة والمؤيدة لحقوق المرأة والمنادية بالتعليم. وحين تريد أن تلفت نظر زوجها إلى أمر يتعلق بالسياسة، فهي لا تهمس في أذنه أو تشده من حزامه، بل تلقي عليه الخطاب نفسه الذي نسمعه نحن منها وهي على منصة المواعظ.

تذمرت ذات مرة من محاولاتي في التحرك نحو المركز، فأجبتها جواباً مجازياً تشبيهياً. كانت أعمال الدهان قائمة ببيتي في كونيكتيكت بذلك الوقت، على يد دهانين يعتنون بكل ميليمتر من الأسقف والجدران عناية فائقة، إلى حد لا أظن معه أن مايكل أنجلو قد أظهر مثلها في كنيسة سيستين. فأشرت مجازياً إلى أولئك الدهانين وأنا أجيبها «هيلاري، لقد عملنا معاً عشرين عاماً تقريباً، وأظن أنه قد آن الأوان لك لتفهمي» فابتسمت بخبث، وكأن قلبها حدثها بما سيأتي، وتابعت قائلاً «لقد كنت تستعينين بي كل سنتين أو كل أربع سنوات على دهان المنزل، وكنت تقومين قبل استدعائي بترتيب الأثاث بالشكل الذي ترغبينه، تضعين هذه الأريكة هناك، وهذا الكرسي هنا، وهكذا. لكنك بعد أن تستدعيني كنت تعرفين أنني سأكوم الأثاث في وسط الغرفة، أي في مركزها. فالوسط هو المركز، ثم أغطيه بالأغطية، وأقوم بدهان الجدران والسقف. وبعد أن أنتهي ويجف الدهان، أجمع أغطيتي وأغادر المنزل، تاركاً لك أربع سنوات تعيدين خلالها قطع الأثاث إلى حيث تحبين ويحب زوجك.

قالت بابتسامة عريضة متسامحة «يا لك من إبليس زلق اللسان معسول الكلمات». فقط في حالة أجبرتها الذئاب الناهشة على أمر، تجدها وقد خرجت عن طورها أحياناً، فأصبحت ترى في جميع من حولها أعداء لها.

أقام الرئيس حفلاً صغيراً بعيد ميلاده الخمسين قبل بضعة أيام من المؤتمر. وفي نهاية الحفل، أربك الحضور شخص فضولي مع بعض معارضي إصلاح المعونة الاجتماعية، صاحوا خلال عبارات وملاحظات أبداها الرئيس، فقام رجال الشرطة بإبعادهم. بينما كان الرئيس، خوفاً من أن يعاملوهم بخشونة، ينادي على رجال الشرطة من الشرفة قائلاً «تذكروا أن لهم حقوقاً أيضاً».

كتبت هيلاري هذا المشهد بعد عدة أيام ، وعبرت لي عن إحساسها بأن الجمهوريين هم الذين زرعوا الفضوليين بين الحضور . سألتني « كيف يتحملون أن يدفعوا خمسمئة دولار قيمة بطاقات ؟ » وحذرت من أن يلجأ الجمهوريون إلى تكتيكات مماثلة في مؤتمرنا ، وعلينا أن نصوّر على الشاشة جميع من يشترون بطاقات المؤتمر ، وتجاهلتُ ملاحظتها لأنها بدت وكأنها تعبر عن ردة فعلها التي تميل إلى المبالغة .

الحقيقة الخالصة هي أن هيلاري لا تجيد أبداً القتال في المعارك التي تلتحم فيها الوحشية مع الخبث . لكنها جيدة جداً في الدفاع عما تؤمن به ، سواء أمام ألف من التلامذة المشجعين ، أو على طاولة الإفطار مع الرئيس .

لقد عملت عن قرب مع كاتبة خطب هيلاري ، ليزا موسكاتيني ، في إعداد مداخلات السيدة الأولى في المؤتمر . ومنذ أول مرة رأيتها فيها ، أدركت أنها باعتبارها كاتبة خطب هيلاري ، ليست كأي كاتبة أخرى . فهيلاري دائمة التفكير في طرق جديدة تعبر بها عن إيماناتها ، ومهمة ليزا في كتابة الخطب ليست شيئاً بالقياس إلى مهامها بجمع المتفرقات من الجمل والأفكار من أحاديث هيلاري أينما كانت ، تماماً مثل آلة التسجيل أو التاريخ الشفوي ، والتي تسجلها في دفتر ملاحظاتها ، ثم تعيد تشكيلها في نص باليوم التالي . وتتألف خطابات هيلاري من قطعة صغيرة تضعها هنا ، أو نبذة استعملتها في الليلة الماضية هناك ، أو فكرة ناقشتها الأسبوع الماضي في كينتاكي . من هذه القطع تم صياغة خطاب فعال مؤثر . وهذا بالضبط ما حصل ليلة الثلاثاء ، في المؤتمر الوطني للحزب الديمواقراطي .

كان خطاب هيلاري في تلك الليلة رائعاً ومؤثراً ، أضافت به نقطة أخرى إلى رصيد زوجها ، بحيث بقي أمامنا الآن ثلاث نقط لنستعيد كل ما كسبه منا الجمهوريون في مؤتمرهم .

واقترحتُ فكرة متطرفة ، هي أن يتكلم غور قبل ليلة من خطاب الرئيس ، بدلاً من أن يخطبا في الليلة نفسها ، وهو ما اعتاد نائب الرئيس أن يفعله دائماً . وشعرت أن من المستحسن لصالح غور وكلينتون أن ينفرد نائب الرئيس بليلة خاصة به .

لكن الروح التقليدية التي تجذرت في لا وعي نائب الرئيس منعته من الموافقة ، وارتاب بأنني أخونه وأتخلى عنه ، وتخيل أنني أريد تقزيم دوره ، وأترك لخطيب آخر غيره أن ينفرد بأمجاد الحديث قبل خطاب الرئيس مباشرة . قال يلقي علي درساً « نائب الرئيس لا يخطب ببساطة في المؤتمر . إنه يقبل ترشيح حزبه له لمنصب نيابة الرئيس ، وهذا هام لدي ، وهام للعملية

أيضاً . وحين تجعلني أتكلم قبل دوري ، فأنت تخرق ذلك التقليد ، وتنقص من قدري وكأنني في مستوى أي متحدث آخر بالمؤتمر » .

لقد أعماه طول تركيزه على الأعراف الإجرائية عن حقيقة جوهرية ، هي أنه لو وقف خطيباً يوم الأربعاء ، لقدم لنفسه ولكلينتون أكثر مما يمكنه تقديمه كخطيب متمم يوم الخميس ، يضيع خطابه في زحمة خطاب الرئيس .

وتخليت عن الفكرة ، إلى أن أفزعني ارتفاع نقاط الجمهوريين في مؤتمرهم . ثمة شيء واحد بهيج في هذه الصورة السوداء ، هو هذه النقاط العشر التقليدية التي نكسبها في مؤتمرنا من الحزب الآخر ، لولا أنها نقاط علينا أن نكسبها بالعرق والدم والعزيمة ، ولا نستطيع ، بل لا يمكن ، ولا يجوز أن نفرط بها أبداً .

عدت إلى بحث المسألة ثانية مع غور ، وقلت مكرراً الهدف الذي أرمي إليه « هذا الخطاب سيجعلك معروفاً ، وسيكون أساساً لترشيحك للرئاسة في عام ٢٠٠٠ ، وسيتحدث الناس عنه طوال أربع سنوات ، لو أنك أحسنت أداءه » . كنت صادقاً أؤمن بعمق بما أقول ، وحاولت يائساً أن أعيد غور إلى جادة العقل ، لكنه كان رجلاً عنيداً .

« لو أنك أحسنت أداءه » تلك هي النقطة التي تمسك بها . وبدأ يتحدث عما إذا لم يحسن أداء الخطاب ، فإلى أين سيقوده ذلك ؟

وأخيراً فهمت . فهمت أن غور لم يكن واثقاً تماماً من قدراته الخطابية والبلاغية . فقد قرأ الكثير مما كتبوه عن يبوسته وبروده ، وبدأ يصدق ما كتبوه .

كان تيبير يعرف أكثر مني . فحين عاد غور من زيارته في يوليو / تموز ١٩٩٦ ليالتسين المريض ليهنئه على فوزه بالانتخابات ، لاحظ المعلقون شحوب ويبوسة الرئيس الروسي . وقد علمنا فيما بعد أنه كان يعاني من أزمات قلبية بعد فوزه بشهر يونيو / حزيران ، وبقي مريضاً طوال فترة السباق . قال تيبير لآل وقتها «أنت بجانب يالتسين لا تبدو يابساً بالمرة يا عزيزي » .

أخبرت غور أنني أعتقد بأنه سينجح في خطابه ، وأن هذا هو الأمر الوحيد الذي عليه أن يسعى من أجله .

كان الرئيس يرجو أيضاً أن يوفق غور ليلة الأربعاء ، إذ سيوفر لنا ذلك برنامجاً هائلاً لتلك الأمسية . وأصر على أن بإمكان غور أن يفعل ما يشاء يوم الخميس ، حتى لو أراد أن يخطب مرة ثانية ، لكن المهم في الموضوع أن ينجح يوم الأربعاء كما نجحت أليزابيث دول في مؤتمر الجمهوريين .

ولكن هل يجب أن يتحدث تيبير أيضاً؟ لقد اقترحت أن تقوم السيدة غور بتقديم هيلاري ليلة الثلاثاء لكنها رفضت. وحاولت أن أفحص نائب الرئيس لأعرف ما إذا كان يزعجه ويقلقه أن يتحدث تيبير يوم الثلاثاء فتسوء العلاقات بينه وبين هيلاري. فقال بصرامة، كعضو في المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي يحاول أن يتجنب النفي إلى سيبيريا «ليس ثمة أي توتر بين تيبير وهيلاري».

عملياً، كانت هيلاري موافقة على أن يتحدث تيبير قبلها، خاصة أنني اقترحت أن تكون مهمته ليس تقديمها فقط، بل التحدث عن حملاتها طوال حياتها ضد الجنس والعنف في التلفزيون.

شجعت تيبير على إلقاء الخطاب، واضعاً أمامه الاستطلاعات التي أظهرت أنها الأكثر شعبية بين المجموعة الرباعية. فقد كانت نسب المؤيدين للرئيس إلى المعارضين ٦٠ ــ ٣٦، غور ٥٤ ــ ٣٤، هيلاري ٥١ ــ ٤٦، تيبير ٤٨ ــ ٢١. وهذه النسب عكست حقيقة أن الثلاثة الآخرين قد امتصوا كثيراً من نقمة الإعلام، بينما هي لم تمتصها. حين أدركت هيلاري هذا، لم يبق لديها اعتراض، ولما كانت تريد فعلاً المساعدة فقد وافقت.

اقترحت على غور أن يعيد ويعدد في خطابه، ما يعنيه برنامج قيم الرئيس للناس يوماً فيوم، ساعة فساعة، وأطلقت على الخطاب اسم «على مدار الساعة». يبدأ منذ أن يغسل أطفالك أسنانهم بماء نظيف، ويأكلون فاكهة نقية من مبيدات الحشرات. ويستمر خلال الذهاب إلى مدرسة لا يمر بطريقها على لوحات إعلان لبيع التبغ. والزوج يتلقى دورات على الكومبيوتر مجاناً، والفضل لكلينتون. والابن الأصغر قادر على الدخول إلى الجامعة بمنحة دراسية .. وهكذا. فأعجبته الفكرة، واستخدم قسماً كبيراً منها في خطابه.

كنت أصغي بتأثر حزين مثل كل المستمعين إلى غور وهو يصف أخته التي قضى عليها التدخين. كان رائعاً. وأقفل بخطابه نقطتين لصالحنا لتبقى نقطة واحدة.

حين كان غور يتحدث مساء الأربعاء، تفجرت الاتهامات التي أطلقتها مجلة ستار حول علاقتي بالعاهرة، فعرفت أنني انتهيت. وجلست في غرفتي بالفندق أرقب من خلال دموعي غور وهو يتحدث على شاشة التلفزيون، وكنت فخوراً بأنني ساهمت في الإعداد لهذا المؤتمر. فقد استعاد كلينتون كل ما كسبه الجمهوريون، والسباق أغلق أبوابه قبل شهرين محسوم النتائج.

تحدث الرئيس في الليلة التالية، وشاهدته على تلفزيون منزلي في كونيكتيكت، هارباً من شيكاغو تفصلني عن الصحافة وجماعتها خطوة واحدة. كان ذلك هو الخطاب الذي

كتبته أنا، ونقحه دون باير، وصوبه مارك بن من مراجعات الرئيس الحائرة بسبب انشغاله بأحداث رحلة القطار اليومية.

كانت فكرة الخطاب جريئة، ارتفع بها الرئيس عالياً بشكل رائع. منذ ثلاثة أشهر اقترحت على الرئيس أن يلقي خطاباً ثانياً أمام الحكومة الاتحادية، في المؤتمر بشيكاغو، واضعاً أمامه نتائج خطابه الأول الذي أعطاه سبع عشرة نقطة تقدم بها، راجياً أن يوافق على إعادة الكرة. كان مزاجه رائقاً، فرغب بالاطلاع على المسودة. وكنا أسبوعياً في اجتماعات رسم الاستراتيجية نستعرض أفكاراً جديدة ومسائل جديدة، ونضيف بعضها إلى خطب مايو ويونيو ويوليو /أيار وحزيران وتموز، ونترك الباقي لخطاب المؤتمر.

ثمة الكثير مما يجب عمله في الفترة الرئاسية الثانية. جمع التبرعات للأطفال والتأكد من أن كل أم تحصل على حصتها، برنامج القراءة والكتابة، القيود على مالكي الأسلحة، البرامج البيئية المعلن عنها في القطار والمؤكد عليها في هذا الخطاب، خطة لإيجاد أعمال لمستحقي المعونة الاجتماعية كأجرأ خطة تم وضعها خلال عشرات السنين، خلق مليون فرصة عمل للأمهات اللاتي يتلقين معونة اجتماعية، إمكانية التحكم ببرامج الأطفال التلفزيونية لإنقاص العنف. جعل المجرمين في سجون الحكومة يمضون ٨٥٪ من مدة محكوميتهم، جعل الملّاك يتفادون ضريبة رؤوس الأموال عند بيعهم منازلهم، تنظيف ثلث مقالب النفايات السامة والمخلفات الملوّثة للبيئة، كل هذا وغيره مما أعلن الرئيس أنه سيكون ضمن برنامج فترته الرئاسية الثانية، هذا البرنامج الذي أعددناه وصغناه معاً.

راقبت التلفزيون مبهوراً زائغ النظرات، وعلمت بعد ذلك بوقت طويل أن المؤتمر حقق أقصى آمالي، فلم نستعد النقاط العشر التي كسبها الجمهوريون منا في مؤتمرهم، بل أضفنا إليها أربع نقاط أخرى ليصبح مجموع الفرق ٢١ نقطة.

إنها حملة كلينتون الانتخابية، التي أنا جزء منها، هي التي تتقدم بإحدى وعشرين نقطة. لقد قضيت على مستقبلي، وربما على زواجي أيضاً.

الفصل التاسع عشر

السقوط

اجتمعت يوم الأربعاء، ثالث أيام المؤتمر، مع فريقي للإعلام، سكواير، ناب، شوين، شتاينبيرغ، فريدمان (كان بن مع الرئيس في القطار) لتخطيط ورسم دعاية المؤتمر القادم. وكنت قد اقترحت قبل ذلك أن نتذكر التهديدات التي وجهتها ميزانية الجمهوريين إلى رفاهنا الوطني. موريس بينزنير وبيل ناب صمما إعلاناً عن توقف القلب، يصور طاولة الرئيس في المكتب البيضوي، وبينما صور دول وغينغريتش تعلو على الشاشة من فوق الطاولة، يتحدث المذيع عن اقتراحهم تخفيض اعتمادات الشرطة الإضافية، والعناية الطبية، وبرامج مكافحة المخدرات في المدارس، والبيئة. ويبين الإعلان أن كلينتون قد نقض هذه التخفيضات الهائلة، ويحذر قائلاً «إذا تم انتخاب دول للرئاسة وغينغريتش يسيطر على الكونغرس فلن يبقى ثمة أحد يوقفهم».

لقد وظف الإعلان سيطرة غينغريتش على الكونغرس كسلاح ضد انتخاب دول، والأكثر من ذلك أنه ألقى كيمب خارج الصورة، واستبدله رمزياً بالرجل الذي قضينا سنة كاملة ونحن نعتبره زميلاً لدول في السباق، نيوت غينغريتش.

كنت أشتغل بالإعلان حين رن جهاز التنبيه إلى أن ثمة من يتصل بي على الهاتف. قرأت الرقم الذي يطلبني على شاشة الجهاز الصغيرة فاكتشفت أنه من ضواحي نيويورك، التي يبدأ رمز هواتفها بالأرقام ٩١٤، إلا أنني لم أتعرف على الرقم. وعاد جهاز التنبيه يرن مرة أخرى، لتحمل شاشته رسالة تقول «مجلة ستار تطلبك». أسبوعاً بطوله وأنا أتقي شر الاتصال بالصحافة، فماذا يريدون مني؟. بعدها بدقائق عاد جهاز التنبيه ليرن، ولتحمل شاشته رسالة تقول إن مجلة ستار تطلبك بشأن العاهرة فلانة التي اعتدت أن تقابلها في واشنطن.

وراح عقلي يلهث يائساً بحثاً عن الخيارات البديلة، لكنني لم أجد ضمن ما أنا فيه أي خيار آخر. فما بدأ على شاشة جهاز التنبيه مع كلينتون عام ١٩٩٤، ينتهي على الشاشة

نفسها الآن . لقد انتهى عملي مع كلينتون ، وانتهى معه مستقبلي ، ولكنني فكرت باحتمال أن ينتهي زواجي أيضاً .

ما إن عرفت أن مجلة ستار ونيويورك بوست على وشك نشر القصة ، حتى سارعت إلى إعلام إيلين . كانت تشتعل غضباً في خلوتها ، وتلتهب وفاء أمام الناس . هبّت للدفاع عني حين تعرضت للهجوم ، لكنها كانت حين تنفرد بي تعبر بصراحة عن الألم العميق الذي سببته لها .

هي لم تشأ لي منذ البداية أن أعمل لصالح كلينتون . وكانت تشعر أن حياتنا ستتمزق نهائياً ، وأن أضواء الاهتمام ستجعل من خلوتنا بأنفسنا مستحيلة . والآن ، وقد تجاهلتُ نصيحتها ، وتصرفت بغباء أحمق ، فقد انقلبت حياتها رأساً على عقب ، ولم يعد بوسعها الذهاب إلى مكان ، دون أن يميز الناس فيها المرأة التي خانها زوجها .

بعد انتهاء المؤتمر ليلة الأربعاء ، زارني إرسكين بولز منفرداً في غرفة فندقي بشيكاغو . قال إنه مرسل من قبل الرئيس ليسألني عن حقيقة الادعاءات الموجهة إلي فأجبته « نعم . ليس كلها ، الأساسي منها فقط » . ثم تحدثنا عما إذا كان يجب أن أستقيل .

كنت مصعوقاً ، متألماً ، مدمراً ، مدركاً لخطورة الوضع . لكنني مازلت آمل بشكل ما أن أستطيع البقاء . سألته « ولماذا أستقيل ؟ أنا لم أفعل أكثر مما اتهم هو به في المجلة نفسها منذ أربع سنوات ؟ » أجابني بولز « لأنك اعترفت بأنك فعلته » . ثم قفل راجعاً ليتحدث مع الرئيس .

عاد بولز بعد ثلاث ساعات مع جاك كوين مستشار البيت الأبيض ، وحليفي حتى الآن منذ كان رئيساً لطاقم موظفي غور . فأكدا رغبة الرئيس باستقالتي ، رغم أنهما قدما لي إذناً بالغياب من الرئيس كبديل ، فعرفت أن كل شيء قد انتهى .

حين عاد بولز وكوين صباح اليوم التالي ، قاتلتهما إيلين بضراوة كالنمرة . ولما قال إرسكين إن ليون بانيتا يريدني أن أنزل لغرفته في الفندق ، صاحت « لا .. لن يذهب » . في الحقيقة حاولتُ أن أتكلم فلم أستطع . فاقترح بولز أن يصعد بانيتا إلي ، لكن إيلين رفضت مرة أخرى . وألح إرسكين قائلاً « إنه رئيس الطاقم » فأجابته إيلين « لم يعد رئيساً لديك » قال بولز « أعتقد أن لديه رسالة يريد توصيلها إلى ديك » فقالت « قل له أن يرسلها بطريقته المعتادة ، بأن يسرّبها إلى وول ستريت جورنال » .

كان صوتي يخونني كلما حاولت أن أتحدث إلى زملائي المستشارين . وقبل أن أغادر شيكاغو ، كتبت رسالة لهم على الكمبيوتر بحيث يستطيعون قراءتها جميعاً . وقام توم فريدمان

وآخرون من أفراد طاقمي بحمايتي من الصحافة أثناء مغادرتي الفندق إلى المطار صباح يوم الخميس . ثم إلى البيت في كونيكتيكت ، حيث أحاطت بنا أكثر من مئة عدسة تصوير .

بقينا تحت الحصار طيلة اليوم ، واليوم الذي يليه . ووقف ثلاثة من رجال الشرطة ليحجزوا المحررين والمصورين في الباحة الصغيرة أمام المدخل . لكن بعضهم تسلل عبر الغابات من خلف المنزل وأخذ يلتقط الصور من النوافذ .

فاقترحت إيلين أن نوافق على تصويرهم لنا دون أسئلة ، لعل المحررين يمضون بعدها لقضاء عطلة يوم العمال . وخرجت وتحدثت إليهم ، وكانوا جميعاً يودون لو يعودوا إلى منازلهم ، فقبلوا شروطها . وانتشرت صورتنا معاً في كل أنحاء البلاد . وفي اللحظة الأخيرة ، جاءت كلبة الصيد ديزي ذات الثلاث سنوات لتشاركنا في الصورة . وتفرق الصحفيون بعدها ولم يعودوا .

لقد فسّر البعض ولاء إيلين تفسيراً أخرق بأنها « تقف إلى جانب رجلها » دون سؤال . لكن الواقع هو أنها إلى جانب غضبها كانت تشعر بالأسف علي ، وتخشى أن أفكر بالانتحار . وحين قامت بحمايتي ، فقد أشركتني في إحساسها بالألم ، لأننا لم نتفق بعد على مستقبلنا ، وكيف سيكون .

كان تصرفها نوعاً ما قاسياً مضحكاً فاحصاً ناقداً . هل تبقى معي ؟ هل كانت مغفلة ؟ هل هي خائفة من أن تتركني ؟. لقد ظلت وفية تعينني على الدهر عشرين عاماً ، وخاصة بعد الفضيحة ، وهاهي تكافأ الآن على ذلك بوحشية على يد حفنة من الفضوليين الذين لم يعرفوا أحداً منا من قبل .

وقررنا كلانا أن نحمي ما تبقى لنا من خصوصية ، مدركين مدى صعوبة مواجهة مثل هذه الخيانة الزوجية الفادحة . فأنا أستطيع أن أذكر فقط على سبيل الإيضاح ما كنت أعانيه من تشوش واضطرابات عصبية ، وما قطعته على نفسي من وعود جوفاء فارغة ، بعد وقبل ما فعلت ، ثم فشلت في تنفيذها . لكنني أعرف أنني قد تغيرت .

أنا أتعلم الآن كيف أسيطر على الدوافع التي لا تقهر في داخلي . وألتفت لألقي نظرة على الشخص الذي كنته ، والشخص الذي صرت إليه ، يوم ٢٨ أغسطس / آب ١٩٩٦ . وأرجو أن أجد القوة كيلا أفقد مقاومتي وقدرتي على الاحتمال مرة أخرى . كنت أناضل لجبر ما انكسر في داخلي .

سألني أحد المحررين ما إذا كنت قد شعرت بأنني خنت الرئيس ، فقلت « لا . ما فعلته لم يؤثر عليه ، وهو يواصل تقدمه بشكل جيد . وأنا لم أحنث بقسم العمل معه ، لكنني بالتأكيد حنثت بقسم الزوجية . هذه الخيانة هي التي أواجهها الآن » .

بعد ظهر يوم الخميس ، اتصل بي الرئيس ونائب الرئيس والسيدة الأولى في نيويورك ، بعد عودتنا إلى كونيكتيكت . جاءت مخابرة الرئيس قبل إلقائه الخطاب بعدة ساعات . كلهم كانوا بمنتهى الكرم ، إلا أن هيلاري كانت أكثرهم تفهماً وحناناً . وشعرت بأنها صادقة في قلقها علي .

ومضت أسابيع وأنا أراقب الحملة الانتخابية الرئاسية ، وأقرأ الصحف يومياً . كان بانيتا قد أصدر تعليماته لطاقم البيت الأبيض والعاملين فيه بألا يتصلوا بي . الشخص الوحيد الذي كان بإمكاني الاتصال به هو بيتر نايت مدير الحملة .

أهم شيء أسهمت في تحقيقه طوال حياتي ، هو هذا الانتصار في عام ١٩٩٦ ، الذي كنت أبذل المستحيل من أجله حين أشعر أنه في خطر . فانتهزت فرصة هذه القناة المفتوحة أمامي مع بيتر نايت لتمرير بعض الإرشادات والملاحظات لزملائي السابقين ، شرحت لهم إحساسي بالضيق وأنا أرى الرئيس يقضي هذا الوقت الطويل في حملته ، ولا يعطي وقتاً للتحرك العملي على صعيد القيم التي وصل بفضلها إلى القمة أصلاً . كانت هذه النصيحة مماثلة لأخرى قدمتها للرئيس في عام ١٩٩٤ بعد عودته من الشرق الأوسط .

قلت لبيتر نايت في أول مخابرة لي معه بتاريخ ٢٠ سبتمبر / أيلول ١٩٩٦ « السبب في تقدمنا هو أننا جعلنا من العمل الفعلي أكثر إثارة من الحملة . ففي الحملات الانتخابية ، ينجذب الجمهوريون وكثير من المستقلين بشكل طبيعي نحو دول ، وكذلك الأمر في الحزب الآخر . ولكن إن انجذب انتباههم إلى ما نفعله في البيت الأبيض ، فسيميلون إلى البقاء مع مرشحنا ، ليس لأنه ديموقراطي ، بل لأننا ثبتنا في أذهانهم كفاءته الرئاسية » .

عدت إلى قائمة من الأفكار كانت تنام على الرف بعد مغادرتي الحملة ، واقترحت أسماء من يستطيعون تنفيذها .

وتابع الرئيس إصدار مبادراته : تكريس ريدروك نصباً تذكارياً وطنياً ، فحص عدم تعاطي المخدرات لمنح إجازات السواقة ، رعاية الأطفال الإجبارية . قال بيل ناب فيما بعد « الحمد لله أنك تركت الخزان مملوءاً » .

أنا واثق من أن زملائي السابقين شعروا بالانقباض ليلة الانتخاب وهم يرون معدلات الرئيس تزحف في خانة الآحاد . كان سبب انخفاض هامش تقدمه وفوزه يعود بشكل كبير إلى ميل من نسميهم « المترددين » في سجلات استطلاعاتنا إلى الالتحاق بدول في اللحظة الأخيرة .

تلك حقيقة مخيفة لا سبيل إلى تفاديها أو إنكارها في المجال السياسي. المترددون يصوّتون دائماً ضد أصحاب المناصب. إنهم مترددون لأنهم لم يقرروا بعد أي واحد من أصحاب المناصب يريدونه أن يعود لمنصبه. وفي أغلب الحالات يصوّتون في النتيجة ضد الأقوى.

حين دخل « بيروت » السباق، رجوت أن يستطيع امتصاص هؤلاء المترددين، ويبعدهم عن دول. وحصل فعلاً في عام ١٩٩٢ على أربعة أخماسهم، وظننت أنه سيفعلها مرة أخرى في عام ١٩٩٦. ولكن حين استبعد جماعة دول « بيروت » من الحوار، خرج من السباق، ولم يعد بوسعه الحفاظ على هذه الأصوات بعيداً عن دول، شأنه في ذلك شأن أي مرشح آخر.

كان القرار الذي أفقد كلينتون الهامش المطلوب للحصول على مجلس نيابي ومجلس شيوخ ديموقراطي، هو القبول بقرار اللجنة الرئاسية، والانغماس بحوار ثنائي مع دول. ولو أن كلينتون أصر على الحوار الثلاثي لما كان أمام دول إلا أن يوافق. إذ لا أحد يعتقد أن كلينتون يخاف الحوار مع دول منفرداً، وسيؤيده الجميع في توسيع العملية بحيث تضم كل المرشحين الذين حصلوا على أرصدة فيدرالية كافية من الأصوات.

يقول شريكي السابق ديك دريزنر، إن أهم سؤال يمكن أن يطرح في الحملات الانتخابية هو « ما الشيء المميز المختلف الذي سنفعله في الأسبوعين الأخيرين؟ » فخلال هذه الفترة سيستحوذ الملل على أولئك الذين تابعوا كل مراحل السباق، ما لم تغير من حملتك الانتخابية. أما الذين بدأوا بمتابعة مجريات الانتخابات فيحتاجون إلى ما يرفع سرعتهم. وفي رأيي، فإن على كلينتون أن يقوم ببعض الخطوات التنفيذية الجريئة والاقتراحات خلال الأربعة عشر يوماً الأخيرة، لجذب انتباه الناس، وليحافظ على سيالة الإثارة متدفقة في نهر منصبه الرسمي.

يمكنني تقديم أربعة اقتراحات على شكل أفكار:

- منح الأقارب القائمين على رعاية المسنين تخفيضاً ضريبياً تسهيلاً لمهمتهم.
- الإعلان عن برنامج جديد لإصدار طوابع بريدية طوعية بقيمة ٣٣ سنتاً، يرصد ريعها لأحد خمسة أو ستة مجالات خيرية يختارها الشاري، كسرطان الرئة، أو الإيدز، أو المشردين، وغيرها. ويمكن تصميم طابع احتفالي بالمناسبات، واستعماله في أكثر من مجال كتبرعات عيد الميلاد ورأس السنة
- التحرك في مجال « لجان المراقبة العائلية »، والطلب من محطات التلفزيون استبعاد العنف الوحشي من برامجها من أجل الأطفال، بما في ذلك أفلام « حراس المورفين الخارقون ».

- المطالبة بإضافة قفل أمان لجميع أنواع الأسلحة التي تباع في أمريكا، لتخفيف الحوادث التي تقع على الأطفال.
- فرض تعويضات لضحايا المجرمين الذين يتم إطلاق سراحهم مشروطاً بكفالة.

لكن هذه الاقتراحات التي قدمتها لبيتر نايت، إن كانت تفيد في وقف تدهور أصوات الرئيس، فهي لا تفيد كثيراً في دفع المترددين من الناخبين باتجاه «بيروت» بدلاً من دول.

فلكي نصرف هؤلاء عن التصويت لدول، على الحملة الكلينتونية أن تعدل إعلاناتها من المغالاة والتكرار في المقارنة بين كلينتون ودول بمسائل الرعاية الصحية والسياسة الضريبية، إلى إعلانات تعقد المقارنة بينهما في مسائل جديدة مثل حضانة الطفل، والتخفيف من أعداد التلاميذ في الصفوف، والتركيز على اقتراح دول باستثناء ملوثي البيئة من دفع ما يترتب عليهم لتنظيف المخلفات السامة، إذا كانت مواقعها تعود لما قبل عام ١٩٨٠.

هذه المقارنات سوف تكشف عن سلبيات دول إلى حد ينصرف معه المترددون من الناخبين عن التصويت لصالحه.

حين كنت ما زلت في الحملة، أراد الرئيس إعداد إعلانات يتحدث فيها الناس العاديون الذين ساعدهم عن جهوده، ويدافعون عنه، وكنت دائم الحذر من مثل هذه الإعلانات. فالأمريكيون لا يسلّمون بما يقوله أي كان في مجال السياسة، حتى لو كان ما يقال يدور على أشخاص محبوبين معروفين. في عام ١٩٨٦ خسر الجمهوريون مجلس الشيوخ لأنهم، من وجهة نظري، أصروا على أن يقوم كل مرشح للمجلس ببث إعلان، يعلن الرئيس ريغان فيه عن تسميته كمرشح، ولم يفلح ذلك أبداً. وأعتقد أن كلينتون يحفر لنفسه خندقاً بإصراره على إطلاق النار بذخيرة خلبية فارغة في الأسابيع الأخيرة.

أخيراً، أنا أعتقد أن الحملة الكلينتونية قد خرجت عن منهجها الأساسي، بتصديها للرد على هجمات المعارضة عبر الإعلام المأجور، ثم تصديها لها مرة أخرى بهجمات معاكسة. حين تتفجر الخلافات الأندونيسية، فعلى إعلام كلينتون المأجور أن يخلق رداً إعلانياً أكثر فعالية. أما أنا، فكنت أختار إعلاناً يركز على نفاق الجمهوريين، ويصور بشكل هزلي ساخر رحلة إلى البلدان التي يحصل دول منها على الأموال، رغم أنني بعيداً عن الاستطلاعات لا أستطيع إعطاء حكم دقيق عن مدى فعالية مثل هذا الإعلان. لقد قررت الحملة أن تستخدم سبباً عاماً في الهجوم على دول بخصوص التمويل المالي لحملته الانتخابية، لكنها غفلت عن الهجوم المنظم العنيف الذي يتعرض له كلينتون بالمقابل للسبب نفسه.

وأعتقد أن التركيز على التباين الحقيقي في مواقف دول وكلينتون من مسألة الإصلاح المالي هو الحل الأكثر ضرورة .

هذه الأفكار تصبح أكثر وضوحاً حين تستقر الأمور وتنتهي . وأرجو من أولئك الذين يتابعون تفاصيل الحملات الانتخابية يوماً فيوم ، ويرسمون ما يفعلونه بها ، أن يغفروا لي هذه التوجيهات التنظيرية .

لقد كان الانتخاب في سياسة الولايات المتحدة عبارة عن بركة ماء كبيرة ، يشير إلى بزوغ إجماع وطني ، وإلى إعادة تعريف السلطة الرئاسية ، وإلى دور جديد للاستطلاع الإحصائي في الديموقراطية الأمريكية ، هذا الدور الذي يدركه تماماً الجانب الفائز ، ولا يقدره المهزوم حق قدره . هذه المسائل ، بجيدها ورديئها ، التي لامستها في هذا الموجز ، سوف تؤثر كثيراً على السلوك السياسي الأمريكي في القرن الحادي والعشرين .

الاستطلاع الإحصائي مقابل القيادة :

إن التأكيد على دور الاستطلاعات ، في هذا الكتاب وفي الانتخابات الحديثة ، يثير بشكل طبيعي سؤالاً عما إذا كان الاستطلاع قد أصبح من الأساسيات الهامة للقيادة . الناخبون لا يستسيغون أبداً فكرة أن يسهب المرشحون في الحديث عما قال لهم القائمون على الاستطلاع أنه يهمهم ، فهذا يحمل نكهة الانتهازية . إلا أن كلينتون استخدم الاستطلاع لغاية مختلفة ، استخدمه كأداة للحكم ، وكتقنية لتسهيل تطور الديموقراطية نحو الأحسن . الاستطلاع بالنسبة إليه لم يكن اختباراً مرحلياً لمعرفة الخيارات المفضلة ، بل طريقة لإقامة حوار مكثف مع العامة . في الجانب القيادي ، لم يستخدم الاستطلاعات أبداً لإقرار موقف ما بشأن مسألة ما ، بل استخدمها ليختار أي المواقف العديدة المطروحة أمامه هو الأكثر شعبية . فحين تقول الاستطلاعات عن أحد مواقفه إنه ليس مقبولاً شعبياً ، كان يطلب عادة إعداد دراسة حول الطريقة التي يقنع بها الناس بوجهة نظره . وثمة أمثلة كثيرة توضح هذا :

١ ــ قرر كلينتون أن يعارض تعديل الدستور ليسمح بالصلاة المدرسية ، لكن الاستطلاعات أظهرت أن العامة يساندون التعديل . فهل وصل إلى نهاية مسدودة ؟ كلا . فقد حددت استطلاعاتنا النشاطات الدينية والروحية والأخلاقية التي يريد الناس توفرها في المدارس ، تلك النشاطات التي تندرج تحت عنوان « الصلاة المدرسية » . فوجدنا أن الصلاة بحد ذاتها لا تحتل مرتبة عالية في قائمة النشاطات ، والناس في الحقيقة يريدون من المدارس أن تعلّم القيم والأخلاق . فشرح كلينتون متسلحاً بهذه المعلومات أن التعديل الدستوري الأول لم يحدد تعليم أي من هذه

المواضيع ، وليس ثمة مبرر بناء على هذا للترقيع ، وتلاشى الطلب على التعديل من أجل الصلاة .

٢ ـــ طالب الجناح اليميني بوضع حد للإجراءات المشددة . وأظهرت الاستطلاعات ، منذ أحداث كاليفورنيا ، أن الناخبين يدعمون هذا الطلب ، ومع ذلك قرر الرئيس المقاومة . وكان ثمة أمل من مقاومته هذه ، فقد دلت الإحصاءات أيضاً على أن ما يعارضه الناخبون هو الامتيازات ، والتسريح المبني على العرق أو الجنس ، وإعطاء الأفضلية لغير المؤهلين . فاقترح كلينتون إصلاح الإجراءات المشددة بدلاً من إلغائها بشكل تتم فيه تغطية جميع الاحتجاجات والمواضيع المعترض عليها . هذا الحزم في حل المشكلات الثلاث التي أثارت توتر الناخبين ، عرقل إلى حد كبير هذا التحرك على الصعيد الفيدرالي . لم تحاول كاليفورنيا إصلاح برنامجها ، فانتهى أمره إلى الفشل .

٣ ـــ أدرك كلينتون أن عليه إرسال قوات إلى البوسنة ، إذا لم يتحقق السلام هناك . وأظهرت الاستطلاعات معارضة شعبية كثيفة لهذا العمل . إلا أن المزيد من البحث بيّن أن بإمكانه أن يفوز بدعم شعبي كبير إذا استطاع التفريق بين حفظ السلام والحرب . ونجح توضيحه لمقتضيات حفظ السلام في ضمان دعم العامة . فبدون هذا البحث ما كان بوسع أي رئيس أن يحاول الإفلات من المسألة .

نظرية المثلثات : انتهازية أم ارتقاء :

نظرية المثلثات من أكثر النظريات التي أسيء فهمها . إنها ليست مجرد تفريق وتقسيم بين اليسار واليمين . فقد كان هدف كلينتون أن يدمج بين أحسن أفكار كل منهما ، فأخذ « إتاحة الفرص » من اليسار ، و « المسؤولية المشتركة من اليمين » كما كان هدفه استبعاد أسوأ ما فيهما ، كالاتجاه المحافظ نحو تجاهل مشاكل الامتياز الأقل ، والاتجاه الليبرالي نحو السذاجة والغفلة . هذا « الطريق الثالث » يعلو فوق الطريقين الآخرين ليشكل مثلثاً .

انطلاقاً من نظرية المثلثات ، نبذ الرئيس فكرة الـ « هم » التي تفترض أن تكون البيروقراطية الفيدرالية وسيلة للتقدم الاجتماعي ، كما نبذ فكرة الـ « أنا » التي تفترض بأن على الحكومة أن تنسحب وتترك للأفراد أن يعيلوا أنفسهم . وركز بدلاً منهما على الـ « نحن » التي تفترض أن بإمكان القطاعات المحلية والطوعية أن تصبح وسيلة للتحسن الاجتماعي .

نظرية المثلثات عملية ديناميكية . ليس ثمة شكل ثلاثي يمكن أن يدوم في بلد تقوم أساساً على الثنائية الحزبية ، إلا أن السياسيين كيّفوه وتكيّفوا معه . لقد أشارت الأصوات في

عام ١٩٩٦ إلى أن من تبنى نظرية المثلثات فاز ، وأن من لم يتبناها خسر ، وكان كلينتون من الفائزين . ولقد اتسع هامش سيطرة الجمهوريين على مجلس الشيوخ لأنهم رغبوا بقيادة السناتور ترينت لوت ، في تسوية وسط مع البيت الأبيض حول الرعاية الصحية والمعونة الاجتماعية والحد الأدنى من الأجور . أما ديموقراطيو المجلس الذين قاوموا نظرية المثلثات ورفضوها ، فقد خسروا فرصتهم في الوصول إلى السلطة على ظهر كلينتون . وأما في المجلس النيابي ، فقد دفع الجمهوريون من أعضائه ثمن عنادهم وتصلبهم الحزبي ، حين رأوا فرق تقدمهم في السلطة يتقلص . ولو نحت انتخابات المستقبل نحو انتخابات عام ١٩٩٦ ، لتبنى الحزب الديموقرطي على الأرجح موقف كلينتون بالتدريج ، كما يفعل الآن بدلالة المؤشرات . وسيعود المثلث مرة أخرى ليصبح خطاً مستقيماً بين الحزبين .

سلطة الرئاسة :

صار من الواضح ، في عملي مع الرئيس كلينتون ، أن الوسائط الأربع الأولية للسلطة الرئاسية قد ضعفت . أولاً ، سلطة أي رئيس على إنفاق الأموال حددها التقسيم الحكومي ، والمعارضة الشعبية للضرائب ، والمطالبة بإنهاء العجز . ثانياً ، بالرغم من قدرة الرئيس وصلاحياته على إصدار التعليمات التنظيمية متجاوزاً الإجراءات الرسمية التي ينص عليها العقد مع أمريكا ، إلا أن هذه القدرة ضاقت عما كانت عليه ، حين كشف فيليب هوارد بكتابه « موت الحس العام » عن سخافة التعليمات واللوائح التنظيمية . ثالثاً ، دور الرئيس التنفيذي كرئيس قائد قد تناقص . فالأمريكيون قد يتسامحون بعمل عسكري إذا كانت قضاياه محدودة العدد . لكن من المؤكد أنهم لن يقبلوا مرة أخرى الدخول في حرب ، معدل الضحايا فيها يماثل أو يقرب من ضحايا حرب كوريا أو الفييتنام .

أخيراً ، تآكلت سلطة الرئيس ــ وسلطة الكونغرس ــ على الاقتصاد ، بسبب الإجماع على أن مجلس الاحتياطي الفيدرالي هو أفضل مسؤول مؤهل لضبط متغيرات التضخم ، ومعدلات الفائدة ، والنمو الاقتصادي ، والاستثمار ، والتوظيف . هذا التفويض ــ في أكثر المواضيع السياسية سخونة ــ الممنوح لشريحة من الخبراء ، يعني أن الولايات المتحدة في طريقها إلى أن تصبح يابانية بإجماعها على وضع القرار السياسي بين يدي الخبراء .

إلا أن ثمة أربعة مجالات أخرى اتسعت فيها السلطة الرئاسية وتنامت ، أو لنقل سوف تتسع وتتنامى ، بشكل بارز .

أولاً ، الانفجار الإعلامي في تغطية الأخبار وسّع وضخّم منابر الوعظ والإرشاد التي أقامها تيودور روزفلت ، وأعطى لرئيس البلاد طرقاً فريدة للفت نظر العامة إلى المسائل التي

تهمه . فصار بإمكان القيادة الرئاسية المدعومة أن تقود كل عناصر المجتمع لتعمل معاًعلى إيجاد الحلول ، بعيداً عن التدخل الحكومي .

والخلاف حول الرعاية الصحية مثال يوضح هذه النقطة . فقد سقطت كل الاقتراحات العامة التي قدمها الرئيس ، إلا أن الاهتمام الوطني بهذه المقترحات على مدى سنتين ، أوجد مناخاً استطاعت الشركات بفضله أن تكبح جماح كلف الرعاية الصحية بالتعاون مع مستخدميها . لقد كان يمكن للقوانين التي أصدرها الرئيس ، بهدف ثني المراهقين وإبعادهم عن التدخين ، ألا تصمد أمام القضاء ، لكن الاهتمام الذي أثاره حول هذه المسألة سوف يسهم في الحد من تدخين المراهقين . وهذا يشبه ما حصل حين قالت نانسي ريغان « لا للمخدرات » في إحدى الحملات الانتخابية ، فأسهمت في انخفاض تعاطيها طوال عشر سنوات في الثمانينيات .

ثانياً ، سيكتشف الرئيس مع الكونغرس ، وسيلة جديدة تحقق الهدف من التخفيض الضريبي . إنه الوجه الآخر المقابل للسلطة التي تطالب تقليدياً بحقها في إنفاق أكبر . هذا المصدر الذي تستمد السلطة منه قوتها سيتناقص مع انكماش حجم الحكومة ، لكن التخفيضات والإعفاءات الضريبية قد تستخدم لتحقيق النتائج ذاتها . فبدلاً من توسيع الإجراءات البيروقراطية في إدارة المنح الدراسية الجامعية ، مثلاً ، فإن منح التخفيض أو الإعفاء الضريبي للطلاب أو لعائلاتهم يؤدي الغرض ذاته . والتخفيضات الضريبية العامة والشاملة التي يفضلها الجمهوريون تضعف القطاع العام ، أما التخفيضات المدروسة ذات الهدف فتدعمه وتقويه .

ثالثاً ، لقد تنامى الاحترام الدولي للرئيس بشكل هائل منذ نهاية الحرب الباردة . فالجمهوريات الكاثوليكية اعتادت لفترة طويلة أن يكون لها قائدان . الرئيس الذي تختاره الأمة بالانتخاب ، والبابا الذي يختاره مجلس الكاردينالات في روما . وبهذا المعنى ، يصبح رئيس الولايات المتحدة « بابا » للأمور الدنيوية العالمية ، يستطيع أن يطال رؤوس القيادات المتحاربة ، وأن يخاطب الشعوب مباشرة ويناشدها السلام والتعايش بوئام . وقد فعل الرئيس كلينتون ذلك في البوسنة ، وبشكل مميز يثير الإعجاب ، في إيرلندا الشمالية التي يحدق بها الجيش الجمهوري الإيرلندي والإرهابيون البروتستانت . كما تحدث مباشرة إلى الناخبين في روسيا ، وأبلغهم رسالة العالم الذي سيقف خلفهم لو أنهم رفضوا الشيوعية والفاشية وأخذوا بالإصلاح الديموقراطي . فحيثما لا تستطيع فيالق الرئيس العسكرية أن تصل ، يستطيع صوته أن يصل ويؤثر كثيراً .

أخيراً، ثمة مجال جديد للقيادة الرئاسية انبثق من تأييد ودعم الرئيس كلينتون الصريح للإصلاحات الاجتماعية التي أثرت بشكل مباشر على حياة الأمريكيين. فبمطالبته وسعيه إلى إجازة المغادرة من العمل لأسباب عائلية، واستبدال أجور العمل الإضافي النقدية بساعات راحة، والمعايير التعليمية، وضبط وتنظيم الأسلحة، والأنظمة المدرسية والطلابية، وتخفيف العنف في البرامج التلفزيونية، ومراقبة إعلانات التبغ، وسّع كلينتون مجال اهتمامات الرئيس في منصبه.

الإصلاح الشامل:

ستكون هذه السنوات سنوات فاصلة، سنوات ثأر للإصلاحات الشاملة. وكما أوضحت سابقاً بإيجاز، فإنني أعتقد أن الجمهوريين سيحاولون أن يشملوا الجميع بالإصلاحات عدا الفقراء. يريدون تخفيض قسائم المواد الغذائية، وحرمان العاملين الفقراء من الإعفاءات الضريبية. وتحاول قياداتهم الآن تقديم حسابات ادخار للطبابة والعلاج، ليخرجوا الطبقة المتوسطة من برنامج العناية الطبية، ويتركوا الفقراء والمسنين والمرضى تحت رحمة نظام تقليدي مجاني، خدماته وأجوره تافهة. ويريد حزبهم استخدام مخططات التقاعد الخاصة لإغراء أبناء الطبقة العليا والمتوسطة بترك نظام الضمان الاجتماعي.

لماذا؟ لتجريد هذه البرامج من حماتها السياسيين، ناخبي الطبقة المتوسطة، وتبقى دون مؤيدين سوى الناخبين من الطبقة الفقيرة. إن تخفيض مكاسب الضمان الاجتماعي، والعناية الطبية، والمساعدات الطلابية، يصبح ممكناً في حالة موافقة الفقراء عليه. ولكن هل هذه الطريقة هي الجواب الصحيح في مجتمع متحضر؟ هناك طرق عديدة أخرى لمعالجة هذه المشكلة الخطيرة. الخطوة الأولى: هي أن ثمة — في مجال العناية الطبية — رسوماً يجب أن تستوفى ضمن خطة الرئيس ليصبح بالإمكان دفع مستحقات مقدمي هذه الخدمة. والولايات التي خفضت العناية الطبية، خفضت زيادة الإنفاق عليها بحدود ٤٪ وسطياً، بعد أن ضاعفتها على مدى سنوات عديدة. ومن هنا فإن الخطوة الثانية يجب أن تكون تشجيع المسنين على الدخول طوعاً في العناية الطبية المخفضة، بتقديم الحوافز لهم، مثل الوصفات والأدوية المجانية. الخطوة الثالثة، تخفيض كلفة الرعاية الصحية في جميع قطاعات المجتمع، بالاستمرار في حملات منع التدخين. هذه الخطوات الثلاث مجتمعة ستقلل على الأرجح من معدل ارتفاع نفقات الرعاية الصحية. بعدها لا تبقى ثمة حاجة لحسابات الادخار.

بوجود الضمان الاجتماعي، كما أحسن وصفه بيتر بيترسون في كتابه «هل ستنمو أمريكا قبل أن تدركها الشيخوخة؟» ستزيد صعوبة الأجوبة والحلول، إنما سيبقى لدينا وقت.

لو أنني بقيت جالساً على كتف الرئيس، لهمست في أذنه قائلاً: هناك ثلاثة مؤشرات للإفلاس الوشيك. الأول، تنسيب الفوائد المكتسبة إلى الزيادات في نفقات المعيشة ــ دعم إصلاح معايير التضخم لتخفيض الزيادة في هذه النفقات. الثاني، ارتفاع متوسط الأعمار ــ اعتبار سن التقاعد متناسباً مع طول العمر المتوقع. الرعاية الطبية ليست وسيلة لإطالة العمر، بل لإطالة الفترة التي نتمتع فيها باللياقة والطاقة الحيوية. لكل إنسان الحق في أن يرتاح بنهاية حياته، ولكن متى يجب أن تبدأ هذه الراحة؟ جداول التأمين تخبرنا أن بإمكان الشخص العادي أن يتطلع إلى سنوات عمر عديدة بعد بلوغ سن التقاعد في الضمان الاجتماعي. ربط سن التقاعد مع طول العمر المتوقع أمر يجدر أخذه بعين الاعتبار.

الثالث، تدني أرباح الاستثمارات المحدد عند اتحادات الضمان الاجتماعي. اتساع مجال الاستثمار خارج الحدود الحكومية. معارضة الناخبين استثمار أموال الضمان الاجتماعي في مضاربات البورصة، لكنني أعتقد بأنهم لن يمانعوا بالموافقة ضمن حدود، إذا توفرت إجراءات وقائية، كما في الكثير من أموال التقاعد في القطاعات الخاصة.

نشوء الإجماع الوطني:

يبدو لي أن نجاح الرئيس في خطه الثالث، قد عكس تنامياً في الإجماع الوطني، يمكن معه حل النزاع بين مؤيدي الحكومة الكبيرة ومعارضيهم. وسيكون هذا بالتأكيد مهمة الفترة الرئاسية الثانية لكلينتون، ومهمة زعامة الأغلبية في مجلس الشيوخ برئاسة لوت، في تقويض جدران برلين بين الحزبين الذي سيطر على نزاعاتنا الداخلية. سيحاولان الوقوف على أرضية عامة غير حزبية، توضحت بشكل جلي في الانتخابات الأخيرة الماضية. لقد بدأت حرب المئة سنة حول دور الحكومة في عام ١٩٠١، مع فترة رئاسة ثيودور روزفلت، واحتدمت بظهور الصفقة الجديدة، والصفقة العادلة، والحدود الجديدة، والمجتمع العظيم، والثورة الريغانية، والعقد مع أمريكا. ومع نهاية هذا القرن، نشأ إجماع على أن دور الحكومة هو إتاحة الفرص لأولئك الراغبين في المشاركة بحمل المسؤولية، وخاصة عن طريق الحوافز الضريبية بدلاً من البرامج البيروقراطية. ستصغر الحكومة وتنكمش، لكنها ستبقى الحافز الأساسي والمحرك الأهم لجهود الفرد والجماعة.

الفصل العشرون

كلمة أخيرة

كانت الأسابيع الأخيرة من الحملة الانتخابية أقسى فترة مرت في حياتي. ذهبت إلى منزلي لأضمد جراحات زواجي، ولأشغل نفسي ببعض الأبحاث الروحية، ولأواجه نفسي وما قادني إلى هذه الأزمة الأخلاقية. قضيت الوقت في تأمل بعض أفكار الحملة، لكنني كنت منقبضاً كئيباً. إذ لم أكن قد أدركت بعد ما الذي يعطي الحياة معنى، بعد زوال الغرور والسلطة والرضى عن الذات. بتاريخ ٧ أوكتوبر / تشرين الأول، كتبت رسالة للرئيس، قلت فيها أنني ألتمس مخابرته، وأود التحدث معه كصديق نظراً لحالتي السيئة.

فاتصل بي في اليوم التالي، واستمرت محادثتنا نصف ساعة. كان قد عاد من جولة في وقت متأخر من الليل، وطلبني في شقتي بنيويورك فور استيقاظه في العاشرة والنصف صباحاً، فعرفت أنه ما زال في سريره. قال «أنا لست غاضباً منك، فأنت لم تفعل ما يغضبني، ما أشعر به هو الامتنان والعطف، وليس الغضب». وكان كريماً.

حكيت له عن آلامي، وعن كفاحي اليومي لتأجيلها إلى الغد، وسألني عن إيلين، فقلت له إنني آمل لزواجي أن يبقى ويعيش، لكنني لست بل لا أستطيع أن أكون واثقاً. فأعرب عن أمله بأن نتمكن من تجاوز المحنة، قال «علينا جميعاً أن نقاوم الانهيار في حياتنا الشخصية ضمن جو العمل الذي نمارسه، فهو عمل تأكلنا فيه الوحدة، ننام لياليتا في الفنادق، وإذا لم نبذل جهداً مضاعفاً في الحفاظ على حياتنا الخاصة، انهار سقفها علينا».

هنأته على حملته الانتخابية فقال «لقد اتبعنا مخططك أنت، ونجحنا في ذلك» ثم انتقدت أداءه في المناظرة الأولى مع دول قلت «لقد سمعتك تتحدث عن عام ١٩٩٥، وسمعته يتحدث عن عام ١٩٩٤ وعام ١٩٩٥ لكنني لم أسمعكما تتحدثان عن المستقبل، رغم أنه هو ما يريد الناخبون أن يسمعوه. قال «أوافقك. هل رأيت كيف افتتحتُ المناظرة بالحديث عن قضايا القيم، وعن المستقبل، لكنني خرجت بعد ذلك عن الخط؟» أجبته

« لقد دفعك دول إلى الخروج بالهجوم على برامجك وميزانيتك ، وأوقعك في فخ الدفاع نقطة نقطة ، فلم تستطع أن تفلت لتتحدث عن المستقبل . أعتقد أنك لم تكن بحاجة إلى دفاع بالحجم الذي قمت به ، لكنك ابتلعت الطعم » . قال « صحيح . لكنني انتبهت لذلك في النصف الأخير من الحوار ، وعدت إلى الحديث عن المستقبل ثانية » فوافقته .

قال مسترسلاً « كان جوابي عن التعليم في محله » فقلت ناصحاً « ذلك لأن التعليم الآن هو القضية الأولى عند أمريكا ، التي احتلت محل الجريمة والميزانية ، لأنك كنت تتحدث عن المستقبل ، عليك أن تكثر من هذا في المناظرات التالية » .

ثم عدنا إلى أزمتي الخاصة . واعتذرت مرة أخرى ، وذكرت أنني لم أترك العاهرة تسمع صوته أكثر من دقيقة واحدة ، وهو يتحدث على الهاتف معي ، فقال « أنا لم يخطر لي أنك ستسمح لها باستراق السمع لثقتي بك » .

ثم تحدثنا عن الكتاب . قلت « أعتقد أنك ستجده شيقاً » وذكرت له طرفاً من ملاحظاتي ، بما في ذلك حبه للحملات الانتخابية ، لحاجته إلى ما يشجع الدعم الجماهيري . قلت « ولهذا ، عليك الآن أن تتوقف عن الخروج إلى الطرقات وأن تمارس سلطاتك التنفيذية كرئيس » .

قال « وصلتني رسالتك عن طريق بيتر ، ونحن ننفذها » قلت له « أنا متأثر جداً لأنك لست مجنوناً . فهذا يعني الكثير لدي . وأعتقد أن علاقتنا أخذت بعداً جديداً ، وأود من أعماقي أنها لو تستمر » قال « ستستمر ، وسأترك لك مدخلاً تصل منه إلي دائماً . عليك أن تقرأ بعض كتابات القديس باتريك ، القديس الإيرلندي ، إنه يكتب عن مسيحية من نوع مختلف ، أشبه ما تكون بما وضعه عيسى العطوف » . قلت بلا مبالاة جريئة « أليست هي كتابات القديس بولص والقديس أوغسطين ، بعدم تسامحها الشديد المتطرف ؟ » قال « لا ، على العكس ، إنها عن التسامح والمغفرة » .

كلمة شكر

لقد كتبت هذا الكتاب في وقت صعب . وكان من المستحيل أن أفعل دون مؤازرة زوجتي إيلين . مؤازرة منحتها لي في أشد الظروف قسوة .

أبي ، إيوجين موريس ، الذي شجعني .. وما زال .

الخواص من أصدقائي ، بوب شتاينغات وفرانك باراف ودينيس ونانسي بيلز باجيت وآندي برودي وبول فاينشتاين ، الذين ساعدوني على إنهائه .

وأود أن أشكر هارولد إيفانز وبيتر ماتسون لثقتهما بي وبما أقول . كان هارولد مديراً رائعاً للحملة .

جوناثان كارب على مساهمته في التحرير ، وماري ماكغان وديبي تشانغ على مساهمتهما أيضاً ، ومثلهما أبيغيل وينوغراد وكاثي روزنبلوم ودينيس آمبروز وآمي إيدلمان على صبرهم الطويل . كما أشكر أيضاً واندا تشابل وإيفان هيلد من راندوم هاوس . وجيسون إيبشتاين على ما بذله من أجل صفاء ذهني .

المحتوى

أقوال في الكتاب والكاتب

هذا الكتاب هو القصة الكاملة لمسرحية إعادة انتخاب الرئيس كلينتون، التي أثارت الجدل حول حقيقة الأساليب السياسية في أمريكا اليوم، ولم يسبق لأحد قبلها أن وصف بهذه الحيوية الواقعية دور المستشارين السياسيين، والاستطلاعات الإحصائية، والدعايات الإعلانية خلف كواليس المكتب البيضوي.

كان ديك موريس، كما تقول مجلة التايم، المواطن الأكثر نفوذاً في أمريكا، والمخطط السري لاستراتيجيات الرئيس في الانتخابات. تم استدعاؤه لنصح الرئيس الذي جرفه سيل منتصف عام ١٩٩٤، بعد أن سيطر نيوت غينغريتش وبوب دول على الكونغرس، وبدا انتصار الجمهوريين واضحاً مؤكداً في انتخابات الرئاسة عام ١٩٩٦. لكن ذلك لم يحصل، وحقق كلينتون أكبر عودة في تاريخ أمريكا السياسي الحديث. وما كان ذلك ممكناً لولا ديك موريس السياسي الموهوب ذو البصيرة النافذة، الذي ساعد كلينتون على الفوز بمنصب حاكم أركنساس عام ١٩٧٨، وأنقذه من الهزيمة عام ١٩٨٢. كانت علاقتهما كما وصفها كلينتون نفسه «علاقة متميزة فريدة من نوعها في التاريخ الأمريكي».

دار راندوم هاوس للنشر





